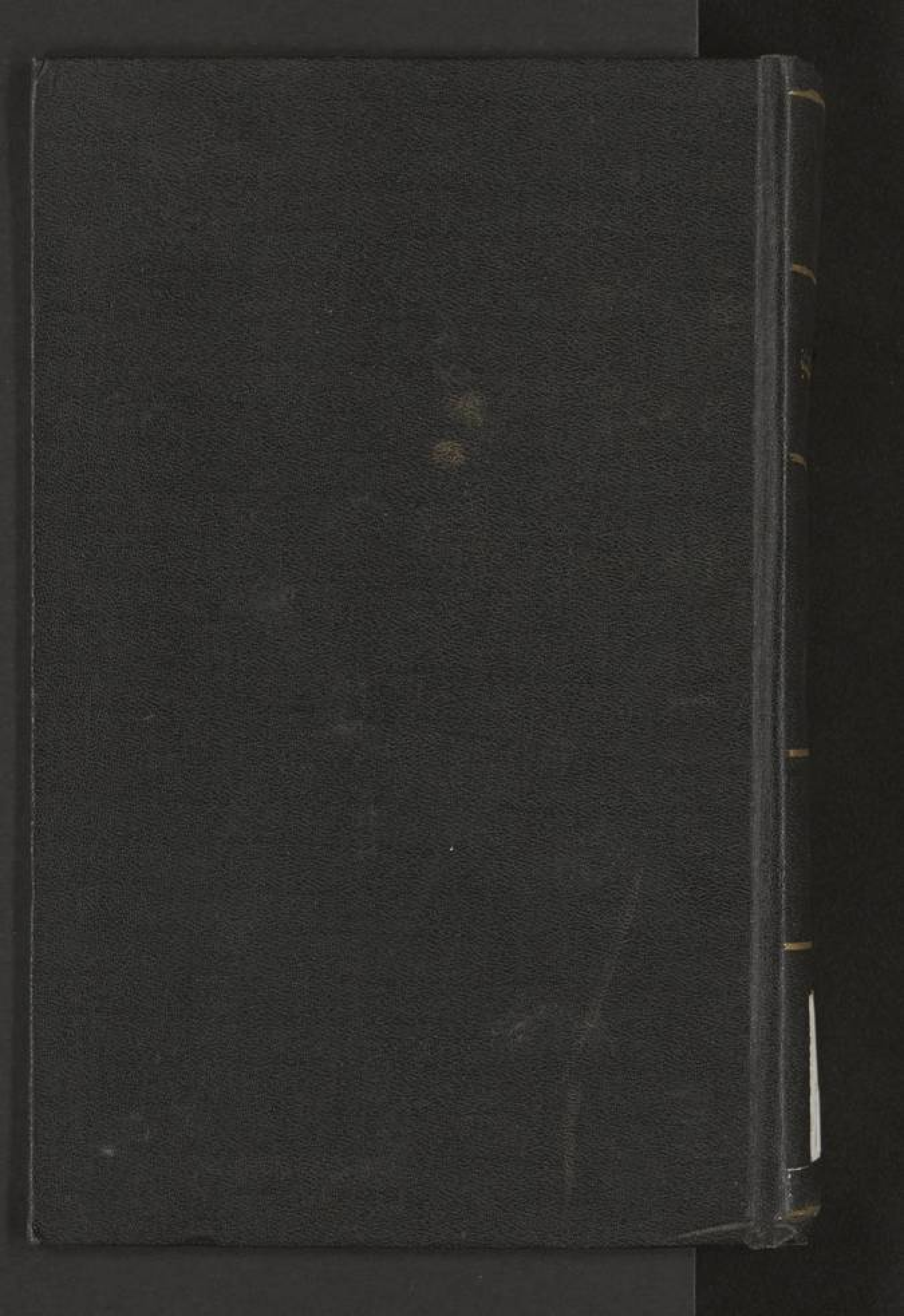
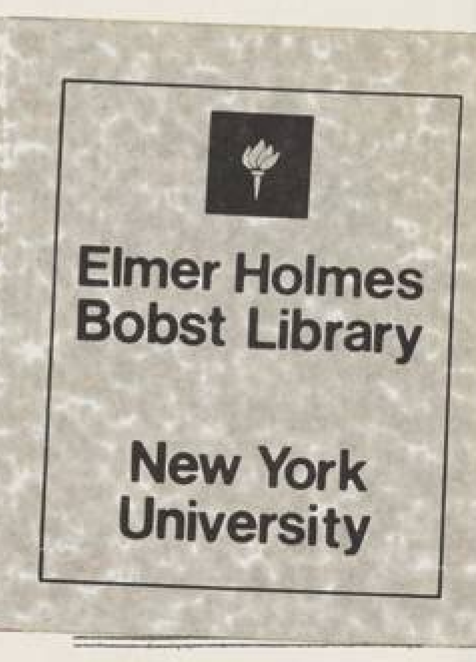
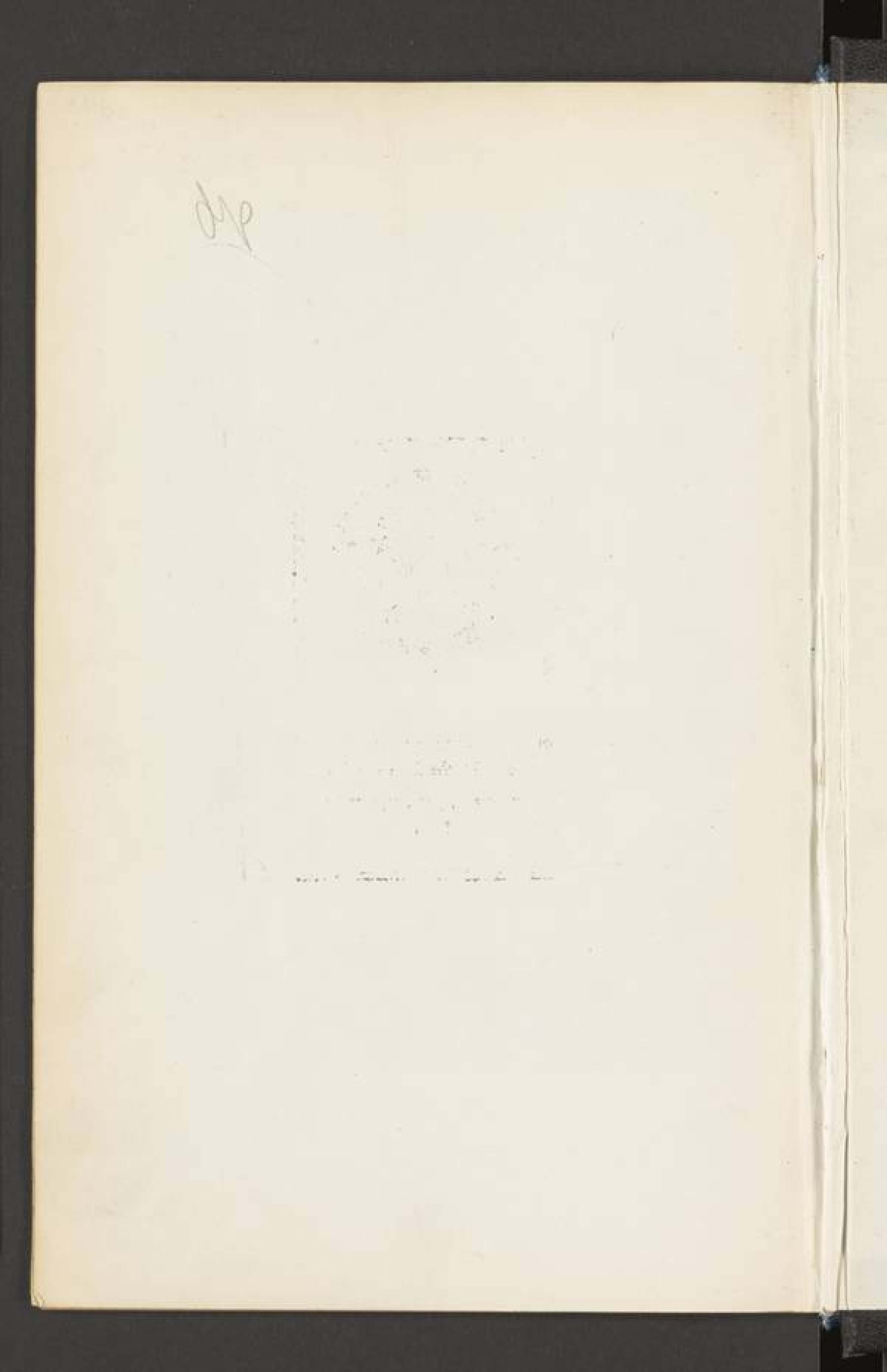
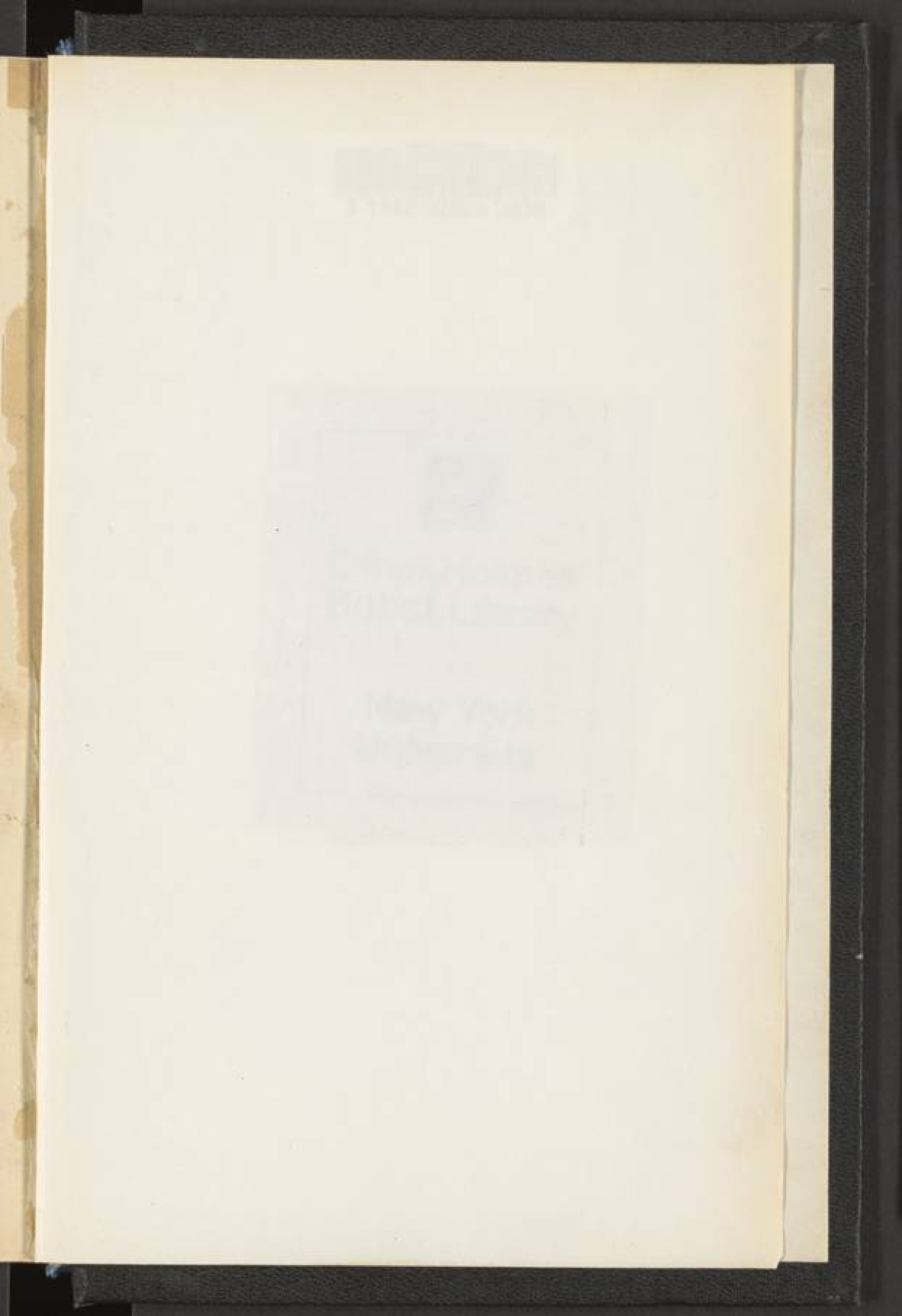



BOBST LIBRARY
3 1142 02824 2678


Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University







رسم المؤلف

« صاحب الدولة حضرة الشيخ خزعل خان سردار الارفع »

(معز السلطنة دام اجلاله آمين)

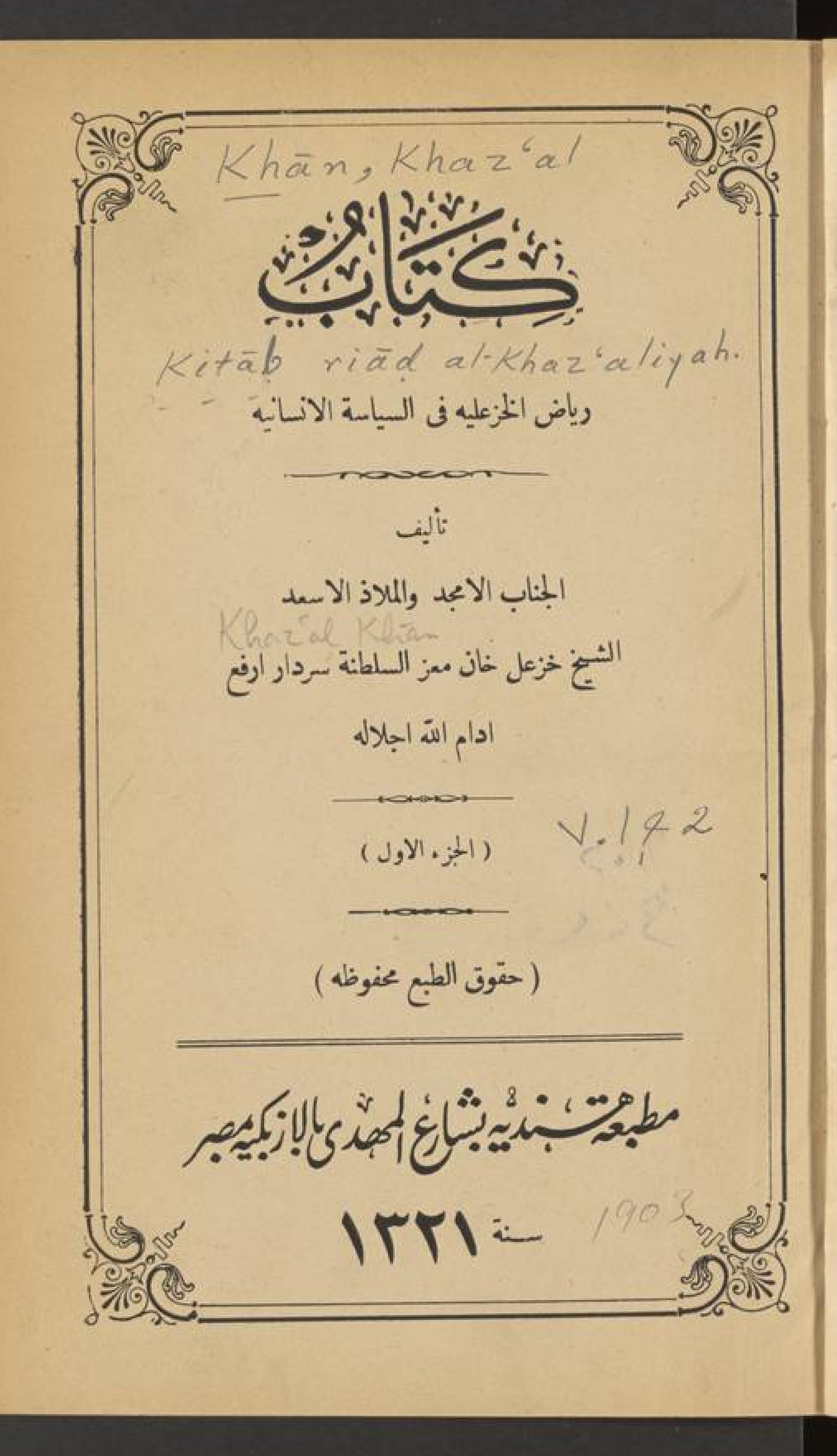
الحمد لله على حصول التوفيق

﴿ وبعده ﴾ فيقول العبد الجاني عبد المجيد البصري البهبهاني حيث اني منذ دخولي في خدمة أعتاب حضرة ذو الدولة والاحتشام المستطاب الأجل الأفخم معز السلطنة سردار الأرفع الشيخ خزعل خان الكعبي العامري أدام الله بقاه لمن ملتجٍ بجماه كنت راغباً ان بحسن الخدمة الصادقة أستجلب رضاه العميم الى ان وفقت لحصول المنى بما اتمنى في سفري الى اوربا ومصر ان اهتم بطبع كتاب رياض الخزعليه في سياسة الانسانيه التي هي من جملة تآليفه الغراء التي ألفها في زمان وجيز بحيث يصعب على غيره القيام بما قام به من حسن الاسلوب وتوضيح المطلوب ولعمري انها من أحسن التأليفات في بابها ينتفع بها كل محب للمعارف والادب لا سيما من كان ممارساً لابناء الشرق خاصة العرب واني أسأله القبول والله المستعان في جميع الاحوال

ايضاح

غير خفي لدى كل من أمعن النظر في الكتب الطبعية والخطية لا بد من وقوع أغلاط وخطأ . ولا بد من ان تكون تلك الاغلاط من المحررين والناسخين أم مرتبي حروف المطابع . اذ لا يمكن وقوع مثل تلك الاغلاط من المؤلفين والمصنفين خصوصاً من كان مثل مؤلف « الرياض الخزعلية » ألا وهو مولانا المستطاب وسيدنا سنيّ الالقاب حضرة صاحب الدولة معز السلطنة سردار أرفع حاكم المحمرّة ومضافاتها وسرحدار عربستان وخوزستان وشط العرب من قبل الدولة العلية الايرانية . شيد الله سرير مملكتها مدى الايام . وكل من يتصفح هذا الكتاب يتضح له سعة اطلاع سيادة المؤلف وتمكنه من شوارد آداب اللغة العربية الشريفة وسعة أفكاره في علم الاخلاق وسياسة الانسانية . ولما كان كتابنا هذا يطبع في قاهرة مصر بالمطبعة العامرة خاصة أمين أفندي هنديه لم يتسنى للمؤلف مراجعته قبل الطبع من حيث البعد الشاسع بين مركزه ومحل الطبع بناء عليه نرجو من المتصفح اللبيب ان يسبل ذيل الستر عما يجده والعذر عند كرام الناس مقبول

عبد المجيد البهباني
البصري الايراني



كتاب

رياض الخزعليه فى السياسة الانسانيه

تأليف

الجناب الامجد والملاذ الاسعد

الشيخ خزعل خان معز السلطنة سردار ارفع

ادام الله اجلاله

(الجزء الاول)

مطبعة هندية بشارع المهدى بالازبكية بمصر

سنة ١٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

ان أحسن ما يوشح به صدر الكلام * وأجمل ما يفصل به عقد النظام * حمد الله الذي جعل اللسان * عنوان عقل الانسان * وآلة تظهر سر الجنان * بفصيح العبارة وصريح البيان * وأحلنا محلة الفهم * وحلانا حلية العلم * وملكنا عقال العقل ثم الصلاة والسلام * على محمد وآله هداة الانام * وبعد فيقول راجى النصر والتأييد * من الملك المجيد * خزعل بن نصرة الملك الحاج جابر خان الكعبي العامري البكرى انى فكرت فى الطباع النفسية وأحكام العقل والسياسات فما وجدت أحداً من المؤمنين جمع اشتاتها * ونظم متفرقاتها * فأحببت أن أجمعها حسب الامكان * في كتاب لم ينسج على منواله قبلى ذو بيان * وأنا أعتذر الى الناظر فيه من كل خلل يراه * او لفظ لا يرضاه فانى طالما خلطت الجد بالهزل * وما اردت بذلك الا المثل * ايضاحا للمقام * وابرازاً للمرام * وسميته الرياض الخزعلية * في السياسة الانسانية * ورتبته على اربعة موارد وكل مورد يشتمل على عدة رياض أما المورد الاول ففى الطباع اللازمة للنفس أما بالاصل أو بالعادة واما المورد الثاني ففى العقل وأحكامه علماً وعملا والمورد الثالث فى السياسة العقليه المتوصل بها الى حفظ موجود * او تحصيل مفقود * والمورد الرابع في السياسة النفسية وأنا أرجو من الله ان يجعله كتابا تقر بمطالعته العيون * وتصدق في انتاجه الظنون * انه على ما يشاء قدير * وبالاجابة جدير *

﴿ المورد الاول ﴾

فى الطباع الخاصة بالانسان اللازمة له ويشتمل ذلك على مقدمة * وثلاثة رياض وخاتمة * أما المقدمة ففى حقيقة النفس من حيث هى وبيان الطباع بقول اجمالى وأما الروض الاول ففيما يختص بالقوة الشهوية من الطباع وأما الروض الثانى ففيما يختص بالقوة الغضبية واما الروض الثالث ففيما يتعلق بالقوة الروحانية واما الخاتمة ففى بيان امرين اما الاول منهما ففيما يعم نفس كل انسان ولا يختص بقوة من القوى الثلاث واما الامر الثانى ففى بيان ما يؤثر في نفس الانسان وهى امور سبعة ستأتى مفصلة ان شاء الله تعالى

المقدمة فى الحديث المشهور من عرف نفسه فقد عرف ربه وقد ذكر المحققون فى معناه وجوهاً وكلها وجيهة الا أن الذي يتعلق به غرضنا منها وجهان الاول أن النفس محركة للبدن ومدبرة له فاذا كان هذا البناء الحقير يحتاج الى مدبر ومحرك فكيف لايحتاج اليه عالم الكون فتكون معرفة النفس من الدلائل الموصلة الى معرفة الرب ولعله قسيم دليل الآفاق فى قوله تعالى فى الآفاق وفى انفسهم الثانى من عرف ان نفسه واحدة وانه لوكان معها غيرها لزم الفساد فى تدبير البدن علم ان المدبر واحد « لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »

﴿ فصل ﴾

اختلفت الفلاسفة فى أن النفس هل هى واحدة بالذات ولها أفعال ثلاثة الفكر والغضب والشهوة أو أنها نفوس ثلاثة كل واحدة مستقلة بنفسها فزعم ارسطاطاليس انها واحدة ولها صفات ثلاثة الفكر والغضب والشهوة والمتعلق للنفس هو القلب ومنه تتعدى القوى النفسانية الى سائر الأعضاء وقال بقراط وأفلاطون وجالينوس بالقول الثانى وزعموا أن لكل واحد من

هذه النفوس الثلاثة عضواً على حده فمعدن النفس المفكره هو الدماغ ومعدن الغضبية هو القلب ومعدن الشهوانية هو الكبد واحتجوا على هذا القول بأنا رأينا النفس الشهوانية حاصلة فى النباتات بدون الغضبية و رأينا الغضبية حاصلة في الحيوان بدون النطقية ثم رأينا هذه الآثار حاصلة في الانسان فعلمنا ان كل واحد من هذه الثلاثة جوهر مستقل بنفسه منفرد بذاته «الجواب» ثبت فى أصول المعقولات أن الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها في آثار متساوية اذا ثبت هذا فنقول من الجائز ان تكون النفس الانسانية مساوية للنفس النباتية في أفعال التغذى والنمو وان تكون مساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وتختص دون سائر النفوس بالنطق فهى واحدة بالذات الا انها مبدأ الافعال الثلاثة واعلم أن القرآن والحديث مطابقان لقول ارسطاطاليس وهو المختار عند اصحابنا

﴿ فصل ﴾

ونعنى بالنفس الجوهر اللطيف الملكوتى الذي يستخدم هذا البدن الجسمانى فى حاجاته مسخراً له تسخير المولى لخدمه وهو ذات الانسان وحقيقته العالمة بالمعلومات وله في هذا البدن جنود جسمانية وجنود روحانية هى القوى قال الله تعالى وفى انفسكم أفلا تبصرون وقد يسمى هذا الجوهر الملكوتى الروح لتوقف حياة البدن عليه وبالقلب لتقلبه في الخواطر ثم النفس توصف باوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الاوامر والنواهى سميت مطمئنة واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للشهوة والغضب سميت لوامة وان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات سميت أمارة وبالاعتبار الاول قال الله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى

ربك راضية مرضية وبالاعتبار الثانى قال سبحانه ولا أقسم بالنفس اللوّامة وبالاعتبار الثالث قال عز ذكره إن النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى

﴿ فصل ﴾

اعلم أن الانسان قد اصطحب في تركيبه وخلقته اربع شوائب فلذلك اجتمعت عليه اربعة انواع من الاوصاف وهى الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى افعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى افعال البهائم من الشر والحرص والشبق وغيره ومن حيث انه فى نفسه امر ربانى كما قال تعالى قل الروح من أمر ربى فانه يدعى لنفسه الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصيص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالربانية والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع ويشتهى الاطلاع على العلوم كلها بل يدعى لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الامور والاستيلاء بالقهر على جميع الخلق من اوصاف الربوبية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث انه يختص عن البهائم بالتميز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التميز في استنباط وجوه الحيل ويتوصل الى الاغراض بالمكر والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه اخلاق الشيطان وكل انسان فيه شوب من هذه الأوصاف الاربعة اعنى الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وسيأتى تفصيلها وتوضيح معانيها باخبار وأمثال وذكر ما يتعلق بكل واحد منهما وأسبابه وثمراته ان شاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾

قد ترشح فى أذهان أهل الدراية والعرفان وثبت عند ذوى العقول

بالدليل والبرهان أن الانسان وان كان نوعاً من الحيوان فهو العالم الاصغر
فان الله خلقه وركب فيه من القوى المختلفة والاخلاق المتناسبة والشهوات
الغالبة ما يقتضي خروجه فى اكثر الاوقات عن الدوام على حالة واحدة
فهو ان رأى تمكنه واستغناءه ظهرت عليه دلائل الطغيان ومخايل التجبر
ودليله من القرآن الكريم قوله تعالى ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى
وان رأى عجزه واحتياجه ظهرت عليه دلائل الضعف والاستكانة
ودليله من التنزيل قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفاً وان رأى كمال يقظته
ورزانة عقله ومواقع تدبيره خدعته ولربما أوقعته افكاره في الوساوس
والتقديرات وألقته ريح وهمه في أودية الخيالات لاستعمال المخادعات
قال الله تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه وان رأى عجزه
عن تكميل مطلوبه وخوفه من فوات مأموله ظهرت عليه مخايل التفتيش
فاسرعت به الى التلبس بالامور قبل وقت تمامها وحملته الى مباشرة الاشياء
قبل ابرامها وبهذا الاعتبار قال سبحانه خلق الانسان من عجل وباعتبار
هذه الاسباب والقوى حصل فيه التضاد فتارة يكون مسروراً وتارةً يكون
محزوناً وتارةً منبسطاً وأخرى منقبضاً وقد أشار أمير المؤمنين فى بعض كلامه
الى كشف الغطاء عما عليه الانسان من اختلاف حالاته وتضاد صفاته على
الوجه الذي شرحناه فقال سلام الله عليه « اعجب ما في الانسان قلبه له مواد
من الحكمة وأضداد من خلافها أن سنح له الرجاء أذله الطمع وان هاج به
الغضب اشتد به الغيظ وان اسعف به الرضا نسى التحفظ وان ناله الخوف
فضحه الجزع وان استفاد مالاً أطغاه الغنى وان عضته فاقة شغله الفقر وان
جهده الجوع اقعده الضعف وان افرط بالشبع كظته البطنة وكل تقصير به

مضر وكل افراط له مفسد، فقد وضح بما ذكره أمير المؤمنين فى هذه الكلمات التى هى جواهر الكلم وغرر الحكم صحة ما ذكرناه من استعداد النفس البشرية لانواع الاخلاق والشيم وقد جعل الله سبحانه لكل صفة منها سبباً يحدثها وموجباً يقتضيها ستقف على تفاصيلها عن قريب

﴿ فصل ﴾

الخلق ملكة مقتضية للنفس سهولة صدور الفعل عنها بلا احتياج تفكر وروية وقد اوضح فى الحكمة النضريه ان الكيفيات النفسانية منها ما كان سريع الزوال ويسمونه حالاً وما كان بطئ الزوال ويسمونه ملكة والملكة كيفية من الكيفيات النفسانية وهى ماهية الخلق واما كميته أعنى سبب وجوده فشيئان احدهما طبيعة والآخر عادة فاما الطبيعة فكما يقتضيه اصل المزاج الشخصى ان يكون مستعداً لحال من الاحوال من سبب يحرك قوة غضبه او خبر مكروه ضعيف يغلب عليه الخوف وأما العادة فكما ان فى بدء الامر بالروية والفكر اختار شغلا من الاشغال وشرع فيه الى ان صار بالممارسة والاطمئنان مألوفاً به وبعد ذلك يصدر عنه بالسهولة بلا روية حتى يصير خلقاً له وحيث انتهى القول في المقدمة الى هذا المقام فلنشرع الآن في بسط الكلام في ذكر الرياض المشتملة على الاخلاق والطباع اللازمة فأقول قد تقدم أن الله سبحانه أودع فى الانسان سوى العقل ثلاث قوى شهوية وغضبية وروحانية ولكل من هذه القوى الثلاثة أخلاق تتعلق بها وتعود اليها اذ هذه القوى الثلاثة أمهات الاخلاق وأصول الطباع والاعراق فلنفصل الكلام فى اخلاق الانسان وطباعه فى ثلاث رياض وخاتمة الاول فيما يعود الى القوة الشهوية البهيمية الثانى فيما يتعلق بالقوة الغضبية الثالث فيما يتفرع على الروحانية

الملكوتية وأما الخاتمة فى الامور العامة من الاخلاق التي لا تختص بأصل من هذه الاصول الثلاثة وفيما يؤثر في الانسان من الامور الخارجة عن ذاته كما ستأتي مفصلة ان شاء الله تعالى

الرّوض الاول فى الاخلاق المتعلقة بالقوة البهيمية الشهوية

﴿ فصل ﴾

مما طبع عليه الانسان حب العاجل وترجيحه على الآجل من غير نظر فى الاصلح اذ النظر فى الاصلح منهما راجع للعقل كما سيأتى قال المتنبي « والنفس مولعة بحب العاجل » وقد اخذ هذا المعنى من قوله تعالى كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ وقوله سبحانه إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا وقوله عز وجل فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

اری رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا * ولا اراهم رضوا بالعيش بالدون

وليس لذلك سبب الاحب العاجل لان ثمرة الدين وان كانت أكثر وأبقى الا أنها مؤجلة وأبصار اكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وهذا هو السبب في التسويف وعدم المبادرة بالعمل للاخرة وذلك لأن من له اخوان غائبان وينتظر قدوم احدهما فى غد وينتظر قدوم الأخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم بعد شهر أو سنة وانما يستعد للذى ينتظر قدومه غداً فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجئ الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها

لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فانه يرى أبدا
لنفسه متسعاً فى تلك السنة فيؤخر العمل وليس ذلك الا من طول الأمل وهو
نتيجة عن ترجيح العاجل ومن ثمرات حب العاجل الاصرار على الذنب وذلك
لأن اللذات الباعثة على الذنوب ناجزة معجلة وهى آخذة بالمخنق وقد قوى
واستولى بسبب الاعتياد والعادة طبيعة خامسة كما يأتى بسط الكلام فيها فى
الخاتمة ثم ان العقاب الموعود به غائب والنفس كما تتأثر بالعاجل من المخوف
لا تتأثر بالآجل منه

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس طول الامل وهو نتيجة عن حب العاجل
كما قدمنا ذكره والامل خلق جبلت النفوس على الفه وطبع يزداد بنقص
بالانسان قال رسول الله صلى الله عليه وآله يشيب المرء وتشيب معه خصلتان
الحرص وطول الأمل فيزداد بنقص الانسان ويقوى بضعفه قال ابو عثمان
النهدى قد أتت علىّ ثلاثون ومائة سنة ما من شئ الا وأجد فيه النقص الا
املى فانى وجدته كما هو او يزيد والفرق ما بين الآمال والأمانى أن الآمال ما
تقيدت باسباب والامانى ما تجردت عنها والناس فى الآمال على مراتب فمنهم
من يأمل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده وراه وهو الذى يحب
الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه واله الشيخ شابٌ في حب طلب
الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر وهذا حال اكثر الناس الا الذين اتقوا
وقليل ما هم ومنهم من يامل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر
لنفسه وجوداً فى عام ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء
للصيف وهؤلاء قليل من الناس ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا

يدخر فى الصيف للشتاء ولا فى الشتاء للصيف وهم اقل ممن قبلهم ومنهم من يرجع امله الى يوم أوليلة فلا يستعد الا لنهاره وليله وهؤلاء أقل القليل ومنهم من لا يجاوز امله ساعة وهؤلاء هم الصديقون وهم الكبريت الاحمر فى هذا الزمان وبالجملة فالامل لا يخلو منـه طبع بشر وان تفاوتت مراتبه فى النفوس وتفاوته على حسب قوة الايمان وضعفه و زيادة العقل ونقصه وللأمل ثمرات ونتائج ثلاثة الاول انه سبب لعمران الدنيا قال رسول الله صلى الله عليه وآله الأمل رحمة لامتى لولا الأمل ما ارضعت والدة ولدها ولاغرس غارس شجراً ومن هنا قال بعض العلماء لو عقل الناس وتصوروا الموت بصورته خربت الدنيا ولولا ان الآخر يرتفق بما انشاه الاول حتى يصير به مستغنياً لافتقر اهل كل عصر الى انشاء مايحتاجون اليه من منازل السكنى واراض الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان مالا خفاء به فلذلك ما ارفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ما ابقاه الاول من عمارتها ويرحم الثالث ماأحدثه الثانى من شعثها لتكون احوالها على الاعصار ملتئمة واامورها على ممر الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولـكانت تنتقل الى من بعده باسوء من ذلك حالا حتى لاينمو بها نبت ولا يمكن فيها لبث الثانية خراب الآخرة قال امير المؤمنين عليه السلام من اطال الامل اساء العمل وسببه التسويف الذي هو نتيجة عن الامل فيبدأ بالسيئة قبل الحسنة اغترارا بالامل فى امهاله ورجاء لتلافى ما سلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهى به الامل الى غاية ولا يفضى به الى نهاية لان الامل هو فى ثانى حال كهو فى اول حال فقد روى عن النبي

صلى الله عليه وعلى آله انه قال من يؤمل ان يعيش غداً فانه يؤمل ان يعيش أبدا ولعمري ان هـذا صحيح لان لـكل يوم غدا فاذاً يغضى به الامل الى الفوت من غير درك ويؤدى به الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصـير الامل خيبة والرجاء اياسا وذكر الحلبي في البحار عن ثعلبه عن معمر قال قلت لابي جعفر عليه السلام مابال الناس يعقلون ولا يعلمون قال ان الله تبارك وتعالى حين خلق آدم جعل اجله بين عينيه وامله خلف ظهره فلما اصاب الخطيئة جعل امله بين عينيه واجله خلف ظهره فمن ثم يعقلون ولا يعلمون ومراد السائل بالعقل عقل المعاش وتدبير امور الدنيا فـكأنه يقول مابال الناس فى امر دنياهم عقلاء لايفوتون شيئاً وفى امر آخرتهم سفهاء لايعلمون شيئاً والجواب هو ان سبب ذلك نسيان الموت وطول الامل فانهما موجبان لترك ماينفع فى المعاد لـكونه منسيا وقصر الهمه على تحصيل المعاش ومرمة امور الدنيا لـكونها نصب عينه دائما الثالثة من ثمراته الحرص على الدنياوحب المـال والبخل به

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفس حب المال طبعاً قال الله تعالى (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حبّاً جماً) وهذا امر ضرورى لا يحتاج للبيان ولحب المال سببان احدهما حب الشهوات العاجلة التى لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم انه يموت بعد يوم ربما انه كان لايبخل بماله اذ القدر الذى يحتاج اليه فى يوم او فى شهر او فى سنة قريب وان كان قصير الامل ولـكن كان له اولاد اقام الولد مقام طول الامل فانه يقدر بقاءهم كبقاءنفسه فيمسك لاجلهم ولذلك قال النبى صلى الله عليه وآله الولد مبخله مجبنة مجهلةفاذا

انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلت الثقة بمجيء الرزق قوى البخل لا محاله بخلاف ما اذا حسن الظن بالله وتيقن الخلف قال امير المؤمنين من ايقن بالخلف جاد بالعطية وهو حق لان من لم يوقن الخلف وتخوف الفقر يضن بالعطية واما من يوقن بالخلف فانه يعلم ان الجود شرف لصاحبه وان الجواد محمود عند الناس فقد وجد الداعى الى السماح ولا صارف له عنه لانه يعلم ان مادته دائمة غير منقطعة فالداعى موجود والصارف مفقود فلاجرم انه يجود بالعطية قال الشاعر

من ظن بالله خيرا جاد مبتدئا * والبخل من سوء ظن المرء بالله

السبب الثانى حب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره اذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه اموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج شيء فى مصالح دنياه واخرته ولا بمداوات نفسه عند المرض بل صار محباً للدراهم عاشقاً لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها فيكنزها تحت الارض وهو يعلم انه يموت فتضيع او يأخذها احد من اعدائه ومع هذا فلا تسمح نفسه بان يأكل او يتصدق منها بحبة واحدة ومثاله مثال رجل عشق شخصا فاحب رسوله لنفسه ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله فان الدراهم رسول يبلغ الى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لان الموصل الى اللذيذ لذيذ ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كأنه محبوب فى نفسه وحب المال مما لا يخلو منه احد وهذا الحب ربما يسكن ويكمن فى النفس وربما يهيج بعروض بعض الاسباب ومن جملة الاسباب المهيجة له مشاهدة النعمة عند الغير فان المحروم منها يثور شوقه اليها حينئذ ويتنبه لالم الحرمان الذى كان غافلا عنه قبل ذلك وهذا من الامور التى لا تدخل تحت الاختيار

وهو الذي لم يعر منه احد ما عدا من عصمه الله من اوليائه الذين اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا لانه من مقتضيات البشرية من قبل الهواجس والخواطر النفسانية وانكار حبه مكابرة وقد يتعدى حب المال والدنيا الى حب اهله بالطبع قال امير المؤمنين في وصف الدنيا وحب الانسان لها الى ان قال فهو عبد لها ولمن فى يديه شيء منها حيث ما زالت زال اليها وحيث ما اقبلت اقبل عليها واخذ هذا المعنى ابن دريد فقال

عبيد ذالمال وان لم يطمعوا * من ماله في نغبة تشفي الصدا
وهم لمن املق اعداء وان * شاركهم فيما افاد وحوى

والى قوله عليه السلام حيث مازالت زال اليها وحيثما اقبلت اقبل عليها نظر الشاعر فقال

ماالناس الا مع الدنيا وصاحبها * فكيف ماانقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون اخا الدنيا فان وثبت * يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

ومن باب قوله فهو عبد لها ولمن فى يديه شيء منها قيل فى امثال العرب من ذهب ماله هان على اهله ويروى ان رجلا من اهل العلم مر به رجل من ارباب الاموال فتحرك له واكرمه وادناه فقيل له بعد ذلك اكانت لك الى هذا حاجة فقال لا والله ولكنى رأيت المال مهيبا ويرى ذالمال مهيباً هذا وقد تقرر فى صدر الفصل ان من ثمرات حب المال ونتائجه الشح عليه والبخل به ان كان موجودا والحرص عليه ان كان مفقوداً وقد اشرنا الى نتيجة البخل ولنذكر له فصلا مستقلا لانه طبع خاص نفسانى وكذلك للحرص فصلا آخر نستوفى بكل فصل منهما اسباب كل واحد منهما وثمراته حسبما تيسر وبالله التوفيق

﴿ فصل ﴾

ومما جبلب عليه النفوس البهيمية البخل والشح لقوله تعالى واحضرت الانفس الشح اي جعلت حاضرة له مطبوعة عليه والشح هو ان يرى الانسان القليل سرفا وما انفقه تلفاً وهو يزيد وينقص وقد ينتهى فى بعض الناس الى ان يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلايتداوى ويشتهى الشهوات فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجاناً لا كلها ومن ثمرات البخل التقاطع والتدابر قال النبى صلى الله عليه وآله اياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم حملهم على ان سفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى اولاده وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله * ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطى بثوب من سخاء فانى * ارى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وقد يحدث عن البخل الاخلاق المذمومة وان كان ذريعه الى كل مذمة وهى الحرص والشره واشباهها كما ستأتيك مفصلة

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس الحرص والشره اما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف في الطلب قال رسول الله صلى الله عليه وآله لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد من العيش ما يغنيه وقال امير المؤمنين منهومان

لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا وفى خبر آخر عنه طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشا وكان يقال الناس رجلان طالب لا يجد وواجد لا يكتفى اخذه الشاعر فقال

وما الناس الا واجدٌ غير قانع * بارزاقه او طالب غير واجد

وقال بعض العلماء لا تخرج نفس من الدنيا الا بحسرات ثلاث انه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما امل ولم يحسن الزاد لما قدم عليه وبالجملة فالشره والحرص من الغرائز اللازمة لاصل الجبلة وقد علمت الفرق بينهما مما قدمنا وهو ان الحرص هو شدة الكدح والطلب والشره هو الاستكثار حيث يوجد الشيء فكان الفرق ان الشره يحركه وجود المرغوب للنفس وحصوله لديها فتشره على الازدياد منه وهذا الخلق من خواص من غلبت عليه القوة البهيمية قال امير المؤمنين عليه السلام احسانك الى الحر يحركه على المكافآت واحسانك الى النذل يحركه على معاودة المسئلة وبه يعلم اللئيم من الكريم ومن الشواهد عليه من القرآن قوله سبحانه وَقَالُوا يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ على طعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا الآية وبالجملة فالشره لا ينفك عنه احد فلو وجد الانسان مائة دينار مثلا على طريق انبعثت من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة الى مائة دينار اخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج الى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً فالآن لما وجد مائة ظن انه صار بها غنياً وقد صار محتاجاً الى تسعمائة ليشترى داراً يعمرها وجارية يستخدمها واثاثاً للبيت ويشترى الثياب الفاخرة وكل شيء من ذلك يستدعى شيئاً آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع فى هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه وما احسن ما قيل

تموت مع المرء حاجاته * وحاجات من عاش لا تنتهى

(ومثله لبعضهم)

متى تنقضى حاجات من ليس بالغاً * الى حاجة حتى تكون له اخرى

(ومثله لآخر)

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجات من عاش لا تنقضى

تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى

وقد علم مما ذكرناه ان الحرص والشره هما الفقر الحاضر لان معنى الفقر هو الاحتياج ولذلك قيل ان الله هو الغنى المطلق فاذا كان الحرص فقرا فالقناعة غنى قيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك ومن امثال العرب ان القنوع الغنى لا كثرة المال والقنوع يستعمل فى موضع القناعة

والعيش لا عيش الا ما قنعت به * قد يكثر المال والانسان مفتقر

وقيل ونعم ما قيل استغناؤك عن الشئ خير من استغنائك به

ما كل ما فوق البسيطة كافياً * فاذا قنعت فكل شئ كاف

وقال امير المؤمنين عليه السلام الزهد ثروة وهذا حق لان الثروة ما استغنى به الانسان عن الناس ولا غنى عنهم كالزهد فى دنياهم فالزهد والقناعة على الحقيقة هما الغنى الاكبر وسئل امير المؤمنين عن قول الله عز وجل فلنحيينه حياة طيبة فقال عليه السلام هى القناعة ولا ريب ان الحياة هى حياة الغنى وقد بينا ان الغنى هو القناعة لانه اذا كان الغنى عدم الحاجة فاغنى الناس اقلهم حاجةً الى الناس وعلى هذا دلّ النبي بقوله صلى الله عليه وآله ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس وقال الشاعر

غنى النفس ما يكفيك عن سد خلة * فان زاد شئ عاد ذاك الغنى فقرا

(وقال آخر)

فمن اشرب اليأس كان الغنى * ومن اشرب الحرص كان الفقيرا

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفس الحرص على الممتنع او على الممنوع وقيل النهى عن الشئ داع الى تعاطيه ومن الامثال المرء حريص على ما منع ويستدل على ذلك بفعل آدم وحواء لما نهيا عن اكل الشجرة وبقول النبي صلى الله عليه وآله لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شئ وقال بعض العلماء اذا ورد من الشارع نهى عن شئ كان داعيا الى تعاطيه وفى الامثال الشيء يرغب فيه حين يمتنع وقال بعض الشعراء

منعت شيئاً فاكثرت الولوع به * احب شيء الى الانسان ما منعا

قال ابو نواس دخلت خربة فرأيت قربة مملوءة ماء مسنده الى حائط فلما توسطت الخربة ابصرت نصرانيافوقه سقاء فلما رآنى قام عن النصرانى واخذ قربته وهرب فقام النصرانى غير وجل يشد سراويله فى وجهى وهو يقول يا ابانواس اياك ان تلوم احدا على مثل هـذا الحال فان لومك له اغراء قال فاخذت من كلامه هذا المعنى وهو قولى شعر

دع عنك لومى فان اللوم اغراء * وداونى بالتى كانت هى الداء

وذكر ابن الجوزى فى كتابه الاذكياء قال قدمت على عمر بن الخطاب حلل من اليمن فقسمها بين الناس فرآى فيها حلة رديئة فقال كيف اصنع بهذه اذا اعطيتها احدا لم يقبلها اذا رآى هذا العيب فيها قال فاخذها فطواها فجعلها تحت مجلسه واخرج طرفها ووضع الحلل بين يديه فجعل يقسم بين الناس قال فدخل الزبير بن العوام وهو على تلك الحال فجعل ينظر الى تلك الحلة فقال

له ما هذه الحلة قال عمر دع هذه عنك قال ماهيه ماهيه ماشأنها قال دعها عنك قال فاعطينها قال انك لا ترضاها قال بلى قد رضيتها فلما توثق منه واشترط عليه ان يقبلها ولا يردها رمى بها اليه فلما اخذها الزبير ونظر اليها اذا هى رديئة فقال لااريدها فقال عمر ايهات قد فرغت منها فاجازها عليه وابى ان يقبلها منه وعلى كل حال فالحرص على الممنوع من الطباع اللازمة للنفس وفى النساء اشد وكان يقال ما نهيت امرأة عن شىء الا اتته وفى هذا المعنى يقول طفيل الغنوى

ان النساء كأشجار نبتن معاً * هن المرار وبعض المر مأكول

ان النساء متى ينهين عن خلق * فانه واجب لا بد مفعول

ولهذا الحكم علة فى العلم العقلى وذلك ان النفس عندهم غنية بذاتها مكتفية بنفسها غير محتاجة الى شئ خارج عنها وانما عرضت لها الحاجة والفقر لما قارنت الهيولا وذلك ان أمر الهيولى بالضد من امر النفس فى الفقر والحاجة ولما كان الانسان مركباً من النفس والهيولى عرض له الشوق الى تحصيل العلوم والمقتنيات لانتفاعه بهما والتذاذه بحصولهما فاما العلوم فانه يحصلها فى شبيه بالخزانة له يرجع اليه متى شاء ويستخرج منه ما أراد اعنى القوى النفسانية التى هى محل الصور والمعانى على ما هو مذكور فى موضعه وأما القينات والمحسوسات فانه يروم منها مثل ما يروم من تلك وان يودعها خزانة محوسة خارجة عن ذاته وانما حرص على ما منع لان الانسان انما يطلب ما ليس عنده لأن تحصيل الحاصل محال والطلب انما يتوجه الى المعدوم لا الى الموجود فاذا حصله سكن وعلم انه قد ادّخره ومتى رجع اليه وجده ان كان مما يبقى بالذات ويتشوق الى شئ آخر فاما الشئ المبذول الرخيص والموجود كثير فانما يرغب عنه لانه

معلوم انه اذا التمس وجد اما الغالى فانما يقدر عليه فى الاحيان ويصيبه الواحد بعد الواحد وكل انسان يتمنى ان يكون ذلك الواحد ليصيبه ويحصل له ما لا يحصل لغيره قال امير المؤمنين عليه السلام من وثق بماء لم يظمأ يريد عليه السلام لم يظمأ الظمأ الذى يكون عند عدم الثقة بالماء وليس يريد النفى المطلق لان الواثق بالماء قد يظمأ ولكن لا يكون عطشه على حد العطش الكائن عند عدم الماء وعدم الوثوق به و بوجوده وهذا كقول ابى الطيب المتنبى

وما صبابة مشتاقٍ بلا امل * من اللقاء كمشتاق بلا امل

والصائم فى شهر رمضان يصبح جائعاً تنازعه نفسه الى الغذاء وفى ايام الفطر لا يجد تلك المنازعه فى مثل ذلك الوقت قال امير المؤمنين عليه السلام اذا كثرت المقدرة قلت الشهوة والسبب فيه هو ما قدمناه ولان قليل القدرة على ما يشتهيه لا يزال مستشعراً لخوف فواته عند حصوله فيكون ذلك الخوف معاقباً للذته به فلا يزال فى قلبه دغدغة نفسانية تحمله على مشتهاه وتبعث شهوته عليه اما اذا تمت قدرته عليه فانه يأمن فوته وبحسب ذلك يضعف الباعث للشهوة فتقل الحاجة اليه وشهوته له قيل لاعرابى كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لى اذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد ومن امثال العرب تمنى اشهى لك اى مع التأنى يقع الحرث وهذا المثل يضرب لمن يظهر الدلال و يغلى رخيصه وأصله ان رجلا قال لامرأته اذا غازلتك يكون أشهى اى ألذ والمبذول رخيص تقل الشهوة عنده

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس التهاون بالكثير المبذول العام ولذا ترى الناس لا يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة

ولا يجدون لذة بالنظر الى زينة السماء وهى احسن من كل بستان لهم فى الدنيا يجتهدون فى عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها وحينئذ فالشئ النفيس لا يعرف الا بامور ثلاثة اما بانفراده وقلته او بفراقه او بمقاسات ضده وعلى الاول قال بعضهم

خلت الديار فسدّت غير مسوّد * ومن الشقاء تفرّدى بالسودد

وقال جامع ديوان الشريف المرتضى سمعت بعض مشايخنا يقول ليس لشعر المرتضى عيب الا كون الرضى اخاه فانه اذا أفرد بشعره كان اشعر اهل زمانه وعلى الثانى قال آخر

ترى الفتى ينكر فضل الفتى * ما دام حياً فاذا ما ذهب

لجّ به الحرص على نكتة * يكتبها عنه بماء الذهب

دخل بعض الوعاظ على هرون الرشيد فقال له عظنى فقال يا أمير المؤمنين انك لو منعت شربة ماء عند عطشك بم كنت تشتريها قال بنصف ملكى قال لو حبست عنك عند خروجها قال بالنصف الآخر فقال لا يغرنك ملك قيمته شربة ماء وأنت يا هذا كم تتناول فى يومك وليلتك مما يزيد على ملك الرشيد ومع هذا لا تعرف قدره وليس ذلك الا لبذله لديك وعمومه على غيرك وعليك وعلى الثالث قيل

ستذكرنى اذا جرّبت غيرى * وتعلم اننى نعم الصديق

(ومثله)

ستذكرنى قومى اذا جدّ جدّهم * وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقيل فى الامثال ما تعرف خيرى حتى تجرب غيرى قال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاسات ضدها فاخذه ابو تمام فقال

والحادثات وان أصابك بؤسها * فهو الذى أنباك كيف نعيمها

(وقال الرضى)

ولا بد من ذلة للفتى * تعرفه كيف قدر النعم
فحسن حال العلا بعد حال الخضوع * وطيب الغنى بعد حال العدم

كان رجل من الاولياء سمى نفسه كذاباً لبيت قاله وهو قوله

فليس لى فى سواك حظ * فكيف ما شئت فامتحنى

فحصر منه البول على أثر هذا القول فتضجر فسمى نفسه كذاباً ويروى مثل ذلك عن عمر بن الفارض لما قال

وبما شئت فى هواك اختبرنى * فاختبارى ما كان فيه رضاكا

فابتلى بحصر البول فكان يعدو الى مكتب الصبيان متضجراً ويقول لهم ادعوا لعمكم الكذاب

(ولبعضهم)

ومن لم يذق للهجر طعماً فانه * اذا ذاق طعم الوصل لم يدر ما الوصل

وبالجمله فالشئ النفيس لا يعرف الا بمقاسات ضده ولا تستبان النعمه الا بمقاسات النقمه او بعد فراقها والا فعمومها وبذلها مقتض لجهل النفوس بقدرها ولذلك ترى اكثر الناس لا يشكرون الله سبحانه على بعض النعم التى أنعم بها عليهم وما ذاك الا لانها عامه مبذولة لهم فى جميع احوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً بها فلا يعدونها نعمه ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمخنقهم لحظه حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو جلسوا فى بيت حمام فيه هواء او فى بئر فيه هواء حار ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً فان ابتلى واحد منهم بشئ من ذلك ثم نجى ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صار

شكرهم موقوفاً على ان تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الاحوال والنعمة فى جميع الأحوال اولا بان تشكرنى بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة البصر الا ان تعمى عينه فعند ذلك لو اعيد بصره احس به وشكره وعدّ نعمه ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثله مثل العبد السوء حقه ان يضرب دائماً حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منةً فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لايشكرون الله الا على المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقله وينسون جميع نعم الله عليهم كما شكى بعضهم فقره الى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له ايسرك انك اعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الفاً فقال لا فقال ايسرك انك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال اما تستحى ان تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً وهذا الجهل عام لجميع نفوس بنى آدم الا الاقل منهم قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور وليس ذاك الا لتركيب أصل الجبله على هذا أسأل الله سبحانه أن يفيض علينا صيب كرمه ولا يحوجنا الى معرفة نعمه

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفس الملال بعروض أحد أسباب أربعة الاوّل البذل والامكان قالوا ان نكح الحب فسد أنشد بن وكيع

قالوا عشقت كثيراً ليته ممتنعاً * فقلت هيهات عنكم غاب مطلبه
لو جاد هان وقلت الجود غايته * وانما عزّ لما عزّ مطلبه

وحكى أبو بكر الصولى ان المهدى اشترى جارية فاشتد شغفه بها وكانت به أشغف وكانت تجافاه كثيراً فدس اليها من عرف مافى نفسها فقالت أخاف ان يملنى ويدعنى فاموت فانا أمنع نفسى بعض لذتها لاعيش فقال المهدى

ظفرت بالقلب منى * غادة مثل الهلال
كلما صح لها ودّي * جاءت باعتلال
لاتحب الهجر منى * والتنائى عن وصالى
بل لانها على حبي لها * خوف الملال

السبب الثانى كثرة الشئ ومنه قيل كثرة التعاهد سبب التباعد وقلة الزياره امان من الملاله وقال بعض العقلاء من الشعراء

إنى كثرت عليه فى زيارته * فمل والشئ مملول اذا كثرا
ورابنى منه انى لا أزال أرى * في طرفه قصراً عنى اذا نظرا

(وقال آخر)

أقلل زيارتك الحبيب * تكون كالثوب استجده
ان الصديق يمل من * ان لا يزال يراك عنده

وكان للبخارى وهوأبو السعادات صاحب انقطع عنه أياماً فعتبه بكتاب فكتب اليه صاحبه هذين البيتين وهما

لاتزر من تحب في كل شهر * غير يوم ولا تزده
فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم * ثم لا تنظر العيون اليه

السبب الثالث من أسباب الملال شدة القرب ولازمه ان البعد موجب للعزة والمحبة قال اكثم بن صيفى تباعدوا فى الديار تقاربوا فى المودّه ومن أمثال العرب الهوى من الثوي يعنى ان البعد يورث الهوى ومنه يتولد فان الانسان اذا كان

يرى فى كل يوم استحقر ومل ولذلك قيل اغترب تجدد ومنه رب ثاو يمل منه الثواء وقيل لعطاء بن مصعب كيف غلبت على البرامكه وكان عندهم من هو آدب منك قال كنت بعيد الدار منهم غريب الاسم عظيم الكبر صغير الجرم كثير النواء فقربنى اليهم تبعدى منهم ورغبهم فى رغبتى عنهم وليس للقرباء ظرافة الغرباء السبب الرابع طول العهد والمعاشره فان طول المعاشره سبب واضح فى الملال قال زهير

لعمرك والامور مغيرات * وفى طول المعاشره التقالى

لقد باليت مظعن أم أوفى * ولكن أم أوفى لاتبالى

قيل ان بعض العلماء تخاصم مع زوجته فعزم على طلاقها فقالت له اذكر طول الصحبه فقال والله مالك ذنب سوى ذلك (ظريفة) قيل لرجل لاى شئ تكثر من التزويج والزوجة الاولى اذا كثرت معاشرتها تكون كالصاحب لايفارق فقال نعم ان نفس الشهوه شبهت بالكلب والكلب لايطمع الا فى أخذ الغريب ولاله طمع فى الصاحب والصديق ومن هنا قيل السقنقور هو المرأة الغريبه وقالوا فى الامثال لكل جديد لذة ولما حضرت الحطيئه الوفاة اكتنفه أهله وبنو عمه فقيل له يا حطئ اوص فقال اخبروا أهل ضابئ بن الحرث انه كان شاعراً مفلقاً حيث يقول

لكل جديد لذة غير أننى * وجدت جديد الموت غير لذيذ

(وقال بعض العقلاء)

اذا تحدثت فى قوم لتؤنسهم * من الحديث بما يمضى وما يأتى

فلا تعاود حديثاً ان طبعهم * موكل بمعادات المعادات

﴿ فصل ﴾

ولكل نفس انسانية قوتان احداهما آخذة والاخرى معطية وكل واحدة منهما تتشوق الى فعلها الخاص بها ولولا ان الله سبحانه وكل المعطية باظهار ما عندها لما أتاك بالاخبار من لم تزود وهي السبب في افشاء السر بالطبع كما يأتي توضيحه في باب الكتمان وأما القوة الآخذة فظاهره . نقل صاحب مجمع الامثال ان يزيد بن مروان ضاع له جمل فنادى عليه الا فمن وجده فهو له ولكن يقول لي فقيل له فما الفائدة في النداء عليه فقال لذة الوجدان وحلاوة العطية ونقل عن حماد الراوية قال كنت محباً للوليد بن عبد الملك فلما تولى أخوه يزيد الخلافة هربت خوفاً منه الى الكوفة ومكثت بها فبينما أنا يوماً في المسجد الاعظم واذ برسول محمد بن يوسف الثقفي يدعوني فمضيت ودخلت عليه فقال لي أجب الخليفة ودفع لي كيساً فيه ألف دينار وقال لي هذه نفقة لعيالك وكان بالباب نجيبان فركبت ودخلت دمشق في اليوم الثامن واستأذن لي الرسول فدخلت عليه فاذا هو جالس في دار مبلطه بالرخام الأحمر وفيها سرادق خز أحمر في وسط قبة حمراء من خز أحمر وفرشها وكل ما فيها أحمر وعلى رأسه جاريتان عليهما ثياب حمر بيد واحدة منهما أبريق وفي احدى يدي الاخرى نبيذ أحمر وفي اليد الاخرى نبيذ أبيض فلما واجهته سلمت عليه بالخلافة فرد على السلام وقال لي ادن يا حماد أتدري فيما بعثت اليك قلت لا يا أمير المؤمنين قال في بيت شعر ذهب عني اوله قلت من أي عروض أو قافيه قال لا أدري الا انه بيت فيه ابريق فقلت في نفسي ان لم تعن الرواية يوماً فالآن ففكرت ساعة ثم قلت نعم يا أمير المؤمنين لعله قول التبع اليماني أو عدى بن زيد العبادى

بكر العاذلون في وضح الصبح * يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيك يا ابن بنت عبيد الله * والقلب عندكم مرهوق
لست أدرى اذا كثر العذل فيها * أعدو يلومنى أم صديق
ودعوا بالصبوح يوماً فجابت * قينة فى يمينها ابريق

فصاح يزيد وقال هو والله الشعر بعينه وشرب وقال يا جارية اسقيه فسقتنى كاساً أذهب ثلث عقلى ثم استعاد الشعر وشرب وقال اسقيه فسقتنى فقلت يا أمير المؤمنين ذهب ثلثا عقلى فقال سل حاجتك قبل ان يذهب الثلث الآخر فقلت احدى هاتين الجاريتين فقال هما لك بما لهما وما عليهما ومائة ألف تحسن بها سيرك ثم ناولتنى الجارية كاساً فشربتها ونهضت وقد ذهب عقلى فعدل بى الى دار الضيافة فانتبهت آخر الليل واذا بشمع يوقد والجاريتان يرصان الامتعة والبغال تحمل ما لهما من أثاث وغيره ولما أصبحت قبضت المال وانصرفت وأنا أيسر أهل الكوفة أقول انظر أيها الأديب الى هذه الاعجوبة وما هى الا ثمرة ما ذكرناه من ان لذة الوجدان لها أثر عظيم فى النفس ثم اعلم ان رواج سوق الادب على حسب ملائمة الطبع اذ يقول هذا الشعر حيث كان ملائما لغرضه (تتمة) وتلذذ النفس بوجدان الشئ على قدر حاجتها له والانسان كلما كثر جوعه كان التلذذ بالاكل أتم وكلما كان عهده بالوقاع أطول كان التلذذ به أيضاً أكمل ألا ترى ان من حبس بالحمام الحار وغلب عليه استيلاء الحرارة فاذا فتح الباب ودخل عليه نسيم بارد فان ذلك الانسان يستلذ ذلك الهواء استلذاذاً فى الغاية وما ذلك الا من شدة حاجته الى البرودة وترى الفقير يستلذ خبز الشعير ويتمتع منه أشد من استلذاذ الغنى بطيبات الطعام وكذلك فى النكاح وغيره فتفاوت اللذات بالاستغناء عن الشئ والحاجة اليه والعجز عنه والقدرة عليه قالوا والجوع يرضى الاسود بالجيف ويحبنى نقل

حكاية اتفقت لى مع أبناء الاجلاء المترفين المترفهين فى طريق كربلاء وذلك
انى قصدت زيارة الحسين عليه السلام مع جملة من الاخوان مشاة وكان
ذلك الشخص معنا فنزلنا يوماً ضيوفاً على بعض الاعراب الذين فى الطريق
لنفاد متاعنا فقدم لنا صاحب البيت خبزاً من دخن على ما هى عادتهم فاكلنا
وامتنع صاحبنا من الاكل اذ لم يأكل عمره من ذلك الخبز ولا رآه قبل ذلك
فعلمت من امتناعه من الاكل عدم جوعه فرفعت له شيئاً من الخبز من حيث
لا يعلم فلما مضه الجوع قال لى الآن لو حصل من ذلك الخبز شئ لأكلت
فاخرجته له فلما اكله قلت له كيف تجده قال ما أكلت عمرى شيئاً ألذ منه
وليس ذلك الا لجوعه وشدة حاجته الى الاكل ومن هنا قيل خير الادام
الجوع هذا ما تيسر لنا جمعه من الاخلاق المتعلقة بالقوة الشهوية ويتلوه
ذكر ما يتعلق بالقوة الغضبية

﴿ الروض الثانى ﴾

(فى القوة الغضبية وما يتفرع عليها من الطباع النفسية)

﴿ فصل ﴾

اعلم ان الله تعالى لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموتان فافتقر الى
قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله طبيعة الغضب من
النار وغرزها فى الانسان وعجنها بطينته فتى صد عن غرض من أغراضه
ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت به ثوراناً يغلى به دم القلب
وينتشر فى العروق ويرتفع الى أعالى البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى
يغلى فى القدر فلذلك ينصب فى الوجه فيحمر الوجه والعين وانما ينبسط الدم
اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فان صدر الغضب على من فوقه

وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزناً ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر و يصفر ويضطرب وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثوراتها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفى والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به ثم ان الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال أما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذى يقال فيه انه لاحمية له ولذلك قال بعض العلماء من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله بالشده والحميه فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال لنبيه صلى الله عليه وآله (جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) الآية وانما الغلظه والشده من آثار قوة الغضب والحميه وأما الأفراط فهو ان تغلب هذه الصفه حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للأنسان معها بصيرة ونظر وفكرة واختيار بل يصير فى صورة المضطر وسبب غلبته امور غريزية وامور اعتياديه فرب انسان هو بالفطره مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته فى الفطره صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لان الغضب من النار كما قال النبي صلى الله عليه وآله وانما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته واما الاسباب الاعتياديه فهو ان يخالط قوماً يتشجعون بتشفى الغيظ وطاعة الغضب فيقول الواحد منهم انا الذى لا اصبر على المكر والمحال ولا احمل من احد امراً ومعناه لاعقل لى ثم يذكره

فى معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ فى نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم والطباع سراقه كما يأتى بيانه فى الخاتمه فيقوى به الغضب والناس فى الغضب اربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضاء بطئ الوقود بطئ الخمود وبعضهم بطئ الوقود سريع الخمود وهو الاحمد مالم ينته الى فتور الحميه والغيره وبعضهم سريع الوقود بطئ الخمود وهذا هو شرهم وفى الخبر المؤمن سريع الغضب سريع الرضا وربما يشتد الغضب فى بعض الناس فيتعدى الى معادن الحسن فتظلم عينه حتى لايرى بعينه وتسود عليه الدنيا باسرها وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التى بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار فى الكهف فينشق وتنهد أعاليه على اسافله وذلك لابطال النار مافى جوانبه من القوة الممسكه الجامعه لاجزائه ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر تغير اللون وشدة الرعدفى الأطراف وخروج الافعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الاشداق وتحمر الاحداق وتنقلب المفاخر وتستحيل الخلقه ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه اعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن اولاً ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانياً فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمره فهذا أثره فى الجسد واما أثره فى اللسان فاطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ويستحى منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ واما أثره على الاعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه اوفاته بسبب وعجز عن التشفى رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه

ويلطم نفسه وقد يضرب يده على الارض وقد يكسر المائده اذا غضب عليها او يشتم البهيمه والجمادات ويقول الى متى منكى يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلاً حتى ربما رفسته دابه فيرفس الدابه ويقابلها بذلك وربما عض القفل اذا تعسر عليه وربما كسر القلم اذا تعلقت به شعره من الدواه واجتهد فى إزالتها فلم تزل ويحكى عن بعض ملوك اليونان المتقدمين انه كان يغضب على البحر اذا هاج واضطرب وتأخرت سفنه عن النفوذ فيه فيقسم بمعبوده ليطرحن الجبال فيه حتى يصير أرضاً ويقف بنفسه على البحر ويهدده بذلك ويزجره زجراً عنيفاً حتى تدرأ وداجه ويشتد احمرار وجهه ومنهم من لا يسكن غضبه حتى يصب عليه ماء بارداً وحتى يبول واما اثره فى القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماته بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك السر والاستهزاء واما الاسباب المهيجه للغضب فهى الزهو والعجب والمزاح والهزء والهزل والتعيير والمماراة والمضاده والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وحينئذ فلنذكر بعض اثاره وما يتفرع عليه من الاخلاق كالحقد والحسد والشماته واشباهها

﴿ فصل ﴾

اعلم ان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ومعنى الحقد ان يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وان يدوم ذلك ويبقى فالحقد ثمرة الغضب واما ثمرات الحقد فثمانيه الهجران والمصارمه والاستصغار والاعراض والايذاء باللسان كالغيبه والنميمه والكذب وافشاء السر والايذاء باليد كالضرب وما يؤلم البدن ومنع الحقوق من قضاء دين او صلة رحم أو رد مظلمه والحسد والشماته فهذه ثمانيه ثمرات للحقد والذى

يتعلق بغرضنا منها ذكر الحقدوالشماته لان المورد مورد الاخلاق وبقيه الثمانية فليس كتابنا هذا موضعاً لها فاما الفرق بين الحسد والشماتة فان الحسد المساءة بمسار الغير والشماته السرور بمساءته ولنذكر لكل واحد فصلاً

﴿ فصل ﴾

مما جبلت عليه النفوس البشريه الشماته وهى السرور بمساءة الغير وقد بينا الفرق بينه وبين الحسد اذ الحسد بخلاف ذلك وهو المساءة بمسار الغير والى هذا اشار القرآن (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) وهذا الفرح شماته والحسد والشماتة يتلازمان في الجماء والشماتة خلق غريزى فى النفوس لايخلو منه أحد الا من نزهه الله تعالى عنه من اوليائه والشماته كما تقع بصدق المساآت الكليه كذلك تحصل بالمساآت الجزئيه وهنا ظريفه وهى انه مرّ سكران بمؤذن ردىء الحنجره فجلد به الارض وجعل يدوس بطنه فاجتمع عليه الناس فقال ما ابالى برداءة صوته ولكن شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين ومن الامثال مصائب قوم عند قوم فوائد حتى ان أهل الجنة ليتضاعف فرحهم بما يرونه من آلام أهل النار ويعدّون ذلك نعمة عليهم اللهم لا تبتلنا بالشماتة ونجنا مما يوجبها

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس الحسد وهو من نتائج الحقدوالحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم ان للحسد من الفروع الذميمة مالايكاد يحصى وهو خلق لازم لكل نفس بشرية قال رجل لبعض العلماء هل يحسد المؤمن قال ما انساك بنى يعقوب ثم تلا قوله تعالى (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ

اُطرَحُوهُ أَرضاً يَخلُ لَكُمْ وَجهُ أَبِيكُمْ) فلما كرهوا حب أبيهم له ساءهم ذلك واحبوا زواله عنه ثم فعلوا ما فعلوا واعلم انه لا حسد الا على نعمه فاذا أنعم الله على أحد بنعمه فللغير فيه حالتان اما ان يكره تلك النعمة ويحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً فالحسد كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه الحالة الثانية ان لا يحب زوالها ولا يكره وجودها ودوامها ولكن يشتهي لنفسه مثلها وهذه الحالة تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة ويوضع احد اللفظين موضع الآخر ولا حجر فى الاسامى بعد فهم المعانى فهذه حقيقة الحسد والفرق بينه وبين الغبطة وكثير ما يلازم الحسد العداوة والحقد وقد يكون بلا حقد فهو اصل لازم فى النفوس واليه أشار القرآن بقوله تعالى (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ) واعلم ان للانسان فى الحسد مراتب منها ان يحب زوال النعمة اليه لرغبته فى تلك النعمه مثل رغبته فى دار حسنه او امرأه جميله او ولايه نافذه او سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمه لا زوالها عن غيره ومكروهه فقد النعمه لا تنعم غيره بها وهذه المرتبه ادنى مراتب الحسد ومنها ان يحب زوال النعمه عن غيره وان كان ذلك لا ينتقل اليه وهذا غاية الخبث قال صاحب كتاب الأدب فى نكت العرب اجتمع ثلاثه نفر من المعدودين فى الحسد فقال أحدهم لصاحبه ما بلغ من حسدك قال ما اشتهيت ان أفعل باحد خيراً قط حسدا له فقال الثانى أنت رجل صالح أنا ما اشتهيت أن يفعل بى خيراً قط حسداً له وتذاكر قوم من ظرفاء البصرة الحسد فقال رجل منهم ان الناس ربما حسدوا على الصلب فانكروا ذلك ثم جاءهم بعد أيام فقال ان الخليفه قد أمر

بصلب الاحنف ومالك بن مسمع وحمدان الحجام فقالوا ان هذا الخبيث يصلب
مع هـذين الرئيسين فقال ألم أقل لكم ان النـاس يحسدون على الصلب قال
المأمون ما حسدت أحداً قط كحسدى لابى دلف على قول الشاعر فيه

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلفٍ * وَلت الدنيا على أثره

وروى أبو الفرج الاصبهانى عن عبدوس بن ابى دلفٍ قال حدثنى أبى قال قال
لى المأمون ياقاسم أنت الذى يقول فيك على بن جبله انما الدنيا أبو دلف الى
آخر البيتين فقلت مسرعاً وما ينفعنى قوله يا أمير المؤمنين مع قوله

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم * سواى فانى فى مديحك أكذب

ومع قول بكر بن البطاح فىّ

أبا دلف ان الفقير بعينه * لمن يرتجى جدوى يديك ويأمله
أرى لك باباً مغلقاً متمنعاً * اذا فتحوه عنك فالناس داخله
كأنك طبل هايل الصوت معجب * خلياً من الخيرات تعسا مداخله

قال فلما انصرف قال المأمون لمن حوله لله دره حفظ هجاء نفسه حتى انتفع به
عندى واطفأ به لهيب المنافسه ﴿ تمه ﴾ وللحسد أسباب كثيرة تزيد على ثمانيه
أسباب فلنشرح بعضاً منها وهو ما له مدخل فى المورد فمن أسبابه العداوة
والبغضاء وهو أشد أسباب الحسد فانه من أذاه شخص بسبب من الاسباب
وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ابغضه قلبه وغضب عليه ورسخ فى نفسه
الحقد والحقـد يقتضى التشفى والانتقام فان عجز المبغض عن ان يتشفى بنفسه
أحب أن يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى
فمهما اصابت عدوه بليه فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها

لاجله ومهما اصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لامنزلة
له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه بل أنعم عليه وبالجمله فالحسد
يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقى ان لا يبغى وان يكره ذلك
من نفسه فاما أن يبغض انساناً ثم يستوى عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن
وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة اذ قال الله تعالى
(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا
بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) الآية
وكذلك قال تعالى (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ
أَكْبَرُ) والحسد بسبب البغض ربما يفضى الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر
فى ازالة النعمه بالحيل والسعايه وهتك الستر وما يجرى مجراه ومن أسباب الحسد
استشعار النفس فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد فان
كل واحد يحسد صاحبه فى كل نعمةٍ تكون عوناً له فى الانفراد بمقصوده ومن
هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجيه وتحاسد الاخوة
فى التزاحم على نيل المرتبه فى قلب الابوين للتوصل به الى مقاصد الكرامه
والمال وكذلك تحاسد التلامذه لاستاذ واحد على نيل المرتبه من قلب الاستاذ
وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزله من قلبه للتوصل به الى المال والجاه
وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على اهل بلده واحده اذا كان غرضهما نيل
المال بالقبول عندهم وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهه
محصورين اذ يطلب كل واحد منزلةً فى قلوبهم للتوصل بهم الى اغراض له
وكذلك تحاسد اهل الصنايع والمكاسب المتقاربين اذ كل واحد يريد المنفعة

لنفسه ومن هذا السبب قيل القاص لايحب القاص وقيل لبعض العقلاء مابال فلان يبغضك قال لانه شقيق بالنسب وجارى فى البلد وشريكى فى الصناعه فذكر أشد دواعى الحسد ومن أسباب الحسد خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد كثيرا من الناس اذا وصف عند الواحد منهم حسن حال آخر أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه واذا وصف له اضطراب أمور الناس وأدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبداً يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته وهذاليس له سبب ظاهر الاخبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة وما أحسن ما قيل

أن يحسدوك على علاك فانما ✻ متسافل الدرجات يحسد من علا

والحسد لا يكون الا على نعمه قال النبى صلى الله عليه وآله استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقال صلى الله عليه وآله ان لكل نعمة اعداء فقيل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله

﴿ بيان السبب ﴾ فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوه وبنى العم والاقارب وتاكده وقلته فى غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التى ذكرناها وانما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الاسباب فيهم وتتظاهر وهذه الاسباب انما تكثر بين قوم تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الاغراض فاذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الاغراض نفر طبعه عنه وابغضه وثبت الحقد فى قلبه فعندذلك يريد أن يستحقره ويكافئه على مخالفته له بغرضه ويكره تمكنه من النعمة التى توصله الى اغراضه وتترادف جملة من هذه

الاسباب اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسده وكذلك فى محلتين نعم اذا تجاورا فى مسكن او سوق او مدرسة توارداً على مقاصد تتناقض فيها اغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد البزاز الا بسبب أخر سوى الاجتماع فى الحرفة ويحسد الرجل أخاه وابن عمه اكثر مما يحسد الاجانب والمرأة تحسد ضرتها اكثر مما تحسد أم الزوج لان مقصد البزاز غير مقصد الاسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد اذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها الا بكثرة الزبون وانما ينازعه فيه بزاز اخراذ حريف البزاز لا يطلبه الاسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له اكثر من مزاحمة البعيد عنه الى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار اكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لان مقصده أن يذكر بالشجاعه ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصله والعالم لا يزاحمه على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ للواعظ اكثر من حسده للفقيه والطبيب لان التزاحم بينهما على مقصود واحد اخص فاصل هذه المحاسدات العداوة وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهما نعم من اشتد حرصه على الجاه واحب الصيت فى جميع اطراف العالم بما هو فيه فانه يحسد كل من هو فى العالم وان بعد ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين اما الآخره فلا ضيق فيها ولا تزاحم وانما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى و رسوله واهل بيت رسوله لم يحسد غيره

اذا عرف ذلك أيضاً لان المعرفة لاتضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه الف الف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمرة الافاده والاستفاده فلذلك لايكون بين علماء الدين محاسده لان مقصدهم معرفة الله تعالى وهى بحر واسع لاضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى نعم اذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال اعيان واجسام اذا وقعت فى يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر او نقص عنه لامحاله فيكون ذلك سبباً لحاسده والفرق بين العلم والمال ان المال لايحل فى يد مالم يرتحل عن اليد الأخرى والعلم فى قلب العالم مستقر ويحل فى قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه فان فرض كثرة فى العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) فقد عرفت انه لاحسد الا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لاترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة السموات ويتحاسدون على رؤية البساتين التى هى جزء يسير من جملة الارض وكل الارض لاوزن لها بالاضافة الى السماء ولكن السماء لسعة الاقطار وافيه بجميع الابصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً فعليك ان كنت بصيراً أن تطلب نعمة لازحمة فيها ولذة لاكدر لها ولا يوجد ذلك فى الدنيا الا فى معرفة الله تعالى فان كنت لاتشتاق الى معرفة الله ولم تجد لذتها فانت فى ذلك معذور اذ العنين لايشتاق الى لذة الوقاع والصبي لا يشتاق الى لذة الملك ﴿ تنبيه ﴾ ربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال أبو تمام الطائى

واذا أراد الله نشر فضيلةٍ * طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتغال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعما على المحسود

كان رجل فى بغداد واعظا وكان له قبول عند الناس فحسده بعض الوعاظ فارسل اليه رجلاً وهو جالس على كرسيه فساره بكلام قبيح ظناً منه ان يقابله ويرد عليه مثل قوله فى الظاهر فينظر الناس اليه بالعين الناقصة حيث يقابل الفحش الباطن بالفحش الظاهر فقال الواعظ ما أحوج الذى أرسلك الى الحلم قبل العلم ولم يرد على ذلك فزاد قبوله عند الناس ومثل هذا ما نقله لى بعض الثقات ان رجلاً من العلويين من اهل النجف وفد على الميرزا حسين قلى خان المعروف بابى غداره فاعطاه خمسمائة درهم فحسده بعض الحاضرين من الوافدين وقال للميرزا ان هذا السيد لا يستحق ما اعطيته لانه يشرب الخمر فقال ياسبحان الله ما علمت بذلك اذاً هذا يحتاج الى اكثر مما أعطيناه فلا تكفيه الخمسمائة ثم أمر له بخمسمائة اخرى فكان الحسد موجباً لزيادة عطائه

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس حب المماثلة والمشاكلة اى مساواة غيرها فى السراء ومماثلة غيرها لها فى الضراء وهو نوع من انواع الحسد والمنافسة واليه الاشارة بقوله تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) وقوله تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا) الآية وعن مولانا امير المؤمنين قال ما زلت مظلوماً مذ كنت ان كان عقيل ليرمد فكان يقول لا تذرونى حتى تذروا اخى علياً فاضطجع واذروا ما بى رمد ومن هذا قال بعض العلماء ان من آفات البذل والعطاء ان ايصال

الخير الى الكل محال فلا بد من ايصاله الى البعض دون البعض وذلك يصير سبباً للعداوة فان الذى لم يوصل اليه شئ يقول له لم منعتنى خيرك واوصلته الى غيرى ولذلك انشد بعضهم

عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه * يكون من الطعام او الشراب

ومن هذا ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه وهو ان تاجراً دخل مدينة الرسول ومعه حمل من الخمر السود فكسدت عليه ولم يجد لها طالباً فضاق صدره فقيل له ما ينفقها لك الا مسكين الدارمى وهو من مجيدى الشعراء الموصوفين بالخلاعة والظرف فقصده فوجده قد تنزه وانقطع فى المسجد فقص عليه قصته فقال وكيف اعمل وانا قد تركت الشعر وعكفت على هذه فقال له التاجر انى رجل غريب وليس لى بضاعة سوى هذا الحمل ثم تضرع اليه فخرج من المسجد ولبس لباسه الاول وعمل هذين البيتين وشهرهما وهما

قل للمليحة فى الخمار الاسود * ماذا صنعت بزاهد متعبد
قد كان شمر للصلاة رداءه * حتى وقفت له بباب المسجد

فشاع بين الناس ان مسكين الدارمى قد رجع الى ما كان عليه واحب امرأة ذات خمار اسود فلم يبق فى المدينة ظريفة الا لبست خماراً اسود فباع التاجر حمله باضعاف اضعاف ثمنه فكثر طالبه فلما فرغ عاد مسكين الدارمى الى تعبده وانقطاعه فى المسجد ومن هذا ما حكى ان رجلاً كردياً كان له زوجتان وكان مواظباً على المستحبات فى كل يوم جمعة يغتسل غسل الجمعة ثم انه تركه فقال له رجل من اصحابه لم تركت غسل الجمعة قال من هذين القحبتين هذه تقول انه يغتسل من هذه وكذلك الاخرى فكل واحدة تظن انى اغتسل من الاخرى فهذه تؤذينى فلا اقدر ان احمل

اذيتين لاجل مستحب واحد فتركته خوفاً منهما ومن حب المماثلة ما حكى ان
رجلا كانت لحيته تضرب الى البياض وكان له امرأتان شابه ومسنه فكان اذا
حضر عند الشابه نتفت من لحيته الشعر الابيض واذا حضر عند المسنه نتفت
من لحيته الشعر الاسود فما مضى له شهر الا وقد نتفتا لحيته وسيأتى تمام
الكلام على هذا الخلق فى باب الغيرة وفى باب ميل الجنس لجنسه فى الخاتمة
ومن هذا قال أمير المؤمنين عليه السلام لا تصحب المائق فانه يزين لك فعله
ويود ان تكون مثله والمايق هو الشديد الحمق وانما يزين فعله لانه يعتقد فعله
صواباً بحمقه فيزينه لك كما يزين العاقل فعله لصاحبه ليقتدى به وبالجملة فحب
المماثلة والاقتداء وحب المساواة طبع لازم لسائر النفوس وكذلك بغض المخالفة

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس الغيرة وهو ألم حاصل عند استشعار المشاركة فى المحبوب
وهو خلق لازم يهيج عند عروض السبب المذكور وهو استشعار المشاركة والنفس
كما تحب اشتراكها لغيرها فيما اختص به المرغوب وتبغض اختصاصها بالمبغوض
وتحب مساواة غيرها لها فيه كما قدمنا وكذلك تحب اختصاصها بمحبوبها وتنفر
عن المشاركة فيه ومن هذا قيل اذا خدمت رئيساً فلا تلبس مثل ثوبه ولا
تركب مثل مركوبه ولا تستخدم كخدمه فعساك تسلم منه ذكر ابن الجوزى فى
تاريخه لما تزوجت ليلى جاء المجنون الى زوجها وهو يصطلى فى يوم شات
فوقف وقال

بربك هل ضممت اليك ليلى * قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى * رفيف الاقحوانة فى نداها

فقال اللهم اذ حلفتنى فنعم فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما

فارقها حتى سقط مغشياً عليه فسقط لحمه مع لحم راحتيه (واعلم) ان وجود الغيرة فى النساء اشد من وجودها فى الرجال لغلبة القوة الشهوية ذكر ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء عن خالد بن صفوان التيمى انه دخل على الخليفة السفاح وليس عنده احد فقال يا أمير المؤمنين انى والله ما زلت منذ قلدك الله الخلافة أطلب ان أصير الى مثل هذا الموقف فى الخلوة فان رأى أمير المؤمنين ان يأمر بامساك الباب حتى أفرغ فليفعل فامر الحاجب بذلك فقال يا أمير المؤمنين انى فكرت وأجلت الفكر فلم أر أحداً له قدرة واتساع على الاستمتاع بالنساء مثلك ولا أضيق فيهن عيشاً منك انك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فاقتصرت عليها فان مرضت مرضت وان غابت غبت وان عركت عركت وحرمت نفسك يا أمير المؤمنين التلذذ باستطراق الجوارى ومعرفة اختلاف احوالهن والتلذذ بما يشتهى منهن فان منهن الطويلة التى تشتهى لجسمها والبيضاء التى تحب لرؤيتها والسمراء اللعثاء والصفراء الذهبية ومولدات المدينة والطايف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر وبنات سائر الملوك وما يشتهى من نضارتهن ونضافتهن وتخلل خالد بلسانه فاطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوقه اليهن فلما فرغ من كلامه قال له السفاح ويحك ملأت مسامعى بما شغل خاطرى والله ماسلك مسامعى كلام أحسن من هذا فأعد علىّ كلامك فقد وقع منى موقعاً فاعاد عليه خالد كلامه باحسن مما ابتداه ثم قال له انصرف فانصرف وبقى السفاح مفكراً فدخلت عليه أم سلمة زوجته وكان قد حلف لها ان لا يتخذ عليها زوجة ولا سرية ووفى لها بذلك فلما رأته على تلك الحالة قالت له انى لانكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث شئ تكرهه او اتاك خبر ارتعت له قال لا فلم تزل به حتى اخبرها بمقالة خالد فقالت وما قلت لابن الفاعلة فقال

لها اينصحنى وتشتميه نخرجت الى مواليها وأمرتهم بضرب خالد قال خالد
نخرجت من الدار مسروراً بما الفيت السفاح ولم اشك فى الصلة فبينما انا
واقف اذ أقبلوا يسألون عنى لحققت انه امر لى بالجائزة فقلت لهم ها أناذا فاستبق
الىّ احدهم بخشبة فغمزت بزدونى فلحقنى وضرب كفل البرذون فركضت ففتهم
واستخفيت فى منزلى اياماً ووقع فى قلبي انى أوتيت من أم سلمة فبينما انا ذات
يوم جالس فى المجلس فلم اشعر الا بقوم قد هجموا علىّ وقالوا أجب أمير المؤمنين
فسيق الى قلبي انه الموت فقلت انا لله وانا اليه راجعون والله لم ار دم شيخ
اضيع من دمى فركبت الى دار السفاح فاصبته جالساً ولحظت فى المجلس
بيتاً عليه ستور رقاق وسمعت حساً من خلف الستر فاجلسنى ثم قال ويحك
ياخالد وصفت لامير المؤمنين صفة فاعدها فقلت يا أمير المؤمنين اعلمتك ان
العرب انما اشتقت اسم الضرتين من الضرر وان احداً لا يكون عنده من
النساء اكثر من واحدة الا كان فى ضرر وتنغيص فقال السفاح لم يكن هذا
كلامك أولا قلت بلى يا امير المؤمنين واخبرتك ان الاربع من النساء شر
مجموع لصاحبهن يشينه ويهرمنه قال والله ما سمعت هذا منك اولا قلت بلى
والله يا أمير المؤمنين قال اتكذبنى قلت افتقتلنى نعم والله يا أمير المؤمنين انه
ابكار الاماء رجال الا انهن ليس لهن خصى قال خالد فسمعت ضحكاً من
خلف الستر ثم قلت والله يا امير المؤمنين واخبرتك ان عندك ريحانة قريش
وأنت تطمح بعينيك الى النساء والجوارى فقيل لى من وراء الستر صدقت
والله يا عماه بهذا حدثته ولكنه غير حديثك ونطق بما فى خاطره عن لسانك
فقال له السفاح قاتلك الله قال خالد فانسللت وخرجت فبعثت الىّ أم
سلمة بعشرة آلاف درهم وبزدون وتخت ثياب وفى هذه الحكاية تنبيه على

أمور منها وجوب المداراه وحفظ اللسان والنظر فى الاصلح ومنها ما ذكرناه من ان وجود الغيرة فى نفوس النساء أشد وأعظم من وجودها فى نفوس الرجال وقد يتجاوزن النساء فى الغيرة حداً يخرجن به عن سياسة العقل والشرع الى ما لا يحل وذلك لضعف عقولهن كما حكى ان رجلاً غاب عن زوجته فبلغها انه اشترى جاريه فاشترت هى غلامين فبلغ الخبر زوجها فجاء مبادراً وقال لها ماهذا قالت أوما علمت ان الرحاء الى بغلين أحوج من البغل الى رحوين بع الجارية حتى أبيع الغلامين ففعل ذلك وأقبح من ذلك ما حكى عن البهاء زهير الشاعر انه كان يتبرّد فى دهليز داره أيام الحر وكان قبيح الصورة فأتت جارية سوداء فوقفت تلمح النظر اليه ثم مضت فلم يكن باسرع من ان أقبلت ومعها امرأة حسناء كانها دارة القمر فلما أتته قالت أتأذن لى فى الدخول فقال والله على الرحب والسعة فدخلت وقالت هل لك فىّ فقال اى والله ومن يرد مثلك فلما قضى منها وطره قامت لتذهب فعرض عليها شيئاً من الذهب والقماش فأبت أن تأخذ منه شيئاً فقال يا سيدتى متى يكون اللقاء فقالت ان عاد عدنا فقال جعلت فداك من قالت زوجى قام فى غفلة منى الى جارية سوداء عندى فى غاية الدمامة والقبح فواقعها فآليت لا اكافئه على صنعة الا برجل أسود مثلها فارسلت ثقتى هذه تعنى الجارية التى جاءت تبصر لى رجلاً قبيحاً مثل تلك الجارية السوداء فطافت القاهرة فلم تجد من يشبه الجارية غيرك فأتيت اليك لاكافئ زوجى وان عاد عدت عليك ثم انصرفت ومن هذا قال امير المؤمنين غيرة الرجل ايمان وغيرة المرأة كفرٌ وذلك لغلبة الشهوة

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفوس الحميـة ومعناها المحافظة على الحرمة من التهمة وهى

أنواع ثلاثة حميـة النسبة وحمية العرض وحمية الدين اما حمية النسب فهى من خواص العرب وسأتلو عليك أخبارا تشهد بذلك منها ما ذكره الشيخ عبد الحميد بن أبى الحديد فى شرح النهج عن ابى عبيدة قال كان الفرزدق لا ينشـد بين يدى الخلفاء والامراء الا قاعداً فدخل على سليمان بن عبدالملك يوماً من الايام فانشده شعراً فخر فيه بآبائه وقال من جملته

تالله ما حملت من ناقة رجلا * مثلى اذ الريح لفتنى على الكورى

فقال سليمان هذا المدح لى ام لك قال لى ولك يا امير المؤمنين فغضب سليمان وقال قم فاتمم ولا تنشد بعـده الا قائماً فقال الفرزدق لا والله او يسقط الى الارض اكثرى شعراً فقال سليمان ويلى على الاحمق بن الفاعله لا يكنى وارتفع صوته فسمع الضوضاء بالباب فقال سليمان ما هذا قيل له بنو تميم على الباب قالوا لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا فى مقابض سيوفنا قال فلينشد قاعداً وروى المرزبانى قال كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائى ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم ثم صحب عليا عليه السلام وشهد معه صفين وكان من رجاله المشهورين ثم وفد على معاوية فى ايام استقامة الامور له وكان معاوية يثبته معرفة بعينه فدخل عليه فى جملة الناس فلما انتهى اليه استنسبه فانتسب له فقال انت صاحب ليلة الهرير قال نعم قال والله ما تخلو مسامعى من رجزك تلك الليـلة وقد علا صوتك اصوات الناس وانت تقول

شدوا فداء لكم أمى وأب * فانما الأمر لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب * تميه للعلياء سادات العرب

ليس بموصوم اذا نص النسب * اول من صلى وصام واقترب

قال نعم انا قائلها قال فلماذا قلتها قال لانا كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب

الخلافة ولا فضيلة تصير الى التقدمة الا وهى مجموعة له كان اول الناس سلماً
واكثرهم علماً وارجحهم حلماً فات الجياد فلا يشق غباره يستولى على الامد فلا
يخاف عثاره واوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره * وسلك القصد فلا تدرس
اثاره * فلما ابتلانا الله تعالى بافتقاده * وحول الامر الى من يشاء من عباده *
دخلنا فى جملة المسلمين فلم ننزع يداً عن طاعه * ولم نصدع صفات جماعه *
على ان لك منّا ما ظهر * وقلوبنا بيد الله وهو املك بها منك فاقبل صفونا *
واعرض عن كدرنا * ولا تثر كامن الاحقاد * فان النار تقدح بالزناد * قال
معاوية وانك لتهددنى يا أخا طى بأوباش العراق * اهل النفاق * ومعدن الشقاق *
فقال يا معاوية هم الذين اشرقوك بالريق * وحبسوك فى المضيق * وذادوك
عن سنن الطريق * حتى لذت منهم بالمصاحف ودعوت اليها من صدق بها
وكذبت * وآمن بمنزلها وكفرت * وعرف من تأويلها ما انكرت * فغضب
معاوية وادار طرفه فيمن حوله فاذا جلهم من مصر ونفر قليل من اليمن فقال
يا أيها الشقى الخائن انى لأخال ان هذا آخر كلام تفوه به وكان عفير بن سيف
ابن ذى يزن بباب معاوية فعرف موقف الطائى ومراد معاوية فخاف عليه
فهجم عليهم الدار واقبل على اليمانية فقال شاهت الوجوه ذلا وقلا * وجدعاً وفلا *
كثم الله هذه الانف كثما مرعياً ثم التفت الى معاويه فقال اى والله يامعاوية
ما اقول قولى هذا حباً لاهل العراق ولا جنوحاً اليهم ولكن الحفيظة تذهب
الغضب لقد رأيتك بالامس خاطبت اخا ربيعة يعنى صعصعة بن صوحان وهو
اعظم جرماً عندك من هـذا واذكى لقلبك واقدح فى صفاتك * واجد فى
عداوتك * واشد انتصاراً فى حربك ثم أثبته وسرحته وانت الآن مجمع على قتل
هذا زعمت استصغاراً لجماعتنا * بانا لا نمر ولا نحلى ولعمرى لو وكلتك ابناء

قحطان الى قومك لكان جدك العاثر * وذكرك الداثر * وحدك المفلول * وعرشك المثلول * فاربع على ظلعك واطونا على بلالتنا * ليسهل لك حزننا * ويتطامن لك شاردنا * فانا لا نرام بوقع الضيم * ولا نتلظ جرع الخسف ولا نمر بثمار الفتن ولا ندر على الغضب فقال معاوية الغضب شيطان * فاربع نفسك أيها الانسان * فانا لم نأت الى صاحبك مكروهاً ولم نرتكب منه مغضباً ولم ننتهك منه محرماً فدونك فانه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره فاخذ عفير بيد الوليد وخرج به الى منزله وقال له والله لتؤبن باكثر مما آب به معدى من معاوية وجمع من بدمشق من اليمانية وفرض على كل رجل دينارين فى عطائه فبلغت أربعين الفاً فتعجلها من بيت المال ودفعها الى الوليد وردّه الى العراق ومن هذا ماذكره الميدانى فى مجمع الامثال ان العيار بن عبدالله الضبي وفد هو وجيش بن داف وضرار بن عمرو الضيدان على النعمان بن المنذر فاكرمهم وأجرى عليهم نزلاً وكان العيار رجلا بطالاً يقول الشعر ويضحك الملوك وكان قدقال من جملة ماقال

لا أذبح النازى الشبوب ولا * أسلخ يوم المقامة العنقا

وكان النعمان بادياً فارسل اليهم بجزر فيهن تيس فا كلوهن غير التيس فقال ضرار للعيار وهو احدثهم سناً انه ليس عندنا من يسلخ هذا التيس فلو ذبحته وكفيتنا ذلك قال العيار ما أبالى ان أفعل فذبح التيس وسلخه فانطلق ضرار الى النعمان فقال أبيت اللعن ان العيار يسلخ تيساً قال ابعد ما قال قال نعم فارسل اليه النعمان فوجده الرسول يسلخ تيساً فاتى به فقال له أين قولك لا أذبح النازى الشبوب وانشده البيت فخجل العيار وضحك النعمان منه ساعة وعرف العيار ان ضراراً هو الذى أخبر النعمان بما صنع وكان النعمان يجلس بالمحاجرة فى ظل سرادقه وكان كسى ضراراً حلةً من حلله وكان ضرار شيخاً اعرج بادناً كثير

اللحم قال فسكت العيار حتى كان ساعة النعمان التى يجلس فيها فى سرادقه ويؤتى بطعامه عمد العيار الى حلة ضرار فلبسها ثم خرج يتعارج حتى اذا كان بحيال النعمان كشف عنه تخرى فقال النعمان ما لضرار قاتله الله لايهابنى عند طعامى فغضب على ضرار فحلف ضرار ما فعل قال ولكنى أرى ان العيار فعل هذا من أجل انى ذكرت سلحه التيس فوقع بينهما كلام حتى تشاتما عند النعمان فلما كان بعد ذلك وقع بين ضرار وبين ابى مرحب أخى بنى يربوع ما وقع تناول أبو مرحب ضراراً عند النعمان والعيار شاهد فشتم العيار ابا مرحب وزجره فقال النعمان أتشتم ابا مرحب فى ضرار وقد سمعتك تقول له شراً مما قال له أبو مرحب فقال أبيت اللعن واسعدك الهداء آكل لحمى ولا ادعه لآكل فارسلها مثلاً فقال النعمان لا يملك مولى لمولى نصراً فارسلها مثلاً ومثل ذلك ماروى ان ابن أبى جهل لما أسلم دخل المدينة فجعل يمر فى الطريق فيقول الناس هذا ابن أبى جهل فذكر ذلك لام سلمة فذكرته لرسول الله فخطب الناس وقال لاتوذوا الاحياء بسب الاموات واما حمية العرض فلا تختص باحد دون أحد من الناس بل هى عامة شاملة وقد يعبر عنها بالغيرة وهذه الحمية وجودها فى النفوس على ثلاث مراتب كما أشرنا الى ذلك فى اول الروض من افراط وتفريط واعتدال اما الافراط فهو ان تغلب على الانسان حتى يتنغص عليه عيشه او يرمى عرضه بالسوء من أجله قال النبى صلى الله عليه وآله ان من الغيرة غيرة يبغضها الله عزّ وجل وهى غيرة الرجل على اهله من غير ريبة وقال امير المؤمنين لا تكثر الغيرة على اهلك فترمى بالسوء من اجلك وقال مسكين الدارمى

من لم يزل متهما عرسه * مناصباً فيها لرجم الظنون

يوشك ان يغريها بالذى * يخاف او ينصبها للعيون

وذلك لما قدمناه من ان الانسان حريص على ما منع والنساء فى ذلك اشد واما التفريط فهو ان تفقد هذه القوة او تضعف فى بعض الناس حتى لا يبالى بعرضه وما يصنع به قال رجل لامرأته نمضى اليوم الى منزل ابيك وكان بينهما قريب من الفرسخ فقالت له امرأته ربما لقينا لص فى الطريق فقال اقتله بعصاى هذه فلما توسط الطريق واذا بفتى يمشى وخلفه سخلة فنظر الى تلك المرأة فقال لزوجها بخشونه امسك عليك السخلة فامسكها وأخذ الشاب المرأة الى موضع يراها فواقعها فلما فرغ أخذ سخلته ومضى فقالت المرأة لزوجها ألم تقل انى اقتل بعصاى من ارادنا بسوء فكيف أمسكت عن الرجل وأنت تراه معى فقال ماربح على هو كان معك وانا كنت انيك سخلته وقد قطعت أسفلها من النيك اما سمعتيها تمعمع فقالت نم قال ثم أحرقت كبده بكلمة أخرى وذلك انى ناديتـه من خلفه يا فتى تفكّر لنفسك بزوجةٍ فما كل يوم يحصل لك فرج تغدو عليه وتروح وقد تفقد الحمية فى بعض النفوس حتى لا يهتم الا بنفسه قال ابن الاعرابى خرج بعض الاعراب فى عام مسغبة يلتمس شيئاً يرجع به الى أهله فلقى من أطعمه واسقاه فنسى من تخلّف ثم جاء بعد حين شبعان ريان فقالت امرأته له

كفى لامةً والله عالم غيبه * وعندك من علم الكرام يقين

بان يخرج المختار من عند أهله * سغاباً ويأتى الاهل وهو بطين

وان امرءًا يرضى بطعم ومشربٍ * ويترك جياعاً خلفه لمهين

واما حمية الدين وهى النوع الثالث من أنواع الحمية فلا تختص بالعرب أيضاً ولعلها فى غيرهم أشد وقد يعبر عنها بالعصبية ولكن الفرق بينهما ظاهر وكل

منهما من ثمرات الغضب للدين الا انه ان اختص بالمدافعه او التشييد لآثار الدين وتجرد عن الطعن والتنقيص فى الغير فهو حمية والا فهو عصبية اما الحمية فمحمودة ولا يخلو منها طبع بشر وان اختلفت مراتبها فى النفوس قال بعضهم رأيت ببغداد رجلاً مكفوف البصر يسأل الناس ويقول من أعطانى فلساً سقاه الله تعالى على يد معاوية قال فتبعته حتى خلوت به فلطمته لطمةً اوجعته وقلت عزلت أمير المؤمنين عن الحوض يافاسق فقال أتريد ان اسقيهم على يد امير المؤمنين من حوض الكوثر بفلس واحد لا والله لا كان ذلك أبداً وانا لم اذكر لمعاوية حوضاً فى كلامى فليسقهم من حيث شاء ويعجبنى ذكر ما نقله الشيخ محمد طه نجف دام ظله عن الشيخ جواد نجف قدس الله سره ان بعض من كان مشهوراً بالسرقة فى طهران سرق ليلة دار رجل يهودى ولم يعلم بان صاحب الدار يهودى فلما أصبح الصبح واشتهر أمر السرقة علم السارق ان المسروق كان يهودياً فجاء اليه كالمستخبر وقال كم كانت سرقتك قال كذا مقدار قال اكتبها بورقة حتى أتجسس عليها لعلى اطلع على من سرقها فلما كتبها ولم ير دعوى زياده على ما أخذ منه قال له امض معى الى الحاكم فاخذه الى الحاكم واحضر له السرقة وسلمها له فقال له الحاكم ويلك تأخذ مال المسلمين وترد مال اليهود قال السارق نعم ان المسلمين اخوة واذا كان يوم القيامة أصلح بينهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالألتماس من هذا والتوسل لهذا ولكن يشق على أن يطأطئ رسول الله رأسه بين يدى موسى بن عمران حين يقول له ان رجلاً من أصحابك سرق دار رجل من اصحابى ويكيدنى حين يأخذ رسول الله بيدى اليه ويخضع له ويقول قل لصاحبك يعفو عن هذا القرنان واما العصبية فلا يخلو أيضاً منها طبع بشر فكل ذى دين يتعصب لدينه اذ كل احد

يرى انه على حق ويعتقد ان غيره على ضلال فيتعصب له . ذكر بن الجوزى فى كتاب الاذكياء انه كان ببغداد فى طرف الجسر سائلان اعميان احدهما يتوسل بامير المؤمنين عليه السلام والآخر بمعاوية ويتعصب لهما الناس فيجمعان القطع واذا انصرفا اقتسما ما حصل لهما وكانا يحتالان على الناس بذلك وقيل للبهلول أيما افضل ابو بكر او على فقال أما وانا فى كنده فعلى واذا كنت فى بنى ضبه فابو بكر وكنده بالكوفة من شيعة أمير المؤمنين وبنو ضبه نصب وهم أصحاب الجمل وفى الأثر ان رجلاً قال للبهلول انه ورد فى الحديث الصحيح ان يوم القيامة توضع اعمال الشيخين رضى الله عنهم فى كفة من الميزان واعمال سائر الخلق فى كفة أخرى فترجح اعمال الشيخين على اعمال الخلائق فقال البهلول ان كان هذا الحديث صحيحاً فالعيب فى الميزان وكان صاحب ربيع يتشيع فارتفع اليه خصمان اسم احدهما على والآخر معاوية فانحى على معاوية فضربه مائة سوط من غير ان اتجهت عليه حجة ففطن من اين اتى فقال اصلحك سل خصمى عن كنيته فاذا هو ابو عبد الرحمن وكانت كنيته معاوية بن أبى سفيان فبطحه وضربه مائة سوط فقال لصاحبه ما أخذته منى بالاسم استرجعته منك بالكنية وقال الراغب فى المحاضرات ان بقزوين قرية اهلها متناهون بالتشيع فمر بهم رجل فسألوه عن اسمه فقال عمر فضربوه ضرباً شديداً فقال ليس اسمى عمر بل عمران فقالوا اشد من الاول فان فيه عمر وحرفان من اسم عثمان فهو أحق بالضرب ومن هذا الباب قصة الحجاج ابن عكاظ السلمى فى حسن تلطفه واحتياله وآمال يقظته فى توصله الى تحصيل ماله وتخيصها ان رسول الله صلى الله عليه وآله لما فتح خيبر واعرس بصفية وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن عكاظ السلمى وكان اول ما قدم اسلم تلك الايام

وشهد خيبر فقال يارسول الله ان لى مالا عند صاحبتى أم شيبة ولى مال متفرق فى تجار مكة فأذن لى يا رسول الله فى العود الى مكة عسى أسبق خبر اسلامى اليه فانى أخاف ان علموا اسلامى ان يذهب جميع مالى بمكة فأذن لى لعلى أخلصه فأذن له رسول الله فقال يا رسول الله انى أحتاج ان أقول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت فى حل قال الحجاج فخرجت فلما انتهيت الى الثنية ثنية البيضاء ووجدت بها رجالا من قريش يستمعون الاخبار وقد بلغهم ان رسول الله قد سار الى خيبر وكانوا قد عرفوا ان خيبر قرية الحجاز ريفاً ومنعه رجال فهم يتجسسون الاخبار فلما ابصرونى قالواهذا لعمر الله عنده الخبر اخبرنايا حجاج فقد بلغنا ان القاطع يعنون النبى صلى الله عليه وسلم قد سار الى خيبر قال فقلت لهم بلغنى انه قد سار اليها وعندى من الخبر ما يسركم قال فلتبطوا بجنبى ناقتى يقولون ايه يا حجاج قال فقلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط واسر محمد أسراً وقالوا لا نقتله حتى نبعث به الى مكة فيقتلونه بين اظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم قال فقاموا وصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد انما تنتظرون ان يقدم به عليكم فيقتل بين اظهركم قال فقلت أعينونى على جمع مالى على غرمائى بمكة فانى أريد ان اقدم خيبر فاصيب من نقل محمد وأصحابه قبل ان يسبقنى التجار الى هنالك فقاموا معى فجمعوا مالى كاحب جمع سمعت به قال وجئت صاحبتى فقلت مالى لعلى ألحق خيبر فاصيب من فرض البيع قبل ان يسبقنى التجار فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عنى أقبل حتى وقف الى جنبى وانا فى خيمة من خيام التجار فقال يا حجاج ما هذا الخبر الذى جئت به قال قلت وهل عندك كتمان لما أضعه عندك قال نعم قلت فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلا فانى مشغول فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى افرغ قال حتى اذا

فرغت من جميع كل شئ كان لى بمكة وأجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضل فانى أخشى الطلب واكتم علىّ ثلاثاً ثم قل ما شئت قال افعل فقلت والله انى تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم يعنى صفية ولقد افتتح خيبر وانتقل ما فيها وصارت له ولاصحابه قال ما تقول ياحجاج قلت اى والله فاكتم عنى ولقد أسلمت وما جئت الا مسلماً لاخذ مالى فرقاً من ان أغلب عليه فاذا مضت ثلاث فاظهر أمرك فهو والله على ما تحب قال حتى اذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلةً له وتخلق واخذ عصاه ثم خرج حتى اتى الكعبه وطاف بها فلما رأوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة قال كلا والله الذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبراً وترك عروساً على ابنة ملكهم واحرز اموالهم وما فيها فأصبحت له ولاصحابه قالوا من جاءك بهذا الخبر قال الذى جاءكم به ولقد دخل عليكم مسلماً واخذ ماله وانطلق ليلتحق بمحمدٍ وأصحابه ليكون معهم قالوا انفلت عدو الله اما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن قالوا لم ينشبوا ان جاءهم الخبر بذلك فتوصل بيقظته واحتياله الى مخلصه وتخليص ماله وسيأتيك اشباع الكلام لهذا الفصل فى باب المداراة من المورد الرابع الذى فى السياسات كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى وما ذكرناه هنا كفاية لمن تدبر والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على رسوله محمدٍ وآله وسلم تسليماً كثيراً

الروض الثالث فى القوة الروحانية

وفيما يتعلق بها من الاخلاق والطباع النفسية وهذه القوة أشرف مما قبلها التى هى القوة الشهوية ومن غلبت عليه الروحانية يسمى روحانى المزاج ويطلق عليه اريحى فاما مايتعلق بهذه القوة من الاخلاق فحب الاستيلاء والاستعلاء

والقدرة على الغير وحب المال والجاه والانفراد بالكمال وحب الثناء والمدح وعلو الهمة وكبر النفس والانفة والعجب والحياء والعفة واشباه ذلك كما سنفصلها خلقاً خلقاً مع بيان أسبابها وثمراتها فستقف على الجميع وبالله المستعان

﴿ فصل ﴾

قد علمت ان لكل نفس ميلاً الى صفات بهيمية وصفات سبعية وصفات ربانية ولما كان الانسان مركبا من هذه القوى الثلاثه فهو لما فيه من الامر الربانى يحب الربوبية بالطبع ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الالهية فصار محبوباً بالطبع للانسان والكمال بالتفرد بالوجود اذ المشاركة فى الوجود نقص لامحاله فكمال الشمس فى انها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها اذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالوجود هو الله تعالى اذ ليس معه موجود سواه فان ما سواه اثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجوداً معه لان المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال بل الكامل من لا نظير له فى رتبته وكما ان اشراق نور الشمس فى اقطار الآفاق ليس نقصاناً بل هو من جملة كمالها وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة مع الاستغناء عنها فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعاً فاذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان فانه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ اهل العرفان ما من انسان الا وفى باطنه ما صرح به فرعون من قوله انا ربكم الأعلى ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية

محبوبة بالطبع وما من أحد الا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه واتباعه وكل
من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعاً من اظهاره فان استشاطته وغيظه
عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اظهار الكبر ومنازعة
الربوبية فى رداء الكبرياء وذلك للنسبة الربانية التى أومأ اليها قوله تعالى (قُلْ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط
شهوتها للكمال فهى محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر
وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ومبغض للهلاك الذى
هو عدم ذاته او عدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد ان يسلم
المتفرد بالوجود فى الاستيلاء على كل الموجودات فان اكمل الكمال ان يكون
وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستولياً عليه فصار الاستيلاء
على الكل محبوباً بالطبع لانه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته
ويحب كمال ذاته ويلتذ به الا ان الاستيلاء على الشئ بالقدرة على التأثير فيه
وعلى تغيره بحسب الارادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء فاحب الانسان
ان يكون له الاستيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا ان الموجودات منقسمة
الى مالا يقبل التغيير فى نفسه كذات الله تعالى وصفاته والى ما يقبل التغيير
ولكن لا تستولى عليه قدرة الخلق كالافلاك والكواكب وملكوت السموات
ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وما تحت الجبال والبحار
والى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض واجزائها وما عليها من المعادن والنبات
والحيوان ومن جملتها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل اجسادهم واجساد
الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات الى ما يقدر الانسان على التصرف فيه
كالارضيات والى مالا يقدر عليه كذات الله والملائكة والسموات احب الانسان

ان يستولى على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على اسرارها فان ذلك نوع استيلاء اذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم به كالمستولى عليه فلذلك احب ان يعرف الله تعالى والملائكة والافلاك والكواكب وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لان ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كمال وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة الى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فانه قد يشتهى ان يعرف اللعب فيه وانه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة فى الهندسة او الشعبذة او جر الثقيل او غيره وهو مستشعر فى نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق الى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم ان علمه واما القسم الثانى وهو الارضيات التى يقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع ان يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهى قسمان أجساد وأرواح اما الاجساد فهى الدراهم والدنانير والامتعة فيجب أن يكون قادراً عليها يفعل فبها مايشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع فان ذلك قدره والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع فلذلك أحب الاموال وان كان لا يحتاج اليها فى ملبسه ومطعمه وفى شهوات نفسه وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الاشخاص الاحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وان لم يملك قلوبهم فانها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها فان الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة القسم الثانى نفوس الادميين وقلوبهم وهى أنفس ما على وجه الارض فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وارادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب انما تسخر بالحب ولا تحب الا باعتقاد

الكمال فان كل كمال محبوب لان الكمال من الصفات الآلهيه والصفات الآلهية
كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرّبانى من جملة معانى الانسان وهو الذى لا يبليه
الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه محل الايمان والمعرفة فاذاً
معنى الجاه تسخر القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها
والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذاً محبوب النفس بالطبع
الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا
نهاية للمقدورات وما دام يبقى معلوم او مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان
لا يزول ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله منهومان لا يشبعان طالب علم
وطالب دين فاذاً مطلوب النفوس الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت
الدرجات فيه غير محصورة فسرور كل انسان ولذته بقدر مايدركه من الكمال
وقد تبين بهذه المقدمة سبب حب النفوس للمال والعلم والجاه والحرص والشره
والحرص على الممتنع او ما منع والتفرد بالكمال

﴿ فصل ﴾

وقد يشارك الحيوان الانسان فى حبّ الاستيلاء والاستعلاء والقدرة ولذلك
ترى الهرّة اذا صادت الفارة تلاعبها فلا تقتلها لتبين أثر اقتدارها وربما تغافلت
عنها فتمعن الفارة فى الهرب فتثب فتلاكها فلا تقتلها ايثاراً للذة القهر على الاكل
فاذا كان الحيوان بهذه المثابة فالانسان الذى هو اعرف بحب الاستيلاء
والاستعلاء اولى بلذة الاقتدار . روى المداينى قال قدم على بعض الامراء
بخراسان رجلٌ فدخل مع الناس فقال أصلح الله الاميران لى عليك يداً قال
وما يدك قال أخذت بركابك يوم كذا قال صدقت حاجتك قال تولنى البلد
الفلانية قال لم قال لاكتسب مائة الف درهم قال فانا قد أمرنا لك بها الساعة

فنكون قد بلغنا لك ما تحب وأقرونا لصاحبنا على عمله قال أصلح الله الامير انك لم تقض ذمامي قال ولم وقد أعطيتك ما أملت قال فاين الامارة وأين حبّ الامر والنهي قال قد وليتك اياها وسوّغت لك ما أمرت لك به واعفيتك عن المحاسبة ان صرفتك عنها قال ولم تصرفني عنها ولا يكون الصرف الاّ عن عجز اوخيانة وانا بريء منهما قال اذهب فانت اميرها ما دامت لنا خراسان فلم يزل أميراً عليها حتى عزل الامير عن خراسان ومن أمثال العرب يا حبذا الامارة ولوعلى الحجارة وما من انسان الا ويجد لذة للقدرة والقهر لغيره مالايجد فى غيرها من سائر اللذات

﴿ فصل ﴾

قد عرفت فيما ذكرناه فى هذه المقدّمة ان من أسباب القدرة والاستيلاء أمرين هما المال والجاه. والنفس كما تحبّ الاستيلاء والقدرة تحب السبب الموصل اليهما والموصل الى اللذيذ لذيذ اما حبّ النفس للمال فقد ذكرناه بما لا مزيد عليه فيما تقدم مما يتعلق بالقوة الشهويه وسيأتى ايضاً فى روض النم والوسائل التى من جملتها المال فراجع .واما حب الجاه فاعلم ان السبب الذى يقتضى ان يكون الذهب والفضةوسائر انواع الاموال محبوباً هو بعينه يقتضى ان يكون الجاه محبوباً بل يقتضى ان يكون احب من المال كما يقتضى ان يكون الذهب احب من الفضة مهما تساويا فى المقدار وهو انك تعلم ان الدراهم والدنانير لاغرض فى اعيانهما اذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولامنكح ولا ملبس وانما هى والحصباء بمثابة واحدة ولكنهما محبوبان لانهما وسيلة الى جميع المحاب وذريعة الى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لان معنى الجاه ملك القلوب وكما ان ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الانسان بها الى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب

الاحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل الى جميع الأغراض فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة وكما ان محب المال يطلب ملك الارقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب ان يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم لان المالك يملك العبد قهراً والعبد متأبٍّ بطبعه ولو خلي ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ويبغى أن يكون له الاحرار عبيداً بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه هو فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير فاذاً معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص اما بعلم او عبادةٍ أو حسن خلقٍ اونسبٍ أو ولايةٍ او جمالٍ فى صورة او قوةٍ فى بدن او شىء مما يعتقده الناس كمالاً فان هذه الاوصاف كلها تعظم محلةً فى القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه و بقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم و بقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب و بقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه ولما ذكرناه من ترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال وفى الطباع أمرٌ عجيب وراء ما ذكرناه من انّ حب المال والجاه للتوصل الى الاغراض والحاجات وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً وكذلك حب الانسان اتساع الجاه وانتشار الصيت الى أقاصى البلاد التى يعلم قطعاً انه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه او ليبروه بمال اوليعينوه على غرضٍ من اغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت فى الطبع وليس لذلك سبب الا لما فى النفس من معنى الربوبية واعلم ان من

غلب على قلبه حبّ الجاه صار مقصور الهمّ على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد اليهم والمروآت لاجلهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتاً الى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لامحالة الى التساهل فى العبادات والمرآءة بها والى اقتحام المحظورات للتوسل الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وآله حب الشرف والمال وافسادهما للدين بذئبين ضاديّين وقال انه ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول او الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس يضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك عين النفاق فحب الجاه اذاً من المهلكات وله ثمرات أخرى منها حب المدح والاطراء

﴿ فصل ﴾

ومما جبلت عليه النفس الروحانية حب المدح والثناء وذلك ثمرة حب الجاه فما شئ أحب اليه من المدح والحمد ومما يروى للمتنبئ من أمثاله فى شعره قوله فى عجز بيت حب الثناء طبيعة الانسان وقال يزيد بن المهلب المال والحياة أحب شئ الى الانسان والثناء الحسن أحب الىّ منهما ولو انى أعطيت مالم يعطه أحد لاحببت أن يكون لى أذن أسمع بها ما يقال فىّ غداً وقد متّ كريماً واعلم ان للمدح والثناء تأثيراً عظيماً فى النفوس قيل ان المأمون تكلم يوماً فقال يحيي بن اكثم يمدحه يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ان خضنا فى الطب فانت جالينوس فى معرفته او فى النجوم فانت هرمس فى حسابه أو فى الفقه فانت علىّ بن أبى طالب فى علمه وان ذكر السخاء كنت حاتماً فى وجوده او الصدق فانت ابو ذر فى صدق لهجته او الكرم فانت كعب فى ايثاره على نفسه اوالوفاء فانت السموءل بن عادياً فى وفائه فاستحسن قوله وتهلل وجهه وكان الحجاج

يستثقل زياد بن عمر العكلي فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال زياد يا أمير المؤمنين ان الحجاج سيفك الذى لا ينبو وسهمك الذى لا يطيش وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه ثم اعلم انه لا فرق فى التأثير بين ان يكون المدح للنفس او لعلائقها وكان هرون الرشيد يحب من الالوان السواد فسأل يوماً بعض العلماء عن السواد فقال شر الالوان السواد لا يلبي فيه محرم ولا يكفن فيه ميت ولا تجلى فيه عروس فصعب على الرشيد ذلك فقال القاضى ابو يوسف النور فى السواد فتهلل وجه الرشيدومن تأثير المدح فى النفوس أوما يتضمن معنى المدح لها ما حكي ان رجلا كان جاراً لفيروز الديلمى فاراد بيع داره لدين ركبه فلما سامها واحضر المشتري الثمن قال البائع هذا ثمن الدار فاين ثمن الجوار فقال المشتري فهل يباع الجوار فقال نعم جوار فيروز يباع باضعاف ثمن الدار وابى ان يبيعها بغير ذلك فلما بلغ فيروز ذلك بعث له بضعف ثمن الدار وقال له بعها على نفسك بارك الله لك فيها ومثل ذلك ما جرى لابى الجهم العدوي فانه باع داره بمائة الف درهم ثم قال بكم تشترون جوار سعيد بن العاص فقالوا وهل يشترى جوار قط قال ردوا علىّ دارى وخذوا دراهمكم والله لا ادع جوار رجل ان فقدت سأل عنى وان رآنى رحب بى وان غبت حفظنى وان شهدت قرّبنى وان سألته أعطانى وان لم اسأله ابتدأنى وان نابتنى جائحة فرج عنى فبلغ ذلك سعيد فبعث اليه بمائة الف درهم ومن هذا قال بعضهم قد جبلت النفوس الابية الروحانيـة على تحقيق الظنون فيها وتصديق الأمل فيها والرجاء فيما يطلب منها من نظرة واعانة وازالة ضرورة وسد خلة وايواء وغير ذلك والنفوس التى بخلاف ذلك تكذب الظنون فيها اقول وهى النفوس التى غلبت عليها القوة الشهوية كما تقدم ومن تأثير المدح

والثناء ما ورد فى الآثار ان اعرابياً طول صلاته فمدحه الحاضرون فلما فرغ من صلاته قال وأنا مع ذلك صائم ومنه أيضاً ما حكاه لى بعض الثقات ان الشيخ فارس أحد مشايخ كعب جئ له بماء فقال بعض الحاضرين الشيخ ما يشرب مائى فقال أى وحق أبى ما أشرب وامتنع تلك الليلة حتى اذ امض به العطش خرج لقضاء الحاجة فشرب من المطهرة وقيل ان مطهرته كان فيها ماء حار وانه عمى من ذلك وانما امتنع عن الشرب واحتمل العطش حفظاً لما قيل فيه وخوفاً من نقصه ومن هذا كان يتوصل الاذكياء بالمدح والثناء فيقال لمن شد طرفاً من العلم هذا عالم هذا فاضل فيدعوه بما ظن فيه من ذلك الى تحقيقه فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة وكذلك يقول الناس هـذا كثير العبادة هـذا كثير الزهد لمن قد شرع فى شئ من ذلك فتحمله أقوال الناس على الاكثار والالتزام بالزهد والعبادة تصديقاً للظن فيه ولما بلغ الحسن عليه السلام قول معاوية اذا لم يكن الهاشمى جواداً والاموي حليماً والعوامى شجاعاً والمخزومى تياها لم يشبهوا آباءهم فقال انه والله ما أراد به النصيحة ولكن أراد أن يفنى بنو هاشم مما فى أيديهم فيحتاجوا اليه وان يتشجع بنو العوام فيقتلوا وان يتيه بنو مخزوم فيمقتوا وان يحلم بنوا أمية فيحبهم الناس ومن مخادعات معاوية من هـذا الباب فى أيام صفين انه لما رأى كثرة مبارزة أمير المؤمنين والفشل والنكول فى أصحابه قال لعمر بن العاص اكتب الى بن عباس كتاباً فكتب عمرو كتاباً فيه

طال البلاء فما ندري له آسى * بعد الاله سوى رفق ابن عباس

فكان جواب ابن عباس رضى الله عنه

ياعمرو حسبك من خدع ووسواس * فاذهب فمالك فى ترك الهدى آس

ثم كتب له معاوية كتاباً يذكر فيه انما بقى من قريش ستة أنا وعمرو بن العاص بالشام ناصبان وسعد وابن عمر بالحجاز وعلىّ وأنت بالعراق على خطب عظيم ولو بويع لك بعد عثمان لاسرعنا فيه فاجابه بن عباس بمكسة فيها

دعوت بن عباس الى السلم خدعة ❊ وليس له حتى تموت بخادع

وقد علم من هذا ان المدح مخادعة لا يؤثر الا فى النفوس الضعيفة واما أرباب البصائر فلا يخدعون لا بمدح ولا بغيره وبالجملة فالمدح له تأثير بالنفوس فى الجملة فان كان واقعاً ففى النفوس الروحانية والهمم العلية وان كان مخادعةً ففى النفوس الضعيفة الدنية وستتلوا عليك من هذا الباب فصلاً وافياً فى باب التوصل والاحتيال وشطراً شافياً منه أيضاً فى باب الشكر الذى هو أحد دعائم المعاملات ﴿ تتمة ﴾ اعلم كما ان للنفس ميلا للمدح وارتياحا للثناء فلها نفرة عن الذم بالطبع أيضاً او مايتضمن معنى الذم من التنقيص واشباهه . صاح رجل بالمأمون يا عبد الله يا عبد الله فغضب وقال أتدعونى باسمى فقال الرجل نحن ندعو الله باسمه فسكت المأمون وقضى حاجته وانما غضب لانه لم يدعوه باللقب الذى انتحلوه ولقبوا به انفسهم وهو أمير المؤمنين ودعاؤه له باسمه تنقيص له بزعمه وكلما يتضمن تنقيصاً فهو ذم ومثل ذلك ما ذكره ابن خلكان فى وفيات الاعيان قال لما ولىّ يوسف بن عمر انقطع عليه ثلاثون الف دينار فحبس فى السجن عليها وكان بلال بن ابى برده يومئذ محبوساً هناك فقال بلال يا يوسف ان الموكل بعذاب الذين فى السجن رجل اسمه سالم ويلقب بزنبيل فاياك ان تقول له زنبيل فانه يكره ذلك ويشدد عليك العذاب فاتى الرجل الى يوسف وعذبه فنسى اسمه وجعل يقول له يا زنبيل اتق الله فاغاظه ذلك وشدد عليه العذاب ويوسف يكرر عليه القول فى ذلك من شدة ألم العذاب وهو يشدد عليه العذاب لغيظه

من ذلك عليه فلما خلا سبيله ومضى عنه قال له بلال ألم أنهك عن تسميته بهذا الاسم وعن قولك له زنبيل فقال له وهل اوقعنى بالزنبيل احد غيرك فانى كنت لا اعرف زنبيلا ولا غيره لولم تعرفنيه أنت ﴿ تنبيه ﴾ انما طبعت النفس على حب المدح لما فيه من معنى الاحتشام والاحترام فاذا حصل الاحترام والاحتشام بالفعل كان فى النفس أشد تأثيرا كما قيل انه قدم القعقاع ابن ثور الى معاوية فدخل عليه والمجلس غاص باهله ليس فيه مقعد فقام له رجل من القوم واجلسه مكانه فلم يبرح القعقاع من ذلك الموضع يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمائة الف درهم فاحضرت اليه فجعلت الى جانبه فلما قام قال للرجل القائم له من مكانه ضمها اليك فهى لك بقيامك لنا عن مجلسك وفى هذه الحكاية تنبيه على ثمرة الايثار على النفس وعلى حسن الوفاء وبالجملة فحب المدح والاحتشام أمر جلي طبيعى فى النفس لما فيها من معنى الربوبية ﴿ تكميل وايضاح ﴾ (فى بيان السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس وميل الطبع اليه وبغضها للذم ونفرتها منه) اعلم ان لحب المدح والتذاذ القلب به اربعة أسباب السبب الاول وهو الاقوى شعور النفس بالكمال فانا بينا ان الكمال محبوب وكل محبوب ادراكه لذيذ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان الوصف الذى به مدح لا يخلو اما ان يكون جلياً ظاهراً ويكون مشكوكا فيه فان كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بانه طويل القامة ابيض اللون فان هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته فاذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم وكمال

الورع او بالحسن المطلق فان الانسان ربما يكون شاكاً فى كمال حسنه اوكمال علمه اوكمال ورعه ويكون مشتاقاً الى زوال هذا الشك بان يصير مستيقناً لكونه عديم النظير فى هذه الامور اذ تطمئن نفسه اليه فاذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقةً باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لايجازف فى القول الاعن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء استاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فانه فى غاية اللذة وان صدر ممن يجازف فى الكلام او لايكون بصيراً بذلك الوصف ضعفت اللذة وبهذه العلة يبغض الذم ويكرهه لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الألم اذا صدر الذم من بصير موثوق كما ذكرنا فى المدح . السبب الثانى ان المدح يدل على ان قلب المادح مملوك للممدوح وانه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والاكابر وتضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ولا يقدر على شئ فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب واذا كان من الاكابر كانت نكايته أشد وأعظم لان الغاية به أعظم . السبب الثالث ان ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ذلك ممن يلتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا مختص بثناء يقع على الملأ فلاجرم كلما كان الجمع اكثر والمثني اجدر بان يلتفت الى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس . السبب الرابع ان المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن

طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لايعتقد فى الباطن بما مدح به ولكن كونه مضطراً الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الاسباب الاربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفترق فتنقص اللذة بها اما العلة الاولى وهي استشعار الكمال فتندفع بان يعلم الممدوح ان المادح غير صادق فى قوله كما اذا مدح بانه نسيب او سخي او عالم بعلم او متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فان كان يعلم ان المادح ليس يعتقد مايقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهي استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لفوات الاسباب الثلاثة فهذا مايكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح بسبب الذم وتألمها

﴿ فصل ﴾

العجب خلق جبلت النفس عليه قال ابو العتاهيه مما قال

كل أمرئ فى نفسه ٭ أعلا وأشرف من قرينه

وحقيقة العجب قيل انه عبادة عن هيئة نفسانية تنشأ من تصور الكمال فى النفس والفرح به والركون اليه من حيث انه قائم به وصفة له مع الغفلة عن قياس النفس الى الغير بكونها أفضل منه وبهذا القيد ينفصل عن الكبر اذ لابد فى الكبر أن يرى الانسان لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبة ثم زيادة مرتبته على مرتبة الغير

فكل متكبر معجب ولا عكس . والفرق بين العجب والتيه هو ان المعجب يصدق نفسه وهماً فيما يظن بها والتياه يصدقها قطعاً كأنه متحير فى تيهه و يمكن أن تفرق بينهما بامرٍ آخر وهو ان المعجب قد يعجب بنفسه ولا يؤذى أحداً بذلك الاعجاب والتياه يضم الى الاعجاب الغض من الناس والرفع عليهم فيستلزم ذلك الاذى لهم فكل تأيه معجب وليس كل معجب تأيهاً واما الفرق بين الاعجاب بالعمل والادلال به هو ان العجب استعظامه فقط فاذا انضاف الى ذلك ان له عند الله حقاً وانه منه بمكان حتى يتوقع بعلمه كرامةً فى الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه سمى هذا اذلالاً بالعمل فكأنه يرى لنفسه دالةً على الله وكذلك قد يعطى غيره شيئاً فيستعظمه ويمنّ عليه فيكون معجبا فان استخدمه او اقترح عليه الاقتراحات او استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ أى لاتدل بعلمك . الادلال أمرٌ وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب ورب معجب لايدل اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال لايتم الامع توقع جزاء ثم اعلم ان العجب انما يكون بوصفٍ هو كمال لا محالة مع كونه فرحاً به من حيث انه كمال ونعمة وخير ورفعة لامن حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له من حيث انه منسوب الى الله تعالى بانه منه فمهما غلب على قلب الانسان انه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فاذ العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فهذا حقيقة العجب وهو من مقدمات الكبر واسبابه ولا يخلوا منه طبع بشر الا ذوي البصائر من الناس ومن غلب عقله على نفسه واما ضعاف العقول فلا تكاد ترى منهم احداً الا معجباً بنفسه

﴿ بيان أقسام العجب ﴾ بالنسبة الى متعلقه اعلم ان اقسام العجب باعتبار اضافته الى ما به العجب ثمانية اقسام أو أنواع الاول يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب اشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت الى جمال نفسه وينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وذلك اكثر ما يجرى بين النساء ويدعوا ذلك الى التنقيص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس كما يأتى بيانه. الثانى العجب بالمال كما قال تعالى اخباراً عن صاحب الجنتين اذ قال أنا اكثر منك مالاً واعز نفرا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال أخشيت ان يعدوا اليك فقره وذلك للعجب بالغنى وهذا العجب اكثر ما يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويقول له أنت مكدود ومسكين وانا لو اردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك واثاث بيتى يساوى اكثر من جميع مالك وانا انفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة وكل ذلك لاستعظامه ماله واعجابه به. الثالث العجب بكثرة العدد من الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار والاتباع كما قال الكفار نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وكما قال المؤمنون يوم حنين لانُغْلَبُ اليوم من قلة واليه الاشارة بقوله تعالى (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً) الرابع العجب بالبطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما اخبر الله عنهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) القسم الخامس العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم ان الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمرة هذا العجب على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا هندى او

يا ارمني او يا معيدى من انت ومن ابوك فانا فلان بن فلان واين لمثلك ان يكلمني او ينظر اليّ ومع مثلي تتكلم وما يجرى مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وان كان صالحاً وغافلا الا انه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الاحوال فان غلبه غضب اطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه. السادس العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الامور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى اهل العلم اعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل واستحقاراً لهم واهانة وسيأتي زيادة الكلام عليه في روض حجب البصيرة التي من جملتها العجب بالنفس والعقل. السابع العجب بالرأى الخطأ قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً وقال تعالى وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) ومن هنا قيل ليس يفهم كلامك من كان كلامه لك احب اليه من الاستماع منك ولا يعلم نصيحتك من غلب هواه على رأيك ولا يسلم لك من اعتقد انه اتم معرفة منك بما اشرت عليه به وعن هذا العجب يعبر بالجهل المركب وثمرة هذا العجب العصبية والتخطئة للغير وقد مرت قريباً فراجع. الثامن العجب بالعلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم ان يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره الى البهائم ويستجهلهم ويتوقع ان يبدؤه بالسلام فان بدأ واحداً منهم بالسلام او رد عليه ببشر او قام له او أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها واعتقد انه اكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله وانه ينبغى ان يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه بل الغالب انهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم

ويستسخره فى حوائجه فان قصر فيه استنكر كأنهم عبيده او أجراؤه وكان
تعليمه العلم صنيعة منه اليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم وبالجملة فما
أعز على بسيط الارض عالما يستحق ان يقال له عالم ثم انه لا يحركه عز العلم
وخيلاؤه فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغى ان يفارق بل يكون النظر
اليه عبادة فضلا عن الاستفادة من انفاسه . القسم التاسع العجب بالعمل والعبادة
وليس يخلوا عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح
منهم الكبر فى الدين والدنيا اما فى الدنيا فهو انهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى
منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم
فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ
الى جميع ما ذكرناه فى حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق واما فى
الدين فهو ان يرى الناس هالكين ويرى نفسه حيا وهو الهالك تحقيقاً مهما
رأى ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس
فهو اهلكهم وانما قال ذلك لان هذا القول منه يدل على انه مزدر بخلق الله
تعالى مغتر بالله آمن من مكره وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره قال
النبي صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء شراً ان يحتقر اخاه المسلم وكم من الفرق بينه
وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجوا له ما لا يرجوه لنفسه
فالخلق يدركون النجات بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون الى الله تعالى بالدنو منه
وهو يتمقت الى الله بالتنزه والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فما اجدرهم
اذا احبوه لصلاحه ان ينقلهم الله الى درجته فى العمل وما اجدره اذا ازدراهم
بعينه ان ينقله الله الى حد الاهمال كما روى ان رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له
خليع بنى اسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر يقال له عابدة بنى اسرائيل

وكان على رأس العابد عمامة تظله فلما مر الخليع به قال الخليع فى نفسه انا خليع
بنى اسرائيل وهذا عابد بنى اسرائيل فلو جلست اليه لعل الله يرحمنى فجلس اليه
فقال العابد انا عابد بنى اسرائيل وهذا خليع بنى اسرائيل فكيف يجلس اليّ
فانف منه وقال له قم عنى فأوحى الله الى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل
فقد غفرت للخليع واحبطت عمل العابد وفى رواية اخرى فتحولت العمامة الى
رأس الخليع وهذا يعرفك ان الله تعالى انما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل
العاصى اذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه فهو اطوع لله
من العابد المتكبر والعالم المعجب وكذا روي ان رجلا من بنى اسرائيل اتى عابداً
من بنى اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر لك
فأوحى الله اليه أيها المتألى عليّ بل انت لا يغفر الله لك وهذه الآفة أيضاً قلما
ينفك عنها كثير من العبادة وهو انه لو استخف به مستخف او أذاه مؤذ استبعد
ان يغفر الله له ولا يشك فى انه صار ممقوتاً عند الله ولو اذى مسلما آخر لم يستنكر
ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر
والعجب والاغترار بالله وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى ان يتحدى
وهو يقول سترون ما يجري عليه واذا أصيب بنكبة زعم ان ذلك من كراماته
وان الله ما اراد به الا شفاء غليله والانتقام له منه مع انه يرى طبقات من
الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة أذوا الانبياء فنهم من قتلهم ومنهم
من ضربهم ثم ان الله أمهل اكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا بل ربما اسلم بعضهم
فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة ثم الجاهل المغرور يظن انه اكرم على
الله من انبيائه وقد انتقم له بما لا ينتقم لانبيائه به ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره
وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين . وأسباب العجب كثيرة وأظهرها

سيان المدح واعتقاد الانفراد بالكمال اما المدح والثناء فانه يحرك العجب كما روي انه خطب ابن ظبيان فى البصرة خطبة أوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد كثّر الله لنا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا واما اعتقاد الانفراد بالفضيلة فانه لما حج آدم بعد هبوطه وقضى مناسك الحج بالبيت تلقته الملائكة يهنونه بالحج وقبول التوبة فقالوا برّ حجك يا آدم فداخله من ذلك شيء فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا يا آدم انا قد حججنا هذا البيت قبلك بالفى عام فتقاصرت الى آدم نفسه ﴿ فرع ﴾ وآفات العجب وثمراته تزيد على عشرة وهى التفاخر واستجهال الناس والاستبداد بالرأى والادلال والمنة على الناس وكونه حجاب على عين البصيرة وداعياً للقصور وقاطعاً عن الوصول ومانعاً عن المعاشرة وباعثاً على التكبر والتيه والتكبر باعث على آفات كثيرة كما سيأتى ومورث أيضاً للازدراء والتنقيص فاما كونه باعثاً على التفاخر والاستجهال للناس والاستبداد بالرأى والادلال والمنة فقد أدرجنا ذلك فى ذكر أقسام العجب كما مر واما كونه حجاب على عين البصيرة وقاطعاً عن الوصول ومانعا عن المعاشرة فسيأتى كل فى بابه واما كونه داعيا للقصور وباعثا على التكبر ومثمر للتنقيص والازدراء بالغير فلنفرد ههنا لكل واحد منها فصلا على حدة

﴿ فصل ﴾

اما كون العجب داعيا للقصور فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام الاعجاب يمنع الازدياد وذلك لان المعجب بفضيلته الداخلة كعلمه او الخارجة كغنائه وقنيته يعتقد انه قد بلغ الغاية وهذا الاعتقاد يمنعه عن طلب الزيادة منها . قيل لبعض العلماء من شر الناس قال من يرى انه خيرهم وذلك لما فى هذا الاعتقاد من منعه للوصول . شعر

من لا يرى نفسه فى الناس قاصرةً * عن الكمالات لم يكمل له أدب
ومن يكن راضياً عن نفسه ابدا * فذاك غرٌّ عن الآداب محتجبُ

وقال امير المؤمنين عليه السلام رب مفتون بحسن القول فيه اقول طال ما فتن الناس بثناء الناس عليهم فيقصر العالم في اكتساب العلم اتكالاً على ثناء الناس عليه ويقصر العابد العبادة اتكالاً على ثناء الناس عليه ايضاً ويقول كل واحد منهما انما اردت ما اشتهرت به للصيت وقد حصل فلماذا اتكلف الزيادة واعانى التعب وايضاً فان ثناء الناس على الانسان يقتضي اغرائه بالعجب واعجاب المرء بنفسه داعياً لقصوره . مرض بعض تلامذة احد العلماء فقال استاذه ان مات هذا الرجل ذهب علم كثير فلما عافاه الله تعالى و بلغه ما قاله استاذه اعتزل وحده كانه استغنى عنه وسببه ما ذكرناه فيما تقدم من ان الثناء يحرك العجب والعجب يدعو للقصور

﴿ فصل ﴾

في الكبر والتكبير ولنتلو عليك اولاً اخباراً تكشف لك على ان التكبر وان كان من ثمرات العجب فانه خلق غريزي ثم نثنى عنان القلم في بيان حقيقة التكبر واقسامه وثمراته واسبابه فمن ذلك ما حكي انه اتى وايل ابن حجو النبي فاقطعه ارضاً وامر معوية ان يمضي معه فيريه الارض ويعرضها عليه ويكتبها له فخرج مع وائل فى هاجرة شاوية ومشى خلف ناقته فاحرقته الرمضاء فقال اردفني فقال لست من ارداف الملوك قال فادفع اليّ نعلك قال ما بخل يمنعنى يابن أبى سفيان ولكن اكره ان يبلغ اقيال اليمن انك لبست نعلى ولكن امشى فى ظل ناقتى فحسبك بذاك شرفاً ومن ذلك ما قيل انه حبس هشام ابن عبد الملك الفرزدق فى سجن خالد بن عبد الله القشرى فوفد جرير الى

خالد ليشفع فيه فقال له ألا يسرك ان الله قد اخزى الفرزدق قال أيها الامير والله ما احب ان يخزيه الله الا بشعرى وانما قدمت لأشفع فيه فى ملأ ليكون اخزى فشفع فيه فدعا به فقال انى مطلقك بشفاعة جرير فقال اسير قشرى وطليق كلبي فبأى وجه افاخر العرب بعدها ردنى الى الحبس . قيل الكبرياء بالأجناس الذليلة ارسخ ولكن القلة والذلة مانعتان من ظهور كبرهم . كان عمارة ابن حمزة بن ميمون مولى بنى العباس مثلاً فى التيه حتى قيل أتيه من عمارة وكان يتولى دواوين السفاح والمنصور وكان اذا اخطأ مضى على خطائه تكبراً عن الرجوع ويقول نقض وابرام فى حالة واحدة الاصرار على الخطأ اهون من ذلك وافتخرت ام سلمة المخزومية امرأة السفاح ذات ليلة بقومها على السفاح وبنو مخزوم يضرب بهم المثل فى الكبر والتيه فقال انا احضرك الساعة على غير اهبة مولى من مواليّ ليس فى اهلك مثله فارسل الى عمارة وامر الرسول ان يعجله عن تغيير زيه فجاء على الحال التي وجده عليها الرسول فى ثياب ممسكة مزررة بالذهب وقد غلف لحيته بالغالية حتى قامت فرمى اليه السفاح بمدهن ذهب مملوء غالية فلم يلتفت اليه وقال هل ترى لها فى لحيتي موضعاً فاخرجت ام سلمة عقداً لها ثميناً وامرت خادماً لها ان يضعه بين يديه فقام وتركه فامرت الخادم ان يتبعه به ويقول انها تسألك قبوله فقال للخادم هولك فانصرف بالعقد اليها فاعطت الخادم فكاكه عشرة آلاف دينار واسترجعته وعجبت من نفس عمارة وكان عمارة لا يذل للخلفاء وهم مواليه ويتيه عليهم فنظر رجل الى المهدي ويده فى يد عمارة وهما يمشيان فقال يا أمير المؤمنين من هذا قال هذا أخي وابن عمي عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر المهدي الكلمة كالممازح لعمارة فقال عمارة والله انتظرت ان تقول مولاي فانفض يدي من يدك فتبسم المهدي

وكان أبو الربيع الغنوي اعرابياً جافياً تياهاً شديد الكبر

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم ان الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس والظاهر هو اعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن احق واما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي فى النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعى عدم العجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور ان يكون معجباً ولا يتصور ان يكون متكبراً الا ان يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير فى صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبراً ولا يكفى ان يستعظم نفسه ليكون متكبراً فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره اعظم من نفسه او مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي ان يستحقر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه احقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي ان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خلق الكبر لان هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعزّ في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اعوذ بك من نفخة الكبرياء ثم هذه العزة تقتضي اعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه واقصاه

عن نفسه وابعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى ان حقه ان يقوم ماثلاً
بين يديه ان اشتد كبره فان كان اشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم
يجعله اهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته فان كان ذلك فيأنف من مساواته
وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر ان يبديه بالسلام
واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه وان حاجّ او ناظر انف ان يرد
عليه وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف في النصح وان رد عليه
شيئاً من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم
واستخدمهم وينظر الى العامة كانه ينظر الى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً
والاعمال الصادرة عن خلق كثيرة وهي اكثر من ان تحصى فلا حاجة الى
تعدادها فانها مشهورة فهذا هو الكبر

بيان المتكبر عليه ودرجاته واقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم ان المتكبر اما ان يكون هو الله تعالى او رسله او سائر خلقه وقد خلق
ظلوماً جهولا فتارة يتكبر على الخالق وتارة على الحق فاذ التكبر باعتبار المتكبر
عليه ثلاثة اقسام. الاول التكبر على الله وذلك افحش انواع الكبر ولا مثار له الا
الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانه كان يحدث نفسه بان يقاتل
رب السمآء وكما يحكي عن جماعة من الجهلة بل ما يحكي عن من ادعى الربوبية
مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال انا ربكم الاعلى اذ استنكف ان يكون عبداً
لله لذلك قال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَنكِفُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)
وقال تعالى (لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ)
وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا
وَزَادَهُمْ نُفُورًا) القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها

عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قولهم أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وقولهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ وقال الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وقال فرعون الله فيما اخبر الله تعالى عنه او جاء معه الملائكة مقترنين وقال الله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً قال بعض المفسرين قال له موسى آمن ولك ملكك قال حتى اشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينما انت رب تعبد اذ صرت عبداً تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما اخبر الله تعالى عنهم (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) قال بعض المفسرين عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وابو مسعود الثقفي طلبوا من هو اعظم رياسة من النبي اذ قالوا غلام يتيم وكيف بعثه الله الينا قال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) وقال الله تعالى (لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) اى استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء اشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم باعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فانزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ثم اخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم

اذ لم يروا الذين ازدروهم (فَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)
قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه
الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقاً ومنهم من عرف
ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)وهذا الكبر
قريب من التكبر على الله عز وجل وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول امر
الله والتواضع لرسوله. القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بان يستعظم نفسه
ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه الى الترفع عليهم فيزدريهم
ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون الاول والثاني فهو أيضاً
عظيم من وجهين احدهما ان الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق الا بالملك
القادر فاما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن اين يليق
بحاله الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله
ان يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره فما اعظم
استحقاقه للمقت اذ قد نازع الله فى حقه. ثم الفرق بين هذه النازعة وبين منازعة
نمرود وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده
واستخدامهم وبين منازعته فى اصل الملك . الوجه الثاني الذي تعظم به رذيلة
الكبر انه يدعوا الى مخالفة الله تعالى في اوامره لان المتكبر اذا سمع الحق من
عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين
في مسائل الدين يزعمون انهم يتباحثون عن اسرار الدين ثم انهم يتجاحدون
تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله
وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من اخلاق

الكافرين والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) فكل من يناظر للغلبة والافحام لا يغتنم الحق اذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الانفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ)

﴿ بيان البواعث على التكبر واسبابه المهيجة له ﴾

اعلم ان الكبر خلق باطن واما ما يظهر من الافعال والاخلاق فهي ثمرة ونتيجة وينبغي ان تسمى تكبراً ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر كما مر معناه فانه اذا اعجب بنفسه او بعلمه او بعمله او بشيء من اسبابه استعظم نفسه وتكبر واما الكبر الظاهر فاسبابه ثلث سبب في المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما اما السبب الذى فى المتكبر فهو العجب والذي يتعلق بالمتكبر عليه فهو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء أما العجب فلقد ذكرنا انه يورث الكبر الظاهر وكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الاقوال والافعال والاحوال قال بعض العلماء من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً ووجهه ان التواضع ليس الا عن رفعة فمتى أثبتت لنفسك تواضعاً فقد اثبت لها رفعة انت تتواضع معها فأنت من المتكبرين قال بعض العارفين ما دام العبد يظن ان فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر واما الحقد فانه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى انه مثله او فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق فاورثه الغضب حقداً ورسخ فى قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان عنده مستحقاً

للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه او بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جآء من جهته وعلى ان لا يستحله وان ظلمه فلا يعتذر اليه وان جنى عليه لا يساله عما هو جاهل به واما الحسد فانه ايضاً يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه ان يستفيد من واحد من اهل بلده واقاربه حسداً وبغياً عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بانه يستحق التواضع بفضل عمله ولكن الحسد يبعثه على ان يعامله باخلاق المتكبرين وان كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه واما الرياء فهو ايضاً يدعوا الى اخلاق المتكبرين حتى ان الرجل ليناظر من يعلم انه افضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من ان يقول الناس انه افضل منه فيكون باعثه على التكبر الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لا يتكبر عليه واما الذي يتكبر بالعجب او الحسد او الحقد فانه يتكبر ايضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمي الى نسب شريف كاذب وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينسب الى ذلك النسب ويرفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطرق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بانه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بانه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على افعال المتكبرين وكان اسم التكبر انما يطلق في الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاحتقار وهو ان سمي متكبراً فلاجل التشبه بافعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى اعلم

﴿ بيان علامات التكبر والتواضع ﴾

اعلم ان التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزراً واطراقه رأسه وجلوسه متربعاً او متكئاً وفي قوله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الايراد ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له او بين يديه ومنها ان لا يمشي الا ومعه غيره يمشى خلفه ومنها ان لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع ومنها ان يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا ان يجلس بين يديه والتواضع خلافه ومنها ان يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر. دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله وعنده اناس من اصحابه يأكلون فما جلس الى احد الا قام من جنبه فاجلسه النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه ومنها ان لا يأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين وقال بعضهم رأيت علياً قد اشترى لحماً بدرهم فحمله فى ملحفته فقلت له احمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لا أبو العيال احق ان يحمل. ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم البذاذة من الايمان. قال الراوي سألت عن البذاذة فقال هو الدون من اللباس هذا تمام الكلام فى الكبر والتكبر وثمراته ومن ثمراته اللجاج والمراء والخصومة واشباه ذلك

﴿ فصل ﴾

ومما جبل عليه الانسان اللجاج وهو التمادى فى الخصومة وهو خلق يتركب من

خلقين أحدهما الكبر والآخر الجهل بعواقب الامور واكثر ما يعترى الولاة لما يأخذهم من العزة بالاثم فكل والٍ لجوج وان علم ما يتعقبه لجاجه من الضرر وان اجتنابه هو الحسن وكان يقال اللجاج من القحة والقحة من قلة الحياء وقلة الحياء من قلة المروة وفى المثل لجّ صاحبك فحج

﴿ فصل ﴾

ومما طبع عليه الانسان المراء والجدال وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه اما فى اللفظ واما فى المعنى واما فى قصد المتكلم والطعن فى كلام الغير تارة يكون في اللفظ باظهار خلل فيه من جهة النحو او من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير واما فى المعنى فبان يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا واما في قصده فمثل ان يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه وهذا الجنس ان جرى فى مسئلة علمية ربما خص باسم الجدل والجدل عبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه وآية ذلك ان يكون تنبهه للحق من جهة أخرى مكروهة عند المجادل بحيث ان يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه واما الخصومة فهي أمر وراء الجدال والمراء فالمراء طعن فى كلام الغير باظهار خلل فيه من غير ان يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج فى الكلام يستوفى به مال او حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً والمراء لا يكون الا باعتراض على كلام ما سبق وأما الباعث على المراء والجدل فهو الترفع باظهار العلم والفضل

والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان في النفس قويتان فيها اما اظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما فى العبيد من الطغيان ودعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية واما تنقيص الاخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى ان يمزق غيره ويقسمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال فالمواظب على المراء والجدال مقوٍ لهذه الصفات المهلكة وكل من اعتاد المجادلة مدة واثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً اذ اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها

﴿ فصل ﴾

ومن خواص من غلبت عليه الروحانية علو الهمة وهو خلق مختص بالانسان فقط واما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك اذ يتحرى كل نوع منها الفعل بقدر ما فى طبعه قال امير المؤمنين قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروته وشجاعته على قدر انفته وعفته على قدر غيرته فما جبل عليه الحر الكريم ان لا يقنع من شرف الدنيا مما انبسط له املا فيما هو اسنى منه درجة وارفع منزلة. ومن الشواهد لهذا المعنى ان موسى لما كلمه الله تكليما سأله النظر اليه اذ كان ذلك لو وصل اليه اشرف من المنزلة التي نالها فانبسط امله الي ما لا سبيل اليه ليستدل بذلك على ان الحر الكريم لا يقنع بمنزلة اذا راى ما هو اشرف منها فذو الهمة وان حط نفسه يأبي الا علواً كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى الا ارتفاعاً قال ابو طيب المتنبي

وإذا كانت النفوس كباراً * تعبت فى مرادها الاجسام

وقال ايضاً

لولا المشقة ساد الناس كلهم ٭ فالجود يفقر والاقدام قتّال

فعلو الهمة خلق موجود في كل انسان الا ان الموانع التي تمنعـه عن مقصوده هي ما يتخوفه من عواقب الامور وقيل لابي مسلم فى ايام صباه نريك تنظر الى السماء كثيراً كانك تسترق السمع او تنتظر نزول الوحي قال لا ولكن لي همة عالية ونفس تتطلع الى معالي الامور مع عيش كعيش الهمج الرعاع وحال متناهية فى الارتفاع قيل ما الذي يشفي علتك ويروي غلتك قال الملك قيل فاطلب الملك قال الملك لا يطلب هكذا قيل فما تصنع وأنت تذوب حسرات وتموت كمداً قال سأجعل بعض عقلي جهلاً واطلب به مالا يطلب الا بالجهل واحرس بالباقي مالا يحرس الا بالعقل فاعيش بين تدبير ضدين فان الخمول أخو العدم والشهرة أخت الكون هذا مقدار ما ينبغى التنبيه عليه. سيأتي تمام الكلام على هذا المطلب فى مورد العقل شطراً وفى الخاتمة شطراً انشاء الله

﴿ فصل ﴾

ومن ثمرات الروحانية الحياء والخجل وهما من خصائص الانسان لا يوجدان فى غيره من سائر الحيوانات واول ما يظهر من قوة الفهم فى الصبيان الحياء قال بعض الحكماء الحياء انقباض النفس عن القبائح وهذا تعريفه ومتى قصـد به الانقباض فهو مدح للصبيان دون المشائخ ومتى قصد به ترك القبيح فهو مدح لكل أحد وباعتبار الاول قبل الحياء بالافاضل قبيح وبالاعتبار الثانى ورد ان الله يستحي من ذي شيبة فى الاسـلام ان يعذبه اي يترك تعذيبه ويستقبح لكرمه ذلك واما الخجل فحيرة تلحق النفس لفرط الحياء ويحمد فى النساء والصبيان ويذم بالاتفاق فى الرجال فاما القحة فمذمومة بكل انسان اذهى انسلاخ

من الانسانية وحقيقتها لجاج النفس فى تعاطي القبيح وما اصدق قول الشاعر

صلابة الوجه لم تغلب على احد * الا تكامل فيه الشر واجتمعا

والحياء خلق مركب من جبن وعفة فلا يكون المستحي فاسقاً ولا الفاسق مستحياً لتنافى اجتماع العفة والفسق وقلما يكون الشجاع مستحياً والمستحي شجاعاً لتنافى اجتماع الجبن والشجاعة وأسباب الحياء كثيرة واشدها تأثيراً سببان الامل والاستعظام اما الامل فقد قيل من امل احداً هابه قال الباقر عليه السلام من أمل رجلا هابه ومن قصر عن شئ غابه وقال الهيثم ربما يبلغني عن الرجل يقع فيّ فاذكر استغنائى عنه فيهون ذلك عليّ واما الاستعظام فان الانسان متى استعظم أحداً استحي منه ولو لم يحتج اليه فيكبر فى نفسه أن يطلع على عيبه ولذلك لايستحي من الحيوان الغير الناطق ولا من الاطفال الذين لايميزون ويستحي من العالم اكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة اكثر مما يستحي من الواحد والذين يستحي منهم الانسان ثلاثة البشر ونفسه والله تعالى اما البشر فهم اكثر من يستحي منهم الانسان في غالب الناس ثم نفسه ثم خالقه وذلك لقلة توفيقه وسوء اختياره واعلم ان من استحي من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أحسن من غيره ومن استحي منهما ولم يستحي من الله فليس عارفاً بالله تعالى لانه لو كان عارفاً به لما استحي من المخلوق دون الخالق الا ترى ان الانسان لابد أن يستحي من الذي يعظّمه ويعلم انه يراه او يسمع بخبره فيبكته من لايعرف الله كيف يستعظمه وكيف يعلم انه يطلع عليه قال رسول الله استحيوا من الله حق الحياء أمر صلى الله عليه وسلم في ضمن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وتعالى وحث عليها وقال سبحانه أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى تنبيهاً على أَنَّ العَبْدَ اذا علم انّ ربه يراه استحي من ارتكاب الذنب وسئل بعض العلماء عما يتولد منه الحياء

من الله تعالى فقال أن يرى العبد آلاء الله ونعمه عليه ويرى تقصيره في شكره فان قال قائل فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم من لاحياء له لا ايمان له قيل له لان الحياء اوّل ما يظهر من امارة العقل في الانسان واما الانسان واما الايمان فهو آخر المراتب ومحال حصول المرتبة الآخرة لمن لم تحصل له المرتبة الاولى ومن ثمرات الخجل الحصر في المنطق فان كثيراً مايحصل ذلك للانسان اذا تكلم في جمع من الناس وأدركه الخجل حصر ولم يأت بما يريد وليس لذلك سبب الا الخجل . روى ابو الحسن المدائني قال صعد ابن لعدى ابن ارطاة المنبر فلما رأى الناس حصر فقال الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم وصعد روح ابن حاتم المنبر فلما رأى الناس قد رشقوه بابصارهم وصرفوا أسماعهم نحوه قال نكسوا رؤسكم وغضوا أبصاركم فان المنبر اول مركب صعب فاذا يسر الله عزَّ وجل فتح قفلاً ثم نزل وخطب مصعب ابن حيان أخو مقاتل ابن حيان خطبة نكاح فحصر فقال لقنوا موتاكم لا اله الا الله فقالت أم الجارية عجل الله موتك الهذا دعوناك ومن ثمرات الحياء المنع من القبيح فقد جعله الله في الانسان ليرتدع به عما تنزع اليه نفسه من القبيح فلا يكون كالبهيمة ومن كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه

لا تسئل المرء عن خلائقه * في وجهه شاهد عن الخبر

وقال الشاعر

ورب قبيحة ما حال بيني * وبين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجهاً وقاحا * تَقَلَّبَ في الامور كما يشاء

﴿ ومن ثمرات الروحانية ﴾ العفة فمن غلبت روحانيته عليه كان عفيفاً بالطبع لا بالاختيار . وصف اعرابي امرأة طرقها فقال ما زال القمر يرينها فلما غاب ارتنيه فقيل فما كان بينكما قال ما أقرب ما أحل الله مما حرّم اشارة في غير بأس

ودنوّ من غير مساس أنشد الرضي الموسوى رضى الله عنه

بتنا ضجيعين في ثوبي هوىً وتقىً * يلفنا الشوق من فرعٍ الى قدم
وبات باسم ذاك الثغر يوضح لي * مواقع اللثم فى داج من الظلم

وأحسن منه مطابقةً لهذا المقام قوله رحمه الله

خلونا فكانت عفة لا تعففاً * وقد رفعت فى الحي منا الموانع
سلوا مضجعى عني وعنها فاننا * رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

وشعر العرب فى هذا الباب كثير وعندي ان هـذا مذهب الشعراء معروف يخبرون به عن سجاياهم لا انهم تركوا القبيح لكونه قبيح وارتكبوا الحسن لكونه حسناً بل يصفون ما جبلت عليه نفوسهم. نزل خارجي على بعض اخوانه منهم مستتراً من الحجاج فشخص المنزول عليه لبعض حاجاته وقال لزوجتـه ياضيا أوصيكي بضيفي هذا خيراً وكانت من أحسن الناس فلما عاد بعد شهر قال لها كيف كان ضيفك قالت ما اشغله بالعمى عن كل شيء وكان الضيف قد اطبق جفنيه فلم ينظر الى المرأة ولا الى منزلها الى ان عاد زوجها ومثل هذا يروى لمجنون ليلى العامرية انه اجتمع معها فدخل زوجها فادخلت المجنون مابين جلدها وثوبها الى ان خرج زوجها فأخرجتـه فسئل المجنون بعد ذلك ما رأيت من محاسن ليلى فقال والله دخلت أعمى وخرجت أعمى وهذه حالة اضطرارية باعث عليها الطبع لا اختيارية والله اعلم

﴿ ومن ثمرات الروحانية ﴾ الوفاء اعلم ان الوفاء ملكة نفسانية تنشأ من لزوم العهد كما ينبغى والبقاء عليه والصدق ملكة تحصل من لزوم الاقوال المطابقة وهما فضيلتان داخلتان تحت فضيلة العفة متلازمتان شعر

كمال المروة صدق الحديث * وستر القبيح عن الشامتينا

وقال الاحنف بن قيس اثنتان لايجتمعان ابداً في بشر الكذب والمروة والمروة نتيجة الروحانية وللمروة ثمرات منها الصدق والوفاء والحياء والعفة وكل خلق حسن فهو من نتائج المروة والمروة نتيجة الروحانية المودعة في الانسان فيقوى كل خلق حسن في الانسان بقوة روحانيته ويضعف بضعفها ومنها الايثار على النفس مع الحاجة قال الله تعالى وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْكَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ قيل ان هذه الآية نزلت في رجل من الانصار احتمل ضيفاً نزل برسول الله ولم يجد عنده شيئاً فسار به الى منزله ووضع بين يديه طعاماً وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده مع الضيف يريه انه ياكل معه وهو لا يأكل حتى استوفى الضيف الطعام كله فلما اصبح قال رسول الله لقد عجب الله عز وجل من صنيعكم مع ضيفكم وقيل في سبب نزولها انه أهدي لبعض الصحابة رأس مشوي وكان مجهوداً فوجه به الى رجال فتداولته تسعة انفس ثم عاد الى الاول فنزل ويؤثرون على انفسهم ولوكان بهم خصاصة الآية وعن ابن عباس قال قال رسول الله يوم بني النضير للانصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من اموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم ولاموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة فقال الانصار بل نقسم لهم من اموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فنزلت هذه الاية وقيل نزلت في سبعة عطشوا في يوم احد فجيء بماء يكفي لاحدهم فقال واحد منهم فاول فلاناً حتى طيف على سبعتهم وماتوا ولم يشرب احد منهم فاثنى الله سبحانه عليهم وقيل نزلت في رجل جاء الى رسول الله فقال اطعمني فاني جائع فبعث الى اهله فلم يكن عندهم شيء فقال من يضيفه هذه الليلة فاضافه رجل من الانصار واتى به منزله ولم يكن عنده قوة صبية له فباتوا جياعاً وجعلا يضغان السنتهما لضيف رسول الله فظن الضيف انهما

يأكلان معه وباتا طاويين فلما أصبحا غدوا الى رسول الله فنظر اليهما وتبسم وتلا هذه الآية . هذا ما قيل والصحيح ان الذي اضافه ونوّم الصبية واطفأ السراج عليّ وفاطمة . ومن الطف ماجاء في الايثار على النفس حديث حذيفة العدوي قال انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه فلما وجدته اشرت اليه ان أسقيه فقال لي ابن عمي نعم فاذا رجل يقول آه فاشار اليّ ان انطلق اليه فجئته فاذا هو هشام ابنُ العاص فلما اشرت اليه سمع آخر يقول آه فاشار اليّ هشام ان انطلق اليه فجئته فاذاهو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فانصرفت الى ابن عمي فاذا هو قد مات . هذا ولنمسك عنان القلم عن الجري فيما يتعلق بالروحانية والايثار فالمجال وسيع والمقصود الاقتصار

« الخاتمة » في بيان أمرين الاول منهما في تنبيهات ثمانية تشتمل على ذكر ما يتعلق بنوع الانسان ولا يختص باحدى القوى التي ذكرناها

« التنبيه الاول »

قال بعضهم ان الأخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير واستدل فيه بامرين أحدهما ان الخلق هو صورة الباطن كما ان الخلق هو الصورة الظاهرة فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر ان يجعل نفسه طويلاً ولا الطويل يقدر ان يجعل نفسه قصيراً ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى والثاني ان حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا ان ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده وهذا

هو الحق فان قلت يلزم من ذلك بطلان الوصايا والمواعظ قلنا لوكان المراد بها تغيير الخلق صح ما قلتم ولكن المراد بها العمل على خلاف مقتضاه وهو ممكن وعليه يترتب الحسن والقبح والثواب والعقاب وبالجملة فلسنا بصدد النقض والابرام وأما ما نذهب اليه من تغيير الخلق وعدم تغيره فالى ما يذهب اليه جالينوس من القول بالتفصيل بان الناس على ثلاثة أقسام قسم طبع على الخير فلا يتغير الى الشر طبعه وقسم طبع على الشر وهم الاكثر ولا يتغير الى الخير طبعهم وقسم ثالث بينهما وهو القابل للتغيير كما يأتي بيانه عن قريب. فلنعود الى ذكر المستحسن من كلام الحكماء فمن الشواهد لهذا المذهب ما قاله ارسطاطاليس روم نقل الطباع من ردي الاطماع شديد الامتناع وضمن هذا المعنى المتنبي بقوله

يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقل

وقال ارسطاطاليس تغير الافعال التي هي غير مطبوعة أشد انقلاباً من الريح الهبوب وللمتنبي مثل هذا في قوله

وأسرع أفعالاً أردت تغيراً * تكلف شيء في طباعك ضده

وللمتنبي أيضاً في هذا المعنى

كل امرئ راجع يوماً لشيمته * وان تخلق أخلاقاً الى حين

﴿ وله أيضاً ﴾

ومن يبتدع ما ليس من خيم انفه * يدعه ويغلبه على النفس خيمها

﴿ وقال صالح بن عبد القدوس ﴾

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ثرى رمسه

اذا ارعوى عاد الى جهله * كذا الضنى عاد الى نكسه

سأل بعض الملوك وزيره هل الأدب يغلب الطبع أم الطبع يغلب الأدب

فقال الطبع يغلب الأدب لانه أصل والادب فرع وكل فرع يرجع الى أصله
ثم ان الملك استدعى الشراب واحضر سنانير بايديهم الشماع فوقفت حوله فقال
للوزير انظر خطاك في قولك الطبع يغلب فقال امهلني الليلة قال قد أمهلتك
فلما كانت الليلة الثانية اخذ الوزير في كمه فارتاً وربط في رجلها خيطاً ومضى
الى الملك فلما اقبلت السنانير بايديهم الشماع اخرج القارة من كمه فلما رأتها السنانير
رمت بالشماع وتبعت القارة فكاد البيت ان يحترق فقال الوزير انظر أيها الملك
كيف غلب الطبع على الادب ورجع الفرع الى اصله قال صدقت لله درك
وقد أحسن من قال

ظلمت امرءاً كلفته غير طبعه * وهل كانت الاخلاق الا غرايزا

وعن حماد الرواية قال كانت عتبة بنت عفيف وهي أم حاتم أعظم الناس سخاء
واكثرهم عطاء فلما اسرفت على نفسها وأضرّ بها جودها حبسها اخوتها في بيت
سنة يطعمونها قوتها ولا يمكنونها من مالها وكانت موسرة ثم أخرجوها بعد سنة
وهم يظنون انها قد بلغ بها الأدب ودفعوا اليها صرة من مالها فأتتها امرأة من
هوازن فسألتها فأعطتها الصرة ثم قالت في ذلك

لعمري ليوماً عضني الدهر عضة * فآليت ان لا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لمن قد لامني اليوم فاعفني * وان أنت لم تفعل فعض الاصابعا
فما ما ترون اليوم الا طبيعة * فكيف بتركي يا ابن أم الطبايعا

وقيل لما مات حاتم الطائي أراد أخوه ان يشتبه به في الجود فقالت له أمه لا
تتعب بما لا تناله فقال وما يمنعني وقد كان شقيقي من أمي وأبي فقالت اني لما
ولدته كنت اذا اردت رضاعه أبى وامتنع حتى آتيه بمن يشاركه في الثدي
الآخر وكنت اذا أرضعتك ودخل علينا صبي بكيت حتى يخرج وما أحسن

ماقاله المتنبي الماماً بهذا المعنى

وكل يرى طرق الشجاعة والندى * ولكن طبع النفس للنفس قائد

قال أمير المؤمنين اذا قوي الوالي في عمله حركته ولايتـه على حسب ما هو مركوز في طبعه من الخير والشر ومن هذا يعلم ان الطبع باعث على الخير والشر ولكن المانع اما الضعف وعدم القدرة او الخوف كما قال أبو الطيب المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلم

وقال أمير المؤمنين اذا كان في رَجُلٍ خَلَّةٌ رائعةٌ فانتظروا منهُ أخواتها مثال ذلك انسان مستور الحال عنا رأيناه وقد صدرت عنـه حركة تروعك وتعجبك اما لحسنها اولقبحها مثل ان يتصدق بشيء له وقع ومقدار من ماله او ينكر منكراً عجز غيره عن انكاره او يسرق او يزنى فينبغي ان ينتظر ويترقب منـه اخوات ما وقع منه وذلك لان الطبيعة التي فيه المحركة له الى فعل تلك الحركة لابد أن تحركه الى فعل ما يناسبها لأنها مادعته الى فعل تلك الحركة لخصوصية تلك الحركة بل لما فيه من المعنى المقتضى وقوعها . وهذا يتعدى الى غيرها مما يجانسها ولذلك لاترى احداً قد أطلعت من حاله يوماً على انه قد شرب الخمر الاوسوف تطلع فيما بعد منه على انه يشربها وبالعكس في الامور الحسنة فلا ترى أحداً قد صدر عنه فعل من أفعال الخير والمروة الا وسترى فيما بعد فاعلا نظيره او ما يقاربه . وشتم بعض سفهاء البصرة الاحنف شتماً قبيحاً فحلم عنه فقيل له فى ذلك فقال دعوه فانى قد قتلته بالحلم عنـه وسيقتل نفسه بجرأته فلما كان بعد ايام جاء ذلك السفيه وشتم زياداً وهو امير البصرة وظن انه كالاحنف فأمر به فقطع لسانه ويده . ومما ذكرنا في هذا التنبيه تبين امران احدهما ان الطبع غير قابل للتغيير والثانى ان الطبع باعث على افعال الخير والشر مالم يمنعه مانع من

ضعف او خوف ناشئ من عقل او شرع وحيث عرفت ان الطبع باعث على الافعال فلنتلو عليك شطراً مما اخترناه من الاخبار والاقوال في ان الافعال الظاهرة علامات على الاخلاق الباطنة وكاشفة عنها فمن ذلك قول امير المؤمنين عليه السلام اذا أردت ان تعرف طبع الرجل فاستشره فانك تقف من مشورته على عدله وجوره وخيره وشره ولله در القائل

قد يُستَدلُّ بظاهرٍ عن باطنٍ * حيث الدخان فثم موقد نارِ

وهذا مأخوذ من قولهم ما الدخان على النار وعلى العجاج على الريح بادل من ظاهر الانسان على باطنه ومن ذلك قول بعض الاوائل

ومهما تكن عند امرء من خليقةٍ * وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقال أمير المؤمنين ما أضمر أحدكم شيئاً الا ظهر على فلتات لسانه وصفحات وجهه والغلبة الامر يقع من غير تروٍّ وصفحة الوجه بشرته ولما كان الانسان انما يضمر في نفسه أمراً مهما عنده من عداوة او بغضه او محبته الى غير ذلك وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهراً له لم تمكن المرء ان يحفظ ما أضمره بالكلية لان مراعات ذلك الحفظ انما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة والعقل قد يشتغل بالتصرف في مهم آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره فينقلب الخيال به من سر العقل فيبعثه في فلتات القول من غير تروٍّ وكذلك لما كانت التصورات العقلية والامور النفسانية مبادئ للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل لم تنفك الامور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين وشاهد ذلك التجربة ولله قول القائل

لا تسئل المرء عن خلايقه * في وجهه شاهد عن الخبر

اذ الحياء مانع عن القبيح

وفى عينيك ترجمة اراها * تدل على الضغائن والحقود
واخلاق عهدت اللين فيها * عدت وكأنها زبر الحديد
وقد عاهدتني بخلاف هذا * وقال الله أوفوا بالعهود

ولبعض القدماء

ومطلع من نفسه ما يسرّه * عليه من اللحظ الخفي دليل
اذ القلب لم يبد الذي فى ضميره * فني اللحظ والالفاظ منه رسول

وما أحسن قول ابن المعتز

تفقد مساقط لحظ المريب * فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام * فانك تجنى ثمار العيوب

والشعر في هذا المعنى كثير وانما اقتصرنا منه على مقدار الحاجة وسيأتيك شطر آخر منه في علائم الحب والبغض من مورد السياسات النفسية كما ستقف عليه وقال الصادق لهشام من جملة بعض حديث له لأن الله تعالى لم يدل على الباطن الخفي من العقل الا بظاهر منه وناطق عنه فيعلم الباطن من الظاهر كما يعلم من حمرة الوجه وانتفاخ العروق وغلظ الصوت شدة الغضب وارادة الانتقام ومن اصفرار الوجه وتضائيل البدن وتحرك الفرائص شدة الخوف كل ذلك للتناسب بين النفس والبدن بحيث يصل أثر أحدهما الى الآخر كذلك يعلم الصفات النفسانية والكمالات الروحانية والعلوم والعقائد الراسخة القلبية من الاعمال والافعال الصادرة من الاعضاء الظاهرة والسر في ذلك هو ما حررناه من ان الاخلاق الباطنة باعثة على الافعال الظاهرة ودلالة الافعال الظاهرة على الاخلاق الباطنة كدلالة الأثر على المؤثر ﴿ تتمة ﴾ كما ان الافعال الظاهرة يستدل بها على الاخلاق الباطنة كذلك يستدل بالآثار الظاهرة على

الجسم على الاخلاق الباطنة فيه وهو المسمى بالفراسة فمعنى الفراسة هو الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن فمن ذلك ما روي فى الأثر ان الطرش في الكرام والهوج في الطوال والكيس في القصار وحسن الخلق فى الحول والكبر فى العور والبهت فى العميان والذكاء في الخرس وقيل مكتوب في التورات تسع خصال فى تسع رجال الشؤم فى الأعور واللجاجة فى الاحول والغفلة فى الطويل والضرامة فى القصير والكياسة فى الكوسج والتكبر فى الاعرج والشطارة في الاحدب والخبث فى الاشقر . حكى بعض الثقات عمن يثق به انه كان في محلتهم صبي متهم بالعمل الشنيع فرآه رجل فقال ياصبي أنت مخنث فقال من أين عرفت قال من هذه الشامة السوداء تحت عينك فاخذ الصبي مرآتاً ونظر الى تلك الشامة فقال غلطت أيها الرجل هذه الشامة جاءتني ميراثاً من أمي وأختي وعمتي وخالتي فقال أيها الصبي كلهم مثلك فجاءك هذا الفعل ميراثاً

توق رعاك الله تسعاً من البشر * فصحبتهم تفضي الى البؤس والضرر
وهم أحول مع اعرج ثم أحدب * كذا كوسج يتلو نشاطاً مع الكدر
واياك والانف الطويل واصفر * فانهما بيت الخيانة والخطر
كذا غائر الصدغين خارج جبهة * كذا ازرق العينين فالحذر الحذر
توقاهمو تحيا سليما من الردى * وباعدهمو ياذا الفراسة والنظر

وكانوا يقولون عظم الجبين يدل على البله وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة فاذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد والعين المتوسطة فى حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة والتي يطول تحديقها يدل على الحمق والتي يكسر طرفها تدل على خفة وطيش والشعر في الاذن يدل على جودة السمع والاذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان

﴿ التنبيه الثاني ﴾ في العادة . قد عرفت فيما تقدم ان سبب وجود الملكات شيئان أحدهما طبيعة والآخر عادة فالطبيعة هي ما يقتضيها أصل المزاج وأما العادة فهي الحاصلة بسبب التكرار والمزاولة للأعمال حتى تكون خلقاً يعسر زواله فقد قيل العادة طبيعة خامسة وقالوا ان الملكات تحصيل بتتابع الفعل وتكراره لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة وقال ان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كانها طبيعة وجبلة لذلك المحل قال بن خلدون فى مقدمة تاريخه الانسان بن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي الفه من الاحوال حتى صار ملكة وخلقاً وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة ومن الكلمات التي تعزى الى أمير المؤمنين العادات قاهرات من اعتاد شيئاً فى سره وخلوته فضحه فى جهره وعلانيته والقول في العادة كالقول فى الطبع فكما ان الطبع لا يمكن تغييره كذلك العادة يعسر زوالها وكما ان الطبيعة باعثة على الافعال كذلك العادة سائقة على الاعمال

اذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى * فان فطام النفس عنه شديد

ومن امثال العرب عادة السوء شر من المغرم ومعناه من عودته شيئاً ثم منعته كان اشد عليك من الغريم وقيل معناه ان المغرم اذا اديته فارقك وعادة السوء لا تفارق صاحبها بل توجد فيه ضربة لازب

من عود الناس احساناً وتكرمة * لا يعتبن على من جاء في الطلب

والعادة احد الاسباب الموجبة لصعوبة الموت والخروج من هذه الدار المألوفة المتبني

الف هذا الهواء اوقع في الأ * نفس ان الحمام مر المذاق

ظريفة : قدم رجل من سفر طويل فسأل غلاماً لصديق له ما حالك مع سيدك

قال اني كبرت وشبت وهو يفعل بي بحجة فقال له وما حجته قال انه يفعل بي مذ كنت صغيراً كل يوم ولا يترك يوماً واحداً فلما كبرت قلت له اني كبرت وشبت فاترك هذا الفعل بي فيقول لي يا بغيض من امس الى اليوم كبرت وشبت فلم اجد له جواباً وبقي مستمراً على هذا الفعل بي الى الآن . ومن كتاب بهجة السرور قدم رجل رجلاً الى قاضي حمص وقال ايها القاضي ان هذا الرجل جائني في العام الماضي وضربني ومزق ثيابي وجائني هـذا العام وفعل بي كذلك فقال القاضي هذا صار له رسم وعادة في كل سنة اعطه رسمه ولا تمنعه منه وفي العادة قالت الشعرآء فاكثروا فمن ذلك قول العتابي

ولكن فطام النفس اثقل محملا * من الصخرة الصمآء حين ترومها

ولاخره مثله

لا تهني بعد اذ اكرمتني * فشديد عادة منتزعه

ومن امثال العرب اذا تعود الستور كشف القدور فاعلم انه لا يصبر عنها وبالجملة فالنزوع عن العادة شديد ولسنا نقول ممتنع بل هو ممكن قال صاحب البردة

النفس كالطفل ان تهمله شبّ على * حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

وحيث ان العادة النزوع عنها شديد كان اكثر العقلاء يحذرون من العادات القبيحة ويتحرون الاعتياد على الافعال الحسنة ففي الحديث ان عيسى لقي خنزيراً على الطريق فقال له اذهب بسلام فقيل له أتقول هذا لخنزير فقال اني أخاف ان أعود لساني النطق بالسوء ومن هذا قال بعض العقلاء

عود لسانك صدق القول تحجى به * ان اللسان متى عودته اعتادا

ومن ثمرات العادة تهوين الامر الذي يعتاد عليه وان كان في الاصل شاقاً على النفس فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك

الاعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتأكد بالممارسة. قال ارسطاطاليس من استمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها وألمّ المتنبي بهذا المعنى فقال

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فأهون ما يمر به الوحول

ومن هذا قال بعضهم فهادوا نسائكم بالسب وعودوهن الضرب وكونوا كما قال الله تعالى واهجروهن في المضاجع واضربوهن الآية قال المتنبي مثله

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميّت ايلام

قال بعض الحكماء لا تكثر معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك ومن تأثير العادة ما روي في تفسير قوله تعالى استحوذ عليهم الشيطان أي غلب عليهم وسئل الشيطان أي ذنب اذا فعله بن آدم استحوذت عليه قال اذا أطاعني المرة الاولى أقول وذلك لان الانسان قبل طاعته لأبليس يستعظم المعصية فاذا فعلها هان أمرها عليه في الجملة واذا عصي مرة ثانية ازداد هوانه بامر المعصية وهكذا حتى لا يبالي ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام ما زنى غيور قط وذلك لأن من اعتاد الزنا حتى صار دربته وعادته وألفته نفسه لا بد ان يهون حتى يظنه مباحاً أو كالمباح لأن من تدرب بشئ ومرن عليه حتى زال قبح الزنا من نفسه لم يعظم عليه ما يقال في أهله واذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله سقطت غيرته ومن ذلك ما قالوا في تفسير العجب بانه حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة سبب الاشياء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه اوعدم الاعتياد على رؤية الاشياء أو سماعها مثاله ان الانسان اذا رأى حلية النحل ولم يكن شاهده قبل ذلك لكثرت حيرته لعدم معرفة فاعله فلو علم انه من عمل النحل لتحير أيضاً

من حيث ان ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع الذي عجز عن مثلها المهندس الحاذق من الفرجات والمسطرة ومن أين لها هذا الشمع الذي اتخذت منه بيوتها المتساوية التي لا تخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت في قالب واحد ومن أين لها هذا العسل الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء وكيف عرفت ان الشتاء يأتيها وانها تفقد فيه الغذاء وكيف اهتدت الى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الغار ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس فهذا معنى العجب وكل ما في العالم بهذه المثابة الا ان الانسان يدركه في زمن صباه عند فقد التجربة ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط عن نظره بطول الانس بها والاعتياد عليها فاذا رأى بغتة حيوانا غريباً أو فعلا خارقاً للعادات انطلق لسانه بالتسبيح فقال سبحان الله وهو يرى طول عمره أشياء تحير فيها نفوس الاذكياء فمن أراد صحة أو صدق هذا القول فلينظر بعين البصيرة الى هذه السموات والأجسام الرفيعة وسعتها وصلابتها وحفظها من التغير والفساد الى ان يبلغ الكتاب أجله فان الارض والهواء والبحار بالاضافة اليها كحلقة ملقات في فلات قال الله تعالى (والسماء بنيناها بايدٍ وانا لموسعون) ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكراره ومشاهدته ان اكثر الناس اذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي الى اعتقادهم كفره وقد يشاهدون من يخرج الصلات عن أوقاتها ولا تنفر طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع ان صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له الا ان الصلات تتكرر والتساهل

فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من اناء فضة استبعدته النفوس واشتد انكارها وقد يشاهد في مجلس طويل لا يشاهد الا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهوّن على النفس أمرها وسيأتي تمام الايضاح لهذا المطلب في باب من جهل شيئاً أنكره وفي باب كل يرى غيره بعين طبعه في باب حجب البصيرة ومن ثمرات العادة غلبتها على اللسان بل وسائر الاعضاء فكل من عانى نظماً أو نثراً وغلب عليه فن من الفنون مال به الى ذلك الفن الذي اعتاد عليه وغلبت عليه قواعده واستعملها في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه ألا ترى الى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم كيف يغلب عليه الفاظ المنجمين. حكي ان بعض الاطباء كان فى خدمة بعض الملوك فى غزوة لم يكن معه وقت النصرة كاتب يراسل فامر الطبيب ان يكتب الى الوزير يعلمه بذلك فكتب أما بعد فانا قد كنا مع العدو فى حلقة كدائرة البيمارستان حتى لو رميت مبضعاً لما وقع الا على رأس قيفال فلم يكن الا كنبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بحران عظيم فهلك الجميع بسعادتك يا معتدل المزاج ومما ينسب لابن سينا

تصدى بعد صد للوصال * وغازلني بسالفتي غزال
وابدى من محياه ثنايا * تراها كاللئالي فى الليال
بوجه لا يزال يدور فيه * على قطب الهوى فلك الجمال
محاسنه هيولى كل حسن * ومغناطيس أفئدة الرجال

وقريب من هذا قول من كان رياضياً حين احتضر اللهم يا من يعلم قطر الدائرة ونهاية العدد والجذر الاصم اقبضني اليك على زاوية قائمة واحشرني على خط مستقيم . ويحكى ان صاحب سلاح ملك وصايغا وصاحب بقرة ومعلم صبية انتضمهم سلك طريق فركبوا مركب الجد ووصلوا سير النهار بسير الليل الأليل فبينما هم فى وحشة الظلام ومقاسات خوف الظلال آنسهم البدر بوجهه الكريم واضاءت لهم أنوار كل مظلم بهيم فافاظ كل منهم فى ثناء وترشح باخلاء ما فى انائه فشبهه السلاحي بالترس المذهب يرفع عند الملك والصائغ بالسبيكة من الابريز تفتر عن وجهها البوتقه والبقار بالجبن الابيض يخرج من قالبه طرياً والمعلم برغيف أحمر يصل اليه من بيت ذي مروة وبالجملة فلكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم فلا تجد لكامل الا مثلاً كاملاً ولا لساقط الا مثلاً ساقطاً وبذلك يعرف شعر الملوكي من شعر السوقي اذ كل اناء ينضح بما فيه وسببه العادات والملكات فمن تمثيلاتهم الساقطة تمثيلهم للشيء المريب كقول الصنوبري

اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطبيب

وانصرف سيف الدولة بن حمدان من حرب وقد نصر على عدوه فدخل عليه الشعراء فانشدوه فدخل معهم رجل شامي فانشده له

وكانوا كفار وسوسوا خلف حائط * وكنت كسنور عليهم تشقف

فامر باخراجه ومدح رجل المهلب فقال

نعم أمير الرفقة المهلب * أبيض وضاح كتيس الحلب

وربما ألف المتخصص مثلاً عامياً أو تشبهاً ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل فى ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكي عن الاصمعي ان الرشيد سأله يوماً عن انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير

المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع أسقط الله جنبيك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفاء من الاصمعي الذي هو واحد عصره وقريع دهره في الرواية. وخلاصة الامر ان الامثال أو التشبيهات تابعة للاحوال والعادات اختصم اعرابي وحضر الى قاض فقال الاعرابي أيها القاضي انه وان هملج الى الباطل فانه عن الحق لقطوف وقال المبرد قيل لطفيلي كم اثنين في اثنين فقال أربعة أرغفة وقال طفيلي انتظرت فلاناً مقدار ما يأكل الانسان رغيفاً ومن ثمرات العادة وتأثيراتها ما يروى عن بقراط انه قال يداوى كل عليل بعقاقير أرضه لان الطبيعة تطلع بهوائها وتنزع الى غذائها وقال أفلاطون غذاء الطبيعة من أرضها من أنفع أدويتها وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببل القطر وأصل ذلك العادة والالف وما ولدوا عليه وما نشأوا فيه فالفوا وقت التحصيل والبلوغ وقد عملت العادة عملها وبلغت مبالغها قال بعض الاذكياء

والنفس مولعة بما عودتها * فدع الطبيب وعد الى المعتاد

اعتل سابور ذو الاكتاف بالروم وكان أسيراً فقالت له بنت الملك وقد عشقته ما تشتهي قال شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر فاتته بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقالت هذا من ماء دجلة وتربة من أرضك فشرب واشتم بالوهم فنقى من علته هذا ما ينبغي التنبيه عليه واستقصاء الكلام في العادة وثمراتها وفوائدها وذكر العادات القبيحة والعادات الحسنة يحتاج الى كتاب مستقل فيها فلنعود الى المهم من مقصودنا

﴿ التنبيه الثالث ﴾ في ان الطبع سراق من يجاوره ويصاحبه. روى الشيخ في الأمالى عن الصادق من جالس الأحمق يوشك ان يتخلق باخلاقه وقال سلطان

المتكلمين في كتاب الاخلاق ليس شيء أشد تأثيراً فى النفس من الجليس وقال فى رسالة آداب المتعلمين اياك والمناظرة مع غير مستقيم الطبع فان الطبع سراق والمجاورة مؤثرة والاخلاق معدية وقال المحقق الملا أحمد النيراقي فى كتاب معراج السعادة ان فى ابن آدم دواعي الخير ودواعي الشر وانما صاحبه يميل به الى أحدهما وقال فيه أيضاً وصحبة كل أحد توجب الاتصاف باوصافه والتخلق باخلاقه وكان بعض العقلاء يقول ليس شيء أنفع لقلب الانسان من مخالطة الصالحين والنظر الى أعمالهم وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر الى أفعالهم ومن هذا قيل

صاحب أخا أدب تحظى بصحبته * فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخذة مما تمر به * نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

فكم من طبع كريم أفسدته معاشرة الاشرار وطبع لئيم أصلحته مصاحبة الاخيار وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وقال بعض الحكماء لولده يا بني احذر مقاربة ذوي الطباع المرذولة لئلا يسرق طبعك من طباعهم وأنت لا تشعر ثم أنشده

واصحب الاخيار وارغب فيهم * ربّ من صاحبته مثل الجرب

قال الاصمعي جاور أهل الشام الروم فاخذوا عنهم خصلتين قلة الغيرة واللؤم وجاور أهل البصرة الخزر فاخذوا عنهم خصلتين الزنا وقلة الوفاء وجاور أهل الكوفة السواد فاخذوا عنهم خصلتين السخاء والغيرة ومن هذا قيل احذر مجالسة العاجز فانه من سكن الى عاجز أعداه من عجزه وعوده قلة الصبر ونساه ما فى العواقب وقال عدي بن زيد الخوارزمي

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وبالجملة فمسارقة الطبع من المعاشرة والصحبة أمرين لايحتاج الى برهان وأما صحبة المتشاكلين فى الطبع فلا يذهب من صفات بعضها بعضاً عن كل منهما فيقوى الشر اذا كان شريرين أو يزيد الخير اذا كان خيرين فيكمل الوجود المادة التي في الطبع ولذلك أجمع علماء الاخلاق على صلاح النفس وتهذيبها وقالوا لا يتأتى تهذيب النفس الا بمفارقة قرناء السوء وعدم استماع حكاياتهم اذ لا ضرر على النفس كجليس السوء قالوا اذا كان الطبع شريراً فانه ينفعه صحبة الاخيار لما قيل من تأثير الصحبة وبالعكس اذا كان خيراً فانه تفسده صحبة الاشرار الهمذاني

ايالك صحبة من تبدلك صحبته * بالخير شراً وبالاخلاق أخلاقا

فالماء والبردفاش من طبيعته * بصحبة النار يعطى اللمس احراقا

وعلى ما عنوناه جاء في الاخبار ان الولد تكون نجابته وحسن أخلاقه وايمانه وصفاته الحميدة والذميمة مضافتين الى الوالدين والاعمام والاخوال لان الخال كما قال أحد الضجيعين وصاحبته الابن لانه يسري الى أخلاق الصبي ثم معلم المكتب فان الصبي يأخذ من دينه لانه صادف قلباً خالياً فتمكن فيه ثم الصاحب والجليس ثم استاذه في العلوم وكان في مشهد مولانا الامام أبي عبد الله الحسين رجل من أهل السنة والجماعة عنده صبي حسن الصورة أراد ان يضعه في المكتب فوضعه فى مكتب الشيعة فقيل له انه يصير رافضياً فقال أعلم ذلك ولكن اذا وضعته فى مكتب أهل السنة ينيكه المعلم كل يوم لانه كان لواطاً وترفضه علي أسهل من نيكه ﴿بيان السبب فى المسارقة﴾ اعلم ان مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين وسببه أمران الاول هو الاعتياد كما ذكرنا سابقاً فلا يجالس انسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه فى باطنه الا ولوقاس نفسه الى ما قبل مجالسته لادرك

بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه وانما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فاذا صار مستصغراً بطول المشاهدة اوشك ان تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل اليه او لما دونه شيئاً فشيئاً. الثاني ما جبلت عليه النفس من حب الاقتداء والمماثلة للأمثال وسيأتي توضيحه في التنبيه الآتي وهو

﴿التنبيه الرابع﴾ فيما جبلت عليه النفس من التأسي بامثالها وحب المماثلة والأقتداء . اما التأسي فقد اودعه الله في النفوس ليهون عليها ما قدر من الحوادث اذا نظرت الى من اصيب بها من امثالها او ما هو اشرف منها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه واله تهويناً له امر الموت إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ وقال سبحانه وتعالى لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ اي في مصابه وما ينل منه في نفسه وفي اهله يوم احد فلا تجزعوا ان اصيب بعضكم وقد فسر بعض العلماء قوله تعالى وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ قال انه لا يهون على احد من اهل النار عذابه وان تأسى بغيره من المعذبين لان الله تعالى جعل لهم التأسي نافعاً في الدنيا ولم يجعله نافعاً لاهل النار مبالغةً في تعذيبهم ونفياً لراحة تصل اليهم اقول ولعل المراد انه لما كان من شان اكثر الناس التأسي بغيرهم فيتهاونون بالمعاصي بالنظر الى امثالهم بانهم اذا كانوا في النار معذبين يهون علينا الخطب اذا شاركناهم فيما هم فيه فرد الله عليهم بان التأسي لا ينفعكم ذلك اليوم اذ شدة العذاب تذهلكم عن الألتفات لغيركم ومن التأسي حديث ابي حمزة الثمالي مع الأمام زين العابدين لما دخل عليه ووجده يبكي على ما جرى عليهم يوم الطف قول ابي حمزة يا سيدي ان القتل لكم عادة وكرامتكم من الله الشهادة ألم يقتل جدك أمير المؤمنين

ألم ترَ جنازة عمك الحسن الى آخر الحديث كل ذلك تسلية له . ومن التأسي قول الخنسا في أخيها صخر هذه الابيات

ألا يا نفس لا تنسيه حتى * أفارق عيشتي وأزور رمسي
ولولا كثرة الباكين حولي * على أمواتهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن * أسلي النفس عنه بالتأسي

(وقال آخر من هذا)

ولولا الأسى ماعشت في الناس ساعة * ولكن اذا ناديت جاوبني مثلي

(وقال آخر مثله)

وهون وجدي عن خليلي انني * اذا شئت لاقيت الذي انا صاحبه

(وقال آخر منه)

ومما يؤديني الى الصبر والعزى * تردد فكري في عموم المصائب

ومن أمثال العرب قولهم الثكلا تحب الثكلا لانها تأسي بها في البكاء والجزع ومن ذلك لما استشعر الاسكندر الوفات كتب الى أمه يقدم عندها مقدمات التصبر عن مصابه بمواعظ ذكرها في كتابه ثم قال لها يا أمت اذا انا متُّ فاصنعي طعاماً حسناً كاملاً وشراباً لذيذاً حلواً واحضري له كافة الناس واعهدي اليهم ان لا يحضره من نابته من الدهر نائبة ولا من أصابته من الزمان مصيبة ليكون مأتم الاسكندر خلاف مأتم العامة ويكون لك في ذلك الذكر والصيت فلما مات امتثلت ذلك واختلفت في الطعام والشراب ودعت الناس اليه وعهدت اليهم بما أمرها فلم يأتها أحد فقالت ما بال الناس مع تقدمنا اليهم قد تخلفوا عنا فقيل لها أمرت ان لا يحضره من أصابته مصيبة وكل الناس أصابتهم المصائب ونابتهم النوائب فقالت يا اسكندر ما أشبه أواخرك باوائلك أردت والله ان

تعزيني عنك التعزية الكاملة والتأسي ليس مختصاً بذكر من أصابته مصيبة الموت بل منه فما دونه حتى ان الانسان ليتأسى عن الفقر بالفقر الذي أصاب غيره من أمثاله ويتأسى عن المرض بامثاله من المرضى بل وعن كل ما يورثهما بامثاله في امثاله وكل ما كان المتأسي به قريباً في الزمان والمكان والشكل والصناعة وغير ذلك من أسباب المماثلة كان اشد تأثيراً وأعظم تهويناً للامر المهم . ولما حصر عبد الله بن كريز في خطبته على المنبر بالبصرة وكان خطيباً شق عليه ذلك فقال له زياد بن ابيه وكان خليفته أيها الامير لا تجزع فلو اقمت على المنبر عامة من ترى اصابهم اكثر من الذي اصابك فلما كانت الجمعة تأخر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس ان الامير اليوم موعوك فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل قم فاصعد المنبر فلما صعد حصر فقال الحمد لله الذي يرزق هؤلاء وبقي ساكتاً فانزلوه واصعدوا آخر من الوجوه فلما استوى قائماً قابل بوجهة الناس فوقعت عينه على صلعة رجل فقال أيها الناس ان هذا الاصلع قد منعني الكلام اللهم فالعن هذه الصلعة فانزلوه وقالوا لوازع اليشكري قم الى المنبر فتكلم فلما صعد ورأى الناس قال أيها الناس اني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة ولكن امرأتي حملتني على اتيانها وانا أشهدكم انها طالق فانزلوه فقال زياد لعبد الله بن عامر كيف رأيت قم الآن فاخطب الناس فسرى همه بذلك وتأسى بغيره . ومن هذا يعلم ان الانسان يعظم عليه الامر اذا اختص به ولم يصب غيره وهذا غير ممكن فالتأسي فائدته تهوين الامر المكروه للنفس عليها

وأما حب المماثلة والاقتداء فقد ذكرنا جملة من امثاله في حب المشاكلة الذي هو من انواع الحسد وقد مرّ ومن أحسن شواهده قول علي بن مقلة

واذا رأيت فتىً بأعلى قمة * في شامخ من عزة المترفع

قالت لي النفس العزوف بفضلها * ما كان اولاني بهذا الموضع

وجاء فى الحديث المرفوع لا تنظروا الى من فوقكم وانظروا الى من دونكم فانه أجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم تنبيها على الانسان فى جبلته حب المماثلة لغيره قال ابو الفتح البستي

من شاء عيشاً رحيباً يستفيد به * في دينه ثم فى دنياه اقبالاً

فلينظرن الى من فوقه ادباً * ولينظرن الى من دونه مالاً

واعلم ان حب النفس للمماثلة والاقتداء بالغير هو السبب الكلي فى مسارقة الطبع وتغيره الى الفساد عند مشاهدة المعاصي والمفاسد اذ مهما شاهد الكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه ولذلك يزدري الناظر الى الاغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فى ان يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسته الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم وكذلك النظر الى المطيعين والعصاة وللمجاورة تأثير خفي فالفاجر اذا صحب تقياً وهو ينظر الى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الاصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص اقتداء به. قال جعفر بن سليمان مهما فترت في العمل نظرت الى محمد بن واسع واقباله على الطاعة فيرجع اليّ نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعاً وحينئذ فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال النبي صلى الله عليه وسلم واهل بيته في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته بعين الاستحقار وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماما للاقتداء. ومن نظر الى الاحوال الغالبة على اهل الزمان واعراضهم عن الله واقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم امر نفسه بادنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير

والشر فضلا عن مشاهدته وبهذه الدقيقة يعرف قوله صلى الله عليه وسلم عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة وهو كناية عن انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو ان عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لان كثرة ذكرهم تهون على الطبع امر المعاصي ويذعن للميل اليها فيكون ذكرهم موجباً للعنة واذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال مثل الجليس السوء كمثل الكير ان لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه فكما ان الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على النفس وهو لا يشعر به وقال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس مثل صاحب المسك ان لم يهب لك منه تجد ريحه ولهذا ينبغى لمن عرف من عالم زلةً ان لا يحكيها لان حكايتها تهوّن على المستمعين أمر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامهم الاقدام عليها فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية فانه مهما وقع فيها واستنكر ذلك دفع ذلك الأستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون الى مثله حتى العلماء والعباد ولو اعتقد ان مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الاقدام فاذا كان السماع هذا تأثيره فالمشاهدة أعظم تأثيراً في تهوين الامر والتهوين يرفع الموانع عن ميل النفس للشهوات وارتكاب المحظورات وقد علم من هذه الكلمات سببية كون الاخلاق معدية والطباع سراقة وعرف ماجبلت عليه النفس من الاقتداء والمماثلة والمتابعة

﴿ التنبيه الخامس ﴾ مما جبلت عليه النفوس ميلها لشكلها وانسها بجنسها قال بعض البلغاء من شأن الاجناس أن تتواصل ومن عادت الاشكال أن تتقاوم

والشيء يتغلغل الى معدنه ويحن الى عنصره فاذا صادف منبته ولاقى عنصره وشج بعروقه وشبك بفروعه وتمكن على الاقامة وثبت ثبات الطينة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو ان مؤمناً دخل الى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس اليه ولو ان منافقاً دخل الى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافقاً واحد لجاء حتى يجلس اليه وهذا يدل على ان شبه الشيء منجذب اليه بالطبع وان كان هو لا يشعر. قدم ناس الى مكة المشرفة فقالوا قدمنا الى بلادكم فعرفنا خياركم من شراركم في يومين قيل كيف قالوا الحق خيارنا بخياركم وشرارنا بشراركم فالف كل شكله . ومن هذا قال بعض البلغاء

تخير أخا فى الله تصحبه ساعةً * فكل امرئ يصبو الى من يجانس

وروى ان امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى مثلها فنزلت المكية على المدينة فدخلت على بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأضحكتها فقالت أين نزلت فذكرت لها صاحبتها فقالت صدق الله ورسوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والحق في هذا ان المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب والتناسب فى الطباع والاخلاق باطناً وظاهراً أمر مفهوم. وهذا الخلق لا يختص بالانسان بل يوجد في سائر الحيوانات. قال بعض الحكماء كل انسان مع شكله كما ان كل طير مع جنسه وكان مالك بن دينار يقول لا يتفق اثنان في عشرة الا وفي أحدهما وصف من الآخر فان أشكال الناس كاجناس الطير ولا يتفق نوعان منه فى طيران الا لمناسبة بينهما فرأى يوماً جماعة مع غراب فعجب من اتفاقهما وليسا من شكل فلما مشيا اذا هما اعرجان فقال من ههنا اتفقا فكل انسان يأنس الى شكله كما ان كل طير يألف الى جنسه وفي

الاثر انه لما مات بعض الخلفاء جمعت الروم ملوكها وقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فلنعبر الى بلادهم ونفتحها وكان فيهم رجل صاحب عقل ورأي فنهاهم فلما أصبحوا غدوا عليه فامر باحضار كلبين عظيمين قد اعدّهما ثم حرش بينهما فتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً قد أعدّه فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه فاقبل ذلك الرجل على الجميع من الروم وقال مثلكم على المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج من المسلمين ما لم يظهر لهم عدوّ من غيرهم فاذا ظهر العدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فقبلوا قوله وقد مرّ فى باب الحمية ما يضارع هذا المثل . ومن هذا الباب قول ارسطاطاليس الاشكال لاحقة باشكالها كما ان الاضداد مباينة لاضدادها ومنه اخذ المتنبي معنى قوله

وشبه الشيء منجذب اليه * واشبهنا بدنيانا الطغام

وسيأتي زيادة ايضاح لهذا المقام فى أسباب الالفة . واعلم كما ان المشاكلة موجبة للالفة فعدمها مقتض للنفرة باللازم من كتاب انيس العقلاء كان من عادة ملوك الفرس انه اذا غضب احدهم على عالم حبسه مع جاهل وغضب الرشيد على ثمامة بن الابرش وكان عالماً متبحراً فسلمه الى خادم له يقال له ياسر وكان ياسر يحسن اليه ويتأدب في حقه ويعظمه حتى سمعه ثمامة يوماً يقرىء ويل يومئذ للمكذَّبين بفتح الذال فقال له ثمامة ويحك ان المكذّبين هم الانبياء فقال له ياسر كان يقال عنك انك زنديق ولم أصدق أتشتم الانبياء يا ثمامة ثم انه أعرض عنه وهجره وتركه فلما رضي الرشيد عنه ورده الى مجلسه سأله يوماً في اثناء المحاورة ما أشد الاشياء قال عالم يجري عليه كلام من جاهل

ثم أخبره بقصته مع ياسر خادمه فضحك الرشيد من ذلك ومن هـذا قيل اذا أردت ان تعذب عالما فاقرن به جاهلا أقول وذلك ان الاقتران مع الجاهل عذاب الروح والضرب بالسياط عذاب البدن والعذاب على الروح أوجع وآلم

قال بعضهم

اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع من مخالفة الفقيه
فمنزلة السفيه مع الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه

وقال بعض الحكماء اني لارحم الحليم اذا اضطر الى مجاورة السفيه فلا شيء أشد عليه من ذلك لانه يدرك بعقله تدبير الاشياء فيحتال في كثير من الامور وما له فى السفيه من حيلة يرده بها عن جهله و يعرفه بها عن شيء من فعله فهو يتعذب بكل ما يصنع وينكر بكل ما يرى منه وسمع سأل بعض الحكماء ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل فقال لان الحمل الثقيل يشارك الروح الجسد في حمله والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله والسبب الكلي في التثاقل والتنافر هو عدم التناسب والتشاكل. في الحديث ان سليمان لما تفقد الهدهد ولم يره قال لاعذبنه عذاباً شديداً أو ليأتيني بسلطان مبين فلما أتاه بالحجة دفع عنه العذاب الشديد وقال لا بد من تأديبه حتى لا يجتري الطيور على مثل فعله فأمر به فحبس مع الحدائة في قفص واحد فلما نظر الهدهد الى كثافة طبعها و رقاقة طبعه وحسن منظره وقبح منظرها كان عليه عذاب روحاني فطلب من سليمان ان يخرجه من ذلك القفص ويعذبه أشد عذاب الطيور فطلب جماعة من الطيور وسأل عن عذاب الطيور فقالوا ان الطائر اذا زنى اجتمعت عليه الطيور ونتفت ريشه بمناقيرها حتى يصير قطعة لحم ملقاة ويكون

حاله هذا معذباً حتى ينبت له الريش ففعلوا بالهدهد ما قالوه وكان عليه أسهل من اجتماعه مع الحدائة وليس ذلك الا لعدم الجنسية. ولما اتصلت ميسور بنت بجدل الكلبية أم يزيد بن معاوية بمعاوية وكانت ذات جمال باهر وحسن عام أعجب بها معاوية وهيأ لها قصراً مشرفاً على الغوطة وزينه بانواع الزخارف ووضع فيه من أواني الفضة والذهب ما يضاهيه ونقل اليه من الديباج الرومي الملوّن والمواشي ما هو لائق به ثم أسكنها مع وصائف لها كامثال الحور العين فلبست يوماً أنخر ثيابها وتزينت وتطيبت بما أعد لها من الحلي والجوهر الذي لا يوجد مثله ثم جلست فى روشنها وحولها الوصائف فنظرت الى الغوطة وأشجارها تجاوب الطير فى أوكارها وشمت نسيم الازهار وروائح الرياحين والنوّار فذكرت نجداً وحنَّت الى أترابها وأناسها وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهدت فقالت لها بعض حظاياها ما يبكيكِ وأنت فى ملك يضاهي ملك بلقيس فتنفست صعداء ثم أنشدت

لبيت تخفق الارياح فيه * أحب اليّ من قصر منيف
ولبس عباءتي وتقر عيني * أحب الي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى كسر بيتي * أحب اليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج * أحب من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق دوني * أحب اليّ من قط ألوف
وبكر يتبع الاضعان صعب * أحب اليّ من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف * أحب الي من علج عنوف

فلما دخل معاوية عرفته الحظية بما قالت وقيل انه سمعها وهي تنشد ذلك فقال ما رضيت ابنة بجدل حتى جعلتني علجاً عنوفاً هي طالق ثلاثاً مروها فلتأخذ

جميع ما في القصر فهو لها ثم سيرها الى أهلها بنجد وكانت حاملاً يزيد فولدته بالبادية وأرضعته سنتين ثم أخذه معاوية منها بعد ذلك والارياح جمع الريح ومن هذا يعلم السبب في قلة اخوان أهل الفضل والكمال لقلة المناسبة فلا تكاد ترى الناقص الا مبغضاً للكامل قال المتنبي

واذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني كامل

دخل أبو العينا على المتوكل وعنده جلساته فقال له يا محمد كلهم كانوا في عينيك منذ اليوم ولم يبق أحد لم يذممك غيري فقال

اذا رضيت عني كرام عشيرتي * فلا زال غضباناً عليَّ لئامها

وقال رجل لأفلاطون ان فلان الحاكم يثني عليك ثناء جميلاً ويمدحك فتفكر الحكيم فقال له ذلك الرجل كيف صرت مناسباً لذلك الجاهل فصار يثني عليَّ ويمدحني لان المدح لا يكون الا بعد التناسب

﴿ التنبيه السادس ﴾ في ان الناس أعداء ما جهلوا قال الله تعالى (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) قال بعض الاذكياء

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض * يجد مراً به الماء الزلالا

وقال أمير المؤمنين قلت من جهل شيئاً عاداه وقال الله تعالى (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) وقال عليه السلام الناس أعداء ما جهلوا وهذه اللفظة من ألفاظه الشريفة التي لانظير لها ومن جهل شيئاً عابه . ومن أمثال العرب أعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود فان أصل ذلك ان العرب تزعم ان الثعلب نظر الى العنقود فرامه فلم ينله قال هذا حامض وحكى الشاعر ذلك فقال

أيها العائب سلمى * أنت عندي كثعاله

رام عنقوداً فلما * أبصر العنقود طاله

قال هذا حامض لما * رأى أن لا يناله

(وفي ذلك يقول ابن دريد أيضاً)

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعاب العلم من هو جاهله

قال بعض الاساطين لابنه يا بنيّ عليك بكل نوع من العلم في زمنه فان المرء عدوّ ما جهل وأنا اكره ان تكون عدوًّا لشيء من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرء في كل فن له علم

فانت عدو للذي أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

والعلة في ان الانسان عدوّاً ما يجهله هي انه يخاف من تقريعه بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء خصوصاً اذا ضمه ناد أو جمع من الناس فانه تتصاغر نفسه عنده اذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في اعين الحاضرين وكل شيء آذاك ونال منك فهو عدوك وفي هذا المعنى أنشد بعض العقلاء

جهلت أمراً فابديت النكير له * والجاهلون لاهل العلم أعداء

وقيل لأفلاطون لمَ يبغض الجاهل العالم ولا يبغض العالم الجاهل فقال لان الجاهل يستشعر النقص في نفسه ويظن ان العالم يحتقره ويزدريه فيبغضه والعالم لا نقص عنده ولا يظن ان الجاهل يحتقره فليس عنده سبب لبغض الجاهل

﴿ التنبيه السابع ﴾ في ان رضى الناس غاية لا تدرك قال بعض الاساطين لبعض أصحابه والله ما أقول لك الا نصحي انه ليس الى السلامة من الناس سبيل فانظر ماذا يصلحك فاعمله ولذلك قيل

من راقب الناس مات غما * وفاذ باللذة الجسور

ونظر بعض العلماء الى رجل من أصحابه فقال له اعمل كذا وكذا لشيء أمره به فقال يا أستاذ لا أقدر عليه لاجل الناس فالتفت الشيخ الى اصحابه وقال

لا ينال عبد حقيقة من هذا الامر حتى يكون باحد وصفين رجل تسقط الناس من عينيه فلا يرى في الدنيا الا خالقه وان احدا لا يقدر على ان يضره ولا ينفعه وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي باي حال يرونه . وقال بعض العلماء ان الاتيان بما تستحسنه جميع الطباع ليس في قدرة البشر ولبعض العقلاء

لو كنت كالقدح في التقويم معتدلا * لقالت الناس هذا غير معتدل

وحكى ان بعض العرفاء أراد أن يعلم ابنه السلوك وان يقطعه عن النظر الى الخلق فخرج راكباً على دابة هو وولده فقال بعض الناس انظروا الى هذين كيف ركبا على هذه الدابة وهي لا تطيق فنزل ولده عنها وبقي الوالد راكباً فقالوا أنظروا الى هذا الرجل كيف هو راكب وولده يمشي وكان الولد أولى منه بالركوب فنزل الوالد وركب الولد فقالوا انظروا الى هذا الولد ما اقل أدبه أبوه يمشي على أقدامه وهو راكب فقال لولده انزل فنزله عن الدابة ومشيا على أرجلهما وتركا الدابة تمشي دون راكب عليها فقالوا ما أقل عقل هذين يمشيا على اقدامهما والدابة لا راكب عليها فقال الرجل لولده انظر الى هذا الامر واعتبر به فانه لا يسلم أحد من القيل والقال فيه وان عمل وقد رأيته عياناً

ان كنت منبسطاً سموك مسخرةً * أو كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وان تصاحبهم قالوا به طمع * وان تجانبهم قالوا به ملل

ومثل ذلك قيل

وما أحد من ألسن الناس سالم * ولو انه ذاك النبي المطهر
فلو كان مقداماً يقولون اهوج * وان كان مفضالاً يقولون مبذر
وان كان سكيتاً يقولون ابكم * وان كان منطيقاً يقولون مهذر
وان كان صوّاماً وبالليل قائماً * يقولون زوّار يرائي ويمكر

فلا تحتفل بالناس في الذم والثنا * ولا تخش غير الله والله أكبر

حكى عن موسى عليه السلام انه قال إلهي أسألك ان لا يقال فيّ ماليس فيّ فأوحى الله اليه ذلك شيء ما فعلته لنفسي فكيف افعله بك وفي هذه الحكاية عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن اذكر مع انك ان التمست رضا جميع الناس التمست ما لا يدرك وكيف يدرك رضاء المختلفين ومما ينسب لامير المؤمنين

قد قيل ان الاله ذو ولد * وقيل ان الرسول قد كهنا

ما نجى الله والرسول معاً * من لسان الورى فكيف أنا

ومن كلام له عليه السلام فان أقل تقول حرص على الملك وان أسكت تقول جزع من الموت اشارة الى عدم انضباط لسان الناس فى حقه عليه السلام سواء طلب حقه أو سكت عنه كما قال الصادق صلى الله عليه وسلم ان رضى الناس لا يملك والسنتهم لا تضبط ألم ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر الى انه صلى الله عليه وسلم أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله على القطيفة و برأ نبيه من الخيانة وأنزل في كتابه وما كان لنبي ان يغل الآية وفصل الخطاب في هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بانواع النعم فاكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وكمل لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمته بل قالوا فيه مالا يليق به ووصفوه بما يستحيل عليه وأضافوا اليه بما يتقدس عنه فنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم من قال له البنات ومنهم من يجسمه ومنهم من يشبهه ومنهم من أنكره رأساً الى غير ذلك وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ويصح أجسامهم وحواسهم ويرزقهم وينعشهم ويقضي ماربهم فمعاصيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة قل كل يعمل على شاكلته

وينفق مما عنده وبالجملة فان رضاء الناس غاية لاتدرك فاشتغال المرء باصلاح
نفسه أولى . ومن أهون الحقوق حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم
والاملاكات وفيها تضييع الاوقات وتعرض للآفات ثم قد تعوق من بعضها
العوائق وتستقبل فيها المعاذير ولا يمكن اظهار كل الاعذار فيقولون له قمت بحق
فلان وقصرت في حقنا ويصير ذلك سبب عداوة . فقد قيل من لم يعد مريضاً
في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله اذا صح على تقصيره ومن عمم
الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا وتعميمهم بجميع
الحقوق لايقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف له مهم يشغله في
دين أو دنيا

﴿ التنبيه الثامن ﴾ في انقسام الانسان الى لئيم وكريم فاللئيم من غلبت عليه
القوة الشهوية والكريم من غلبت عليه الروحانية ولكل قسم خواص نذكرها
فيما بعد . اعلم انه اختلف الحكماء في هذا المطلب فقال الرواقيون ان كل الناس
في ابتداء الفطرة خلقوا على طبيعة الخير وبمخالطة الاشرار وممارسة الشهوات
التي لاتقمع بالتأديب يصيرون أشراراً وقال قبلهم قوم آخرون ان الناس خلقوا
على طينة السفلاء وهي كدر العالم فهم لاجل ذلك أشرار بالطبع وانما يصيرون
أخياراً بالتأديب والتعليم الا ان فيهم من هو في غاية الشر لا يصلحه التأديب
وفيهم من ليس هو في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب
من الصبا ثم بمجالسته الاخيار وأهل الفضل . وذهب جالينوس الى ان الناس
فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط
بين هذين وقابل للجانبين ثم أفسد المذهبين الاولين اما الاول فبأن قال ان
كان كل الناس أخيار بالطبع وانما ينتقلون الى الشر بالتعليم فمن الضرورة أن

يكون تعلمهم الشرور اما من أنفسهم واما من غيرهم فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشر أشراراً بالطبع فليس الناس اذاً كلهم أخيار بالطبع وان كانوا تعلموا من أنفسهم فاما ان يكون فيهم قوةً يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذاً أشرار بالطبع واما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتاق الى الشر قوة أخرى تشتاق الى الخير الا أن القوة التي تشتاق الى الشر غالبة قاهرة للتي تشتاق الى الخير وعلى هذا يكونون اشراراً بالطبع ايضاً. واما الرأي الثاني فانه ابطله بمثل هذه الحجة وذلك انه قال لان كان كل الناس اشرار بالطبع فاما ان يكون تعلموا الخير من غيرهم او من انفسهم ويعود الكلام الاول بعينه ولما ابطل هذين المذهبين صحح رأى نفسه وأثبت مذهبه بان قال أنا نشاهد عياناً بان من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم الكثير من الناس وليس ينتقل هؤلاء الى الخير ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة اهل الشر واغوائهم الى الشر. هذا مذهب جالينوس فيمن طبع على الخير وعلى الشر واليه تذهب وما ذكرناه من تغير الطبع او اكتسابه بالعادة او بالمسارقة او بالاقتداء بالامثال فذاك يختص بالقسم الثالث وهم المتوسطين فاما من طبع على الخير وهو كريم الطبع اعنى من غلبت عليه القوة الروحانية فلا تغيره معاشرة المفسدين بل هو مقيم على النهج المستقيم واما من طبع على الشر وهو اللئيم الذي غلبت عليه شقوته وقويت على روحانيته وعقله شهوته فلا تنفعه معاشرة الصالحين ولا تغيره عظة الواعظين

ومن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مراً به الماء الزلالا

والذي خبث لا يخرج الا نكداً وربما تضره اذا صادف من كلماتهم ما يقوّي

به شر طبعه لما يميل هواه الى الافراط كمثل مدحهم الاقتصار في النفقة وذم الاسراف فيميل طبعه الى رذيلة البخل وقد يقوى بتعريف المذمومات كالدهاء والجربزة والشره والظلم فيكون حاله في ذلك حال الغافل فاذا ذكر ذكرٌ فياخذ الاشياء على حسب طبعه فيكون لديه المحمود مذموماً وبالعكس

طربنا بتعريض المذول بذكركم * فنحن بواد والمذول بواد

وكثيراً ما حصلت هذه الرذائل في النفس الشريرة من تعريف الاستاذ أو مطالعة كتاب لان النفس تأخذ من كل شيء وتجعله على وفق مرادها وطبق هواها ويكون تنبيها للهوى واغراء للنفس الامارة لردائتها وخبثها فيستحيل المحمود مذموماً كما يستحيل الغذاء المحمود في المعدة الغالب عليها الصفراء الى الصفراء . ومن هذا ورد عن أمير المؤمنين لا تعلموا أولاد السفلة العلم فانهم اذا تعلموه طلبوا معالي الامور فاذا نالوها اعتنوا بمذلة الاشراف اقول والعلم لا يقتضي ذلك لكن النبات تابع لارضه . حكى ان امرأة كانت متزوجة بابن عمٍّ لها وهي متضررة منه وراغبة في فراقه فارسلت للعلماء في تدبير حيلة للفراق فلم تتمكن من ذلك حتى وصلت الى وضيع دنيء الاصل لئيم الطبع تعلم العلم فدبر لها ان تدعي انها ارتدت عن دين الاسلام وتختفي الى ان تنقضي عدتها فتصل الى الحاكم الشرعي وتعترف بصدور ذلك منها وانها تابت ورجعت الى دين الاسلام وأخذ على ذلك منها شيئاً ففعلت ما أمرها به فاستغرب الناس ذلك وجزموا ان لا يصدر هذا التعليم الا من ذلك الشخص فتفقدوه فلم يجدوه فاذا عرفت هذا فلنتلو عليك ما قيل في كريم الطبع ولئيم الطبع لتعرف نتائج اللئيم فمن ذلك ما ينسب للامير

من لم يكن عنصره طيباً * لم يخرج الطيب من فيه

كل امرئ يشبهه فعله * وينضح الكوز بما فيه

ومن كلامه عليه السلام احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع ليس يعني بالجوع والشبع ما يتعارفه الناس وانما المراد احذروا صولة الكريم اذا ضيم وامتهن واحذروا صولة اللئيم اذا أكرم ومثل المعنى الاول قول الشاعر

لا يصبر الحر تحت ضيم * وانما يصبر الحمار

ومثل المعنى الثاني قول أبي طيب المتنبي

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومن هذا قيل في الامثال اتق شر من أحسنت اليه ولبعض العقلاء

واخشى الاذى عند اكرام اللئيم كما * تخشى الاذى ان اهنت الحر في حقل

حكي ان رجلاً دنيء الاصل سافر الى مدينة فاشتد به الجوع فرأى رجلاً يبيع الزلابية فوقف قبالة دكانه حائراً فرق له قلب الزلابي ورحمه وقال له ادخل لاغديك فدخل فقدم له ما يكفيه من الزلابية والعسل فاكل حتى شبع واذا محتسب المدينة ماراً ينادي على اهل السوق ويزن عليهم ويحذرهم نقص الموازين وكذلك صناع الزلابية ان ينضجوها ولا يبيعوها طرية فقام هذا الرجل اللئيم وأخذ بعضاً من الزلابية وعجن بعضه بيده وقال للمحتسب نصرك الله على هذا الرجل يباع الزلابية انظر ما يفعله الناس من الغش قال فاخذ المحتسب صاحب الزلابية وضربه ضرباً مؤلماً فالتفت الى هذا الرجل وقال له ما ذنبي معك وأنا أشفقت عليك وأطعمتك حتى شبعت فسكت ثم انه اخرجه من دكانه . ووجد على صنم مكتوب حرام على النفس الخبيثة أن تخرج من هذه الدنيا حتى تسيء الى من أحسن اليها . وأما العلامة التي يعرف بها الكريم من اللئيم فالاحسان . وقيل الكريم يلين اذا استعطف واللئيم يقسوا اذا لوطف

وقيل احسانك الى الحرّ يحرّكه على المكافآت واحسانك الى النذل يبعثه على معاودة المسئلة . وحيث عرفت ان الاحسان الى اللئيم يدعوه للاساءة الى من أحسن معه فلا علاج له الاّ الاهانة له كما قيل

أهن عامراً تكرم عليه فانما * اخو عامرٍ من مسه بهوان

ومن امثال العرب انّ الهوان للئيم مرأمة أي عطف ورحمة . وقيل لا يصلح اللئيم لاحد ولا يستقيم الا من فرق او حاجة فاذ استغنى او ذهب خوفه عاد اليه جوهره هذا ما يقتضيه طبع اللئيم . ومما يقتضيه طبع اللئيم ايضاً الطعن في الناس وذكر مساويهم في منثور الحكم اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب . وقال بعضهم لا تخرج الغيبة الا من نفس معيبة . وقال عباس الاسدي ما الضاري على فريسته باسرع من الدني في عرض السري . اقول والغيبة لا تختص باللئيم فان الطعن في اعراض الناس والاشتغال بذكر مساويهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية . قيل لاسماعيل بن حماد ابن أبي خليفة اي اللحمان أطيب قال لحوم الناس هي والله أطيب من لحوم الدجاج والدراج يعني الغيبة . قال بعضهم بت ليلة بالبصرة مع رفقاء لي فلما كان وقت السحر حركهم واحد فقال كم هذا النوم عن اعراض الناس وقيل لشاعر وصله بعض الرؤساء وأنعم عليه ما صنع بك فلان قال ما وفت نعمته باسائته منعني لذة الثلب وحلاوة الشكوى . وللغيبة والطعن في الناس ما سوى خبث الطبع اسباب منها ان يشتفي الغيظ وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فسبق اللسان اليه بالطبع ان لم يكن دين وازع وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي فالحقد والغضب من

البواعث العظيمة على الغيبة . ومنها الحسد وهو انه ربما يحسد من يثني عليه الناس ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً اليه الا بالقدح فيه فيريد ان يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لانه يثقل عليه ان يسمع كلام الناس فيه وثناءهم عليه واكرامهم له . وهذا عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فان ذلك يستدعى جنابه من المغضوب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقريب الموافق ومنها موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو انكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن انه مجاملة فى الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج انه يغضب لغضبهم اظهاراً للمساهمة في الضراء والسراء فيخوض معهم في ذكر المساوي والعيوب . ومنها ان ينسب الى شيء فيريد ان يتبرئ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه ان يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره اليه ويذكر غيره بانه كان مشاركا له فى الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله . ومنها ارادة التصنع والمباهات فيرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه ان يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم انه أعلم أو يحذر ان يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه ذلك . هذا ماينبغي التنبيه عليه من آثار الطباع على وجه الاختصار وأما ما يؤثر في الطباع فامور كثيرة ولنقتصر منها على ذكر أمور ثمانية لها أثر بالنفوس انفعالا بها وذلك ما اشتمل عليه

﴿ الامر الثاني من امرى الخاتمية ﴾ فيما تنفعل فيه النفوس وذلك ثمانية أمور . الطمع والكلام المؤلف من أمثال أو أنواع بديعية والشعر والعين والنظرة

والاعتقاد والواهمة والتطير والتفاؤل ويتبع ذلك ثلاثة أمور لها تأثير وان لم يكن بالنفوس وهي اللسان والزمان والمكان ولنوضح ما أجملناه بذكر أمثال وأقوال على التفصيل

الاول من هذه الامور . الطمع والاحسان وله تأثير ظاهر بكل أحد ما عدا اللئيم الطبع وان أثر فيه أثرا ما جاء في الحديث ان الصفات الزلاء التي لا تثبت عليها أقدام العلماء الطمع ومن الامثال لبعض الشعراء تقطع أعناق الرجال المطامع ومن كلام أمير المؤمنين الطمع رق مؤبد

تعفف وعش حراً ولا تك طامعاً * فما قطع الاعناق الا المطامع

ومن كلامه احتج الى من شئت تكن أسيره واستغن عمن شئت تكن نظيره وانعم على من شئت تكن أميره . أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه الى أبي ذر الغفاري رضى الله عنه كيساً من الدراهم مع عبد له وقال ان قبل هذا فأنت حر فأتى الغلام بالكيس الى أبي ذر وألح عليه في قبوله فلم يقبل فقال له اقبله فان فيه عتقي فقال نعم ولكن فيه رقي . وحكى انه قال ابن العاص يوماً لمعاوية ما أشد حبك للمال قال لم لا أحبه وانا أستعبد به مثلك وابتاع به دينك ومروءتك وقيل ان الحجاج بن يوسف أرسل الى مالك بن دينار وحبيب الأعمى واستدعى بمال وقسمه شطرين فاعطا مالك بن دينار نصفه فأخذه واعطى حبيب الاعمى نصفه فرده وانصرفا فمر حبيب بمالك بن دينار وهو يقسم المال على الفقراء فقال له يا حبيب لاجل ذلك قبلنا المال فقال له حبيب دع هذا الكلام ولكني أسألك بالله العظيم ان تخبرني أيما أحب اليك الحجاج اليوم أو قبل اليوم فقال مالك اما اذا حلفتني بالله فهو اليوم احب اليّ فقال حبيب من هذا تركناه فلا خير في شيء يحبب الى الحجاج . ومن ذلك ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

جبلت النفوس على حب من احسن اليها ومن ذلك جاء عافية القاضي الى المهدي فاستعفاه من القضاء فقال ما السبب قال تقدم اليّ خصمان منذ شهرين ولم أحكم بينهما رجاء ان يصطلحا فوقف أحدهما على جنب الرطب وجمع رطباً لم يوجد مثله ورشا بوابي على ان يدخل الرطب فلما وضع الطبق بين يدي انكرت وطردته ورددت الطبق فلما قعد اليوم مع خصمه لم يتساويا في قلبي ولا عيني يا أمير المؤمنين هذا حالي ولم أقبل فكيف لو قبلت وقد فسدت الناس اني أخاف ان أهلك فاقلني اقالك الله فاقاله وقال المأمون لاحمد بن يوسف ان أصحاب الصدقات تظلموا منك فقال والله يا أمير المؤمنين ما رضى أصحاب الصدقات عن رسول الله حتى أنزل الله تعالى فيهم (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) فكيف يرضون عليّ فضحك المأمون وقال له تأمل في أحوالهم . وجاء في الحديث ان عابداً عبد الله دهراً طويلاً فقال له ان هاهنا شجرة يعبدها قوم من دون الله فغضب لذلك فأخذ فاسه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال أيها العابد اي ثمرة لك في قطع الشجرة وأنت متفرغ للعبادة فقال قطع الشجرة خير من العبادة فقال ابليس لا أدعك ان تقطعها فقاتله واخذه العابد وصرعه على الارض وقعد على صدره فقال ابليس اطلقني حتى اكلمك فقام عنه وقال ابليس ان الله تعالى قد اسقط عنك هذا فاعبد ربك وماعليك من غيرك قال العابد لابد لي من قطعها ثم تقاتلا مرة اخرى فصرعه العابد وقعد على صدره فعجز ابليس فقال هل لك في امر فصل بيني وبينك وهو خير لك وانفع قال وما هو قال اطلقني حتى اقول لك فاطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير وانت كلٌّ على الناس ويجب أن تتفضل على اخوانك فارجع عن هذا الامر ولك على أن يجعل في

كل ليلة عند رأسك دينارين اذا أصبحت أخذتهما فأنفقتهما على نفسك واخوانك وهو انفع لك من قطع الشجرة التي يغرس الناس مكانها غيرها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعها فتفكر العابد وقال صدق الشيخ ان الله لم يأمرني بقطع هذه الشجرة حتى اكون آثماً بتركها وما قال الشيخ اكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك فرجع العابد الى معبده فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذا الغد ثم أصبح اليوم الثالث فلم يرَ شيئاً فغضب فأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة الشيخ فقال الى أين قال الى قطع الشجرة فقال كذبت والله ما أنت قادر على ذلك ولا سبيل لك اليها فتناوله العابد ليأخذه كما فعل اول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين يديه وقعد ابليس على صدره وقال يا هذا لتنتهين عن هذا الامر او لاذبحنك فنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال ياهذا غلبتني نخل عني واخبرني كيف غلبتك اولاً وغلبتني الآن فقال لانك غضبت اولاً لله وكان نيتك الآخرة فلو قامت الخلائق لردك واجتهدوا في منعك وصدك لما ظفروا بك ولا قاموا بحربك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وبهذا الحديث يتبين معنى قول ابليس لعنه الله لما سئل أي ذنب اذا فعله ابن آدم استحوذت عليه فقال اذا اطاعني اول مرة وذلك لان الانسان قبل فعل الذنب يستعظم فعله فاذا فعله مرة هان عليه وهكذا حتى لايبالي به فيكون لعبة لابليس وعبداً مسخراً بطاعته وقد تقدم بيان ذلك فلنعود الى مانحن فيه ومن باب تأثير الطمع في النفوس ما ذكره ابن شهراشوب انه خرج من أصحاب أمير المؤمنين يوم صفين خالد السدوسى ونادى من يبايعنى على الموت فاجابه تسعة آلاف فقاتلوا حتى بلغوا فسطاط معاوية فهرب معاوية فنهبوا فسطاطه وانفذ

معاوية اليه يا خالد لك عندي امرة خراسان متى ظفرت فاقصر ويحك عن فمالك هذا فنكل خالد عنها فتفل أصحابه في وجهه وحاربوا الى الليل والباعث على الطمع شيئان الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتي وان كان كثيراً لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيراً لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدراً ويرى المال اعظم خطراً فيرى بذل النفس أهون الأمرين لأجلها مغنما وليس لمن كان المال عنده اجل ونفسه عليه أقل اصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب وروى ان رجلا قال يارسول الله اوصني قال عليك بالناس مما فى أيدى الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر الى آخر الحديث وقال بعض الشعراء

ومن كانت الدنيا مناه وهمه ❁ سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطالع شيئان اليأس والقناعة وسيأتي كلٌ فى بابه هذا تأثير الطمع فى النفس وسيأتي تمام الايضاح والكلام عليه فى اسباب المحبة والالفة وفي طرق التوصل ايضا وأما تأثيره فى العقل فسنوضحه فى الحجب العقلية

الثاني من المؤثرات في النفس. العين والنظرة قال أمير المؤمنين عليه السلام العين حق والرقي حق والسحر حق والفال حق والطيرة ليست بحق والعدوى ليست بحق الى آخر الحديث وقال عليه السلام في حديث آخر العين حق ولا تأمنها منك على نفسك ولا منك على غيرك فاذا خفت شيئاً من ذلك فقل ما شاء الله لاقوة الا بالله العلي العظيم وعنه من أعجبه من أخيه شيء فليبارك عليه فان العين حق وقال لوكان شيء يسبق القدر لسبقت العين . وقال أمير المؤمنين لو قال الناس لشيء طوبى له الا وقد خبء الدهر له يوم سوء . ادخل على النبي بابني جعفر بن أبي طالب وهما ضارعان فقال مالي اراهما ضارعين قالوا تسرع اليهم العين فقال استرقوا لهما . وفي هذا الحديث وامثاله دلالة على

تأثير العين وانها مؤثرة باعتبار ان النفس القوية باصل خلقتها تقوى على التأثير في غيرها فينفعل منها ماهو أضعف منها من النفوس الساذجه ولهذا ان العين لاتؤثر في كل احد وان هذا التأثير يندفع بالرقية بالاسماء والآيات لما هو مقررٌ ان الفيض متوقف على الاسباب ومن تأثير العين ما ذكره بعض العلماء ان نبياً من الانبياء استكثر قومه يوماً فامات الله منهم مائة الف في ليلة واحدة فلما اصبح شكى الى الله من ذلك فقال الله تعالى له انك لما استكثرتهم عنتهم فهلا حصنتهم فقال يارب فكيف احصنهم قال تقول حصنتكم بالحي القيوم الذي لايموت ابداً ودفعت عنكم السوء بلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال صاحب الكتاب وهكذا السنة في الرجل اذا رأى نفسه سليمة واحواله معتدلة يقول في نفسه ذلك وحكى بعض الثقات عمن يثق به ان جماعة كانوا يخرجون الى الجبال لصيد الوعول والوحوش بالتفك فقال رجل من الاكراد انا اخرج معكم غداً الى الصيد فخرج معهم فقالوا له أين آلة الصيد قال هي معي وستنظرونها فلما بلغوا الجبل رأوا وعلا على رأسه فقالوا انظروا كيف أصيده فجلس ينظر الى الوعل ويشبهه ويستعظم سمنه وقرونه وعظمه فوثب الوعل من صخرة الى أخرى فاخطأ الصخرة ووقع من أعلا الجبل فانكسرت يده ورجله فاخذه وذبحه فقالوا له اخرج من بيننا فانا نخاف من عينك فاخرجوه عنهم وقد شاهدنا من هـذا الباب كثير وقال بعض العلماء في كتابه كان علماء الفرس والهند وأطباء اليونانيين ودهات العرب وأهل التجربة من نازلة الامصار وحذاق المتكلمين يكرهون الاكل بين يدي الحيوانات المفترسة يخافون عيونها للذي فيها من النهم والشره ولما يحل عند ذلك من أجوافها من البخار الردي وينفصل من عيونها مما اذا خالط الانسان نقص بنية قلبه وأفسده وكانوا يكرهون قيام الخدام بالمذاب والأشربة على رؤوسهم

خوفاً من أعينهم وشدة ملاحظتهم اياهم وكانوا يأمرون باشباعهم قبل ان يأكلوا
وكانوا يقولون في الكلب والسنور اما ان يطرد أو يشغل بما يطرح له . وقال أيضاً
كان عندنا عيانان فمر أحدهما بحوض من حجارة فقال تالله ما رأيت كاليوم
حوضاً أحسن منه فانصدع فلقتين فمر عليه الثاني فقال وأبيك لقلما ضررت
أهلك فيك فتطاير أربع فلق وسمع آخر صوت بول من وراء جدار حائط
فقال انك كثير الشخب فقالوا هو ابنك فقال وانقطاع ظهراه فقيل لا بأس
عليه انشاء الله فقال والله لا يبول بعدها أبداً فما بال حتى مات وسمع آخر
صوت شخب ناقة بقوة فاعجبه فقال أيهن هذه فوروا باخرى عنها فهلكتا جميعاً
المورّى بها والمورّي عنها . وللحكماء في تعليل ذلك قول لا بأس به قالوا هذا عائد
الى نفس العاين وذلك لان الهيولى مطيعة للأنفس متأثرة بها ألا ترى ان
نفوس الافلاك تؤثر فيها بتعاقب الصورة عليها والنفوس البشرية من جوهر
نفوس الافلاك وشديدة الشبه بها الا ان نسبتها اليها نسبة السراج الى الشمس
فليست عامة التأثير بل تأثيرها في أغلب الامر في بدنها خاصة . ولهذا يحمى
مزاج الانسان عند الغضب ويستعد للجماع عند تصور النفس صورة
المعشوق فاذاً قد صار تصوّر النفس موثراً فيما هو خارج البدن عنها لانها
ليست حالة فى البدن عندهم فلا يستبعد وجود نفس لها جوهر مخصوص
مخالف لغيره من جواهر النفوس تؤثر في غير بدنها . ولهذا يقال ان قوماً من
الهند يقتلون بالوهم والاصابة بالعين من هذا الباب وهو ان يستحسن بالنفس
صورة مخصوصة ويتعجب منها وتكون تلك النفس خبيثة جداً فينفعل جسم
تلك الصورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفعل البدن للسم

﴿الثالث من المؤثرات﴾ الاعتقاد . قال محمد بن زكريا ينبغي للطبيب ان

يبشر أبداً بالصحة وان كان غير واثق بها فان المزاج تابع لاعراض النفس وحين رأى الطبيب الفضل بن يحيي حين ضرب مائتي صوت لما جيء به اليه ليعالجه فقال الطبيب احسبه ضرب خمسين سوطاً قيل بل مائتي سوط قال الطبيب ما أظن ان هذا الا اثر خمسين سوطاً ثم لما رآه قد نبت لحمه قال أتحفظ قولي هذا اثر خمسين سوطاً قال نعم قال والله لو ضربت الف صوت ما كان اثرها باشد من ذلك وانما قلت ما قلت لتقوي نفسك فتعينني على علاجك . وقيل ان شيروان كان صاحبها عبد الله خان رجلاً تركياً فاصابه القولنج فرأى الحكيم محمود عماد الدين ان يحقنه وكان طبيباً حاذقاً فسأله عبدالله خان عن الحقنة فاخذ يصفها بان يوضع في الاست انبوبة فقال عبد الله خان في است من وكان فاسقاً فتاكاً فخاف الحكيم من سطوته فقال في استي فسكن ما به وامر بالحكيم ان يحقن فرضي الحكيم بحقنته لنفسه خوفاً منه فحقن الحكيم واتفق ان عبد الله برئ من تلك العلة بحقنة الحكيم

﴿الرابع من المؤثرات﴾ الواهمة والخيال من كتاب نهج البلاغة قيل له عليه السلام باي شيء غلبت الاقران فقال ما لقيت أحداً الا أعانني على نفسه يومى الى تمكن هيبته في القلوب قال الشارح ابن أبي الحديد قالت الحكماء الوهم مؤثر وهذا حق لان المريض اذا تقرر في وهمه انه مرض مرض قاتل ربما هلك بالوهم وكذا من تلسعه الحية ويقع في خياله انها قاتلة فانه لا يكاد يسلم منها وقد ضربوا لذلك مثلا بالماشي على جذع معرض على مهواة فان وهمه وتخيل السقوط يقتضي سقوطه والا فمشيه عليه وهو منصوب على المهواة كمشيته عليه وهو ملقي على الارض لا فرق بينهما الا الخوف والوهم والاشفاق والحذر فكذلك الذين بارزوا علياً من الابطال لما كان قد طار صيته واجتمعت الكلمة على انه

ما بارزه أحـد الا كان المقتول غلب الوهم عليهم فقصرت انفسهم عن مقاومته وانخذلت أيديهـم وجوادهم عن مناهضته وكان هو فى الغاية القصوى من الشجاعة والاقدام يقتحم عليهم فيقتلهم والاصـل فى تأثير الواهمة ما هو محرر من ان الاحوال الجسمانية تابعة للاحوال النفسـانية وقد وجدنا كثيرا من يموت في ايام الوباء من الواهمة واخبرني من أعتمد على نقله ان لصوصاً قبضوا على رجل فجعلوا يعذبونه لاخراج ماعنده فأوهمهم انه مكلوب وجعل يعض الواحد منهم بعد الواحد ليخلص نفسه منهم فاطلقوه وفى انفسهم ما اوهمهم به من الكلب فلما رجعوا الى أهلهم كلبوا كلهم وماتوا . ونظير هذا فى التضرر بالوهم ماقاله محققو الحكماء انه لو لدغت حية انساناً فلم يرها فاخبر انه لدغه زنبور حتى صح عنده ذلك ربما لم يمت ولو انعكس عنده الحال لربما مات قالوا الوجه فيه انه اذا اخبر عن لدغة الزنبور انها لدغ حية ضعف القلب وانقبض وفتر البدن وفتحت المسام الى القلب حتى يكون هو العلة فى سرعة وصول السم الى القلب وسم الزنبور اذا توجه الى القلب يكفي فى موت ذلك الانسان واما اذا صح عنده انه لدغه زنبور قوى القلب وبقوته يقوي البدن فتصلب العظام ويشتد اللحم وتنسد الفرج والمسام فيشيع السم فى كل البدن ولا يصل منه الى القلب ما يقتله

واعلم ان تأثير الواهمة لا يختص بالانسان بل يؤثر فى سائر الحيوانات حتى قيل ان الهر يحتال فى صيد الفارة انواعاً من الحيـل منها الواهمة فان الفأرة اذا كانت فى السقف والهرة فى الارض تلاعبت لهـا ووثبت من الارض توهمها انها تقدر على الوصول اليها فعند ذلك يغلب الوهم من الفارة على العقل وتعطل الحواس منها فتقع على الارض فتصيدها . وللواهمة آثار عجيبة تكاد ان لا يحتملها العقل لولا الوجدان وقد حدثني بعض من أثق به انه خرج لزيارة الحر الشهيد

وبات مع جماعة من أصحابه هناك فبينماهم جالسين اذ سقطت حية من السقف ووقعت على رجل منهم كان نائماً ثم انسابت الى حفر وبعد ذلك استيقظ الرجل فقال اني أحسست بثقل كان علي فقيل له تصارعنا فوقعنا عليك ثم ان رجلاً منهم لم يحتمل الكتمان فاخبره بخبر الحيه فأخذته الحمى من ساعته وبقي عليلاً ثلاثة أشهر ومات وللواهمة ماهو أغرب من هذا نزل أمير بقرية فاحتاج الى مزين يمسح شعره فجاء الامير وحده اليه وقال انا حاجب هذا الامير الذي قد نزل بكم فامسح شعري فان كنت حاذقاً جاء الامير فمسحت شعره وانما فعل ذلك لئلا يعلم انه الامير فينزعج فيجرحه . وقد تغلب الواهمه على الانسان فيظن الاشياء على حسب الغالب على طبعه كما تأتي الاشارة اليه في الحجب العقلية وعندذلك يرتكب مالا ينبغي من دون تروٍ . حكى شهاب الدين أحمد الطفاشي في كتاب رشد اللبيب ان رجلاً من المعتزلة جنى جناية فاخذه جنود الحاكم يجرونه فاجتمع الناس عليه فرأته امرأة في الطريق على تلك الحالة فسألت عن خبره فقيل انه معتزلي جنى جناية فخلعت نعلها وجعلت تصفعه به فقيل لها لم استحق منكِ الصفع ولستِ عالمة بامره فقالت اليس يعزل عن النساء والعزل مكروه شرعا فاستحق الصفع فضحك الجماعة من قولها . قال المؤرخون لما مدح النحاس بن فروخ بقصيدته التي اولها . بات ساهي الطرف والشوق يلح ولم يكن له حظ توهم انه عمه وعرض بهجاه في قوله

كل عيش ينقضي مالم يكن * مع مليح مالذاك العيش ملح

لان ابن فروخ كان أعور ذميم المنظر فاعرض عنه ولم يعطه جائزة ولما انشد ذو الرمة قوله * مابال عينيك منها الماء ينسكب * وكان بعين عبد الملك مرض لاتزال عينه تدمع منه فقال له وما سؤالك عن هذا ياجاهل وامر باخراجه

وكذلك فعل هشام ابنه بابي النجم لما انشده

صفراء قد كادت ولما تفعل * فكأنها في الافق عين الاحول

وكان هشام انما يعرف بالاحول فظن انه عرض به فامر باخراجه وطرده . وبالوهم يبلغ الذكي مراده ويصل به الى ما أراده كما حكى انه جاء رجل الى سليمان النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ان لي جيراناً يسرقون اوزي فنادى الصلاة جامعة ثم خطبهم فقال في خطبته واحدكم يسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح رجل رأسه فقال سليمان خذوه فانه صاحبكم . ومن الامثال أنت في مثل صاحب البعره وذلك ان رجلا كانت له ظنة في قوم فجمعهم ليستبرئهم فاخذ بعرة فقال اني أرمي ببعرتي هذه صاحب ظنتي فجفل لها احدهم فقال لا ترمني ببعرتك فاخصم على نفسه يضرب لكل مظهر على نفسه ما لم يطلع عليه . ونقل قطب الدين الراوندي بسند صحيح انه نفذ رجل غلاماً مع ابنه الى الكوفة فتخاصما فضربه الابن فنكل عنه الغلام وسبه حتى ادعى انه مملوكه فتحاكما الى أمير المؤمنين وقال لقنبر اثقب في الحائط ثقبين ثم قال لاحدهما ادخل رأسك في هذا الثقب ثم قال يا قنبر عليّ بالسيف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم عجل اضرب رقبة العبد منهما قال فاخرج الغلام رأسه مبادرا ومكث الآخر في الثقب فادّب الغلام على ما صنع ثم ردّه الى مولاه وقال لئن عدت لاقطعن يديك . وحكى ان عبداً اشترى يوماً سمكاً وقال لاهله اصلحوه ونام فاكل عياله السمك ولطخوا يده فلما انتبه قال قدموا السمك قالوا قد أكلت قال لا قالوا بلى شم يدك فشمها قال صدقتم ولكن كأني ما شبعت . وقال الجاحظ كان رجل يرقي الضرس يسخر بالناس ليأخذ منهم شيئا وكان يقول للذي يرقيه اياك ان يخطر على قلبك الليلة

ذكر القرد فيبيت وجعا فيكر اليه فيقول لعلك ذكرت القرد فيقول نعم فيقول
من ثمّ لم تنفع الرقية وذكر أبي الفرج ابن الجوزى في كتاب الاذكياء عن
داود بن رشيد قال قلت لهيثم بن عدى بماذا استحق سعيد بن عبد الرحمن ان
ولاه المهدى القضاء وانزله منه تلك المنزلة الرفيعة قال ان خبره لظريف اعلم انه
أتى الى باب الخليفه فوافى حاجب الربيع وقال له استاذن لى على أمير المؤمنين
المهدى فاني قد رأيت له رؤيا صالحة وقد أحببت اني اذكرها له فقال له الربيع
ان الناس مايصدقون مايرونه لانفسهم فكيف مايراه له غيرهم فاحتل بحيلة
غير هذه فقال له ان لم تخبره بذلك والا سألت من يوصلني اليه وأخبرته اني
سألتك الأذن فلم تفعل فدخل الربيع على المهدي وقال له انكم اطمعتم الناس في
انفسكم وقد احتالوا لكم بكل ضرب من الحيل فقال المهدي هذا صنع الملوك
فماذا قال رجل بالباب يزعم انه رأى لامير المؤمنين رؤيا صالحة وقد احب ان
يقصها على امير المؤمنين فقال المهدي ويحك ايها الربيع اني ارى الرؤيا لنفسي
فلا تصح فكيف اذا رآها لي من لعله افتعلها قال قد قلت له مثل ذلك فلم
يقبل قال فهات الرجل فادخل عليه سعيد بن عبد الرحمن وكان صبيح الوجه
حسناً جيلاً له هيبة ووقار ولحية حسنة ولسان فصيح حاد فقال المهدي هات
بارك الله عليك ما رايت فقال يا امير المؤمنين رايت آت اتاني في منامي فقال
لي اخبر امير المؤمنين انه يعيش في الخلافة مدة ثلاثين سنة وآية ذلك يرى في
ليلته هذه في منامه انه يقلب ياقوتاً ثم يعده فيجده ثلاثين ياقوته وكأنها قد
وهبت له فقال المهدي ما احسن ما رأيت ونحن نمتحن ذلك في هذه الليلة
المقبلة فان كان الأمر على ما ذكرته اعطيناك كما تريد وان كان بخلاف ذلك لم
نعاقبك لعلمنا ان الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت قال سعيد فماذا أصنع انا

الساعة اذا صرت الى منزلي وعدت صفر اليدين وقد علموا اني كنت عند امير المؤمنين فقال له المهدي وكيف نصنع قال تعجل لي يا امير المؤمنين ما أحب وأحلف لك بالطلاق اني كنت صادقاً في رؤياي فامر له بعشرة آلاف درهم وامر ان يؤخذ منه كفيل ثم نظره فراى غلاماً حسن الوجه واقفاً على راس المهدي فقال هذا الغلام يكفلني فقال له المهدي انت تكفله فاحمر وجه الغلام وخجل وعرق وقال نعم انا اكفله فانصرف واستاذن فاذن له فلما وقع نظر المهدى عليه قال سعيد هل رأى أمير المؤمنين شيئاً فتلجلج المهدي في جوابه فبادره سعيد وقال امرأتي طالق ان لم تكن رأيت ما ذكرته لك فقال له المهدي ويحك ما أجراك على الحلف قال اعلمي يقيناً اني أحلف صادقاً فقال المهدي والله قد رأيت ذلك يقيناً قال له سعيد الله اكبر انجز لي ما وعدتني قال حباً لله وكرامة فامر له المهدي بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت ثياب وثلاث مراكب من أحسن دوابه فأخذ ذلك وانصرف فتبعه ذلك الغلام الذي كفله وقال سألتك بالله العظيم هل كان لهذه الرؤيا حقيقة فقال له سعيد والله لولا انك واجب الحق علي لما قد أوليتني من احسانك حيث تكفلت لي لما كنت أخبرتك والله ولا رأيت شيئاً ولا أصل لها فقال وكيف ذلك وقد رأى أمير المؤمنين جميع ما ذكرته له فقال له هذا من المخاريق الكبار الذي لا تتوجه لها أمثالكم اعلم واكتم اني لما ذكرت له الرؤيا اشتغل فكره وتعلق خاطره بها فلما نام خيل له ماكان في قلبه مما شغل فكره وتعلق خاطره به فرأى ذلك في منامه لان الانسان اذا نام وفكره مشتغل بشيء رآه في النوم فقال له الخادم وكيف تجرأت وحلفت بالطلاق على صحته قال اني حلفت واحدة وبقيت اثنتان علي فازيد في المهر عشرة دراهم من الذي حصل لي من عشرة آلاف درهم وثلاثة

آلاف دينار وعشرة تخوت ثياب وثلاث مراكب فبهت الخادم وبقي متحيراً وانصرف سعيد وقربه المهدي بعد ذلك . ومن آثار الواهمة غلبتها على الجوارح حتى يظهر أثرها عليها كغلط وشبهة فمن ذلك ما قيل انه دخل رجل على المستعين العباسي وقبائه مخرق فسئل عن ذلك فقال اجتزت بالدرب وكان فيه كلب لم أره فوطئت قبائه فخرّق ذنبي . وقيل دخلت امرأة على عمر بن الخطاب وكان حاسر الرأس فدهشت المرأة فقالت أبا غفر حفص الله لك وأرادت ان تقول أبا حفص غفر الله لك فقال عمر ما تقولين فقالت صلعت من فرقتك وأرادت ان تقول فرقت من صلعتك . ونزل ابن الجصاص يوماً مع الخاقان الوزير في حراقة وفي يده بطيخة كافور فاراد أن يعطيها الوزير ويبصق في دجله فرمى البطيخة في الماء وبصق في وجه الوزير فارتاع الوزير وانزعج ابن الجصاص فقال والله العظيم لقد أخطأت وغلطت أردت ان أبصق في وجهك وأرمي بطيخة الكافور في الماء فقال الوزير وكذلك فعلت يا جاهل تغلط في الفعل وتخطي في الاعتذار . وحكى نفطويه عن حكيم بن عياش الكلبي انه اجتمع عند عبد الملك وفود الناس من قريش والعرب فبينما هو في المجلس اذ دخل عليهم اعرابي وكان عبد الملك يعجب به فسرّ عبد الملك وقال هذا يوم سرور وأجلسه الى جانبه ودعى بقوس و رمى عنها وأعطاها من على يمينه فرمى عنها حتى اذا صارت الى الاعرابي فلما نزع فيها بقوة ضرط الاعرابي فرمى بها مستحياً فقال عبد الملك دهينا في الاعرابي وكنا نطمع في انسه واني أعلم انه لا يسكن ما به الا الطعام فدعى بالمائدة وقال تقدم يا اعرابي لتضرط وانما أراد لتأكل فقال له الاعرابي قد فعلت انا لله وانا اليه راجعون . فقال عبد الملك لقد امتحنا هذا اليوم والله لاجعلنها مذكرة يا غلام ائتني بعشرة آلاف دينار

فجاء بها فاعطاها للاعرابي فلما صارت له تسلى وانبسط ونسى ما صدر منه فانشد حكيم ابن عباس الكلبي

ويضرط ضارط من عبدقيس * فيحبوه الامير بها بدورا
فيالك ضرطة جرّت كثيراً * ويالك ضرطة اغنت فقيرا
يود القوم لو ضرطوا جميعاً * وكان حباؤهم منها عشيرا
ايقبل ضارط الفاً بالف * فاضرط لله اصلح الله الاميرا

قال فتبسم عبد الملك واجاز حكيم ابن عياش بمثلها

﴿ الخامس من المؤثرات ﴾ الكلام المؤلف من معان بديعية أو مشوب بامثال . قال بعض المحققين اعلم ان للكلام تاثيرا في النفس . كما تظهر آثاره في الحس . ولهذا ترى رقيق الشعر . يفعل ما لا يفعله رقيق السحر . وجليل العباره . فيه من الاثاره . ما يشجع الجبان وينشط الكسلان . ويسخي البخيل . وينجي الذليل . ويسحر الارواح . ويسخر الاشباح . ويعطف القلوب . ويؤلف بين المحب والمحبوب . ويصير العدو صديقاً . وغليظ الاحرار رقيقاً . ومن ذلك أخذ بعضهم معنى قوله

حديث لو ان الميت يؤتى ببعضه * لأصبح حياً بعد ما ضمه القبر

وقال الميداني فى مجمع الأمثال وفد على النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاهتم عن الزبرقان فقال عمرو مطاع فى أذنيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان يا رسول الله انه ليعلم منى اكثر من هذا ولكنه حسدني فقال عمرو اما والله انه لزم المروءة ضيق العطن أحمق الوالد لئيم الخال والله يا رسول الله ما كذبت في الاولى ولقد صدقت في الأخرى ولكني رجل رضيت فقلت

أحسن ما علمت وسخطت فقلت أقبح ما وجدت فقال ان من البيان لسحراً يعني ان بعض البيان يعمل عمل السحر ومعنى السحر اظهار الباطل في صورة الحق والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن وانما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له وكان بعض الاعراب يلازم شجراً ويقول هو نديم فيه ثلاث خصال ان سمع مني لم ينم عليّ وان تفلت في وجهه احتمل مني وان عربدت عليه لم يغضب فسمع الرشيد ذلك فقال زهدني في الندماء . ومن المستعذب مايحكى عن الفضل قال دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وعنده جاريته ماريه وكانت تحسن الشعر بديها والادب مع الحسن والجمال فقال يا فضل قل في هذا الورد . فانشدته

كأنه فم محبوب يقبله * فم المحب وقد أبدا به خجلا

فقال الرشيد ما تقولين يا ماريه . فانشدته

كأنه لون خدي حين تدفعني * كف الرشيد لأمر يوجب الغسلا

فقال الرشيد قم يا فضل فقد هيجتني هذه الماجنة فقمت وقد أرخيت الستور . وللامثال من الكلام موقع في الاسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها . ولا يؤثر تأثيرها . لان المعاني بها لا تحه . والشواهد بها واضحة . والنفوس بها وامقه . والقلوب بها واثقة . والعقول له موافقة . فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لانها في العقول معقولة . وفي القلوب مقبولة . وبالجملة فقد جبلت القلوب على التأثر بالامثال وثبوت المعاني فيها بواسطتها وكذا الكناية عن الشيء بلازمه فان له في النفس أثر عظيم ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر بقوله عليه السلام قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن

عن سرعة التقليب ﴿ السادس من المؤثرات ﴾ الشعر قال الحكم بن قنبر

مقالة الذم الى أهلها ✽ أسرع من منحدر سائل

قيل كان الرجل من نمير اذا قيل له ممن الرجل يقول من نمير وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله

فغض الطرف انك من نمير ✽ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

صار اذا قيل لاحدهم ممن الرجل يقول من بني عامر وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير ومثل هذا ما قاله ابن نفيل في عبد الملك بن عمير القاضي

اذا كلمته ذات ذل لحاجة ✽ فهم بان يقضي تنحنح او سعل

قال عبدالملك تركني والله وان السعلة لتعرض لى في الخلاء فاذكر قوله فاهاب ان أسعل . ومن تأثير الشعر ماحكاه أبو اسحق الصابي في كتاب الناجي قال كان لمعز الدولة غلام تركي يدعى بكين الجامداراً أمرد وضيء الوجه منهمك في الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللهو واللعب فلفرط ميل معز الدولة اليه وشدة اعجابه به ما جعله قائد سرية جرها لحرب بعض بنى حمدان وكان المهلبي يستظرفه ويستحسن صورته ويرى انه من عدد الهوى لا من عدد القوى فمن قوله فيه

طفل يرق الماء فى ✽ وجناته ويرق عوده

ويكاد من شبه العذارى ✽ فيه ان تبدو نهوده

ناطوا بمعقد خصره ✽ سيفاً ومنطقة تؤده

جعلوه قائد عسكر ✽ ضاع الرعيل ومن يقوده

فما كان باسرع من ان كانت الدائرة على هذا القائد وخرج الامر على ما أشار اليه المهلبي بن أبي صفره وذكر صاحب جمهرة الامثال ان عامر بن مالك ملاعب

الأسنة وفد على النعمان في رهط من بني جعفر بن كلاب فيهم لبيد بن ربيعة فطعن فيهم ربيع بن زياد وذكر معايبهم ولم يزل به حتى صده عنهم فرجعوا الى رحالهم يتشاورون في أمره فقال لبيد وهو غلام يحفظ رحلهم اذا غابوا انا صاحبه والله لئن جمعتم بيني وبينه لافضحنه فقالوا اشتم هذه البقلة لبقلة قدامهم تدعى التربة فقال هذه التربة لا تذكو ناراً. ولا توهل داراً. ولا تسترحالا. عودها ضئيل. وفرعها ذليل. وخيرها قليل. اقبح البقول مرعاً. واقصرها فرعاً. واشدها قلعاً. بلدها شاسع. وآكلها جائع. والمقيم عليها قانع. أي سايل فلما اصبحوا غدوا به معهم فوجد الربيع يأكل مع النعمان فذكر الجعفريون حاجتهم فاعترض الربيع فقال لبيد

أكل يوم هامتي مقرعه * يارب هيجا هي خير من دعه
نحن بني أم البنين الاربعه * سيوف حق وجفان مترعه
ونحن خير عامر بن صعصعه * الضاربون الهام تحت الخيضعه
والمطعمون الجفنة المدعدعه * ياواهب الخير الكثير من سعه
اليك جاوزنا بلاداً مسبعه * نخبر عن هذا خبراً فاسمعه
مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه * ان استه من برص ملمعه
وانه يولج فيها أصبعه * يولجها حتى يوادي اشجعه
* كأنما يطلب شيئاً ضيعه *

فقال النعمان اكذلك أنت ياربيع ورفع يده عن الطعام ثم قال انى لهذا طعاماً وأمر بالربيع فصرف الى أهله فكتب الى النعمان

لأن رحلت جمالي ان لي سعة * مامثلها سعةً عرضاً ولا طولا
بحيث لو وزنت لخم باجمعها * لم يعدلوا ريشة من ريش شمريلا

وشمريل طائر فاجابه النعمان

شرّد برحلك حيث شئت ولا * تكثر عليّ ودع عنك الاباطيلا

قد قيل ذلك ان حقاً وان كذبا * فما اعتذارك في شيء اذا قيلا

ومثل هذا ما وقع لابي نواس مع ابان اللاحقي على ما ذكر في كتاب طبقات الشعراء قال كان ابان اللاحقي شاعراً ظريفاً يمدح البرامكه وكان خصوصاً من بينهم جعفر وكان لا يكاد يفارقه وكانت البرامكه اذا أرادوا تفرقة مال على الشعراء ولوه ذلك فامروا له يوماً بمال يفرقه فيهم وكان كثيراً له خطر فامر لابي نواس بدرهم ناقص وأرسل له اني أعطيت كل شاعرٍ على قدره وهذا مقدارك فوجد عليه ابونواس فلما قال ابان قصيدته الحائية التي يصف فيها نفسه ويتفنن فيها عند جعفر بن يحيي وهي هذه القصيده

أنا من حاجة الامير وكنز * من كنوز الامير ذو ارباح

كاتبٌ حاسبٌ اديبٌ خطيب * ناصح راجح على النصاح

شاعر مفلق اخف من الـ * ـريشة مما تكون تحت الجناح

لو رآني الامير عاين مني * سمهريا كالجلجل الصياح

لحية سبطة وانف طويل * واتقاد كشعلة المصباح

لست بالمفرط الطويل ولا با * لمستكن المحيد الدحداح

ايمن الناس طائراً يوم صيد * لغدوٍ دعيت أم لرواح

ابصر الناس بالجوارح والاكلا * ب والاخرد الصباح الملاح

وبلغ أبو نواس هذه القصيدة فقال والله لاعرّفنه نفسه فانشأ يقول

ان أولا بخسة الحظ مني * بالمسمى بالجلجل الصياح

قبلوا منه حيث خف لديهم * أخرس الصوت غير ذي افصاح

ثم بالريش شبه النفس ثم با * لخفة مما يكون عند الجناح
فاذ الشم من شماريخ رضوى * عنده خفة لدى السباح
لم يكن فيك غير شيئين مما * قلت من نعت خلقك الدحداح
لحية سبطة وأنف طويل * وهباء سواهما في الرياح
فيك ما تحمل الملوك على الا * خرق وتوري بالسيد الجحجاح
فيك تيه وفيك عجب شديد * وطماح يفوق كل طماح

فلما انتهى الشعر الى أبان اللاحقي وسقط في يده علم انه ان بلغ الى البرامكه سقط عندهم وندم على ما كان منه فبعث الى أبي نواس لاتذيعها ولك حكمك فبعث اليه لو أعطيتني الدنيا لم يكن بدٌّ من اذاعتها فا صبر على حرارة كيها واعرف الآن قدرك قال فلما سمع جعفر شعر أبي نواس في اللاحقي قال والله لقدقذفه بخمس خصال لاتقبله السفلة على واحدة منها فكيف تقبله الملوك فقيل له ياسيدنا انه قد كذب عليه فتمثل بقول النعمان

قد قيل ذلك ان حقاً وان كذباً * فما اعتذارك في شيء اذا قيلا

والحكايات من هذا الباب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية في بيان تأثير الشعر فى قائله أو فيمن قيل فيه

﴿ السابع من المؤثرات ﴾ في النفوس التطير قال في مفتاح دار السعادة التطير انما يضر من أشفق منه وخاف واما من لم يبال ولم يعبأ به فلا يضره البتة لاسيما ان قال عند رؤية مايتطير به او سماعه اللهم لاطير الا طيرك ولاخير الاخيرك ولا اله غيرك اللهم لايأتي بالحسنات الا أنت ولا يذهب بالسيئات الا أنت ولا حول ولا قوة الا بك واما من كان معتنياً بها فهي أسرع اليه من السيل الى منحدره وقد فتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويفتح له

الشيطان من المناسبات البعيدة والقريبة مايفسد عليه دينه وينكد عليه معيشته انتهى وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم الطيرة على ما تجعلها ان هونتها تهونت وان شددتها تشددت وان لم تجعلها شيئاً لم تكن قال ابن خلكان من قبيح ما وقع لابي نواس ان جعفر بن يحيي البرمكي بنى داراً استفرغ فيها جهده فلما كملت وانتقل اليها صنع فيها ابو نواس قصيدة امتدحه بها أولها

اربع البلا ان الخشوع لبادي * عليك واني لم أخنك ودادي

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم * بنى برمك من رائحين وغادي

فتطيروا منها بنو برمك وقالوا نعيت لنا انفسنا يا أبا نواس فما كانت الا مد يده حتى أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة. وذكر الطبري والخطيب البغدادي وابن خلكان وغيرهم ان جعفر بن يحيي البرمكي لما بنى قصره وتناهى بنيانه وكمل حسنه وعزم على الانتقال اليه جمع المنجمين لاختيار وقت ينتقل فيه اليه فاختاروا له وقتاً فى الليل فخرج في ذلك الوقت والطرق خالية والناس هادئة فرأى رجلا قائما يقول

تدبر بالنجوم ولست تدري * ورب النجم يفعل ما يشاء

فتطير ووقف ودعا بالرجل وقال له اعد ما قلت فاعاده فقال ما أردت بهذا قال ما أردت به معنى من المعاني ولكنه شيء عرض لي وجاء على لساني فامر له بدينار ومضى لوجهه وقد تنغص سروره وتكدر عيشه فلم يكن الا قليل حتى أوقع بهم الرشيد. وبنى عبيد الله بن زياد داراً عظيمة فمر بها بعض الاعراب فرأى في دهليزها صورة أسد وكلب وكبش فقال أسد كالح وكبش ناطح وكلب نابح والله لم يمتع بها فلم يلبث عبيد الله فيها الا أياما يسيرة حتى اهلكه الله تعالى وحكى أيضا ان صاحب قرطبه أصابه وجع فامر بعض جواريه ان تغنيه ليلهو

عن وجهه فقالت بيتاً مفردا

هذي الليالي علمنا ان ستطوينا * فشعشعينا بماء المزن واسقينا

قال فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات . ومن ذلك لما بنى السفاح داره بالأنبار ودخل عبد الله بن الحسن ابن حسن فتمثل حين رأى السفاح بهذا البيت

يؤمل أن يعمر عمر نوح * وأمر الله يحدث كل ليلة

فتغير وجه السفاح فاعتذر اليه عبد الله بانه جرى على لسانه فما مر عليه أيام حتى مات ومن عجيب ما يحكى في التطير أيضاً ان السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب لما خرج من القاهرة الى جهة البلاد الشامية أقام ظاهر البلد لتجتمع العساكر وعنده الاعيان من الدولة والعلماء والادباء فاخذ كل واحد يقول شيئاً في الوداع والفراق وكان في الحاضرين معلم أولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وأشار الى السلطان منشداً

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض السلطان والناس وتطيروا من ذلك وكان الامر على ما قال فانه لم يعد بعدها الى مصر واشتغل بالبلاد الشرقية وفتوح القدس والسواحل الى ان مات وذكر القليوبي في نوادره قال حدث ابن المكي عن أبيه قال قال لي محمد الامين في آخر أيامه يا مكي اني والله أحب ان أقعد يوماً قبل ان يحال بيني وبين ملكي فقلت يا أمير المؤمنين افعل ذلك فقال اغدي علي في غد قال فانصرفت فغدى علي رسوله في السحر فجئت اليه وهو في صحن داره وعليه جبة وأشياء مذهبة تتألق وعمامة مثلها ما رأيت لاحد قط مثل ذلك وتحته كرسي من ذهب مرصع بالجواهر فدعى لي بكرسي فجلست عليه عن يساره ثم قال

لخادم على رأسه ادع لي فلانة وفلانة حتى عد أربعة جوار ما منهن الا وأنا أعرف حذقها وجودة غنائها فخرجن وجلسن عن يمينه ثم قال يا غلام علي برطل فاتى برطل وجام بلور مكلل بالجواهر فالتفت الى التي تليه وقال لها غني فضربت ضرباً حسناً وغنت بشعر الوليد بن عتبة بن أبي معيط

همو اقتلوه كي يكونوا مكانه * كما قتلت كسرى بليل مرازبه
بنو هاشم ردوا سلاح أخيكم * ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

قال فرمى بالجام في وسط الدار ثم قال لعنك الله ما هذا قات والله يا سيدي ما جاء على لساني غير هذا ثم التفت الى الغلام وقال له اسقني فاتاه بجام مثل الاول فاخذه وقال للثانية غني فغنت ما قيل في كليب بن وائل . شعر

كليب لعمري كان اكثر ناصراً * وأيسر ذنب منك ضرج بالدم

فرمى بالجام من يده فكسره ثم قال يا غلام علي برطل وقال للثالثة غني فغنت

أتقتل عمراً لا أبا لك شارداً * وتزعم بعد القتل انك هارب
فلو كنت بالاقطار ما فت ضربتي * وكيف تفوت الحين والدم طالب

قال فرمى بالجام وقال يا غلام علي برطل وقال للرابعة غني فغنت شعراً

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلاد نحن كنا أهلها فابادنا * صروف الليالي والخطوب الزواجر

قال فالتفت الي وقال قد سمعت هذا أمر يريده الله عز وجل قال فما مضيت أيام حتى رأيت رأسه معلق على القصر . هذا تأثير التطير وقد عرفت في صدر الباب ان الطيرة لا تؤثر الا فيمن يعبأ بها

﴿ الثامن من المؤثرات ﴾ التفاؤل بالاسماء . تفاءل هشام بن عبد الملك بنصر بن سياد فقلده خراسان فبقي فيها عشر سنين وتفاءل عامر بن اسماعيل

قاتل مروان بن محمد باسم رجل لقيه فسأله عن اسمه فقال منصور بن سعد قال من أي العرب قال من سعد العشيرة فاستصحبه وطلب مروان فظفر به وقتله وتفاءل المأمون بمنصور بن بسام فكان سبب مكانته عنده. قالوا انما أصل اليد اليسرى العسرى الا انهم ابدلوا اليسرى من العسرى تفاؤلاً وكذلك تسميتهم اللديغ بالسليم. وفى الحديث قال سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي قدم جدى حزن أبي وهب على النبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم له كيف اسمك قال حزن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل سهل قال ما كنت لادع اسما سمتنى به امي قال سعيد فانا نجد تلك الحزونة فى اخلاقنا الى اليوم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفال الصالح والاسم الحسن ويكره الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من تطير أو تطير له.. ويروي انه صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء وكان اذا بعث عاملا سأل عن اسمه فاذا أعجبه سر به.. ورؤى بشر ذلك في وجهه وان كره اسمه رؤيت الكراهة على وجهه واذا دخل قرية سئل على اسمها فان أعجبه ظهر على وجهه. وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال يوما من يحلب هذه اللقحة فقام رجل فقال ما اسمك فقال مرة قال اجلس ثم قال صلى الله عليه وسلم من يحلب هذه اللقحة فقام رجل فقال ما اسمك قال يعيش فقال صلى الله عليه وسلم احلب وكان كثيراً ما يتفاءل بالاسماء ونحوها من الكلمات الطيبة أو السفر وغيره مما يأتي به من الافعال والتأسي به سنه. وفي السير انه صلى الله عليه وسلم لما خرج الى بدر مرّ برجلين فسأل عن اسمهما فقال أحدهما مسلخ والآخر مخذل فعدل عن طريقهما وليس هذا من الطيرة التي نهى صلى الله عليه وسلم عنها بل من باب كراهة الاسم القبيح وكذلك تشاؤمه ممن اسمه مرّة لانه اسم لابن الشيطان

وبه كني ابليس أبا مرّة او لاشتقاقه من المرارة وكذلك كراهته لمن اسمه حرب وقد كان صلى الله عليه وسلم يكتب الى امرائه اذا أبردتم الى بريداً فابردوه حسن الاسم حسن الوجه ونزل صلى الله عليه وسلم على كلثوم بن الهدم فصاح بغلام له يانجيح فقال صلى الله عليه وسلم انجحت يا كلثوم وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يقول ياحسن فقال أخذنا فالك من فيك

﴿ تتمة ﴾ ومما ينبغي الحاقه بهذه التأثيرات التي أودعها الله تعالى في هذه الامور الثمانية فتأثير اللسان والمكان. اما تأثير اللسان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق. روى ان يوسف عليه السلام شكى الى الله طول الحبس فأوحى الله اليه يايوسف أنت حبست نفسك حيث قلت ربي السجن احبّ اليّ ولو قلت العافية أحبّ اليّ لعوفيت. وحكي ان المؤمل ابن أميل الشاعر لما قال يوم الحرّة

شف المؤمل يوم الحرّة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي فاتاه آتٍ في منامه فقال له هذا ما طلبت . وحكي ان نور الدين محمود وهمام الدين ركبا في يوم عيد وخرجا للتفرج فتجاولا في الكلام ثم قال محمود يامن درى هل نعيش الى مثل هذا اليوم فقال له همام الدين قل هل نعيش الى آخر الشهر فان العام كثير قال فاجرى الله على منطقهما ماكان مقدراً في الازل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام ومن كلام أمير المؤمنين ارجاف العامه بالشيء دليل على مقدمات كونه أقول ولقد رأيت تصديق ذلك سنة وقوع الوباء عندنا في النجف وهى سنة ١٢٩٦ الالف والمائتين والستة والتسعين من الهجرة وذلك قبل وقوع الوباء بشهرين او ثلاثة جرى على لسان الاطفال في النجف ان الواحد يقول للآخر أين جبر فيجيبه

الآخر راح يحفر قبر ويقول الآخر لغيره أين علوان فيقول له راح يحفر قبر بالليوان وهكذا صار لهجهم ليلاً ونهاراً بالطرقات والشوارع فما مضت الشهران حتى وقع الوباء بالنجف واطراف العراق وبلغ في النجف على صغرها كل يوم مئة وخمسون جنازه وما ارتفع الا بعد ثلاثة اشهر وتأثير اللسان من الامور المحسوسة لا يرتاب فيه ذو بصيرة وتجربه للامور

﴿ واما تأثير المكان ﴾ فقد روى انه قال النبي صلى الله عليه وسلم الشوم في الدار والمرءة والفرس وفي لفظ آخر أن يكون شيء من الشوم حق ففي الدار والمرءة والفرس ۰ ويروى ان رجلا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم انهم سكنوا داراً وعددهم كثيراً ومالهم وافر فقل العدد وذهب المال فقال له النبي صلى الله عليه وسلم دعوها ذميمه وأمرهم صلى الله عليه وآله بالخروج عنها. وقال عبدالملك ابن عمر الكوفي كنت عند عبد الملك بن مروان بقصر الكوفة المعروف بدار الامارة حين جيء برأس مصعب بن الزبير فوضع بين يديه فرأني وقد ارتعت فقال مالك فقلت أعيذك بالله اني كنت بهذا القصر بهذا الموضع مع عبيد الله ابن زياد فرأيت رأس الحسين بن علي رضى الله عنه بين يديه بهذا المكان ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عبيدة الثقفي فرأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ثم كنت فيه مع مصعب بن الزبير هذا فرأيت رأس المختار بين يديه ثم هذا رأس مصعب بين يديك قال فقام عبد الملك من موضعه وأمر بهدم الطاق الذي كنا فيه وقيل في همدان خاصية هي أن لا يكون الانسان فيها حزيناً ولو كان ذا مصيبة والغالب على أهلها اللهو أو الطرب وعذوبة اللسان ولطافة الطبع وحسن الخلق والغالب على اكثرهم البلاهة ولهذا قيل شعر

لا تلمني على ركاكة عقلي * ان تيقنت انني همداني

وقيل في قبرس وهي بلدة من بلاد الروم واليونان عجائب منها ان من حفظ شيئاً بتلك الارض لا ينساه وحكى التجار المسافرون انهم اذا وصلوا الى ذلك الموضع ذكروا ما غاب عنهم وينسب اليها سقراط استاذ افلاطون وينسب أيضاً اليها افلاطون استاذ ارسطاطاليس وبالجملة فلكل مكان تأثير خاص أودعه الله فيه فبعضها محسوس وبعضها غير محسوس ونا أعيذك بالله يا بن ودي ان تظن في ان أقول هذه التأثيرات للزمان او للمكان او لغير ذلك بل ذاك ما اودعه الله فيه من قبيل ايداع النار بالزناد اجراء للامور بالاسباب كما هو مقتضى الحكمة وحيث بلغ بنا طغيان القلم الى هذا المقام فلنكف عنانه عن الجري في احوال النفس فانه لا يعلم بتفاصيلها الا خالقها وما ينبغي الاشارة اليه من بيان بعض احوالها واخلاقها وتأثيراتها وما يؤثر فيها فقد أوضحناه حسب الطاقة فلنشرع في ذكر احوال العقل علماً وعملاً كما اوعدنا بذلك في خطبة الكتاب وبالله المستعان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين

﴿ المورد الثاني من موارد الكتاب ﴾ في العقل وأحكامه علماً وعملاً

ويشتمل ذلك علي عدة رياض في بيان حقيقة العقل وثمراته والحجب الحاجبه له واحكامه (مقدمة) اعلم ان اكثر ما ذكرناه من احوال النفس قد انعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي اذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة ايضاً حتى ان الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته فتهرب منه فذلك هو الادراك الباطني فلنذكر ما يختص به الانسان وهو العقل وهو راجع الى علم وارادة أما العلم فهو العلم بالامور الدنيوية والاخروية والحقائق العقلية فان

هـذه الامور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل اذ يحكم الانسان بان الشخص الواحد لا يتصور ان يكون في مكانين في حالة واحدة وهـذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على جميع الاشخاص زائد على ما أدركه الحس واذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات اظهر واما الارادة فانه اذا أدرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوقاً الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة في حين المرض والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها وذلك الزاجر هو العقل وح فالكلام في العقل تارة من جهة العلم وتارة من جهة الارادة فها هنا مقامان (المقام الاول) في الكلام على العقل من جهة العلم والادراك ولنبدأ اولاً في فضل العقل وثمراته وأحكامه

﴿ الروض الاول في فضل العقل وثمراته وبيان حقيقة أقسامه ﴾

﴿ فصل ﴾ العقل أيدك الله سلطان القرائح . ومصباح الجوانح . ومفتاح المصالح . ورأس العلوم . وسبب ادراك المعلوم . ومادة الفهم . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل وأهل العقل هم المخاطبون وهم المكلفون قال الله سبحانه (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب) الى قوله (لآيات لقوم يعقلون) وقال عز من قائل (ان في ذلك لآيات لأولي النهى) وقال (هل في ذلك قسم لذى حجر) وهذا كثير في كلام الله وبالعقل استظهر

المرء على كثير مما غاب منه واستطلع على جمل مما يحتجب عنه مما يمكن عرفانه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من اصحاب السعير) وقالت الحكماء بنور العقل تظهر الحقائق وتنكشف السرائر وتلوح خفيات الامور فيعبد الله تعالى على حقيقة العلم به . وحكى الاصمعي قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فامتعني بفصاحة وملاحة أيسرك الله ان يكون لك مائة ألف درهم وأنت احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته مالعله يدق على ما هو اكبر منه سناً واكثر تجربة . ومن كلام لامير المؤمنين لامال اعود من العقل وذلك لان الاحمق ذا المال طال ما ذهب ماله بحمقه فعاد أحمقاً فقيراً والعاقل الذي لا مال له طال ما اكتسب المال بعقله وبقي عقله عليه . وخطب رجلان الى ديماروس الحكيم ابنته وكان أحدهما فقيراً والآخر غنياً فزوّجها من الفقير فسأله الاسكندر عن ذلك فقال لان الغني كان أحمق فكنت أخاف عليه الفقر والفقير كان عاقلاً فرجوت الغنى . وقال بعض الادباء صديق كل امرء عقله وعدوّه جهله وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل وقال بعض الشعراء

يزين الفتى في الناس صحة عقله * وان كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله * وان كرمت اعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل في الناس انه * على العقل يجري علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شيء يقاربه

اذا اكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت اخلاقه ومآربه

واعلم ان بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات ومن كلام أمير المؤمنين ما استودع الله امرءً عقلا الا ليستنقذه به يوما ما . قال الشارح لا بد أن يكون للباري تعالى فى ايداع العقل قلب زيد مثلا غرض ولا غرض الا ان يستدل به على ما فيه نجاته وخلاصه وذلك هو التكليف فان قصر في النظر وجهل واخطأ الصواب فلا بد ان ينقذه عقله من ورطة من ورطات الدنيا وليس يخلو أحد عن ذلك أصلا لان كل عاقل لا بد ان يتخلص من مضرة سبيلها ان تنال باعمال فكرته وعقله في الخلاص منها فالحاصل ان العقل اما ان ينقذ الانقاذ الديني وهو الفلاح والنجاح على الحقيقة او ينقذ من بعض مهالك الدنيا وآفاتها وعلى كل حال فقد صح قول امير المؤمنين وعنه صلى الله عليه وسلم . العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل وعن أنس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يكون حسن العقل كثير الذنوب فقال ما من بشر الا وله ذنوب وخطايا يقترفها فمن كان سجيته العقل وغريزته اليقين لم تضره ذنوبه . قيل كيف ذلك يا رسول الله قال كلما أخطأ لم يلبث ان يتدارك ذلك بتوبة وندامة على ما فرط منه فيمحو ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة . اثنى قوم على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلوة والعبادة وخصال الخير حتى بالغوا فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله نخبرك باجتهاده في العبادة وضروب الخير وتسئل عن عقله فقال ان الاحمق ليصيب بحمقه اعظم مما يصيبه الفاجر بفجوره وانما ترتفع العباد غدا في درجاتهم وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم فالعقل نفعه في الدنيا والآخرة ظاهر . حكي ان نصيباً دخل على عبدالملك بن مروان فتغدى معه فلما رأى عبدالملك

ظرفه وأدبه قال له هل لك فيما نتنادم عليه قال يا أمير المؤمنين لوني حايل وشعري مغلغل وخلقي مشوه ولم ابلغ ما بلغت من اكرامك اياي لا لشرف ابٍ ولا لكرم أمٍ وانما بلغته بعقلي ولساني فانشدك الله يا امير المؤمنين ان لا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة عندك فاعفاه وبالجملة فقد اوجب الله الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه والف بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين اغراضهم ومقاصدهم ٠ روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى قال المتنبي

الراي قبل شجاعة الشجعان ٭ هو اول وهي المحل الثاني
واذا هما اجتمعا لنفس مرة ٭ بلغت من العليا كل مكان
ولربما طعن الفتى اقرانه ٭ بالراي قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان ادنى ضيغم ٭ ادنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ٭ ايدي الكماة عوالي المران

﴿ فصل ﴾ عرف العقل بتعاريف عديدة ولنقتصر منها على احسنها فاما تعريفه بالمعنى الشرعي فهو ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان روى الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن بعض اصحابنا رفعه الى ابي عبد الله قال قلت له ما العقل قال ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان قال قلت فالذي كان في معويه قال تلك النكراء تلك الشيطنه وهي شبيهه بالعقل ولسيت بعقل واما بالمعنى العرفي فهو المعرفة المستعملة في تحري النفع وتجنب الضرر وبعبارة اخرى ملكة وحالة في النفس تدعو الى اختيار النفع واجتناب الشرور والمضار وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية

ولاهل اللغة والمتكلمين في اشتقاقه ومعناه اقوال كثيرة قيل اشتق من عقل الناقة اذا شد وظفها مع ذراعها بحبل يمنعها من الشراد فكانه يمنع الانسان مما يميل اليه من الهوى وقيل اشتق من العقل وهو الملجأ يقال عقل الوعل اذا التجأ الى الجبل الذي يمنعه فكان الأنسان يلتجى اليه في احواله واما انقسامه فقد قيل ينقسم العقل الى قسمين غريزي ومكتسب وهذا ماخوذ عن امير المؤمنين عليه السلام وقد ينسب اليه

رايت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

ثم كل واحد من القسمين يختلف بالأشد والأضعف اما القسم الأول وهو الغريزي فقد يكون في الناس من لا يحتاج في النظر الى ترتيب المقدمات بل تنساق النتيجة النظرية اليه سوقاً من غير احتياج الى فكر وتدبر ويسمى ذكاء وصاحبه ذكياً وقد يكون فيهم من هو دون ذلك وقد يكون من هو دون الدون . واما القسم الثاني فقد يكون في الناس من لا يجدي فيه التعليم بل يكون كالصخرة الجامدة بلادة وغبارة ومنهم من يكون اقل تبلداً وجنوح ذهن من ذلك ومنهم من يكون الوقفه عنده اقل فيكون ذا حال متوسطه وبالجملة فاستقراء احوال الناس يشهد بصحة ذلك واصل نقصان المكتسب من نقصان الغريزي كما قال عليه السلام ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع وقد شاهدنا مثل هذا في حق اشخاص كثيرة اشتغلوا بالعلم الدهر الطويل فلم ينجع معهم العلاج وفارقوا الدنيا وهم على الغريزة الأولى في الساذجية واعلم ان العقل المكتسب نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وليس له حد

لانه ينمو ان استعمل وينقص ان أهمل واكتسابه من وجهين أما بالتعلم من العقلاء ما عقلوا واما بالتجربة لما تمر من الحوادث فقد قيل في منثور الحكم من طال عمره نقص قوة بدنه وزادت قوة عقله . وقيل لاتدع الايام جاهلا الا أدبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تؤدبا وبتقلب الايام عظه . وقال بعض البلغاء التجربه مرآت العقل والغرة ثمرة الجهل وقال بعض الادباء

كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى * عبرا لأولى الألباب ما جربوا

وقال بعض الشعراء

ألم تر ان العقل زين لأهـله * ولـكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الايام في كرها عقلا

ومن كلام أمير المؤمنين رضى الله عنـه لم يذهب من مالك ما وعظك ومثل هذا قولهم ان المصائب اثمان التجارب وقيل لعالم فقـير بعد ان كان غنياً اين مالك قال اتجرت فيه فابتعت فيه تجربة الناس والوقت فاستفدت فيه اشرف العوضين ومن المنسوب الى أمير المؤمنين رضى الله عنه

كلما أدبني الدهر * أراني نقص عقلى

واذا ماازددت علما * زادنى علما بجهلي

واعلم ان من نقصت غريزته أوفقدها لاتنجع فيه التجربة كما حررناه أول الفصل اذ التجربة نتيجة الغريزة والغريزة اساس للتجربة ولذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنـه قال عليه السلام أجهل الجهال من عثر بحجر مرتين ومن أمثال كليله ودمنه زعموا انه كان اسد في اجمه وكان معه ابن آوى يا كل من فواضل طعامه فاصاب الاسد جرب وضعف شديد وجهد فلم يستطع الصيد فقال له

ابن آوى ما بالك ياسيد السباع قد تغيرت أحوالك قال هذا الجرب الذي قد اجهدني وليس له دواء الاقلب حمار واذناه قال ابن آوى ما أيسر هـذا وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار يحمل عليه ثيابه وانا آتيك به ثم دلف الى الحمار فاتاه وسلم عليه فقال له مالي أراك مهزولاً قال ما يطعمني صاحبي شيئاً قال وكيف ترضى المقام معه على هـذا قال فمالي حيلة في الهرب منه فلست اتوجـه الى طرف الا اضر بي انسان فكدني واجاعني قال ابن آوى فانا ادلك على مكان معزول عن الناس لايمرّ به انسان خصب المرعى فيه اتان لم ترعين مثلها حسناً وسمناً وهي محتاجة الى الفحل قال الحمار وما يحبسنا عنها فانطلق بنا اليها فانطلق به ابن آوى نحو الاسد وتقدم ابن آوى ودخل الغابه على الاسد فاخبره بمكان الحمار فخرج اليـه فأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه وتخلص الحمار منه فافلت هلماً على وجهه فلما رأى ابن آوى ان الاسد لم يقدر على الحمار قال أعجزت يا سيد السباع الى هـذه الغاية فقال له ان جئتني به مرةً أخرى فلن ينجو مني أبداً فمضى ابن آوى الى الحمار فقال له ما الذى جرى عليك ان الاتان لشدة غلمتها وهيجانها وثبت عليك ولو ثبت لها للانت لك فلما سمع الحمار بذكر الأتان هاجت غلمته ونهق وأخذ طريقه الى الاسد فسبقه ابن آوى الى الاسد واعلمه بمكانه وقال له استعد فقد خدعته لك فلايدركنك الضعف في هذه النوبة فانه ان أفلت فلن يعود معي أبداً فجاش جاش الاسد لتحريض ابن آوى له وخرج الى موضع الحمار فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه فيها ثم قال قد ذكرت الاطباء انه لا يؤكل الا بعد الغسل والطهور فاحتفظ به حتى أعود فاكل قلبه وأذنيه واترك ماسوى ذلك قوتاً لك فلما ذهب الأسد ليغتسل عمد ابن آوى الى الحمار فاكل قلبه وأذنيه رجاء ان يتطير الأسد منه فلا يأكل منـه شيئاً ثم

ان الأسد رجع الى مكانه فقال لابن آوى أين قلب الحمار وأذناه قال ابن آوى ألم تعلم انه لو كان له قلب وأذنان لم يرجع لك بعد ما أفلت ونجى من الهلكة وهذا المثال انما ذكرناه توضيحاً لما حررناه من ان فاقد الغريزة لا تنفعه التجربة وسنوضحه زيادة عن قريب

(الروض الثاني) في ذم الجهل والغباوة لتعرف به أيضاً فضل العقل والشيء يعرف بضده قالوا الجهل رأس الفضائح . ومعدن القبائح . ومضمار العثار . وهو الدليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكذب النفس وخبث الطوية وقال بعض الحكماء عمى الجهل اشد من عمى العين لأن الاعمى يتوقع ان يعثر فيما ارتفع من الارض أو يسقط فيما انخفض منها والجاهل ربما عثر فيما لا يستقيل منه ووقع فيما لا يخرج له عنه كان الخليل بن أحمد يحب ان يرى ابن المقفع وكان ابن المقفع يحب ذلك فجمعهما عباد بن عباد المهلبي فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله قال ما رأيت مثله علمه اكثر من عقله وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل قال ما رأيت مثله عقله اكثر من علمه قال المغيرة فصدقا أدى عقل الخليل الى ان مات أزهد الناس وجهل ابن المقفع أداه الى ان كتب أماناً لعبد الله ابن علي فقال فيه ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته فاشتد ذلك على المنصور جداً وخاصة أمر البيعة فكتب الى سفيان بن معاوية المهلبي وهو أمير البصرة من قبله بقتله فقتله وقيل ان اعرابياً ولى قضاءة بلدة فخطب وقال لا والله اني لا أوتي بظالم أو بمظلوم الا أوجعتهما ضرباً فانصف الناس بعضهم بعضاً وتراضوا فيما بينهم ولم يرفعوا اليه أمورهم خوفاً من عقوبته وظلمه وشره وخسوفة عقله وضيمه

لبه وجهله في عامة الاحكام وقال الجاحظ بلغني ان شيخاً من الوراقين خثرت
عليه الدوات وغلظت فبال في المحبرة وكتب منها في المصحف والماء غير بعيدمنه

﴿ فصل ﴾ وكما ينقسم العقل الى غريزي ومكتسب فالجهل أيضاً ينقسم
الى بسيط ومركب أما القسم الاول وهو البسيط فهو نقصان العقل المكتسب
وفقدان التجربة ويطلق عليه التغفل ومنه البله وأمثاله والجاهل البسيط اذا نبه
على خطائه علمه وذلك لسلامة الغريزة قيل في المثل أبله من باقل هو رجل من
ثعلبة اشترى ظبياً باحد عشر درهماً فسئل عن ثمنه ففتح يديه وأخرج لسانه
يريد بذلك احد عشر درهماً فهرب الظبي من يده ونظير ذلك ان رجلاً من
اهل الشام مضى الى نجار يصنع له باباً فقال إئتي بمقدار العرض فقدره بباعه
وفتح يديه واتى الى النجار وهو في عرض الطريق يدفع الناس بصدره ويقول
تنحوا عن الانداذه فدفعه رجل من قفاه فوقع الى الارض ويداه مبسوطتان
فقال لرجل يا اخي اقبضني من ذقني واقمني حتى لاتخرب الانداذة فقبضه
من لحيته واقامه ومن ذلك ان هشام ابن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل
جيئ بفرس كلما قدمه يتأخر فقال له هشام ما هذا قال يا سيدي فاره ولكنه
شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر وتغدى ابو السريال عند سليمان بن عبد الملك
وهو يومئذ ولي عهد ابيه فقدم امامه جدياً وقال كل من كليته فانها تزيد في
الدماغ فقال لو كان كما يقول الامير لكان رأسه مثل رأس البغل واهدى ابن
الجصاص الى العباس ابن الحسين الوزير نبقاً وكتب معه

تفيلت بان تبقى * فاهديت لك النبقا

فكتب له الوزير ما تفيلت ولكن بتقرت وتولى بعض المتفقهين القضاء
فارسل الى من ولاه هدية وارسل معها مكتوباً مضمونه بعد السلام على مولانا

الواصل لكم هدية خروفين وسرموجتين الوالي خروف وسرموجه والنائب خروف وسرموجه فلما وصل الوالي مكتوب به امر بعزله وتحقيره واخراجه من القرية ورأى بعض البلهاء بالنجف رجلا يشتكي فكه فقال له أداويك بالكي فقال له الرجل من اين علمت ذلك فقال عندنا حمار قد ورم فكه فكويته بحديدة فعافاه الله تعالى وقيل ان رجلان من طلبة العلم سافرا فنزلا على رجل من الاعراب وكان اسم كل واحد منهما الشيخ محمد فسأل الرجل صاحب المكان احدهما عن اسمه فقال محمد ثم سأله عن اسم صاحبه فقال كذلك فجعل صاحب المكان اذا خاطبهما يقول لأحدهما يا شيخ محمد ويقول للآخر يا شيخ كذلك. ومن الحمقاء الاخرض ابن جعفر بن عمرو بن جريث قال يوماً مجالسوه ما بال وجهك اصفراً تشتكي شيئاً فرجع الى اهله فقال يا بني الخبية انا شاك ولا تعلموني اطرحوا علي الثياب وابعثوا الى الطبيب. وقيل لرجل عند موته قل لا اله الا الله فاعرض فاعادوا عليه فقال لهم اخبروني عن النعمان بن المنذر ملك الحيرة اقالها عند موته فقيل له وما انت والنعمان فقال ارغب لنفسي عن ذلك الشريف. وقال رجل لاكاره اذا زرعت القطن فازرعه محلوجاً وازرع معه شيئاً من الصوف. وسمع بعض المغفلين رجلاً يقرأ بيتاً من قصيدة للهيار في رثاء الرضى وهو

بكر النعى بان ردى خير الورى * ان كان يصدق فالرضى هو الردى

فقال المغفل انما الردى هو وابوه ومثل ذلك ان بعض المغفلين سمع رجلاً ينشد

وكانوا بنو عمي يقولون مرحباً * فلما رأوني معدماً مات مرحبا

فقال كذب الشاعر مرحب قتله علي بن ابي طالب ولم يمت الا قتلا. وعن ابن الجوزي قال كان لبعض المغفلين حمار فرض الحمار فنذر ان عوفي حماره

صام عشرة ايام فعوفي وصام فلما انقضى صيامه مات حماره فقال يا رب اهكذا تفعل لما تم صيامي امت حماري ولكن دع رمضان يأتي فأخذ منه عشرة أيام لا أصومها. قرئ بعض المغفلين في بيوت اذن الله بالرفع فقال شخص انما هو بالجر فقال له يا جاهل اذا كان الله تعالى يقول في بيوت اذن الله أن ترفع تجرها أنت لماذا . دخل بعض الاعراب المدينه فحصره البول والغائط فسئل عن خلاء يتخلا فيه فدلى على جامع فدخل يريد بيت الخلاء وقد دخل وقت الصلاة فرأى الناس مزدحمين على بيوت الاخلية فوقف على باب كنيف يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة ماهو فيه من الحصر فطال عليه الوقوف واشتد به الامر فهجم على الرجل الذي فى الكنيف وقبض على أطواقه ورفع ثيابه وجلس بجانبه وقال له هي نقرة طويلة أخرى انا واياك فيها كل واحد من جانب ولم يزل قابضاً على الرجل حتى قضى حاجته وقام يجري من غير استنجاء والناس يضحكون عليه حتى غاب عنهم . ومن المعروفين بالحماقة ونقص العقول معلمو المكاتب وقلما يوجد معلم الا وفيه نقص وان أعجبك ظاهره قيل لمعلم من أهل المكاتب ما اسم ام موسى فقال فارغا فقيل له من أين ذلك قال من قوله تعالى واصبح فؤاد ام موسى فارغا. وحكى ان معلما أتاه صبي من أهل مكتبه فقال يامعلم ان في بطن الجب صبي يلعب في الماء ولما نظرت اليه خفت وأخذمني خبزة كانت في يدى فاتى المعلم الى الجب ونظر الى الماء فيه فقال هذا الذى رأيته أنت في الجب هو رجل شيخ والظاهر انه سارق. وحكى ان امرأه غاب ولدها فاتت معلما وقالت تفأل لابني في المصحف فانه قد طالت غيبته عني فطلع فاله وحسن مات فقال لها ابنك حسن قالت نم فما يدريك بذلك قال هذا القرآن يقول وحسن مات فصرخت وشقت أثوابها ومضت الى بيتها حزينه

كئيبة فاجتمع أهله فاقاموا ماتما عليه . قال أحمد بن دليل مررت يوماً بمعلم يعلم صبياناً وبين يديه صبي وهو يقول الانجيل من خلقه قال موسى ابن عمران قال فالبعير من دّور البعرة في أسته قال شيطان يقال له الخرا قال أحسنت وآدم من أبوه قال نوح قلت انما نوح من أولاد آدم قال تعرّفني بآدم وأنا أبو عبد الله المعلم ياصبيان كرفسوه فكرفسوني وضربوني حتى صرت أبلق فحلفت ان لا أقف على معلم . وقيل لمعلم ابن معلم مالك احمق فقال لو لم اكن أحمقاً لكنت ولد زنا ونعم ما قال فان الولد على سر أبيه . قال الجاحظ مررت بمعلم وعنده عصاة طويله وعصاة قصيره وصولجان وطبل وبوق فقلت له ما هذه العدة قال قال عندي صغار في المكتب فاقول لأحدهم اقرأ لوحدك فيصفرلي بضرطةٍ فاضربه بالعصاء القصيره فيتأخر فاضربه بالعصاء الطويله فيفر من بين يدي فاضع الكرة في الصولجان واضربه فاشجه فتقوم الى الصغار كلهم بالالواح فاعلق الطبل في عنقي والبوق في فمي فاضرب الطبل وانفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون اليّ ويخلصوني منهم . وحكى الجاحظ قال أتت امرأة الى معلم بابنها قالت ان ابني لايطعني فأحب أن تفزّعه وكان المعلم طويل اللحية فأخذ لحيته وحطها في فمه وحرّك رأسه وصاح صيحة فضرطت المرأة من الفزع فقالت انما قلت لك فزّع الصبي ما قلت لك فزعني فقال لها ياحمقاء اما علمت ان العذاب اذا نزل بقوم هلك الصالح والطالح . وعنه عليه السلام لا تستشير الحوكه ولا المعلمين فان الله سلبهم عقولهم يعني به نقصان عقولهم . وذكر العالم الرباني الشيخ كمال الدين ميثم البحراني في توجيهه ان المعلم عقله وحواسه متفرقة الى التوجه الى تدبير أمور الصبيان فلم يبق له من العقل والتدبير ما يصرفه في غيرهم وكذلك الحائك بالنسبة الى الخيوط المختلفه وصرف الفكر فيها

واما القسم الثاني وهو نقصان اصل الغريزة ويطلق عليه الجهل المركب والحماقة والفرق بين الجهل البسيط والمركب ان الجاهل البسيط اذا نبه تنبه والمركب اذا نبه على خطائه يزداد جهلاً . سأل رجل بعض المغفلين فقال له ما أفضل معاوية أم عيسى فقال له ما رأيت رجلاً أجهل منك ولا سمعت أحداً قاس كاتب الوحي بنبي النصارى وأتى بعض القصاص بنصراني يريد ان يسلم فقال قم عني أتريدون ان توقعوا الخصومة بيني وبين عيسي بن مريم يوم القيامة وسأل بعض القصاص عن لوط عليه السلام فقال كان رجل لوطياً نعوذ بالله من فعله فانكروا عليه ولامه بعض أصحابه بعد انصرافهم وأعلمه ان لوطاً نبي مرسل بعث الى قوم ذلك لقبيح فعلهم وان لوطاً نهاهم عنه فندم على ما قاله فلما كان في مجلس آخر سئل عن فرعون فقال دعونا من حديث الانبياء واسألوا الله السلامة قوم لا رأيناهم ولا رأونا كيف نتكلم في أعراضهم قال ابن هشام في المغنى في باب احراز المبتدا عن الخطأ ما صورته . قيل لبعضهم ما فعل أبوك بحماره فقال باعه بالجرّ فقيل له لم قلت باعهِ بالجر فقال ولمَ قلت أنت بحمارهِ فقال اني جررته بالباء فقال ولم بائك يجر وبائي لا يجر . سئل رجل شريحاً ما تقول في رجل مات وخلف أبوه وأخوه فقال شريح قل اباه وأخاه قال الرجل كم لأباه وأخاه فقال الرجل قل لأبيه وأخيه فقال الرجل أنت علمتني يقال ان هذه الواقعة أحد أسباب الباعثة على وضع النحو . وقيل جاء رجل الى سيبويه ليصلح له شعراً قال انشدني فانشد

ما العيش الا مع الحبيب * اذا تلقاك من قريب

فقال له سيبويه جيد قال

اذا تأملته طويلا * اكاد من حبه أموت

فقال سيبويه ويحك البيت الاول آخره باء والثاني آخره تاء كيف يكون هذا

فقال يا سيدنا لا تنقط فلا أحد يدرى ما هو فقال سيبويه فآخر الاول مجرور وآخر الثاني مرفوع فقال ما أجهلك أنا أقول لك لا تنقطه وأنت تشكله ٠ وقيل ان رجلا من أهل الشام عزم على لقاء المأمون فاستشار بعض أصحابه قال على أي وجه أصلح ان ألقى أمير المؤمنين قال على الفصاحة قال ليس عندي منها شيء واني لألحن في كلامي كثيراً قال فعليك بالرفع فانه اكثر ما يستعمل فدخل على المأمون وقال السلامُ عليكُ ورحمة الله وبركاته فقال يا غلام اصفعه فصفعه فقال باسمُ اللهُ فقال المأمون ويلك من دلاك على الرفع قال وكيف لا أرفع من رفعه الله فضحك وقضى حاجته ٠ وكان لرجل ولد اسمه حمزة فبينما هو يوماً يمشي مع أبيه اذا رجل يصيح بشاب يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال يا عم كلنا عبيد الله فاى عبد الله تعنى فالتفت أبو حمزه اليه وقال ألا تنظر الى بلاغة هـذا الشاب فلما كان الغد اذا برجل ينادي يا حمزه فقال حمزه بن الاعرابي كلنا حاميز الله فأي حمزه تعني فقال أبوه ليس يعنيك يامن أخمد الله به ذكر أبيـه ونظير ذلك ما حكي عن بعض الادباء ان رجلا من أقاربه من أهل الشام اتى اليه الى اصفهان قال فأتيت به الى الحمام وفيه خلق كثير ثم انه ضرط في ذلك الحمام فصحت عليه فقال يا أخي نحن نضرط بلسان العربي وهؤلاء أعجام ما يفهمون لغاتنا كما اننا نحن لا نعقل كلامهم

﴿ فصل ﴾ والجهل المركب لا علاج له اذ القول في العقل كالقول في الطبع فكما ان من طبع على الشر وغلبت شهوانيته على روحانيته لا يتغير الى الخير كل من نقصت غريزته أو فقدها لا يرفع منه التعليم جهلا ولا تزيده التجربة عقلا ٠ قيل ان الحمق يتولد غريزه ولا يتغير أنشد بعضهم

وعلاج الابدان أيسر خطباً ٭ حين تعقل من علاج العقول

روى عن المسيح قال عالجت الاكمه والابرص فأبرأتهما وعالجت الأحمق فاعياني
فأخذ بعضهم هذا المعنى فقال

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة اعيت من يداويها

واذا انضم الى الجهل المركب عجب نفساني فذاك الداء العضال واذا شيب بمعارف ومسموعات جزئية يسمعها ممن يعظم في نفسه ولو كانت خطأ فذاك المصيبة العظمى لا خلاص منه الا بالسكوت عنه او الفرار منه وقال بعضهم لأن ازاول احمق احب الي من ان ازاول نصف احمق اعني الجاهل المتعاقل ومن الحكايات العجيبة ان بعض الأطباء دخل على مريض وجس نبضه وشاهد تفسرته فقال له لعلك تناولت شيئاً من الفواكه قال المريض نعم فقال الطبيب لا ترجع تأكله فانه يضرك فتعجب الناس من حذق الطبيب وكان للطبيب ابن فقال له يا ابت كيف عرفت تناول الفاكهة والفروج قال يا بني ما عرفت ذلك بالطب وحده بل بالطب والفراسة فقال له كيف عرفت بالفراسة فقال اني لما دخلت دار المريض رأيت على سطح الدار سقاطاة الفواكه ثم رأيت في وجه المريض انتفاخاً وفي النبض ليناً وفي التفسرة غلظاً ونجاجة وعلمت ان الفاكهة اذا حضرت عند المريض لا يصبر عنها فظهر لي من هذه الشواهد انه تناول الفاكهة وما جزمت بها بل قلت لعلك اكلت وفي اليوم الثاني رأيت على باب الدار ريش الفروج وفي النبض امتلاءً وفي الرسوب غلظاً فعلمت ان الفروج لا يأكله الا المريض غالباً فظهر بهذه الشواهد وما جزمت به بل قلت لعلك فعلت هذا فسمع ابنه هذا الكلام فاحب ان يسلك مسلك أبيه فدخل على مريض وجس نبضه وشاهد تفسرته وقال لعلك اكلت لحم حمار فقال المريض حاشا وكلا كيف يؤكل لحم الحمار أيها الطبيب فخجل ابن الطبيب وخرج فانتهى ذلك

الى أبيه فحضره وسأله كيف عرفت انه اكل لحم الحمار فقال لاني رأيت في دارهم برذعة فعلمت انها لا تكون الا للحمار ثم قلت لو كان الحمار حياً لكان برذعته عليه واذا لم يكن حياً فانهم ذبحوه واكلوه فقال أبوه لو كان شيء من هذه المقدمات صحيحاً لرجوت فيك النجابة ولكن المقدمات كلها فاسدة وطبع النجابة فيك محال ونعم ما قال

فلا ينفع مسموع ٭ اذا لم يك مطبوع

وحكى ان بعضهم ضم ولده الى رمال ليعلمه فبقي عنده مدة حتى علمه أصول الرمل فجاء والده وسأل الاستاذ عن ابنه فقال علمته فامتحنه فقبض الأب على نمله وضم يده عليها وقال لولده اعرف ما في يدي امتحانا له فحسب ولده وقال في يدك حيوان اسود اللون محزوز من وسطه فقال له ما هو فقال الولد جاموسه فلما علم أبوه ان ولده يخطي مع دلالة القرائن الحالية على خلاف ما يقول لام معلمه فقال المعلم أنا أعلمه علما ولم أعطه عقلاً . ونظير ذلك ان بعض الملوك خرج هو ووزيره للتنزه فمر على رجل فلاح يحرث وقد اسود قفاه من الشمس وتشققت قدماه من الحفا وشدة البرد وهو في حالة مكربة فقال الملك لوزيره ما حال هذا الرجل فقال له هذا من فلاحين الرساتيق ينشأ الشخص منهم على التعب والنصب وقلة الدين والجهل فيصير في هذه الحالة فقال الملك لوزيره أترى انا اذا أخذناه وعلمناه الآداب وأشغلناه بالعلم فهل يتغير عما هو عليه فقال الوزير لا أيها الملك فقال الملك لا بد من أخذه وتعليمه فاخذ الفلاح وأنعم عليه وقيد له من يعلمه الكمالات النفسانية فبقي على ذلك سنين متطاولة وبرع في كل فن من الفنون الغريبة فاحضره الملك يوماً بمشهد من الوزير فقال للوزير قد أخطأت فراستك في الفلاح فقال الوزير امتحنه أيها الملك قال الملك للفلاح بلغني انه

صارت لك قوة في العلوم الغريبة فاي شيء تعلمت قال الرمل والجفر والحساب وغير ذلك مما تحب ولى ملكه في اخراج الضمير قال فنزع الملك خاتمه وضم عليه يده فقال انظر ما في يدي فضرب رملا وولد أشكالا وقال في يدك شيء مدور قال نعم قال وهو خالي الوسط قال صدقت فما هو فسكت ساعة وقال أظن والله الأعلم انه حجر طاحون فضحك الوزير وغضب الملك وسلب نعمته ورده الى حالته الاولى . وحكي ان بعض الملوك قال لصاحب خيله قدم الفرس الابيض فقال له الوزير لا تقل الفرس الأبيض فانه عيب يخل بهيبة الملوك ولكن قل الفرس الاشهب فلما أحضر السماط قال لصاحب سماطه قدم الصحن الأشهب فقال له الوزير قل ما شئت فما في تقويمك حيلة قال المتنبي

ومن البلية عزل من لا يرعوى * عن غيه وخطاب من لا يفهم

ومن أمثال كليلة ودمنة ان جماعة من القرود كانوا سكاناً في جبل فالتمسوا في ليلة بارد ذات أمطار ورياح ناراً يصطلون بها فلم يجدوا شيئاً فرأوا يراعة تطير كأنها شرارة نار فجمعوا حشيشاً والقوه عليها وجعلوا ينفخون طمعاً ان يوقدوا ناراً وكان بالقرب منهم طائر على شجرة ينظر اليهم فجعل يناديهم فيقول لا تتعبوا فان الذى رأيتموه ليس بنار ثم انه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه فمر به رجل وقال له لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم فان العود الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس فابى الطائر ان يطيعه وتقدم الى القرود ليعرفهم ان اليراعة ليست بنار فتناوله بعض القرود فمات من ساعته . ومن حمقاء العرب وجهلائهم كلاب ابن صعصعة خرج اخوته يشترون خيلا فخرج معهم فجاء بعجل يقوده فقيل له ما هذا فقال فرس اشتريته قالوا يا مائق هذه بقرة اما ترى قرنيها فرجع الى منزله فقطع قرناها ثم قادها فقال لهم قد اعددتها فرسا فما تريدون فاولاده

يدعون بني فارس البقره

فلا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع

﴿ الروض الثالث ﴾ في الاستدلال بالعقل السليم وذلك ينقسم ثلاث اقسام . قياس واستقراء وتمثيل لان الاستدلال اما بكلي على جزئي وهو القياس او العكس وهو الاستقراء واما بجزئي على جزئي وهو التمثيل فهذه ثلاثة اقسام ويلحقها قسم رابع وهو الاولوية القطعية والاستدلال في جميع هذه الاقسام بواسطة العلة وهو القدر المشترك بين الاصل المقيس عليه والفرع المقيس

﴿ القسم الاول ﴾ القياس والاستدلال فيه اما بالمعلول على العلة او العكس . والاول كما نقل انه خرج امير ومعه رجل فيه ذكاء فبينما هم على الغداء قال للامير اركب فقد لحقنا العدوّ قال كيف وما يرى أحد قال اركب عاجلاً فان الامر أسرع مما تحسب . فركب وركب الناس فلاحت الغبرة وطلع عليهم سرعان الخيل فعجب الامير فقال كيف علمت قال لما رأيت الوحش مقبلة علينا ومن شأن الوحوش الهرب منا فعلمت انها لم تدع عاداتها الا لامر قد دهمها وذكر الجاحظ ان اياس ابن معاوية نظر الى اصدع في أرض فقال تحت هذا دابة فنظروا فاذا حية فقيل له من أين علمت قال رأيت ما بين الاجرتين ندياً من بين جميع تلك الرّحبه فعلمت ان تحتها شيئاً يتنفس . واما الثاني وهو الاستدلال بالعلة على المعلول أو المؤثر على كمية الاثر وكيفيته وذلك كما يقال في الامثال ان أسد أراد أن يفترس ثوراً فلم يقدر عليه لشدته فمضى اليه متملقاً قائلاً فديتك اني قد صدت خروفاً سميناً واشتهي ان تأكل عندي في هذه الليلة منه فاجابه الثور الى ذلك فلما وصل الى العرين ونظره فاذ الاسد قد اعدّ حطبا كثيراً فولا هارباً فقال له الاسد مالك وليت بعد مجيئك الى هنا فقال له الثور لأني

علمت ان هذا الاستعداد لما هو اكبر من الحروف ومثل ذلك في الاستدلال على الكمية ما ذكره ابن الجوزي في الاذكياء باسناده الى أمير المؤمنين قال لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر وجدنا عندها رجلين أحدهما من قريش والآخر مولى لعقبة بن ابي معيط فاما القرشي فافلت واما مولى عقبة فاخذناه فجعلنا نقول له كم القوم فيقول والله كثير عددهم شديد بأسهم فجهد النبي صلى الله عليه وسلم ان يخبره كم هم فابى ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم سأله كم ينحرون من الجزر فقال عشراً لكل يوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم الف رجل لان كل جزور لمائة . ومن ذلك ما نقل ان احمد ابن طولون رأى حمالاً يحمل صندوقاً وهو يضطرب تحته فقال لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وانا أرى ان عنقه بارزه وما هذا الا من خوف ما يحمل فامر بحط الصندوق فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت فقال اصدقني عن حالها فقال اربعة نفر في الدار الفلانية اعطوني هذه الدنانير وامروني بحمل هذه المقتولة فضرب الحمال مائتي عصا وأمر بقتل الاربعة وذكر ابن الجوزي في الاذكياء عن أحمد بن طولون صاحب مصر انه جلس يوماً في منتزه له يأكل مع ندمائه فرأى سائلا عليه ثوب خلق فوضع يده في رغيف ودجاجة وقطعة لحم وفالوذج وأمر بعض الغلمان بمناولته فاخذ ذلك الغلام وذهب به الى السائل ورجع فذكر انه ماهش ولابش فقال ابن طولون للغلام إئتني به فاحضره بين يديه فاستنطقه فاحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته فقال له احضر لي الكتب التي معك واصدقني عمن بعث بك فقد صح عندي انك صاحب خبر واحضر السياط فاعترف له بذلك فقال بعض من حضر هذا والله السحر فقال أحمد ما هو بسحر ولكنه قياس صحيح وفراسة وذلك اني لما رأيت

سوء حاله وجهت اليه بطعام يشره الى اكله الشبعان فما هش ولا بش ولا مدّ يده اليه فاحضرته وخاطبته فتلقاني بقوة جاش وجواب حاضر فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جاشه وسرعة جوابه علمت انه صاحب خبر . ومر اياس ليلة بماء فقال اسمع صوت كلب غريب فقيل له كيف عرفته قال بخضوع صوته وشدة نباح الآخرين فسألوا فاذا كلب غريب والكلاب تنبحه . قال الجاحظ وحج اياس فسمع نباح كلب فقال هذا كلب مشدود ثم سمع نباحه فقال قد ارسل فانتهوا الى الماء فسألوهم فكان كما قال فقيل له من أين علمت قال كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد ثم سمعته يقرب مرة ويبعد أخرى . ومن النوادر المنقولة عن ذكاء اياس انه رأى اثر اعتلاف بعير فقال هذا بعير اعور فنظروا فكان كما قال فقيل له من اين قلت ذاك قال لاني وجدت اعتلافه من جهة واحدة . قالوا ومن نوادر ذكائه انه رأى قوماً يأكلون تمراً ويلقون النوى متفرقا فرأى الذباب يجتمعن في موضع من التمر ولا يقربن موضعاً آخر فقال اياس ان في هذا الموضع حية فنظروا فوجدوا الامر كما قال فقيل له من أين علمت قال رأيت الذباب لا يقربن هـذا الموضع فقلت يجدون ريح سم فقلت حيـة . ونظر الى ديك ينقر ولا يقرقر فقال هذا الديك هرم لان الشباب اذا وجد حباً نقره وقرقر لتجتمع الدجاج اليه . ورأى جارية في المسجد وعلى يدها طبق مغطى بمنـديل فقال معها جراد فكان كما قال فسئل فقال رأيته خفيفاً على يديها

﴿ فصل ﴾ ويستدل على وقوع الشيء على خلاف ما هو عليه ظاهراً بأمرين اما بمخالفته العادة او مخالفته الضرورة العقلية . فاما الامر الاول فان الشيء اذا وقع على خـلاف عادته دلّ على ان له علة وباعث هو امر آخر كما

نقل انه دخلت ليلى الاخيلية على عبد الملك بن مروان وقد اسنت فقال لها ما رأى توبه منك حتى عشقك قالت ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة فضحك حتى بدت له سنٌ سوداء كان يخفيها ثم التفت الى ليلى فقال انشدينا ياليلى بعض ما انشد فيك توبه قالت نعم هو الذي يقول

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت * فقد رابني منها الغداة سفورها

فقال لها ما الذي رابه من سفورك قالت يا أمير المؤمنين كان كثيراً ما يلم بنا فارسل لي يوماً اني آتيك وفطن الحي فارصدوا له فلما أتاني سفرت له فعلم ان ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع فقال عبد الملك لله درك يا ليلى . وحكي ان الهذلي حج مع المنصور وكان المنصور قد وعد الهذلي بجائزة ونسي فرا معاً بيت عاتكه وكان من عادة الهذلي انه لا يكلم الخليفة الا جواباً عما يسأله منه فلما مرا ببيت عاتكه قال يا أمير المؤمنين هـذا بيت عاتكه الذي قال فيه الأخوص

يا بيت عاتكة الذي أتغزل * حذر العدا وبه الفؤاد موكل

قال فانكر المنصور منه ذلك لانه خلاف عادته وتكلم من غير ان يسأل فلما رجع المنصور استدعى بديوان الاخوص ونظر تلك القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي فاذا فيها

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم انه أشار الى هـذا البيت وتذكر ما وعده به من الجائزة فامر بانجازها وارسالها له في الحال واعتذر اليه من النسيان . ونقل عن الكسائي كان يعلم الأمين ولد الرشيد وكان من عادته انه اذا غلط لا يرد عليـه وانما يضرب بعصاه على الارض فيتنبه الأمين ويراجع فكره فيقرأ صواباً فقرأ ذات يوم

قوله تعالى (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مالا تَفعَلُونَ كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مالاَ تَفعَلُونَ) فضرب الكسائى بعصاه على الارض فسكت الامين وراجع فكره فلم يظهر له غلط ولا نسيان فاستمر في القراءة فلما فرغ ذهب الى أبيه الرشيد وقال هل وعدت الكسائى بشيء ولم تفي به قال نعم ومن أخبرك بذلك قال اتفق لي معه كيت وكيت فاستحسن الرشيد فهم ولده وأنجز للكسائي وعده .

وأما الامر الثاني وهو مخالفة الضرورة العقلية فانه أيضاً دليل على عدم مطابقة الظاهر للواقع ومن ذلك قول الفرس في أمثالها كرون بى حكمة نيس أرزون بى علة نيس . حدث بعض العقلاء قال نزلت مرة على رجل فتعشينا ثم فرش لي وانقلب الرجل على فراشه مع زوجته و بيني و بينهما خص من قصب فسمعت الرجل يقول في آخر الليل لامرأته اني أريد ان أدعو غداً رهطاً ليأكلوا عندنا فاصنعي لهم طعام فقالت المرأة كيف تدعو الناس الى طعامك وليس في بيتك فضل عن عيالك وانت رجل لا تبقي شيئاً ولا تدخره قال الرجل لا تندمى على شيء أطعمناه وانفقناه فان الجمع والادخار وخيم العاقبة فقالت المرأة نعم ما قلت وعندنا من الأرز والسمسم ما يكفى ستة انفار او سبعة فانا غادية على اصطناع الطعام فادع من احببت واخذت المرأة حين اصبحت سمسما فقشرته وبسطته في الشمس ليجف وقالت لغلام لهم اطرد عنه الطير والكلاب وتفرغت المرأة لصنعها وتغافل الغلام عن السمسم فجاء كلب فعاث فيه فاستقذرته المرأة وكرهت ان تصنع منه طعاماً فذهبت به الى السوق فاخذت به مقايضة سمسما غير مقشور مثلاً بمثل وانا واقف في السوق فقال رجل لآخر ما باعت هذه المرأة سمسماً مقشوراً بغير مقشور . وحكى أيضاً ان بعض المحتسبين جاز يوماً على رجل ينادي على الخبيص رطلين بحبه فقال ويحك الدبس يباع رطل بحبه والشيرج

رطل بقيراط فكيف تبيع انت الخبيص رطلين بحبه فقال ياسيدنا ما في الخبيص شيء من الذين ذكرت قال فبع الآن كيف شئت . ومن ذلك أيضاً ما حكي انه تزوج رجل اعمى امرأة فقال لو رأيت حسني وبياضي لعجبت فقال اسكتي لو كنتِ كما تقولين ما تركك البصراء وقد مر كثير من امثال هذا الباب في الاستدلال بالعلة على المعول لا سيما المنقول عن احمد بن طولون وما ذكرناه هنا فقيه كفاية لذي البصيرة الوقاده

﴿ فصل ﴾ ومما يستدل به قرائن الاحوال والافعال قال ابن الجوزي في الاذكياء استودع رجل رجلاً مالاً ثم طلبه فجحده فخاصمه الى اياس بن معاوية فقال الطالب اني دفعت المال اليه قال ومن حضرك قال دفعته في مكان لم يحضرنا احد قال فأي شيء في ذلك الموضع قال شجرة قال فانطلق الى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله تعالى يوضح هناك لك ما يتبين به حقك لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتتذكر اذا رأيت الشجرة فمضى الرجل قال اياس للمطلوب اجلس الى أن يرجع خصمك فجلس واياس يقضي وينظر اليه ساعة بعد ساعة ثم قال له ياهذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر قال لا قال يا عدو الله انك لخائن قال اقلني اقالك الله فامر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال له اياس قد أقرّ لك بحقك فخذه . وقع بين مزيد وبين رجل خصومه فقال الرجل أتخاصمني وقد نكت امرأتك كذا أمره فعاد مزيد الى داره وقال يافلانه أتعرفين فلاناً قالت أى والله ابوعينيه فقال ناكك ورب الكعبة أسألك عن اسمه فتجيبيني عن كنيته . وحكى ان امرأة تخاصمت مع زوجها فقالت له والله لاشكونك الى القاضي فقال لها الزوج النساء عليّ حراماً ثلاثاً ان لم اكن نكت القاضي مراراً فولولت المرأة وذهبت الى القاضي وقالت له اني تخاصمت مع

زوجي وقلت لاشكونك للقاضي فقال النساء عليّ حرام ان لم اكن نكت القاضي مراراً فافتني في أمري وهل حرمت النساء عليه أم لا فهو أمرفي عنقك فقال ارجعي الى بيته فربما كان في ايام الصغر فقالت له نأكك ورب الكعبة

﴿ القسم الثاني من أقسام الدلالة ﴾ الاستقراء وهو تتبع جزئيات الشيء وهو نوعان تام وناقص فالتام هو الاستقراء بالجزئي على الكلي نحو كل جسم متحيز وهذا دليل يقيني يفيد اليقين والناقص هو الاستقراء باكثر الجزئيات نحو كل حيوان يحرك فكه الاسفل عند المضغ وهذا ظني فلا يفيد الا الظن ويسمى الناقص عند الفقهاء الحاق الفرد بالاعم الاغلب والاستقراء بجزئي على جزئي آخر تسميه الفقهاء قياساً كما سيجيء بيانه قال الرشيد للبهلول أتحب أن تكون خليفه قال لاوذلك اني رأيت موت ثلاث خلفاء ولم يرى الخليفه موت بهلولين . عنف محمد بن عمرو بن علي بن أبي طالب زيد ابن علي بن الحسين لما خرج وحذره القتل وقال له أهل العراق خذلوا أباك علياً وحسناً وحسيناً عليهم السلام وانك مقتول وانهم خاذلوك فلم يثن ذلك عزمه حتى كان من أمره ما كان وحكى ان بعض الارقاء كان عند مالك يأكل الخاص ويطعمه الخشكار فانف الرقيق من ذلك فطلب البيع فباعه واشتراه من يأكل الخشكار ويطعمه النخالة فطلب البيع فباعه واشتراه من لا يأكل شيئاً وحلق رأسه وكان في الليل يجلس ويضع السراج على رأسه بدلا عن المنارة فاقام عنده ولم يطلب البيع فقال له النخاس لاي شيء رضيت بهذه الحالة عند هذا المالك فقال اخاف ان يشتريني في هذه المرة من يضع الفتيلة في عيني عوضاً عن السراج . وكان عبد الرحمن بن ابي بكر قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من اجمل نساء قريش واقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف ثم تزوجها بعده عمر ابن

الخطاب وقتل عنها وتزوجت بعده الزبير بن العوام وكان رجلا غيوراً وكانت
تخرج الى المسجد كعادتها مع ازواجها فشق عليه ذلك وكان يكره ان ينهاها
فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه وضرب بيده عجيزتها ثم انصرف
فقعدت بعد ذلك عن الخروج الى المسجد وكان يقول لها ألا تخرجين يا عاتكة
فتقول كنا نخرج اذ الناس ناس وما بهم من باس واما الآن فلا ثم قتل عنها الزبير
ثم تزوجها بعده محمد بن ابي بكر وقتل عنها بمصر فقالت لا اتزوج بعده أبداً
انى لأحسبني اني لو تزوجت جميع اهل الارض لقتلوا عن آخرهم . وحكى
الاصمعي عن عيسى بن عمر قال وفد ابو الجهم حذيفة على معاوية فقال له معاوية
والله ان لك لشرفاً وحقاً وقرابة يا ابا الجهم انه لزمتنا مؤنة عظيمة وهذه مائة ألف
فخذها واعذر قال ابو الجهم فقبضتها على مضض وقلت في نفسي ما عسى ان
أقول له وهو رجل ناء عن بلاد قومه وقد تخلق باخلاق أهل الشام الجفاة
الاغفال فقبلتها على انه قد قصر بي فلما توفي معاوية واستخلف يزيد سرت اليه
وافداً وأقمت أياماً فقال لي يا أبا الجهم اني بحقك وقرابتك وشرفك لعارف وان
مع حقك لحقوقاً ومؤناً ولا تستطيع دفعها وانت اولى من عذر ابن اخيك
وهذه خمسون الفاً فضمها اليك واعذر فقلت في نفسي غلام حدث نشأ مع
غير قومه وسكن غير بلده وهو مع هذا فابن كلبية فاي خير يرجى منه ثم اني
اخذتها منه على انه قصر بي وانصرفت فلما استخلف عبد الله بن الزبير قلت في
نفسي هـذا بقية قريش البطاح فاتيته وافداً واقمت عنده اياماً ثم قال لي يا ابا
الجهم مهما جهلت فلن اجهل شرفك وقرابتك وحقك غير ان علينا مؤناً وعزماً
وحمالات وأموراً يطول شرحها ولكن مع ذلك فاني غير مخيب لسفرك هذه
الف درهم خذها واستعن بها على أمورك فقبضتها فرحاً ثم وثبت بين يديه

فقلت يا أمير المؤمنين مد الله لقريش في بقائك ولا امتحنها بفقدك فوالله ما زالت بخير ما بقيت لها فقال ابن الزبير جزاك الله عن الرحم خيراً فوالله ماقلت هذا لمعاوية وقد اعطاك مائة الف درهم فقلت نعم يا امير المؤمنين من اجل ذلك قلت لاني خفت ان انت هلكت لا يلي امر الناس الا الخنازير وما أحلى قول بعض الادباء

كنا اذا جئنا لمن قبلكم * انصف بالترحيب بعد القيام
والآن صرنا حين نأتيكم * نقنع منكم بلطيف الكلام
لاغير الله بكم خشيته * من ان يجي من لا يرد السلام

(القسم الثالث) من اقسام الدلالة العقلية التمثيل وهو الاستدلال بجزئي على حكم جزئي آخر يشاركه في علة الحكم وقيل اثبات حكم في جزئي لوجوده في جزئي آخر لمعنى مشترك بينهما ومن المعنى الاول ما نقل ان اول من احدث المروحة هرون الرشيد وذلك انه دخل يوماً على أخته علية بنت المهدي في يوم قيظ فالفاها قد صبغت ثيابها بزعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف فجلس الرشيد قريباً من الثياب المنشورة فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها نشراً طيباً فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه فامر ان يصنع له مثل ذلك ومثل ما هو المنقول عن ابي حنيفة قال ابن الجوزي عن ابن المبارك قال رأيت أبا حنيفة في طريق مكة وقد شوى لهم فصيل سمين فاشتهوا ان يأكلوه بخل فلم يجدوا شيئاً يصبون فيه الخل فتحيروا فرأيت أبا حنيفة فقد حفر في الرمل حفرة وبسط عليها السفرة وسكب الخل على ذلك الموضع فاكلوا الشواء بالخل فقالوا له تحسن كل شيء فقال عليكم بالشكر فان هذه الهمة فضلا من الله عليكم. ومن المعنى الثانى ما ذكره ابن الجوزي عن الزهري قال اخبرنا عمارة

ابن خزيمة الانصاري ان عمه حدثه ان النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرساً من اعرابي فاستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم ليقبضه ثمن فرسه فاسرع النبي المشي وابطأ الاعرابي فطفق رجال يقرضون الاعرابي فيساومون الفرس ولا يشعرون ان النبي ابتاعه حتى زاد بعضهم للاعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي فنادى الاعرابي النبي فقال ان كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه والا بعته فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال أليس قد ابتعته منك قال لا فطفق الناس يلوذون بالنبي والاعرابي وهما يتراجعان فطفق الاعرابي يقول هلم شهيداً يشهد اني قد بعتك فقال خزيمة انا اشهد انك قد بعته فاقبل النبي على خزيمة فقال بم تشهد فقال بتصديقك يارسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل النبي شهادة خزيمة بشهادة رجلين وفي رواية أخرى انه صلى الله عليه وسلم قال لخزيمة لم تشهد ولم تكن معنا قال يارسول الله انا أصدقك بخبر السماء أفلا أصدقك بما تقول . قال سلطان الهند لبعض العلماء لاي شيء تجوزون اللعن على معاويه وهو خال المؤمنين ومن جملة كتاب الوحي فقال أعز الله السلطان اذا اتفق لك عسكران يتحاربان وكان مقدم أحدهما أمير المؤمنين ومقدم الآخر معاويه فيكون السلطان أعز الله مع اي عسكر فقال في عسكر أمير المؤمنين أقاتل من يقاتله فقال اذا أتى معاويه يضرب أمير المؤمنين بسيفه وقال لك أمير المؤمنين اقتل معاويه أتقتل أم لا فقال نعم يجب عليّ ان اضرب عنقه فقال أعز الله السلطان اذا وجب قتله كيف لايجوز لعنه فضحك السلطان . قال المنصور الدوانيقي يوماً لعمرو ابن عبيد وقد أتهمه في الخروج مع محمد ابن عبدالله ابن الحسن نعلم سوء رأيي في الخروج فأثلج صدري بيمين تزيح بها ما في نفسي فقال له والله لئن استجزت ان اكذب تقية لاستجيزن ان احلف تقية

فاستحى منه المنصور وقال له والله أنت أعلم مني وأفقه . قال بعض الحكماء من نقل لك فقد نقل عنك ومن شهد لك فقد شهد عليك ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك . قال مسكين الدارمي في ذم الافراط بالغيرة

ولست امرءاً لا أبرح الدهر قاعداً * الى جنب عرسي لا أفارقها شبرا
ولا مقسماً لا تبرح الدهر بيتها * لأجعله قبل الممات لها قبرا
ولا حاملا ظني ولا قول قائل * على غيرة حتى أحيط به خبرا
وهبني امرء راعيت مادمت شاهدا * فكيف اذا ماسرت من بيتها شهرا
اذا هي لم تحصن لما في فنائها * فليس بمنجيها بنائي لها قصرا

كان جحا يبيع زيتوناً فأتت له امرأة تشترى منه قال لها جحا ذوقيه لتعرفيه انه طيب ام لا قالت له انا صائمة قضاء عن رمضان الماضي قال جحا قومي روحي عني ياظالمه أنتِ تماطلي ربكِ هذا المطال كله وتريدين ان تشترى مني لتماطليني يعني ان النفس الشريره التى دعتك لمماطلة ربك تدعوك الى مماطلتي وقد سد ابن المعتز باب الامل واغلقه

لا تأسفن من الدنيا على أمل * فليس باقيه الا مثل ماضيه

وقال الشيخ البهائي

بلهوٍ انقضى عمري * كذلك يذهب الباقي

وقال آخر

اذا ما المرء قصر ثم مرت * عليه الاربعون عن الرجال
ولم يلحق بصالحهم فدعه * فليس بلاحق أخرى الليالي

﴿ فصل ﴾ ومما يلحق بالتمثيل الاعتبار بالامثال قال أمير المؤمنين عليه السلام ان الامور اذا شبهت اعتبرت آخرها بأولها وروى اذ استبهمت والمعنى واحد وهو حق

وذلك لان المقدمات تدل على النتائج والاسباب تكشف عن المشبيات وطالما كان الشيئان ليسا علة ومعلولا وانما بينهما أدنى تناسب فيستدل بحال احدهما على حال الآخر واذا كان كذلك واستبهمت أمور على العاقل الفطن ولم يعلم الى ماذا تأول فانه يستدل على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفواتحها كالرعيه ذات السلطان الركيك الضعيف السياسه اذا ابتدأت أمور مملكته تضطرب واستبهم على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل فانه يجب عليه ان يعتبر اواخرها باوائلها ويعلم انه سيقضي امر ذلك الملك الى انتشار وانحلال في مستقبل الوقت لان الحركات الاول منذره بذلك وهذا واضح وسيجيء زياده توضيح لهذا الباب في علائم الاقبال والادبار من روض النعم وقال صلى الله عليه وسلم استدل على مالم يكن بما قد كان فان الامور اشباه وكان يقال اذا شئت ان تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك قال المتنبي في سيف الدوله من قصيدة في مدحه

ذكى تطية طليعة عينه * يرى قلبه في يومه ما يرى غدا

وقال بعض الاذكياء

يا من رأى أبويه فيمن * قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة * ام خلت ان تكن انفلاتا
ومن الذى طلب التفلت * من منيته ففاتا
كل تصبحه المنية او * تبيته بياتا

وقال بعضهم

أأمل ان أحيا وفي كل ساعة * تمر بى الموت تهز نعوشها
وما انا الا مثلهم غير ان لي * بقايا ليال في الزمان أعيشها

ومن كتاب له عليه السلام الى حارث الهمداني اعتبر ما مضى من الدنيا بما بقى

منها فان بعضها يشبه بعضها وآخرها لاحق بأولها ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة الا اذا بالغت في ايلامه فان العاقل يتعظ بالادب والبهائم لا تتعظ الا بالضرب وقال عليه السلام السعيد من وعظ بغيره أي ذو الجد من اعتبر بما لحق غيره من المكروه فيجتنب الوقوع في مثله .من الامثال اسد شاخ وضعف فلم يقدر على شيء من الوحوش وأراد أن يحتال لنفسه فى المعيشة فتمارض والقى نفسه فى بعض الغيران وكان كلما أتاه زائر من الوحوش افترسه داخل الغار واكله فاتى الثعلب يوماً ووقف على باب الغار مسلماً عليه قال كيف حالك ياسيد الوحوش قال له الاسد مالك لا تدخل يا أبا الحصين فقال له الثعلب يا سيد السباع قد كنت عولت على هذا غير اني ارى عندك آثار اقدام كثيرين قد دخلوا ولست ارى قد خرج احد منهم . ومن الامثال البازي قال للديك ما اعرف اقل حياء منك لان اهلك يربونك من البيضه واذا كبرت لا يدنو منك احداً الا طرت هيهنا وهيهنا وانا أوخذ من الجبال ويخيطون عيني ويجيعوني فى بيت مظلم واذا اطلقونى على الصيد فأخذه واعود عليهم فقال الديك لانك ما رأيت بازياً فى سفود وكم قد رأيت ديوكاً فى سفافيد

﴿ القسم الرابع ﴾ من أقسام الدلالة العقلية الاولية القطعية وهو فيما اذا كان وجود علة الحكم في الفرع أقوى من وجودها في الاصل . دخل ابليس على فرعون فقال أنت تدعي الربوبية قال نعم قال باي حجة قال بالف ساحر قال فاجمعهم لي فجمعهم فالقوا سحرهم فتنفس ابليس فذهب سحرهم هباء منثوراً ثم تنفس ثانياً فظهر سحراً اكبر من سحرهم فقال يا فرعون سحرهم أقوى أم سحرى فقال بل سحرك فقال يا فرعون أنا مع هـذا لا يرضاني الله ان اكون عبده فكيف يرضاك مع عجزك ان تكون شريكه . وقيل دخل ابليس لعنه الله على

فرعون لعنه الله فقال له من أنت قال هو ابليس قال ماجاء بك قال جئت متعجباً
من حمقك لاني عاديت مخلوقاً مثلي أبيت عن السجود له فطردت ولعنت وأنت
تدعي انك اله هذا والله الحمق والجنون . قال الصفدي قيل ان بعض الفقراء
أصابه قولنج شديد في بعض المساجد فجعل يضطرب ويتقلق ويقول يا الله
ضرطة يا الله فسوة حتى أقلق رفقائه فلما كان وقت الصبح أشرف على الهلاك
وعاين الموت فقال يا الله الجنة فقال له بعض رفقائه ما رأيت احمق منك أنت
من وقت المغرب الى الآن تسأله ضرطة ما فرّحك بها والآن تسأله الجنة .
وحكي ان قطب الدين بن الراولدي مضى الى محلة اليهود فقال لهم تعرفوني انا
عالم المسلمين قالوا نعم قال جئت اليكم ان ضيفتموني اربعين يوماً صرت الى مذهبكم
فقالوا نحب هذا اعتبار لديننا فهيأوا له من الاطعمة ما أرادوا ولما تم أربعون يوماً
فقال لهم وأتممناها بعشر فاتموها بعشر ثم قالوا له ادخل في مذهبنا فقال يا ناقصي
العقول انا في مدة خمسين سنة آكل طعام المسلمين والى الآن ما تحقق اسلامي
وتريدون لاجل اطعام هذه الايام القليلة ادخل في دين اليهود . قيل ان البهلول
أتى يوماً الى قصر الرشيد فرأى المسند والمتكأ الذي هو مكان هارون فجلس
في مكانه لحظة فرآه الخدمة الخاصة فضربوه وسحبوه عن مكان الخليفة فلما خرج
هرون من داخل قصره رأى البهلول جالساً يبكي فسأل الخدم فقالوا جلس في
مكانك فضربناه وسحبناه فزجرهم ونهرهم وقال له لا تبكي فقال يا هرون ما
ابكي على حالي ولكني ابكي على حالك انا جلست في مكانك هذا لحظة واحدة
فحصل لي هذا الضرب الشديد وأنت جالس في هذا المكان طول عمرك
فكيف يكون حالك وأنشد بعض العارفين

غيرت موضع مرقدي * يوماً ففارقني السكون

قل لي فاول ليلتي * في حفرتي اني اكون

وقال آخر

ياخل ان توسد لينا * وسدت بعد اليوم صم الجندل

وقال بعض العقلاء

ياعامر الدنيا المعد لها * ماذا عملت لدارك الاخرى
وممهد الفرش الوطيئة لا * تغفل فراش الرقدة الكبرى

وقال بعض العارفين لرجل من الاغنياء كيف طلبك للدنيا فقال شديد قال فهل ادركت منها ما تريد قال لا قال هذه التي صرفت عمرك في طلبها لم تحصل منها ما تريد فكيف التي لم تطلبها . وقال بعضهم في معناه

أراك تطلب دنيا لست تدركها * فكيف تدرك اخرى لست تطلبها

قال بعض العارفين اذا كان ابونا آدم بعد ما قيل له اسكن انت وزوجك الجنة صدر منه ذنب واحد فامر بالخروج من الجنة فكيف نرجو نحن دخولها مع ما نحن مقيمون عليه من الذنوب المتتابعة والخطايا المتواترة

ياغافلا ترنو بعيني راقد * ومشاهد للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب الى الذنوب وترتجي * درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت ان الله اخرج آدماً * منها الى الدنيا بذنب واحد

قال بعض العارفين قد قطعت اليد وهي أعز جوارحك في الدنيا لربع دينار فلا تأمن ان يكون عقابك في الآخرة على هذا النحو من الشدة . تخلف الثلاثة عن الرسول في غزوة واحدة فجرى لهم ما سمعت فكيف بمن عمره في التخلف عنه . خالف موسى الخضر عليه السلام في طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بيد هذا فراق بيني وبينك افلا تخاف يا من لم يف لربه قط ان

يقول في بعض زلاتك هذا فراق بيني وبينك

(الروض الرابع) في الامور الحاجبة للعقل عن ادراك الحقائق والعواقب .

اعلم ان محل العقل من الانسان هو القلب وقد استدلوا عليه بوجوه لا يسع ذكرها فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين وقوة الابصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وان كان قد غمض عينيه او جن عليه الليل فالعلم الحاصل منه فى القلب جار مجرى قوة ادراك البصر فى العين ورؤيته لاعيان الاشياء فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه الا انه لا مناسبة بينهما فى الشرف فان البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس اضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لاحد الضررين الى الأخر . ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى سمى ادراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وما أراد به الرؤية الظاهرة فان ذلك غير مخصوص بابراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان وكذلك سمى ضد ادراكه عمى فقال تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وقال تعالى (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) فاذا عرفت هذا فاعلم ان الامور الحاجبة للبصيرة كثيرة منها ما لا تدخل تحت الاختيار وذلك كالقضاء والقدر ففي الحديث اذا نزل القدر عمى البصر وليس المراد بالبصر الظاهر فانها ما تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور . وفي الحديث تذل الامور للمقادير حتى يكون الحتف فى التدبير قال بعض المحققين من شراح الحديث ذهبا

مطاوعتها للقدر بحسب القضاء الالهي وربما كان الهلاك المقضي منها مقداراً فيما يعتقده الانسان تدبيراً صالحاً لجهله بسر القدر . قال بعض البلغاء شعر

اذا ما أراد الله امراً لامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
اصم اذنيه وأعمى قلبه * وسلّ منه عقله سل الشعر
حتى اذا انفذ فيه حكمه * ردّ عليه عقله ليعتبر

ومنها ما تدخل تحت الاختيار بمعنى يمكن علاجها وهي امور كثيرة فمنها ما تكون حاجبة للعقل عن ادراك المصالح والمفاسد ومنها ما تكون حاجبة له عن النظر في عيوب النفس

﴿ فالاول منها ﴾ كثرة الاكل والغذاء فان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد فى الجسم الفضلات الرديئة وكثرة الاخلاط الفاسدة المتعفنة فيتصاعد منها ابخرة الى الدماغ تغطى على الحواس فتجيء البلادة والغفلة . قال عمر ابن العاص يوم حكم الحكمان اكثروا لابي موسى من الطعام الطيب فوالله مابطن قوم الا فقدوا عقولهم او بعضها وما مضى عزم رجل بات بطينا . اقول وحجاب كثرة الاكل للعقل وتغطيته للحواس واظلامه للقلب امر وجدانى يعرفه البدوى والقروى واذا عرفت هذا أثر كثرة الاكل فى العقل فأثر الجوع عكسه في تنوير القلب وتصفية الذهن كما يأتي بيانه

﴿ الحاجب الثاني ﴾ من حجب العقل كثرة الذنوب والانهماك بالمعاصي فانها تمنع صفاء القلب وجلاء النفس اذ القلب كما عرفت مثل المرآت وكل حركة من قول او فعل وقعت من النفس احدثت فى القلب أثراً منه فان كانت عقلية كانت معينة لها على الكمال وان كانت غضبية او شهوانية كانت عائقة لها عن ذلك فكل اشتغال بامر دنيوى يحدث فى وجه النفس نكتة سوداء كما

تحدث النكتة السوداء فى وجه المرآة حتى اذا تكثرت وتراكمت افسدتها وأفسدت جوهرها وذلك هو الرّان المذكور فى قوله تعالى (بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ ما كَانُوا يكْسِبُونَ) وفى الحديث من ترك جمعة اسودّ ثلث قلبه ومن ترك جمعتين اسود ثلثا قلبه ومن ترك ثلاث جمع اسود قلبه كله ومن هنا قال بعض العلماء

شكوت الى وكيع سوء حفظي * فارشدني الى ترك المعاصي

واخبرني بان العلم نور * ونور الله لا يهدي لعاصي

واعلم ان القلب خلق سليما فى الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها فالمعاصي للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع في الباطن مغيرة لمزاج الانسان وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي وهذا الحجاب مانع للعقل عن النظر فى امور الآخرة لا امور الدنيا (الحجاب الثالث) غلبة الطبع والعادة فيرى الانسان الاشياء بعين طبعه لا بعين بصيرته فمن امثال العرب يحسب الممطور ان كلا مطر يضرب للغنى الذي يظن كل الناس فى مثل حاله . ولما ملك يوسف خزائن الارض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال اخاف ان اشبع فلا اذكر الجائع . وحكى ان رجلا اغتصبت له ضيعة ثم توصل الى ردها فاعيدت عليه بعد مدة فكان قبل ان ترد عليه ضيعته اذا قيل له يا فلان كيف الناس فيقول بشر بين مظلوم لا ينتصر وظالم لا ينصف فلما ردت عليه ضيعته قيل له كيف الناس الآن فقال بخير قد اعتمد معهم الانصاف ورفع عنهم الاجحاف ورد عليهم المغصوب وكشفت عنهم الكروب . ومرّ رجل مع عبد له

على رجل يضرب بالسياط فسأل العبد مولاه عن جناية الرجل فقال هذا مطلوب مائة درهم فقال العبد وما قدر المائة درهم حتى يتحمل هذا الضرب ولم يعطها فعلم المولى ان العبد عنده مائة درهم فلم يزل به حتى استخرجها منه ثم بعد ذلك مرّ الرجل مع عبده على رجل محبوس على درهمين فقال المولى للعبد هذا محبوس على درهمين فقال العبد اذاً ماذا يصنع المفلس فعلم المولى حينئذ انه لايملك درهمين . دخل لصّ بيت رجل فأخذ متاعه وخرج فصاح الرجل ما أنحس هذه الليلة فقال اللص ليس على كل أحد . ومن أمثال العرب قولهم كيف ظنك بجارك قال كظني بنفسني وذلك ان كل أحدٍ يظن بالناس مثل طريقته وفعله ان خيراً فخير وان شراً فشر . قال المجنون

وتحسب ليلى انني اذ هجرتها * حذار الاعادي ان مابي هوانها
ولكن ليلى لاتفي بامانة * فتحسب ليلى انني سأخونها
وبي من هواها ما لو اني ابثه * جماعة اعدائي بكتني عيونها

عاب رجل رجلا عند بعض الاشراف فقال لقد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر فيه من عيوب الناس لان طالب العيوب انما يطلبها بقدرما فيه منها قال بعضهم

وأجرى من رأيت بظهر عيب * على عيب الرجال ذوي العيوب

وقال بعض ملوك الهند المسيء لايظن بالناس الا سوءاً لانه يراهم بعين طبعه . شعر

اذا ساء فعل المرء سائت ظنونه * وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادا محبيه بقول عداته * فأصبح في ليل من الشك مظلم

قال ارسطاطاليس على قدر بصيرة الانسان ترى الاشياء فالسالم العقل يرى

الاشياء على حقائقها والنفس اللئيمة ترى الاشياء بطبعها. قال المتنبي

ومن يك ذا فم مرّ مريض * يجد مرّاً به الماء الزلالا

فان الاشرار لايظنون بالناس الا الشر فمهما رأيت انساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم انه خبيث في الباطن وان ذلك خبثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث هو فان المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق . وقع رجل الى بعض الامراء ان ابنتي تحت فلان التركي عبدك وهو يأتيها في دبرها فدعاه فقال ما هـذا فقال الغلام اني حملت من تركستان الى طبرستان وناكوني في استي ثم من ملكني ناكني في استي ثم حملت اليك وكنت تنيكني في استي فما ظننت ان ذلك حرام فخجل الامير فقال الصهر قم عافاك الله ومن هـذا قيل معاشرة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار واعلم انه كما يحصل من كثرة الاعتياد على أعمال الشر سوء الظن كذلك يحصـل من الاعتياد على أعمـال الخير حسن الظن بالناس فقد قيل انه سمع بعض الصلحاء من العلماء ان البارحة قبض العسس على سارقٍ فقال متى ذلك فقيل له نصف الليل فقال له ياويله متى يصلي صلوة الليل حتى يتفرّغ للسرقه ونظير ذلك ان قطاع طريق سلبوا رجلاً صالحاً متعبداً وكان في سلبه سروالا نجسا فقال لمن أخذه انه نجس لاتصلي فيه وسبب هذا الاعتياد على أعمال الخير فيظن بالناس ما في نفسه ومن كلام لامير المؤمنين عليه السلام في ذكر عمرو ابن العاص عجبا لابن النابغه يزعم لاهل الشام ان في دعابة واني امرءٌ تلعابة أعارس وأمارس لقد قال باطلاً ونطق اثماً اما وشر القول الكذب أنه ليقول فيكذب ويعد ويخلف ويسـئل فيبخل اما والله اني ليمنعني من اللعب ذكر الموت وانه ليمنعنه من قول الحق نسيان الآخرة وانه لم يبايع معاويه حتى شرط له أن يؤتيه

أبيه ويرضخ له على ترك الدين رضيخة قال الشارح اعلم ان الرجل ذا الخلق المخصوص لايرى الفضيلة الا في ذلك الخلق الا ترى ان الرجل يبخل و يعتقد ان الفضيلة في الامساك والبخيل يعيب أهل السماح والجود وينسبهم الى التبذير واضاعة الحزم وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبهم الى ضيق النفس وسوء الظن وحب المال والجبان يعتقد ان الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها حزقاً وتعزيزاً بالنفس كما قال المتنبي يرى الجبناء ان الجبن حزم والشجاع يعيب الجبان وينسبه الى الضعف ويعتقد ان الجبن ذل ومهانه وهكذا القول في جميع الاخلاق والسجايا المقسمه بين نوع الانسان ولما كان عمرو ابن العاص شديد الغلظه وعر الجانب خشن الملمس دائم العبوس كان يعتقد ان ذلك هو الفضيله وان خلافه نقص ولو كان سهلاً طلقاً مطبوعاً على البشاشه وسماحة الخلق لكان يعتقد ان ذاك هو الفضيله وان خلافه نقص حتى لو قدرنا ان خلقه حاصل لعلي رضى الله عنه وخلق علي حاصل له لقال في علي لولا شراسة فيه فهو أخبر عن خلقه ظانٌ ان الخلافه لاتصلح الا للشديد الشكيمه العظيم الوعوره وهذا كما أشار اليه الامام ابو عبدالله في قوله ان البعوضة تتوهم ان لله تعالى زبانتين أي قرنين كما لها لانه فيها كمال وعدمه نقص . قال بعض الفضلاء لما رجعت من حج البيت الحرام سألني بعض الجهال ما طول قبر ربنا وكيف عرضه وهذا اقصى معرفته بانه سبحانه مثل غيره يحيي ويموت الى غير ذلك من مراتب الجهل

﴿ الرابع من حجب البصيرة ﴾ الحرص والأماني من كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه في وصف الانسان ان سنح له الرجاء أزله الطمع وان هاج به الطمع قتله الحرص ومن كلامه رضي الله عنه الأماني تعمي أعين البصائر وانشدني بعض الادباء

صاحب الحاجة أعمى * لا يرى الا قضاها

وحكي ان عظيماً من اكاسرة الفرس جلس يوم نيروز لدخول الناس عليه بطرف التحف فحضر الموبذان وهو اسم حاكم الحكام ومعه منديل مشدود على شيء فوضعه بين يدي كسرى وحله فاذا فيه فحمة كبيرة فقال ما هذا فقال انني كنت قد خرجت الى مكان النزهة فرأيت بازياً قد تبع دراجه فجاءت الدراجة الى اجمة قد وقعت فيها نار فالقت نفسها في الأجمة فهلكت فدخل البازي من حرصه خلفها فاحترق وانا أراه فوقفت مفكراً في حاله وما فعله حرصه ثم أخذته وقد صار فحمة ورأيت انه من أبلغ المواعظ فاحضرته بين يديك لتعلم ان الحرص مقود الى الهلاك والبوار وانما ذكرنا هذه الحكاية من باب التمثيل اذ الحرص الموجود بالانسان أشد وأعظم من الموجود بالحيوان فكما يسوق الحيوان ويعمي احساسه كذلك يسوق الانسان ويعمي بصيرته عن المتالف والمهالك

﴿ الخامس من حجب البصيرة ﴾ شدة الطمع وأحسن أمثاله ماقاله بعض الفضلاء ان رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد ان تصنع بي قال أذبحك واكلك قالت والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من اكلي أما واحدة فاعلمك وأنا في يدك وأما الثانية فاذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فاذا صرت على الجبل قال هات الاولى قالت لا تلهفنّ على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لاخرجت من حوصلتي درتين زنة كل واحدة عشرون مثقالاً قال فعض على شفته وتلهف وقال هات الثالثة قالت انت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك

بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان في كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت وذهبت وهذا مثال فرط طمع الآدمي فانه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون انه يكون. ونظير هذا ما في كليلة ودمنة ان سارقاً على ظهر بيت رجل من الاغنياء وكان معه جماعة من أصحابه فاستيقظ صاحب المنزل من وطئه فعرف امرأته ذلك فقال لها رويداً اني لأحسب اللصوص علوا على البيت فايقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة فاذا نهيتك عن هذا السؤال فالحي عليّ بالسؤال ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها وأرضت اللصوص الى سماع قولهما قال لها الرجل أيتها المرأة قد ساقك القدر الى رزق واسع كثير فكلي واسكتي ولا تسألِ عن أمر ان أخبرتك به لم آمن ان يسمعه أحد فيكون في ذلك ما اكره وتكرهين ثم قالت المرأة اخبرني أيها الرجل فلعمري ما بقربنا أحد يسمع فقال لها فاني اخبرك اني لم اجمع هذه الاموال الا من السرقة قالت وكيف كان ذلك وما كنت تصنع قال ذلك لعلم أصبته في السرقة وكان الامر عليّ يسيراً وأنا آمن ان يتهمني أحد ويرتاب فيّ قالت فاذكرلي ذلك قال كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا وأصحابي حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا فانتهي الى الكوة التي يدخل منها الضوء فارقى بهذه الرقية وهي شولم شولم سبع مرات واعتنق الضوء فلا يحس بوقوعي أحد فلا أدع مالاً ولا متاعاً الا اخذته ثم أرقى بتلك الرقية سبع مرات وأعتنق الضوء فيجذبني فاصعد الى اصحابي فنمضي سالمين آمنين فلما سمع اللصوص ذلك قالوا قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال ثم انهم أطالوا المكث حتى ظنوا ان صاحب

الدار و زوجته قد هجعا فقام فأدهم الى مدخل الضوء وقال شولم شولم سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل الى أرض المنزل فوقع الى أم رأسه منكساً فوثب اليه الرجل بهراوته وقال له من انت قال انا الذي اعمى بصيرتي الطمع فصدقت بما لا يكون ابداً انه يكون . ونظر طفيلي الى قوم ذاهبين فلم يشك انهم ذاهبون الى وليمة فقام وتبعهم فاذاهم شعراء قصدوا الى دار السلطان بمدائح لهم فاخذوا جوائز شعرهم وبقي الطفيلي فقيل له انشد شعرك قال لست بشاعر قيل فمن اين أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء . ونظر رجل من المتطفلة الى قوم من الزنادقة يشار بهم الى القتل فرأى لهم هيأة حسنة وثياب نقية فظنهم يدعون الى وليمة فتطفل حتى دخل في لفيفهم وصار واحداً منهم فلما بلغ اليه صاحب الشرط قال اصلحك الله لست والله منهم وانما انا طفيلي ظننتهم يدعون الى صنيع فدخلت في جملتهم فقال ليس هذا مما ينجيك مني اضربوا عنقه فقال اصلحك الله ان كنت ولا بد فاعلا فأمر السياف ان يضرب بطني بالسيف فانه هو الذي ورطني هذه الورطة فضحك صاحب الشرط وكشف عنه فاخبروه انه طفيلي معروف فخلى سبيله . ومن امثال العرب اطمع من مقمور وانما قيل هذا لانه يطمع ان يعود اليه ما قمر . ومن الامثال ايضاً اطمع من اشعب وهو رجل من اهل المدينة اجتمع يوماً عليه غلمة من غلمان المدينة يعابثونه وكان مزاحاً ظريفاً مغنياً فاذاه الغلمة فقال لهم ان في دار بني فلان عرساً فانطلقوا الى هناك فانه انفع لكم فانطلقوا وتركوه فلما مضوا قالوا لعل الذي قلت من ذلك حق فمضى في اثرهم نحو الموضع فلم يجد شيئاً وظفر به الغلمان هناك فاذوه . ومن طمعه انه مر برجل يمضغ علكاً فتبعه اكثر من ميل حتى علم انه علك ومر بمكتب وغلام يقرأ

على الاستاذ ان أبي يدعوك فقال قم بين يدي حفظك وحفظ الله اباك فقال انما كنت اقرأ وردي فقال انكرت في ان تفلح او يفلح ابوك . وقيل له هل رأيت اطمع منك قال نعم خرجت الى الشام مع رفيق لي فنزلنا عند دير فيه راهب فتلاحينا في امر فقلت اير الراهب فى است الكاذب فنزل الراهب وقد انعظ وقال ايكما الكاذب . ويقال ان بعضهم اجتاز بدار فسمع صاحبها يقول لزوجته ان لم احمل عليك الف رجل فما انا برجل فجلس على الباب الى ان اعياه ثم قام وضرب الباب وقال تحمل على هذه القحبة واحد والا نمضي

﴿ السادس من الحجب ﴾ حصول المطالع والمراشى فان ذلك يحجب العقل عن النظر في المفسدة . قال امير المؤمنين رضى الله عنه اكثر مصادع العقول تحت بروق المطامع . وقيل في بعض كتب الظرف ان رجلاً كان عنده امرأة تفجر وتنفق عليه فطلقها وتزوج بعفيفة فطلب منها ما كانت تأتي به الاولى فعاد يوماً الى داره فقدمت المرأة اليه طعاماً طيباً فقال من اين قالت جائني وحمل طعاماً وشراباً وحلواء فاكلنا وجامعني وهذا نصيبك فقال اذا تعاطيت هذا فاياك واخباري بتفاصيل ما يجرى فاني غيور . كانت جاريه لبعض الاكابر وكانت عفيفة الا انها كانت تفحش فى مجونها فقال لها مولاها اقصري عن هذا الفحش بحضر من الرجال فقالت افحش منه عنهم اخذك دراهمهم بسببي

عجبت من شيخي ومن زهده * وذكره النار وأهوالها
يكره ان يشرب فى فضة * ويسرق الفضة ان نالها

وذلك لفرط الطمع وكثير ما رأينا من متنسكين بالعبادات واجتناب المكروهات والمحرمات يغش بالمعاملات فيرتكب اعظم ما يجتنب لغشاوة

الطمع على بصيرته . مرّ يحيي بأبي عبد الله التونسي وسلم عليه فقال ما تقول فى صلوتي في هذه الثياب التي عليّ فاستغرب العابد ضحكاً وقال مثلك مثل الكلب يتمعك فى الجيفة ويتلطخ بدمها ويأكل النجس فاذا بال رفع رجله تنزهاً عن البول وأنت بطنك مملوءه من الحرام وتسئل عن ثيابك فبكى ونزل عن دابته وتجرد عن ثيابه واقتفى أثر العابد وأقام معه ثلاثة أيام ثم أمره بالاحتطاب فكان يحتطب ويبيع ويأكل من كسبه ويتصدق من فضله وكان الناس اذا أتوا الى العابد لطلب الدعاء يقول سلوا يحيي فانه خرج من الدنيا عن قدرته والله أعلم

﴿ السابع من حجب العقل ﴾ غلبت الشهوات النفسانية وحينئذ يحسن ماوافق الهوى ويقبح ما خالفه . قال سهل الاعورانى جامعت امرأة في شهر رمضان فذهبت لاقبلها فحولت وجهها عني فقلت لها لم تمنعني فقالت بلغني ان القبله تنقض الصوم وجامع رجل امرأة فلما قرب من الفراغ قال ما تقولين في الاعتزال قالت بلغني انه مكروه فقال ولم يبلغك في الزنا كراهيه وقيل زنى رجل بجاريه فاحبلها فقيل له ياعدوّ الله هلاّ اذ ابتليت بفاحشه عزلت قال قد بلغني ان العزل مكروه قالوا فما بلغك ان الزنا حرام . حكى ان رجلا قال رأيت ابليس في النوم وهو مغموم فسألته عن سبب ذلك فقال له وكيف لااغتم وقد هجاني أبو نواس باقبح الهجاء قال ففي الصباح انصرفت الى أبي نواس فاخبرته بالمنام فقال قلت فيه بيتين وهما هذان

وعجبت من ابليس في تيهه * وقبح ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة * وصار قواداً لذريته

قيل لطفيلي أي سورة تعجبك من القرآن قال المائدة قيل فأي آية قال ذَرْهُمْ

يا كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قيل ثم ماذا قال آتنا غدائنا قيل ثم ماذا قال ادْخُلُوها بِسَلَامٍ آمنينَ قيل ثم ماذا قال وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . ولزم اعرابى سفيان بن عينيه يسمع منه الحديث فلما أراد السفر قال له سفيان يا اعرابى ما الذي أعجبك من حديثنا قال ثلاثة أحاديث اولها عن النبي انه كان يحب الحلواء والعسل والثانى انه صلى الله عليه وسلم قال اذا وضع الفطور وحضرت الصلوة فابدؤا بالفطور والثالث عنه صلى الله عليه وسلم ليس من بن سفيان من سفن وقال بنان حفظت القرآن كله ثم نسيته الا حرفين وهما آتنا غدائنا وقيل لطفيلي من اشعر الناس قال عبد الله ابن المعتز لانه قال

ولم أرى ديباجاً ولم أرى سندساً * باحسن فى دار الكرام من الخبز

قيل كان أعشى همدان وهو محمد ابن عبد الله اسره علج فى بلاد الديلم وكان للعلج بنت فاحبته وسارت اليه ليلاً فمكنته من نفسها وأصبح وقد واقعها ثمان مرّات فقالت يامعشر المسلمين هكذا تفعلون بنسائكم فقال نعم قالت بهذا العمل نصرتم ثم قالت أفرأيت ان خلصتك تصطفيني لنفسك قال نعم فلما كان الليل حلت قيوده واخذت به طريقاً تعرفها وهربت معه فاصطفاها لنفسه واقامت معه وفي ذلك قال الشاعر

فمن كان يفديه من المال نفسه * فهمدان يفديها الغدات ايورها

وقد تبين من هذه المقدمة ان القوة الشهوية اذا غلبت صار العقل مسخراً لها في استحسان ما وافق الهوى واستقباح ما خالفه من قول او فعل ومنه قال المتنبي

انما تنجح المقاله في القلب * اذا وفقت هوا في الفؤاد

فاستخدمته في استنتاج الحيل للتوصل الى شهواتها والانسان اذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض

حتى انه اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من اعماق البحار استخرجه واذا أراد أن يستخرج الذهب والفضه من تحت الجبال استخرجه واذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقه في البراري والصحارى اقتنصها واذا أراد أن يستسخر السباع والفيله وعظيم الحيوانات استسخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من اجوافها وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الآلات فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكه لاصطياد السمك الى غير ذلك من دقائق الحيل وكله من غلبة القوه الشهويه والهوى على العقل واذا انصرف الهوى عن شيء فترت الهمة عنه واظهر اليأس واستعظم الامر واستوعر الطريق ولما غلب على النفوس البشرية حب الدنيا والعاجل من الشهوات توجهت همتهم وعقولهم اليها وانصرفت عن الاخره والعقبى وذلك هو الخسران المبين وبالجمله فالبعاث والمحرك هو الهوى النفساني. ومن الامثال اللطيفه ما يقال ان حداداً كان عنـده كلب دأبه التواني والرقاد ما دام الحداد عاملاً واذا رفع العمل وجلس هو وأصحابه ليأكلوا استيقظ الكلب فقال له الحداد يا كلب السوء مالي أرى صوت المطارق التي تزعزع الارض لاتنبهك وحس المضغ الخفي تسمعه فيوقظك وكذلك الانسان الذى غلب عليه هواه يتقاعس عن الوعظ واذا سمع الهوى نصب اليه وقال أبو العيناء رأيت جاريه مع النخاس وهي تحلف ان لاترجع الى موليها فسألتها عن ذلك فقالت ياسيدى انه يواقعني من قيام ويصلي من جلوس ويشتمني باعراب ويلحن في القراءه فقلت لا كثر الله مثله في المسلمين وخلاصة الامر ان الهوى اذا غلب حجب العقل عن المصالح واستسخره في حاجاته

﴿ الثامن من حجب البصيره ﴾ غلبت الحب النفساني . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حبك للشيء يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الوعظ قيل ان المحب عن العذال في صمم ومن الامثال حبك للشيء يعمي ويصم قاله رسول الله صلى الله عليه وآله أراد أن حبك للشيء يعميك عن مساويه ويصمك عن استماع العذل فيه فاخذه الشاعر وقال

وعين الرضى عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقال حبك للشيء سرٌ بينك وبين مساويه وبغضك له سرٌ بينك وبين محاسنه ولبعضهم في معناه

وحبك الشيء يعمي عن قبائحه * ويمنع الاذن ان تصغى الى العذل

وقالوا في الامثال حبك الشيء يعمي ويصم ان يخفي عليك مساويه ويصمك عن سماع العذل فيه وقالوا ايضاً اذا ابصرت العين الشهوه عمي القلب عن الاختيار ومن كلام أمير المؤمنين ومن عشق شيئاً اغشى بصره وأمرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع باذن غير سميعة ومن هذا الباب ترى ان كل انسان يمدح وطنه ويرجحه على غيره ولو كان مرجوحاً وليس لذلك سبب الا الحب للوطن واعلم كما ان الحب يعمي ويصم كذلك البغض ايضاً يعمي عن محاسن المبغوض وعليه قولهم

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما ان عين السخط تبدي المساويا

وقيل

وعين البغض تبرز كل عيب * وعين الحب لاتجد العيوبا

﴿ فصل ﴾ وحب الانسان لنفسه هو الذي حجب عقله عن عيوبها . قيل لحكيم ما بال الناس لايرون عيب أنفسهم كما يرون عيب غيرهم قال ان الانسان عاشق

لنفسه والعاشق لا يرى عيوب المعشوق ومن هذا قال بعضهم

أرى كل انسان يرى عيب غيره * ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خير من تخفى عليه عيوبه * ويبدو له العيب الذي بأخيه

في الاثر انه لقي ابو العيناء بعض اخوانه في السحر فجعل يتعجب من بكوره وقال يا عبد الله اتركب في مثل هذا الوقت فقال الرجل ابو العيناء يشاركني في الفعل ويفردني بالتعجب وأنشد ابو ثابت النحوي لبعض الشعراء

ومطروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من اخيه لابصرا
ولو كان ذا عقل وينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

ولبعضهم

لكل فتى خرج من العيب ممتلي * على كتفه منه ومن اهل دهره
فعين عيوب الناس نصب عيونه * وعين عيوب النفس من خلف ظهره

ومن امثال العرب يحث وهو الآخر يضرب لمن يستعجلك وهو ابطأ منك .
ومن امثال العرب يعقد في مثل الصواب وفي عينيه مثل الجرّه يضرب لمن يلومك في قليل ما كثر منه من العيوب انشد الرياشي

الا ايهذا اللائمي فى خليقتي * هل النفس فيما كان منك تلوم
فكيف ترى في عين صاحب القذى * وتنسى قذى عينيك وهو عظيم

ومن امثال كليلة زعموا ان مدينة اغار عليها العدوّ فقتل وسبي وغنم وانطلق الى بلاده فاتفق انه كان مع جندي مما وقع في قسمته رجل حرّاث ومعه امرأتان له وكان هذا الجندي يسيء اليهم في الطعام واللباس فذهب الحرّاث ذات يوم ومعه امرأتان يحتطبوا للجندي وهم عراة فاصابت احدى المرأتين في طريقها خرقة باليه فوضعتها على سوأتها فقالت الاخرى لزوجها ألا تنظر

الى هذه الفاعلة كيف لا تستحي وتستر عورتها فقال لها زوجها لو بدئت بالنظر الى نفسك وان جسمك عار كله لما عيرت صاحبتك بما هو بعينه فيك . لبعضهم

ومطروفة عيناه عن عيب نفسه * فان لاح عيب من أخيه تبصرا

﴿ فصل ﴾ ويحب الانسان لنفسه وعماه عن عيوبها نتائج . منها ثقل النصيحة فان النصيحة من حيث هي نصيحة تميز القلوب غيظاً منها وتنفر النفس طبعاً عنها لمخالفتها الهوى ولأن النفس مائلة الى الفساد . والنصيحة داعية الى الرشاد . والنصيحة محض خير وبر . والنفس مطبوعة على الاذى والشر . قال ابن مسعود مانصحت لاحدٍ قط الا وجدته يفتش في عيوبي وليس ذلك الا لثقلها عليه ومن أمثال العرب ان كثير النصيحه يهجم على كثير الظنه أي اذا بالغت في النصيحة اتهمك من تنصحه ومن أمثالهم تسقط به النصيحة على الظنه اى كثرة نصيحتك اياه تحمله على ان يتهمك . من كلام بعض الاذكياء اذا رأيت انساناً قد أخطأ فلا تعلمه فانه يتعلم منك ويغضب عليك وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين اذ قال تعالى ولكن لا تحبون الناصحين وقد آل الامر في أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا و يعرفنا عيوبنا بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقابلته فنقول له وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت وتشغلنا المداوة معه عن الانتفاع بنصحه . ومن هذا تلطف العقلاء في ايصال النصائح والمواعظ الى النفوس البشرية بضرب الامثال كالذي في كليلة ودمنة وكتاب الصادح والباغم من حكايات الحيوان اذ النصح الصريح ثقيل على النفس كما عرفت والنفس تميل الى اللهو فطووا لها المواعظ في حكايات ملهية لتتنبه البصيرة بها وعلى هذا المسلك بنينا كتابنا هـذا وكان هو السبب في ذكرنا الحكايات والملح فيه فتنبه ومنها الظلم وعدم الانصاف قال أبو الطيب المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعله لا يظلم

وقفت امرأة قبيحة على عطار ماجن فلما نظر اليها قال واذا الوحوش حشرت فقالت (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ) . قال ابن الجوزي حدثنا أبو الطيب ابن هرثمة قال كنت مجتازاً ببغداد ومخنث يمشي فرأته امرأة وكان حسن البدن فقالت ليت عليّ شحم هذا المخنث فقال لها المخنث مع بغاي فشتمته فقال لها كيف صار تأخذين الجيد وتدعين الردي . ومن محاضرات الراغب قال صبي لمعلمه رأيت كأني مطلي بالعذرة وأنت مطلي بالعسل قال هذا عملك السوء وذاك عملي الصالح قال الصبي فاسمع تمام الرؤيا وكأني ألحسك وأنت تلحسني فقال له اسكت لعنك الله . من كتاب بهجة السرور قال بعض اللوطية خلوت يوماً بغلام حسن في خرابة فاذا شيخ ذي هيبة قد دخل علينا فقال لي ياهذا ماتستحي من الجبار . وكيف لا تغلو الاسعار وتقل الثمار . وتيبس الاشجار . وتقل الامطار . وتجف الأنهار . ولم يزل يوبخني حتى قمت وخرجت وتركت الغلام ثم جعلت التفت خلفي فلم أره يخرج فانكرت ذلك ورجعت الى الخربة فاذا الغلام تحت الشيخ فقلت الآن ترخص الاسعار . وتكثر الثمار . والامطار . وتورق الاشجار . فقال أنا وان كنت عاصياً أحب ان تكون صالحاً . ومن الكتاب المذكور تخاصم رجل وامرأته الى قاض فقالت المرأة أصلحك الله أيها القاضي ان كنت كاذبة على بعلي في تضييعه حقوقي الواجبة عليه فاير القاضي في حري وكانت امرأة جميلة فقال القاضي اعيدي دعواكي فاعادت دعواها فقال ثلثي فاعادت كلامها ثالثاً والزوج ساكت فقال له القاضي ما تقول في دعواها قال ان كنت مضيعاً حقوقها فايري في حر امرأة القاضي فقال القاضي لغلامه يا غلام عزر هذا الفاسق فقال الرجل سبحان الله حتى الايورة منها شقي وسعيد

اير القاضي في حرامرأتي ثلاثاً لا يوجب التعزير ثم يؤمر بتعزيري في مرة واحدة ومن نتائج الظلم وعدم الانصاف المماطلة بالحقوق للغير من أمثال العرب الأكل سلجان والقضاء ليان يضرب لمن يأخذ مال الناس فيسهل عليه فاذا طولب بالقضاء دافع وصعب عليه . ومثله الاخذ سريط والقضاء ضريط والمعنى واحد أي اذا أخذ المال سرط واذا طولب أضرط بصاحبه . ولبعضهم

لا تعرضن الصديق شيئاً * ان رمت ان تقضي وداده
فالأخذ مثل النكاح حلو * والرد أنكى من الولاده

وقال آخر في عكسه

اذا استثقلت أو ابغضت خلقاً * وسرك بعده حتى التناد
فشرده بقرض دريهمات * فان القرض داعيه الفساد

﴿ التاسع من حجب البصيرة ﴾ العجب النفساني وهو من نتائج حب الانسان لنفسه أيضاً والعجب اما بالنفس أو بالرأى وكلاهما يحجبان البصيرة فاما المعجب بالنفس فقد قال بعض الحكماء الكاذب فى نهاية البعد من الفضل والمرائي أسوأ حالا من الكاذب لانه يكذب فعلاً وذاك يكذب قولا والفعل اكد من القول فاما المعجب بنفسه فاسوأ حالا منهما لانهما يريان نقص أنفسهما ويريدان اخفاءه والمعجب بنفسه قد عمي عن عيوب نفسه فيريها محاسن فيبديها . وقيل للحسن رضي الله عنه من شر الناس قال من يرى انه خيرهم قال أمير المؤمنين رضي الله عنه عُجْبُ المَرْءِ بنَفسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقلِهِ معنى هذه الكلمة ان الحاسد لا يزال مجتهداً في اظهار معائب المحسود واخفاء محاسنه فلما كان عجب الانسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذى دأبه اظهار عيب المحسود ونقصه . وكان يقال من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه وحقيقة العجب ظن الانسان

بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها . ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجب بنفسه يسرني ان اكون عند الناس مثلك وان اكون عند نفسي مثلك عند الناس فتمنى حقيقة ما يقدره ذاك . ثم تمنى ان يكون عارفاً بعيوب نفسه كما يعرف الناس عيوب ذلك الرجل المعجب بنفسه . وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خاطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فان كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه وان كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق باصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال اهل البصيرة لكان ذاك يوصله الى الحق

﴿ العاشر من الحجب ﴾ شده الغضب فانه مهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها واصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً واذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر اذ ينطفئ نور العقل ويمحي في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم الى الدماغ يستولى على معادن الفكر . وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الامواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر احسن حالاً وارجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً اذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها . واما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقط حيلته اذ أعماه الغضب واصمته وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت

العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة فأقل الناس غضباً اكثرهم عقلاً فان كان للدنيا كان دهاء ومكراً وان كان للآخرة كان حلماً وعلماً . فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وقال ابن المقفع اذا حاججت فلا تغضب فان الغضب يقطع عنك الحجة ويظهر عليك الخصم واحذر الغضب ممن يحملك عليه فانه مميت للخواطر مانع من التثبت واحذر حين تظهر العصبية لخصمك بالاعتراض عليك وتشييد قوله وحجته فان ذلك يهيج العصبية والاعتراض على هذا الوجه يخلق الكلام ويذهب بهجة المعاني

﴿ فصل ﴾ ومما ينبغي الحاقه بحاجبية الغضب حاجبية اللجاج والخلاف. قال أمير المؤمنين رضى الله عنه اللجاجة تسل الرأى هذا مشتق من قوله عليه السلام لارأى لمن لايطاع وقال عليه السلام الخلاف يهدم الرأى هذا مثل قوله عليه السلام لارأى لمن لايطاع ويروى لا امرة لمن لايطاع وكان يقال اللجاج يشحذ الزجاج ويثير العجاج وكان يقال اهدى رأى الرجل ما نفذ حكمه فاذا خولف فسد ومن كلام افلاطون اللجاج عسر انطباع المعقولات في النفس وذلك اما لفرط حدةٍ تكون في الانسان واما لغلظ طبع فلا ينقاد للرأى وقال أمير المؤمنين في وصيته للحسن رضى الله عنه اياك وان تجمح بك مطية اللجاج . هذا ما ينبغي التنبيه عليه من حجب البصيرة وقد عرفت ان أغلبها بل كلها افراط أحوال النفس

﴿ الروض الخامس في الامور الكاشفة ﴾ للنفس عن المصالح والمفاسد وهي أقسام منها ما تكشف عن مساوى النفس ومفاسدها ومنها ما تكشف عن حسن الافعال وقبحها والكل واحد (فالاول منها) السنة الناس اذ قد عرفت ان الانسان يعمى عن عيوبه والناس بين مادح وقادح. قال أمير المؤمنين المرآت

التي ينظر الانسان فيها الى اخلاقه هي الناس لانه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساويه من اعدائه فيهم .وفي الحديث قال رجل يا رسول الله كيف لي ان اعلم اذا أحسنت أو أسأت قال اذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت واذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت واعلم ان لسان العدو اكثر كشفاً من لسان الصديق لان الصديق قد يكون مداهن او محب تخفى عليه العيوب. قال أمير المؤمنين رضى الله عنه اعداء الرجل قد يكون خيرمن اخوانه لانهم يهدون اليه عيوبه فيتجنبها ويخاف شماتتهم به فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه فالعاقل هو ما يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة اعدائه فان عين السخط تبدي المساويا ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا ان الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لايخلو عن الانتفاع بقول اعدائه فان مساويه لابد وان تنتشر على السنتهم وما أحسن قول هذا اللبيب

عداتى لهم فضل علي ومنة * فلا اذهب الرحمن عني الاعاديا
هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها * وهم تأمنوني فاكتسبت المعاليا

والقول الوجيز ان من ذمك لايخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقه واما أن يكون صادقاً ولكن قصده الايذاء والتعنت واما أن يكون كاذباً فهذه ثلاث حالات فان كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي ان تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي ان تتقلد منته فان من اهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغي ان تفرح به وتشتغل باذالة الصفه المذمومه عن نفسك ان قدرت عليها فاما اغتمامك بسببه

وكراهتك له وذمك اياه فانه غاية الجهل وان كان قصده التعنت فأنت انتفعت بقوله اذا أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلاً به او ذكرك عيبك ان كنت غافلا عنه او قبحه في عينك لانبعث حرصك على ازالته ان كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته من المذمه فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوّث بالعذرة وأنت لاتدري ولو دخلت عليه كذلك لخفت ان يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل ايها الملوث بالعذرة طهر نفسك فينبغي ان تفرح به لان تنبيهك بقوله غنيمه وجميع مساوي الاخلاق مهلكه في الآخرة والانسان انما يعرفها من قول اعدائه فينبغي أن تغتنمه واما قصد العدو التعنت فجناية منه على نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب بقول انتفعت به وتضرر هو به . الحالة الثالثة أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لاتكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في انك ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله واشباهه وما ستره الله من عيوبك اكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه

﴿ الثاني تنزيل النفس ﴾ منزلة الغير او ينسب أفعاله لغيره فينكشف له حينئذ الصالح من الفاسد اذ قد عرفت فيما قدمناه ان الانسان تخفى عليه عيوبه وتنكشف له عيوب غيره فاذا نسب الفعل الى غيره تبين قبحه أو حسنه. قال أمير المؤمنين كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك وقال عليه السلام السعيد من وعظ بغيره والشقي من اتعظ به غيره اخذه بعض الشعراء فقال

ان السعيد له من غيره عظة ❊ وفي التجاريب تحكيمٌ ومعتبرُ

قال الحسن البصري لرجل حضر جنازه تراه لو رجع الى الدنيا لعمل صالحاً قال

نعم قال فان لم يكن هو فكن أنت وقيل لبعض الحكماء ممن تعلمت العقل قال ممن لا عقل له كنت أرى الجاهل يفعل الشيء يضره فاجتنبه وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الاخلاق والتأدب مع الاضياف فقال كانت الاسفار تحوجني الى ان افد على الناس فما استحسنته من اخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته . وقال طاهر بن الحسين

اذ أعجبتك خصال امرئ ✻ فكنه تكن مثل ما يعجبك

فليس على الفضل والمكرمات ✻ اذا جئتها حاجب يحجبك

وخلاصة الكلام ينبغي للعاقل ان يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب به نفسه ويتفقده فان المؤمن مرآت المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم ان الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الاقران لا ينفك القرن الآخر عن اصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب . قيل لعيسى عليه السلام من أدّبك قال ما أدّبني أحد رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتنبته

﴿ الثالث من الامور الكاشفة ﴾ تنزيل الغير منزلة النفس . قال أمير المؤمنين رضي الله عنه اجعل لنفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم واحسن كما تحب ان يحسن اليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل للناس ما لا تحب ان يقال لك . كان معلم انوشيروان حكيما فلما ترعرع أنوشيروان وأرادوا ان يخرجوه من كنف المعلم ضربه ضرباً مؤلما بغير ذنب وحمله ثلجاً الى ان كادت كفه تسقط

فلما صار اليه الملك طلبه فلما حضر أحضر له النطع والسياف فقال أتقتلني ظلما قال كما ضربتني ظلما قال خذ العذر قال هات فقال أما الضرب فاني أردت ان تعرف طعمه اذا ضربت فترحم فقال خلصت منها فالثلج قال لانك في بلاده فربما خرجت بالضعفاء الى صيد ونحوه في ثلج فترفق فاستحسن ذلك وأجازه . ومن كتاب رشد اللبيب لمواصلة الحبيب ان أيمن بن فاتك الاسدي كان شيخاً كبيراً أعور وأبرص وكان له امرأة من بني كلب ذات حسن أشد حباً لبعلها منها فقال أتحبيني قالت نعم قال بالله عليك قالت لقد سألتني بعظيم واكره ان أصدقك فتغضب فقال اني لا أغضب ان صدقتيني فقالت له لو كنت أنا عجوز شمطا برصا عوراء هل كنت تحبني قال فطلقها فقالت له أنت احببت ذلك . وحدث بعض الشيوخ قال خرجت الى بعض احياء العرب فرأيت امرأة ذات حسن فائق رشيقة القد أسيلة الخد فوقعت في نفسي فقلت يا هذه ان كان لك زوج فتبارك الله لك وبارك لكل منكما في صاحبه فقالت أخاطب انت قلت لها نعم قالت انه قد كثر الشيب في رأسي افتقبل على ذلك قال فلما سمعت ذلك ثنيت عنان فرسي راجعاً عنها فقالت لي على رسلك لاذكر لك شيئاً فوقفت فقلت لها وما هو قالت لي اني لم ابلغ العشرين بعد ولكني احببت ان اعلمك اني اكره منك ما تكرهه مني ثم ولت عني وهي تنشد بهذا البيت

أرى شيب الرجال من الغواني * بموضع شيبهن من الرجال

وقال رجل لجارية أراد شراءها لا يريبك هذا الشيب الذي ترينه فان عندي قرة عين فقالت الجارية أيسرك ان عندك عجوزاً مغتلمة . وقال بعض العقلاء لاصحابه يعمد أحدكم الى ابنته فيزوجها القبيح الذميم لانهن يحببن ما تحبون يعني انه اذا زوجها الذميم كرهت ذلك وعصت الله فينبغي للعاقل ان ينصف

الناس من نفسه ولا يأتي اليهم الا بما يحب ان يؤتى اليه فنفسه مرآت له يستكشف بها ما يحبونه منه وما يكرهه

﴿ الرابع من الامور الكاشفة ﴾ مقابلة الشيء بنظيره او بضده . قال الخليل لا يعلم الانسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره . ومن امثال العرب كل مجرٍ في الخلاء يسر ويروى كل مجرٍ في الخلاء مجيد واصله ان رجلاً كان له فرس يقال له الابيليق وكان يجريه فرداً ليس معه احد وجعل كلما مرَّ به طائر اجراه تحته او رأى اعصارا اجراه تحتـه فاعجبه ما رأى من سرعته فقال لو راهنت عليه فنادى قوماً فقال اني اردت ان أراهن عن فرسي هذا فايكم يرسل معه فقال بعض القوم ان الحلبه غدا فقال اني لا ارسله الا في حضار فراهن عنه فلما كان الغد ارسله فسبق فعند ذلك قال كل مجر في الخلاء يسر ويقال ايضاً كل مجر بخلاء سابق فقد تبين ان الشيء لا يتبين حتى يقاس بغيره

﴿ الخامس الحياء والاظهار والكتمان ﴾ فان ما يتضمن حياءً لا يخلو عن قبح قال امير المؤمنين رضى الله عنه احذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكرهه لعامة المسلمين واحذر كل عمل يعمل في السر ويستحي منه في العلانية واحذر كل عمـل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه . هذه الكلمات الثلاثة متقاربة في المعنى ويشملها قول الشاعر

لا تنـه عن خلق وتأتي مثله ✽ عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال بعض الحكماء لابنه يابنيَّ لا تعمل في السر عملا تستحي منه في العلانية وسئل محمد بن علي الباقري رضى الله عنه عن المرأة فقال ان لا تعمل في السرّ عملاً تستحي منه في العـلانية . كان مالك ابن مسمع اذا ساره انسان قال له اظهره فلو كان فيه خيراً لما كان مكتوماً . وأوصى بعض الحكماء ولده فقال

له يابنيّ اذا اردت ان تعمل عملاً ففكر في حسنه وقبحه قبل ان تعمله فان كرهت ان يعلم به الناس فلا تعمله فانه لا يكن علم الناس بالشيء الا ما كان قبيحاً من الاعمال . وفي حديث مرفوع ما احببت ان تسمعه اذناك فآته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه . ومن هذا فعل الطائي الذي نزل به امرء القيس ابن حجر فهمّ بان يغدر به فاتى الجبل فقال الا انّ فلاناً غدر فاجابه الصدى بمثل ما قال فقال ما اقبح تاثم ثم قال الا انّ فلاناً وفى فاجابه بمثل ذلك فقال وما احسن تاثم ثم وفى لامرء القيس ولم يغدر به

﴿ فصل ﴾ فاذا عرفت هذا فاعلم ان من خواص عالم الكون والفساد ان كل ما كان يبان . قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أسر المرء سريرة الا ألبسه الله رداءها ان خيراً فخير وان شرًّا فشر . أخذه بعض الاعراب فقال

واذا اظهرت أمراً محسناً ٭ فليكن احسن منه ما تسرّ
فمسرّ الخير موسوم به ٭ ومسر الشر موسوم بشر

﴿ السادس الاجماع ﴾ وهو اتفاق آراء العقلاء على امر من امور الدنيوية فانه كاشف على حسن الشيء للجمع على حسنه وعلى قبحه ان كان الاجماع على قبحه ولسنا نقصد به الاجماع الشرعي فان ذاك كاشف عن قول المعصوم عليه السلام . واذا عرفت هذا فينبغي للعاقل ان يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند جمهور العقلاء . قال أمير المؤمنين رضي الله عنه من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه . قال بعض الفضلاء دخلت على ابن المنارة وبين يديه كتاب قد صنفه فقلت له ما هذا قال كتاب عملته مدخلا الى التورية فقلت ان الناس ينكرون هذا فلو قطعت الوقت بغيره قال الناس جهال قلت وأنت ضدهم قال نعم قلت فينبغي ان ضدهم يكون جاهلا عندهم قال كذلك هو قلت

فقد بقيت أنت جاهلا باجماع الناس والناس جهال بقولك وحدك ومثل هذا قول الشاعر

اذا كنت تقضي ان عقلك كامل * وان بني حواء غيرك جاهل
وان مفيض العلم صدرك كله * فمن ذا الذي يدري بانك عاقل

ويقال الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة وان كانت الجماعة لاتخطي والفرقة لا تصيب وأنشدني بعض أهل الأدب لبعضهم

اذا اجتمع الناس في واحد * وخالفهم في الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه * على عقله انه فاسد

ومن أمثال العرب حتى يؤوب المثلم هذامن امثال اهل البصرة يقولون لاأفعل كذا حتى يؤوب المثلم . وأصله ان عبيد الله بن زياد امر بخارجي ان يقتل فاقيم للقتل فتحاماه الشرط مخافة غيلة الخوارج فمرّ به رجل يعرف بالمثلم وكان يتجر في اللقاح والبكارة فسأل عن الجمع فقيل خارجي قد تحاماه الناس فانتدب له فأخذ السيف فرصده وقتله به الخوارج ودسوا له رجلين منهم فقالا له هل لك في لقحة من حالها وصفتها كذا وكذا قال نعم فاخذاه معهما الى دارقد أعدا فيها رجالا منهم فلما توسطها رفعوا اصواتهم ازلا حكم الا لله وعلوه باسيافهم حتى برد قال أبو الاسود الدئلي

وآليت لا أسعى الى رب لقحة * أساومه حتى يوءب المثلم
فأصبح لايدري امرئ كيف حاله * وقد بات يجري فوق أثيابه الدم

وقال بعضهم

اذا انعكس الزمان على لبيب * يحسن رأيه ما كان قبحا
يعاني كل امر ليس يعني * ويفسد ما رآه الناس صلحا

﴿ السابع السيره ﴾ والمراد بها عمل العقلاء فانه كاشف عن صحة العمل وحسنه . يروى انه ذكر عند عمر بن الخطاب حلى الكعبه وكثرته فقال قوم لو اخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر وما تصنع الكعبه بالحلى فهم عمر بذلك وسأل عنه أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال ان هذا القرآن انزل على محمد عليه السلام والاموال أربعة أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض والفيء فقسمه على مستحقه والخمس فوضعه الله حيث وضعه والصدقات فجعلها الله حيث جعلها وكان حلى الكعبه يومئذ فيها فتركه الله على حاله ولم يتركه نسياناً ولم يخف عنه مكاناً فاقره حيث اقره الله ورسوله فقال عمر لولاك لافتضحنا وترك الحلى بحاله وصعد سليمان بن عبد الملك يوم جمعة المنبر ويقال الوليد وعليه اكثر المؤرخين فسمع صوت ناقوس فقال ما هذا قالوا البيعة يا أمير المؤمنين فامر بهدمها فهدمت فبلغت ذلك ملك الروم فكتب اليه ان هذه البيعة اقرها من كان قبلك فان كانوا اصابوا فقد أخطأت وان تكن اصبت فقد أخطأوا وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على جزيرة الاندلس من البربر فاتفقوا وعملوا الطلسمات في أوقات اختاروا رصادها وأودعوا تلك الطلسمات تابوتاً من الرخام وتركوه في بيت بمدينة طليطله وركبوا على ذلك البيت باباً واقفلوه وتقدموا الى كل من ملك منهم بعد صاحبه أن يلقى على ذلك الباب قفلاً تأكيداً لحفظ ذلك البيت فاستمر أمرهم على ذلك ولما جاء وقت انقراض دولة اليونان ودخول العرب والبربر الى جزيرة الاندلس وذلك بعد مضي ستة وعشرين ملكاً من ملوك اليونان من عملهم الطلسمات بمدينة طليطله وكان الملك لزريق السابع والعشرين لملوكهم فلما جلس في ملكه قال لوزرائه وأهل الرأي من دولته قد وقع في نفسي من أمر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلاً شيء واريد

ان أفتحه لانظر ما فيه فانه لم يعمل عبثاً فقالوا أيها الملك صدقت لم يعمل عبثاً ولا أقفل سدى بل المصلحة أن تلقي عليه قفلاً كما فعل من تقدمك من الملوك وكان ابائك واجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرتهم فقال ان نفسي تنازعني الى فتحه فلا بدّ لي منه فقالوا ان كنت تظن فيه مالاً فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حدثاً لاتعرف عاقبته فاصرّ على ذلك وكان رجلاً مهاباً فلم يقدروا على مهاجرته وأمر بفتح الاقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقاً فلما فتح الباب فلم ير في البيت شيئاً الا مائدة عظيمه من ذهب وفضه مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان ابن داود عليه السلام ورأى في البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق ففتحه فلم يجد فيه سوى رق وفي جوانب التابوت صور فرسان مصوره باصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربيه وبايديهم القسى العربيه وهم مقلدون بالسيوف المحلات معتقلون بالرماح فامر بنشر ذلك الرق فاذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلات بالحكمة دخل الذين صورهم فى التابوت الى جزيرة الاندلس وذهب ملك اليونان من أيديهم ودرست حكمتهم فهذا هو بيت الحكمة فلما سمع لزريق ما في الرق ندم على مافعل وتحقق انقراض دولتهم فلم يلبث الاقليلا حتى سمع ان جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك يستفتح بلاد الاندلس فقتله طارق بن زياد من قبل الوليد ابن عبدالملك وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة اليونان على موضع بل كانوا يسلمون بلداً بلداً ومعقلاً معقلاً

﴿ الثامن الاستشارة وقبول قول الناصح ﴾ فان قول الناصح كاشف قال بعضهم

وان باب أمر عليك التوى * فشاور لبيباً ولا تعصه

وقال بعض البلغاء اذا انكرت من عقلك شيئاً فاقدحه بعاقل وقال بوزرجمهر العاقل الحازم اذا أشكل عليه أمر بمنزلة من أضل لؤلؤه فجمع ما حول مسقطها من التراب ثم التمسها حتى وجدها وكذلك العاقل يجمع وجوه الرأي في الامر المشكل ثم يضرب بعضها في بعض حتى يستخلص الرأي الاصوب وقالوا اجعل سرك الى واحد ومشورتك الى الف ومن شرف المشاورة وعموم نفعها وعلو درجتها وعظم وقعها ان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بها مع استغنائه عنها فقال عزَّ من قائل وشاورهم في الامر وقال تعالى يمدح من وصفهم في كتابه العزيز بصفات حميده لايجوزها الا الموفقون والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم وكفى ذلك في فضيلة المشوره دليلاً والى نهج فضلها سبيلاً وقد قال رسول الله في مواطن كثيره لاصحابه اشيروا عليَّ وقد شاور اصحابه في قصص كثيره وقضايا متعدده منها لما أراد مصالحة عتبة ابن حصين والحارث ابن عوف حين قصده الاحزاب يوم الخندق ان يعطيهم ثلث اثمار المدينه ويرجعان عنه بمن معهما من غطفان فقال صلى الله عليه وسلم حتى أشاور السعود يعني سعد ابن معاذ وسعد ابن عبادة وسعد بن فزارة فشاورهم فأشاروا أن لايعطيهم شيئاً فعمل بمشورتهم ومنها لما نزل ببدر بادنى ماء هناك قال له الحباب ابن المنذر يارسول الله أرأيت هذا المنزل منزلاً أنزلكه الله تعالى ليس لنا متقدم ولا متأخر ام هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل الرأي والحرب والمكيدة فقال الحباب فان هذا ليس بمنزل فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي ادنى منزل من القوم فتنزل على مائه ثم تغير ما ورائه من القلب والأبار ونعمل لك حوضاً فتملاؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولايشربون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأي ونهض صلى الله عليه

وسلم ومن معه وسار حتى أتى ادنى ماء من القوم فنزل عليه وعمل ما أشار به الحباب ابن المنذر وفي قوله تعالى وشاورهم في الامر فوائد منها الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في المشوره ومنها ان حلوم الناس متفاوته فلا يبعد أن يخطر ببال الانسان من المصالح مالم يخطر الآخر لاسيما في أمور الدنيا وعنه صلى الله عليه وسلم أنتم اعلم بدنياكم وانا اعلم بآخرتكم ذكره الرازى في تفسيره الآية ومنها انه لما شاورهم في الخروج الى احد فأشاروا عليه بذلك فحصل ماحصل من فرارهم فلو لم يشاورهم لتوهموا ان في قلبه صلى الله عليه وسلم من تلك المشورة شيئاً فدفع الله تعالى ذلك التوهم بقوله وشاورهم في الامر وقالوا مادة العقل من العقول كمادة الانهار من السيول ومن كلامهم ينبغي للعاقل ان يجمع الى عقله عقل العقلاء والى رأيه رأى الحكماء فان الرأى الفذ ربما ذل وان العقل الفرد ربما ضل وقال شبيب ابن شية اني لا اعرف امراً لايتلاقى به انسانان الا وجب النجح بينهما قيل له وما ذاك قال العقل فان العاقل لايطلب مالا يمكن ولا يرد عما يمكن ومن أمثال العرب علمان خير من علم واصله ان رجلا وابنه سلكا طريقاً فقال الرجل يابني استبحث لنا عن الطريق فقال اني عالم به فقال يابني علمان خير من علم يعرب فى مدح المشاورة والحث عليها قيل لرجل من بني عبس ما اكثر صوابكم في مباشرة ماتأتونه ومجانبة ما تعرضون عنه قال نحن الف رجل وفينا رجل واحد حازم ذو رأى ومعرفه فنحن نشاوره في الجليل والحقير ونعمل برأيه فكأننا اذا صدرنا عن رأيه ومشورته في الف حازم وجدير بألف حازم ان يصيبوا وقديما قيل

تمسك باهداب المشورة واستعن * بحزم نصيح او نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فريش الخوافي قوة للقوادم

ومن امثال العرب اول الحزم المشورة وهو من جيد ما قيل في المشورة. وقال بعضهم المستشير بين خيرين صواب يصيبه او خطأ يشارك فيه وهذا من اجود ما قيل في المشورة ايضاً . وقيل للاحنف بن قيس بأي شيء يكثر صوابك ويقل خطاؤك فيما تأتيه من الامور وتباشره من الوقايع قال بالمشورة لذي التجارب ومحض زبدة الأراء . وقال لقمان لابنه يا بنيّ اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة الى فعله فقال ابنه كيف اجعل عقل غيري لي قال تشاوره في امرك . وقال اعرابي ما عثرت قط حتى عثر قومي قالوا وكيف ذلك قال لا افعل شيئاً حتى أشاورهم . وقال بعض النبلاء الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل . فاما الرجل فذو الرأي والمشورة واما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي ولا يشاور. واما الرجل الذي هو ليس برجل فالذي ليس له رأى ولا يشاور . وقال بعضهم الرجال ثلاثة رجل ينظر في الامور قبل ان تقع فيصدرها مصادرها . ورجل متوكل لا يتأمل فاذا نزلت به نازلة شاور اصحاب الرأي وقبل قولهم . ورجل طائر بائر لا يأتمّ راشداً ولا يطيع مرشداً . واعلم ان المستشير وان كان افضل رأياً من المشير فانه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالسليط ضوءاً فلا يقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك فيمنعك عن المشاورة فانك لا تريد الرأى للفخر به ولكن للانتفاع به . فان أردت الذكر كان الفخر لذكرك وأحسن عند ذوى الالباب لسياستك ان يقولوا لا ينفرد برأيه دون ذوى الرأى من اخوانه ولا يمنعك عزمك على انفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة . الا ترى ان ابراهيم عليه السلام امر بذبح ولده عزمة لا مشورة فيها فحمله حسن الادب وعلمه بموقعه

في النفوس على الاستشارة فيه فقال عليه السلام يا بنيّ اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب . وفي الحكم المرفوعة المستشير على طرف الجناح والمستبد تلعب به الرياح . وبالجملة فكما يجلي البيان المتشابه كذلك تجلى المشورة العمى والحيره . والسبب في وجوبها عقلاً غلبة الهوى . قال بعض الحكماء انما خصّ علم المشاوره لان رأي المشير صرف ورأى المستشير مشوب بالهوى فان رأى غير ذي الحاجة أسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص فكره وخلوّ خاطره مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة . وقد سئل بعض العلماء ما بال العاقل ذو اللب لا تصيب مشورته على نفسه وتقصر عن اصابة الصواب وادراك المطلوب ومشورة غيره له تظفره بذلك فقال ان مشورة الانسان لنفسه ممزوجة بالهوى ومشورة غيره له سالمة من ذلك ولا اصابة مع الهوى وفي هذا المعنى قال بعضهم

اذا عن امرٌ فاستشر فيه صاحباً * وان كنت ذا رأي تشير على الصحب
فاني رأيت العين تجهل نفسها * وتدرك ما قد حل في موضع الشهب

وقال الارجاني

شاور سواك اذا نابتك نائبة * يوماً وان كنت من أهل المشورات
فالعين تلقى كفاحاً ما نأى ودنا * ولا ترى نفسها الا بمرآت

﴿ فصل ﴾ وقلما رغب أحد في المشورة وعمل بها الا غنم ولا زهد فيها وأعرض عن قبولها الا ندم . حكى المؤرخون ان محمد الأمين لما قصده عبد الله ابن طاهر بعساكر المأمون وحصر ببغداد واشتد عليه الامر وضاق بين يديه المسلك للنجاة قال من استشار ذا رأي ومعرفة وخالفه وقع فيما يكره وندم على التفريط فانه لما حصل عندي من أخي حاله أحضرت الشيخ أبا الحسن القطيفي

وكان ذا رأي ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها فحادثته في أخي المأمون وما الذي اعتمده حتى يقع في يدي وأطلعته على حقيقة الحال واستشرته في كيفية العمل في ذلك فقال لي ان استعجلت لم تنتفع برأي ولا فعل وان تمهلت وقبلت مشورتي وعملت بما أقوله تمكنت من أخيك وبلغت ما تأمله وذلك انك تدعو حجاج خراسان اذا قدموا بغداد وتجلس لهم مجلساً عاماً وتقول لهم ان أخي كتب الي بمدحكم ويظهر حسن طاعتكم وجميل انقيادكم وحميد مذاهبكم ويجزيهم خيراً ثم تقول لهم قد أطلقت عنكم الخراج سنة وأخوك في خراسان وهي بلاد رجال بلا مال وليس له في رد قولك حيلة وسيناله من ذلك خلل عظيم ثم ينتقض عليه اكثر أمره ثم تفعل في السنة المقبلة مثل ذلك وتسقط عنهم خراج سنتين فان لم يؤت في السنة الثالثة باخيك في وثاق والا فاضرب عنقي ان كنت حياً فخالفته وما قبلت مشورته وعجلت الى خلع المأمون وعقدت الامر لابني حتى وقع ما وقع فمن خالف المشير ندم على التقصير. وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه من استبد برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركهم في عقولهم. واعلم ان من ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بحاجته صار هدفاً لسهام اللائمين ومضغة في أفواه العاذلين والمثل لمالك بن عمرو بن عوف محلم وذلك ان أخاه ليث بن عمرو تزوج امرأة جماعة بنت فلان فتحمل المنجعة بها فنهاه مالك وقال اني أخاف عليك ان بعض مقانت العرب ان يصيبك فأبى وسار باهله وماله فلم يلبث الا يسيراً حتى جاء وقد أخذ أهله وماله. وقد قيل ما أعرض أحد عن قبول قول المشير الا واستغشى اليأس الندم على التقصير. ومن بعض كتب الهند من التمس الرخصة من الاخوان عند المشاورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبهة أخطأ منافع الرأي وازداد فيما وقع فيه تورطاً وحمل الزور

﴿ فصل ﴾ من استشار ذوي الرأي والمعرفة في فعل ماعناه فقبل المشورة منهم واقتدى بآرائهم فيها ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها قل ان يخفق مسعاه ويفوت مطلبه فان أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم . وحكى عن الخليفة المنصور انه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبدالله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه فيه وصرف وجه ميله اليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتأرق جفنه وقل امنه وتزايد خوفه وحزنه فادته فكرته الى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وسره واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله . ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله . فهل أنت في موضع ظني بك . وعامل ما فيه بقاء نعمتك . التى هي منوطه ببقاء ملكي فقال له عيسى بن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع امره ونهيه فقال ان عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سراً ثم سلمه اليه وعزم المنصور على الحج مضمراً ان بن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً فيكون قد استراح من الأثنين عبد الله وعيسى قال عيسى فلما أخذت عمي وافكرت على قتله رأيت من الرأي ان أشاور في قضيته من له رأي عسى ان أصيب الصواب في ذلك فاحضرت يونس بن قرة الكاتب وكان لي حسن ظن في رأيه وعقيدة صالحة فى معرفته فقلت له ان أمير المؤمنين دفع الي عمه عبد الله وأمرني بقتله

واخفاء أمره فما رأيك فى ذلك وما تشير به فقال لي يونس أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فاني أرى لك ان تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم امره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه اليه وتجعل دونه مغالق وأبواباً واظهر لأمير المؤمنين انك قتلته وانفذت امره فيه وانتهيت الى العمل بطاعته فكأني به اذا تحقق منك انك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الاشهاد فان اعترفت انك قتلته بامره انكر امره لك واخذك بقتله وقتلك قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها واظهرت لامير المؤمنين اني انفذت امره ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه اني قد قتلت عمه عبد الله دس الى عمومته اخوة عبد الله وحثهم على ان يسألوه فى عبد الله فقال نعم ان حقوقكم تقتضي اسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم واحسان الى من هو في مقام الوالد ثم امر باحضار عيسى بن موسى فاحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت اليك قبل خروجي الى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك الى حين رجوعي فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين فقال المنصور قد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فأتنا به الساعة قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة الى ذلك قال كذبت لم آمرك بذلك ولو اردت قتله لأسلمته الى من هو بصدد ذلك ثم اظهر الغيظ وقال لعمومته قد اقر بقتل اخيكم مدعياً اني أمرته بقتله وقد كذب عليّ قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به قال عيسى فاخذوني الى الرحبة واجتمع الناس عليّ فقام واحد من عمومتي اليّ وسل سيفه ليضربني به فقلت يا عم افاعل انت قال اي والله كيف لا اقتلك

وقد قتلت اخي فقلت لهم لا تعجلوا اوردوني الى امير المؤمنين فردوني اليه فقلت
له يا امير المؤمنين انما اردت قتلي بقتله والتي علي عصمني الله تعالى من فعله وهذا
عمك باقٍ حي سوى فان أمرتني بدفعه اليهم دفعته اليهم الساعه فاطرق المنصور
وعلم ان ريح فكره صادفت اعصار اوان انفراده بتدبيره فارق خساراً ثم رفع
رأسه وقال ائتنا به فمضى عيسى واحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته
اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً قال عيسى فتركته وانصرفت
وانصرف اخوته فسلمت روحي وزالت كربتي وكان ذلك ببركة الاستشارة
يونس وقبول مشورته والعمل بها ثم ان المنصور اسكن عبد الله في بيت
اساسه قد بني على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات
عبدالله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مرام
البعيدة وقد ورد من مستحسنات ما يطرب عن بعض ساكني يثرب يعرف
بالاسلمي قال ركبني دين أثقل كاهلي وطالبني به مستحقوه واشتدت حاجتي الى
ما لا بد منه فضاقت عليَّ الارض ولم اهتد الى ما أصنع فشاورت من اثق به
من ذوي المودة والرأي فاشار عليَّ بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق فقلت
له يمنعني بعد المشقة وتيه المهلب ثم اني عدلت عن ذلك المشير الى استشارة
غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره لي الصديق الاول فرأيت ان قبول
المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت
العراق فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له اصلح الله الامير
اني قطعت اليك الدهناء وضربت باكباد الابل من يثرب فانه أشار على ذوو
الحجى والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال هل أتيتنا بوسيلة او قرابة اوعشيرة
فقلت لا ولكن رأيتك لحاجتي أهلاً فان قمت بها فأنت اهل لذلك وان يحل

دونها حائل لم اذمم يومك ولم ايئس من غدك فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه مافي خزانة مالنا الساعه فاخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين الف درهم فدفعها اليّ فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً واعادني اليه مسرعاً فقال هل وصلك ما يقوم بدفع حاجتك فقلت نعم أيها الامير وزيادة فقال الحمد على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك وتصديق ظن من أشار عليك بقصدنا قال الاسلمي فلما سمعت كلامه وقد احرزت صلته انشدته

يامن على الجود صاغ الله راحته * فليس يحس غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الارض قاطبة * فأنت والجود مخلوقان من عود
من استشار فباب النجح منفتح * لديه في مبتغاه غير مسدود

ثم عدت الى المدينة فقضيت ديني ووسعت على أهلي وجزيت المشيرين على وعاهدت الله اني لا أترك الاشارة في جميع أمري ماعشت

﴿ فصل ﴾ ويشترط في المستشار شرائط أربعة وهي النصح والشفقة والعقل والتجربة وذلك لقول امير المؤمنين رضى الله عنه في بعض خطبه اما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة وهذه القيود الاربعة من صفات المشير معتبرة في حسن الرأي ووجوب قبوله وقد نظم بعض الادباء بعضاً منها

خصائص من تشاوره ثلاثاً * فخذ منها جميعاً بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل * ومعرفة بحالك في الحقيقة

ولعله جمع النصح والاشفاق في الوداد فتامل ونعود الى بيان الشرايط الاربعة اما كونه ناصحاً فلأن الناصح يصدق الفكر ويمحض الرأي وغير الناصح فربما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرة . واما كونه شفيقاً فلأن الشفقة تحمل على

النصح فتحمل على حسن التروي في الامر وايقاع الرأي من تثبت واجتهاد والباعث على هذين اما الدين او محبة المستشير وفي امثال العرب اسمع ممن لايجد منك بداً يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك كالابوين ومن لايستجاب بنصحك نفعاً الى نفسه بل الى نفسك . وقيل شعراً

اذا ماعرى خطب ورمت ودوده * فشاور فكم نجح هدمة المشاوره
وانفع من شاورت من كان ناصحاً * شفيقاً فابصر بعده من تشاوره

واما كونه عالماً ففائدته اصابته لعلمه وجه المصلحة في الامر فان الجاهل في الامر اعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا . وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحاً كما تحذر عداوة العدو العاقل فانه كما يوشك ان يقع بك مكر العاقل كذلك يوشك ان يورطك شور الجاهل واما كونه مجرباً فلانه لا يتم رأي العالم ما لم ينضم اليه التجربه وذلك ان العالم وان علم وجه المصلحة في الامر الا ان ذلك الامر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ولا يطلع عليها الا بالتجربة مرة ومرة فالمشورة من دون تجربة مظنة الخطأ . وقيل في منثور الحكم كل شيء محتاج الى العقل والعقل محتاج الى التجارب او كان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره وكبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه . وقال لقمان لابنه يا بنيّ شاور من جرّب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلا وتأخذه انت بالمجان واذا عرفت انّ طاعة المشير الموصوف بالصفات المذكورة مستلزمة في اغلب الاحوال للسرور بحسن ثمرة رأيه والفوز بها لا جرم كان معصيته ومخالفة رأيه مستلزمة للحسرة مستعقبة للندامه

﴿ التاسع من الامور الكاشفة الاستخاره ﴾ ويدل عليها رواية جميل عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام انه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الامور ثلاثة امر بين لك رشده فاتبعه وامر بين لك غيه فاجتنبه وامر اختلف فيه فردّه الى الله ورسوله وينبغي للعاقل ان يقدّم الاستخاره في جميع الامور فان ذلك ابعد لوقوع المحذور. قال بعض العلماء استخيروا ولا تتخيروا فكم من رجل تخير لنفسه أمراً كان فيه هلاكه. وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وكم من طالب يسعى لشيءٍ * وفيه هلاكه لو كان يدري

وقال غيره

كرهت وكان الخير فيما كرهته * واحببت شيئاً كان فيه شبا القتلى

ومن كلام بعض الحكماء رب مسرّة هى الداء ومرض هو الشفاء والى هذا نظر المتنبي في قوله

لعلّ عتبك محمود عواقبه * وربما صحت الاجسام بالعلل

وهذا مأخوذ من قول ارسطاطاليس قد يفسد العضو لصلاح اعضاء ومثله ما قال البحترى

وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سبباً ما مثله سبب

وقال غيره

كم منة لا يستقل بشكرها * لله في طى المكاره كامنه

وقال آخر

كم مرّة حفت بك المكاره * خار لك الله وأنت كاره .

وقال بعضهم

كم نعمة مطويه * لك بين اثناء النوائب

ومسرة قد أقبلت * من حيث ترتقب المصائب
فاصبر على حدثان د * هرك فالامور لها عواقب
ولكل كرب فرجة * ولكل خالصة شوائب

وهذا كله مأخوذ عن قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون. حكى انه كان عابداً في بني اسرائيل ضاقت عليه معيشته فخرج الى الصحراء يعبد الله ويسأله ان يعطيه شيئاً فنودى ذات يوم ايها العابد امدد يدك وخذ فمد يده فوضع عليها درتان كأنهما كوكبان ضياء فجاء بهما الى منزله وقال لامرأته قد أمنا من الفقر ثم انه رأى ذات ليلة في منامه انه في الجنة فرأى فيها قصراً فقيل له هذا قصرك فرأى فيه أريكتين متقابلتين احديهما من الذهب الاحمر والاخرى من الفضه وسقفهما من اللؤلؤ وقيل له احديهما مقعدك والاخرى مقعد امرأتك فنظر الى سقفها فاذا فيه موضع خال مقدار درتين فقال ما بال هذا الموضع خالياً فقيل لم يكن خالياً وانما تعجلت انت في الدنيا الدرتين وهذا موضعهما فانتبه من منامه باكياً واخبر امرأته بذلك فقالت له ادع الله واسأله ان يردهما مكانهما فخرج الى الصحراء وهما في كفه فصار يدعو الله ويتضرع اليه ان يردهما ولم يزل كذلك حتى اخذا من كفه ونودى ان قد رددناهما الى مكانهما فحمد الله تعالى على ذلك واثنى عليه. هلكت ابل اعرابي باجمعها في يوم ففرح وقال ان موتاً تخطاني الى ابلي لعظيم النعمة. وحكى انه كان رجلاً بالبادية وله ديك يوقظه الى الصلوة وكلب يحرسه من اللص وحمار يحمل عليه الماء وخباء فجاء الرجل الى بعض الاحياء القريبة منه للحديث معهم فجاءه خبر وهو في ناديهم ان الثعلب اخذ الديك فقال يكون خيراً انشاء الله تعالى فجاءه خبر ان الكلب قد مات

فقال يكون خيراً ان شاء الله تعالى فجاءه خبر ان الذئب بقر بطن حماره فقال عسى ان يكون خيراً ان شاء الله تعالى فلما دخل الليل مضى الى رحله فلما أصبح وجد الاحياء المذكورة قد سباهم العدو وبصياح الديكة ونباح الكلب ونهيق الحمار واصبح رحله سالماً فكانت الخيره في هلاك المذكورين عنده وسمعت من بعض الثقات ان رجلا كان في بيته ايام الانتخاب للقرعة في النجف وكان مدعواً للانتخاب فضاق صدره واستخار ربه بان يفر من النجف فخرجت الاستخارة نهى فاستخار الله على ان يختفي بمكان آخر فخرجت نهى ثم استخار الله على ان يلقي نفسه في البئر فخرجت الاستخارة جيدة فالقى نفسه فانفسخت رجله فلما جيء خلفه وذهب ليختبروا صحة بدنه فوجدوه سقط فعفى عنه فظهر له عند ذلك مصلحة الاستخاره. ومثله ان رجلا ضل الطريق وعطش فاستخار الله ان يمشي الى جهة من الجهات فخرجت الاستخارة نهى ثم استخار على جهة أخرى فجاءت نهي وهكذا على الجهات الاربع ثم استخار ان يقعد او ان ينام وكل ذلك تطلع نهى فاستخار على الطيران فجاءت امر فوقف وجعل يخفق بعبائه كهيئة الطيران فلم يلبث ان جاء فارسان فارشداه لانهما كانا مارَّين من بعيد فلما رأياه يخفق بعبائه ظنا انه يومي اليهما فجاءاه مسرعين فكان سر الامر الخارج بالاستخارة سبب لنجاته عن الضلالة وامثال هذه الحكايات تخرج عن الحصر

﴿ العاشر من الامور الكاشفة ﴾ هوى النفس الامارة . قال بعض الحكماء اذا عرض لك أمران ولم يحضرك من يثق بمشورته فتجنب أقربهما الى هواك وذلك ان الهوى عند الحكمة عدو العقل ولله در القائل

اذا ما تحيرت في حاجة * ولم يدرى فيها الخطأ والصواب
فخالف هواك فان الهوى * يقود الفتى الى ما يعاب

فهو ان يخفي الهواء مكره حتى تموا أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسناً وهذا يدعو اليه أحد شيئين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفي عنها القبيح لحسن ظنها وتصوره حسناً لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم أي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة وقال علي رضي الله عنه الهوى اعمى ومن عشق شيئاً اغشى بصره وامرض قلبه فهو ينظر بعين غير صحيحة ويسمع باذن غير سميعة وقد قيل ايضاً

وعين البغض تبرز كل عيب * وعين الحب لا تجد العيوبا

واما السبب الثاني فهو اشتغال الفكر في تميز ما اشتبه فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل حتى يظن ان ذلك اوثق امريه واحمد حاليه اغتراراً بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وربة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر فان الهوى أثقل محملاً واصعب مركباً ومن ثم جاء في الحديث اذا اشتبه عليك امران نخذ أثقلهما عليك ودع احبهما اليك واخذ هذا المعنى بعض العقلاء فقال

اذا التبس الامران فالخير في الذي * تراه اذا كلفته النفس يثقل
فجانب هواها واطرح ما تريده * من اللهو واللذات ان كنت تعقل

لان النفس تجمح عن الافضل وهي به عارفة وتنفر عن الأحسن وهي له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وعليه غير ملائمة فتصير منه انفر ولضده الملائم آثر وقد قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا يعطيه فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق انفر وللهوى آثر . وقد قال بعض الحكماء اذا كان الرجل في مجلس فاعجبه الحديث فليسكت وان كان ساكتاً فاعجبه السكوت فليتكلم . قال الاصيغ وصى رجل رجلاً ودفع الى

الوصي عشرة آلاف درهم وقال اذا ادرك ابني فاعطه ما احببت منها فلما ادرك استعدى عليه امير المؤمنين عليه السلام قال له كم تحب ان تعطيه قال ألف درهم قال اعطه تسعة آلاف درهم فهي التي احببت وخذ الالف . حكى عن بعضهم انه قال اشترينا خروفاً مشوياً من جار لنا لنأكله فقدم علينا بعض الفقراء فدعوناه للأكل معنا فأخذ لقمة ووضعه في فمه ثم لفظها واعتزل عنا وقال قد عرض لي عارض منعني من الاكل فقلنا له لا نأكل الا اذا اكلت معنا فقال اما انا فقير لا آكل واما انتم ففيه مرادكم ثم انصرف فكرهنا الاكل لاجله وقلنا لو دعونا من شواه وسألناه عن اصله فلعله يذكر لنا سبباً مكروهاً فدعوناه وسألناه ولم نزل به حتى قال انه ميته وان نفسه حرصت على بيعه لاجل ثمنه فاطعمناه للكلاب ثم رأينا الفقير بعد ذلك فسألناه عن سبب امتناعه عن الاكل وعن العارض الذي عرض له فقال والله لي منذ سنين ما شرهت نفسي على اكل فلما قدمتم الى هذا الشواء شرهت نفسي للاكل شرهاً قوياً فعلمت ان له علة فتركت اكله قال بعض الاذكياء

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ✳ من حيث لم يدران السم في الدسم
فخالف النفس والشيطان واعصهما ✳ وان هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ✳ فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

﴿ فصل ﴾ وحيث بلغ بنا الكلام الى هذا المقام فلنذكر حال الهوى مع العقل اعلم ان الهوى عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبائحها ويظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال عكرمة في قوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم يعني بالتوبة وارتبتم يعني في امر الله تعالى وغرتكم الاماني يعني بالتسويف

حتى جاء امر الله يعني الموت وغركم بالله الغرور أي شيطان . وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ان اخوف ما اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم اعدا اعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعا اعرابيـة فقال كبت الله عدوك الا نفسك . قال العلماء العقل كالبعل والنفس كالزوجة والبدن كالبيت فاذا سلط النفس على العقل اشتغلت النفس بمصالح البدن كما تشتغل الامرأة المقهورة بمصالح البيت فصلحت الجملة وان غلبت النفس كان سعيها فاسداً كالامرأة التي قهرت زوجها ففسدت في الجملة .
وزعموا ان هذه النفوس فى هذا العالم الجسماني وما قد ابتلى به من آفات هذا البدن كرجل حكيم فى بلد او قرية وقد ابتلى بعشق امرأة رعناء فاجرة سيئة الخلق وهي فى اكثر الاوقات تطالبه بالمأكول الطيب والمشروب اللذيذ والثياب الفاخرة والمسكن المزخرف والشهوات المرضية وان ذلك الحكيم من شدة محنته بعظيم محبتها وعظم بلائه بصحبتها قد صرف كل همـة الى ارضاء امرها واكثر عنايته الى اصـلاح شانها وقد نسي امر نفسه واصلاح شانه وبلدته واقاربه الذين نشأ فيهم والنعمة التي كان فيها ولا راحة لهذا الحكيم الا بمفارقة هذه المرأة والتسلي عن حبها ولكنه ان سمع هذا الحديث تنشق مرارته من خوف مفارقتها . واعلم ان الهوى الذي هو عدو العقل ارادة النفس الناشئة عن قواها الثلاثة الشهوة والغضب وحب الاستعلاء والشهوة شهوتان شهوة البطن وشهوة الفرج اما شهوة البطن فبها اخرج آدم وحوّاً من الجنة اذ نهيا عن اكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما على اكلها . وشهوة البطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الادواء والآفات . قال علي عليه السلام مسكين ابن آدم

بطنه يقول له املئني والا فضحتك فاذا املأه يقول افرغني والا افتضحت

وقال بعضهم

شره النفوس على الجسوم بلية * فتعوذوا من كل نفس تشره
ما من فتى شرهت له نفس وان * نال الغنى الا رأى ما يكره

قال حكيم اجتنب الشهوة فانها رأس كل مهلكة ألم ترى السباع الضارية والبزاة العائده كيف تصاد بالشهوة فتصير في ايدي الناس اسرى . وأما شهوة الفرج فاعظم الشهوتين واعصاهما أمراً فطالما قادت من غلبت عليه الى المهالك وورطته في أضيق المسالك . وهنا لطيفة قيل ان نصرانياً زنى بمسلمة فلما أرادوا ان يقيموا عليه الحد أسلم فزوجوه بها ثم ختنوه واتفق ان اسلامه آخر يوم من صيام النصارى وأوّل يوم من شهر رمضان فصام فلقيه بعض اصدقائه فسأله عن أحواله فقال له ما حال من قص رأس ذكره وزوّج بفاحشة وصام أربعين وابتلى بثلاثين ثم رفع جيبه وقال لذكره يا ميشوم منك صارت وعلى رأسك وقعت . وذكر صاحب كتاب بهجة السرور في غرائب المنظوم والمنثور قال قال المبرّد حدثني صديق لي قال قصدت كور الاهواذ فلما انتهيت اليها ودخلت بين مقابرها اذا أنا بسواد في وسط المقابر فتوهمته امرأة عليها حداد فلما قربت منه اذا برجل عليه ثياب القضاة وهو بغير سراويل ورأيته ينظر الى ذكره من جيبه ويضحك فوقفت بحذائه متعجباً من صنعه فقال لى مالك أتدري من أنا قلت لا قال أنا قاضي هذه البلدة قلت فما قصتك قال قصتي عجيبة وهي انّ لي زوجة هي ابنة عمي تزوّجتها في حداثتي ولها من الغيرة عليّ ما لا يمكنني ان اتنفس معها بشيء ولها عليّ رقباء وعيون وأنا أجلها فرأيت يوماً جارية عند بعض النخاسين فوقعت فى قلبي فاشتريتها وأظهرت

اني اهديتها لها فاقامت عندها سنين لم أتمكن من النظر اليها فضلا عن الخلوة بها الا اختلاسا من بعيـد حتى كان هذا اليوم لبعض أهلها عرس في جوار داري فاذنت لها في حضوره طمعاً في الوصول الى الجارية والخلوة بها فخرجت الى مجلس القضاء فجاءني الغلام واخبرني انّ زوجتي قـد مضت الى العرس وخلفت الجارية في الدار فقمت فرحاً ودخلت منزلي وأغلقت الباب وطلبت الجارية فلم أجد فصعدت الى السطح في طلبها وكان بين منزلي وبين الدار التي فيها العرس خصّ ساتر بيننا وبينهم فاذا بزوجتي قد امرت الجارية ان تقف حذاء الخصّ منكبة عليه لتلاحظها خوفاً عليها مني فلم اتمالك ان رفعت ثياب الجارية وجامعتها فلما دفعته بقوتي اندفع الخصّ ووقع فاذا أنا والجارية والخص في وسط الدار التي فيها العرس بين النساء وأنا فوق الجارية وفرجها بادٍ وذكري منتصب فصحن النساء ووثبن عليّ يصفعنني فوالله لقد صفعت حتى نسيت اسمي ثم خرجت هارباً وهنّ مع ابنة عمي خلفي يصفعنني فلما رجعن عني نفرت الى هذا المكان ولم يمكنني دخول منزلي استحياء من الناس فانا انظر الى ذكري قبحه الله كما فضحني فتارة الطمه وأدق عنقه وألويه وتارة أضحك من نفسي مما نزل بي واني حائر في امري وما اعلم ما أعمـل فهذه قصتي فضحكت من حديثه وانصرفت عنه لشاني وتركته قال بعضهم

اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذي * دعته اليـه من حلاوة عاجل

قال السيد نعمة الله الجزائرى كان رجل من القضاة يقرأ عليّ في علوم العربية في شيراز فبقى مدة طويلة في شيراز فسألته يوماً لم لاتسافر الى بلدك فضحك ثم قال ما أقدر على معاشرة أهل بلادي لقضـية وقعت عليّ بها فقلت ما هي

قال ان المتعه في بلادي حرام وقد غلبت عليّ العزوبة وشيق الجماع وما كنت قادراً على التزويج فمضيت الى خارج القرية فرأيت رجلاً يرعى حيوانات تلك القرية فحكيت له قصتي فقال في هذه الحيوانات أتان صبور يعني حماره فعينها لي وقال خذها الى المكان المنخفض واقض حاجتك منها فاعطيته بعض الفلوس واتيت الى الحماره في ذلك الموضع فلما وقفتها لقضاء الحاجة خفت انها في الاثناء تركض عني وكانت لي عمامه طويله فشددت مئزري في رقبتها واخذت طرفيه من الطرفين وشددت بهما وسطي حتى الصق بها وقت الحاجه فلما شرعت في حاجتي أخذت الاتان في الزقط بالجوز وركضت وانا محلول السراويل واخذتني تسحبني على الشوك فما شعرت الا وانا في وسط السوق والحمارة تجرني مكشوف العوره فصاح على أهل السوق هذا القاضي ثم خلصوني منها وفي ذلك اليوم خرجت الى شيراز فكيف اطيق الرجوع. واما الغضب فقد مرّ ذكر آثاره من اعماء البصيرة واشباه ذلك ولنذكر هنا شيئاً من آثاره. قال بعض الحكماء لكل انسان اعداء وأولياء من خصال طبعه فاولياؤه منهما الاناة واعداؤه منها العجلة والغضب يقدحان منه في العقل والادب. قال الحرمازي كان لابن عتيق صديق من الاعراب فغاب عنه حيناً ثم رآه يوماً يحمل في المدينة مقيداً بالحديد فقال له ويحك ما هذا قال لطمة حوضاً لي فثلمه بعض جيراني فخطرت يدي خطرة فاصابت صدره فاتى عليه اجله فقال ولم فعلت ذلك فانشده

فأي امرئ في الناس يهدم حوضه * اذا كان ذا رمح ولما يماصع

فقال ابن أبي عتيق اما والله كنت أصلحته بكف طين ولا يكون في رجلي ما في رجلك

﴿ فصل ﴾ الدنيا والشيطان عدوان خارجان عنك والنفس عدوٌّ بين جنبيك

ومن سنة الجهاد قاتلوا الذين يلونكم ليس المبارز بالمحاربة كالكمين الذي يخرج عليك من حيث لاتشعر اقل ما تفعل النفس معك انها تمزّق العمر بكف التبذير والبطالة اخل معها في بيت الفكر سويعه ثم انظر هل هي معك اوعليك ثم عاملها بما تعامل به واحداً منهما. قال بعض الزهاد ستون من مردة الشياطين لايفسدون مايفسده قرين السوء في لحظه وستون من قرنا السوء لايفسدون ماتفسده النفس في لحظه واذا جعلت الامور كلها على وفق المراد العبد اتاه الخلل فيها من قبل نفسه وقد أجمع سائر الملل على ان رضى الرب في مكروه النفس

﴿ فصل ﴾ ولمخالفات النفس ثمرات نذكر البعض منها (قال الله تعالى وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الهوَىَ فَاَنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأْوَى) قال تعالى (أُولٰئِكَ الَّذِينَ امتُحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتقْوى) قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم ما المجاهد الشهيد في سبيل الله باعظم أجراً ممن قدر فعف لكاد العفيف ان يكون ملكاً من الملائكة وفي حكمة سليمان ابن داود ان الغالب لهواه أشد من الذي يفتح وحده مدينة قال بعضهم

الحرّ يمنعه نفسه شهواتها * والنذل عبد البطن والفرج
فتراه طول زمانه متعبداً * مستخدماً في الدخل والخرج

ويروى ان امرأة العزيز قالت ليوسف بعد ان ملك خزائن الارض وقعدت على رابية في الطريق في يوم موكبه وكان يركب في ذهاء اثني عشر الفاً من عظماء مملكته سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له ان الحرص والشهوة صير الملوك عبيداً فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه (انَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصبِرْ فَاَنَّ الله لاَيُضيعُ أَجرَ المُحْسِنِينَ) ولقد أحسن من قال حيث قال

اذا مادعتك النفس يوماً لحاجة * وكان عليها للخلاف طريق

خالف هواها ما استطعت فانما * هواها عدو والخلاف صديق

مرّ بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت اليه فقال الملك اما تعرفني قال لا ولكن أرى فيك طبع الدواب فهي تركض بارجلها فغضب الملك وقال أتقول لي هذا وأنت عبدي فقال له سقراط بل أنت عبد عبدي قال وكيف ذلك قال لان شهوتك قد ملكتك وانا ملكت الشهوات فقال أنا الملك ابن الاملاك الساده املك من البلاد كذا ومن الاموال والرجال كذا قال اراك تفخر عليّ بما ليس في نفسك وانما سبيلك ان تفخر عليّ بنفسك ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعاً ثوباً من ماء في هذا النهر ونتكلم اذ يتبين الفاضل من المفضول فانصرف الملك خجلاً . قال بعض العلماء ركّب الله تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب الأدميين من كليهما فمن غلب عقله شهوته تشبه بالملائكة ومن غلب شهوته عقله تشبه بالبهائم فالعاقل كل العاقل من ميز نفسه وعرف قدره ونظر بعين الحقيقة وامعن الفكرة الصحيحة وعلم ان جوارحه قد ركبت فيها جميع الشهوات وان طباعه قد جبلت اليها صنوف اللذات فلا يقدر على قسرها ولا يتمكن من صرفها وقهرها الا بالمجاهدة لملك الشهوة بخطام التقوى وما أشد ذلك وما أصعبه الا ترى الى قول النبي حُفَّتْ الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات والتاركون للمجاهدة مع الشهوات يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقيناً ولذلك قيل للمتنبي

ولم ار في عيوب الناس عيباً * كنقص القادرين على التمام

سئل بعض العباد عن مسافة الطريق الى الله تعالى فقال قدمان قدم تضعه على النفس وقدم تضعه على الدنيا فسمعه بعض أهل العلم فقال لقد طول المسافة وانما هي قدم تضعه على النفس ثم تصل الى الله وكان بعض اجلاء السادة من العلماء يقول ما أظن الله سبحانه يثبني على ترك محرم الا على تركي الغنى لاني لا أستلذ من محرم الا منه ثم انى أجاهد نفسي على عدم سماعه . ومن خواص مخالفة النفس تسخير النفوس وذلك ان من حكم على نفسه ومنعها عن شهواتها المضادة للشرع والعقل وسخرها في الانقياد للطاعات تسخرت له النفوس البشرية وغيرها. ومن احتاج الى تسخير النفوس ولم يسخر نفسه لا يطمع في ان تسخر له بهيمة فضلاً عن نفس انسان كريمة . قال بعض أرباب الاحوال اني لأعصى الله فاعرف ذلك في خلق حماري شعر

أتطمع ان يطيعك قلب سعدي * وتزعم ان قلبك قد عصاكا

ومن هنا قال بعض الحكماء لا تطلب طاعة غيرك ونفسك ممتنعة عليك . وروى فى الاسرائيليات ان رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم . قال قال فنبأه الله ببركة تقواه ومخالفة هواه فكان نبياً في بني اسرائيل . وفي الرواية ان امرأة كانت في سفينة فانكسرت السفينة وخرجت المرأة على لوح الى جزيرة في البحر فمشت ساعة وكان هناك رجل قاطع طريق تلك الجزيرة فلما رأى المرأة قال لها أنت من الانس أم من الجن فما تم كلامه حتى جلس منها مجلس الرجل من المرأة فارتعدت خوفاً فقال لها بما تخافين قالت من الله تعالى الذي ينظر الينا قال لها فعلت هذا الفعل قبل هذا قالت لا فقام عنها وقال أنا أحق منك بالتوبة لاني فعلت هذا مراراً بالاختيار وأنت لا تعصينه وأنا قد اضطررتك

الى هذا فانا تائب الى الله فاخذ المرأة وسار معها الى البلد فلقيا فى الطريق رجلا
عابداً فترافقا معه فى الطريق فلما حميت عليهم الشمس قال العابد لذلك الرجل
تعال ندعوا الله ان يظلنا بغمامة نمشي تحتها فقال له الرجل يا أخي ليس لي وجه
أبيض عند الله تعالى ولا لي سابقة عمل أرجو بها قبول الدعاء ولكن ادعو أنت
فقال أدعو أنا وتؤمن أنت على دعائي فدعى الراهب وأمن ذلك الرجل على
دعائه فاظلتهم سحابة فساروا تحتها فلما بلغوا مفرق الطريقين تبعت السحابة لذلك
الرجل وبقى العابد يمشي تحت الشمس فرجع العابد اليه وقال له يا أخي ألم تقل
انه ليس لك سابقة وعمل وهذه السحابة قد سارت معك فاخبرني بما صنعت
فحكى له الخبر وما جرى من معاملة المرأة وانصرفت معه السحابة . واعلم ان
حفظ الفرج مع التمكن يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روى بعض
العلماء عن أبي بكر بن عبد الله المزني ان قصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فارسلها
أهلها الى حاجة لهم الى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل
فاني اشد حباً لك منك لي ولكني اخاف الله قال فانت تخافينه وانا لا اخافه
فرجع تائباً فاصابه العطش حتى كاد يهلك فاذا هو برسول لبعض انبياء بني اسرائيل
فسأله فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله ان تظلنا سحابة حتى
ندخل القرية قال مالي من عمل صالح فادعو انت قال انا ادعو وآمن انت على
دعائي فدعا الرسول وآمن هو فاظلتهما سحابة حتى انتهيا الى القرية فاخذ القصاب
الى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول زعمت ان ليس لك عمل صالح
وانا الذي دعوت وأنت الذى امنت فاظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرني بامرك
فاخبره فقال الرسول ان التائب عند الله بمكان ليس احد الناس بمكانه . وفى
الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انطلق ثلاثة نفر ممن كان

قبلكم حتى أواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا ان تدعوا الله بصالح اعمالكم فقال رجل منهم اللهم انك تعلم انه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا اغبق قبلهما اهلاً ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم ارح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت ان أغبق قبلهما اهلاً ومالا فلبثت والقدح فى يدي انتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كان لي ابنة عم من احب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى المت بها سنة من السنين فجاءتني فاعطيتها مائة وعشرين ديناراً على ان تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من احب الناس الي وتركت الذهب الذي اعطيتها اللهم ان كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة عنهم غير انهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث اللهم انك تعلم اني استأجرت اجراء واعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فانه ترك الاجر الذي له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله اعطني اجري فقلت كل ما ترى من اجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله أتهزأ بي فقلت لا استهزئ بك فخذه فاستاقه واخذه كله ولم يترك منه شيئاً اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوات فعف . وقال بعض الصلحاء رأيت حداداً

وهو يخرج الحديد من النار بيده ويقلبها باصابعه فقلت في نفسي هذا عبد صالح فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام فقلت له يا سيدي بالذي منّ عليك بهذه المنزلة الا ما دعوت الله لي فبكى وقال يا اخي ما انا من القوم الذين تزعم ولكن احدثك بامري وذلك اني كثير المعاصي والذنوب فوقفت على امرأة من احسن الناس وجهاً فقالت لي هل عندك شيء لله فاخذت قلبي وقلت لها امضي معي الى البيت وادفع لكِ ما يكفيكِ فتركتني وذهبت ثم عادت وهي تبكي وقالت والله لقد احوجنى الوقت الى ان رجعت اليك فاخذتها ومضيت بها الى البيت ثم اجلستها وتقدمت اليها فاذا هي تضطرب كالسفينة فى الريح العاصف فقلت لها مما اضطرابك فقالت خوفاً من الله تعالى ان يرانا على هذه الحالة فان تركتني ولم تصبني فلا احرقك الله بناره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة فقمت عنها ودفعت لها ما كان عندي لله تعالى فخرجت من عندى وأغمى عليّ فرأيت في النوم امرأة أحسن منها فقلت لها من أنت فقالت أنا ام الصبية التي جاءت اليك ولكن يا أخي جزاك الله خيراً ولا احرقك الله بناره لا في الدنيا ولا في الآخره فانتبهت وأنا فرح مسرور فانا من ذلك اليوم تركت ما كنت عليه من المعاصي ورجعت الى الله تعالى . واعلم ان لمخالفة النفس خواص عظيمة وقد حدثني من اثق به انّ اخوين بلغا في العبادة مبلغاً عالياً وكان احدهما خباز والآخر صايغ فاهدى الخباز لاخيه الصايغ ماء في منخل واهدى الصايغ لاخيه الخباز ناراً في قطنة فاما الصايغ فانه وضع المنخل عنده في دكانه حتى اذا كان يوم مرّت جارية على الخباز جميلة فراودها الخباز عن نفسها وفي تلك الساعة نزل الماء من المنخل الذي عند اخيه الصايغ ان اخاه تغير عما هو عليه فاتاه فسأله عما صنع فاخبره الخبر واخبره الصايغ بماء المنخل فندم الخباز على فعله وحلف ان لا ينظر

الى امرأة اجنبيه . هذا تأثير مخالفة النفس في الدنيا فكيف اذا كان دار الجزاء على الاعمال . وورد في الخبر ان رجلاً كافراً كان يجتمع عليه الناس في ميدان بغداد وكان يخبرهم عما اضمروه في قلوبهم وعما ادّخروه في بيوتهم فحكي فعله للامام موسى بن جعفر عليه السلام فاتى اليه مستنكراً فامر من كان معه ان يضمر أمراً غريباً فاظهره ذلك الكافر وطلبه عليه السلام فاخرجه من مجتمع الناس وقال له ما أتيت من الطاعات حتى أعطيت هذه المرتبة العظيمة وهي من درجات النبوة فقال مالي عمل سوى مخالفة النفس فقال اعرض الاسلام على نفسك فتغشى بثوب فتفكر ثم قال ان نفسي لا تميل الى الاسلام فقال ما أعطيت الا بخلافها فخالفها ثم اسلم وحسن اسلامه وكان يحضر مجلس ابي الحسن عليه السلام فامر رجلاً ان يضمر فقال للرجل المسلم اتعرف ما اضمر ففكر فلم يعرف ما اضمر فعجب من ذلك وقال يابن رسول الله كنت كافراً وأعرف ما في الضمير وأما الآن مسلم فكيف لا اعرف فقال عليه السلام انك اعطيت ثواب ذلك العمل في الدنيا لان الكافر لا حظ له في الآخرة والآن ذخر الله لك جزاء عملك وقطع عنك الجزاء في الدنيا لانه فاني وهو اقل من ان يكون ثواب عمل مؤمن . ومن خواص مخالفة النفس ما روى عن ابن ابي الدنيا انه كان في بني اسرائيل رجلان بلغت بهما العبادة ان مشيا على الماء فبينما هما يمشيان عليه اذا هما برجل يمشي على الهوى فقالا له يا عبد الله بايّ شيء ادركت هذه المنزله فقال بيسير من الدنيا فطمت نفسي عن الشهوات الحديث وبالجملة فمخالفة النفس لها شأن عظيم وجميع مصالح الدنيا والآخرة تتوقف على مخالفة النفس . اما مصالح الآخرة فموقوفة على تأدية التكاليف وكلها شاقة على النفس ومن ذلك سميت تكاليف . واما مصالح

الدنيا فكذلك ايضاً اذ منها ما يحتاج للصبر وهو على النفس كاسمه ومنها ما يحتاج للتواضع وحسن المداراة وذلك صعب على النفس ومنها ما يرجع الى الكد والتعب وكل ذلك شاقاً على النفس اذ النفس من شانها الكبر والانفة وطلب الراحة واللذة والفراغ ومن لوازمها الجزع والغضب عند عروض الاسباب المقتضية لذلك وهذه الحالات اساس المفاسد ومانعة عن مصالح الدنيا والدين . هذا آخر ما نحتاج الى تحريره من الكلام على ادراك العقل ومعلوماته وعروض الاسباب الحاجبة والامارات الكاشفة والحمد لله أولاً وآخراً

﴿ المقام الثاني ﴾ في الكلام على احكام العقل ودواعيه وموانعه ومحضوراته مقدمة من شان العقل النظر فى العواقب فمن غلب عليه العقل فهو أبداً لاينفك عن التفكر فى عواقب الامور . قال بعض العلماء ما زال العاقل يشقى بعقله لحسن نظره وصحة تفكره وما زال الجاهل ينعم بجهله لقلة نظره وعطول تفكره . قال ارسطاطاليس العاقل لا يلازم شهوة الطمع لعلمه بزوالها والجاهل يظن انها خالدة فهو يتلذذ بها ويبقى عليها فهذا يشقى بعقله وهذا ينعم بجهله اخذه عبد الله بن المعتز فقال

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخ الجهالة فى الشقاوة ينعم

واخذه ايضاً ابو الطيب المتنبي فقال

وحلاوة الدنيا لجاهلها * ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال البحتري

أرى العلم بوسى فى المعيشة للفتى * ولا عيش الا ما حباك به الجهل

فالعاقل لا يزال مهموماً من جهة ما جبل عليه من الفكر فى العواقب . ولبعضهم

ولما تعرّض لي زايراً * ولم يك عندي له موعد

سهرت اغتناماً لليل الوصال * لعلمي به انه ينفد

في كتاب حياة الحيوان انه قيل للبلبل ان صفيرك قبل مشاهدت الورد ليس بعجيب واما بعد المشاهدة والوصال فلم لا تسكت فقال اما قبل الوصال فللاشتياق واما بعد الوصال فلخوف الفراق وهذا المثل يضرب لشان العاقل ونظره فى العواقب لا للبلبل

ويبكي ان نأى شوقاً اليه * ويبكي ان دنى خوف الفراق

ولبعضهم

يمثل ذو العقل فى نفسه * مصائبه قبل ان تنزلا

فان نزلت بغتة لم يرع * لما كان فى نفسه مثلاً

رأى الامر يفضي الى آخرٍ * فصير آخره أولا

وذو الجهل يأمن ايامه * وينسى مصارع من قد خلا

فاني دهته صروف الزمان * ببعض مصائبه اعولا

ولو قدم الحزم فى نفسه * لعلمه الصبر عند البلا

واعلم ان للنظر فى العواقب فوائد يأتي ذكرها فى الاحتياط ولبعض العلماء كلام هو ان بني آدم طائفتان طائفة نظروا الى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتفكروا فى النفس الاخير . وطائفة عقلاء جعلوا النفس الاخير نصب أعينهم لينظروا الى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وايمانهم سالم وما الذي يدخل معهم من الدنيا فى قبورهم وما الذي يتركونه لاعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله وهذه الفكرة واجبة على جميع الخلق ﴿ مقدمة ثانية ﴾ في الفرق بين حكم العقل وحكم النفس قد عرفت فيما تقدم ان الانسان اختص بالارادة العقلية دون سائر الحيوانات

وان شاركته فى القوى الغضبية والشهوية ثم ارادة العقلية غير الارادة المنبعثة
عن الشهوة والغضب فانه اذا أدرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح
فيه انبعث من ذاته شوق الى جهة المصلحة والى تعاطي أسبابها والارادة لها
وذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان
الشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة في حين المرض والعاقل يجد في نفسه زاجراً
عنها وليس ذلك زاجر الشهوة (وخلاصة الكلام) ان كل مقصود في الذهن
لايخ اما ان كان غايته التلذذ من دون ملاحظة مصلحة او مفسدة على فعله فهو
نفساني وان كان الغرض من ترتب مصلحة على فعله او تركه فهو عقلي وحينئذ
فالمقصود النفسي هو ماكان لقضاء الشهوة النفسية من دون ملاحظة المفسدة
او المصلحة والعقلي ما كان لجلب مصلحة او لدفع مفسدة ترتبت على فعله اوتركه
من دون ملاحظته تلذذ النفس وعدم تلذذها وعلى ذلك يكون بين المقصود
النفسي والعقلي عموم من وجه يجتمعان في ارادة الغذاء واللبس والنوم وغير
ذلك مما يشتمل على مصلحة يحكم العقل بها ولذة تشتهيها النفس ويفترق النفسي
عن العقلي بما فيه لذة منه دون مصلحة كشرب التتن اولذة مع مفسدة كالخمر
ويفترق المقصود العقلي عن النفسي بما فيه مصلحة من دون لذة للنفس كالكد
والاكتساب ومافيه دفع مفسدة من دون لذة للنفس كشرب الدواء وحينئذ
فكل قصد نفسي محض يأباه العقل فهو محرم عقلاً لان الحكم العقلي موضوعه
ماكان متصفاً بترتب المصلحة عليه وكل عقلي محض تأباه النفس فهو محرم نفساً
بقى المشتركات بين العقل والنفس فان غلب فيه هوى النفس كان نفسياً
وخرج عن قصد العقل وحكمه وان غلب فيه قصد العقل خرج عن قصد
النفس وذلك كعلم الطب وتحصيله فانه مشترك بين العقل والنفس فلما فيه من

لذة الكمال تطلبه النفس ولما فيه من ترتب المنافع عليه من التفقه والكشف عن حقائق الاشياء يحكم العقل بتحصيله لكن اذا غلب قصد النفس بتحصيله للمارات واظهار الكمالات بين الناس حكم العقل عند ذلك بقبحه لخلوه حينئذ من المصلحة المفروضة اذ لذة المارات والافتخار بالكمال لايترتب عليها عند العقلاء ثمرة لادنيويه ولا اخرويه هذا وان غلب على تحصيله قصد العقل بتحصيله للتفقه وتكميل النفس صار واجباً عقلاً وابته النفس ونفرت عنه وسيتضح ذلك وكتحصيل الجاه فانه مطلوب للنفس من جهة لذته لاغير ومطلوب للعقل من ترتب المصالح عليه فان كان المقصود لذته والمصالح المترتبة عليه غير ملحوظه كان نفسياً وحكم العقل بقبحه وبالعكس اذا كان مطلوباً لالنفسه بل لترتب المصالح عليه فاذا عرفت هذا فاعلم ان كل امر فيه مصلحة يحكم العقل بحسنه ووجوب تحصيله من أي سبب كان وفي أى مكان كان وفى أي زمان كان وعلى اي حالة كانت فيظهر حينئذ من ذلك ان تحصيل العلم الذي يحكم العقل به ماكان تحصيله لمنفعته فلا يلحظ فيه هوى النفس او نفرتها وتوضيح ذلك انه لافرق في تحصيله من شاب او شيخ او تحصيله في زمان الشباب او الشيخوخة او زمن العسر او اليسر بخلاف تحصيله الذي تحكم النفس به للذته لالمنفعته فانه اخص من الاول فان النفس يقبح عندها تحصيله في زمان الشيخوخة لنفرتها من نسبة الجهل اليها في زمان الشيخوخة وهذه الاسباب مانعة من تحصيله جداً ومن هذه الجهة يحكم العقل بتقبيح ماكان مطلوباً للنفس من جهة لذته ويظهر من ذلك ان المائز بين القصدين والحكمين في المشترك اقدام النفس عليه عند نفرتها من بعض اسبابه وعدم اقدامها كذلك فالاول هو القصد العقلي والثاني نفسي وقس على هذا المثال سائر المطالب

المشتركة بين العقل والنفس فكلما غلب عليه قصد أحدهما خرج عن كونه مورداً للآخر وحكم بقبحه ومن ذلك أيضاً تحصيل المال فان كان المقصود في تحصيله لذة جمعه وادخاره من دون قصد استثماره وقضاء المآرب به كان تحصيله نفسياً لا عقلياً لان العقل لا يقصد من الشيء سوى المنفعة أو دفع المضرة أو قضاء الحاجة . ومما حررنا يظهر صعوبة الطاعات على النفس لخلوها عن اللذة واستقلال العقل بحسنها لما فيها من المصالح في العقبى . ومما بيناه يظهر معنى قوله تعالى (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) لانها لا تستقل بحسن شيء الا لخلوه عن المفسدة . والقدر الجامع بينهما هو ما اجتمعت فيه اللذة والمصلحة ويحكم بنسبته الى أحدهما بحسب قصد تحصيله لأحد الامرين اللذين قد اتصف بهما ومما بينا أيضاً يظهر فساد ما قيل في تحقيق معنى الحسن والقبح الفعلين بان الحسن ما كان ملايماً للطبع والقبيح ما كان غير ملائم . ويظهر أيضاً صحة القول بالملازمة بين حكم الشرع والعقل لما عرفت ان العقل يقبح كلما حسنته النفس بالضرورة والوجدان والشرع أيضاً كذلك كما أشرنا اليه فتأمل . وان أحببت التفصيل فاستمع لما نتلوه عليك من التفريق بين أحكام النفس التابعة لدواعي قواها وهي الغضبية والشهوية والروحانية وبين حكم العقل التابع للمصالح المفاسد في ضمن أربعة فصول

﴿ الفصل الاول ﴾ اعلم ان النفس من طبعها النفرة عما تكره والميل لما تشتهي . والعقل بخلافها فان مناط حكم العقل المنفعة والمضرة فان الرجل الحازم ربما بغض الرجل وكرهه ثم قربه وادناه لما يعلم عنده من الغنى والكفاية فعل الرجل المتكاره على الدواء البشع رجاء منفعته وربما احب الرجل وعز عليه فاقصاه وابعده وربما أهلكه مخافة ضرره كالذي تلدغه الحية في أصبعه

فيقطعها ويتبرأ منها مخافة ان يسري سمها الى بدنه فمن هذا علم ان حكم العقل تابع للمصالح والمفاسد وذلك كثيراً ما ينافي شهوة النفس وارادتها

﴿الفصل الثاني﴾ في منافات نفس الشهوة. قد عرفت فيما بينا في رياض أحوال النفس ان من لوازم الشهوية وميلها للعاجل وترجيحه على الاجل والعقل بخلاف ذلك فانه يلاحظ الاصلح عاقبه قال أمير المؤمنين عليه السلام خير الاعمال عند العاقل احمدها عاقبه وخيرها عند الجاهل اعجلها نفعاً وقال بعض العلماء يستدل على عقل العاقل بسكونه وسكوته وحفظ بصره وحركاته في اماكنها اللائقة بها ومراقبته للعواقب فلا تستفزه شهوة عاجلة عقباها ضرر وتراه ينظر في القضاء فيتخير الاعلا والاحمد عاقبه من مطعم ومشرب وملبس ومنكح وقول وفعل ويترك ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه. خلا اعرابى بامرأة فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قام عنها مسرعاً فقالت له ولم فقال ان امرءاً اباع جنةً عرضها السماء والارض بمقدار اصبع من بين نخذيك لقليل معرفة بالمساحة وذكر ابن الجوزي في كتاب الاذكياء هرب رجل من أسد فوقع فى بئر فوقع الاسد خلفه فاذا فى البئر دب فقال له الاسد منذ كم لك ههنا قال منذ أيام وقد قتلني الجوع فقال له الاسد أنا وأنت نأكل هذا الأنسان وقد شبعنا فقال له الدب فاذا عاودنا الجوع ما نصنع وانما الرأي ان نحلف له ان لانؤذيه ليحتال فى خلاصنا وخلاصه فانه على الحيلة اقدر منا فحلفا له فتشبث حتى وجد نقباً فوصل اليه ثم الى الفضاء فتخلص فخلصهما ومعنى هذا ان العاقل لايترك الحزم فى كل أموره ولا يتبع شهوته لاسيما اذا علم ان فيها هلاكه بل ينظر فى عاقبة أمره ويأخذ بالحزم فى ذلك. قالوا ومثال من استعجل زهرة الدنيا ويعرض من الدار الآخرة مثال رجلين لقطا عن الارض

حبتي عنب فاما احدهما فجعل يمص الحبة التذاذاً بها ثم بلعها واما الاخر فانه زرعها فلما كان بعد زمان التقيا فاذا الذي زرع الحبة قد صارت شجرة وكثرت ثمرتها وفكر الآخر فى صنعه بالحبه فوجدها قد صارت عذره ليس عنده منها شيء الا الحسرة على تفريطه والغبطه لصاحبه

﴿ الفصل الثالث ﴾ فى منافاته للقوة الغضبية وقد عرفت ايضاً ان القوة الغضبيه تقتضي التشفي والانتقام واما العقل فبخلاف ذلك اذ نظره الى الاصلح فالعاقل يطرح الغضب ويعمل بما تقتضيه القوة العقليـة ولما ادرك عمر ابن عبدود لم يضربه امير المؤمنين و وقف ساعة عنه والناس ينظرون فوقعوا فيه عليه السلام فذب عنه حذيفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مه ياحذيفة فان علياً سيذكر سبب وقفتـه ثم انه عليه السلام ضربه فلما جاء سأله النبي عليه السلام عن ذلك فقال عليه السلام قد كان شتم أمي وتفل فى وجهي فخشيت ان اضربه لحظ نفسي فتركته حتى سكن مابي ثم قتلته فى الله ومن هنا قالوا ولما كان الغضب يهيج بكل احد وجب على السلطان وعلى كل متولي ان لا يعاقب احداً فى حال غضبه لانه ربما يتعدى الواجب ولانه ربما يكون متغيظاً عليه فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ وذلك مذموم فى العقل فان العاقل ماكان متصرفاً بغضبه على حسب ما تقتضيه المصلحة الملحوظة فى العقل سواء كانت دنيوية اواخروية فيكتمه ان اقتضت المصلحة اظهاره وتلك المصلحة الملحوظة اما دفع ضرر او جلب منفعة او حفظ مصلحة او قضاء حاجة فيحتمل لهذه الامور ولنوضحها بامثال . فاما اطراح الغضب لدفع الضرر فقد قيـل العاقل يصالح عدوه اذا اضطر اليـه ويصانعه ويظهر له وده ويريه من نفسه الاسترسال اليـه اذا لم يجد من ذلك بداً ثم

يعجل الانصراف عنه حين يجد الى ذلك سبيلاً وانشد بعضهم في هذا المعنى

اني احيي عدوّي عند رؤيته * لادفع الشر عني بالتحيات
فاحزم الناس من يلقى اعاديه * في جسم حقد وثوب من مودات

في بعض كتب الهند العاقل اذا رجى نفع العدو اظهر له الصداقة . قال بعضهم كان محمد بن الفضل يجالس اعدائه ويلاطفهم بالكلام اللين ويعزم عليهم ان ياكلوا عنده فقيل له في ذلك فقال لتخمد نار عداوتهم . وقال عقال بن شيبة التميمي كنت ردف ابى فلقيه جرير بن الخطفا على بغلة فحياه ابي والطفه فلما مضى قلت له ابعد ان قال لنا ما قال فقال يا بني افوا اوسع جرجي . وكان محمد ابن الحنفيه يقول قد يدفع بالمكروه ما هو أعظم منه . واما اطراح الغضب لحفظ مصلحة فقد قيل ان رجلا اتى الى بعض الحكماء فشكا اليه صديقه وعزم على قطعه والانتقام منه فقال له الحكيم اتفهم ما اقول لك فاكلمك ام يكفيك ما عندك من فورة الغضب التي تشغلك عني فقال اني لما تقول لواعٍ فقال اترجو نفعه بحفظ مودته واحتمال خطيئتـه ام لا فقال بل ارجو فقال اتظنّ مضرّته بابعاده وعدواته ام لا فقال بل اظنّ فقال فاحتمل مؤنته لرجاء منفعته واطرح عنك الغضب والانتقام لظنّ حاجتك في تقلب الليالي والايام . ومن كتاب الجواهر السنيـة للشيخ محمد الحر العاملي يرفع الاسناد الى ابي عبد الله الصادق انه قال لما رأى ابراهيم الملكوت التفت فرأي رجل يزني فدعى عليه فمات ثم رأى آخر فدعى عليه فمات حتى رأى ثلاثة فدعى عليهم فماتوا فأوحى الله عز وجل اليه يا ابراهيم ان دعوتك مجابة فلا تدعو على عبادي فاني لو شئت لم اخلقهم اني خلقت خلقي على ثلاثة اصناف عبـدا يعبدني لايشرك بي شيئاً وعبدا يعبد غيري ولن يفوتني وعبداً يعبد غيري فاخرج من

صلبه من يعبدني . لامت فاطمة عليها السلام امير المؤمنين عليه السلام على قعوده وأطالت تعنيفه وهو ساكت حتى اذن المؤذن فلما بلغ الى قوله اشهد ان محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها اتحبين ان تزول هذه الدعوة من الدنيا قالت لا قال فهو ما أقول لك . ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة بنت عثمان واأبتاه فقال معاوية يا ابنة اخي ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم اماناً واظهرنا لهم حلماً تحت غضب واظهروا لنا طاعة تحت حقد ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا وما ندري علينا تكون الدائرة أم لنا ولان تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض المسلمين . وأما حكم العقل باطراح الغضب لجلب المصلحة ويسمى ذلك سعة صدر وان كان للدنيا سمي دهاء ومكر فمما ينقل من دهاء معاوية ما حكي ان أهل الكوفة وفدوا عليه حين خطب لابنه يزيد بالعهد بعده وفي اهل الكوفة هاني ابن عروة المرادي وكان سيداً في قومه فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله العجب لمعاوية يريد ان يقسرنا على بيعة يزيد وحاله حاله وما ذاك والله بكائن وكان في القوم غلاماً من قريش جالساً فتحمل الكلمة الى معاوية قال معاوية انت سمعت هانيا يقولها قال نعم قال فاخرج فأت حلقته فاذا خف الناس عنه فقل له ايها الشيخ قد وصلت كلمتك الى معاوية ولا احب ان تتكلم بهذا الكلام فانهم بنو امية وقد عرفت جرأتهم ولم يدعني الى هذا القول لك الا النصيحة والاشفاق عليك فانظر ما يقول فأتني به فاقبل الفتى الى مجلس هاني فلما خفّ من عنده دنى منه فقص عليه الكلام واخرجه بمخرج النصيحة له فقال هاني والله يابن اخي ما بلغت نصيحتك كلما اسمع وان هذا الكلام لكلام معاوية اعرفه فقال الفتى وما انا ومعاوية والله ما يعرفني قال فما

عليك اذا لقيته فقل له يقول لك هاني ما لي الى ذلك من سبيل انهض يابن اخي راشداً فقام الفتى فدخل على معاوية فاعلمه فسكت ثم قال معاوية بعد ايام للوفد ارفعوا حوائجكم وهانى فيهم فعرض عليه كتابة فيها ذكر حوائجه فقال ياهاني ما أراك صنعت شيئاً زد فقام هاني فلم يدع حاجة عرضت له الا ذكرها ثم عرض عليه الكتاب فقال قصرت فيما طلبت زد فقام هاني فلم يدع حاجة لقومه ولا لاهل مصره الا عرضها ثم عرض عليه الكتاب فقال ما صنعت شيئاً زد فقال يا امير المؤمنين حاجة بقيت قال ما هي قال ان اتولى اخذ البيعة ليزيد ابن امير المؤمنين بالعراق قال افعل فما زلت لمثل ذلك اهلاً . ومن الكرماء اوس ابن حارثة وكان يضرب به المثل فى الجود وكان بشر ابن حازم الاسدي اولاً يهجو اوسا وكان اوس نذر لئن ظفر به ليحرقنه فلما تمكن منه اطلقه وأحسن اليه فمدحه بعدة قصائد وسبب هجاء بشر لاوس هو ما حكاه المبرّد فى الكامل قال اوس بن حارث بن لام الطائي كان سيداً مقدماً وفد هو وحاتم الطائي على عمرو ابن هند وابوه المنذر ابن ماء السماء فدعا اوساً فقال له انت افضل ام حاتم فقال ابيت اللعن لو ملكني حاتم وولدى ولحمي لجاد بي فى غداة واحدة ثم دعا حاتماً فقال انت افضل ام اوس فقال ابيت اللعن انما ذكرت بأوس ولاحد ولده افضل مني وكان النعمان ابن المنذر دعى بحلة وعنده وفود العرب من كل حيّ فقال احضروا فى غد فاني ملبس هذه الحلة اكرمكم فحضر القوم جميعاً الا اوسا فقيل له لم تخلف فقال ان كان المراد غيري فاجمل الاشياء ان لا اكون حاضراً وان كنت المراد فسأطلب ويعرف مكاني فلما جلس النعمان لم يرى اوسا فقال اذهبوا الى اوس فقولوا له احضر آمنا مما خفت فحضر فالبسه الحلة فحسده قومه من اهله فقالوا للحطيئه اهجه ولك ثلثمائة ناقة

فقال الحطيئه كيف اهجو رجلاً لا أرى فى بيتي شاءا ولا مالاً الا من عنده فقال لهم بشر ابن ابي حازم احد بني اسد بن خزيمة انا اهجوه لكم فأخذ الابل وفعل فاغار اوس عليها فاكتسحها فجعل بشر لا يستجير حيا الا قال قد اجرتك الا من اوس فلما ظفر به اوس دخل على امه وكان بشر يهجوها ايضاً مع هجاء اوس فقال قد آتينا ببشر الهاجي لي ولكِ قالت او تطيعني قال نعم قالت ارى ان تردَّ عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه فانه لا يغسل هجائه الا مدحه فخرج فقال انَّ امى سعده التي كنت تهجوها امرت فيك بكذا وكذا فقال لا جرم والله لامدحت أحدا غيرك حتى اموت فردَّ عليه ماله واكرمه واطلقه وجعل بشر يمدح بعد ذلك اوساً بمكان كل قصيدة هجاهم فهجاهم بخمس ومدحهم بخمس وكان من قوله فيه

الى اوس ابن حارثة ابن لام * ليقضي حاجتي فيمن قضاها

فما وطئا الثرى مثل ابن سعدا * ولا لبس النعال ولا احتذاها

أقول هذه ثمرة الصفح ومجانبة الغضب والانتقام فلو قتله لخسرها اذ لا ثمرة في الانتقام الا التشفي وليست بثمرة مهمة . وحكى بعضهم قال كان لعبدالله بن الزبير ارض مجاورة لارض معاوية بن أبي سفيان وكان في كل أرض عبيد لعيادتها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبدالله بن الزبير وغصبوا منها فكتب عبدالله بن الزبير الى معاوية أما بعد يا معوية فان عبيدك قد غصبوا أرضي فأمرهم بان ينكفوا عنها والا كان لي ولكم شأن فلما وقف معاوية على كتابه دفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه قال ما ترى يا يزيد قال أرى ان تبعث له جيشاً اوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه فيريحك منه فقال معاوية عندي خير من ذلك يا بني قال ما هو يا أبتي قال عليَّ بدوات وقرطاس فكتب فيه قد

وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله فساءني والله ما ساءه والدنيا وما فيها هينة في حبك ورضاك وقد كتبت على نفسي مسطوراً أشهدت الله فيه وجماعة من المسلمين على ان الارض والعبيد الذين فيها ملكك فضمها الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام قال فلما قرأه عبدالله بن الزبير كتب اليه يقول قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين لا أعدمني الله بقاؤه ولا أعدمه هذا الرأي الذي أحله هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على الكتاب ناوله الى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه فرحاً فقال له معاوية يا بني اذا بليت بشيء من هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء هذا من دهاء معاوية ولسنا نقصد بذلك فضيلة له بل لنعلمك ان متابعة القوة الغضبية مانعة عن تحصيل المقاصد . وبالجملة فان ذي العقل يتصرف بغضبه على حسب مصالحه فيكتمه ويظهر ضده من البشاشة واللطف اذا اقتضت الحالة ذلك قيل

كم عايد رجلاً وليس يعوده * الا لينظر هل يراه يموت

وقيل أيضاً

ومستخبر عنا يريد بنا الردا * ومستخبرات والعيون سواكب

واذا اقتضت المصلحة اظهاره أظهره . فمن كلام بعض الحكماء في كليلة ودمنة الحازم اذا أرجى نفع العدو أظهر له الصداقة واذا خاف ضر الصديق اظهر له العداوة ألا ترى تتبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها فاذا انقطع ذلك انصرفت عنها

ورب تقطب من غير بغض * وبغض كامن تحت ابتسام

ولبعض البخلاء

وانا لنجفو الضيف من غير عسرة * مخافة ان يضري بنا فيعود

فكما ينبغي اظهار الغضب للمصلحة ولو لم يكن هناك حقد كذلك اظهار ضده

اذا هاج واقتضت المصلحة ضده

﴿ الفصل الرابع ﴾ في منافات حكم العقل للوازم القوة الروحانية وقد بينا وأوضحنا ان من لوازم الروحانية التكبر وكبر النفس والانفة واما العقل فيلاحظ المصالح فيحكم بضد ماتحكم به القوة الروحانية اذ التكبر مانع عن حصول المنافع المتوقفة على التواضع وكسر النفس ومثل ذلك حب الاستعلاء والانفة عن الذل قال احمد بن حنبل كنت في مجلس ابي يوسف حين امر ببشر المرسى فجر برجله فاخرج ثم رأيته فى المجلس فقيل له كيف رجعت الى المجلس فقال لست أضيع حظي من العلم بما فعل بي في الامس . ومن كتاب كليلة ودمنة ان من احتمل مشقة يرجو نفعها ونحى عن نفسه الانفة والحمية ووطنها على الصبر حمد غبّ رأيه كما صبر الاسود على حمل ملك الضفادع على ظهره وشبع بذلك وعاش وذلك على ما زعموا ان اسوداً من الحيات كبر وضعف بصره وذهبت قوته فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام وانه انساب يلتمس شيئاً يعيش به حتى انتهى الى عين كثيرة الضفادع قد كان يأتيها قبل ذلك فيصيب من ضفادعها رزقه فرمى نفسه قريباً منهن مظهراً للكآبة والحزن فقال له الضفدع مالي أراك أيها الاسود كئيباً حزيناً قال ومن أحرى بطول الحزن مني انما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع فابتليت ببلاء وحرمت على الضفادع من أجله حتى اني اذا التقيت ببعضها لا أقدر على امساكه فانطلق الضفدع الى ملك الضفادع فبشره بما سمع من الاسود فاتى ملك الضفادع الى الاسود فقال له كيف كان أمرك قال سعيت منذ أيام في طلب ضفدع وذلك عند المساء فاضطررته الى بيت ناسك ودخلت في أثره فى الظلمة وفى البيت ابن للناسك فاصبت أصبعه فظننت انها الضفدع فلدغته فمات فخرجت هارباً فتبعني الناسك

فى أثري ودعا عليّ ولعنني وقال كما قتلت ابني البري ظلما وتعدياً كذلك أدعو عليك ان تذل وتصير مركباً لملك الضفادع فلا تستطيع أخذها ولا أكل شيء الا ما يتصدق به عليك ملكها فأتيت اليك لتركبنى مقراً بذلك راضياً به فرغب ملك الضفادع فى ركوب الاسود وظن ان ذلك فخر له وشرف ورفعه فركبه واستطاب له ذلك فقال له الاسود قد علمت ايها الملك اني محروم فاجعل لي رزقاً اعيش به قال ملك الضفادع لعمري لا بد لك من رزق يقوم بك اذ كنت مركبي فامر له بضفدعين يؤخذان في كل يوم ويدفعان اليه فعاش بذلك ولم يضره خضوعه للعدو الذليل بل انتفع بذلك وصار له رزقاً ومعيشة . وهذا ما ينبغي تحويره فى بيان الفرق بين حكم النفس وارادتها وبين حكم العقل وارادته ويتضح زيادة فى مطاوي الرياض الآتية فى احوال العقل لا سيما فى السياسات ودعائم الالفة . وحيث عرفت الفرق فلنذكر احكامه بمعانات الاشياء حسناً وقبحاً والكلام فى ذلك يقع فى مقامين الاول حكمه بذلك جزماً والثاني احتياطاً لان العقل اذا حصل له القطع بالداعي او المانع ولا يجوز الخلاف حكم بحسن الشيء او قبحه حكما جزمياً والا حكم بالاحتياط كما سيأتي

﴿ اما المقام الاول ﴾ في ذكر احكامه الجزميـة واصوله العلمية . فاما الاحكام فاعلم اولاً ان الله تعالى لما خلق النفس وركب فيها الغضب والشهوة وسائر الاخلاق الباعثة لها على التورط فى الهلكات واقتحام المتالف كالطمع والحرص جعل العقل عليها رقيباً يمنعها عما لا ينبغي . ولهذا سمي عقلاً اشتقاقاً من عقال الناقة ومنعه للنفس تارة من جهة عدم الدواعي . واخرى من جهة فقدان الشرائط وثالثاً من جهة قيام الموانع والمحذورات وغير ذلك من الجهات المحضورة في نظير العقل وتفصيل ذلك في عدة رياض

﴿ الروض الاول ﴾ جهة عدم الدواعي او وجودها والدواعي للشيء اما الحاجة او دفع الضرر اوالانتفاع او الالتزام اومناسبة الشأن والحال فاذا عدم الداعي للشيء قبح التكلف له ومعاناته في نظر العقل فان معانات ما لاحاجة اليه عبث والاهتمام بما لايضر سفه والتماس ما لا ينفع جهل والاشتغال بما لا يعني فضول والتكلف لما ليس من الشأن جنون فهذه خمسة أمور وتفصيلها وذكر أمثالها وما قيل فيها في خمسة فصول

﴿ الفصل الاول ﴾ في معانات ما لاحاجة اليه وما لا تتوقف الحاجة عليه قيل لامير المؤمنين عليه السلام انك مطلوب فلو اتخذت طرفاً سابقاً فقال عليه السلام اني لا افر على من كر ولا اكرّ على من فرّ فالبغلة تكفيني قال أبو العتاهية في عبدالله بن معن شعر

فضع ما كنت حليت * به سيفك خلخال
وما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالاً

قال عبدالله ما لبست سيفي قط فرأيت انساناً يلحظني الا ظننت انه يحفظ قول أبي العتاهيه وفي الآثار رجلاً من الجند خرج مع امير المؤمنين الى حرب الكفار فنظر الامير اليه فاذا عنده قوس من غير سهام فقال اين نشابك الذي ترمي به قال ليس عندي نشاب ولكن ارمي بنشاب الذي يرمى به نحوي فقال لعله لايرمى احد نشاباً قال اذاً لاحاجة الى الحرب. حكى ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمرو مالك لاتهرب مع أصحابك فقال ياأمير المؤمنين لم اكن على ريبه فاخافك ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك وروى ان المأمون قال ما أعياني جواب احد قط مثل جواب رجل أحضرته زعم انه نبي الله

موسى فقلت له ان الله أخبرنا عن موسى عليه السلام انه يدخل يده في جيبه فيخرجها بيضاء من غير سوء فقال متى فعل ذلك موسى أليس بعد ان لقي فرعون فاعمل أنت كما عمل فرعون حتى اعمل أنا عمل موسى وقيل أيضاً تنبأ رجل وادعى انه موسى بن عمران وبلغ خبره الخليفه فاحضره وقال له من أنت قال موسى بن عمران قال وأين عصاك التي صارت ثعباناً قال قل انا ربكم الاعلى كما قال فرعون حتى اصيرها ثعبانا كما فعل موسى

﴿ الفصل الثاني ﴾ في الاهتمام بما لا يضر حكى ان رجلاً اسمه تمثيل كان قبيح الصورة فقيل له في ذلك فقال انا لا ارى صورتي انما التعب على غيري قيل

اذا الكلب لا يؤذيك عند نبيحه * فدعه الى يوم القيامة ينبح

مما زعمته العرب على لسان الحيوان ان ابن آوى دخل بيتاً فاخذ دجاجة فصاحت المرأة صاحبة البيت اخذ ابن آوى الدجاجة التي وزنها رطل فوقف ابن آوى فقال له ابن آوى آخر مالك وقفت قال اما تسمع هذه الكاذبة تقول وزنها رطل وهي أقل من وقيه فقال اعطني اياها وهي علي بعشرين رطل . ومثل ذلك الاهتمام بما لا يكون مانعاً وسيأتي في الاصول

﴿ الفصل الثالث ﴾ فيما لا نفع فيه . قيل في الآثار اطلب أربعة من اربعة من الموضع السلامه . ومن الصاحب الزياده . ومن المال الفراغه . ومن العلم المنفعه فاذا لم تجد من الموضع السلامه فالسجن خير منه . واذا لم تجد من صاحبك الكرامه فالكلب خير منه . واذا لم تجد من مالك الفراغه فالمدر خير منه . واذا لم تجد من العلم المنفعه فالموت خير منه . فهذه اربعة امور . اما الموضع الذي لا نفع فيه فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ليس بلد بأحق بك من بلد خير البلاد

ما حملك . قال بعض الشعراء

لا يصدفنك عن أمرٍ تحاوله * فراق اهلٍ واحبابٍ وجيران
تلقى بكل ديارٍ ما حللت بها * أهلاً بأهلٍ واخواناً باخوان

وأحسن منه قول الفرزدق

وفي الارض عن دار القلى متحول * وكل بلاد أوطنتك بلاد

وقال البيطار

يقولون هذه ام عمرو قريبة * دنت بك ارض نحوها وسماء
الا انما قرب الحبيب وبعده * اذا هو لم يوصل اليه سواء

ومثل ذلك لبعضهم

بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا * على ان قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع * اذا كان من تهواه ليس بذي ود

وأما الصاحب الذي لا يرجى اكرامه فقد قيل ونعم ما قيل خير الناس من يرجى خيره ولا يخشى شره وشر الناس من يخشى شره ولا يرجى خيره واما من لا يرجى خيره ولا يتقى شره فهو خارج عن حكم الانسانية ومن امثالهم سواء هو والعدم يضرب مثلا للبخيل سواء تجده او لا تجده فانك لا تصيب عنده خيراً قال الشاعر

اذا كنت لا علم لديك تفيدنا * ولا انت ذو دين فنرجوك للدين
ولا أنت ممن يرتجى لكريهة * عملنا مثالا مثل شخصك من طين

قال الصفدي لو كان لي في هذين البيتين حكم لاهدمت القافيتين وقلت .

اذا كنت لا علم لديك تفيدنا * ولا أنت ذو جود فنرجوك للقرى
ولا أنت ممن يرتجي لكريهة * عملنا مثالا مثل شخصك من خرى

فاني لا ارى ان اضع الطين في مثاله وقال بعض الجان لشخص * اذا كنت في الدنيا لاتنفع * وفي الآخرة لاتشفع * ثم ترفعت فلم لاتصفع * قال بعضهم

يقول انا الكبير فعظموني * الا ثكلتك امك من كبير
اذا كان الصغير اعم نفعاً * واجلد عند نائبة الامور
ولم يأتي الكبير بيوم نفع * فما فضل الكبير على الصغير

وقال بعض العقلاء من لم ينلك الخير فى حياته * فلا تبك عيناك عليه فى وفاته * ومن لم يسأل عنك بالغدوات * ويصلك بالعشيات * فاعدده من الاموات * وقال بعض العلماء أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لايكرمه ورغب فى مودة من لاينفعه وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة * لاتكثير العدد * وتحصيل النفع * لاتحصيل الجمع * فواحد يحصل به المراد * خير من الف تكثر بهم الاعداد * وقال بعضهم اذا استقضيت أخاك حاجه فلم يقضها فذكره ثانيه فلعله ان يكون قد نسي فان لم يقضها فكبر عليه خمس تكبيرات واقرأ هذه الآية (والموتى يبعثهم الله) . وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض اخوانه كبيرة فجاءه بهدية فقال ما هذا قال لما أسديته الي فقال خذ مالك عافاك الله . اذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى . وقد قيل مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات فمنها ما له ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع بها في الدنيا دون الآخرة فان نفع في الدنيا كالظل السريع الزوال . ومنها ما له ثمر وظل جميعاً . ومنها ماليس له واحد منهما كامّ غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب ومثله في الحيوانات الفارة والعقرب كما قال تعالى (يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) قال بعض الاذكياء

الناس شتى اذا ما أنت ذقتهم * لا يستوون كما لا يستوي الشجر
هـذا له ثمر حلو مذاقته * وذاك ليس لهم طعم ولا ثمر

وأما المال الذي لا تجد منه العز ولا الانتفاع . فقد قيل في أمثال العرب خير سلاح المرء ما وقاه يعني خير ولد الرجل وأهله ما كفاه ما يحتاج اليـه وقال بعض الشعراء

المال مال المرء ما بلغت به * الشهوات أو دفعت به الاحداث
ما كان فيـه فاضلاً عن قوته * فليعلمن بانه ميراث

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك .
وأما العلم الذي لا ينفع فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ان خير القول ما نفع واعلم انه لا خير في علم لا ينفع ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه قوله عليـه السلام لا خير الخ لانه اذا لم ينفع كان تعلمه عبثاً وقوله عليه السلام ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه أي لا يجب ولا يندب اليه وذلك لان النفع انما هو نفع الآخرة فما لم يكن من العلوم مرغباً فيه اما بايجاب او ندب فلا انتفاع به في الآخرة وذلك كعلم الهندسة والارتماطيقي ونحوهما . وبالجملة فالمناط في كل شيء حسناً أو قبحاً أو وجوداً أو عدماً هو الانتفاع وعدمه قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض الأعياد انما هو عيد من قبل الله صيامه وشكر قيامه وكل يوم لا يعصى الله فيه فهو يوم عيد قال الشارح المعنى ظاهر وقد نقله بعض المحدثين الى الغزل فقال

قالوا أتى العيد قلت أهلاً * ان جاء بالوصل فهو عيد
من ظفرت بالمنى يداه * فكل أيامه سعود .

ورأيت بعض الصوفية وقد سمع هذين البيتين من مغنٍّ حاذق فطرب وصفق وأخذهما لمعنى عنده وقد قال بعض المحدثين في هذا المعنى أيضاً

قالوا أتى العيد والايام مشرقة * وأنت باك وكل الناس مسرور
فقلت ان واصل الاحباب كان لنا * عيداً والا فهذا اليوم عاشور

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد وقال عليه السلام خير نسائكم الودود الولود وقال سوداء ولود خير من حسناء لا تلد . وأشرف المأمون يوماً من قصره فرأى رجلا قائما ومعه فحمة يكتب بها على حائط القصر فقال لأحد غلمانه انزل الى ذلك الرجل وامسك يده واقرأ ما كتبه فقرأ فاذا هو بيت شعر وهو

يا قصر جمع فيك اللوم والشوم * متى يعشش فى أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحي * اكون اول من دعاك مرغوم

فقال له اجب امير المؤمنين فقال له الرجل سألتك بالله يا غلام لا تذهب بي اليه فقال له الغلام انه يراك من القصر فأخذه واوقفه بين يدي المأمون وقال وجدته كتب كذا وكذا فقال المأمون ويلك ما حملك على هذا فقال يا امير المؤمنين انه لم يخف عنك ماحواه قصرك من خزائن الاموال والحلي والحلل والطعام والشراب والامتعة والفرش والجواهر فمررت عليه وانا فى غاية من الجوع والفاقه فوقفت مفكراً فى امرى وقلت فى نفسي هذا القصر عامر عال وانا جائع ولا فائدة لي فيه فلوكان خراباً ومررت به لم اعدم منه رخامه او خشبه او مسمار ابيعه واتقوت بثمنه او ما علم به امير المؤمنين عليه السلام ما قال الشاعر

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء * نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض لها غير انه * يرجى سواها فهو يهوي انتقالها

فقال المأمون لخازنه اعطه الف دينار ثم قال هي لك في كل سنة ما دام قصرنا

عامر . ودخل ابو دلامه على المنصور فانشده قصيدة فقال يا ابا دلامه ان امير المؤمنين قد امر لك بكذا وكذا من صلة وكساك وحملك واقطعك اربعمائة جريب مائتان عامره ومائتان غامره فقال اما ما ذكر امير المؤمنين من الصلة فقد عرفته وعرفت العامر فما الغامر قال الذي لا نبات فيه ولا شجر فقال لقد اقطعت امير المؤمنين اربعة آلاف جريب غامر قال ويحك اين قال فيما بين الحيره والكوفه فضحك منه وسوغها اياه عامرة . وجاء شيخ عربي الى اصفهان اسمه شيخ خليفه وكان رجلاً صالحاً وكان الامراء يعظمونه والعظماء يكرمونه بالمدح لا غير ويطلبونه الى منازلهم وما يحصل منهم شيء يستعين به على زمانه فانشد قصيدة من جملة ابياتها

هواهم بارد والآب سرداست * تواضعهم خليفه خوب مرداست

واعلم ان المدار في القرابة المنفعة فما لا ينفع ليس بقريب . قال امير المؤمنين لا خير في القرابة من دون مودّة . وقد قال القائل لما قيل له ايما احب اليك اخوك ام صديقك فقال اخي اذا كان صديقاً فالقربى محتاجة الى المودة والمودة مستغنية عن القربى . وقال امير المؤمنين عليه السلام ان اولى الناس بالانبياء اعلمهم بما جاءوا به ثم تلا (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ) الآية ثم قال عليه السلام إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ هكذا الرواية اعلمهم والصحيح اعملهم لانّ استدلاله بالآية يقتضي ذلك وكذا قوله عليه السلام ان ولي محمد من اطاع الله الخ فلم يذكر العلم وانما ذكر العمل واللحمة النسب والقرابة وهذا مثل الحديث المرفوع لا تأتوني باعمالكم وتأتوني بانسابكم ان اكرمكم عند الله اتقاكم . قال ابو فراس الهمداني

كانت مودّة سلمانٍ له نسباً * ولم يكن بين نوحٍ وابنه رحم

وقال امير المؤمنين عليه السلام الكرم اعطف من الرحم . مثل هذا المعنى قول ابي تمام لابن الجهم

الا يكن نسب يؤلف بيننا * ادب اقمناه مقام الوالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا * عذب تحدر من غمام واحد

لبعض الالباء

ووشايج الآداب فاضلة * الفضلاء فوق وشايج الانساب

ومن أمثال العرب بعد الدار كبعد النسب أي اذا غاب عنك قريبك فلم ينفعك فهو كمن لا نسب بينك و بينه . قال بعض الأدباء

فما الحزن الا من صفا لك وده * ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

وقال آخر

ولقد وصلت الناس ثم خبرتهم * وعرفت ما بلغوا من الاسباب
فاذا القرابة لا تقرب نائياً * واذا المودة أقرب الانساب

وقال آخر

كم من أخ لك لا يلده أبوكا * وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
صاف الكرام اذا أردت اخاهم * واعلم بان أخ الحفاظ اخوكا
كم اخوة لك لم يلدك ابوهم * فكأنما ابواهم ولدوكا
لو جئت تحملهم على مكروهة * يخشى الحيوف بها لما خذلوكا

وقال آخر

رأيت غريب الدار خيراً وان نأى * من المبعد الود القريب المناسب
وكم من أخ لم يدنه لك والد * تراه كابن العم عند النوائب

ورب بعيد حاضر لك نفعه * ورب قريب حاضر مثل غائب

وقال آخر

اخوك اخ الحب الذى ان دعوته * الى حدث ألفيته منك دانيا

وليس اخوك المقرب الذي ان دعوته * الى حدث ألفيته عنك نائيا

وقال آخر

تمسك بوصل المظهر الوصل واجتنب * لوصل سواه من قريب وشاسع

فذو الود ادنى الناس منك قرابة * فصله فما ود البعيد بضائع

ولا تغترر بالود من ذي قرابة * فما قرب ذي البغض النسيب بنابع

فكم من بعيد صادق الود مخلص * وذي رحم داني القرابة قاطع

وقال امير المؤمنين عليه السلام رب بعيد اقرب من قريب وقريب ابعد من بعيد . قال بعض البلغاء

لعمرك ما يضر البعد يوماً * اذا دنت القلوب من القلوب

ومن امثال العرب رب ابن عم ليس بابن عم هذا يحتمل معنيين احدهما ان يكون شكاية من الاقارب اي رب بن عم لا ينصرك ولا ينفعك فكأنه ليس بابن عم والثاني ان يريد رب انسان من الأجانب يهتم بشأنك ويستحي من خذلانك فهو ابن عم معنى وان لم يكن ابن عم نسباً ومثله في احتمال المعنيين قولهم رب اخ لك لم تلده امك . هذا المثل يستعمل في اعانة الرجل لصاحبه وانصبابه في هواه وانخراطه في سلكه حتى كأنه اخوه من أمه وابيه . ويقولون ان اخاك من واساك . وقيل لرجل ممن انت قال ممن برني وهو على حسب قول الأعشى

فان الغريب من يقرب نفسه * لعمر ابيك الخير لا من تنسبا

وقال بعض البلغاء

اعاذلة كم من أخ لي أوده * على كريم لم يلدني والده
اذا ما التقينا لم ترني اكيده * ولكنني مثن عليه وزايده
وآخر اصلي في التناسب ناره * يباعدني في شأنه واباعده
يود لو اني كنت اول فاقد * وايضاً اود الود اني فاقده

ومن أمثال العرب حميم الرجل واصله يقال اول من قال ذلك الخنابس ابن الأبقع وكان سيداً في زمانه وان رجلاً من قومه يقال له كلاب بن قارع وكان في غنم له يحميها فوقع فيها ليث ضار وجعل يحطمها فانبرى كلاب وجثم عليه الاسد فوافق ذلك من رجاله رجلان احدهما يسمى الخنابر ابن مره والآخر يقال له الحوشب وكان الخنابر حميم كلاب فاستغاث بهما كلاب فحاد عنه قريبه وخذله واعانه حوشب فحمل على الاسد وعارضه الاسد فامكن سيفه من جفنيه فمر بين الاضلاع والكتفين فخر صريعاً وقام كلاب الى حوشب حتى أتى قومه وهو أخذ بيد حوشب يقول هذا حميمي دون الخنابر ثم هلك بعد ذلك فاختصم الخنابر وحوشب فقال حوشب انا حميمه وقريبه فلقد خذلته ونصرته وقطعته ووصلته وصممت عنه واجبته واحتكما الى الخنابس وشهد القوم ان الرجل قال هذا احميمي دون الخنابر فقال الخنابس عند ذلك حميم الرجل وأصله وقضى لحوشب بتركته وسارت كلمته مثلا . واذا عرفت هذا فينبغي للعاقل أن يقتصر من أقواله وأفعاله على ما يفيده . قيل لانوشيروان ما الذي لا خير فيه قال ما ضرني ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني فلم اعلم فيه خيراً . ومن كتاب الصادح والباغم لابن حجه شعر

لاتفعلن شيئاً بغير فائده * فانها من السجايا الفاسده

ولما بشر هشام ابن عبد الملك بالخلافه سجد وسجد من حوله شكراً غير الابرش الكلبي فقال ما منعك قال اني معك ليلاً ونهاراً وغداً ترتقي الى السماء فاين اجدك قال اصعد بك معي فقال الآن اسجد عشرين سجده

اذا لم أنل في دولة الخل غبطة * ولم تعشني احسانه ورعايته
فسيان عندي موته وحياته * وسيان عندي عزله وولايته

قال الحسن عليه السلام لاتأتي رجلا الا أن ترجو نواله او تخاف يده او ترجو بركته او تصل رحماً بينك وبينه . ويروي عن الاصمعي قال وجدني ابوعمرو ابن العلاء ماراً في بعض أزقة البصره فقال الى أين يا أصمعي فقلت لزيارة بعض اخواني فقال يا أصمعي ان كان لفائدة او عائدة والا فلا وقد انشدني في ذلك ليوسف الحلبي

يا أيها الاخوان أوصيكم * وصية الوالد والوالده
لاتنقلوا الاقدام الا الى * من لكم عندهم فائده
اما لعلم تستفيدونه * او لكريم عنده مائده

وكان من كلام الاصمعي خير العلم ما أطفئت به الحريق وأخرجت به الغريق وروى عن بعض الصادقين انه قال الجلساء ثلاثة جليس تستفيد منه فالزمه وجليس تفيده فاكرمه وجليس لاتفيد ولا تستفيد منه فاهرب عنه . لبعضهم

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً * سوى الهذيان من قيل وقال
فاقلل من لقاء الناس الا * لاخذ العلم او اصلاح حال

ونقل ان أبا العيناء كان يختلف الى ابي الصقر وكان يعده بالمال فقطع عنه العطاء فانقطع عنه مدة ثم دخل عليه فقال ما ابطأ بك عنا فقال بنتي قال وكيف ذلك قال قالت لي كنت تأتينا قبل هذا بالجوائز السنيه والخلع الفاخره والآن تأتينا

مغموماً صفر اليدين بخفي حنين فالى من تختلف فقلت الى أبي الصقر قالت أفيرفع مجلسك قلت لا قالت افيصغى الى حديثك قلت لا قالت أفتنتفع منه لأخرتك قلت لاقالت يا ابتي لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً فامر له بجائزة سنيةوكسوة ثمينة وقال احمل هذا الى ابنتك لئلا تقرعنا بقوارع القرآن ولم يقطع عنه العطاء بعده أبداً. دعى الرشيد بهلولا ليضحك منه فلما دخل دعى له بمائدة فقدم عليها خبز وحده فولاً بهلول هارباً فقيل له الى أين قال أجيئكم يوم الاضحى فعسى أن يكون عندكم لحم ﴿ تنبيه ﴾ ولا يشترط في تحصيل الشيء النافع سوى عدم الاضرار وغير ذلك فلا لاسيما النصح. قال علي ابن الحسين عليه السلام لاتحقروا اللؤلؤة النفيسةان تجتلبها من الكبا الخسيسة فان أبي حدثني قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول ان الكلمة من الحكمة لتلجلج في صدر المنافق نزاعا الى مظانها حتى يلفظ بها فيسمعها المؤمن فيكون أحق بها وأهلها فيلقفها ولله درّ من قال

لا تحقرن الرأي وهو مطابق * حكم الصواب اذا أتى من ناقص
فالدر وهو أجل شيء يقتني * ما حط قيمته هوان الغائص

وحدث بعض العلماء بحديث فقيل له ياشيخ وعمن هذا الحديث قال وما تصنع بعمن يا ابن أخي اما أنت فنالتك موعظتنا وقامت عليك حجته وقال زياد أيها الناس ما يمنعكم سوء ماتعملون منا ان تنتفعوا بأحسن ما تسمعون عنا. قال بعضهم

اعمل بعقلي وان قصرت في عملي * ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

ومثله

خذ من علومي ولا تنظر الى عملي * اجنى الثمار وخلي الجذع للنار

وقال في مقدمة اقوم المسالك ينبغي تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم في الاعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش

في عقولهم من ان جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي ان يهجروا تأليفهم في ذلك يجب ان تنبذ ولا تذكر حتى انهم يشددون الانكار على من يستحسن شيئاً منها وهذا على اطلاقه خطاء محض فان الامر اذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للادلة فلا وجه لانكاره واهماله بل الواجب الحرص على قبوله واستعماله وكل متمسك بديانه وان كان يرى غيره ضالاً في ديانته فذلك لايمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الدولة الافرنجية فانهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعماله حتى بالغوا في استقامة نظام دنياهم الى ما هو مشاهد وشأن الناقد البصير تمييز الحق بمسبار النظر في الشيء المعروض عليه قولا كان او فعلاً فان وجده صواباً قبله واتبعه سواء كان صاحبه من أهل الحق او من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل بالحق يعرف الرجال والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ولما اشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بان عادة الفرس ان يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو اتقاء من هجومه عليهم اخذ رسول الله برأيه وحفر خندقاً للمدينة في غزوة الاحزاب وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين وقال امير المؤمنين عليه السلام لا تنظر الى من قال وانظر الى ما قال واذا ساغ للسلف الصالح اخذ علم المنطق من غير اهل ملتهم وترجموه من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة حتى قال الغزالي من لا معرفة له بالمنطق لا يوثق بعلمه فاي مانع لنا اليوم من اخذ بعض المعارف التي نرى انفسنا محتاجين اليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد انتهى ذلك

﴿ الفصل الرابع ﴾ في الاشتغال بما لا يعني وهو قبيح عقلاً وشرعاً

وكاشف عن النقص والفضول . فكان للاحنف ابن قيس جليس كثير الصمت فاستنطقه يوماً فقال اتقدر يا أبا بحران تمشي على شرف المسجد فقال الاحنف سكت الفاً ونطق خلفاً . ومر بالشعبي حمال على ظهره دنّ خل فوضع الدن وقال ما كان اسم امرأة ابليس فقال الشعبي ذلك النكاح ما شهدناه . وقال بعض العلماء كنت يوماً في مجلسي وأنا مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل عليّ رجل مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال قد قصدتك بمسئلة مهمة اخترتك لها فقلت اسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرني عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شانهما لا يسأل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه فقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم اهل الارض لا تعرف الا بمواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ اقبل عليّ وقال جزاك الله خيراً ثم انصرف مسروراً فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين . فانظر الى هؤلاء كيف ابانوا عن نقصهم بالتكلف لما لا يعنيهم . قيل من الحمقاء عيسى ابن صالح ولي قنسرين للرشيد قال بعضهم اتاني رسوله بالليل فامرني بالحضور فتوهمت ان كتاباً جاءه من الخليفة فلما وصلت قال ادخل فوجدته على فراشه فقال اني بت الليلة متفكراً في امري قلت وما هو اصلح الله الامير قال اشتهيت ان يصيرني الله حورية ويجعل زوجي يوسف الصديق فطال لذلك فكري فقلت فهل اشتهيت ان يكون زوجك محمدا صلى الله عليه وسلم فانه سيد الانبياء فقال لا تظن اني لم افكر في هذا قد فكرت ولكن كرهت ان اغيظ عائشة . وقف نحوي على قصاب فقال

له هذا من الضأن الفتى ام الماعز الثنى فقال له القصاب هو من خيار الضأن فقال النحوي ذبحته لغرض او لمرض قال لأعتاش منه انا وعيالي قال أفكان ذكر ذا خصيتين ام انثى ذات حلبتين قال كان ذكر ينطح الحائط فيرميه قال افكان يمج الماء بشفتيه او يمصه بشفتيه قال كان يضع خرطومه في الماء ويشرب حتى يروى قال افكان مرعاه الشيح والعيزران ام العصف والريحان قال كان يرعى من نبات الارض قال سننت مديتك وحددت شفرتك قال جعلتها لو نزلت على رقبة العدو لبرتها أسرع من لمح البصر قال فبدأت بالبسملة التي هي على وزن فيعله وقيل على وزن فعلله قال القصاب لغلامه يا غلام هات الجلد حتى أبقره من وسطه وأضعه في عنق هذا القرنان الذي عطلنا عن البيع وقطع رزقنا هذا اليوم فبادر الغلام ليأتيه بالجلد فانهزم النحوي وولى هارباً وهو يلتفت الى خلفه . وحكى عن الفضل ابن الربيع قال قال لي الرشيد يوماً اطلب حجاماً أسكت من الحجر فقلت له ان لي غلاماً سكوتاً فقال ابعثه لي فبعثته واكدت عليه بالسكوت وعدم النطق وان يتهيأ أحسن هيئة ثم بعد ذلك دخلت على الرشيد فوجدته عبوساً مغضباً فقال يا فضل ان لذلك شأناً وانك لن تراه بعد فلم أرد عليه شيئاً ثم سألت فراشاً مختصاً به عن خبره فقال انه لم أبدى الحجمة قال يا أمير المؤمنين اني أسألك عن شيء فقال ماهو قال لما قدمت محمد الأمين على المأمون والمأمون أسن منه فقال أرد لك الجواب اذا فرغت فلم يلبث الا يسيراً حتى قال وأسألك يا أمير المؤمنين عن شيء آخر قال قل فقال لم اخترت الرقة على بغداد وبغداد أطيب منها فقال له جوابك عن ذلك اذا فرغت فلما فرغ دعى مسروراً خادمه وقال له لا تشرب الماء البارد دون ان تقتله فانه يسألني عن أمور لو سألني المنصور

عنها ما أجبته قال الفضل فبينما أنا قاعد اذدخل أبو دلامه على الرشيد باكياً وقد
تواطأ مع أم دلامة على انه يدخل على الرشيد وينعيها اليه وانها تذهب الى
زبيده وتنعيه اليها فلما رآه الرشيد باكياً قال له ما بالك تبكي فقال

وكنا كذي زوج قطا في مفازة * من الامن في عيش رخى وفى رغد
فـردنا ريب الزمان بصرفه * ولم أرى شيئاً قط أوحش من فرد

ثم أعلن بالنحيب والعويل ثم قال يا أمير المؤمنين ماتت أم دلامة وانا محتاج الى
تجهيزها فامر بمال وكانت ام دلامة دخلت على زبيدة وهي باكية فقالت لها
ان ابا دلامه مضى لسبيله فاعطتها ما تجهزه به فذهبت ودخل الرشيد على زبيده
مغضباً من اسئلة الحجام واخبرها بموت ام دلامة فضحكت وقالت الآن
خرجت ام دلامه من عندي لتجهز ابي دلامة قال الفضل فخرج الرشيد عليَّ
مستغرقاً في الضحك فعجبت منه دخل حزيناً وخرج مسروراً فاستخبرته فحكى
لي ما جرى فشفعت بالحجام حينئذ فاطلقه وحكى عن السندي بن شاهك قال بعث
الى المأمون بريداً وانا بخراسان فطويت المراحل حتى اتيت بابه وقد هاج بي
الدم فوجدته نائماً فاعلمت الحاجب بقصتي وقدمت اليه عذري وما هاج بي
من الدم فانصرفت الى منزلي فقلت احضروا لي الحجام قالوا هو محموم قلت
فهاتوا حجاماً غيره ولا يكون فضولياً فاتوني به فما هو الا ان دارت يده على وجهي
حتى قال جعلت فداك هذا وجه لا اعرفه فمن انت قلت السندي بن شاهك
قال ومن اين قدمت فاني ارى اثر السفر عليك قلت من خراسان قال واي
شيء اقدمك قلت وجه امير المؤمنين اليَّ بريداً ولكن ان افرغت سأخبرك
بالقصة على وجهها قال وتعرفني المنازل والسكك التي جئت عليها قلت نعم فما هو
الا ان فرغ حتى دخل رسول المأمون ومعه كركي فقال ان امير المؤمنين يقرؤك

السلام وهو يعذرك فيما هاج بك من الدم وقد أمرك بالتخلف في منزلك الى ان تغدو عليه ان شاء الله ويقول ما اهدى الينا اليوم غير هذا الكركي فشأنك به قال فالتفت السندي الى جلسائه فقال ما يصنع بهذا الكركي فقال الحجام يطبخ سكباجاً قال السندي يصنع كما قال وحلف على الحجام ان لا يبرح فحضر الغذاء فتغذينا قال ثم قلت يعلق الحجام من العقبين ثم قلت جعلت فداك سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها وانا مشغول في ذلك الوقت وانا اقص عليك الآن فاستمع خرجت من خراسان وقت كذا ونزلت كذا يا غلام اوجع فضربه عشرة اسواط ثم قلت فخرجت منه الى مكان كذا يا غلام اوجع فضربه عشرة أسواط ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة حتى انتهى الى سبعين سوطاً فالتفت الى الحجام فقال يا سيدي سألتك بالله الى اين تريد ان تبلغ قلت الى بغداد قال لست تبلغ حتى تميتني قلت فاتركك ان لا تعود قال والله لا اعود ابداً قال فتركته وامرت له سبعين درهماً فلما دخلت على المأمون اخبرته الخبر قال وددت انك بلغت به ان لا تأتى على نفسه . وحكي ان سلطان الهند قال لرجل من انقص الناس عقلا فقال قرأت في بعض الكتب ان من كان اسمه يحيي طويل اللحية معلم الصبيان فهو انقص الناس عقلاً فقال له السلطان تحص في هذه البلدة لعلك تقع على من يجمع هذه الصفات فتمتحنه حتى نرى صحة ما في ذلك الكتاب فبعد سعي كثير وقع على ذلك الرجل فاتى به الى السلطان فاقعده مع الناس حتى يخرج السلطان فاتفق جلوسه على كرسي مشبك بالخيزران فبعد جهد كثيراً دخل خصيته في فرجة من تلك الفرج ثم احتال في ادخال الاخرى فبقي جالساً لا يقدر على القيام ثم خرج السلطان فجاء الرجل غلام السلطان وعجل عليه في القيام فلما قام قبض الكرسي بيديه حاملاً له وهو

يسرع في المشي فلما قرب الى السلطان تعجب منه وقال لأي شيء يحمل الكرسي بيديه الى خلفه فلما أبصر خصيتيه تحت فرج الكرسي تعجب منه فحكى له الحال وكيف احتال فى ادخالها فضحك السلطان وتعجب قبل الامتحان . وكان في بني اسد مجنون يسمى لقدان فمر بقوم من تيم الله بن ثعلبة فعبثوا به فقال يا بني تيم الله ما اعلم خيراً منكم قالوا وكيف ذلك قال لان بني اسد ليس فيهم مجنون غيرى وقد قيدوني وسلسلوني وكلكم مجانين وليس فيكم مقيد . وقال المبرّد دخلت دار المجانين فوقفت تجاه مجنون وأخرجت له لساني فحول وجهه عنى الى ناحية أخرى فجئت اليه وفعلت مثل ذلك فلما أضجرته رفع رأسه الى السماء وقال انظر يا رب من حلوا ومن ربطوا . وقال رجل لبهلول قد أمر الامير لكل مجنون بدرهمين فقال امض وخذ نصيبك لئلا يفوتك . ومما ينبغي الحاقه بهذا الفصل تكلف الانسان لما لا يدعى اليه وهو نوع فضول قالوا ثلاثة من الافعال من علامات الاحمق كثرة الالتفات من غير مناد ولا متكلم وسرعة الجواب والمسئول غيره والضحك فى غير وقته . دخل فضولي النار فقال الحطب رطب . قال الميداني في مجمع الامثال قال ابو الدفيش ان الناس كانوا يأكلون النسناس وهو خلق لكل منهم يد ورجل . وبلغني ان قوماً اتبعوا احد النسناس فأخذوه فقال للذين اخذاه

يا رب يوم لو تبعتماني * لمتما او لتركتماني

فادرك فذبح في اصل شجرة فاذا في بطنه شحم فقال آخر من الشجرة انه آكل ضرو يعني الحبة الخضراء فاستنزل فذبح فقال ثالث فانا صميت فاستنزل فذبح . ومن امثال كليلة زعموا ان غديراً كان عنده عشب وكان فيه بطتان وكان سلحفاة بينهما وبين البطتين مودة وصداقة فاتفق ان غيض ذلك الماء فجاء

البطتان لوداع السلحفاة وقالتا السلام عليكِ فانا ذاهبتان عن هذا المكان لاجل نقصان الماء عنه فقالت انما يتبين نقصان الماء على مثل التي كاني السفينة لا اقدر على العيش الا بالماء فانتما تقدران على العيش حيث كنتما فاذهبا بي معكما قالتا لها نعم قال كيف السبيل الى حملي قالتا نأخذ بطرفي عود وتتعلقين بوسطه ونطير بك في الجوّ واياك اذا سمعت الناس يتكلمون ان تنطقي ثم اخذتاها فطارتا بها في الجوّ فقال الناس عجب سلحفاة بين بطتين قد حملتاها فلما سمعت ذلك قالت فقأ الله اعينكم ايها الناس فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الارض فماتت . وحكى ان طاهر ابن الحسين قال لابي عبدالله المروزي منذ كم صرت الى العراق يا ابا عبدالله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وانا منذ ثلاثين سنة صائم قال يا ابا عبدالله سألتك عن مسئلة فاجبت عن مسئلتين

وقال بعض الحكماء ثمانية اذا اهينوا فلا يلوموا الا انفسهم الآتي مائدة لم يدع اليها والمتآمر على صاحب البيت في بيته والداخل بين اثنين في حديث لم يدخلاه فيه والمستخف بسلطان والجالس في مجلس ليس له بأهل . والمقبل بحديثه على من لا يسمعه وطالب الخير من اعدائه وراجي الفضل من عند اللئام . قال الشاعر

يستوجب الصفع في الدنيا ثمانية * لا لوم فى واحد منهم اذا صفعا
المستخف بسلطان له خطر * وداخل الدار تطفيلا بغير دعا
ومنفذ أمره في غير منزله * وجالس مجلساً عن قدره ارتفعا
ومتحف بحديث غير سامعه * وداخل في حديث اثنين مندفعا
وطالب الفضل ممن لا خلاق له * ومبتغي الودّ من اعدائه طمعا

من كلام بعض الحكماء لا تقعد حتى تقعد فاذا اقعدت كنت أعز مقاماً ولا

تنطق حتى تستنطق فاذا استنطقت كنت الاعلى كلاماً . عن امير المؤمنين عليه السلام اربع من خصال الجهل من غضب على ما لا يرضيه وجلس الى ما لا يدنيه وتفاقر الى من لا يغنيه وتكلم بما لا يعنيه ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا ان يتبرع بالرأي الا فيما لزم فانه لا ينفك من ان يكون رأياً متهماً او مطرحاً وفي أيّ هذين كان وصمه وانما يكون الرأي مقبولاً اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب . وقال الاحنف ثلاث ما أقولهن الا ليعتبر معتبر لا اخلف جليسي بغير ما أحضر به ولا ادخل نفسي فيما لا مدخل لي فيه ولا اتى السلطان او يرسل اليّ . وقال ايضاً ما دخلت بين اثنين قط حتى يكونا هما يدخلاني في أمرهما ولا اقمت عن مجلس قط ولا حجبت عن باب يريد لا اجلس الا مجلساً اعلم اني لا اقام عن مثله ولا اقف على باب اخاف ان أحجب عن صاحبه . فاذا عرفت هذا فاعلم ان العاقل هو ما اقتصر على ما يعنيه واجتنب ما لا يعنيه . من الامثال قولهم الحزم حفظ ما وليت وترك ما كفيت وهذا المثل لاكثم بن صيفي يحث به على ترك ما لا يعني مع المحافظة على ما يعني . قال ابو هلال ولا اعرف شيئاً اشد على الاحمق من تركه ما لا يعنيه واشتغاله بما يعنيه على ان فيما يعني شغلاً عما لا يعني . قال بعضهم

يكفي الفتى ما كان من شأنه * وتركه ما ليس يعنيه

قيل كان في مجلس مالك ابن أنس جماعة يأخذون عنه العلم فقال قائل قد حضر الفيل فخرج أصحابه كلهم للنظر اليه الا يحيى بن يحيى الليثي الاندلسي فانه لم يخرج فقال له مالك لم لا تخرج لترى هذا الخلق العجيب فانه لم يكن ببلادك فقال انما جئت من بلدي لأنظر اليك واتعلم من هديك وعلمك ولم اجيء لانظر

الى الفيل فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الاندلس . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقئ في وجهه حب الرمان حمرةً من الغضب فقال الهذا بعثتم أم بهذا أمرتم ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا ومثال ما لا يعني ما روى ان لقمان الحكيم دخل على داوود وهو يسرّد درعاً ولم يكن رأها قبل ذلك فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فامسك نفسه ولم يسأله فلما فرغ قام داوود فلبسها ثم قال عليه السلام نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله أي حصل العلم به من غير سئوال فاستغنى عن السئوال وقيل للقمان ما حكمتك قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنيني وقال رجل للاحنف بما سدت قومك واراد عيه فقال الاحنف بتركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك . قيل مر مجاسع ابن مسعود السلمي بقرية من قرى كرمان فسأل أهلها القوم كيف أميركم فاشاروا اليه فلما رأوه ضحكوا منه وكان ذميماً وازدروه فلعنهم وقال ان أهلي لم يريدون ليحاسنوا بي وانما أرادوا ليزانبوا بي أي ليدافعوا بي . حكي ان السلطان محمود كان قبيح الصورة فنظر يوماً في المرآت الى وجهه فرمى بالمرآت وتكدر حاله فقال له وزيره ما سبب سوء مزاج السلطان فحكى له فقال الوزير المطلوب من حسن الصورة انما هو ليكون الشخص محبوباً في القلوب والسلطان اذا كان حسن السيرة عادلاً في الرعيه يكون محبوباً في قلوبهم مع ان السلطان لا يرى الا قليلاً من الاوقات . وقيل لبقراط ان الكلام الذي قلته لاهل مدينة كذا لم يقبلوه فقال لا يلزمني أن يقبل وانما يلزمني أن يكون صواباً واما سبب الباعث على الاشتغال بما لا يعني

فالحرص على معرفة ما لاحاجة به اليه او المباسطة بالكلام على سبيل التردد او تزجية الاوقات بحكايات احوال لافائدة فيها قال بعض البلغاء

سهوت وغرَّني أملي * وقد قصرت في عملي
ومنزلة خلقت لها * جعلت لغيرها شغلي
يظل الدهر يطلبني * ويخوني على عجلي
وايامي تقربني * وتدنيني الى أجلي

وحكى ان الاسكندر ذهب الى افلاطون فوجده في مشرقة من الشمس قد اسند ظهره الى حائط فقال له الاسكندر هل من حاجة قال حاجتي ان تزيل عني ظلك فقد منعتني الرفق بالشمس وقال أمير المؤمنين اقصر رأيك على مايعنيك

﴿ الفصل الخامس ﴾ التكليف لما ليس من الشان ولايليق بالحال وذلك من وجهين . الاول من جهة السن والعمر فان لكل وقت من الاوقات أدب لازم . ولكل زمن من ازمان الدهر عمل راتب حازم . فيجب على الانسان ان يجتنب في تكهله . ما كان يأتيه في صغره وتبذله . من المزاح والضحك . والاسترسال واللعب . فان ذلك مع الشيب عيب ظاهر . ونقص حاضر وهو مع الشباب أخف وكذلك اذا استعمل في صبوته ما لايشاء كل احوالها . ولايليق به ان يؤثر استعمالها . فليس تغيير الشكل . من دلائل العقل . قال بعضهم

يا لابساً ما لا يليق * لقد عدلت عن الطريق
ان المفارق زيه * بالمقت في الدنيا خليق
لاسيما ان كان في * أمواج صبوته غريق
كيف التشبه بالعفاف * وأنت معلوم الفسوق

وفي حديث الاصبغ بن بناته عن أمير المؤمنين للمسرف ثلاث علامات يأكل

ما ليس له ويشتري ما ليس له ويلبس ما ليس له كان المعنى يأكل ما لا يليق بحالة شرائه او يلبس ما لا يليق بحالة لبسه وفى الدروس المروة تنزيه المرء نفسه عن الدناءة التي لا تليق بامثاله كالسخريه وكشف العوره التي يتاكد استحباب سترها في الصلاة والاكل في الاسواق غالباً ولبس الفقيه لباس الجندي بحيث يسخر فيه انتهى . وليعلم العاقل ان لكل حين من ايام عمره خلقاً وفي كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل واحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم * تخرى على رأسه العصافير

وقال بعض الاذكياء

قل للذي يخرج عن شكله * ليرتقى أسباب او عار
كيف ترجى ان تنال العلا * ولم تبال الدهر من عار
من فارق المعهود من زيه * فذاك لا كأس ولا عار

ومن أمثال العرب شب عمرو عن الطوق يضرب مثلاً في تزيين الكبير بزينة الصغير والمثل لجذيمة الاموش في عمرو ابن عدي وكان عدي ينادم جذيمة فعشقته رقاش أخت جذيمة فلما خشيت الفضيحة قالت اذا سكر الملك فاسأله ان يزوّجني منك ففعل فدخل عليها من ليلته واصبح هارباً من جذيمة فلما استبان حملها قال جذيمة

حدثيني رقاش لا تكذبيني * ألحر حملت أم لهجين
أم لعبد فأنت أهل لعبد * أم لدون فأنت اهل لدون

فقالت حملت ممن زوّجتني منه فولدت عمراً ففقد مدة ثم ظفر به مالك وعقيل

القيسيان فاتيا به جذيمة فحكمهما فسألاه منادمته فاجابهما اليها وأرسل عمراً الى امه فزينته والبسته طوقاً فقال جذيمة شب عمرو عن الطوق . والثاني جهة المنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدراً وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى ذي المعسر كان شحاً وبخلا وان عدل الرفيع الى ذي الدنيّ كان مهانة وذلاً وان عدل المعسر الى ذي الموسر كان تبذيراً وسرفاً وان عدل الدنى الى ذى الرفيع كان جهلاً وتخلفاً ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم قال بعضهم

ان العيون رمتك اذا فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا * واجعل لنفسك ما اشتهاه الناس

وربما توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تميز ان ذلك هو المروات الكامله واليسيرة الفاضله لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين ويخفى عليه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وابعث على ذمه فكان كما قال المتنبي

لا تعجبن مظيما حسن بزته * وهل يروق دفيناً جودة الكفن

وقال غيره

اليس لكل حالة لبؤسها * اما نعيمها واما بؤسها

زعموا ان قرداً رأى نجاراً يشق خشبه بين وتدين وهو راكب عليها فأعجبه ذلك ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه فقام القرد وتكلف ما ليس من شغله فركب الخشبه وجعل ظهره قبل الوتد ووجهه قبل الخشبه فتدلت خصيتاه في الشق ونزع الوتد فلزم الشق عليهما فخر مغشياً عليه ثم ان النجار وافاه فرآه موضعه

فاقبل عليه يضربه فكان ما لقي من النجار من الضرب اشد مما اصابه من الخشبه
ومن امثال العرب ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد مصلوم الاذنين قال الثعالبي
تزعم العرب في أحاديثها ان حماراً وثوراً كانا على معلف وكان الثور ينطح الحمار
عن العلف فظهر فيه شدة الهزال وسوء الحال فشكى ذلك الى بعض اخوانه
من الحمير فقال انك لو اكلت كثيراً حتى سمنت نبت لك قرنان فقدرت على
مناطحة الثيران فترصد الحمار غفلة بعض اصحاب الزرع فاقبل يأكل من الزرع
فأخذ وجدعت أذناه . قال اليزيدي كان لرجل من الاعراب ابنة وكان له غلام
فراودها عن نفسها فوعدته الليلة واعدت له شفرة وحدتها فلما جاء للميعاد جبة
فخرج يعوي فسمعه مولاه فقال من فعل بك قال ابنتك فدخل عليها فقال
ما صنعت بهذا الغلام فقالت يا أبتي ان العبد من نوكه . يشرب من سقاء لم يوكه .
ومن ورد غير ماءه صدر بمثل داءه فقال لها لاشلا . وقال المبرد كان يسار
الكواعب عبداً لاناس من بني الحرث ابن سعد بن قضاعة وكان راعياً في
ابلهم فعبث ببعض نسائهم وكان اسود فجدعته امرأة منهم وارته انها قد قبلته
وواعدته ليوم فعلم به بعض أصحابه من الرعاء فنهاه عنها وقال له يا يسار كل من
لحم الحوار . واشرب من لبن العشار . ودع عنك بنات الاحرار . فقال له يسار
اني اذا جئتها زحكت أراد ضحكت ولاعبتني فأتاها في اليوم الذي واعدته فيه
فقالت مكانك حتى اطيبك فعمدت اليه فجدعت أنفه وأذنه فرجع الى صاحبه
الذي كان نهاه فانكره قال من أنت ويلك قال يسار قال فيسار كان لا أنف له
ولا أذنين قال فما ترى ويحك وبيض العينين فذهبت مثلا وسمي يسار
الكواعب ومن امثالهم على لسان الحيوان يزعمون ان خنفسه قالت مرة لنحله
لواخذتيني معك لعسلت مثلك واكثر فاجابتها النحله الى ذلك ولما لم تقدر على

وفاء ماقالت ضربتها النحله بحمتها وفيما هي تموت قالت في نفسها لقد استوجبت ما نالني من السوء فاني لا أحسن الزفت فكيف بالعسل . معناه ان اناساً كثيرين يدعون الى أنفسهم ما لا ينبغي لهم فتفتضح عاقبتهم . واعلم انه كما ينبغي للانسان ان لا يتكلف ما ليس من شأنه كذلك ينبغي ان لا يكلف غيره ما ليس من شأنه أيضاً والا فقد نادى على نفسه بالنقص . شهد رجل حلقة الشعبي فلما قام قال له اني اجد في قفاى حكه افترا لى ان احتجم فقال الشعبي الحمد لله الذي نقلنا من الفقه الى الحجامه وحكى انه تنبأ رجل فجيئوا به الى المأمون فسأله المأمون عن معجزته فقال ما شئت وكان بين يديه قفل فقال خذ هذا القفل فافتحه فقال له اصلحك انى لم اقل لك اني حداد فضحك المأمون واستتابه

﴿ الروض الثاني في جهة الشرايط ﴾ والشرايط لمعانات كل أمر كثيرة والمعتبرة منها ثلاثة المعرفة والقدرة وامكان الامر المعاني . فالاول المعرفة التامة ومعانات الامر بدونها اضرار بالنفس او اذلالها . فمن أمثال العرب لاتقعن البحر الا سابحاً أي لاتقع في البحر الا وأنت سابح يضرب لمن يباشر أمراً لا يحسنه وفي الأثر نظر حكيم الى معلم رديء الكتابة فقال له لم لاتعلم الصراع قال لا أحسنه قال هوذا أنت تعلم الكتابة ولا تحسنها قال بعض الادباء

ان تكن ناسك فكن كاويس * اوتكن شاعراً فكن كابن هاني
من تزيا بغير ماهو فيه * كذبته شواهد الامتحان

نكته . قيل سمع الحسين بن علي عليه السلام رجلاً على كرسي يقول سلونى عما دون العرش فقال له الحسين عليه السلام يا هذا شعر لحيتك زوج أو فرد فسكت متحيراً ثم قال اخبرني يا ابن رسول الله عليه السلام فقال هو زوج لقوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) . وقال مقاتل بن سليمان وقد دخلته أبهة العلم

سلوني عما تحت العرش الى أسفل من الثرى فقام اليه رجل من القوم فقال ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل الثرى ولكن نسألك عما كان في الارض وذكر الله في كتابه اخبرني عن كلب أهل الكهف ما كان لونه فافحمه . وروى ان مقاتل بن سليمان جلس يوماً فاعجبته نفسه فقال سلوني عما دون العرش فقال له رجل آدم لما حج من حلق رأسه وقال آخر معاء النملة في مقدمها او في مؤخرها فلم يدري ما يقول ثم قال هذا ليس من عملكم ولكن اعجبتني نفسي فابتليت . دخل اعرابي بلداً يوم الجمعة فقيل له ادخل الحمام واغتسل وتطهر للصلاة فدخل حماماً فزلقت رجله ووقع فانشج رأسه وسال دمه فخرج وهو ينشد

وقالوا تطهر انه يوم جمعة * فرحت من الحمام غير مطهر
تزودت منه شجة في مفرقي * بفلسين اني بئس ما كان متجري
وماتحسن الاعراب في السوق مشيها * فكيف بارض من رخام ومرمر

ومن أمثال كليلة زعموا انه كان في بعض المدن طبيب له رفق وعلم وكان ذا فطنة فيما يجرى على يديه من المعالجات فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره وكان لملك تلك المدينة ابنة فزوجها لابن أخ له فعرض لها ما يعرض للحوامل من الاوجاع فجيء بهذا الطبيب فلما حضر سأل الجارية عن وجعها وما تجد فاخبرته فعرف داءها وقال لو كنت أبصر لجمعت الادوية على معرفتي باجناسها ولا أثق في ذلك باحد غيري وكان في المدينة رجل سفيه فبلغه الخبر فاتاهم وادعى علم الطب واعلمهم انه خبير بمعرفة اخلاط الادوية والعقاقير عارف بطبائع الادوية المركبة والمفردة فامره الملك ان يدخل خزانة الادوية ليأخذ من اخلاط الدواء حاجته فلما دخل السفيه الخزانة وعرضت عليه الادوية ولا يدري ما هي ولا له بها معرفة فاخذ في جملة ما اخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته وخلطه في الادوية

ولا علم له به ولا معرفة عنده بجنسه فلما تمت اخلاط الادوية سقى الجارية منه فماتت لوقتها فلما عرف الملك ذلك دعى بالسفيه فسقاه من ذلك الدواء فمات من ساعته

﴿ الثاني من الشرايط ﴾ القدرة والاستطاعة وفقدانها مانع. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لمؤمن ان يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق. وقال أبو أمامة من أذى الناس بلا سلطان فليصبر على الهوان. وقيل من خاصم بغير حجة وقاتل بغير نجدة وصارع بغير قوة فقد اعظم الخطر واكثر الضرر. ومن أمثال العرب قولهم عند النطاح يغلب الكبش الاجم. يضرب مثلا للرجل يمارس الامور بغير عدة فيخيب والأجم الذي لا قرن له. ومن أمثال كليلة وقد يقال انه من لا يعرف نفسه وعدوه وقاتل من لا يقوى عليه حمل نفسه على حتفها. ومن امثال العرب على لسان الحيوان زعموا انه وقع بين السنور والارانب حرب فمضت الارانب الى الثعالب تسومها الحلف والمعاضدة على السنور فقالت لها لولا انا عرفناكم ونعلم من تحاربون لفعلنا ذلك. معناه انه لا ينبغي للانسان ان يجهل قدره فينزل نفسه منزلة غيره. يقال ان الفرزدق مر بالفضل وهو يستسقي وينشد

من يساجلني يساجل ماجداً * يملأ الدلو الى عقد الكرب

فسرى الفرزدق ثيابه عنه وقال انا اساجلك ثقة بنسبه فقيل له هذا الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب فرد الفرزدق ثيابه عليه وقال ما يساجلك الا من عض اير أبيه قال بعض النبلاء

هي العنقاء تكبر ان تصادا * فعاند من تطيق له عنادا

وقال بعض العقلاء لابنه يا بني ما الرفق قال ان تكون ذا اناة فتلاين الولاة

قال فما الخزق قال معاداة امامك ومناواة من يقدر على ضرك وقالت الحكماء مغضب القادر عليه كمجرب السم في نفسه فان هلك فقتيل حمق وان نجى فطليق حنق وقالوا لا تستبد بتدبيرك ولا تستخف باميرك فمن استبد بتدبيره ذل ومن استخف باميره ذل . وقيل من تعلق بخصم هو اقوى منه فقد سعى في هلاك نفسه برجله ووضع تراب الدمار على رأسه بيده . ومن هذا قول الحارث بن هشام حين قتل اخوه ابو جهل يوم بدر وآثر الفرار فلما عير به قال هذا الشعر

الله يعلم ما تركت قتالهم * حتى علوا كرشي باشقر مزبد
وشممت ريح الموت من تلقائهم * اقتل ولا يضرر عدوّي مشهدي
ففررت عنهم والاحبة فيهم * طمعاً لهم باياب يوم مفسدِ

وذكر ان كسرى كان يسمع حكم العرب واقوالها ويروى اشعارها وامثالها فلما سمع هذا الشعر قال قاتل الله العرب لقد حسنت كل شيء حتى حسنت الفرار ومن امثال العرب اذا رأيت الريح عاصفاً فتطامن اي اذا رأيت الامر غالباً لك فاخضع له وقال ابو الطمحان

بنيّ اذا ما سامك الضيم قاهرٌ * مقيت فبعض الذل اوقى وأحرز
ولا تخش من بعض الامور تعززاً * فقد يورث الذل الكثير التعزز

ومثله قول صاحب كليلة لا يردّ العدو القوي بمثل الخضوع له . ومثله مثل الريح العاصف يسلم منها العشب للينه لها وانثنائه معها وتقصف فيها الشجر العظام لانتصابه لها . قال بعض الاذكياء

ومن يتشبث بالعداوة كفه * باكبر منه فهو لا شك هالك

وكان مثله مثل النملة الخفيفة التي نبتت لها اجنحة ضعيفة فحركها دواعي الطيران

فتتصور انها صارت كالنسور والعقبان فبمجرد ما ترتفع من الثرى الى الهوى التقمها عصفور او خطفها اصغر الطيور . قال بعضهم

يقول لك العقل الذي بين الهدى * اذا أنت لم تدرأ عدواً فداره
وقبل يدي الجاني الذي لست واصلاً * الى قطعها وانظر سقوط جداره

وهذا من قولهم اذا لم تقدر ان تعض يد عدوك فقبلها . ومنه ايضاً قال بعض الادباء

اذا ما عدوّك يوم سما * الى حالة لم تطق نقضها
فقبل ولا تأنف كفه * اذا أنت لم تستطع قطعها

هذا في العداوة وقس عليه سائر الامور الغير مقدورة . تمة ومن هذا الباب قبح التكليف لما لا يطاق والتماس ما لا يستطاع قيل ما الحيلة فيما اعيا الا الكف عنه ولا الرأي فيما لا ينال الا اليأس منه . قال بعضهم

وانزل اذا لم تجد للمرتقى سبباً * فباسق العود يرجو نازل السيل

ومن امثال العرب اذا ادعيت الباطل الحح بك يضرب مثلاً لمن يدعي الباطل فيدال منه وأصله ان امرأة من العرب كانت تحت شيخ فرأت شباناً ينتعلون من قيام فتمنت ان تكون تحت أحدهم فقالت حبذا المنتعلون من قيام فقال زوجها انا انتعل قائماً فلما دام ذلك ضرط فقالت المرأة اذا ادّعيت الباطل الحح بك الباطل اي خصمك . ومن امثالهم ارق على ضلعك واقدر بضرعك يقال للرجل يجاوز طوره في الامر ومعناه ارفق بنفسك فانك ظالع لا تحملها ما لا تطيق وذلك ان الظالع لا يكلف بما يكلف به الصحيح وقولهم اقدر بذرعك اى تكلف ما تطيق ونحوه قول الشاعر

فاعمد لما تعلو فما لك بالذي * لا تستطيع من الامور يدان

وقال عمرو بن معدي كرب

اذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

قال الخليل كان يتردَّد اليّ شخص بليد يتعلم العروض ولم يعلق بخاطره منه شيء فقلت له يوماً قطع هذا البيت

اذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

فشرع في تقطيعه ثم نهض ولم يعد فعجبت من فطنته مع بلادته . ومن امثال العرب احمق من راعي ضان ثمانين لان الضأن تنفر من كل شيء فيحتاج راعيها الى ان يجمعها في كل وقت . وروى الجاحظ اشقى من راعي ضان ثمانين قال وذلك ان الابل تتعشى وتربض حجره فتجر والضأن يحتاج صاحبها الى حفظها ومنعها من الانتشار ومن السباع الطالبة لها . واعلم انه كما يقبح التكليف للنفس ما لا يستطاع من الامر الشاق . كذلك يقبح التكليف لما لا يستطاع من الانفاق . قال حبيب ابن ثابت ما احتجت الى شيء استقرضه الا استقرضته من نفسي اراد انه يصبر الى ان تمكن الميسره . ونظيره قول القائل

واذا غلا شيء عليّ تركته * فيكون ارخص ما يكون اذا غلا

ولبعضهم مثاله

اذا شئت ان تستقرض المال منفقاً * على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الاقراض من كنز صبرها * عليك وانظاراً الى زمن اليسر
فان فعلت كنت الغنى وان ابت * فكل منوع بعدها واسع العذر

ومثاله ايضاً

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها * ولا تجود يد الا بما تجد

واعلم ان العجز وعدم القدرة من الاعذار العقلية والشرعية والعرفية أيضاً . فمن

أمثال العرب بيتي يخل لا انا. يقول ليس البخل من أخلاقي ولكن ليس في بيتي شيئاً أجود به وقال بعض الأذكياء

يرى المرء أحياناً اذا قل ماله * من الخير أبواباً فلا يستطيعها
وما به بخل ولكن ماله * يقصر عنها والبخيل يضيعها

ومن أمثال العرب قال الجدار للوتد لم تشقني قال سل من يدقني. ومن أمثالهم على ما زعموه على لسان الحيوان. وقف جدي على سطح فمر به ذئب فشتمه فقال له الذئب انت ما تشتمني انما يشتمني المكان الذي انت فيه. ومن الاعذار الاضطرار والخروج عن الاختيار قال الخطيب في أربعينه ان امرأة شهد عليها الشهود انهم وجدوها في بعض مياه العرب مع رجل يطأها ليس ببعل لها فامر عمر برجمها فقالت اللهم أنت تعلم اني بريئة فغضب عمر وقال وتجرحي الشهود أيضاً فامر أمير المؤمنين عليه السلام ان يسألوها فقالت كان لأهلي ابل فخرجت في ابل اهلي وحملت معي ماء ولم يكن في ابلي لبن وخرج معي خليط وكان في ابله لبن فنفد مائي فاستسقيته فابى ان يسقيني حتى أمكنه من نفسي فابيت فلما كادت نفسي تخرج امكنته من نفسي فقال أمير المؤمنين عليه السلام الله أكبر فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فلا اثم عليه. ومن هذا يقال عند الضرورات تباح المحذورات كأكل الميتة واشباهه

﴿ الثالث من الشرايط الامكان ﴾ فاذا كان الامر ممتنعاً فلا معنى للتكلف له او التماسه فان من طلب ما لا يمكن فقد احال وكان كمستنهض المسجون ومستعسف المديون وكان بالرد خليقاً وبالحرمان حقيقاً. قال امير المؤمنين عليه السلام من لا يعرف لا حتى يقال لا فهو احمق. قال بعض العقلاء يوماً ما رددت عن حاجة قط فقيل له ولم فقال لأني لا اطلب المحال. ومن امثال

العرب طلب الأبلق العقوق يقال اعقت الفرس فهي عقوق ولا يقال معق وذلك اذا حملت والأبلق لا يحمل . قال رجل لمعاوية افرض لي قال نعم قال ولولدي قال لا قال ولعشيرتي فتمثل معاوية بهذا البيت

طلب الأبلق العقوق فلما ❊ لم يجده اراد بيض العنوق

وقيل قال رجل لمعاوية زوجني هنداً يعني أمه فقال انها قعدت عن الولد فلا حاجة لها الى الزواج قال فولني ناحية كذا فانشد معاوية

طلب الأبلق العقوق فلما ❊ اعجزته اراد بيض الانوق

ومعناه انه طلب ما لا يكون فلما لم يجده طلب ما يطمع في الوصول اليه ولا يدرى انه ممتنع عليه . ظريفة قيل مات مجوسي وعليه دين وترك ولداً له دار فقال بعض غرماء الميت لولده ولم لا تبع دارك وتسد دين ابيك وتخفف عنه فقال لهم الولد اذا بعت داري وقضيت دين ابي يدخل الجنة فقالوا لا قال دعوه في النار وانا في الدار وهذا احسن ما يرسم في هذا الباب . ظريفة قال الفضل ابن عبدالرحمن لرقية بنت عتبة بن ابى لهب انظري لي امرأة معروفة النسب كريمة الحسب فائقة الجمال مليحة الدلال ان قعدت اشرفت وان قامت اضعفت وان مشت ترقرقت تروع من بعيد وتقر من قريب تسر من عاشرت وتكرم من جاورت ودود ولود لا تعرف الا اهلها ولا تسر الا بعلها فقالت له يا ابن العم اخطب هذه من ربك في الآخرة فانك لا تجدها في الدنيا . أخرى مثلها قال ابوموسى المكفوف لنخاس الحمير اطلب لي حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ان خلا الطريق تدفق وان كثر الزحام ترفق لا يصدم في السواري ولا يدخل بى تحت البوادي اذا كثر علفه شكر واذا قل عنه صبر ان ركبته هام وان ركبه غيري نام فقال له النخاس اصبر اعزك الله فعسى الله

ان يمسخ القاضي حماراً فتدرك حاجتك . تنبيه كما يقبح التكلف للمتنع كذلك يقبح الكليف للغير والتماسه منه . وقف البهلول على رجل وقال اخبرني عن قول الشاعر * واذا نبا بك منزل فتحول * كيف هو عندك قال جيد قال فاذا كان في الحبس فكيف يتحول فانقطع الرجل فقال البهلول الصواب قول غيره

اذا كنت في دار يسؤك اهلها * ولم تك مكبولاً بها فتحول

قال بعضهم

القاه في اليم مكتوفاً وقال له * اياك اياك ان تبتل بالماء

وحكى ان رجلا وامرأة كانا يبولان في الفراش على انهما يتعاقبان في النوم ليتحفظ المستيقظ بالنائم لئلا يبول على الفراش فنام الرجل وسهرت المرأة قابضة على متاعه فلما هم ان يبول أيقظته فقام وبال ثم نامت المرأة وسهر الرجل قابضاً على متاعها فلما همت بالبول قبض على متاعها فخرج من الجانب الآخر فصار كلما قبض على جانب من متاعها انبعث البول من الجانب الآخر فما أيقظها حتى ابتل الفراش من البول فعاتبته على ذلك فقال اني دفعت لك اناء ضيق الرأس مختنقاً يمكن التحفظ بملئه وأنت دفعتي الى سقاء ممزقاً من كل جانب فكلما احتفظت بجانب منه انشق الجانب الآخر فخرج منه الماء . ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب قبح التصديق بما لايكون انه يكون وقد مرّ كثير منه في المقام الاول في مخالفة الضرورة العقلية ولنذكر هنا قبح التصديق بامكان الممتنع وامتناع الممكن وأحسن أمثاله مثال الرجل الذي زعموا انه صاد قنبره فقالت له لايشك عاقل اني لاسمن ولا أغني من جوع ولكن اطلقني وأنا أعلمك ثلاث كلمات هي خير لك مني ومن اكلي اما واحده فاعلمك وأنا في يدك واما

الثانيه فاذا صرت على الشجره وأما الثالثه فاذا صرت على الجبل قال هات الاولى قالت لاتأسفن على ما فاتك نخلاها فلما صارت على الشجره قال هات الثانيه قال لا تصدق بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقي لو ذبحتني لاخرجت من حوصلتي درتين زنة كل واحده عشرون مثقالاً فعض على أصبعه متأسفاً ثم قال هات الثالثه قالت أنت قد نسيت أثنتين فكيف أخبرك بالثالثه ألم أقل لك لا تأسفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون انا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان زنتهما أربعون مثقالاً ثم طارت عنه . وقال بعض العقلاء اذا أردت ان تعرف عقل الرجل في مجلس واحد فحدثه بخلال حديثك بما لا يكون فان أنكره فهو عاقل وان صدق فهو أحمق . من وصية لقمان لابنه وكان يسمى ثاران يابني المغرور من وثق بثلاثة أشياء الذي يصدق ما لا يراه ويركن الى من لا يثق به ويطمع فيما لا يناله . قال علان الورّاق رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق فقلت أما تستحي تأكل عند هذا الخلق قال أرأيت لو كنت في دار فيها بقر وأنت جائع أكنت تأكل عندها فقلت نعم فقال هؤلاء بقر وان شئت أريتك دلالة ذلك انظر فقام ووعظ وجمع قوماً ثم قال روى من غير وجه ان من بلغ لسانه أرنبة أنفه أدخله الله الجنة فلم يبقى أحد الا أخرج لسانه فنظر هل يبلغ . ومن هذا الباب ما حكى ان رجلا من جنود السلطان كان كلما دخل حمام يدعي على أهله الاباطيل من سرقة ثوب او دراهم او نحو ذلك حتى يغرموا له فاتفق أهل الحمامات على منعه من الدخول فاتى الى حمام واظهر التوبه والندم على أن لا يعود الى التهمه وخلع ثيابه ودخل الحمام فامر صاحب الحمام خادمه ان يسرق ثيابه سوى سيفه وخنجره ومنطقته فلما خرج من الحمام لم يرى ثيابه

ولم يقدر حينئذ على الكلام فتمنطق وشد سيفه في وسطه وهو عريان يمشي في الحمام ويقول ياصاحب الحمام أنا لست أتكلم ولكن أين الانصاف اجيئت الى حمامك على هذه الهيئة فضحك صاحب الحمام واعطاه ثيابه

﴿ الروض الثالث ﴾ في الموانع والمحذورات المستلزمه لارتكاب الامر

فمن ذلك اطراد الامر وذلك كما قيل ان همام بن مره الشيباني اغار على بني أسد وكانت أمه اسديه فجعل يسبي النساء ويخبطهن فقالت امرأة منهن أبخالاتك تفعل هذا ياهمام فقال كل ذات صدار خاله يعني النساء سواء ينبغي ان يصن كلهن فلو تجنبتكن لتجنبت غيركن فلم أغز أصلاً وذلك غير ممكن . ومن ذلك استلزام تغيير عادة مراده كما روى الميداني في المجمع ان امرأة من بنات بعض الملوك كانت تسمى براقش فسافر الملك واستخلفها وكان لهم موضع اذ فزعوا دخنوا فيه فاذا ابصره الجند اجتمعوا وان جواريها عبثن ليلة فدخن وجاء الجند فلما اجتمعوا قالوا لها نصحاؤها انك ان رددتيهم ولم تستعمليهم فى شيء ودخنتيهم مرة أخرى لم يأتك منهم احد فأمرتهم فبنوابناء دون دارها فلما جاء الملك سأل عن البناء فاخبروه فقال على أهلها تجنى براقش . ومن الموانع لزوم النقص من انكار المنكر مع ارتكابه او من ارتكابه بعد انكاره ومن الاول ما جاء في الحديث أحمق الناس من انكر من غيره ماهو مقيم عليه . وقول بعض الحكماء لاتبكتن احداً في الظاهر بما تأتيه في الباطن وعن عبد الله بن زمعة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال عليه السلام علام يضحك أحدكم مما يفعل وقال ابن عباس اذا اردت ان تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقال بعض العلماء يا ابن آدم انك لن يكمل عقلك حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ بصلاح

ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا ومن بعض كتب القدماء ليس للعالم أن يعيب امرءًا بشيءٍ فيه مثله ويكون كالاعمى الذي يعير الاعمى بعماه ومن الثاني قالوامن نظر في عيوب الناس فانكرها ثم رضاها لنفسه فذلك هو الاحمق بعينه

لا تلم المرء على فعله * فانت منسوب الى مثله
من ذم شيئاً واتى مثله * فانما دلّ على جهله

ومن امثال العرب قولهم لا تنه عن خلق وتأتي مثله أي لا تجمع بين هذين كما تقول لا تأكل السمك وتشرب اللبن . قال بعض الشعراء

اذا أنت عبت المرء ثم أتيته * فانت ومن تزرى عليه سواء

وقال ابو الدرداء علامة الجاهل ثلاث العجب وكثرة المنطق وان ينهى عن شيءٍ ويأتيه وقال بعض العلماء اذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به والا هلكت وان لا ترضى لنفسك ما نهيت نماماً عنه ولا تحكي نميمته تقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماماً ومغتاباً وتكون قد أتيت ما عنه نهيت . ومن الموانع التنبيه والالتزام اوصى لقمان ابنه فقال له يابني اذا سألك الناس فقل لهم لا أدري فانك اذا قلت لهم لا أدري لايسئلونك حتى تدري وان قلت أدري سألوك حتى لا تدري قال بعض العلماء لا ينبغي للعاقل ان لا يصف لاهله طعاماً لا يريد ان يطعمهم اياه وكذلك لا تصف لهم ملبوساً لا تريد ان تشتريه لهم ومثل ذلك كل ما يلزمك من صديق اوغيره ويكفي اللبيب عظةً ما قيل ان امرء القيس الذى بنى قصر الخورنق للنعمان كان واقفاً يوماً بين يدي الملك وذكر القصر وحسن بنائه فاغتر وقال والله اقدر ان ابني قصراً بديعاً كلما مضت ساعه من نهار تلوّن بلون الشمس فغضب امرء القيس وقال

قصرت في حقي فأمر به فالقى من أعلى القصر فمات وهو القائل لنفسه لعدم تروبه وتصور لوازم ما يقع من فيه . ومن الموانع عود الضرر فان من لا يتصور ما يعود من الامر الذي يعمله يعود ضرره عليه . ومن امثال العرب قولهم لا تبل على اكمة معناه لا تفعل شيئاً يعود ضرره عليك . واصله ان يبول الرجل على اكمه فيرد الريح بوله فينضح عليه او ترد الاكمة لصلابتها والاكمة الجبل الصغير . قال الشرقي بن النطامى كان لقمان من بني ضد تزوج امرأة تسمى براقش وكانوا لا يأكلون لحوم الابل فاصاب من براقش غلاماً فنزل مع لقمان في بني ابيها فاولموا ونحروا الجزر فراح ابن براقش الى ابيه بعرق من جزور فاكله لقمان فقال يا بني ما هذا انما تعرفت قط طيباً مثله فقال جزور نحرها اخوالي فقال وان لحوم الابل في الطيب كما ارى فقالت براقش جملنا اي اطعمنا الجميل واجتمل اى انت نفسك وكانت براقش اكثر قومها ابلا فاقبل لقمان على ابلها فاسرع فيها وفي ابل قومها وفعل ذلك بنو ابيه لما اكلوا لحوم الجزور فقيل على اهلها تجني براقش يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره اليه . وفي كتاب العرائس لابي الفرج الجوزي ان بعض طلبة العلم خرج من بلاده فرفقه شخص في الطريق فلما كان قريباً من المدينة التي قصدها قال له ذلك الشخص قد صار لي عليك حق وذمة وانا رجل من الجان ولي اليك حاجة قال وما هي قال اذا اتيت مكان كذا وكذا فانك تجد فيه دجاجات بينهن ديك ابيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتي اليك قال فقلت يا اخي وانا أيضاً اسألك حاجة قال وما هي قلت فاذا كان للانسان مارد لا تعمل فيه العزائم والح بالآدمي منا ما دوائه قال يؤخذ له وتر قدر شبر من جلد اليحمور ويشدّ به ابهام المصاب من يده شداً وثيقاً ثم يؤخذ له من دهن السداب البري ويقطر فى انفه الايمن

اربعاً وفى الايسر ثلاثاً فان الماسك به يموت ولا يعود الى احد من بعده. قال فلما دخلت المدينة اتيت الى ذلك المكان فوجدت الديك لعجوز فسألتها بيعه فابت فاشتريته منها باضعاف ثمنه فلما اشتريته وتملكته تمثل لي من بعيد وقال بالاشارة اذبحه اذبحه فذبحته فخرج عليَّ عندذلك رجال ونساء وجعلوا يضربونني ويقولون ياساحر فقلت والله لست بساحر فقالوا انك مذ ذبحت الديك اصيبت شابة عندنا بجني وانه منذ مسكها لم يفارقها فطلبت منهم وتراً قدر شبر من جلد يحمور وشيئاً من دهن السداب البري فاتوا بها فشددت ابهامي يدي الشابة شداً وثيقاً فلما فعلت بها صاح قائلا وانا علمتك على نفسي ثم قطرت من الدهن في انفها الأيمن اربعاً وفي الايسر ثلاثاً فخر من وقته ميتاً وشفى الله تلك الشابة ولم يعاودها بعده شيطان . واعجب مايحكى في هذا المعنى ان رجلين كانا متزوجين بمنزل واحد احدهما تاجر والآخر نجار ثم ان التاجر دخل الحمام فوجد جاره النجار فسلم عليه وترحب به وقام النجار بخدمة جاره التاجر فوقعت عين التاجر على حين غفلة على قبل النجار وهو بلا فوطه واذا قبله كبير وافر يشبه آلت الحمار فتعجب التاجر ولما جاء الى بيته قال لزوجته ياالله العجب كيف لا تفر زوجة النجار عنه فقالت على اي شيء ياسيدي فقال رأيته فى الحمام فانكشفت عورته فرأيت قبله كبيراً وافراً يشبه آلت الحمار فى الطول والغلظ فقالت اسكت لعبت نفسي لو كان هذا زوجي ما قعدت معه هذا وقد صار فى نفسها من الشوق الى النجار ما تودّ به سرعة خروج زوجها الى دكانه فلما خرج عمدت الى مفتاح الباب وضيعته وارسلت خلف جارها النجار فجاء فقالت له عمر لنا مفتاح الباب فقال على الرأس والعين يا سيدتي ثم جلس لعمل المفتاح فاذا بها قد لبست انخر ما عندها فجاءت بلا لباس فمشت بين يديه ووقعت عمداً فانكشفت عورتها فرآها

النجار ثم عمدت الى قفة النجار ومسكت المبرد وقالت له ما هـذا فقال مبرد فقالت بردك المبرد ثم مسكت المثقاب وقالت ما اسم هذا قال مثقاب قالت ثقبك المثقاب وجعلت تأخذ ما في القفة وتسأله عن اسم ما فيها وهو يردعليها وتضحك منه الى ان توترقبل النجار فاظهره لها فرأته فزادت غلمتها وعلم انها تريد الوصال فسك القوس وخط بيده حلقة واسعة في الارض وقال دعيني أعمل المفتاح ولا تكلميني وكل من جلس في هذه الحلقة جامعناه فجاءت وجلست في الحلقة فلم يتمالك ان طرحها على قفاها وجامعها فوقعت محبته في قلبها فلما قام عنها وأراد الانصراف أعطته أضعاف أجرته فانصرف داعياً لها وقال ياسيدتي انا صرت من جملة عبيدك ولا أحول عنك ابداً ومتى وجدتي غفلة ارسلي لي قال وكان لها ولد صغير وكان صاحب فهم وقد اطلع على أمـه فلما جاء أبوه التاجر وكان شيخاً كبيراً فلما دخل الدار وقرب من الحلقة ناداه ولده وقال يا أبتي لاتدخل الحلقة لئلا يطؤك جارنا النجار بقبله الكبير كما فعل بوالدتى وأنت غائب فندم التاجر على كلامه لزوجته من حكاية النجار لما رأى قبله الكبير فى الحمام وما ساعه الا ان طلقها ولم يتزوج بعدها . وذكر صاحب عيون التواريخ وغيره ان المأمون مر يوماً على زبيده أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه فقال لها يا أماه اتدعين علي لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه فقالت لا والله يا أمير المؤمنين قال فما الذي قلتيه قالت يعفيني أمير المؤمنين فالح عليها وقال لابد ان تقوليه قالت قلت قبح الله الملاححة قال وكيف ذلك قالت لاني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا فغلبني فامرني ان أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانه فاستعفيته فلم يعفني فتجردت من أثوابي وطفت القصر عريانه وانا حنقة عليه ثم عاودنا اللعب فغلبته فامرته ان يذهب

الى المطبخ فيطأ اقبح جارية وأشوهها خلقة فيه فاستعفاني من ذلك فلم اعفه فبذل لي خراج مصر والعراق فابيت وقلت والله لتفعلنّ ذلك فابى فالححت عليه وأخذت بيده وجئت به الى المطبخ فلم أرى جارية أقبح ولا اقذر ولا اشوه خلقة من أمك مراجل فامرته ان يطأها فوطئها فعلقت منه بك فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه فولا المأمون هارباً وهو يقول لعن الله الملاححه أي التي ألح عليها حتى أخبرته بهذا الخبر . ومن هذه الحكايات يتنبه العاقل بان لا يفعل مايعود منه ضرر عليه . ومنها لزوم الاشتراك في الضرر قال أمير المؤمنين لرجل رآه يسعى على عدوٍ له بما فيه اضرار بنفسه فقال له انما أنت كالطاعن نفسه ليقتل ردفه والردف هو الذي تردفه خلفك على فرس او ناقه . من لطائف المنقول كان في بعض البلدان رجلان عدلان من العدول وكان بينهما من الحسد والعداوه ما يودّ كل واحد قتل الآخر فمر عدل منهما يوماً مع بغيه فاجره كان يحبها فبصر به الشرطي فاخذه مع الفاجره الى الحبس وحبسهما فلما سمع العدل الثاني الذي كان عدواً له جاء من ساعته الى زوجة العدل المحبوس وقال لها أيها المسكينه زوجكِ في الحبس مع عاهره لعينه فقومي وخلي عنكِ الغيره وخاصيه فقالت له ما الذي اصنع قال بادري الى باب السجن واظهري به الشماته واعطي السجان شيئاً ليدخلك اليه على انكِ تصفعيه فاذا دخلتِ فخذي ثياب البغيه واعطيها ثيابك واخرجيها واجلسي مكانها عند زوجكِ ونحتال بعد ذلك في خلاصه فقامت وفعلت ما أمرها العدل وقالت للشرطي أريد ان أدخل على بعلي هذا الشقي واشفي غليلي بسبه وضربه فدخلت وخرجت البغيه بثيابها وجلست هي مكانها ثم مضى ذلك العدل وجمع عدول البلد وهو ينادى قد زالت حرمة العدالة فقال ولم ذلك قال فلان العدل أراد ان يخلو باهله في بستان فظلمه

الشرطي واتهمه وحبسه هو وزوجته فمضوا العدول الى بيت القاضي وشرحوا له الحال فغضب القاضي غضباً شديداً ووافوا كلهم باب السلطان وشكوا حال العدل مع الشرطي وما ابتلي بالتهمة فامر السلطان بالكشف عن المرأة فتبينت عند كل الناس انها زوجته فاطلق من السجن وعوقب الشرطي عقاباً شديداً فقال العدل للعدل الذي حبس اعلم اني ما نصرتك حباً لك ولا قربةً الى الله والعداوة بيننا على ما تعهد بل هي الآن أعظم واشد وانما نصرت جنسي ودفعت الضرر عن نفسي للقدر المشترك بيني وبينك من اسم العدالة . ومثل هذه الحكاية ما حدثني به بعض الثقات انه قبض على رجل من البابيه وأتى به الى نجيب باشا والي بغداد فقال الوالي لا أقتله الا بفتوى المذاهب الخمسة فحكمت عند ذلك المذاهب الاربعة بقتله فامر الوالي باحضار الشيخ موسى بن الشيخ جعفر النجفي وقيل الشيخ حسن رحمه الله فلما حضر أفتى بحرمة قتله وابطل ما أفتى به المذاهب بادلة واضحة عندهم فلام الناس الشيخ بعد ذلك فاجابهم الشيخ بان ما لاحظته من العواقب لم تلحظوه لان هذا البابي عليه اسم التشيع فلو حكمت بقتله وقتل يشيع خبره بان رجلاً عالماً من علماء الشيعة قتل لظهور كفره ولم يقولوا بابياً فافتيت بحرمة قتله حفظاً لعرض الشيعة لا حفظاً للبابي ومثل ذلك نقول كما ينبغي للعاقل ان يدفع الضرر عما يلزم منه الاشتراك كذلك ينبغي ان يجلب النفع لما يلزم منه الاشتراك في النفع ومنه قولهم في المثل احلب حلباً لك شطره . ومنها سوء العاقبة قال بعض الحكماء لا تصغر أمر من حاربت فانك اذا ظفرت لم تحمد وان عجزت لم تعذر وحكى ان الاسكندر قصد موصفاً فحاربته النساء فكف عنهن وقال هذا جيش ان غلبناه ما لنا من فخر وان كنا مغلوبين فذلك فضيحة الدهر . ومنها سوء الذكر قعد المهدي قعوداً عاماً للناس فدخل

رجل وفي يده نعل ملفوف في منديل فقال يأمير المؤمنين هذا نعل رسول الله قد أهديتها لك فقال هاتها فدفعها اليه فقبل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه أترون اني لم اعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها ولو كذبناه قال للناس أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها عليَّ وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره اذ كان من شأن انعامه ميلها الى أشكالها والنصرة للضعيف على القوي وان كان ظالماً فاشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله ورأينا الذي فعلنا انجح وارجح . وحكى ان المأمون بلغه ماكان عليه الملك كسرى من العدل فقال بلغني ان الارض لاتبلي أجساد الملوك العادلة وقد عزمت على ان اختبر ذلك بكسرى فتوجه الى بلاد كسرى وفتح قبره ونزل اليه وكشف عن وجهه فاذا هو في غاية الطراوة والثياب التي عليه باقيه على جدتها لم تتغير وفي أصبعه خاتماً من الياقوت الاحمر ليس في خزائن الملوك مثله وعليه مكتوب بالفارسية فتعجب المأمون وقال هذا رجل مجوسي عابد النار ولم يضيع الله ما كان يفعله من العدل وكان مع المأمون خادم خصي فغافل المأمون وأخذ الخاتم المذكور فلما علم المأمون ضرب الخادم ألف سوط ونفاه الى السند واعاد الخاتم الى أصبع كسرى كما كان وقال ان هذا الخادم أراد أن يفضحنا بين ملوك العجم حتى يقولون كان المأمون نباشاً للقبور ثم أمر أن يسبك على قبر كسرى بالرصاص حتى لايفتح بعده قال ابو الاسود الدولي لبنيه اني أحسنت اليكم صغاراً وكباراً وقبل ان تولدوا قالوا يا ابانا قد علمنا احسانك الينا صغاراً وكباراً فما احسانك الينا قبل ان نولد قال طلبت لكم موضعاً في النساء لئلا تعيروا . واعلم كما ان ملاحظة سوء الذكر مانعة فملاحظة حسن الذكر

باعثة فقد حكي ان المغيرة ابن شعبة لما ولي الكوفه سار الى دير هند بنت النعمان فهي فيه عمياء مترهبه فاستأذن عليها فقالت من أنت قال المغيرة بن شعبة الثقفي قالت ما حاجتك قال جئت خاطباً قالت انك لم تكن جئتني لمال ولا جمال ولكنك أردت ان تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر أو يقال عنك ان ابنت النعمان تزوجها المغيرة والا فاي خير في اجتماع عمياً وأعور . ومن هـذا الباب ملاحظة احياء الذكر في الافعال كما يقال ان معاوية غرس نخلاً بمكة في آخر خلافته فقال ما غرستها طمعاً في ادراكها ولكن ذكرت قول الأسدي

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ❊ ولا تكون له في الارض آثار

ولما كان عبد الله بن جعفر عنـد معاوية بالشام خبروه بولد تولد له فاخبر معاوية فاعطاه خمسمائة الف درهم على ان يسميه معاوية فسماه وقال معاوية اشتري بها اسمي حتى لا يضيع

﴿ الروض الرابع ﴾ في ملاحظة مقدار النفع والضرر في المطلوب . اعلم ان الشيء اما ان يكون نفعاً محضاً أو ضرراً خالصاً لا نفع فيه . واما ان يجتمع فيه الامران ويشمله الوصفان حينئذ اما ان يزيد ضرره على نفعه او يزيد نفعه على ضرره أو يتساوى فيه الضرر والنفع فهذه ثلاثة أقسام لا رابع لها فلنذكر أمثالها

﴿ القسم الاول ﴾ ما يزيد ضرره على نفعه ومؤنته على ثمرته ولذته فمن حاول أمراً فليضف ضرره عليه للذته به فان زاد ضرره واختاره فهو خارج عن حكم الانسانية . قال الضحاك بن مزاحم لرجل ما تصنع بشرب النبيذ قال يهضم طعامي قال اما انه يهضم من دينك وعقلك اكثر . قيل لبعض الاذكياء ما تقول في فلان وفلان قال هما الخمر والميسر اثمهما اكبر من نفعهما . من أمثال

العامة من قلت تدابيره حنطة اكلت شعيره وأصل المثل ان رجلاً كان عنده حنطة وشعير فباع الحنطة واشترى بها فرساً ثم علف الشعير الفرس حتى نفد فضرب به المثل . ومن نوادر أبي الاسود الدولي انه اشترى حصاناً بتسعة دنانير ومضى الى داره ونام فلما استيقظ سمعه يقضم فقال ما هذا قالوا الفرس يأكل شعيره فقال لا اترك في مالي من أنام وهو يتلفه ولا أترك الا ما يزيده وينميه فباعه واشترى بثمنه أرضاً للزراعة . وذكر الميداني في مجمع الأمثال ان قوماً من اللصوص جلبوا قحبة فلما قضوا منها اوطارهم اعطوها قربة زيت كانت عندهم اذ لم يحضرهم غيرها فقالت المرأة لا أريدها لاني احسبني علقت من أحدكم واكره ان يكون مولودي ابن زانية بزيت فذهب قولها مثلا لكل ما يزيد ضرره على نفعه . وقال أيضاً فيه ان فاقوة امرأة مرة الاسدي كانت من أجمل النساء في زمانها وان زوجها غاب عنها اعواماً فهويت عبداً لها حامياً كان يرعى ماشيتها فلما همت به اقبلت على نفسها فقالت يا نفس لا خير في الشره . فانها تفضح الحرة . وتحدث العره . ثم اعرضت عنه حيناً ثم همت به فقالت يا نفس موتة مريحة . خير من الفضيحة . وركوب القبيحة . واياك والعار . ولبوس الشنار . وسوء الشعار . ولؤم الدثار . ثم همت به وقالت ان كانت مرة واحده . فقد تصلح الفاسده . وتكرم العائده . ثم جسرت على أمرها فقالت للعبد احضر مبيتي الليلة فاتاها فواقعها وكان زوجها قايفاً مارداً وكان قد غاب دهراً ثم اقبل ايبا فبينما هو يطعم اذ نعب غراب فاخبره ان امرأته لم تفجر قط ولا تفجر الاتلك الليلة فركب مره فرسه وسار مسرعاً رجاء ان هو احسها اتمها أبداً فانتهى اليها وقد قام العبد منها وقد ندمت وهي تقول خير قايل وفضحت نفسي فسمعها مره فدخل عليها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له ما يرعدك

قال مره ليعلم انه قد علم خير قليل وفضحت نفسي فشهقت شهقة وماتت فقال مره

لحي الله رب الناس فاقد ميتة * واهون بها مفقودة حين تفقد
لعمرك ما تعتادني منك لوعةً * ولا انا من وجد عليك مسهد

ثم قام الى العبد فقتله وذهبت كلمتها مثلاً وهو قولها خير قليل وفضحت نفسي ومن هذا الباب ما قاله بعضهم رأيت مجنونين يتنازعان رغيفاً يوثر كل واحد منهما صاحبه به وهما يتقاسمان عليه فقلت لهما وانا أظن ان اربح عليهما انا اكله ان لم تأكلاه فقال احدهما يا أحمق ان معه اداماً لايسوغ الا به قلت وما هو قال ضيق الخناق ووجيء العنق فوليت عنهما فقالا يا مجنون لولا غضاضة الادم لاكلناه منذ حين وحينئذ فلا تلم عاقلاً اذا ترك شيئاً ظاهره لذة ومنفعة لعلمه بما فيه من مضرة لاتعلمها انت. ومن هذا ما يقال الناس ان طمعت منهم في ذرة طمعوا منك في بدرة وان أخذت له ديناراً اقتطعوا من مالك قنطاراً ومنه يقال اذاوجدت حاجتك في السوق فلا تطلبها من أخيك للعلة التي بيناها فلا تغفل واحسن ما يرسم في هذا الباب قول امير المؤمنين عليه السلام من وصيته للحسن عليه السلام واكرم نفسك عن كل دنيةوان ساقتك الى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً وما خير خير لاينال الابشر ويسر لاينال الا بعسر ومن الطف ما يرسم في هذا الباب قول ابي حيان

خلقنا لامر لو علمنا خفيه * لما حب منا المرء ليلاً ولا لبنا
ولكن جهلنا فاستراحت نفوسنا * وما تلك الا راحة تعقب الحزنا

فليست براحة حزنها اكثر منها وذلك لانقطاعها ودوامه واضمحلالها وبقائه

﴿ القسم الثاني ﴾ ما يزيد نفعه على ضرره . من أمثال العرب رأس برأس وزيادة خمسمائة . قالوا ان جيشاً كان فيه الفرزدق فقال صاحب الجيش من جاءني برأس فله خمسمائة درهم ثم برز ثانية فقتل فبكى أهله عليه فقال الفرزدق أما ترضون أن يكون رأس برأس وزيادة خمسمائة . وذكر في الكشاف في تفسير قوله تعالى (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ) ان بعض جفاة الاعراب سرق نافجة مسك معرب نافة فتليت عليه هذه الآية فقال اذن احملها طيبة الريح خفيفة المحمل وهذا القسم لا يرتكب الا أعلى افراده ان أمكن

اذا كنت لابد مستربا * فمن اعظم التل فاسترب

ومن امثالهم بمثل جارية فلتزن الزانية هو جارية ابن سليط وكان حسن الوجه فرأته امرأة فمكنته من نفسها وحملت فلما علمت به امها لامتها ثم رأت الام جمال ابن سليط فعذرت ابنتها وقالت بمثل جارية . فلتزن الزانية . سراً او علانية . يضرب في الكريم يخدمه من هو دونه . قال الشاعر

ان تهوى بدار فليكن * ابن الخليفة ذي السرير
وابن لسلطان الورى * اوذى الوزارة او امير
وتجنب الاوغاد والغوغا * وذى القدر الحقير
ان الخطير هو الذي * قد قام بالامر الخطير

﴿ القسم الثالث ﴾ ما يتساوى فيه النفع والضرر وارتكاب هذا القسم أهون من ارتكاب القسم الثاني كما ان ارتكاب القسم الثاني اهون من الاول ومن امثالهم . حبذا التراث لولا الذلة . يضرب للشيء فيه خصلة محمودة وخصال مذمومة وذلك ان الرجل اذا مات اقاربه ورث اموالهم واستغنى الى ان يبقى فرداً لا ناصر له وعلى ذلك قول الشاعر ويروى للغزالي

ذهب الكرام فسدت غير مسود * ومن الشقاء تفردي بالسودد

ومن امثال العرب قولهم شفيت نفسي وجدعت انفي يقول يبلغ الشخص مراده من وجه ويلقي ما يكرهه من وجه . ومنه ما انشده ابو تمام لقيس

فان أك قد بردت بهم غليلي * فلم اقطع بهم الا بناني

وقال الآخر

ونبكي حين نقتلكم عليكم * ونقتلكم كانا لا نبالي

باع اعرابي من اعرابي شيئاً بنسيه وجعل يحسب ربحه فقال الاعرابي المشتري

يلوي بنان الكف يحسب ربحه * ولا يحسب المطل الذي انا ماطله

ومن دون ما يرجو عناء مبرّح * اواخره ما ينقضي واوائله

ومن امثال العرب ثمرة الجبن لا ربح ولا خسر . وهذا كقول العامة . التاجر الجبان لا رابح ولا خسران . ضل لاعرابي بعير فحلف ان وجده ان يبيعه بدرهم واحد فوجده فلم يحتمل قلبه ان يبعه بذلك الثمن فعمد الى سنور وعلقه في عنقه وأخذ ينادي عليه الجمل بدرهم والسنور بخمسمائة درهم ولا أبيعهما الا معاً فمرّ بعض الاعراب به وقال ما ارخص الجمل لولا القلادة . وكان يقال مثل الملك الصالح اذا كان وزيره فاسداً مثل الماء العذب الصافي فيه التمساح لا يستطيع الانسان وان كان سابحاً والى الماء ضامياً دخوله حذراً على نفسه . شكى رجل الى ابي العيناء سوء الحال فقال له ابشر فان الله رزقك الاسلام والعافية فقال اجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد قال عليه السلام شرب الدواء للجسد كالصابون للثوب ينقيه ولكن يخلقه . انشدنا بعض الادباء لبعض الفضلاء

قالوا فلان عالم فاضل * فاكرموه مثل مايرتضي

فقلت لما لم يكن ذا تقى * تعارض المانع والمقتضي

ومن كلام امير المؤمنين عليه السلام لما غلب اصحاب معاوية اصحابه على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء قد استطعموكم القتال فاقروا على مذله وتأخير محله أو رووا السيوف من الدماء ترووا من الماء فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين فساوى صلى الله عليه وسلم بين الموت بالعز وبين الحياة بالذل ومنه اخذ الشاعر معنى قوله

فموت الفتى في العزمثل حياته * وعيشته في الذل مثل حمامه

ومن هذا الباب قول العرب في امثالها. اتق خيرها بشرها وشرها بخيرها الهاء ترجع للقطة والضالة يجدها الرجل يقولون دع خيرها بسبب شرها الذي يعقبها وقابل شرها بخيرها تجد شرها زائداً على الخير اومثله

﴿ الروض الخامس ﴾ في الامور الساقطة عن درجة اعتبار العقل اما لقلة اثرها او لامتناع موضوعها وهي اربعة أمور استدراك الفائت والاعتناء بالمدبر والاهتمام بالمقبل وتحصيل الحاصل . الاول منها استدراك الفائت وهو قسمان فائت بنفسه وفائت هو بفوات وقته . الاول منهما ما فات بذاته واستدراكه جهل وتغرير وجدت على ظهر كتاب ابياتاً ولعلها تنسب للامير عليه السلام منها هذه البيت

ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي انت فيها

وكان ابو الاسود حاضر الجواب جيد الكلام مليح النادرة روى انه دخل يوماً الى السوق يشتري ثوباً فقال له رجل هلم اقاربك في هذا الثوب فقال له ان لم تقاربني باعدتك ثم قال له بكم هو قال قد اعطيت به كذا وكذا قال انما تخبرني عما فاتك . ومن امثال العرب قولهم الفائت لا يستدرك مثل محدث وأصله قول الشاعر

ندمت على سبي العشيرة بعد ما * مضى واستتبت للرواة مذاهبه
فاصبحت لا استطيع رداً لمامضى * كما لا يرد الدر في الضرع حاليه

ونحو المثل قول النابغة

واليأس عما فات يعقب راحة * ولرب مطمعة تكون ذباجا

وقالوا ليس ينبغي للمرء ان يعمل الفكرة فيما ذهب عنه ولكن ليعملها فى حفظ ما يبقى فلا ينفع النصح بعد العمل ولا الاستنابة بعد الفوت . حكي ان ضبة ابن اركان كان له ابنان سعد وسعيد فخرجا الى سفر فهلكا سعد ورجع سعيد ثم خرج والدهما ضبه بعد ذلك فى الأشهر الحرم يسير و يتفحص عن ابنه وكان معه الحارث بن كعب فبينما هما ذات يوم يتحدثان سائرين اذ مرا بمكان فقال الحارث لقيت بهذا المكان شاباً صفته كذا وكذا فقتلته وهذا سيفه فقال له ضبّة الحديث ذو شجون ثم ان ضبه قتل الحارس فلامه الناس على استحلال الشهر الحرام فقال سبق السيف العذل فصار مثلاً ومن قصيدة لحاتم الطائي

ألا لا تلوماني على ما تقدما * كفى بصروف الدهر للمرء محكما
فانكما لا ما مضى تدركانه * ولست على ما فاتني متندما

وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم قال من قيس بن عاصم رأيته يوماً من الايام قاعداً بفناء داره متقلداً بحمايل سيفه يحدث قومه فبينما هو كذلك اذ اتى له برجلين احدهما مقتول والآخر مكفوف فقيل له هذا ابن اخيك قد قتل ابنك قال والله ما قطع كلامه ولا اغتاظ ثم التفت الى ابن اخيه وقال يا ابن اخي اثمت بربك ورميت نفسك بسهمك وقتلت ابن عمك ثم قال لابنه الآخر يا بني قم فادفن اخاك وحلّ كتاف ابن عمك وسق الى أمك مائة ناقة دية ولدها فانها غريبة منا . قال ارسطاطاليس الايام لا تديم الفرح ولا الترح

والاسف على الماضي تضييع للعمر لا غير . قال المتنبي شعر

فما يديم سروراً ما سررت به * ولا يردّ عليك الفائت الحزن

قال بعض الحكماء انما الجزع والاشفاق قبل وقوع الامر فاذا وقع فالرضى والتسليم . وروى ان شريحاً مرض له ولد فجزع عليه جزعاً شديداً فلما مات لم يجزع فقيل له في ذلك فقال انما كان جزعي رحمة له واشفاقاً عليه فلما وقع القضاء رضيت عليه بالتسليم . قال بعض العقلاء شعر

لا تجزعنّ على ما فات مطلبه * فلست عمرك بالماضي بمرتجع

لم يلبس المرء ثوباً شرّ من جزع * ولا تحلى بمثل الصبر والورع

قال امير المؤمنين عليه السلام ان كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل اليك . يقول عليه السلام لا تجزع على ما ذهب من مالك كما لا ينبغي ان تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب فانه لا فرق بينهما الا ان هذا حصل وذاك لم يحصل بعد وهذا فرق غير مؤثر لان الذي تظن انه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة وانما الحاصل على الحقيقة ما اكلته ولبسته واما المقتنيات والمدّخرات فلعلها ليس لك . كما قال الشاعر

وذي ابل يسقى ويحسبها له * اخي تعب في رعيها ودؤب

غدت وغدا ربّ سواه يسوقها * وبدّل احجارا وحاز قليب

الثاني من قسمي الفائت ما فات وقته فلا فائدة في وقوعه او حصوله . قال بعض العقلاء واعلم بانّ الغيث ليس بنافع للناس ما لم يأت في ابانه

﴿ القسم الثاني ﴾ معانات المدبر وهو ما أشرف على الفوات . ومن امثال العرب قولهم خذ الامر بقوابله اي خذه عند استقباله قبل ان يدبر فانه اذا ادبر اتعب طلابه . وفي معناه قول الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء ما لا يستطيع

وقال غيره

اذا رأيت بعيد امرٍ مقبلٍ * فقريب ما استدبرت منه بعد

وقال الآخر

فخذ لين وجه الارض ما دام مقبلاً * اليك ولا تكلف به حين يدبر

وقال القطامي

وخير الامر ما استقبلت منه * وليس بان تتبعه اتباعاً

وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضاً فلا تكن به متعرضاً . ومن كلام بعض الوعاظ ايها الغافل مالك تعرض عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبل على الدنيا وهي معرضة عنك . وقيل لعارف خذ حظك من الدنيا فانك فان عنها فقال الآن وجب ان لا آخذ حظي منها . قال بعض الشعراء

الا انما الدنيا غضارة ايكةٍ * اذا اخضرّ منها جانب جفّ جانب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة * على ذاهب منها فانك ذاهب

الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد اخذ اخذ الزهد بطرفيه . قال بعض الاكابر ما امتع بدنيا ان بقيت لها لم تبق لي وان بقيت لي لم ابق لها . وكان يقال يا ابن آدم لا تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت ولا تفرح بموجود لا يتركه عليك الموت

﴿ القسم الثالث التماس المقبل ﴾ وهو ما قرب حصوله او اشرف . زاحم شاب شيخاً في الطريق فقال الشاب كم ثمن القوس يعيره بانحناء الظهر فقال الشيخ يا ابن اخي ان طال بك عمر فسوف تشتريها بلا ثمن . ومن امثال العرب انت

على المجرّب يراد به على التجربة اي انك مشرف على ما تجربه. قيل اصل المثل ان رجلاً اراد مقاربة امرأة فلما دنى منها قال ابكر انت ام ثيّب فقالت انت على المجرّب اي انك مشرف على التجربة يضرب لمن يسئل عن شيءٍ يقرب علمه منه اي لا تسأل فانك ستعلم. ومن امثالهم اليك يساق الحديث يضرب مثلا للرجل يصلح له الامر وهو مستعجل يلتمس الوصول اليه قبل اوانه واصله ان رجلا خطب امراة فجعل يصف لها نفسه حتى تحرك ذكره من تحت ثوبه فضربه بيده وقال اليك يساق الحديث. الرابع من الامور تحصيل الحاصل وهو باطل في نظر العقلاء لعدم اثره. نظر اعرابي الى القمر حين طلع فابصر به الطريق وقد خاف ان يضل فقال ما عسيت ان اقول ان قلت حسنك الله فقد فعل او رفعك الله فقد فعل قال المتنبي

والهجر اقتل لي مما اراقبه ❊ انا الغريق فما خوفي من البلل

ووعد بعض الرؤساء بعض الادباء وعداً فاقتضاه عليه مرّة بعد أخرى في كل ذلك يجدد الوعد على نفسه فكتب اليه لست التمس بالاقتضاء لك تجديد الوعد منك لاني قد احرزته قبل اقتضائك اياه وانما التمس بذلك انجازه يكون يعقل تحققه والا فما الفرق بين الوعد الاول المؤكد وبين الوعد الثاني المجدد وكل واحد منهما محتاج الى الاقتضاء والاذكار ومعانات الصبر والانتظار. وسأل بعض الخلفاء رجلا عن شيءٍ فقال الرجل الله اعلم فقال قد شقينا ان كنا لا نعلم ان الله اعلم اذا سأل احدكم عما لا يعلم فليقل لا ادري. استأجر رجل حمالاً ليحمل له قفصاً فيه قوارير على ان يعلمه ثلاث خصال ينتفع بها فلما بلغ ثلث الطريق قال هات الخصلة الاولى فقال من قال لك ان المشي خير من الركوب فلا تصدقه قال نعم فلما بلغ نصف الطريق قال هات الثانية قال من قال لك ان الجوع خير

من الشبع فلا تصدقه قال نعم قال فلما انتهى الى باب الدار قال هات الثالثة قال من قال لك انه وجد حمالا اجهل منك فلا تصدقه فرمى الحمال بالقفص فكسر جميع القوارير وقال من قال لك انه بقي في القفص قارورة صحيحة فلا تصدقه ابداً . وسمع ابن الجصاص آية من القرآن في بعض المجالس فقال حسن والله هاتوا دواتاً وقرطاساً اكتب هذا قالوا هذا من القرآن وفي داركم خمسون مصحفاً فكتبها وقال لكل جديد لذة وبعث بها الى معلم ولده وامره ان يحفظه اياها . ونظر ابن الجصاص وجهه في المرآت فقال لمن حوله هل طالت لحيتي فقيل له ان المرآت في يدك قال نعم الا ان الحاضر يرى ما لا يراه الغائب . واتاه غلام له بفرخ وقال انظر ما اشبهه بامه قال امه ذكر ام انثى . وقال احمق لابنه وكان احمق ايضاً اي يوم صلينا الجمعه في مسجد الرصافة فقال لقد نسيت ولكني اظنه يوم الثلاثاء قال صدقت كذا كان . ووقع داوود بن المعمر بجارية فلما امعن في الفعل قال لها اثيب ام بكر فقالت له سل المجرب

﴿ فصل ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب ﴾ بيان امور معدومة الفائدة ومساوية العائده . منها وصف الشيء بنفسه كما يقال انه انشد بعض الشعراء نصف مجالسه

كاننا والماء من حولنا * قوم جلوس حولهم ماء

فقال ابن الوردي فيه

وشاعر اوقد الطبع الذكاء له * فكاد يحرقه من فرط اذكاء

اقام يجهد اياماً قريحته * وشبه الماء بعد الجهد بالماء

ومنها تخصيص الشيء بما لا يختص به او يشاركه فيه ما هو اقل منه كما يحكي انه عرضت مدنية لكثير فقالت له انت القائل

وما روضة بالحزن طيبة الثرى * يمج الندى جثجاثها وعرارها
باطيب من اردان عزة موهناً * وقدأوقدت بالمندل الرطب نارها

لو كانت هـذه الصفة لزنجية تجتل الحلة لطابت هلا قلت كما قال سيدك امرء القيس

ألم ترياني كلما جئت طارقاً * وجدت بها طيباً وان لم تطيب

وسمع بعضهم قائلاً يقول شعراً

ومن لا يود مدحي فان مدائحي * نوافق عنـد الاكرمين نوامي
نوافق عند المشترى الحمد بالندى * نفاق بنات الحارث بن هشام

فقال يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام قال كن حسان الوجوه وكان أبوهن اذا زوجهن يسوقهن ومهورتهن الى بعولتهن فقال يا ابن أخي لو فعل هذا ابليس ببناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون ٠ ومنها ترجيح الشيء على نقيضه أو ضـده بالرجحان ضرورة وبداهة فان في ذلك نقصاناً للراجح فضلا عن عدم فائدة الترجيح كتفضيل الجوهر على الفحم والنور على الظلمة ومنه قيل لبعض الشعراء

اذا أنت فضلت امرء ذا نباهة * على جاهل كان المديح له نقصا
ألم ترى ان السيف نقص بحده * اذا قيل ان السيف أمضى من العصى

ومنها ترتيب الآثار على غير موضوع وهو كالسلب بانتفاء الموضوع فمن ذلك ما يقال انه اشترى اعرابي غلاماً فقيل له انه يبول في الفراش فقال ان وجد فراشاً فليبل عليه راشداً ٠ وقيل لاعرابي ما تسمون المرق قال السخين قيل فاذا برد قال نحن لا نتركه ان يبرد ٠ ومثله قعد صبي مع قوم على طعام فاخذ يبكي فقالوا ما يبكيك فقال حار قالوا فاصبر حتى يبرد قال انتم لا تصبرون ٠ ومن

هذا الباب قول بعض الشعراء

عجبت لمن يقول ذكرت حبي * وهل أنسى فاذكر ما نسيت

ومنها أيضاً التعريف بالمجمل والمبهم وذلك كما يحكى انه دق الباب رجل على بشار فقال من بالباب فقال أنا فقال يا انا ادخل . ودق رجل على عمر بن عبيد الباب فقال من هذا فقال انا قال لست أعرف في اخواننا أحداً اسمه انا . وقيل دق رجل على الجاحظ الباب فقال له الجاحظ من أنت فقال الرجل انا فقال الجاحظ أنت ودقك سواء لافرق بينكما . ومنها التعريف بالنوع وذلك كما يحكى انه ارسل السراج الوراق غلامه الى السوق ليشترى له زيتاً فلما احضره صب عليه عسلاً واكل لقمة فوجده زيت السراج فذهب الى الزيات فسبه فقال ياسيدي لا ذنب لي فقد قال عبدك اعطني زيتاً للسراج . ومثل ذلك ما يقال انه سئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال لاأدري الآن الا ان أمها ذكرت انها ولدتها في أيام البراغيث

﴿ الروض السادس ﴾ في الموازين وبيان الراجح من المرجوح في مقام التعارض او لترديد بين امرين متنافين لايمكن اجتماعها وهذه الموازين على ثلاثة أقسام لأن الأمرين المتعارضين اما ان يكونا منفعتين أو مضرتين أو أحدهما جلب منفعة والآخر دفع مضرة فهذه ثلاثة أقسام لا رابع لها ولكل قسم منها موازين تتعلق به . أما القسم الاول فموازينه سبعة (الاول منها) رجحان الأنفع من الامرين . كما حكي انها كل السلطان محمود يوماً مع بعض ندمائه باذنجاناً وهو جائع فقال طعام طيب فافرط النديم في مدحه ثم شبع السلطان فقال مضر فبالغ النديم في عدّ مضاره فقال مدحته لي الآن قال انا نديمك لا نديمه أتكلم بما يطيب لك . ظريفة حج بعض المغفلين فلما رأى

البيت قال اللهم اغفر لها اللهم عافها فقال له رجل ومن هذه التي آثرتها على نفسك فقال امرأتي فاني صحبت الخلق فما وجدت انساناً يدعني أنيكه الا هي فكيف أدعو لها . أعطى رجل مؤاجراً درهمين فلما أراد ادخاله قال لا تدخله واقتصر على ما بين الفخذين قال ايري بين الفخذين منذ خمسين سنة فما معنى دفع الدرهمين . وحكي انه حمل بعض الصوفية طعاماً الى طحان يطحنه فقال انا مشغول فقال اطحنه والا دعوت عليك وعلى حمارك ورحاك قال فانت مجاب الدعوة قال نعم قال فادع الله عز وجل ان يصير حنطتك دقيقا فهو انفع لك واسلم لدينك . ولما أخذ محمد بن سليمان صالح بن عبد القدوس ليوجه به الى المهدي فقال له اطلقني حتى افكر لك فيولد لك ولد ذكر ولم يكن لمحمد بن سليمان غير بنت واحدة فقال بل اصنع ما هو انفع لك حتى تفلت عن يدي . قيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه هل داويتهما فقال اني عنهما لمشغول فقيل له هلا سألت الله ان يعافيهما فقال اسأله فيما هو اهم من ذلك (الميزان الثاني) رجحان الأرجح من الأمرين النافعين . فمن امثال العرب قولهم بطني فعطري اصله في امرأة كانت تعطر رجلاً ولا تطعمه يقول اشبعي بطني ولا تحتاجين الى تطييبي . وهو مثل للرجل يصنع ما يلزمه ولا ينظر فيما لا يعنيه . وحكي ان رجلاً اتى امرأة جائعاً فتهيأت له فلم يلتفت اليها ولا الى ولدها فلما شبع دعا ولده فقربهم وأراد الباءة فقالت المرأة ببطنه يعدو الذكر قال بعض الأذكياء شعراً

اذا استغنيت عن شيءٍ فدعه ❊ وخذ ما انت محتاج اليه

اذ ما لا حاجة اليه لا يسدّ عما اليه الحاجة والافتقار . قال محمد بن عبدالرحمن دعا مغن مرة اخا له فاقعده الى العصر فلم يطعمه شيئاً فاشتد جوعه فاخذه

مثل الجنون فاخذ صاحب البيت العود فقال بحياتي اي صوت تشتهي ان اسمعك قال صوت المقلى . وحكى ابو الرقمعق قال كان لي اخوان اربعة كنت انادمهم فى أيام الاستاذ كافور قال فضاق ما في يدي وقل ما عندي وجلست في بيتي مفكرا في امرى فبينما انا كذلك اذ جاءني رسولهم وكان يوماً بارداً ولم يكن عندي كسوة تكفني عن البرد فقال لي الرسول ان اخوانك يقرؤنك السلام ويقولون لك انا قد ذبحنا شاة سمينة فما ذا تشتهي ان نطبخها وعجل بالقدوم الينا فكتبت اليهم

اخواننا قصدوا الصبوح بسحرة * فأتى رسولهم اليَّ خصوصاً
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه * قلت اطبخوا لى جبة وقميصاً

قال فدفعت الرقعة الى الرسول فذهب بها اليهم وبقيت انتظره وما شعرت اذ عاد اليَّ ومعه اربع خلع كامله واربع صرر في كل صرة عشرة دنانير وفرّج الله عني فاخذت أحسن الخلع فلبستها وتوجهت اليهم وجلست معهم ذلك اليوم كله (الميزان الثالث) رجحان الاسهل من الامرين على الاصعب والميسور على المعسور . فقد روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خير بين امرين الا اختار ايسرهما ما لم يكن آثماً . ورأيت في بعض المقامات البديعيه لبعض الادباء المعاصرين ما ملخصها انه دخل عليه شيخ قد ناهز الثمانين وجرى بينهما حديث العشق الى ان قال فقلت له ايها الشيخ الامام . من الاولى بان يعشق الجاريه ام الغلام . فقال أرى الاولى باهل المدارس عشق الغلام ذي الطرف الناعس فان الميسور أولى من المعسور ثم انشد

فحبك المرد والصبيان أيسر من * حب الغواني ذوات الدل والخفر
فالمرد في كل وقت لا حجاب لهم * والبيض تحجب في بيض وفي سمري

انتهى . وقالت الحكماء من فطنة الكلب انه اذا عاين الظباء قريبة كانت او بعيدة عرف المعتل وغير المعتل والذكر من الانثى فلم يقصد في الصيد الا الذكر وان علم انه اشد عدوا وابعد وثبة ويدع الانثى على نقصان عدوها وسبب ذلك انه قد علم ان الذكر اذا عدا شوطاً او شوطين حقن ببوله وكذا كل حيوان اذا اشتد فزعه فانه يدركه الحقن واذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدوّ فيثقل حينئذ عدوه ويقصر مدى خطاه فيلحقه الكلب واما الانثى فانها تحذف بولها لسعة السبيل وسهولة المخرج فتصير بذلك ادوم

قال بعض الشعراء

فاذا تعسرت الامور فارجها * وعليك بالامر الذي لم يعسر

وقال بعضهم

اذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

(الميزان الرابع) رجحان الاقرب من الامرين على الابعد ومنه معالجة الموجود خير من انتظار المفقود . وحكي ان ملك الهندوستان ارسل رسولاً الى انوشيروان بانزال الرسول ثم جمع في اليوم الثاني ارباب دولته وأعيان مملكته وأذن للرسول في الدخول فلما دخل عليه ومثل بين يديه قال اسمع جواب رسالتك ثم امر انوشيروان باحضار صندوق ففتحه وأخرج منه صندوق صغير وأخرج منه قبضة من كبر وسلمها الى الرسول وقال هل في ولايتكم شيء من هذا قال نعم هذا عندنا كثير فقال له انوشيروان ارجع وقل لسلطان الهند يجب عليك ان تعمر ولايتك أولا فانها خراب ثم تطمع في ولاية عامره فانك لو طفت جميع اطراف ولايتي وطلبت أصلاً واحداً من كبر لم تجده ولو جمعت في موضع واحد من ولايتي اصلاً واحداً من كبر

لصلبت عامل تلك الولايه

فعاجز من ترك الموجودا ٭ طماعة وطلب المفقودا

وربما تتبع الانسان لنفسه من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقاراً لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللاً لمن خبره فلا يدرك محبوباً ولا يظفر بطائل فاذا قرب منك الشيء فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تخبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء وترك الاسهل بالاصعب بلاء والانتقال من المخبور الى غيره خطر . قال بعض الحكماء لست منتفعاً بما تعلم ما لم تعمل بما تعلم فان زدت في علمك فانت مثل رجل حزم حزمة من حطب وأراد حملها فلم يطق فوضعها وزاد عليها . وقال ابراهيم بن ادهم مررت بحجر بمكة مكتوب عليه اقلبني تعتبر فقلبته فاذا عليه مكتوب انت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم . سئل بعض الحكماء ما الزهد قال هو ان لا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود . وقال داود الطائي ارأيت المحارب اذا أراد ان يلقي الحرب أليس يجمع آلته فاذا أفنى عمره في جمع الآلة فمتى يعمل . ومن كلامهم اذا أفنيت عمرك في الجمع فمتى تأكل (الميزان الخامس) رجحان ما لم يكن عنه بدل ولا عوض على ما عنه بدل وعوض . قال بعض الامراء لمعلم ابنه علمه السباحة قبل الكتابة فانه يجد من يكتب ولا يجد من يسبح عنه . حكي ان نحوياً ركب فى سفينة فقال للملاح هل تعرف شيء من النحو قال لا قال ذهب نصف عمرك فلما اضطربت السفينة واشتدت الريح وكادت السفينة تغرق قال الملاح للنحوي هل تعرف السباحه قال لا قال ذهب جميع عمرك . فاذا دار لامر بين ما لم يكن عنه بدل وعوض وبين ما يكن عنه عوض او بدل رجح

الاوّل بالضرورة العقلية . كما حكى ان الضحاك بن قيس كان ملكا من احسن الملوك سيرة وأصفاهم سريرة فتزيا له ابليس بصورة آدمي ودخل عليه وزعم انه يجود طبخ الاطعمة فضمه الملك الى نفسه ووكله على طعامه وصار كل يوم يهيئ له من اطائب الاطعمه . ولذائذ الاغذيه . ما يعجز عنه غيره فلما اعجب الملك فعله قال له يوماً اقترح ما تريد عليّ . لا كافيك على ما اسديته اليّ . فقال له ابليس تمنيت عليك . ان اقبل كتفيك . فاعجبه ذلك واجابه . وحسر عن بدنه ثيابه . فقبل لوحي كتفيه . وفرّ من بين يديه . فخرج من موضعي قبلته سلعتان . كانهما حيتان . فلما علم بانه ابليس قال قد قتلتنا فما دواؤهما يالعين قال ادمغة الآدميين . فمدّ الملك يد الفتك . ولاجل الادمغة استعمل السفك . فضج الناس من ذلك وبعده وقع الاتفاق على ان يقترع فمن وقعت عليه القرعة ذبح وأخذ دماغه وغذوا به الحيتين في بعض الادوار . خرجت القرعة على ثلاثة انفار . فاخذوا وحبسوا لوقت الحاجة الى ذبحهم فوقفت للضحاك امرأة وضيّة واستغاثت وقالت ثلاثة أنفار من دار . لا صبر لي عنهم ولا قرار . حاشى السلطان . ان يرضى بهذا العدوان . ولدي كبدي . وأخي عضدي . وزوجي معتمدي . والكل مسجون . ليسقى كاس المنون . فرق لها الضحاك . وقال لا يعمهم الهلاك . فاختاري واحداً من الثلاثة فقالت اختار أخي الشقيق فسألها الضحاك عن سبب اختيارها لأخيها . دون ولدها وأب بنيها . فقالت اني مرغوبة . وللأزواج مطلوبة . فان راح زوجي فعنه بدل . واذا حصل الزوج وجد الولد وحصل . فتهيأ الغرض . ووجد عنها العوض وأما الأخ الشقيق . فما عنه عوض في التحقيق . لأن أبوينا ماتا وفاتا . وصارا تحت الارض رفاتا . فهذا ما أدت اليه أفكاري . ووقع عليه اختياري .

فاستحسن الضحاك منها هذا الكلام . ووهبها الثلاثة مع زيادة الانعام . قال بعضهم

يمضي أخوك فلا تلقا له خلفاً * والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وانما مثلنا لك بالأخ لتقيس عليه سائر الامور الفوتية على حسب درجاتها واذا خاف الانسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والاهل والوطن فانه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفاً (الميزان السادس) رجحان المتيقن على المظنون والمظنون على الموهوم ومنه قولهم كوخ في العيان خير من قصر في الوهم . وما كان أجود من لوكان . وعصفور في الكف خير من كركي في الجو . ولأن تعطف خيراً من ان تقف . وقالوا أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس . ومن أمثال العرب مس الثرى خير من السراب أي اقتصارك على قليلك خير من اغترارك بمال غيرك . وقال أمير المؤمنين عليه السلام حفظ ما في يديك أحب الي من طلب ما في يدي غيرك . قال بعض الشراح هذا مثل قولهم في المثل البخل خير من سؤال البخيل وليس مراده عليه السلام وصايته بالبخل والامساك بل نهيه عن التفريط والتبذير قال الله تعالى (ولا تبسط يدك كل البسط ولا تجعلها مغلولة الى عنقك فتقعد ملوماً محسوراً) قالوا وأحمق الناس من أضاع ماله اتكالاً على مال الناس وظناً انه يقدر على الاستخلاف . قال الشاعر

اذا حدثتك النفس انك قادر * على ماحوت ايدي الرجال فكذب

وهذا مثل الصياد والسمكة من أمثال بعض البلغاء

اتفق الحال مع الصياد * في بلدة من أصغر البلاد

ان حكم الطو على السناره * من بعد ان عمل استخاره

فغطست في الماء بعض اذرع * وشبكت سميكة كالاصبع

قالت له وهل لمثلي منفعة * ياليتما بدلتني بضفدعة
اني صغيرة وليس بي طمع * اذ ليس لي طعم ولا مني شبع
اترك سبيلي سنتين اكبر * وبعد في هذا المكان احضر
وارم الى البحر لصيدي شبكة * حتى تقول الناس صاد سمكة
فقال بل اكون عين الجاهل * اذا تركت عاجلاً بآجل
وعاجز من ترك الموجودا * طماعة وطلب المفقودا

ومن أمثال العرب قولهم لا أطلب أثراً بعد عين والعين المعاينة ومعناه لا أترك الشيء وأنا اعاينه ثم اتبع اثره حين فاتني . وقيل العين هاهنا نفس الشيء يقول لا اترك الذي اطلبه ثم اتبعه اذا فات . وهو من قولهم هو درهمي بعينه . والمثل لمالك بن عمر العاملي وذلك ان بعض ملوك غسان طلب رجلاً من عامله فقاته فاخذ رجلين وهما مالك بن عمر واخوه سماك بن عمرو فقال اني قاتل أحدكما فقال كل واحد منهما اقتلني مكان اخي فعزم على قتل سماك فقال سماك حين قدم للقتل

فاقسم لو قتلوا مالكاً * لكنت لهم جنة راصدة

فقتل وخلى مالك فانصرف الى أهله فلبث زماناً ان ركبا مروا واحدهم يغني فاقسم لو قتلوا مالكا لكنت لهم جنة راصدة فسمعته أم سماك فقالت يا مالك قبح الله الحيوة بعد سماك اخرج في الطلب باخيك فخرج فلقي قاتل أخيه يسير في نفر يسير من قومه فلما رأوه عرفوا الشر في وجهه فقالوا له لك مائة من الابل وكف فقال لا أطلب اثراً بعد عين وحمل عليه فقتله اي لا التمس الابل وهي غائبة عني واترك ثاري وهو نصب عيني . قال ابن الجوزي في الأذكياء باسناده عن المبرد قال حدثني أحمد بن المعدل البصري قال كنت جالساً عند

عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون فجاءه بعض جلسائه فقال اعجوبة قال ماهي قال خرجت الى حائطي بالغابة فلما ان اصحرت و بعدت عن البيوت بيوت المدينة تعرض لي رجل فقال اخلع ثيابك فقلت وما يدعوني الى خلع ثيابي قال انا أولى بها منك قلت ومن اين قال لاني اخوك وانا عريان وانت مكس قلت فالمواساة قال كلا قد لبستها برهة وانا اريد ان ألبسها كما لبستها قلت فتعريني وتبدي عورتي قال لا بأس بذلك قد روينا عن مالك انه قال لا بأس للرجل ان يغتسل عرياناً قلت فيلقاني الناس فيرون عورتي قال لو كان الناس يرونك في هذا الطريق ما عرضت لك فيها فقلت اراك ظريفاً فدعني حتى امضي الى حائطي وانزع هذه الثياب فاوجه بها اليك قال كلا اردت ان توجه الى اربعة من عبيدك فيحملوني الى السلطان فيحبسني ويمزق جلدي ويطرح فى رجلي القيد قلت كلا احلف لك ايماناً اني أوفى لك بما وعدتك ولا اسوءك قال كلا انا روينا عن مالك انه قال لا تلزم الايمان التي يحلف بها اللصوص قلت فاحلف اني لأحتال في ايماني هذه قال هذه ايمان مركبة على ايمان اللصوص قلت فدع المناظرة بيننا فوالله لأوجهن اليك هذه الثياب طيبة بها نفسي فاطرق ثم رفع راسه وقال تدري فيم فكرت قلت لا قال تصفحت امر اللصوص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وقتنا هذا فلم اجد لصاً اخذ نسيئة واكره ان ابتدع فى الاسلام بدعة يكون علي وزرها ووزر من عمل بها بعدي الى يوم القيامة فاخلع ثيابك قال فخلعتها ودفعتها اليه فاخذها وانصرف (الميزان السابع) رجحان الباقي على الفاني والدائم على المضمحل شعر

ولقد اقول لحاجب نصحاً له ✽ خل العروض وبع لنا أرضاً
اني رأيت الارض يبقى نفعها ✽ والمال يأكل بعضه بعضاً

قيل مرّ سليمان بن داود عليه السلام في مركبة على راعي غنم فقال قد أوتي سليمان بن داود ملكاً عظيماً فالقت الريح تلك الكلمة في اذن سليمان فنزل عن كرسيه وجاء الى الراعي وقال له أيها الراعي ان تسبيحة واحدة في صحيفة عبد أفضل عند الله من ملك سليمان لان ملكه يبقى وتسبيحة تبقى لصاحبها ينتفع بها في يوم القيامة والله أعلم . قال بعض الحكماء صلاح أسقام النفس أفضل من صلاح أسقام البدن لفضل النفس على البدن لانه آلة للنفس والنفس باقية والبدن فان مضمحل ومصلحة الباقي والعناية به وتعديله أفضل من اصلاح الفاني ومع ذلك فان صلاح أنفسنا أسهل وأخف من مؤنة اصلاح أبداننا . وقال الفخر الرازي ان حسن السيرة أفضل من حسن الصورة . ومعلوم ان حسن الصورة لا يبقى الا أياماً قلائل . وأما حسن السيرة فانه لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته . من كلام بعض الأعلام الويل لمن افسد آخرته بصلاح دنياه ففارق ما عمر غير راجع اليه وقدم على ما خرب غير منتقل عنه . قال الشعبي سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه اليه أحد سمعته يقول أما بعد فان الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ولا فناء لما كتب عليه البقاء فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل . وقال ابن عباس لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى لأخترنا ما يبقى على ما يفنى فكيف وقد اخترنا ما يفنى على ما يبقى . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام أيها الناس انما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقركم وقال عليه السلام الغنى والفقر بعد العرض على الله . أي لا يعد الغني غني في الحقيقة الا من حصل له ثواب الآخرة الذي لا ينقطع أبداً ولا يعد الفقير فقيراً الا من يحصل له ذلك فانه لا يزال شقياً معذباً وذلك

هو الفقر في الحقيقة فاما غنى الدنيا وفقرها فامران عرضيان زوالهما سريع وانقضاؤهما وشيك والذي يستحق اسم السعادة على الحقيقة سعادة الاخرى وهي أربعة أنواع بقاء بلا فناء وعلم بلا جهل وقدرة بلا عجز وغنى بلا فقر قال الشاعر

ليس السعيد الذي دنياه تسعده * بل السعيد الذي ينجو من النار

وقال عليه السلام الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور. الحرفة بالكسر نقصان الحض وهو عدم المال. يقول عليه السلام لان يكون المرء هكذا وهو غفيف الفرج واليد خير من الغنى مع الفجور. وذلك لان ألم الحرفة مع العفة ومشقتها انما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر ولذة الغنى اذا كان مع الفجور ففي مثل تلك الايام يكون ولكن يستعقب عذاباً طويلاً فالحال خير لا محالة وأيضاً ففي الدنيا خير أيضاً من ذكر الجميل منها والذكر القبيح في الثانية والمحافظة على المروّة في الاولى وسقوط المروّة في الثانية وقال عليه السلام شتان ما بين عملين عمل تذهب لذته وتبقى تبعته وعمل تذهب مؤنته ويبقى أجره اخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

تبقى عواقب سوء في مغبتها * لا خير في لذة من بعدها النار

ومن كلامه أن تتعب في البر فان التعب يزول والبر يبقى ومن كلامه عليه السلام عجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء

﴿ القسم الثاني ﴾ من أقسام الموازين فيما يتعلق بتعارض مصلحة ومفسدة والترديد بين جلب نفع ودفع ضر وهما ميزانان. (الميزان الاول) رجحان دفع المفسدة على جلب المنفعة قال انقراط الاقلال من الضار خير من الاكثار من النافع واوصى عبد الملك بن صالح اميراً قدمه على سريه ارسلها الى قتال عدوّ

له فقال كن كالتاجر الكيس ان وجد ربحاً اتجر والاحفظ راس ماله ولاتطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة وقال شبيب ابن شيبة ان ابتليت بمقام لابدّ لك فيه من الاطالة فقدم احكام البلوغ في طلب السلامة من الخنظل قبل التقدم من احكام البلوغ في شرف التجويد ثم اياك ن تعدل بالسلامة شيئاً فقليل كاف خير من كثير غير شاف وينبغي ان يؤخر القتال ماوجد بداً فان النفقة عليه من الانفس وعلى غيره من المال . (الميزان الثاني) رجحان رفع المفسدة وازالتها على جلب المنفعة والفرق بينه وبين الميزان الاول ان الاول دفع والدفع قبل الوقوع وهذا رفع وهو بعد الوقوع وكلاهما راجح على جلب المنفعة سئل رجل عالماً اسبح الله ام استغفره فقال ان الثوب الوسخ احوج للصابون من البخور واذا تعارض الرفع والرفع رجح الدفع ان تساويا والا فالاعظم من المفسدتين أهم قال بعضهم

لايعجبنك من يصون ثيابه * خوف الغبار وعرضه مبذول
فلربما افتقر الفتى فرأيته * دنس الثياب وعرضه مغسول

واما رجحان الرفع على النفع فطلقاً من غير تقييد اذ لا مصلحة مع وجود مفسده قال بوزرجمهر لا ينبغي للملك أن يكون في حفظ مملكته أقل من البستانى في حفظ بستانه فانه اذا زرع الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قطع الحشيش لئلا يضبط اماكن الريحان وقال يحيى ابن معاذ انكسار العاصين افضل عندنا من صولة المصلين . من كتاب الدر المنثور من المأثور وغير المأثور للشيخ علي ابن محمد ابن زين الدين العاملي الشهيد الثاني ورد شرٌ لايدوم خيرٌ من خير لايدوم أقول يمكن وجهه ان يقال ان الانسان بمقتضى طبعه وشهواته ان يميل الى فعل ما فيه شرّ وينفر عما فيه خير ومنه حفت الجنة بالمكاره والنار

بالشهوات فاذا فعل الشر وداوم عليه صارت المداومة مؤكدة لما هو مقتضى الطبع ومقتضيه للبناء عليه فاذا لم يداوم عليه يكون قد جاهد نفسه على ترك ما هو مقتضى طبعها فاذا فعل الخير يكون قد جاهد لنفسه على خلاف ماهو مقتضى الطبع والعادة واذا داوم عليه تأكدت المجاهدة فاذا قطعه يكون قد ترك ما اتعب نفسه في أصله وليس في الترك سوى الرجوع الى مقتضى الطبع وبه يضعف اعتبار العادة فترك دوام الشر اقوى من ترك دوام الخير فيكون خيراً منه بهذا الاعتبار

﴿ القسم الثالث ﴾ من اقسام الموازين في تعارض الضررين والاضطراد الى ارتكاب احد قبيحين وهو ميزانان أيضاً . الميزان الاول رجحان ارتكاب اقل القبيحين واهون الضررين وهذا في مقابلة الموازين السبعة المتعلقة في تعارض المنفعتين والتردد بينهما وترجيح الانفع او الاحوج او الاسهل او الاقرب الى آخرها وقد طوينا افراد المضار المتعارضة في هذا الميزان ماعدا اقل الضررين مدة وانقطاعاً فانه أفردناه في مقابل رجحان الابقى . فاما الاول فكما يجب عقلا في تعارض المنافع تحرى الانفع والاكثر والابقى فهنا بالضد اذ يجب عند الاضطرار ارتكاب الاقل والاهون سئل بعض الاذكياء عن العقل فقال هو العلم بخير الخيرين وشرّ الشرين فالعاقل من عرف خير الشرين وألف بين الضدين وجمع بين المتباينين كما فى قصة سليمان ابن داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون ان دخلا رجلين على داود عليه السلام احدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال أحدهما ان هذا دخلت غنمه بالليل الى حرثي فأهلكته واكلته ولم تبق لي فيه شيئاً فقال داود الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان

وكان عمره اذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير احدى عشرة سنه فقال لهما ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال غير هذا رفق بالفريقين فعادا الى داود عليه السلام وقالا له ما قال ولده سليمان عليه السلام فدعا داود عليه السلام وقال له ما هو الارفق بين الفريقين فقال سليمان عليه السلام تسلم الغنم الى صاحب الحرث وكان الحرث كرما قد تدلدلت عناقيده في قول اكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الاغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ويسلم الكرم الى صاحب الاغنام ليقوم به فاذا عاد الكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخل الغنم اليه سلم صاحب الكرم الغنم الى صاحبها وتسلم كرمه كما هو بعناقيده وصورته فقال له داود عليه السلام القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان ابن داود عليه السلام وفي هذه القصة نزل قوله تعالى (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ اذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ اذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) قال صاحب الاذكياء وبلغنا عن عقبة الازدي انه أتى بجارية قد جنت في الليلة التي أراد أهلها ان يدخلوها الى زوجها فعزم عليها فاذا هي قد سقطت فقال لاهلها خلوني بها فقال لها صدقيني عن نفسك وعن خلاصك فقال انه قد كان لي صديق وانا في بيت أهلي وانهم أرادوا ان يدخلوا بي على زوجي ولست ببكر فخفت الفضيحة فهل عندك حيله في أمري فقال نعم ثم خرج الى اهلها فقال ان الجني قد اجابني الى الخروج منها فاختاروا من أي عضو تحبون ان أخرجه من اعضائها واعلموا ان الموضع الذي يخرج الجني منه لابد ان يهلك ويفسد فان خرج من عينها عميت وان خرج من اذنها صمت وان خرج من فمها خرست وان خرج من يدها شلت وان خرج من رجلها عرجت وان خرج من فرجها ذهبت عذرتها فقال اهلها ما نجد شيئا اهون من ذهاب

عذرتها فاخرج الشيطان من فرجها فأوهمهم انه قد فعل وادخلت المرأة على زوجها ومن هذا الباب قول بعض الاذكياء

رضيت ببعض الذل خوف جميعه * كذلك بعض الشر اهون من بعض

ومن ارتكاب اقل الضررين قال بعض الثقات حدثني رجل له قدر قال ارسل الي السلطان ان طلق امرأتك وكان قد ارادها لبعض اصحابه فأبيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلاً فانه لا حيلة لك فان السلطان لا يخاف عاراً ولا في الآخرة ناراً ففارقتها . وذكر ابن الأثير وغيره ان أبا جعفر المنصور لما حاصر ابن هبيرة قال ان بن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء فبلغ ذلك ابن هبيرة فارسل اليه أنت القائل كذا وكذا فابرز اليّ لترى فارسل اليه المنصور ما أجد لي ولك مثلاً في ذلك الا كأسد لقي خنزيراً فقال له الخنزير بارزني فقال له الأسد ما أنت لي بكفؤ فان نالني منك سوء كان عاراً عليّ وان قتلتك قتلت خنزيراً فلم أحصل على حمد ولا في قتلي لك فخر فقال له الخنزير ان لم تبارزني لاعرّفن السباع انك جبنت عني فقال الاسد احتمال عار كذبك ايسر من تلطخ راحتي بدمك . وقيل انهزم خسرويز من بهرام جوبين وقال هربت وان كان الهرب عيباً لاخلص بهربي ارواح جماعة من اصحابي لانني ان هلكت هلك بسببي ألوف من الخلائق ومن امثال العرب فرّا خزاه الله خير من قتل رحمه الله . ومن امثالهم سوء الاستمساك خير من حسن الصرعة . وقال بعض الفرس لان أدعى جباناً وأنجو خير من ان ادعى شجاعاً واقتل . وقال بعض المعمرين يا بني ان الحيات خير من الموت فلا تموتن وانت تستطيع ان لاتحمل نفسك على الهلكات . حكي ان الخليفة المنصور ظهر عليه في بعض الغزوات علج فقال من برز لهذا وكفاني

مؤنته اعطيته عشرة آلاف فطمع في ذلك ابو دلامه فبرز اليـه فلما رأى منه ما لا طاقة له به وهمه وهرب فقيل هرب ابو دلامه من خصمه فبلغ الخليفة خبره فقال هرب قاتله الله فقال ابو دلامه قاتله الله احسن عنـدي من مات رحمه الله . وقيل لأسلم بن زراعة ان انهزمت من اصحاب مرداس بن اذنبه يغضب عليك الامير عبيدالله بن زياد قال يغضب وانا حي احب الي من ان يرضى عني وانا ميت . وقيل انه انهزم رجل في حرب فشتمه اميره وقبح اليـه فعله فقال لان تشتمني اصلحك الله وانا حي خير من ان تترحم عليّ وانا ميت وهي ابلغ ما قيل فى تحسين الفرار . ومن ارتكاب اقل القبيحين ما حكى انه ادعى رجل فى ايام المأمون انه ابراهيم خليل الله فقال له المأمون ان معجزة الخليـل الالقاء في النار فنحن نلقيك فى النار لنرى حالك قال اريد واحدة اخف من هذه قال برهان موسى وهو انه القى العصاه فصارت ثعباناً فقال هذه اصعب من الاولى قال فبرهان عيسى احياء الموتى قال مكانك قد وصلت انا اضرب رقبة القاضي يحي ابن اكثم وأحييه لكم فى الساعة فقال يحي أما انا فاول من آمن بك وصدق فضحك المأمون واعطاه جائزة . وادعى آخر النبوة في زمنه ايضاً فاحضره وامر ثمامه ان يسأله ما علامة نبوتك فسأله عنها فقال نبوتي ان اضاجع امرأتك بحضرتك فتلد ولداً يشهد لي وقت ولادته اني نبي فقال له اما انا فاشهد انك نبي فقال له المأمون ما اسرع ما آمنت به فقال ما اهون عليك ان يفعل بامرأتي وانا انظر اليـه فضحك المأمون وطرده . دعى رجل لسليمان الشاذكوني فقال ارانيك الله على قضاء اصبهان قال ويحك ان كان ولابد فعلى خراجها فان أخذ أموال الاغنياء أسهل من اخذ أموال الايتام . استأذن الجاحظ والسكاك وهو من المتكلمين على رئيس فقال الخادم لمولاه الجاهـد

والشكاك بالباب فقال المولى هذان من الزنادقة لا محالة فصاح الجاحظ ويحك قل الحدق بالباب وكان يعرف به فقال الخادم الحلقي بالباب فصاح الجاحظ ويحك ارجع الى الجاهد ارجع الى الجاحد فانه أهون من الخلقي . وأما رجحان ارتكاب أقل الضررين مدة فهو قباله رجحان أبقى المنفعتين . ومن أمثال العرب . عطشاً أخشى على جاني الكماة لاقرّا الكماة تكون آخر الربيع فاذا باكر جانيها وجد البرد فاذا حميت الشمس عطش والعطش أضر له من القرى الذي لا يدوم . وقيل ان هاروت وماروت لما قارفا الذنب هما بالصعود الى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا الى ادريس فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لانه ينقطع فهما ببابل يعذبان . قال أمير المؤمنين عليه السلام العجب ممن يخاف عقوبة السلطان وهي منقطعة ولا يخاف عقوبة الديان وهي دائمة . وورد في الحديث عنه عليه السلام انه قال عجبت ممن يحتمي عن الطعام مخافة المرض كيف لا يحتمي عن الذنوب مخافة النار فاخذه بعض الشعراء فقال

جسمك قد أفنيته بالحمى * دهراً من البارد والحار

وكان اولى بك ان تحتمي * من المعاصي حذر النار

واذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الابد أولى ان يجب عليه ذلك . وقال ابن صباوه انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى لان الاول غير دائم بخلاف الثاني (الميزان الثاني) رجحان فوات البعض على فوات الكل . ومن أمثال العرب . لا يسقط الميسور بالمعسور . ونظيره من القرآن فان لم يصبها وابل فطل .

ومن لم يجد الحميم رعى الهشيم . ومن لم يحس صهيلاً نهق . ومن لم يجد ماء تيمم وان الأسد ليفترس العير فان أعياه صاد الارنب . ومن امثالهم . الجحش لما تدرك الاعيار أي اقتصر على صيد الجحش اذا لم تقدر على العير . والمعنى خذ القليل اذا فاتك الكثير وغاب فذهب فلم يلحق . ومثله قول العامة اذا لم يكن ماتريد فارد ما يكون . وقال بعضهم شعراً

ومولى رقدت النصح حتى يرده ❊ علي وحتى يعذر الراي عاذره

اذا كان لا يرضى برأيك صدره ❊ ولا انت ان لم يرضى رأيك قاصره

فصبر جميل ان في اليأس راحة ❊ اذ الغيث لم يمطر بلادك ماطره

ومنها قولهم خذ من الرضفة ما عليها الرضف الحجارة التي يوغر بها اللبن واحدتها رضفه وهي اذا القيت في اللبن لزق بها منه شيء . فيقال خذ ما عليها فان تركك اياه لا ينفع . يضرب في اغتنام الشيء من البخيل وان كان نزراً . ومنها ارض من المركب بالتعليق . أي ارض من عظيم الامور بصغيرها . يضرب في القناعة بادراك بعض الحاجة والمركب يجوز ان يكون بمعنى الركوب . اي ارض بدل ركوبك بتعليق امتعتك عليه . ومن أمثالهم المشهورة اذا فاتك اللحم فلا يفوتك المرق . قيل ان الهدهد قال لسليمان اني أريد ان تكون في ضيافتي فقال له سليمان أنا وحدي فقال لا بل أنت والعسكر في جزيرة كذا في يوم كذا فمضى سليمان وجنوده الى هناك وصعد الهدهد الى الجوّ وصاد جراده وكسرها ورمى بها في البحر وقال يا نبي الله كلوا من فاته اللحم لم تفته المرقة فضحك سليمان وجنوده واخذه بعض الشعراء

وكن قنوعاً فقد جرى مثل ❊ ان فاتك اللحم فاشرب المرقه

وحكي ان بعضهم رأى امرأة حسناء في طاقه فاحبها ولازم المقام ببابها والمرور

تحت الطاقه الى ان اعيى وقلّ صبره وحصل على اليأس منها فدق الباب عليها فخرجت الجارية اليه فدفع صحفه وقال دعي سيدتك تبل في هـذه الصحفه فبالت له فيها وقالت للجارية اتبعيه وانظرى ما يصنع بذلك فلم يزل الى ان دخل بعض الخرابات فوضع ايره في ذلك البول وقال ياميشوم اذا فاتك اللحم فاشرب المرقه فصار ذلك مثلا . ومن نوادر جحا انه رأى في النوم ان رجلا أعطاه تسعة دراهم فقال له سبحان الله في طبعك الخشونه كملهم عشرة فما رضي فتخانق معه خناقاً شـديداً حتى صحي من النوم فلم يرى في يده لا تسعة ولا عشرة فندم حيث لم يأخذ منـه التسعة وظن انه غدر به من اجل غضبه عليه فنام ثانياً وغمض عينيه ومد يده وقال هات هات ما يضر شئ خليهـم تسعة الفرق بيني وبينك معدوم . وفي الامثال زوج من عود خير من قعود . اصل المثل كان رجل من عدوان وله بنات أربعه وكان غيوراً وقد عضل بناته ومنعهنّ عن الزواج فاستمع عليهن يوماً وقد خلون يتحدثن فقالت قائلة منهن لتقل كل منا ما في نفسها ولنصـدق جميعاً فتمنت كبراهن زوجاً مثرياً وتمنت الثانية زوجاً كريماً رئيساً وتمنت الثالثة ابن عم لها وسكتت الصغرى فقلن لها ما تقولين قالت لا اقول شيئاً فقلن لاندعك وذاك انك قد اطلعت على اسرارنا وتـكتمين سرك فقالت زوج من عود خير من قعود . فخطبن بعـد ذلك فزوجهن وقال كسرى ليوسف المغني وقد قتل الفلهذ تلميذه كنت استريح منك اليه ومنه اليك فاذهب حسدك ونقل صـدرك شطر تمتعي وامر ان يطرح تحت ارجل الفيلة فقال ايها الملك اذا كنت أنا قد اذهبت شطر تمتعك واذهبت انت الشطر الآخر اليس جنايتك على نفسـك مثل جنايتي عليك قال كسرى دعوه فما دله على هـذا الكلام الا ما جعل له من طول المدة .

قال بعض الاذكياء

روّح النفس بالسلوا عليها * لاتكن جالب الهموم اليها
واذا مسك الزمان بضرٍ * لا تكن انت والزمان عليها

ومن هذا الباب قولهم اذا كنت مأكول الطعام فرحب . قال الصولي سمعت المبرد يقول كنا عند المازني فجائته اعرابيه كانت تغشاه يهب لها فقالت انعم الله صباحك ابا عثمان هل بالرمال او شال فقال لها يجيء الله بها فقالت شعر

تعلمن اني والذي حج القوم * لولا خيال طارق عند النوم
والشوق من ذكراك * ما جئت اليـــــوم

فقال المازني قاتلها الله ما افطنها جائتني مستمنحة فلما رأت لاشيء جعلت المجيء زيارة تمن علينا بها وقال بعضهم

اذا لم بك الخطب * فكن بالصبر لواذاً
والا فاتك الاجر * فلا هذا ولا هـذا

رأى بعض العلماء رجلاً يصلي ولا يركع فقال هذه ليست بصلاة فقال اني رجل عظيم البطن فاذا ركعت ضرطت فاختر صلوة بغير ركوع او ركوع بضراط قال بعضهم

مضى امسك الماضي شهيداً معدلاً * واعقبه يوم عليك شهيد
فان تك بالامس اجترمت اساءة * فبادر باحسانٍ وأنت حميد

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي . قال ارسطاطا ليس من لم يقدر على فعل الفضائل فليكن فضيلته ترك الرذائل . قال رجل لمورق العجلي اشكو اليك نفسى انها لا تريد الصلوة ولا تستطيع الصبر على القيام قال بئس الثناء اثنيت على نفسك

فاذا ضعفت عن الخير فاضعف عن الشر . قال الشاعر

احزن على انك لاتحزن * ولا تسيء ان كنت لاتحسن

واضعف عن الشر كما تدعى * ضعفاً عن الخير وقد يمكن

قال الله تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ) فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغي ان يأتي بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الخير ارفع من بعض . ومن أمثال العرب قولهم ادفع الشر عنك بعود او عمود قال بعضهم اذا اتاك سائلك فلا ترده الا بعطية قليلة او كثيرة تقطع بها عنك لسانه فلا يذمك وقال آخرون ادفع الشر بما تقدر عليه . ومن أمثالهم من حقر حرم . أي من حقر يسيراً ما يقدر عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق . وفي الحديث لا تردوا السائل ولو بظلف محرق فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره وامتنع عنه . وفعل قليل الخير افضل من تركه . فقد روى عن النبي انه قال لا يمنعكم من المعروف صغيره وقال عبد الله ابن جعفر لا تستحي من القليل فان المنع اقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه . قال بعضهم

اذا تكرهت ان تعطي القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال ولم تمنعك قلته * فكل ما سد فقراً فهو محمود

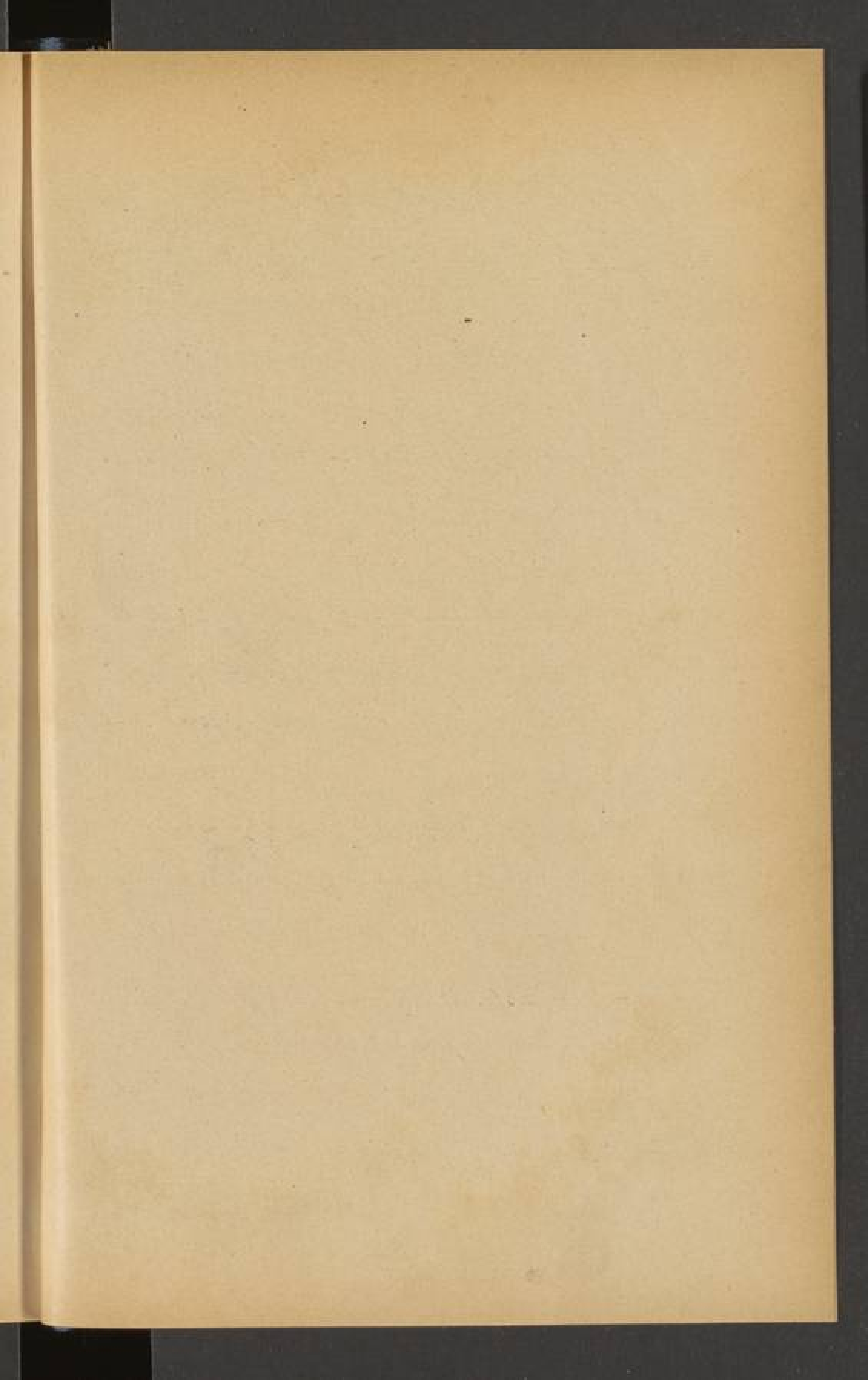
وقال امير المؤمنين لا تستحي من اعطاء القليل فان الحرمان اقل منه وقال عليه السلام افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فان صغيره كبير وقليله كثير ولا يقولن احدكم ان احد اولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك القليل من الخير خير من عدم الخير اصلا قال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخير * اذا كنت تاركا لاقله

حكى ان رجلا كان بسمرقند فمرض فنذر ان شفاه الله ليتصدق بجميع عمله يوم الجمعه عن والديه فعاش زماناً طويلاً يفعل في يوم طاف جميع النهار فلم يحصل له شيء يتصدق به فاستفتى بعض العلماء فقالوا اخرج واطلب قشر البطيخ واغسله بالماء واخرج به على طريق الرساتيق واطرحه بين حميرهم واجعل ثوابه لوالديك فتخرج من النذر ففعل ذلك فرأى ليلة السبت في المنام أبويه يعانقانه ويقولان له ياولدنا عملت معنا كل شيء من وجوه الخير حتى أطعمتنا البطيخ وكنا نشتهيه فرضى الله عنك . قال امير المؤمنين عليه السلام اتق الله بعض التقى وان قل واجعل بينك وبين الله سراً وان رق . قال في المثل ما لا يدرك كله لا يترك كله فالواجب على من عسرت عليه التقوى باجمعها ان يتقى في البعض وان يجعل بينه وبينه ستراً وان كان رقيقاً . وفي امثال العامة اجعل بينك وبين الله دوزنة والدوزنة لفظة صحيحة معربه اي لا تجعل ما بينك وبينه مسدوداً مظلما

قد وقع الفراغ من تصحيح الكتاب غرة ربيع الثاني رابع سنة ١٣١٨ الف بعد الثلثمائه والثامنه عشر من الهجرة النبويه على مهاجرها أفضل الصلاة والتحيه



فهرست

﴿ كتاب الرياض الحزعليه وبيان عنواناته بقول اجمالي ﴾

﴿ المورد الاول ﴾

في الطباع المركبة بالانسان اللازمة له اما بالاصل أو بالعادة
ويشتمل ذلك على مقدمة وثلاث رياض وخاتمة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

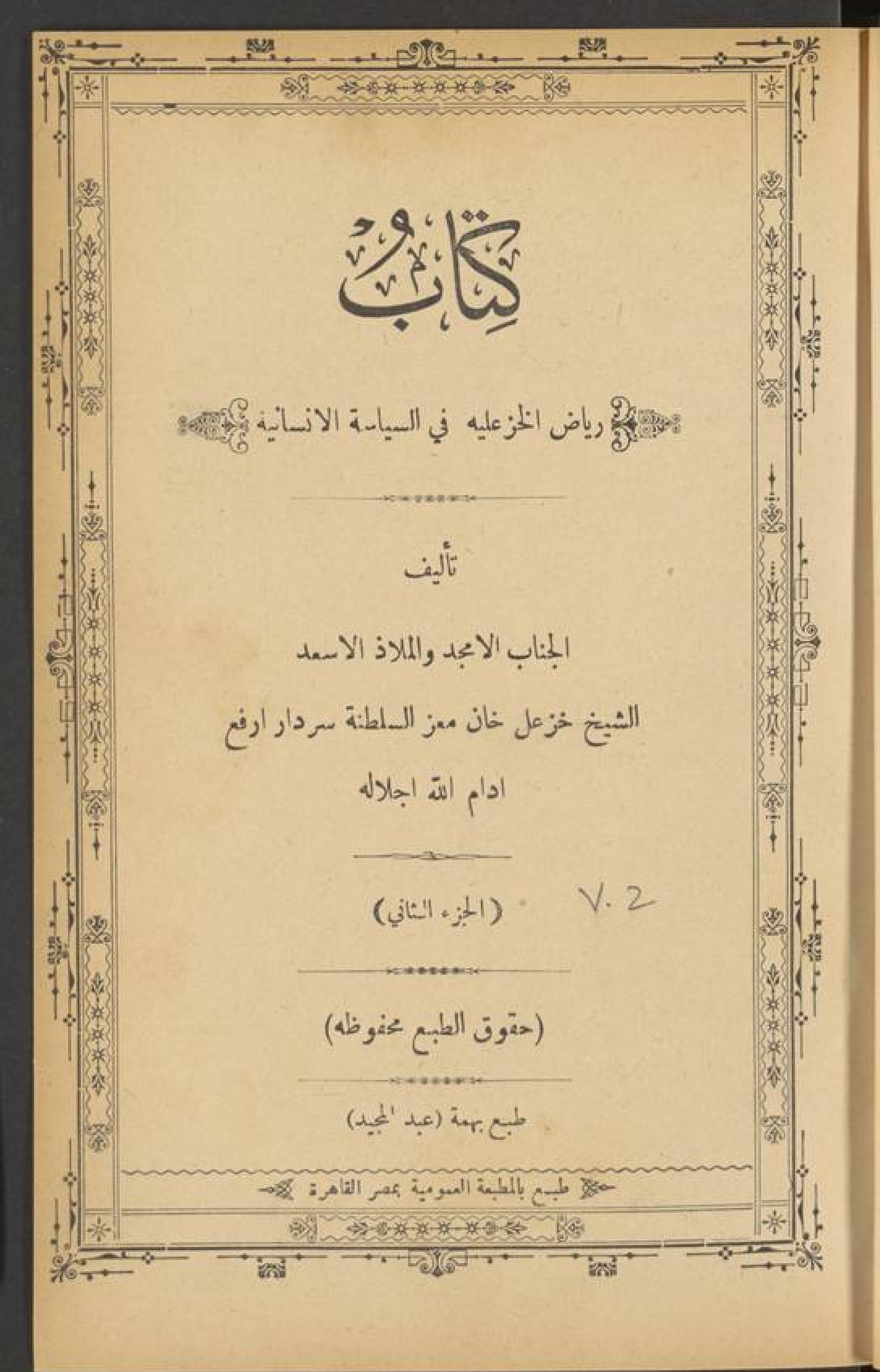
صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهذه أربعة عشر روضاً وجمعها رياض فلا ريب ان تسمى الرياض الخزعليه في السياسة الانسانيه وبالله المستعان وكان الابتداء به في اوائل محرم سنة ١٣١٨



كتاب

رياض الخزعليه في السياسة الانسانية

تأليف

الجناب الامجد والملاذ الاسعد

الشيخ خزعل خان معز السلطنة سردار ارفع

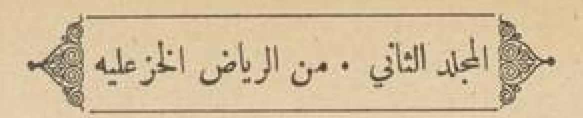
ادام الله اجلاله

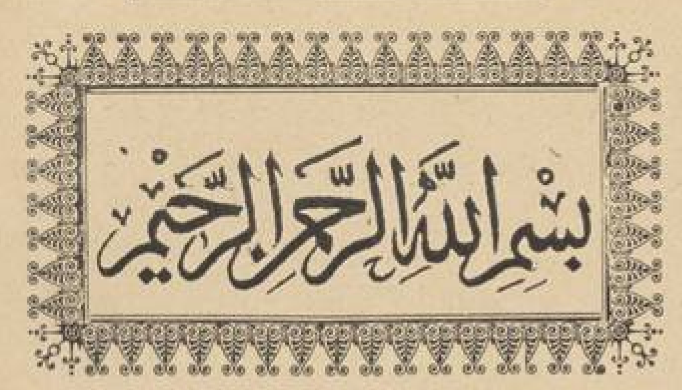
(الجزء الثاني)

V. 2

طبع بهمة (عبد المجيد)

طبع بالمطبعة العمومية بمصر القاهرة





المقام الثاني

في الحزم والاحتياط الذان هما طريقتي العقلاء وفي ضمنهما بيان ذم الغرور والعمل بالظن وينكشف الحال في بسط المقال في عدة رياض في الغرور والحزم والتجويزات والعمل على الظن والاحتياط ولنقدم الكلام في الغرور والحزم لينكشف فيهما حال العمل بالظن ثم نتبعه بذم العمل بالظن ليتحقق حسن الاحتياط في الأمور

(الروض الأول)

في الحزم وهو التجويز لخلاف الظاهر من الأحوال الواقعة وتجويز الخلاف في الأمور المتوقعة وما بينهما كتجويز أن يكون الشيء خلاف ما كان عليه في الآن السابق أو خلاف ما يكون عليه في الآن اللاحق ولنقدم الكلام في الاغترار بالظواهر والحزم عند الأمور الواقعة وهو تجويز الخلاف

لظاهرها ثم نبتدئ بالاغترار بالله الذي هو شأن العصاة من أهـل النعم المتتابعة ثم الاغترار بالنفس ثم الاغترار بالظواهر من أحوال الناس وهكذا على مامر مجملاً وتفصيله في فصول ثمانية

(الفصل الاول)

(في الأغترار بالظواهر)

﴿ مقدمة ﴾ عرّف الغرور بأنه ظهور أمر يتوهم به جهلا الأمان من المحذور هـذا تعريفه وعندي ان الغرور هو الركون الى أمر يجوز في في العقل انه في الواقع خلاف ما هو عليـه في الظاهر وماذكر من التعريف الأول محقق مورد الغرور ومحله لا نفسـه فتأمل وللاغترار جهات متعددة والذي نحن بصدده بيان جهات ثلثة الاغترار بالله وبالنفس وبأحوال الناس

﴿ الجهة الأولى ﴾

الاغترار بالله سبحانه قال أمير المؤمنين اذ ارأيت الله يتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدراج لك ومن كلامه الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر ومن كلامه يابن آدم اذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وانت تعصيه فاحذر قال بعض الشارحين هـذا كلام تخويف وتحذير من الاستدراج قال سبحانه وتعالى سنستدرجهم من حيث لايعلمون وذلك ان العبد بغروره يعتقد أن موالات النعم عليه وهو عاص من باب الرضا عنه وهو لايعلم انه استدراج له ونقمة عليه فان قلت كيف يصح القول بالاستدراج على أصولكم في العدل ليس معنى الاستدراج ايهام العبد انه سبحانه وتعالى

غير ساخط عليه في فعله ومعصيته فهل هذا الاستدراج الأَ مفسدة وسبب الى الاصرار على القبيح (قلت) اذا كان المكلف عالماً بقبح القبيح أو متمكناً من العلم بقبحه ثم رئ النعم تتوالى عليه وهو مصر على المعصية كان ترادف تلك النعم عليه كالمنبهة له على وجوب الحذر مثال ذلك من هو في خدمة ملك وهو عون على ذلك الملك في دولته ويعلم ان ذلك الملك قد عرف حاله ثم يرى نعم الملك مترادفه عليه فانه يجب بمقتضى الحزم ان يشتد حذره لأنه يقول ليست حالي مع الملك حال من يستحق هذه النعم وما هذه الأَ مكيدة وتحتها غائلة فيجب اذن عليه ان يحذر

﴿ فصل ﴾

كما يجوز من ترادف النعم مع المعاصي استدراج للعبد يجوز أيضاً من ترادف النقم مع الطاعات ايقاظ قال أمير المؤمنين اذا رأيت ربك يتابع عليك البلاء فقد أيقظك وربما ان تكون هناك للعبد مصلحة خفية لايعلم بها قال سبحانه وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون وكذلك في تأخير اجابة دعائه فقد قال عليه السلم أيضاً لايقنطك تأخير اجابة الدعاء فان العطية على قدر النية وربما تأخرت الاجابة ليكون ذلك أعظم الأجر السايل وأجزل العطاء النايل ومن هذا قول بعض العارفين لايكن تأخير العطاء مع الالحاح في الدعاء موجباً ليأسك فهو ضمن لك الاجابة فيما يختار لك لافيما تختار انت لنفسك وفي الوقت الذي يريده لافي الوقت الذي تريده فاذا عرفت ماحررنا فالحزم هو الكون بين الخوف والرجاء على ماسيأتي ايضاحه

﴿ الجهة الثانية ﴾

في الاغترار بالنفس وهي أشد الأمور الغارة

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدري ان السم في الدسم

وقل من يتنبه لغرور النفس فأن غرورها خفي وقدرأى بعض الحكماء رجلاً يحدث نفسه فقال من تحدث فقال لنفسي قال ولم قال أوصاني أبي أن الاحداث مع الاشرار قال له الحكيم ياهذا فأن الذي أنت تتحدث معه هو أشر الأشرار فاحذر مشورته وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين اني لا أخاف من الكره بل أخاف من نفسي على نفسي وقد مر في الحجب العقلية مافيه كفاية لبيان غرور النفس وسيأتي في السياسة النفسية انشاء الله تعالى بما لامزيد عليه فلا نطيل هنا والحزم كل الحزم تجويز الشر في كل ماتسول به النفس فقد قال سبحانه ان النفس لأمارة بالسوء وقد جعلنا هواها أحد الكواشف عن المصلحة والمفسدة فيما مر من الأمارات الكاشفة عن المصالح والمفاسد وقال عليه السلم أحمق الناس من ظن انه أعقل الناس وقال العالم من اتهم رأيه ولم يثق بكل ماتسول له نفسه ومن أخذ صاحب البردة معنى قوله فيها

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وان هما محضاك النصح فاتهم

﴿ الجهة الثالثة ﴾

(الاغترار بظواهر احوال الناس وأفعالهم)

﴿ مقدمة ﴾ قال أمير المؤمنين (أخبر تقله) المعنى اختبر الناس وجربهم تبغضهم فأن التجربة تكشف لك عن مساويهم وسوء اخلاقهم يضرب مثلا لمن يظن به الخير وليس هناك ومن هذا قول أبي العلاء المعري من قصيدة

جربت دهري واهليه فما تركت　　لي التجارب في ود امرء طمعا

وقول آخر

وكنت ارى ان التجارب عدة　　فخانت ثقات الناس حتى التجارب

وقول عبد الله بن معوية بن عبد الله بن جعفر

رأيت فضيلا كان شيئاً ملففاً　　فابرزه التمخيض حتى بداليا

آخر أيضاً

عتبت على سلم فلما فقدته　　وجربت اقواماً بكيت على سلم

ومثله

ذممتك اولاً حتى اذا ما　　بلوت سواك عاد الذم حمدا

ولم احمدك من خير ولكن　　وجدت سواك شراً منك جدا

فعدت اليك مضطراً ذليلا　　لاني لم أجد من ذاك بدا

كمجهود تحامى اكل ميت　　فلما اضطر عاد اليه شدا

والذي يتعلق به الغرض من الابيات هو البيت الاول وذكرناها كلها لحسنها ومن هذا الباب قول الشريف الرضى

اذا أنت فتشت القلوب وجدتها　　قلوب الاعادي في جسوم الاصادق

آخر

وما الناس الا الشوك عند اختبارهم　　على انهم في منظر العين كالزهر

وقال بعض الادباء

من حمد الناس ولم يبلهم　　ثم بلاهم ذم من يحمد

وصار بالوحدة مستأنساً　　يوحشه الاقرب والابعد

﴿ فصل ﴾ في الاغترار بالمنظر قبل المخبر وهو نوعان النوع الاول

الاستحقار والازدراء لمن ظاهر منظره منظر سوء هين والباطن بخلافه ولقد ابدع بعضهم بقوله

وكم من فتى شاخص عقله　　وقد تعجب العين من شخصة
وآخر تحسبه جاهلاً　　ويأتيك بالامر من قصة

قال أبو عبادة البحتري دخلت يوماً دار الفتح بن خاقان فوجدت الشعراء في دهليز داره وبينهم صبيٌّ صغير السن قصير القامة فقلت من انت يا غلام فقال شاعر فتبسمت عجباً منه ثم قلت ارجز ليت بين من احب وبيني (قال) من البعد ام من القرب قلت من القرب (فقال) مثل ما بين حاجبي وعيني (فقلت) فان اردناه من البعيد فقال مثل ما بين ملتقى الخافقين فاخذت بيده واوصلته الى الفتح بن خاقان واخبرته بما دار بيني وبينه فعجب منه واجازه وعلى هذا الباب قول أمير المؤمنين ألا تزدرينَّ أحداً حتى تستنطقه لا تستعظمنَّ أحداً حتى يستكشف معرفته من هذا الباب كثير وليس غرضنا ذلك فانه لا يقتضي حزماً وانما يقتضي ذلك الاغترار والأمن مما ينبغي الحذر فلنورد من ذلك انموذجاً فيه كفاية للحازم في امره فمنه ما ورد في امثال العرب قولهم كلا زعمت انه حضر يضرب مثلا للرجل يظن انه ضعيف فيوجد قوياً واصله ان رجلين اشرف لهما فارس في يوم شاتٍ فقال احدهما للآخر اتقه فقال الآخر انه حضير أي قد اصابه البرد فلا يقدر فشد الفارس فطعن فقال كلا زعمت انه حضر ومن ذلك ايضاً قولهم انها الابل بسلامتها واصل المثل على ما تزعم العرب ان الضبع أخذ فصيلا رازماً في دار قوم قد ارتحلوا وخلوه فجعلت تخليه للكلا وتأتيه فتفاره اياه حتى اذا امتلأ بطنه وسمن انه لتستاقه فركضها ركضة دقرفاها فعند ذلك قالت

الضبع انها الابل بسلامتها يضرب مثلا لمن تزدريه فيخلف ظنك

(النوع الثاني) الاستعظام لما هو لاشيء في الواقع وان عظم ظاهره وكثيراً مايغر المنظر الحسن قال العباس ابن الاحنف

ترى الرجل النحيف فتزدريه	وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه	فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير اطولها رقاباً	ولم تطل البزات ولا الصقور
خساس الطير اكثرها فراخا	وأم الباز مقلات نزور
ضعاف الاسد اكثرها زئيراً	واضرؤها اللواتي لا تزير
وقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصغير بغير أرض	وينزله على الخسف الجرير
ينوخ ثم يضرب بالهراوي	ولا عرف لديه ولا نكير
فما عظم الرجال لهم بزين	ولكن زينهم كرم وخير

ومن هذا الباب مازعمته العرب في امثالها ان الاسد رأى الحمار فرأى شدة حوافره وعظم اذنيه وعظم اسنانه وبطنه فهابه وقال ان هذه الدابة لمنكره وانه لخليق ان يغلبني فلو زرته ونظرت ماعنده فدنا منه فقال ياحمار ارايت حوافرك هذه المنكره لأي شيء هي قال للاكم فقال الاسد قد امنت حوافره فقال ارأيت اسنانك هذه لاي شيء هي قال للحنظل قال الاسد قد امنت اسنانه قال ارأيت اذنيك هاتين المنكرتين لاي شيء هما قال للذباب قال ارأيت بطنك هذا لاي شيء هو قال ظرط ذلك فعلم انه لا غناء عنده فافترسه يضرب هذا المثل لما يهول منظره ولا معنى ورائه ومنه قول المتنبي

أُعيذها نضرات منك صادقة	ان تحسب الشحم ممن شحمه ورم

ومن امثالهم بهذا المعنى

ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ما الدخل

قال المفضل أول من قال ذلك عثمة بنت مطرود البجيلية وكانت ذات عقل ورأى مستمع في قومها وكانت لها أخت يقال لها خود وكانت ذات جمال وميسم وعقل وان سبعة أخوة غلمه من بطن الأزد خطبوا خوداً الى أبيها فأتوه وعليهم الحلل اليمانية وتحتهم النجائب الفرهة فقالوا نحن بنو مالك بن غفيلة ذي النحين فقال لهم انزلوا على الماء فنزلوا ليلتهم ثم اصبحوا غادين في الحلل والهيئات ومعهم ربيبة لهم فمروا بوصيدها يتعرضون لها وكلهم جميل وسيم وخرج أبوها فجلسوا اليه فرحب بهم فقالوا بلغنا ان لك بنتاً ونحن كما ترى شباب وكلنا يمنع الجانب ويمنح الراغب فقال أبوها كلكم خيار فاقيموا نرى رأينا ثم دخل على ابنته فقال ماترين فقد أتاك هؤلاء القوم فقالت انكحني على قدري ولا تشطط في مهري فان تخطأني احلامهم لاتخطأني اجسامهم لعلي أصيب ولداً وأكثر عدداً فخرج أبوها فقال أخبروني عن أفضلكم قالت ربيبتهم وكانت كاهنة اسمع أخبرك عنهم هم أخوة وكلهم أسوة ثم وصفت كل واحد بصفة جميلة وبالغت في مدحهم بالشجاعة والسماحة وحماية الجانب كل ذلك وخود تسمع فشاورت أختها فيهم فقالت أختها عثمة

ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ما الدخل

اسمعي مني كلمة ان شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن انكحي في قومك ولا تغررك الاجسام فلم تقبل منها وبعثت الى أبيها انكحني مدركاً وكان اصغرهم فانكحها ابوها على مائة ناقة ورعائها وحملها مدرك فلم تلبث عنده الا قليلا حتى

صحبتهم فوارس من بني مالك بن كنانه فاقتتلوا ساعة ثم ان زوجها واخوته وبني عامر انكشفوا فسبوها فيمن سبوا فبينا هي تسير بكت فقالوا مايبكيك اعلى فراق زوجك قالت قبحه الله قالوا لقد كان جميلا قالت قبح الله جمالا لاينفع معه انما ابكى على عصياني اختي وقولها

ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ماالدخل

واخبرتهم كيف خطبوها فقال لها رجل منهم يكنى ابا نواس شاب اسود افوه مضطرب الخلق اترضين بي علي ان امنعك من ذئاب العرب فقالت لاصحابه اكذلك هو قالوا نعم انه مع ماترين ليمنع الحليلة وتتقيه القبيلة قالت هذا اجمل جمال واكمل كمال لقد رضيت به فزوجوها منه فاذا عرفت نوعي الغرور بالنظر فالحزم عدم الاعتبار به دون المخبر فقد قال امير المؤمنين في تقلب الاحوال علم جواهر الرجال ومعناه لاتعلم اخلاق الانسان الا بالتجربة واختلاف الاحوال عليه وقالوا التجربة محك الرجال وانشد بعض اهل العلم

لاتركنن الى ذي منظر حسن   فرب رايقة قد ساء مخبرها
ماكل اصفر دينار لصفرته   صفر العقارب ارداها وانكرها

وقيل من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس اثمر مورده ندماً قال الموسوى

لا تجعلن دليل المرء صورته   كم مخبر سمج من منظر حسن

ويقال مثل الانسان مثل البطيخة ظاهرها مونق وقد يكون في باطنها العيب والدود وقد يكون حامضاً وتفها ومن امثال العرب في النظم

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى   فما كل مصقول الحديد يمان

ومثله لبعضهم

لاتغرنك هذه الاوجه الغر فيارب حية في رياض

﴿فصل﴾

وفي معنى الاغترار بالصورة والهيئة الاغترار باللباس الجميل فقد روى عن الاصمعي قال رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج ومرج وعنده دخل وخرج فاردت ان اختبر عقله فسلمت عليه وقلت ماكنية مولانا وسيدنا فقال ابو عبدالله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين قال الاصمعي فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ومن هنا يقال كم من كنيف مبيض وجلد مفضض وفي معنى ذلك الاغترار بملابس أهل الصلاح فانها كثيراً ماتغر من يغتر بها واما الحازم فلا يركن اليها قيل

لايغرنك من المرء قميص رقعه او ازار فوق كعب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه ولدى الدرهم فانظر غيه او ورعه

ومنه يقال التجارة محك الرجال يمتحن بها دين الرجل وورعه قيل لبعض مشائخ العصر ياشيخ قد قبض البارحة على طلبة سارق فقال سارق لابس لباس طلبه ومن هذا الباب قيل ان العمامة كالاجمة تضم الاسد والخنزير والارنب والذئب والفهد والثعلب واذا كشفت رجع الغرور علماً والسفاهة حلماً

﴿فصل﴾

وكثير ما يغر الناس الاسم الحسن واللقب الصالح كفلان الشيخ وكالسيد فلان وفلان الحاج ولا طائل تحته والحازم لا يغتر بالاسم قال بعض النبلاء

وما انا بالمغتر باسمك انما تسميت كي تحتال في طلب الرزق

ومن الامثال لهذا الفصل مايقال ان اعرابياً صاد سنوراً ولم يكن يعرفه فلقيه رجل فقال ماهذا السنور ولقيه آخر فقال ماهذا القط ولقيه آخر فقال ماهذا الخيطل ثم لقيه آخر فقال ماهذا الهر ثم لقيه آخر فقال ماهذا الضيون ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيدع فقال الاعرابي في نفسه احمله وابيعه فسيجعل الله لي فيه مالا كثيراً فلما اتى السوق قيل له بكم تبيع هذا قال بمائتي درهم فقيل له انه يساوي نصف درهم فرمى به ثم قال ياللعجب ما اكثر اسمائه واقل ثمنه اقول ومن هذا الباب كثير وطالما ضاعت الامانات بسبب الاسماء

﴿ فصل ﴾

في الاغترار بالافعال توصل عبد الله بن الزبير الى امرأة عبد الله بن عمر وهي اخت المختار بن أبي عبيدة الثقفي في ان تكلم بعلها عبد الله بن عمر يبايعه فكلمته في ذلك وذكرت صلاته وقيامه وصيامه فقال لها اما رأيت البغلة الشهباء التي كنا نراها تحت معاوية بالحجر اذا قدم مكة قالت بلا قال فأياها يطلب بن الزبير بصومه وصلاته قال ابن الجوزي في الاذكياء حدثنا الاصمعي قال وفد بلال بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز ينظر اليه فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصاً بعمر ان يكن سر هذا كعلانيته فهو فعل اهل العراق غير مدافع عن فضل فقال له العلاء أنا آتيك بخبره فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال له اشفع صلاتك فان لي اليك حاجة فلما سلم من صلاته قال له العلاء أتعرف منزلتي وموضعي من الخليفة فاني ان اشرت عليه ان يوليك العراق ما تجعل لي قال عمالتي سنة وكان مبلغها عشرين ألف ومائة ألف قال فاكتب لي على ذلك خطاً فقام من وقته فكتب له خطاً بذلك فحمل ذلك الخط الى عمر بن عبد العزيز فلما

قرأه كتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والياً على الكوفة اما بعد فان بلالا غرنا بالله فكدنا نغتر به ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله قيل ان رجلا دخل مسجداً فرأى رجلا يصلي بخضوع وخشوع فاعجبه ذلك فقال له نعم المصلي فقال له وأنا مع ذلك صائم فان صلاة الصائم تضعف صلاة المفطر فقال الاعرابي تفضل واحفظ ناقتي هذه فأن لي حاجة حتى أقضيها وخرج لحاجته فركب المصلي ناقته وخرج فلما رجع الرجل لم ير الناقة ولا الرجل فطلبه فلم ير أحداً فأنشد الاعرابي حينئذ

صلى فاعجبني وصام فرابني ... نح القلوص عن المصلي الصائم

ونقل لي بعض الثقات عن الحاج محمد الجشي قال سافرت الى خراسان بصحبة بعض التجار لزيارة الرضاء فصحبنا في الطريق رجل من المعممين حسن الاخلاق يتسارع الى خدمتنا أخف من كل أحد من خدمنا وربما شارك الطباخ في الطبخ وصاحب القهوة في صناعتها ومع ذلك اذا حضر الطعام لا يأكل شيئاً واذا دعوناه للاكل معنا يقول انما أخدمكم لوجه الله تعالى ولمولاى الرضا وبعد ذلك لم يكن له شغل الا الصلاة والنوافل فزادت محبته في قلوبنا وزاد اعتقادنا ووثوقنا به لما نرى من عبادته وخشوعه فنزلنا في رباط في طريقنا وكنت أنا في حجرة والتاجر في حجرة وذلك الرجل مع التاجر بات في حجرة فبتنا تلك الليلة هناك فلما أصبح الصبح اذ التاجر يطرق على باب الحجرة فخرجت فوجدته يبكي فقال سرقت دراهمنا وأنا لا أبكي على الدراهم وانما أبكي لحال هذا المؤمن المسكين أصبح مدرجاً بدمه وقد خلفته يعالج سكرات الموت فمضيت أنا والحاج الى رئيس الرباط فأخبرناه فجاء ودخل الحانوت ونظر فيه يميناً وشمالا ثم دخل الحجرة ونظر

فيها والى المؤمن وهو مسجاً مدرجاً بالدم يتنفس الصعداء فنظر اليه ملياً ثم قال اعطوني هذا يوماً واحداً فقلنا له ذهاب الدراهم ولا ذاك فقال اعاهدكم اني لا اضر به ولا اسبه ولكم على دراهمكم فقلنا له شأنك به واوصيناه باكرامه فحمله الى بيته وأنزله في مطمورة فيها قبر محفور ثم امر ببعض من في السجن ان يضرب خمسمائة سوط وأمر ناجز فضرب كذلك واحضر ثالثاً فكواه بمكاو ثم التفت الى صاحبنا وقال أتدري ماجناية هؤلاء أما الاول فسارق خمسة دراهم وأما الثاني فسارق عباة خلقه وأما الثالث فقد اتهم بشرب الخمر وهذا عذابهم كما رأيت وأما أنت فلا تخرج من المطمورة وهذه المكاوي لك والقبر محفور لاجلك ولا يخلصك الا الاقرار فعند ذلك وقع عليه وقال عندي الدراهم وهي مدفونة في ذيل في الحانوت فاخرجناها وما أسفنا الا على عزورنا بالظواهر من الافعال وما أدري لمن هذا البيت

صلا وصام لأمر كان يطلبه	لما حوى الأمر لاصلا ولا صاما

قام جحي ليلا فسمع غاغة عظيمة وخناق وجدال تحت طاقته وكانت ليلة باردة فقام من النوم وأخذ لحافه على كتفه وخرج لينظر ما الخبر فلما فتح الباب خطفوا اللحاف وهربو فرجع وهو يرتعش من البرد فسألته زوجته ما الخبر فقال ان هذه الخناقة على شأن اللحاف فلما أخذوه سكنت وحكى عن الشعبي قال شهدت شريحاً وقد جائته امرأة تخاصم رجلا فارسلت عينيها بالبكاء فقلت ياأبا أمية ما أظن هذه البائسة الا مظلومة فقال ياشعبي ان اخوة يوسف جاؤا أباهم عشاء يبكون وقال بعضهم

ولربما كذب امرء بكلامه	وبصمته وبكائه وبضحكه

ولربما ضحك الكذوب تفكهاً وبكى من الشيء الذي لم يبكه

ولربما صمت الكذوب تخلقاً وشكى من الشيء الذي لم يشكه

وقال آخر

ورب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام

﴿ فصل ﴾

كما ان محاسن الافعال الظاهرة لاتدل على حقيقة الباطن كذلك سوء الافعال الظاهرة لاتدل على خبث السريرة وان قل ذلك اذ ربما يوجد انسان ظاهر أفعاله فاسده وسريرته مع الله صحيحة كما حكي الشيخ البهائي ان رجلا من المنهمكين في الفساد مات في نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته لتنفر الطباع منه فاستأجرت من حملها الى المصلي فما صلى عليها أحد فحملوها الى الصحراء للدفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد مشهور فرأوه كالمنتظر للجنازة فقصدها ليصلي عليها فانتشر الخبر في البلدان فلاناً الزاهد نزل يصلي على فلان فخرج اهل البلد فصلوا معه عليها وتعجب الناس من صلاة الزاهد فقيل له في ذلك فقال رأيت في المنام قائلا يقول انزل الى الموضع الفلاني ترى فيه جنازة ليس معها احد الا امرأة فصل عليها فانه مغفور له فاذ زاد تعجب الناس من ذلك فاستدعى الزاهد امرأة الميت وسألها عن حاله فقالت كان طول نهاره مشغولا بشرب الخمر فقال هل تعرفين له شيئاً من أعمال الخير فقالت ثلاثة كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح فيبدل ثيابه ويصلي الصبح الثاني انه كان لايخلو بيته من يتيم او يتيمين وكان احسانه اليهم اكثر من احسانه الى اولاده الثالث انه كان يفيق من سكره في أثناء الليل فيبكي ويقول يارب اي زواية من زوايا جهنم تريد ان تملأها بهذا

الخبيث . انتهى أقول هذا وان امكن وقوعه فهي غاية الندور اذ الغالب ان سوء الظواهر كاشف عن خبث السرائر واذا كانت حسن الافعال الظاهرة لاتطابق الحقايق الباطنة كما عرفت فيما تقدم فبالطريق الاولى ان سوء الظواهر امارة على الباطن غالباً وان لم يفد القطع والحزم الاحتياط والحذر كما سيأتي بيانه انشاء الله تعالى

﴿ فصل ﴾

(الاسان لايدل على مافي الضمير ولاتطابق الاقوال الافعال) انظر الى مواعظ الحجاج في خطبه وحسن اغراضه في كثير من اقواله حتى يتوهم السامع انه لم يبخس حظاً من البر ولا منع نصيباً من الخير وافعاله على ما كانت عليه قال بعض المحدثين سمعت الحجاج يقول في بعض خطبه ان امرأ ذهبت ساعة من عمره في غيرما خلق له لخليق ان تطول حسرته هذا وانت خبير بما فعل حتى انه لم تذهب ساعة من عمره الا فيما يسخط الله تعالى وبعكس ذلك ماحكي ان بعض الوعاظ كان على منبر يتكلم في المحبة وامور العشق واحواله ومن اطناب الاطناب في ذلك فقام اليه بعض الجماعة وقال

بعيشك هل ضممت اليك ليلى قبيل الفجر او قبلت فاها
وهل رفّت عليك قرون ليلى رفيف الاقحوانة فى نداها

فقال الواعظ لا والله ومن هذا قول بعضهم يحسبن من لين الكلام زوانيا البيت وقال ابراهيم بن المهدى

فقد تلين لبعض القول تبذله والوصل في جبل صعب مراقيه
كالخيزران منيع حين تكسره وقد يرى ليناً في كف لاويه

وقال بعض الملوك للشاعر انك قد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك

بما يوجب القتل وهو الزنا فقال الشاعر قد علم الله هذا قبلك اني أقول مالا افعل وانشد شعراً

نحن الذين اتى الكتاب مخبراً   بعفاف انفسنا وفسق الالسن

مشيراً الى قوله والشعراء يتبعهم الغاوون وأنهم يقولون مالا يفعلون وقال بعضهم

فليس اعتقاد المرء ماخط كفه   كما ان حاكي الكفر ليس بكافر

والمغرور من استرسل بمجرد اللسان واطمأن الى كل انسان يحكى عن المنصور الدوانيقي قال حججت سنة احدى واربعين ومائة وأنا خليفة ماشياً لنذر لزمني فانفردت عن الناس فاذا انا باعمى كنت اعرفه يتردد الى مروان ابن محمد فسلمت عليه واخذت بيده فقال من انت قلت رفيقك الى الشام وانت تريد مروان بن محمد فرد علي السلام وانشد

امت نساء بني أمية منهم   وبناهم بمضيمة ايتام

نامت جدودهم واسقط نجمهم   والنجم يسقط والجدود نيام

خلت المنابر والاسرة منهم   فعليهم حتى الممات سلام

فقلت له والغضب مستول عليّ والرفق به مشيراً اليّ كم كان مروان اعطاك قال اغناني حتى لا أسأل أحداً بعده ملكني الغلمان والجواري والمال والعقار قلت وأين ذاك قال بالبصرة قال المنصور فلولا ان حق الصحبة منعني منه كنت هممت به وشفيت نفسي منه فقلت له افتعرفني قال ما أثبتك معرفة ولا أنكرك من سوء قلت أنا المنصور فاسقط في يده ووقعت عليه الرعدة ثم قال يا أمير المؤمنين اقلني فقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها فاقلته وانصرفت فاذا عرفت هذا فالحازم لايغتر بعذوبة لسان أو نورقية

بيان قال أمير المؤمنين عليه السلام لا ترضين قول أحد حتى ترضى عن فعله ولا ترضى فعله حتى ترضى عقله ولا ترضى عقله حتى ترضى حياه فان الانسان مطبوع على كرم ولؤم فان قوي الحياء عنده قوى الكرم وان ضعف الحياء قوي اللؤم ومنه أخذ اسحق بن ابراهيم الموصلي قوله

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى تصدق مايقول فعال

وقال آخر

وأكثر من تلقى يسرك قوله ولكن قليل من يسرك فعله
وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي فادبني هذا الزمان وأهله

جرب الانسان واختبره من فعله لا من كلامه فكثير من الناس يستحسن كلامهم وأفعالهم قبيحة والعاقل الكافي من الرجال لا ينثنى بزخرف المقال

﴿ فصل ﴾

حقيقة الشيء أثره لا غيره من الظواهر فيما اذا كان الواقع وغيره ظاهران فلا يلتفت الى الظواهر مع وجود آثار الواقع كما لا يطلب أثراً بعد عين قال بعض الصالحين انما مثلنا كمثل الصياد الاعمش الذي كان يصطاد الطير في أيام الشتاء فكان كلما اصطاد صيداً كسر جناحه وغمسه في الماء وعيناه تسيلان من البرد فقال الطير بعضهن لبعض انما تبكي عيناه من رحمتنا فقال بعضهن لا تنظروا الى ماتصنع عينيه انظروا الى ما تصنع يديه وكان الواثق بالله قد أمر ان لا يرى أحد من الناس محمداً بن عبد الملك الزيات الوزير الا قام له فكان ابن أبي داوود اذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي فقال ابن الزيات

صلى الضحى لما استفاد عداوتي وأراك تنسك بعدها وتصوم
لاتعدمن عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم

فصل

اذا عرفت ما أوردناه في هذه الفصول ان الظواهر لا تكشف السرائر والآثار لا تدل على الواقعيات والاقوال لاتطابق الافعال ومقتضى ذلك تجويز خلاف الظاهر وحينئذ فالجائز أما ان يكون مساوياً للظاهر فيكون شكاً أو أقل فيكون ظناً وكلاهما مقتضى الحزم بطلانهما وحينئذ فهل الأولى سوء الظن أو حسن الظن بالناس أقول ذهب الناس في ذلك مذاهب ثلاثة حسن الظن وسوء الظن والتوقف ان أمكن تحصيل الاختبار والعلم بالحقائق والا فالاحتياط بالتغافل ظاهراً والتيقظ باطناً ولا ينكشف حقيقة الحق منها الا بعد تفصيلها وذكر ما استند أهل كل مذهب اليه (المذهب الاول) حسن الظن بكل من ظاهره الاسلام وهو المعبر عنه باصالة الصحة في فعل الغير عند الشك في حاله ويستدل عليها بآيات من الكتاب المبين واخبار عن الائمة المعصومين أما الآيات فمنها قوله وقولوا للناس حسناً بناء على تفسيره بما عن الكافي من قوله عليه السلام لا تقولوا الا خيراً حتى تعلموا ماهو ولعل مبناها على ارادة الظن والاعتقاد من القول ومنها قوله تعالى اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم بناء على ان مطلق ظن السوء اثم والا لم يكن شيء من الظن اثماً وأما الاخبار فمنها مافي الكافي عن أمير المؤمنين ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك مايقلبك عنه ولا تظنن بكلمة خرجت من اخيك سوء وانت تجد لها في الخير سبيلا ومنها قول الصادق لمحمد بن الفضل يا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك فان شهد

عندك خمسون قسامة انه قال وقال لم اقل فصدقه وكذبهم هذا ولكن عدم الانصاف عدم دلالة الايات والاخبار على المطلوب اما الآية الاولى فليس فيها دلالة الاعلى ارادة المعاملة على حسن الظواهر لا ارادة الاعتقاد الباطني واما الثانية فالظاهر منها ان سوء الظن اثم في خصوص بعض موارد سوء الظن كالظن السوء فيمن ظاهره الصلاح لا كل احد واما المرسل عن امير المؤمنين فهو مخصوص بسوء الظن بالاخ المختبر حاله بالصحبة وذلك بقرينة لفظة اخيك لاحسن الظن بكل احد والمراد يحمل كلامه وما يصدر عنه على الوجه الحسن عنده في اعتقاده اي الاخ ولا يحمل على الوجه القبيح عنده وفي معتقده لامطلق الوجه الحسن ومثله ايضاً في المعنى قول الصادق وليس فيه ايضاً دلالة الاعلى ارادة المعاملة على حسن الظواهر لا ارادة الاعتقاد الباطني وحسن الظن بافعاله وترتيب آثار الصحة الا ترى انه لو اخبرك عدل عن آخر بما يوجب سوء الظن فيه وحملنا الاخبار على ارادة الآثار فانه يلزم من تصديقه سوء الظن بالآخر ايضاً ومن تكذيبه سوء الظن فيه فلامناص عن سوء الظن باحدهما قال بعض العلماء ومما يؤيد ماذكر جمع الامام في رواية محمد بن الفضل بين تكذيب الخمسين قسامه اي البينة العادلة وتصديق الاخ المؤمن فانه مما لايمكن الا بحمل تصديق المؤمن على الحكم بمطابقة الواقع المستلزم لتكذيب القسامة مع الحكم بصدقهم في اعتقادهم لانهم اولى بحسن الظن بهم من المؤمن الواحد فالمراد من تكذيب السمع والبصر تكذيبهما فيما يفهمان من ظواهر بعض الافعال من القبح كما اذا رأى شخصاً ظاهره الصلاح يشرب الخمر في مجلس يظن انه مجلس الشرب انتهى. وعلى اي حال فليس المراد من الآيات والاخبار الا ارادة حسن المعاملة مع الناس بحسن ظواهرهم والتعامي عن سوء افعالهم لا ارادة حسن الظن والاعتقاد

الباطني هذا ولعل المراد من قول الامام فان شهد عندك خمسون قسامه بانه قال وقال لم أقل فصدقه وكذبهم من ان النميمة معصية كبيرة مخرجة للعدل عن ساحة العدالة فلا يلزم حينئذ محذور من تكذيبهم على ماعرفت وهذا من قبيل ما حكي انه غضب رجل على رجل فقال له ما اغضبك قال شيء نقله الي الثقة عنك فقال لو كان ثقة مانم اوقال ان الثقة لا ينم ومثل ذلك مانقل عن ابي العيناء انه قال له بعض العلوية تبغضني ولا تصح صلاتك الا بالصلوة علي اذا قلت اللهم صل على محمد وآل محمد فقال ابو العيناء اذا قلت الطيبين الطاهرين خرجت منهم ومثل ذلك مانقله القطب الراوندي ان قدامة بن مظعون شرب خمراً فاراد عمران يحده فقال انه لا يجب علي الحد لقوله تعالى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الايه فدرأعنه الحد فبلغ ذلك امير المؤمنين عليه السلام فقال اليس قدامه من اهل هذه الاية ولا من سلك سبيله في ارتكاب ماحرم الله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يستحلون حراماً فاردد قدامه واستتبه فان تاب فاقم الحد عليه وان لم يتب فاقتله فقد خرج من الملة فعرف قدامه الخبر فاظهر التوبة فحده عمر ثمانين

(المذهب الثاني)

سوء الظن وهو المعبر عنه باصالة الفساد في افعال الغير لتجويز السوء من كثير من الناس وان ترشح ظاهرهم بالصلاح فكثيرما يجتمع الفسق الباطن مع حسن الظاهر والحزم يبعث على اتقان الامر ومن لم ينظر العواقب فليس الدهر له بصاحب وقال بعضهم

لايكن ظنك الا سيئاً ان سوء الظن من حسن الفطن

واستدلوا بما يعزي لامير المؤمنين ما احسن حسن الظن الا ان فيه

العجز وما اقبح سوء الظن الا ان فيه الحزم ومنه قول بعض الحكماء حسن الظن حسن الا ان معه الندم وسوء الظن قبيح الا ان معه الحزم وفي مثل ذلك يقول بعض الادباء

وحسن الظن يحسن في أمور　　ولكن في عواقبه الندامة
وسوء الظن يسمج في وجوه　　وفيه مع سماجته السلامة

ويعزى اليه عليه السلام ايضاً. عليك بسوء الظن فان اصاب فالحزم والا فالسلامة وقال بعضهم كن ملازماً للاعتصام بالحذر متمسكا بالتحفظ وذلك بسوء الظن من الناس بجواز الضرر منهم فان سوء الظن من اعلا الفطن وانك ترى الكثير من الناس من اهلكه حسن ظنه بهم فوقع في بلاء لا خلاص له منه ولا يقعدك حسن الظن بهم

﴿ قال الصفدي في شرح لامية العجم قد قيل ﴾

من احسن الظن باعدائه　　تجرع الهمّ بلا كاس

ولو كنت ناظم هذا البيت لقلت من احسن الظن باحبابه ولا اقول باعدائه ولله در القائل بهذا المعنى

جزى الله خيراً كل من ليس بيننا　　ولا بينه ودٌّ ولا متعرف
فما نالني ضيم ولا مسني أذى　　من الناس الا من فتى كنت اعرف

وقال آخر

لا تثق من أدميّ　　بوداد في صفاء
كيف ترجو منه صفواً　　وهو من طين وماء

وقال البحتري

اياك تغتر أو تخدعك بارقة　　من ذي خداع يرى بشرا والطافا

فلو قلبت جميع الارض قاطبة   وسرت في الارض اوساطاً واطرافا
لم تلق فيها صديقاً صادقاً ابداً   ولا اخاً يبذل الانصاف انصافا

وقال الصفدي

ولا يغرك من تبدو بشاشته   منه اليك فان السم في العسل

تنبيه ومقتضى سوء الظن عدم الوثوق بكل احد قالوا الانسان لا يختال به ما لم تكن به واحدة من اثنين احدهما سرعة الاعتماد والاخرى عدم الاحتياط للامور

وقالوا من علامات الجاهل الثقة بكل انسان

وانما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول في الدنيا على رجل

ومن وصية لقمان لابنه . يا بني المغرور من وثق بثلاثة اشياء الذي يصدق مالا يراه ويركن الى من لا يثق به ويطمع فيما لا يناله وقيل لبعض الملوك مابلغ من عقلك قال ماوثقت باحد قط ونعم الحزم سوء الظن ووجد في عضد شمس المعالي قابوس بن وشكمير رقعة بخطه مكتوب فيها كلمات منها ان كان الغدر طباعاً فالثقة بكل احد عجز

(المذهب الثالث التفضيل)

(بين مايمكن فيه تحصيل العلم وبين مالا يمكن) ففي الاول التوقف والتثبت وفي الثاني الاحتياط بالتغافل ظاهراً والتيقظ باطناً وميزان سوء الظن كما وكيفاً فهذه ثلاث حالات الحالة الاولى التثبت والتوقف عن حسن الظن وعن سوء خبث يمكن الاختبار والكشف ويدل عليه قول أمير المؤمنين الطمأنينة الى كل احد قبل الاختبار عجز يعني عجز في العقل والرأي فان الوثوق مع التجربة فيه مافيه فكيف قبل التجربة وقال بعض الادباء لا تثق قبل تمام الخبرة وقال بعضهم

لاتحمدن امرءاً حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطاء وذمه بعد حمد شر تكذيب

ومثله للنجاشي

لاتمدحن امرءاً حتى تجربه ولا تذمن من لم يبله الخبر

شهد عند بعض الامراء شاهد فقال ائتني بمن يعرفك فأتاه برجل فاثنى عليه خيراً فقال له الامير أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه قال لا فقال كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الاخلاق قال لا قال فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل قال لا قال أظنك رايته قائماً بالمسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى قال نعم قال فاذهب فلست تعرفه وقال للرجل اذهب فائتني بمن يعرفك

وقال بعض الادباء

لاتحمدن قبل اختبار أحداً بلامع من برقه اذا بدى
فربما اخلفك الطرير بخلب أنت به غرير

وقيل لاينبغي للعاقل ان يمدح امرأة حتى تموت ولا يثق بخليل حتى يستقرمنه ومن أمثال العرب لاتحمد أمة عام شرائها ولا حرة عام بنائها (الحالة الثانية) التغافل في الظاهر والحزم والحذر باطناً فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه يخزن لسانه ويولفهم ولا ينفرهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك فينبغي للحازم ان يرشح ظاهره بحسن الظن لأنه يوجب الالفة ويذهب البغضاء لانه مدني بالطبع ولا بد له من الناس لينتظم حاله ويتم امر معاشه وسوء الظن الظاهر يخل بأمره وقال

بعض الفلاسفة كن حذراً كأنك غير فطناً كأنك غافل ذاكراً كأنك ناس
وقال أبو حيان ينبغي للعاقل ان يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق
وفي الباطن معاملة العدوّ في التحفظ منه والتحرز وليكن في التحرز من
صديقه أشد في التحرز من عدوه وان يعتقد ان احسان شخص الى آخر
وتودده اليه انما هو لمعنى قام له فيه يتعلق به يبعثه لا لذات الشخص وكان
بعضهم أخذ منه معنى قوله ولا تظنن من اسدى اليك يدي لاجل ذاتك
بل اسداه للغرض وقال بعض الادباء أجعل الناس أصدقائك ظاهراً
واعداءك باطناً فانهم أصدقاء أنفسهم لا أصدقائك بالحقيقة وانهم عبيد الرغبة
والرهبة لايخرجوا عنهما فلذلك كانت سياسة الدين والدنيا الرغبة والرهبة
فعند الرغبة يلتجئون لنيل الخير وعند الرهبة يطيعون للذب عن أنفسهم
ومن هذا الباب قول بعض الادباء اذا اضطررت الى كذاب فلا تصدقه ولا
تعلمه أنت تكذبه فينتقل عن وده ولا ينتقل عن طبعه ومثله في الامثال
اسمع ولا تصدق أي اسمع في الظاهر وكذب في الباطن ومن هذا الباب
قولهم اذا اتهمت وكيلك فاخزن لسانك واستوثق بما في يديه ومنه ما يقال
في الغيرة والتحفظ على العرض اذا احسست ببغض من وليت امره وعناك
حلوه ومره منه بما يستراب فعليك بيقظة الباطن وغفلات الظاهر حتى
يخفى خبره على الاحباب وانهض لازالته بعزيمة نافذة ويقظة غير راقدة
واطرد عنه الاسباب بنفي أهل الشأن من القرناء عنه والاصحاب ولو كانوا
من ذوي الاحساب والانساب وظهر فيهم الفضل والآداب واسبل عليه
ستور الحجاب واشغله بما يستغرق فكره من المهمات المحمودة عند ذوي
الالباب وهذا أحد موارد هذه القاعدة والا فلا تختص بمورد خاص بل تطرد

مع عامة الناس فالحازم ينبسط للزمان ويكون له من الابطال والاقران يجرى في ميدانه مع ابنائه واخوانه وقلبه قد احتوى أمره وقائم بذاته على اصلاحه ودفع شره ومن معه به لايعلم وعلي ما اشتغل فيه ضميره لايفهم يريهم الهوينا والامور تطير بحالها من فيها انها جالسة وهي به تسير واللبيب من تسكن حركته وتظهر غفلته ولم ترقد بصيرته وقد سترت غفلته فطنته حتى يظن به من رآه انه لم يعلم بما عراه ولم يدر انه يدري فاذا عرفت هذا فاعلم ان لهذه الحال طريقان لايقتصر الحازم على احدهما دون الثاني بل يكون متربعاً بين الامرين ومحتوياً على الطرفين وهما التغافل في الظاهر عن سوء الافعال والتيقظ في الباطن لها فبالاول يعامل الثاني على حسن ظواهره لانتظام امر معاشه وبالثاني يتحرز منهم وقد قال بعض الاولياء احتفظ من الناس واحتفظ بهم تملك ازمة التدبير أي احذر لئلا ينالك ضرر الناس وكن عن مظنة حصول الشر منهم متباعداً هذا معنى قوله احتفظ من الناس ومعنى قوله احتفظ بالناس اي ان الانسان مدني الطبع لا بد له من الناس لحصول امر معاشه ومعاده بهم وكان صلاح امره بهم ومعاشرتهم من دفاع من امد منهم بضرر وقصده منهم باذىً في نفسه او ماله او دينه ولما كان في انفراده تعجز نفسه عن دفاع المؤذي منهم وجب ان يتألفهم ويتوددهم بحسن الفاظه حتى يألفونه ويحبونه فحينئذ يحصل النصر منهم عليهم ويدفع شرهم بهم فتحصل له لذة زمانه وينال صفو العيش بهم ويكون له من الناس جنود منهم عليهم ويقال ان رجلا كان على عهد كسرى يقول من يشتري ثلاث كلمات بالف دينار فيطنز منه الى ان اتصل بكسرى فاحضره وسأله عنها فقال ليس من الناس كلهم خير فقال صدقت ثم ماذا قال ولا بد منهم قال صدقت ثم ماذا قال

فالبسهم على قدر ذلك فقال كسرى قد استحويت المال فخذه قال لا حاجة لي فيه وانما اردت ان ارى من يشتري الحكمة بالمال واذا عرفت هذا ايضاً فلنورد بما يختص بكل واحد من الطرفين ليتم وضوح الامرين مما اخترناه من غرر الحكم ودرر الكلم ومحاسن النظم ولنبتدئ بما يختص بالمعاملة على الظواهر دون البواطن ثم نثنيه بما يختص بالطرف الثاني وهو التيقظ والتحرز من البواطن باطناً فنقول وبالله المستعان وعليه التكلان

﴿ الطرف الاول – في المعاملة على الظواهر ﴾

قيل اوحى الله تعالى الى عبده داود يا داود خالق الناس باخلاقهم واحتجز الايمان بيني وبينك وقال أمير المؤمنين خالطوا الناس بالسنتكم واجسامكم وزايلوهم بقلوبكم واعمالكم ومنه ما قيل خالط الناس وزايلهم ومنه ما قالت الحكماء يجب على السلطان العدل في ظاهر افعاله لاقامة أمر سلطانه وفي باطن ضميره لاقامة امر دينه ومن هذا الباب ماورد في ذم المكاشفة والتجسس في الظاهر فمن كلام أمير المؤمنين من اشرف افعال الكريم غفلته عما يعلم ومنه قول طاهر بن الحسين بن مصعب

ويكفيك من قوم شواهد امرهم ... فخذ عفوهم قبل امتحان الضمائر
فان امتحان القوم يوحش منهم ... وما لك الا ما ترى في الظواهر
وانك ان كشفت لم ترى مخلصا ... وابدى لك التجريب خبث السرائر

(ثم انظر الى قول هذا الاحمق)

فاما ان تكون اخي بصدق ... فاعرف منك غثى من سميني
والا فاطرحني واتخذني ... عدواً اتقيك وتتقيني
للخير الذي انا ابتغيه ... ام الشر الذي هو يبتغيني

(أين هو من قول زهير بن ابي سلمى)

ولا تكثروا على ذي الضغن عتبا ولا ذكر التجرم للذنوب

ولا تسأله عما سوف يبدي ولا عن عيبه لك بالمعيب

متى تك في صديق او عدو تخبرك الوجوه عن القلوب

(وقول المتنبي ابي الطيب)

ولما صار ود الناس خباً جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت اشك فيمن اصطفيه لعمي انه بعض الانام

وآنف من اخي لابي وامي اذا ما لم اجده من الكرام

وكان يقال التودد ظاهراً احسن والمعاملة بين الناس على الظاهر فاما البواطن فالى عالم الخفيات

(قال بعضهم)

وارض من المرء في تودده بما يؤدي اليك ظاهره

من يكشف الناس لم يجد احداً تصح له منـه سرائره

وقال آخر من اظهر لك بلسانه ما تحب وتكره فقس ما اضمره بما اظهره فانك لاتعرف ما يسر في قلبه الا بما يظهر بلسانه ومن هـذا اخذ بعض الادباء معنى قوله

ليس المسيء اذا تغيب سره عندي بمنزلة المسيء المعلن

ما كان يظهر ما احب فانه عندي بمنزلة الامين المحسن

وهذا اغراق في البناء على الظواهر ومثل ذلك ماذكره بن الجوزي في الاذكياء قال حدثنا ابو علي بن مقلة قال كنت اكتب لابي الحسن ابن الفرات اخدم بين يديه الى ان تقلد الوزارة الأولى ثم امر بقبض مافي

دور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز وكانت امتعتهم تقبض وتحمل اليه فيراها وينفذها الى خزائن المقتدر فجاؤه يوماً بصندوقين فقالوا له هذان وجدناهما في دار ابن المعتز فقال افعلمتم ما فيهما قالوا نعم جرايد من بايعه من الناس باسمائهم وانسابهم فقال لا تفتح ثم قال ياغلمان هاتوا نارا فجاء الفراشون بفحم امرهم فاججو النار واقبل عليَّ وعلى من كان حاضراً فقال والله لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظن كل من له فيها اسم اني قد عرفته فتفسد نيات العالم كلهم عليَّ وعلى الخليفة وما هـذا رأي حرقوهما قال فطرحا باقفالهما في النار فلما احترقا بحضرته اقبل علي فقال يا ابا علي قد آمنت كل من جنى وبايع ابن المعتز وامرني الخليفة بأمانه فاكتب للناس الامان ولا يلتمس منك احد اماناً كائناً من كان الا كتبته له وجئني به لاوقع فيه فقد افردتك لهذا العمل ثم قال لمن حضر اشيعوا ماقلته حتى يأنس المستترون بابن علي ويكاتبونه في طلب الامان فشكرناه ودعت الجماعة له وشاع الخبر وكتبت الامانات فكتب في ذلك مائة الف ونحوها هذا وسيأتي من السياسات تمام الايضاح لهذا المقام بما لامزيد عليه ومن هـذا الباب قبول قول المعتذر ورد قول النمام كائناً من كان (اما الاول) فقد قال امير المؤمنين اقبل اعذار الناس تستمتع بأخائهم والقهم بالبشر تحت اضغانهم وقال لا تبارز عدوك ولا تقرع صديقك واقبل العذر وان كان كذبا ومن هذا اخذ الشاعر معنى قوله

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً ... ان بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد اطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد اجلك من يعصيك مستترا

وقيل انه اتى برجل مذنب الى موسى المهدي فجعل يتقرعه بذنوبه فقال ياأمير المؤمنين اعتذاري اليك بما تقربه عيني رد عليك واقراري

بذنب لم اجنه ذنب ولكني اقول في المعنى

فان كنت ترجو في العقوبة راحة فلا تزهدن في العفو عني عن الاجر

فقال المهدي سأصفح عن ذنبك لعذرك وان كنت من احدهما على يقين ومن الآخر على شك واما الثاني وهو رد قول النمام فقد قال بعض الملوك لولده ليكن ابغض رعيتك اليك اشدهم كشفا لمعائب الناس فان للناس معائب وانت أحق بسترها وانت انما تحكم بما ظهر لك والله يحكم فيما غاب عنك. وقال أزدشير لاصحابه وقد سعى عنده بانسان انما أملك الظواهر لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضا وافحص عن الاعمال لا عن السرائر قيل الساب هو المبلّغ

من جعل النمام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا

قال رجل لفيلسوف ان فلاناً قد قال فيك واغتابك أمس بكذا وكذا قال الفيلسوف انك قد واجهتني بما استحى الرجل من مواجهتي فيه شعر

يا ناقلا قول الذي في العرض مني قد لغا
اقصر فما اسمعني سوء سوى من بلّغا

(وقال صالح بن عبد القدوس)

من يخبرك بشتم عن أخ فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به انما اللوم على من اعلمك

(الطرف الثاني ـ التيقظ في الباطن)

للتحرز من الغوائل والتحرز من الصديق بالخصوص ليتنبه العاقل ان لتحرز من غيره أشد بالاولية ومستنده قول امير المؤمنين أبذل لصديقك اكل المودة ولا تبذل له كل الطمأنينة واعطه من نفسك كل المؤاسات

ولا تفض اليه بكل اسرارك وقول الصادق لاتثقن بأخيك كل الثقة فان سرعة الاسترسال لن تستقال بيان الصرع المطرج على الارض والاسترسال المبالغة في الانبساط والاستيناس والاستقالة طلب اقالة العثرة فان مايترتب على زيادة الانبساط من الخلل والشر لا وراء له وفي الكلام استعارة ومنه قيل حسن الاسترسال منك حتى تجد له مستحقاً له واجمل انسك آخر مابذله من ودك وقيل قل من يؤذيك الا من تعرفه وقال بعضهم

تحذَّر من صديقك كل يوم وبالاسرار لاتركن اليه

سلمت من العدو فمادهاني سوى من كان معتمدي عليه

وقيل من أحببت فلا تأمنه ومن ابغضت فلا تهجره وقال بعضهم

كن من صديقك لامن غيره حذراً ان كان ينجيك منه شدة الحذر

قال محمد بن زكريا لا يكمل عقل الرجل حتى يحذر من صديقه وقال اعرابي اللهم اكفني بوائق الثقات والاغترار بظاهر المودات وقيل احذر من تأمنه فودائع الناس لم تذهب الا عند الثقات ومنه لبعض البلغاء

اعدى عدوك ادنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل

وكان بعضهم يقول في دعائه اللهم احرسني من اصدقائي فاذا قيل له في ذلك قال أقدر على الاحتراس من أعدائي ولا اقدر على الاحتراس من اصدقائي

اما العدو فيبدي ما عنده ويكاشف

لكن توق وحاذر من الصديق الملاطف

وفصل الخطاب في هذا الباب دعاء أمير المؤمنين اللهم احفظني من عدو يرعاني ان رأى مني حسنه دسها وان رأى سيئة اشهرها واليه ناظر

قول بعض الحكماء اللهم احفظني من الصديق لأني أتحرز من العدو وقال المبرد سمعت الجاحظ يقول احذر ممن تأمن فانك على حذر ممن تخاف وقال فيلسوف كونوا من المسرّ المدغل أخوف من المكاشف المعلن فان مداواة العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي وبطن ومن أمثال العرب أرقب البيت من راقبه أي احفظ بيتك من حافظه وانظر من تخلف فيه وأصله ان رجلا خلف عبده في بيته فرجع وقد ذهب العبد بجميع امتعته فاذا عرفت هذا في من تأمن من صديق ونحوه فالحذر من غيره أيضاً ينبغي ان لاينقض بل من عامة الناس الا ما يأتي استثنائه منهم وحيث تلوت ماحررناه من أول الروض الى هنا فلا يبقى مجال الا الحذر والاحتراس من سائر الناس فتنبه لهذه الدقيقة الآتية فانها كافية قال (ابرويز) لابنه يابني الاصدقاء هم الاعداء لانك اذا احتجت اليهم منعوك وان احتاجوا اليك ومنعتهم سبوك فكن معهم كلاعب الشطرنج يحفظ ما معه ويحتال في أخذ ما مع غيره ومنه أخذ صاحب الصادح والباغم

يا أيها الانسان كن في الدنيا كلاعب الشطرنج وانح المعنى

محترزاً من العدو محترس تنج وتسلم من اذاه ونكس

فالحين في الاهوان والتجوز والحزم كل الحزم في التحرز

وقال بعض الالباء أصحب الناس كما تصحب النار خذ منها حاجتك واحذر ان تحرقك اشارة لابأس بذكرها من الامثال احذر من قرلى واحزم أيضاً وهو طائر من طير الماء شديد الحزم والحذر يطير في الهواء وينظر باحدى عينيه الى الارض وفي اسجاع ابنه الخس كن حذراً كالقرلى ان رأى خيراً تدلى وان رأى شراً تولى وهذا الطائر صغير الجرم حديد

الغوص سريع الاختطاف ولا يرى الا مرفرفاً على وجه الماء على جانب كطيران الحداة يهوى باحدى عينيه الى قعر الماء طمعاً ويرفع الاخرى الى الهواء حذراً فان أبصر في الماء مايستقل بحمله من سمك أو غيره انقض عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء وان أبصر في الهواء جارحاً مرّ في الارض وقيل ان القرلى اسم رجل من العرب كان لا يتخلف عن طعام أحد ولا يترك موضع طمع الا قصد اليه وان صادف في طريق يسلكها خصومة ترك ذلك الطريق ولم يمر به فقالوا فيه المثل . دخل جحى على أمه وهي في النزع فقال لها كيف حالك يا أماه جعلني الله فداك قالت في الموت قال اذاً لا فقد كنت أظن ان في الاجل فسحة . قيل لمجنون ايسرك ان تصلب لصلاح هذه الامة قال لا بل يسرني ان تصلب هذه الامة لصلاحي هذا وقد طغى القلم وخرجنا عن المقصود من بيان التيقظ والحزم والحذر وسوء الظن باطناً فلنعود الى بيان

﴿ الحالة الثالثة - في ميزان سوء الظن وموارده ﴾

أما ميزانه فالمعتبر في سوء الظن مراعاة الاعتدال وذلك لأن العقل الحاكم به حاكم أيضاً بأنه يلزم من الافراط فيه اختلال المعاش والمعاد والاختلال باطل والمستلزم للباطل باطل فيتعين الاعتدال ويدل على ذلك قول أمير المؤمنين . من غلب عليه سوء الظن لم يترك بينه وبين خليل صلحاً وقوله عليه السلام سوء الظن يفسد بين الامور ويبعث على الشرور وقوله عليه السلام من لم يحسن ظنه استوحش من كل أحد وقوله عليه السلام اسوء الناس حالا من لا يثق باحد لسوء ظنه ولا يثق به أحد لسوء أثره وينبهك أيضاً على ذم الافراط بسوء الظن قول بعض البلغاء من أفرط في حسن الظن كان بالزلل

خليق ومن أفرط في سوء الظن لم يدع له صديق وأما موارد سوء الظن فالزمان والامارات المقتضية له من الانسان أما الاول فلقول أمير المؤمنين اذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم اساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظلم واذا استولا الفساد على الزمان وأهله فاحسن رجل الظن برجل فقد غرر والحوبة المعصية وفي معناه قول أبي الحسن الرضا اذا كان الجور أغلب من الحق لايحل لاحد ان يظن بأحد خيراً حتى يعرف ذلك منه الى غير ذلك وأما الثاني فلقول أمير المؤمنين سوء الظن بالمحسن شر الاثم وأقبح الظلم وقوله عليه السلام سوء الظن بمن لايخون من اللوم وهنا تعرف معنى قوله تعالى ان بعض الظن اثم المستدل بها على اصالة الصحة في مطلق افعال الغير فالظن السوء انما يكون اثماً فيما اذا وقع فيمن لايستحقه كما عرفت لافي كل أحد وأما من تظهر عليه امارات المفسدة فلا محذور من سوء الظن به وقد روى عن الحسين انه يجوز ان يظن السوء بمن علم السوء منه وبدت عليه ادلته وقد نظر بعض الادباء الى رجل ينظر الى غلام وضيء الوجه فقال له الناظر لاتظن الا خيراً قال وكيف ذلك وأنت لاترتدع وهو لايمتنع هذا ماينبغي التنبيه عليه وأنت خبير بأن حسن الظن بكل أحد لامعنى له كما ان سوء الظن بكل أحد سوء لامعنى له والحزم ايراد الظن موارده والاعتداد فيه كما وكيفاً ومراعاة حال الزمان والانسان كما عرفت مما حررناه

(الفصل الثاني)

(في تجويز الخلاف في الشيء الواقع بأنه خلاف ماكان عليه في الآن

السابق)ولنمثل لك في جواز وقوع الخلاف في الاخبار عن الماضي وقس عليه سائر الامور الواقعة التي يجوز ان تقع خلاف ما كانت عليه في الآن السابق فنقول وبالله المستعان . الصدق والكذب يدخلان في الاخبار الماضية كدخول الوفاء والخلو في المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشيء على ماهو عليه والكذب الاخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه فاذا عرفت هذا فللكذب دواع تدعو اليه من جهة القائل أو الناقل وأسباب تجوز كثرة وقوعه من جهة السامع والقابل وكما ان له دواعي من جهة القائل فله موانع تمنع عنه من جهته أيضاً الا ان موانعه لازمة ودواعيه عارضة وبتقابل الدواعي والاسباب والموانع قالوا الخبر هو ما احتمل الصدق والكذب واذا كان للكذب دواع وأسباب وموانع فلنذكر مايتعلق بغرضنا منها ونبتدئ بالموانع ثم الدواعي والاسباب أما الموانع فنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ويمنع من ارتكاب ماكان مستقبحاً ومنها الدين الوارد باجتناب الكذب وخطره لان الشرع لايجوز ما خطره العقل بل قد جاء الشرع زائداً على ما اقتضاه العقل من خطر الكذب، الا ان الشرع ورد بخطر الكذب وان جلب نفعاً والعقل انما خطر مالا يجلب نفعا ولا يدفع ضرراً ومنها المروءة فانها مانعة عن الكذب لانها تمنع عن كل ما كان مستكرهاً فأولى فعل ماكان مستقبحاً قال بعض النبلاء لو لم ادع الفعل تحرماً لادعه تكرماً ومنها الحياء فانه مانع عن الكذب حتى قالوا اثنان لايجتمعان الكذب والحياء وقال الشاعر

لايكذب المرء الا من مهانته ... أو عادت السوء أو من قلة الادب

ومنها حب الثناء وبغض الذم والاشتهار بالكذب موجب للذم والمهانة

وهذه الموانع وان كانت مانعة عن الكذب فهي داعية للصدق وباعتبار لزومها لاسيما العقل والشرع جاز أن تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض الاخبار الكاذبة لأن اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز ان يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا تلقوا خبراً وكانوا عدداً ينتفي عن مثلهم المواظبات على الكذب وقع في النفس صدقه لأن الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يمكن ان يتفق العدد الكثير على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة كما ستعرف وربما كانت ضارة وليس في جاري العادة ان يتفق الجمع الكثير على دواعي غير نافعة فلذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز ان يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم هذا وأما دواعي وقوع الكذب من جهة القائل او الناقل فمنها وقوع اجتلاب النفع واستدفاع الضرر فيرى ان الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه ما لم يكن له دين يصده ومن هنا يقال انما يقضي بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه ومن هذا قالوا لكل أحد رأس ورأس مال الدلال الكذب ومنها تقرب الناس لاصحاب الخلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيقع الكذب ومنها ان يؤثر بان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقاً يعذب ولا حديثاً يستظرف سوى الكذب فيستحليه ومنها ان يقصد التشفي من عدوه بقبائح ينسبها اليه وفضائح يخترعها عليه ومنها ان تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو دام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان وقد قالت الحكماء من استحلا رضاع الكذب

عسر نظامه وقيل في منثور الحكم لا يلزم الكذاب شيء الا غاب عليه
واما أسباب وقوع الكذب من جهة السامع أو الناقل فمنها الثقة بالناقلين
وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن المقاصد فكثير
من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على مافي ظنه
وتخمينه فيقع في الكذب ومنها توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء في
الاكثر من جهة الثقة بالناقلين بمجرد السماع ممن حسن اعتقاده فيه بسبب
كثرة ثناء الخلق عليه ومنها ان يسمع ما يناسب طبعه واخلاقه ويبادر الى
التصديق بمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاد في قائله ولا من قرينة
تشهد له لكن لمناسبة ما في طبعه فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله
تصدق جميع ذلك بادنى ارجاف ويستمر على اعتقاده جازما ولو اخبر
بذلك في حق صديقه او بشيء يخالف شهوته وهواه توقف فيه او اباه كل
الاباء ولو كان صدقا ومنها التشيعات للاراء والمذاهب فان النفس اذا
كانت على حالة الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر
حتى يتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأي او نحلة قبلت ما يوافقها
من الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها
عن الانتقاد والتمحيص فيقع في قبول الكذب ونقله ومنها اشتباه السامعة
ونقصان السماع لتمام اجزاء الكلام فيسمع البعض منها وينقل ذلك فيقع
الكذب كما اذا قال قائل يحتمل مجيء فلان هذا اليوم فلم يسمع يحتمل بل
يكون سماعه مجيء فلان هذا اليوم فينقله على ماسمع وفوق ما بين احتمال
القائل ويقينه وهذا كثير مايقع ومن الاسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة
على جميع ماتقدم الجهل وسوء الفهم من السامع قال ارسطاطاليس يؤتي

الناطق من سوء فهم السامع وكان لسهيل بن عمر بن مصعوق غلام فرآه انسان فقال أين أمك أي قصدك فظن ان سؤاله عن أمه فقال ذهبت تطحن فقال سهيل اساء سمعاً فأساء اجابة فذهبت مثلا وقال بعض النبلاء اذا جهل الرجل سمع غير ما يقال وحفظ غير ما سمع وكتب غير ما يحفظ وحدث بغير ما يكتب وتصحف على بعضهم الخطب التي هي جمع خطبة بالحطب الذي يشعل فقال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تشقيق الحطب فسمعه طباخ فصاح واهلاكاه. وكثير من هذا الباب وهذه نبذة يسيرة من اسباب وقوع الكذب في الاخبار الماضية واذا قوبلت هي والدواعي مع الموانع تكافئت فيقال الخبر محتمل الصدق والكذب واذا كان الخبر محتملا للصدق والكذب فالحكم باحداهما قبل الامتحان والتمحيص غير مأمون الخطاء فالحزم التوقف قال امير المؤمنين من وصية له. لا ترد على الناس كل ما حدثوك فكفى بذلك جهلا وهذا تنبيه على قاعدة عقلية بان عدم الوجود وقال ابن سيناء في آخر الاشارات اياك ان تكون تكيسك وتبرؤك من العامة وهو أن يبري‌ء منكراً لكل شي‌ء فلذلك عجز وطيش وليس الخرق في تكذيبك مالم تستبن لك بعد جليه دون الخرق في تصديقك بما لهم بين يديك بينة بل عليك الاعتصام بحبل التوفق وان ازعجك استنكار مايوعيه سمعك مما لم يبرهن على استحالته لك فالصواب ان تسرح ذلك الى بقعة الامكان مالم يدرك عنها قائم البرهان وتكلم يوماً شاب عند الشعبي بكلام فقال الشعبي ما سمعنا بهذا فقال الشاب أكل العلم سمعت قال لا قال فشطره قال نعم قال فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعه فافحم الشعبي ومن هنا تفهم القاعدة العقلية بان عدم العلم بالشي‌ء لايدل على عدمه وعدم الوجدان للشي‌ء لايدل على عدم وجوده

(قال المتنبي)

وكم من عائب قولا صحيحا　　وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الاذهان منه　　على قدر القرائح والعلوم

وتمثيل وصول الاذهان لبعض المعلومات وقصورها عن بعض بما يزعم ان جماعة من العميان قد سمعوا انه حمل الى البلد حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على اذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت اجوبتهم فقال الذي لمس الرجل ان الفيل ما هو الا اسطوانة خشنة الظاهر الا انه الين منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه واملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الاسطوانة اصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الاذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق احداهما فيه ولكن قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هولاء صدق من وجه اذا خبر كل واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبره فانه مثال اكثر ما اختلف فيه الناس وأنكر بعضهم على بعض

(الفصل الثالث)

في جواز التفاوت والتشكيك في افراد الامر المشترك الواقعة في الحال

علي وعبد الله بينهما أب   وشتان ما بين الطبائع والفعل
الم ترى عبد الله يلحى على الندى   علياً ويلحاه علي على الجهل

(ابن الرقاع)

والقوم أشباه وبين حلومهم   بون كذاك تفاضل الاشياء
والأصل ينبت فرعه متفاوتاً   والكف ليس بنانها بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي   فيما غشيت ولا نجوم سماء
والبرق منه وابل متتابع   جود وآخر لا يجود بماء

(وقال أبو حكيمة الكاتب)

لعمرك ماطول التعطل ظاراً   ولا كل شغل فيه للمرء منفعه

فاذا عرفت هذه الاشارة فالخرق الوقوف على بعض افراد الشيء قبل العلم بباقي الافراد والحزم التأني مالم يحصل العلم واستقراء الاجزاء أو الجزئيات كما سيأتي ايضاحه في غايات التوقف والتأني في الأمور المشكوكة والمظنون من الوقائع . ومن كلام بعض العلماء لايعلم الانسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره وقال المعتصم لابي داود اني لاسألك عما أعرف لاسمع حسن ماتصف وقال محمد بن هاني

في كل يوم استزيد تجارباً   كم عالم بالشيء وهو يسائل

ومن هذا الباب قولهم لايكن سمعك لاول مخبر ولا ثقتك لاول مجلس وفي الامثال علمان خير من علم وأصل المثل ان رجلا وابنه سلكا طريقاً فقال الرجل يابني استبحث لنا عن الطريق فقال اني عالم به فقال يابني علمان خير من علم يضرب في البحث عن الامور ثم الاستقراء للجزئيات

أو الاجزاء اما ان يكون كاشفاً عن رجحان المتعقب على ماقبله أو على مرجوحيته وفي الامثال المنظومة للمتنبي

ومن ركب الثور بعد الجواد　　انكر اظلافه والغبب

(وقال عدى بن الرقاع)

واذا نظرت الى أميري زادبي　　ظناً به نظري الى الامراء

(الفصل الرابع)

في جواز التخلف في الآن اللاحق بالامور الواقعة بمعنى امكان تخلفها في الآن الثاني عمّا هي عليه في آن الوقوع وذلك كالخلف والوفاء في الوعد والوعيد وغير ذلك من الامور الممكنة التغير في الآن الثاني فجواز الخلف والوفاء في الاخبار المستقبلة كجواز الصدق والكذب في الاخبار الماضية

وما كل هاو للجميل بفاعل　　ولا كل فعال له بمتمم

قال رجل لجماعة أنتم غداً ضيوفي فاشتهى كل منهم شيئاً الا رجلا فقال له فما الذي تشتهي انت قال ان يتم هذا الامر قال المتنبي

وما كل من قال قولا وفا　　ولا كل من سيم خسفاً أبى

كتب ملك الهند الى الرشيد يتهدده في كتاب طويل فكتب اليه الرشيد الجواب ما تراه لا ما تقرأه لان ما يقرأ يمكن الخلاف فيه بخلاف مايرى شعر

خليلي قطاع الفيافي الى الحما　　كثير وأرباب الوصول قليل

(آخر)

وما كل ممطور من الارض مجدب　　نباتاً ولا كل السحاب مطير

ولا كل ماأبدى الفتى عند غيظه　　من القول معقود عليه ضمير

هذه الاشارة كافية لذوي البصائر والعاقل الحازم يجوز في كل أمر خلاف ظاهره أو خلاف ما كان عليه في الآن السابق او تخلفه في الآن اللاحق أو تفاوت افراده في زمانه فيتيقظ في التجويز في الاول ويتوقف بالحكم في الثاني ولا يعتمد في الثالث ويستقرئ الافراد في الرابع هذا في الوقائع الحالية وأما المتوقعات المستقبلة فهي أولى بجواز التغير والتخلف كما ستعرف

(الفصل الخامس)

في الاغترار بدوام الزايل ولا بد قبل ذلك من بيان قاعدتين ثم تثنيه بايقاظين عن الاغترار بالدنيا وايامها والاغترار بدوام الصحة وغيرها من العواري البدنية

﴿ القاعدة الاولى ﴾

لكل أمر عاقبة ونهاية ينتهي اليها اذ وقوع مالا نهاية له محال عقلا قال امير المؤمنين عليه السلام لكل أمر عاقبة حلوه أو مره ومثل قوله عليه السلام في المعنى قولهم لكل سائلة قرار وقد أخذه الطائي فقال

فكانت لوعة ثم استقرت　　كذاك لكل سائلة قرار

(وقال الكميت)

فالان صرت الى امية　　والامور الى مصاير

وقال امير المؤمنين الدولة كما تقبل تدبر الدنيا تجبر وتكسر (لذى الوزارتين)

اقمنا برهة ثم ارتحلنا　　كذاك الدهر حال بعد حال

وكل بداية فالى انتهاء　　وكل اقامة فالى ارتحال
وما سام الزمان دوام حال　　فقد وقف الرجاء على المحال

وقال المتنبي

انعم ولذ فللأمور اواخر　　ابداً كما كانت لهن اوائل

اصرف سمعك الى ما نزل جبرائيل من عند الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله فقال يا محمد الله يقول لك عش ما شئت فانك ميت واحبب من شئت فانك مفارق واعمل ما شئت فانك مجزيٌ به فانظر الى ما اشتملت عليه هذه الكلمات من ضرورية انصرام العمر وفراق الاحبة والجزاء على الاعمال فلو لم ينزل من السماء غيرها لكانت كافية ومن قول ابي العتاهية من ابيات

نل كل ما شئت وعش ناعماً　　آخر هـذا كله الموت

وقال امير المؤمنين عليه السلام من عاش مات ومن مات فات. وللمتنبي

لا بد للانسان من ضجعة　　لاتقلب المضجع عن جنبه

وقال ابو العتاهية

سيباشر التربا خـدك　　وسيضحك الباكون بعدك
ولتنزعن بك البـلاء　　وليخلقن الموت عهدك
وليفنينك مثـل ما　　افنى آباءك وجـدك
لو قد رحلت عن القصو　　ر وطيبها وسكنت لحدك
لم تنتفع الا بفعـل صا　　لح قد كان عندك
وترى الذي قسمت ما　　لك بينهم حصصاً وكدك
يتلذذون بما جمعـت لهم ولا يجدون فقدك

وقال آخر

فان كنت لاتدري متى الموت فاعلمن بانك لا تبقى الى آخر الدهر

(الرضى رحمه الله)

وكيف نأمل ان تبقى الحياة لنا وغير راجعة ايامنا الاول

وقال آخر

اصلي وفرعي فارقاني معاً واجتث من حبليهما حبلي

فما بقاء الغصن في ساقه بعد ذهاب الفرع والاصل

عاقداً فيه قول بعض الحكماء . لقد مات ابوك وهو اصلك وابنك وهو فرعك فما بقاء شجرة ذهب اصلها وفرعها ولله در القائل ايضاً

ارى طالب الدنيا وان طال عمره ونال من الدنيا سروراً وانعما

كبان بنى بنيانه واتمه فلما استوى ما قد بناه تهدما

(ومثله ايضا)

ان الليالي لاتبقى على حال والناس مابين آجال وآمال

كيف السرور باقبال وآخره اذا تأملته مقلوب اقبال

(بشار بن برد)

ابا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم

(وقال آخر ايضا)

انسيت يامغرور انك ميت ايقن بأنك في المقابر نازل

تفنى وتبلى والخلائق للبلا ابمثل هذا العيش يفرح عاقل

(وقال أبو العتاهية)

انساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثباتا

وعرضت ويلك على الحياة　　وطولها عزماً بتاتا

ووثقت بالدنيا وانـ　　ـت ترى جماعتها سباتها

القاعدة الثانية:

لو دامت الدنيا لاحد ما اتصلت لغيره ولو بقيت لغيره ماوصلت اليه قال بعض الحكماء، الدليل على ان مابيدك لغيرك صيرورته من غيرك اليك وقال بعض العلماء الزمان واعظ لمن بقي بمن مضى وفي تصرفه هلاك قوم وصلاح آخرين والى هذا ناظر قول ابي الطيب (المتنبي)

بذى قضت الايام مابين اهلها　　مصائب قوم عند قوم فوائد

والسبب الذي أدرك به العاجز حاجته هو الذي أقعده الحازم عن درك بغيته والامر الذي يحول بين العاقل وبين سعة الرزق هو الذي يوصل الجاهل الى نيله ٠مر نصر بن سيار بابي الهند وكان شريفا وهو يميل سكراً فقال أفسدت شرفك فقال لو لم أفسدت شرفي لم تكن أنت والى خراسان وحكى البحتري قال دخلت على سعيد بن أسلم الطائي فانشدته قصيدتي في مدحه التي أولها (أفاق صب من هوى فافيقا) والى جانبه شخص لا اعرفه فلما فرغت منها أقبل عليّ ذلك الشخص وقال اما تستحي ان تنتحل شعري وتنشده بحضوري ثم مر في القصيدة فانشدها من حفظه فتغير وجه سعيد والتفت اليّ وقال ياابن أخي قد كان في الوسائل عندنا مندوحة عن سرقة الشعر فخرجت كاسف البال وسألت عن الرجل فقيل انه ابوا تمام الطائى فلما بعدت لحقني الحاجب وامرني بالعود واذا أبوا تمام يضحك فاستدناني وقال ياسيدي الشعر لك وانما هذه عادتي في حفظ القصيدة من مرة واحدة وقد نعيت الى نفسي

فانه ما نبغ من قبيلة مجيد او شريف الا مات من كان قبله مثله او ما سمعت قول الشاعر

اذا مغرم منا ذرى حد نابه   تخمط منا ناب آخر مغرم

ومن امثال العرب (النجار) الاصل والمثل على ما زعمت العرب ان ثعلباً اطلع في بئر فاذا في اسفلها داو فركب الدلو الاخرى فانحدرت به وعلت الاخرى فشرب وبقي في البئر فجاءت الظبع فاشرفت فقال لها الثعلب انزلي فاشربي فقعدت في الدلو فانحدرت بها وارتفعت الاخرى بالثعلب فلما رأته مصعداً قالت له اين تذهب قال كذلك النجار يختلف فذهبت مثلا ومن هذه القاعدة تتفرع قاعدة الدنيا بالاتفاق لا بالاستحقاق وليس هذا مكان تحقيقها فلنمر فيما نحن فيه قال سقراط اهل الدنيا كصور في صحيفة كلما نشر بعضها طوى بعضها ونمم التشبيه فانه ينتشر لبعض الابطي ما قبله ولا يطوى الاول الا بنشر ما بعده وهكذا حكمة قدرها رب الارباب ومسبب الاسباب لانتظام الوجود وقد الم بعضهم بهذا المعنى في قوله وشبه الدنيا بخيال الظل فقال

رأيت خيال الظل اعظم عبرة   لمن كان في علم الخلايق راق
شخوصاً واصواتاً يخالف بعضها   لبعض واشكالا بغير وفاق
تجيء وتمضى بابة بعد بابة   وتفنى جميعاً والمحرك باق

قال وهب بن مبنه خرج عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ذات يوم مع اصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد افرك فقالوا يا نبي الله انا جياع فاوحى الله تعالى اليه ان ائذن لهم في قوتهم فاذن لهم فافترقوا في الزرع يفركون فيأكلون فبينماهم كذلك اذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي وارضي ورثتها من ابي وجدي فباذن من تأكلون ياهؤلاء قال فدعى عيسى ربه ان يبعث جميع من

ملكها من لدن آدم الى تلك الساعة فاذا عند كل سنبلة ماشاء الله من رجل وامرأة يقولون ارضنا وزرعنا ورثناها من آبائنا واجدادنا ففر الرجل منهم وكان قد بلغه امر عيسى ولكن لا يعرفه فلما عرفه قال معذرة اليك يانبي الله اني لم اعرفك ذرعي ومالي حلال لك فبكي عيسى وقال ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها وانت ترتحل عنها ولاحق بهم ليس لك ارض ولا مال وهذا الحديث كاف في المطلب فانه لو لم يمت اسلافنا وآباؤنا لم ينته الوجود الينا ولو جاز ان يبقى الانسان لبقي من تقدمنا من الناس على ماهم عليه من التناسل ولو لم يموتوا لما وسعتهم الارض هب ان رجلا ممن كان منذ زمان اربعمائة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن ان يحصل اولاده موجودين معروفين ثم ولد له اولاد ولأولاده اولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم احدكم يكون بمقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا فانك تجدهم اكثر من عشرة آلاف الف رجل ثم احسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بسيط الارض مثل هذا الحساب فانهم اذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبط لهم كثرة ولم تحصهم عدداً ثم امسح بسيط الارض فانه محدود معروف لتعلم ان الارض حينئذ لاتسعهم قياماً فكيف قعوداً او متصرفين ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولا مكان زراعة ولا مسير لاحد ولا حركة فضلا عن غيرها وهذه مدة يسير من الزمان فكيف اذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة فسبحان من خلق الموت سبباً لنظام الوجد ففناء الاول سبب لايجاد الثاني وفقر البعض سبب لغناء الآخر وبالعكس وقال سبحانه وتعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس » وكل مافي يد احد منها وديعة عنده مسترجعة عنه لغيره

وما المال والاهلون الا وديعة ولابد يوماً ان ترد الودائع

قال أمير المؤمنين الدنيا منتقلة ان بقيت لك لم تبق لها يعني ان ماعندك منها ان لم ينتقل عنك لغيرك قبل الموت والا فبعد الموت ولا فرق بين ان تسلب عنه دنياه او يسلب عمداً

ابي الله للالاف الا تفرقا وللدهر ان يبقى عليه جديد

وقال آخر

واذا ما اعارك الدهر شيئاً فهو لابد آخذ ما اعارا

هكذا كانت الدنيا وهكذا تكون والمغرور من غرته ومن كلام لامير المؤمنين في وصفها الى ان قال فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها القلة مايصحبكم منها على قبح الاغترار بما يشاهد عياناً من قلة مايصحب ماناب منها قال الشاعر

فما تزود مما كان يجمعه الاحنوطاً غداة البين في خرق

وغير نفحة اعواد شببن له وقل ذلك من زاد لمنطلق

وقال آخر

انظر لمن ملك الدنيا باجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

وليس مثال المغتر بهامع علمه بقلة مايصحبه منها الا كما يحكى . انه أجريت خيل فطلع فيها فرس سابق فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح فقال له رجل الى جانبه يافتى هذه الفرس السابق لك قال لا ولكن الاجام لي وهكذا المغرور بالدنيا مع علمه بانه ما يخرج منها الا بحنوط وكفن ولو ملكها باجمعها قال عيسى عجبت لثلاثة غافل غير مغفول عنه ومؤمل الدنيا والموت يطلبه وباني قصر والقبر مسكنه فاذا عرفت هاتين المقدمتين فتنبه للايقاظين الايقاظ الاول عن الاغترار ببقاء الايام وحسن الظن بها قال امير المؤمنين . الدهر

يخلق الابدان ويجدد الامال ويقرب المنية ويبعد الامنيه وقال بعض الحكماء الدنيا تسر لتغر وتفيد لتكيد كم راقد في ظلها قد ايقظته وواثق بها قد خذلته بهذا الخلق عرفت وعلى هذا الشرط صوحبت

وقال بعضهم قصيدة

ما العيش في الدنيا الدنية	غير مرجو الاقامه
من ارضعته ثديها	في سرعه تبدى فطامه
من عز جانبه بها	تنوى على الفور اهتضامه
ومن الذي وهبته و	صلا ثم لم يخش انصرامه
كم واجد غرته اذ	سرته مخفرة ذمامه
قعدت به من حيث لم	يعلم فلم يملك قيامه
اين الذين تفيأوا	ظل السيادة والزعامه
والعمر مثل الصيف او	كالطيف ليس له اقامه

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قرو وهو على فرش يكاد يغيب فيها فقال يا ابن عباس اني لاحسب اليوم بارداً قال اجل وان ابن هند عاش في مثل ما ترى عشرين سنة اميراً وعشرين خليفة ثم هو ذاك على قبره ثمامه تهتز فيقال ان عبد الملك ارسل الى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة قال بعضهم

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت	ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها	وعند صفو الليالي يحدث الكدر

حكى ان سليمان بن عبد الملك لبس افخر ثيابه ومس اطيب طيبه ونظر في مرآته فاعجبته نفسه وقال انا الملك الشاب وخرج الى الجمعة وقال لجاريته

كيف ترين فقالت في الحال

انت نعم المتاع لو كنت تبقي غير ان لا بقاء للانسان
ليس فيما بدى منك عيب عابه الناس غيرانك فان

فاعرض بوجهه ثم خرج فصعد المنبر وصوته يسمع آخر المسجد فركبته الحمى فلم يزل صوته ينقص حتى ما سمعه من حوله فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه فلما صار الى فراشه قال للجارية ما الذي قلت لي في صحن الدار قالت ما رأيتك ولا قلت شيئا واني لي بالخروج الى صحن الدار فقال انا لله وانا اليه راجعون بغيت الى نفسي ثم عهد عهده وأوصى وصيته فلم تدر عليه الجمعة الاخرى الا وهو في قبره قال مالك بن دينار مررت على قصر تضرب فيه الجواري بالدفوف ويقلن

الا يادار لايدخلك حزن ولا يذهب بسا كنك الزمان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب واذا بعجوز فقالت ياعبدالله والله قد دخلها الحزن وذهب باهلها الزمان لما نزل سعد بن ابي وقاص الحيره قيل له هاهنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحرقة بنت النعمان بن المنذر وكانت من اجمل نساء العرب كانت اذا خرجت الى بيتها نشرت عليها الف قطيفة حرير وديباج ومعها ألف وصيف ووصيفه فارسل اليها سعد فجاءت كالشر البالي فقالت ياسعد كنا ملوك هذا المصر قبلك يحمل الينا خراجه ويطيعنا أهله مدة من المدد حتى صاح بنا صائح الدهر فشتت شملنا والدهر ذو نوائب وصروف فلو رأيتنا في ايامنا لارعدت فرايصك فزعاً منا فقال لها سعد ما انعم ما تنعمتم به فقالت سعة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا ثم انشدت

وبينا نسوس الناس والامر امرنا اذا نحن فيهم سوقة ليس ننصف

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت ياسعد انه لم يكن اهل بيت خير والدهر يعقبهم غيرة حتى ياتي امر الله على الفريقين فاكرمها سعد وامر بردها . حكي محمد بن عبد الرحمن الهاشمي قال دخلت يوم عيد الاضحى على والدتي فرأيت عندها امرأة دنسة الثياب فقالت لي أمي اتعرف هذه المرأة قلت لا فقالت هذه ام جعفر البرمكي فقالت المرأة اذكر لك جملة فيها عبرة لمن يعتبر . لقد دخل عليَّ ابني يوم عيد مثل هذا اليوم وعلى رأسي اربعمائة وصيفه وأنا أزعم ان ولدي جعفر عاق لي وقد أتيتكم اليوم اسألكم جلدي شاة أجعل احدهما شعاراً والآخر دثاراً فدفعت لها خمسمائة درهم وامرتها بالتردد الينا الى ان يفرق الموت بيننا وذكر المؤرخون ان الرشيد كان لا يقدر يصبر عن جعفر ساعة واحدة من شدة حبه له وكان يخاطبه يا أخي ومن محبة الرشيد له انه اتخذ ثوبا له ذيقان وكان يلبسانه جميعا ويخرجان رؤسهما كل واحد من زيق حتى كان من امر البرامكة ما كان فصلب جعفر على جذع وبقي مصلوبا ونودي ان من دنا الى جذعه او ترحم عليه ان يقتل ويصلب

شعر

في جبهة الجو سطر لو نظرت له ابكاك مضمونه من مقلتيك دما

ماسلم الدهر باليمنى على أحد الا ويسراه تسقيه الردى كظما

قال بعضهم سبعة لابقاء لها ظل الغمام وخلة الايام وسطوة العوام وعشق النساء والثناء الكذب والمال والارث والسلطان لله دره كيف قرن خلة الايام بظل الغمام ولله در من قال

لا تخدعنك بعد طول تجارب　　دنيا تغر بوصلها وستقطع

احلام نوم أو كظل زائل　　ان اللبيب بمثلها لايخدع

وليس مثال الواثق بدوامها والمغرور بسكونها الا كما قال بعضهم رأيت ابن خلف الهمذاني في صحراء يطلب شيئاً فقال له رجل ماتطلب هنا فقال أخفيت شيئاً فلم اهتد اليه فقيل له فلم لاعلمت عليه علامة قال جعلت علامتي قطعة غيم كانت فوقه وما أراها الساعة وليس غرور هذا بسكون الغيم زائداً على غرور الانسان بسكون الزمان شعر

وما الدهر في حال السكون بساكن　　ولكنه مستجمع لوثوب

﴿ الايقاظ الثاني ﴾

(عن الاغترار بالصحة والعافية والعواري البدنية) قال أمير المؤمنين عليه السلام كيف تبقى على حالتك والدهر في احالتك وقال عليه السلام مسكين ابن آدم مكتوم الاجل مكنون العلل محفوظ العمل تؤلمه البقة وتقتله الشرقة وتنته العرقة ومن كلام جالينوس الانسان سراج ضعيف كيف يدوم ضياؤه بين رياح أربع يعني الطبائع الاربعة متى هاجت واحدة قتلته

ان الفتى يصبح للاسقام　　كالغرض المنصوب للسهام

وقال عليه السلام لاينبغي للعبد أن يثق بخصلتين العافية والغنى بينا تراه معافى اذ سقم وبينا تراه غنياً اذ افتقر وقد تقدم القول في سلب العواري الدنيوية قال الشاعر

وبينما المرء في الاحياء مغتبطاً　　اذ صار في اللحد تسفيه الاعاصير

وقال الآخر

يغر الفتى مر الليالي سليمة　　وهن به عما قليل غواش

وقال آخر

وكم بات من مطرف في القصور ... فعوّض في الصبح عنها القبورا

وقيل لا تغرنك صحة نفسك اليسيرة فمدة العمر وان طالت قصيرة

وقال الشاعر

بينا الفتى مرح الخطا فرحاً بما ... يسعى له اذ قيل قد مرض الفتى

اذ قيل بات بليلة ما نامها ... اذ قيل أصبح مثقلا لا يرتجى

اذ قيل أمسى شاخصا وموجها ... اذ قيل فارقهم وحل به الردا

هذا ماينبغي التنبيه عليه واعلم ان لهذا الايقاظ مع ما قبله مع القاعدتين المقدمتين في أول الفصل نتيجتان (الاولى) الانتهاز للزايل قبل زواله وسيأتي الكلام عليه في آخر المقام فراجع هناك (الثانية) تجويز مفاجئة زوال الموجود في الحال وتجويز حدوث حادث مفقود وان لم يكن متوقعا في الاستقبال فالاول نطويه في الفصل الآتي وهو الفصل السادس والثاني في مايليه وهو الفصل السابع والاول مقدمة للانتهاز والثاني مقدمة للاستعداد

(الفصل السادس)

في تجويز زوال الموجود بمعنى احتمال مفاجئة زواله قبل المدة المحتملة لزواله والا فكل موجود ذايل ماسوى الله على ماعرفت من المقدمتين فلا يحتاج الواجب الى تجويز والغرض من هذا الفصل وغيره مما تقدم وما يأتي الحزم وهو ان العاقل ينبغي ان يجوز في كل حال خلافه ليكون ركونه وعمله على ماهو الاوثق من الطرفين الجائزين وهو الذي يؤمن معه الوقوع في محذور فاذا عرفت هذا فاعلم ان الحال الذي ينبغي تجويز زواله في ثاني

الحال التي ينبغي تجويز زوالها في ثاني الحال اما حال مبغوض او حال محبوب وفي أي حال يكون يجوز زوالها ولنقدم تجويز الزوال للمبغوض تفاؤلا وتيمنا ثم نعقبه بتجويز زوال المحبوب وهو الذي يبنى عليه الحزم في انتهاز الفرص

أما الاول فقد روى انه لما نزل قوله تعالى (فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسرا) خرج النبي صلى الله عليه وآله يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين وتوضح ذلك ان العرب اذا ذكرت نكره ثم اعادتها نكره مثلها صارت اثنين كقولك اذا كسبت درهما فانفق درهما فالثاني غير الاول ولهذا قال الزجاج انه ذكر العسر مع الالف واللام ثم ثنى ذكره فصار مع العسر يسرين ولبعضهم في هذا المعنى شعر

فلا تيأس اذا أعسرت يوما فقد ايسرت في دهر طويل
فلا تظنن بربك ظن سوء فان الله اولى بالجميل

شد حاكم رجلا على اسطوانه ليضربه فقال حلني من هذه وشدني على الأخرى قيل ولم قال أرجو فرجا بينهما فحله وشده على الاخرى فورد عليه كتاب العزل ومطالبته بالاموال فحلوا ذلك الرجل وشدوا العامل مكانه وأتى الحجاج برجل من الخوارج فأمر بضرب عنقه فاستنظره يوما قال ما تريد بذلك قال أؤمل عفو الامير مع ما تجري به المقادير فاستحسن قوله وخلاه.

عن الرياشي ما اعتراني هم فانشدت قول أبي العتاهية

هي الايام والغير وامر الله ينتظر
اتيأس ان ترى فرجا فأين الله والقدر

الا سرى عني وتنسمت ريح الفرج انها. لكل غمرة محنه ولكل مورد غم مصدر واحسن مايرسم في هذا الباب قول حسن بن زيد النوفلي

صبراً على ما نابنا فعسى وان طالت عسى
فلربما افتقر الغنيّ ونال ذو الفقر الغنى
كل له ضد وضد ذوى الحجا اهل الخنى
ولكل شيءٍ مدة ولكل شيءٍ منتهى
فاصبر فان عواقب الـ ـأيام تقطع ما ترى

(وقال آخر)

لا تجزعن لحادث فلربما ان العسير به يصير يسرا
بقميص يوسف نال يعقوب العمى وبريحه من بعد عاد بصيرا

واما الثاني وهو تجويز الزوال للمحبوب الموجود قال أمير المؤمنين اذكر مع كل لذة ذوالها ومع كل نعمة انتقالها ومع كل بلية كشفها وكتب الاسكندر الى ارسطاطاليس عظني فكتب اليه اذا اصفت لك السلامة فجدد ذكر العطاب واذا اطمأن بك الامن فاستشعر الخوف فاذا بلغت نهاية الامن فاذكر الموت

(الفصل السابع)

في تجويز وقوع الحوادث المفقودة اعم من ان تكون غير معلومة لا بد منها لمفاجاءات الموت فهذان امران اما الاول فقد يعزى لامير المؤمنين لا تفرحن بسقطة غيرك فانك لا تدري ما يحدث بك الزمان وينسب اليه اتأمن من البلاء في امنك ورخائك ومن الامثال الامر يأتيك لم يخطر على بال وقال أمير المؤمنين ثمرة التفريط الندامة وثمرة الحزم السلامة وينسب للحسين ان خوفك حتى تلقي الامن خير من امنك حتى تلقى الخوف

وقال بعض العلماء اعلم ان الامور بغتات فكن على حذر ومن هذا ايضاً قولهم لا فقير افقر من غني يأمن الفقر قال الشاعر

الم تر ان الفقر يرجى له الغنى　　وان الغنى يخشى عليه من الفقر

(وقال آخر ايضاً)

فكم آمن عاش في نعمة　　فما حس بالفقر حتى هجم

(وقال آخر)

ورب غني عظيم الثرى　　امسى مقلا عديماً فقيرا

(واما الثاني) وهو تجويز مفاجئة ما لا بد من وقوعه وهو الموت قال امير المؤمنين ربما تهجمت الامور . ربما تنغص السرور . ربما اوتيت من مأمنك ربما دهمت من نفسك . وقال كم من مسوف بالامل حتى هجم عليه الاجل وقال الشاعر

وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً　　وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري

وقال بعض العلماء اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الازواج ويبني البنيان وان اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . ومن الامثال وامر الله يطرق كل ليله والامر يأتيك لم يخطر على بال

يا راقد الليل مسروراً باوله　　ان الحوادث قد يطرقن اسحاراً

(آخر ايضاً)

يا راقداً والمنايا غير راقدة　　وغافلا وسهام الموت ترميه

بم اغترارك والايام مرصدة　　والدهر قد ملأ الاسماع واعيه

اما رأتك الليالي قبح دخلتها وغدرها باللتي كانت تصافيه

(اخر ايضاً)

وكم من صحيح بات للموت آمناً اتته المنايا بغتـة بعد ما هجع

فلم يستطع اذ جائه الموت بغتة فراراً ولا منـه بحيلته امتنع

وروى انه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر اليه قال ارى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت ايضاً على من لم يسق السم. سمع مجنون رجلا يقول اللهم لا تأخذني على غفلة قال اذا لا يأخذك ابداً وقال رجل لبعض العارفين الا توصيني بشيء قال احذر ان يأخذك الله وانت على غفلة وقال امير المؤمنين اعجز الناس آمنهم لوقوع الحوادث وهجوم الاجل (التهامي)

بينا يرى الانسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الاخبار

فليكن الموت على بالك يامسكين فان السير حاث بك وانت غافل عن نفسك ولعلك قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك الا بالانتهاز والتدارك شعر

فبينما المرء في الاحياء مغتبطا اذ صار في اللحد تسفيه الاعاصير

(الفصل الثامن)

(تجويز تغير المتوقع وخلاف المرجو) اما الاول فاحسن شواهده قوله تعالى ماتدري لعل الله يحدث بعد ذلك امراً وقول امير المؤمنين لولا آية من كتاب الله لاخبرتكم بما كان وما يكون الى يوم القيامة وهي قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وذلك لقوله عندنا علم ماكان ومايكون

وهذا العلم من الارادة والمحو والاثبات تابع المشيئة والمشيئة تابعة للاسباب الواقعة في الوجود فهي متأخرة عن الارادة وليس هذا موضع تحقيق المشيئة والارادة فلنعود الى ما كنا فيه ومن احسن شواهده قوله عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ونقض الهمم وهذه احد الطرق الى معرفة الله سبحانه وهو ان يعزم الانسان على امر ويصمم رايه عليه ثم لايلبث ان يخطر الله تعالى بباله خاطر صارفا له عن ذلك الفعل ولم يكن في حسابه فلو لا ان في الوجود ذاتاً مدبرة لهذا العالم لما خطرت الخواطر التي لم تكن محتسبه وهذا فصل يتضمن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلمون في الخاطر الذي يخطر عن غير موجب لخطوره فانه لايجوز أن يكون الانسان اخطره بباله والا لكان ترجيح من غير مرجح لجانب الوجود على جانب العدم فلا بد أن يكون المخطر له بالبال شيء خارج عن ذات الانسان وذلك الشيء هو المسمي بصانع العالم وليس هذا الموضع مما يحتمل استقصاء القول في هذا البحث ويقال ان عضد الدولة وقعت في يده قصة وهو يتصفح القصص فامر بصلب صاحبها ثم اتبع الخادم خادماً آخر يقول قل للمطهر يعني وزيره لايصلبه ولكن اخرجه من الحبس فاقطع يده فاتبعه خادماً ثالثاً فقال بل تقول له اقطع اعصاب رجليه ثم اتبعه خادماً آخر فقال ينقله الى القلعة بسيراف في قيوده فيجعله هناك فاختلفت دواعيه في ساعة واحدة اربع مرات وأنت أيضا تجد هذا في غالب عزايمك فغيرك كذلك في نقض العزائم ومن شواهد هذا الباب قولهم في الامثال والامر يحدث بعده الامر وقولهم والامر يأتيك لم يخطر على بال ومن هذا الباب أيضا قول أبو العتاهية

ليت شعري فانني لست أدري أي يوم يكون آخر عمري

وبأي البلاد تقبض روحي ... وبأي البقاع يحفر قبري

(وقول لبيد)

لعمرك مايدري المسافر هل له ... نجاح ولايدري متى هو راجع

(وقول احجية الحلاج)

وما يدري الفقير متى غناه ... ولا يدري الغني متى يغيل

(وأما الثاني) وهو تجويز خلاف المرجو فمنه قولهم في الامثال ربما لاترجو أقرب مما ترجو ومنه قول بعضهم

ربّ من ترجو به دفع الاذى ... عنك يأتيك الاذى من قبله

(وقول الآخر)

ربما سرك البعيد من الناس ... وكان القريب ناراً وغارا

(وقول الآخر)

ولا تيأسن من فرجة ان تنالها ... لعل الذي ترجوه من حيث لا ترجو

(وقول الصاحب بن عباد)

أيها المرء كن لما لست ترجو ... من نجاح أرجى لما أنت راج

فابن عمران جاء يقتبس النار ... فناجاه وهو غير مناج

وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام من ضيعه الاقرب أتيح له الابعد وهو ان الانسان قد ينصره من لا يرجو نصره وان اهمله اقربوه وخذلوه فقد يقوم به الاجانب من الناس وقد وجد ذلك في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيعه أهله ورهطه من قريش وخذلوه وتمايلوا عليه فقام بنصره الخزرج والأوس وهم ابعد الناس نسباً منه لأنه من عدنان وهم من قحطان وكل واحد من الفريقين لايحب

الاخر حتى تخب الارض الدم وقامت ربيعة بنصر علي امير المؤمنين في صفين وهم اعداء مضر الذين هم أهله ورهطه وقامت اليمن بنصر معاوية في صفين وهم اعداء مضر أيضاً وقامت الخراسانية وهم عجم بنصر العباسية وهم دولة العرب واذا تأملت وجدت هذا كثيراً شائعاً ولنكف عنان القلم فان التجويزات العقلية لاتنحصر الا ان الغالب منها يكاد ان لايخرج عن هذه السبعة التجويزات التي طويناها في هذه الفصول الثمانية خمسة منها في الواقع الموجود واثنان الأخيران في المتوقع المفقود والانسان لايخلو تعلق ظنه عن أحدهما والحازم يجوز في الواقع الموجود بان يكون على خلاف ظاهره أو تفاوت افراده في الخارج أو تخلفه عما كان عليه في الزمان السابق أو عما يكون عليه في الآن اللاحق ويجوز مفاجئة زوال الموجود في الآن الثاني ويجوز في المتوقع المفقود أمران مفاجئة وقوعه او تغيره عما هو محتمل كما عرفت والاحتياط تابع لهذه التجويزات وقد عرفت الاشارة وسيأتي التصريح

﴿ الروض الثاني ﴾

(في الاحتياط في الامور المشكوكة والمظنونة) وهي اما واقعة في الحال او متوقعه في الاستقبال فللاحتياط حينئذ طرفان

﴿ الطرف الاول ﴾

في الاحتياط في مالا يعلم من الامور الواقعة وقبل البحث عنه وبيان أنواعه واقسامه لابد من تمهيد

(مقدمة) تتضمن أربعة أمور يتوقف الاحتياط على العلم بها

﴿ الأول منها ﴾

(في النهي عن القول بلا علم) فمن ذلك قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم ومن ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام لا تقل ما لا تعلم فتتهم فيما تعلم وقوله أيضا دع القول فيما لا تعرف والخطاب فيما لا تكلف وامسك عن طريق اذا خفت ضلالته وقوله أيضا اياك والكلام فيما لا تعرف طريقته ولا تعلم حقيقته أيضا فان قولك يدل على عقلك وعبارتك تنبئ عن معرفتك فتوق من طول لسانك ما أمنته واختصر من كلامك ما استحسنته فانه بك أجمل وعلى فضلك أدل وقوله عليه السلام وان لا يكون في حديثك فضل من علمك وان تتقي الله في حديث غيرك ومنه قول الباقر عليه السلام اني لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلا عن مقدار علمه كما أكره ان يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله وقال أمير المؤمنين لا يستحين أحد منكم اذا سئل عما لا يعلم ان يقول لا أعلم وكان يقال من استحيا من قول لا أدري كان كمن يستحي من كشف ركبته ثم يكشف سوءته وذلك لأنه من امتنع من قول لا أدري وأجاب بالجهل والخطأ فقد واقع ما يجب في الحقيقة ان يستحي منه وكف عما ليس بواجب ان يستحي منه فكان شبيهاً بما ذكر في الركبة والعورة وقيل أسرع الناس الى الفتوى أقلهم علماً وأشدهم دفعاً لها اورعهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم اجرؤكم على النار اجرؤكم على الفتوى وقال بعض العلماء العالم هو الذي يخاف عند السؤل ان يقال له يوم القيامة من أين اجبت ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع في الارض وشرها قال لا أدري حتى نزل عليه جبرائيل عليه السلام فسأله فقال لا أدري الى ان اعلمه الله عز وجل ان خير البقاع المساجد وشرها الاسواق وقال أمير

المؤمنين عليه السلام لا تقل مالا تعلم بل لا تقل كلما تعلم فان الله سبحانه قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة وهذا نهى عن الكذب وان تقول مالا تأمن كونه كذباً فان الآخرين كليهما قبيحان عقلا وقيل من علامات العاقل قوله اذا سئل لا أدري فأما اذا علم به وقال لا أدري فقد أخذ نفسه بكتمانه حتى لا يظهر أثره ليذهب عنه شره وهذه خصلة قل من اتصف بها من الا كياس لان الاعتراف بالجهل شديد على الناس وأما اذا لم يعلم بها فقال الحق بأني لا أدري فهذه من صفات الكاملين وقال أمير المؤمنين عليه السلام حدثوا الناس بما تعلمون ودعوهم مما لا تعلمون اتحبون ان يكذب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وقال عليه السلام لا تحدث الناس بكل ما تسمع فكفى بذلك خرقاً ولا ترد على الناس كلما حدثوك فكفى بذلك حمقاً وقيل اياك وحكاية كل ما تسمعه ليجد عدوك سبيلا الى تكذيبك وقال أمير المؤمنين عليه السلام لا تخبرن الا عن ثقة فتكن كذاباً ان خبرت من غيره فان الكذب مهانة ومن ابيات للزبير ابن عبد المطلب

ولا تنطق الدهر في مجلس حديثاً اذا أنت لم تحصه
ونص الحديث الى أهله فان الوثيقة في نصه

(الثاني)

(في ذم الظن والعمل به وعليه) ويكفي في ذلك قوله سبحانه وتعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا الآية . وقد وقع في أمثال العرب ظنوا به الظنانات والظنانة المرأة التي تحدث بمالا علم لها به قال ذلك رجل غاب له أخ وبقى له اخوة مقيمون فاستبطؤه لموعده الذي وعدهم

فقال أحدهم ظنوا به الظنانات فقال أحدهم اظنه لقيه ذو النبالة الكثيرة فقتله يعني القنفذ وقال الآخر أظنه لقيه الذي رمحه في استه فقتله يعني اليربوع وقال الآخر أظنه لقيته حجمة عينين فأكلته يعني الارنب ويقال يعني الذئب وقال الآخر اظنه اضطره السيل الى جرثومة فمات من العطش يضرب هذا المثل عند الحكم بالظنون . وقال ابن الجوزي قال مروان بن الحكم لجيش ابن دلجه اظنك احمق فقال احمق ما يكون الشيخ اذا عمل بظنه ومما اتفق لابي نواس وقد امر الرشيد بقتله فقال ياامير المؤمنين اتقتلني شهوة لقتلي ام استحقاقا فان الله يحاسب ثم يعفو ويعاقب فبما استحقيت القتل

(قال بقولك)

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ‏ ‏ ‏ ‏ ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر

قال ياامير المؤمنين اعلمت انه سقاني وشربت قال اظن ذلك قال اتقتلني بالظن قال تستحق بقولك في التعطيل

ماجاءنااحد يخبر انه ‏ ‏ ‏ ‏ في جنة مذمات اونار

قال افجاءنا احد يا امير المؤمنين قال تستحق بقولك

ياأحمد المرتجى في كل نائبة ‏ ‏ ‏ ‏ قم سيدي نعص جبار السموات

قال ياامير المؤمنين افعلت قال لااعلم قال افتقتلني على مالم تعلم ورفع الى كسرى ابرويز ان النصارى الذين يحضرون باب الملك يعرفون بالتجسس الى ملك الروم فقال من لم يظهر له ذنب لم يظهر منا عقوبة له ورفع مزيد زقاً فارغاً فامر الامير بضربه فقال له لم تضربني قال لان معك الخمر قال انت اعزك الله معك آلة الزاني ومثل هذا ما حكي انه قدم لبعض الحكام

شيخ ومعه قنينة فارغة فامر ان يجلد الحد فقال الشيخ ولم تجلدني الحد قال لان معك آله الخمر قال فكشف الرجل عن ذكره وقال هذا ايضاً آلة الزنا قال فضحك منه هو والحاضرون واطلقه لشأنه وهذا الذي ذكرناه لك من باب التمثيل والا فالعمل بالظن مذموم بالضرورة وجميع مافي الروض الاول في ذم العمل على الظن ولا يخرج منه ما كان مجعولا بنظر الشارع كالذي حررناه فيما تقدم من الامور الكاشفة كالاستخارة والاستشارة وهوى النفس وغير ذلك من الامارات فانما يعتمد العمل عليها من جهة الشرع والعرف وكذلك ما استثناه الاصوليون من اصالة حرمة العمل بالظن كالعمل بخبر الواحد والشهرة والاجماع وغير ذلك من الظنون الخاصة فانها استثنيت من جهة اعتبار الشارع لها والعقل ايضاً وماسوى ذلك فانه مذموم شرعا وعقلا

(الثالث من الامور)

في ذم القياس على الظواهر المتشابهة حيث لا نسبة بين المقيس والمقيس عليه وفي وقوع الخطاء من العمل عليها من غير كشف على حقيقتها فهذان امران أما الاول فقد ينم على العين ماينفيه العقل ويتصوره الفكر ما ليس له اصل قال الله تعالى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً الآية وان الجراد تظنه على صورة الفيل وان دحية الكلبي كان اشبه الناس بجبرائيل

(قال ابو اسحق الغزى)

دع ما تناسب في الابصار ظاهره ولا تقل بقياس غير مطرد
فنسبة المتنافي لا اعتداد بها شتان ما بين مهتز ومرتعد

(وقال السراج الوراق)

قد تشبه الحالة الاخرى وبينهما اذا تأملت فرق عن سواك خفي
فربما صفق المسرور من فرح وربما صفق المحزون من أسف

ومن الامثال على مازعموا ان بطة رأت ضوء كوكب في الماء فظنته سمكة فحاولت ان تصيدها فلما جربت ذلك مراراً علمت انه ليس شيء يصاد فتركته ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة فظنتها مثل الذي رأته بالامس فتركتها ومعنى هذا المثل انه ينبغي للانسان ان يميز ما بين الواقع والظاهر ولا يوقع احدهما مع الآخر ومثل ذلك ما في بعض كتب الهند من امثالهم أن صياداً كان في بعض الخلجان يصيد فيه السمك في زورق فرأى ذات يوم في قاع الماء صدفة تلألأ حسناً فتوهمها جوهراً له قيمة وكان قد القى شبكته في البحر فاشتملت على سمكة كانت قوت يومه فخلاها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة فلما اخرجها وجدها صدفة فارغة لاشيء فيها مما ظن فندم على ترك مافي يده للطمع وتأسف على مافاته فلما كان في اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان والقى شبكته فاصاب حوتا صغيراً ورأى ايضا صدفة سنية فلم يلتفت اليها وساءظنه بها فتركها فاجتاز بها بعض الصيادين فاخذها فوجد فيها درة تساوي اموالا فلا ينبغي للحازم ان يقيس الظواهر من دون الوقوف على حقائقها والالتفات الى النسبة الرابطة (واما الثاني) وهو وقوع الخطأ من العمل على الظواهر من غير كشف على الحقائق فكثير واكثر منه الندم بعده وانورد لك نبذة يسيرة تستكفي بها ان كنت ذا بصيرة. فمن ذلك ماذكره ابن الجوزي في الاذكياء قال حدثني بعض الاخوان ان رجلا جاء الى بزاز فاستقرض منه ثيابا بثمانمائة دينار ثم وزنها له فلما تسلمها قال الرجل لقد غبنتني فعاد وجمع الدنانير

وتركها في خرقة وختمها ورمى بها في كم غلامه ثم قال ما انا الا متردد افتأذن لي ان ارى الثياب لمن اشتريتها له فان رضي والا رددتها قال نعم فادخل يده في كم غلامه فاخرج الخرقة فاذا بها فلوس وقد جعل في كم غلامه خرقة مثلها وفيها وزن الثلثمائة. ومن ذلك ما حكي ان شخصا كان باصبهان يقال له السماك ابن النعمان وكان يهوى مغنية من اهل اصبهان كاملة الاوصاف تعرف بأم عمر فلافراط حبه لها وصبابته بها املكها جملة مستكثرة من ضياعه وكتب بذلك صكاكا وحمل الصكاك اليها على بغل وشاع الخبر بذلك واستعظموه وتحدث الناس به وكان اذ ذاك رجل احمق يهوى مغنية اخرى فلما اتصل به خبر سماك ظن بحمقه انما اهدى جلوداً بيضاء الى محبوبته خالية من كتابة وان هذا من الهدايا التي تستحسن للاحباب فابتاع جلوداً كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته تضعف هدية سماك وارسلها الى محبوبته فلما وصلت الجلود اليها تعجبت لذلك فاخبرت بقضية سماك على وضعها فتفطنت لذلك واستعملت بعض الشعراء ان يعمل لها ابياتاً في هذا المعنى فعمل ابياتاً من جملتها هذه الابيات

أرأيت من يهدي الجلو	د الى حبيبته سواكا
وأظن انك رمت أن	تحكي بفعلك ذا سماكا
ذاك الذي أهدى الضيا	ع لام عمر والصكاكا
فبعثت منتنة كأ	نك قد مسحت بهن فاكا
مالي بقربك ياجهو	ل ولست أهوى أن أراكا
لكن لعلي ان اقطع	ما بعثت على قفاكا

وكتبت ذلك وارسلته له مع شتم وتوبيخ فجاء اليها واعتذر بأن الحامل

له على ذلك هو الظن الذي ظنه . ومنه ما حكى عن الاصمعي قال نزلت في بعض احياء العرب فنظرت الى قطع من القديد منظومة في خيط فأكلتها فجاءت المرأة وقالت اين ما كان في الخيط قلت اكلته قالت ليس هذا مما يؤكل فاني اخفظ الجواري وكلما اخفظت جارية علقت خفظها في هذا الخيط ومنه ماورد من الامثال ان حمامة مرة عطشت فاقبلت تحوم حول حائط في طلب الماء فنظرت عليه صورة صحيفة مملوئة ماء فطارت بسرعة وضربت نفسها على تلك الصورة فانشقت حوصلتها فقالت الويل لي فأني لم اترو في الصحيح والمعتل وافرق بين الحق والباطل حتى جلبت المنية لروحي بيدي ومن هذا الباب خبر طرفه بن العبد والمتلمس الضبي المشهور وذاك انهما وفدا على عمر بن هند ونادماه واختصابه ثم افضى الامر الى ان هجاه كل واحد منهما وعرض به في الشعر فحنق عليهما وهمّ بقتلهما ثم اشفق من ذلك واراد قتلهما بيد غيره وكان على طرفه احنق فعلم انه ان قتله هجاه المتلمس فكتب لهما كتابين الى البحرين وقال لهما اني قد كتبت لكما بصلة فاشخصا لقبضها فخرجا من عنده والكتابان في أيديهما فمرا بشيخ جالس على ظهر الطريق متكشفاً يتبرز ومعه كسرة خبز يأكل منها ويتناول القمل من ثيابه فيقصعه فقال احدهما لصاحبه هل رأيت اعجب من هذا الشيخ فسمع الشيخ مقالتهما فقال وما ترى من عجبتي ادخل طيباً واخرج خبيثاً واقتل عدواً واذا عجب مني لمن يحمل حتفه بيده وهو لا يدري فاوجس المتلمس في نفسه خيفة وارتاب بكتابه ولقيه غلام من أهل الحيرة فقال له اتقرئ ياغلام فقال نعم ففض خاتم الكتاب ودفعه الى الغلام فقرأه فاذا فيه اذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه حياً فاقبل على طرفه فقال له

تعلمن والله لقد كتب فيك بمثل هذا فادفع كتابك الى الغلام يقرؤه عليك فقال كلا والله ما كان ليجسر على قومي بمثل هذا ولم يلتفت الى قول المتلمس فالقى المتلمس كتابه في نهر الحيرة ومضى طرفة بكتابه الى البحرين فأمر به المعلاّ بن خنيس العبدي فقتل فقال المتلمس

عصاني فما لاقى الرشاد وانما يبين من أمر الغوى عواقبه

فاصبح محمولا على ظهر آلة تمج نجيع الجوف منه ترائبه

ومن هذا الباب أيضاً ما حكاه السيد نعمة الله الجزائري قال كان في عصرنا قاض رأيته أنا وكان قد رأى حصانا راكبه رجل فاستحسنه فقال لرجل آخر أمض الى هذا الرجل وادع عليه هذا الفرس وجره الى المحاكمة فمضى الرجل الى صاحب الحصان وادعى عليه ان هذه الفرس لي من غير ان يلاحظ انها فرس أو حصان كما لم يلاحظه القاضي أيضا فلما تداعيا عند القاضي قال القاضي لصاحب الحصان الك شاهد على ان هذه الفرس مالك فقال نعم شاهدان عادلان فرفع جلال الحصان واخرج خصيتيه من تحت الجلال فقال هذان شاهدان على انه ليس بفرس فانقطع القاضي. وقال ابن الجوزي في الاذكياء كان رجل فقيه خطه في غاية الردائة فكانت الفقهاء يعيبونه بخطه ويقولون لا يكون خط اردأ من خطك فيضجر من عيبهم اياه فمر يوماً بمجلد يباع فيه خط أردأ من خطه فبالغ في ثمنه واشتراه بدينار وقيراط وجاء به ليحتج عليهم اذا قرؤه فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه فقال لهم قد وجدت أقبح من خطي وبالغت في ثمنه حتى اتخلص من عيبكم واخرجه فتصفحوه واذا في آخره اسمه وانه كتب في شبابه فخجل من ذلك وندم على عجلته وانه لم يكشف على حقيقته ويقف

على آخره وهذه الامثال كلها تقتضي التثبت والكشف عن حقائق الامور الغير معلومة قبل ارتكابها والا فلا يؤمن معها الوقوع في محذور كما عرفت

﴿ الرابع من الامور ﴾

في تعريف الاحتياط وحقيقته . قيل هو فعل ما يتمكن به من ازالة الشك وقيل التحفظ والاحتراز من الوجوه لئلا يقع في مكروه وقيل استعمال ما فيه الحياطة اي الحفظ وقيل هو الاخذ بالاوثق من جميع الجهات واذا عرفت هذا فاعلم ان للاحتياط بحسب الاستقراء لموارده اربع طرق الاول التبين والتثبت فيما لا تعلم حقيقته الثاني اجتناب ما يحتمل ضرره ومالا يؤمن معه الوقوع في محذور الثالث فعل مايؤمن به المحذور اويحتمل فيه النفع او الحاجة الرابع الاخذ بالاوثق من طرفي الشك وهو ما يؤمن معه احتمال الضرر اعم من ان يكون الاوثق فعلا او تركا هذه طرقه واذا لاحظت التعاريف الاربعة لم تجد منها ما عدى الثالث تعريفاً جامعاً لجميع طرق الاحتياط المذكورة اما التعريف الاول فهو وان اشتمل على الطريق الثالث وبعض الرابع وهو فيما اذا كان الاوثق فعلا الا انه لا يشمل الطريق الاول وهو التبين والتثبت والثانى وهو الاجتناب وأما التعريف الثاني فعكسه مشتمل على الطريق الاول والثاني ولا يعم الثالث والرابع وأما التعريف الرابع فلا ينطبق الا على الطريق الرابع واما التعريف الثالث فهو وان كان جامعاً لجميع طرقه لكنه ليس مانعاً من دخول ماليس من الاحتياط كاستعمال ما يحتمل ضرره أيضا او يعلم بضرره لدفع ما يحتمل الضرر المحتمل فاذا دفعه بما يحتمل ضرره ايضا لم يصنع شيئا وما فر منه وقع فيه وحينئذ فالاحتياط في ترك هـذا الاحتياط وأما اذا دفع الضرر المحتمل باستعمال معلوم الضرر

فذاك من قبيل دفع الفاسد بالافسد وعلى كلا الامرين يصدق استعمال
مافيه الحياطة واذا عرفت هذا فالتعريف الجامع لطرق الاحتياط المانع من
الاغيار هو استعمال ما يؤمن به الخطاء أو الوقوع في محذور مما لايحتمل
الضرر في فعله او تركه فيقول ان استعمال ما يؤمن به الخطاء او الوقوع فى
محذور دخل التبين والتثبت وهو الطريق الاول واجتناب ما يحتمل ضرره
وهو الثاني وفعل ما يؤمن به المحذور وهو الثالث والاخذ بالاوثق من
الطرفين وهو الرابع وبقولنا مما لا يحتمل الضرر في فعله او تركه خرج
استعمال ما يحتمل الضرر في فعله او تركه وأما مايعلم الضرر في احدهما فبالاولى
واذا عرفت ان للاحتياط اربع طرق فلا بد من بسط الكلام فيها وذكر
مالا بد من ذكره من اخبار وأقوال وأمثال لتتضح لك حقيقته وتستقيم لك
طريقته فنقول وبالله المستعان وعليه التكلان

﴿ الطريق الاول ﴾

من طرق الاحتياط التبين والتثبت فيما لا تعلم حقيقته ويتأكد فيما لا
يمكن به تداركه بعد ارتكابه لو تبين الخلاف أما اذا أمكن تداركه بعد فعله
فلا يتأكد التثبت. ثم التبين هو الفحص والكشف والسؤال حيث يمكن
تحصيل العلم في الحال وأما اذا لا يمكن الا في ثاني الحال فالتثبيت وهو قسمان
توقف عند الشك وتأن عند الظن وكلاهما لتحصيل العلم بحقيقة الموضوع او
الحكم وذلك حيث يمكن تحصيله اما اذا لم يمكن تحصيله او خيف فواته قبل
التحصيل فلا معنى للتوقف والتأني وحينئذ فالرجوع الى الطريق الثالث او
الرابع ان امكن تحصيل الاطمأنان والعلم الاجمالي بأحد الطريقين والا
فالرجوع الى الطريق الثاني وهو الاجتناب على ما سيئاتي بيان الجميع ثم

الشرط في التبين والتثبت بقاء الموضوع على ماعرفت وحيث عرفت المورد والشرط والتقسيم فلنشرع لك في بيان الاقسام وتوضيحها

﴿ القسم الاول ﴾

الفحص والكشف والسؤال عند الشبهات ان أمكن لك في الحال ممن هو عالم بحقيقة الامر والحال فالمشتبهات أيضا نوعان شرعيات وعرفيات أما الشرعيات ففي الحديث عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام انه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الامور ثلاثة. أمر بين لك رشده فاتبعه وأمر بين لك غيه فاجتنبه وامر اختلف فيه فرده الى الله عز وجل وفي الحديث ايضاً عن ابي جعفر عليه السلام في وصيته لاصحابه اذا اشتبه الامر عليكم فقفوا عنده وردوه الينا حتى نشرح لكم عن ذلك ماشرح الله لنا وفيه أيضاً عن ابي عبد الله انه لا يسعكم فيما نزل بكم مما لا تعلمون الا الكف عنه والتثبت والرد الى ائمة الهدى عليهم السلام حتى يحملوكم فيه على القصد ويجلوا عنكم فيه العمى ويعرفوكم فيه الحق قال الله تعالى فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وفيه ايضا ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله فيمن غسل مجدوراً اصابته جنابة فكز فمات قتلوه قتلهم الله تعالى الا سألوا الا يمموا وما رواه القمي في تفسير قوله تعالى الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم نزلت فيمن اعتزل عن امير المؤمنين عليه السلام ولم يقاتل معه قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض اي لم نعلم الحق فقال الله تعالى ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها اي دين الله وكتابه واضحاً متسعاً فتنظروا فيه فترشدوا وتهتدوا به سبيل الحق هذا في الشرعيات واما العرفيات فقد قال بعض الالباء اذا دخل احدكم بيتا فليجلس حيث اجلسه اهله وقال بعضهم من الادب اذا سرت مع رجل

الى منزله ان تدخل بعده وتخرج قبله وقال آخر اذا دخلت منزل قوم فاجلس حيث يجلسك رب المنزل فكل انسان اعرف بعوائد منزله

(القسم الثاني)

التوقف عند الشبهات بمعنى عدم المضى فيها والاقدام عليها حيث يمكن تحصيل العلم بها في الحال ويدل على ذلك قول امير المؤمنين عليه السلام من الحزم الوقوف عند الشبهة وقوله امسك عن طريق اذا خفت ضلالته وقوله عليه السلام لاتعزم على ما لا تستبين الرشد فيه وقول ابي عبدالله الصادق عليه السلام الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات وقول أبي جعفر عليه السلام حق الله على العباد ان يقولوا مالا يعلمون ومثال التوقف عند الشبهات مثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون اذ هاجت عليهم ريح عجاجه فضلوا عن الطريق فالتبس عليهم فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فاخذوا فيها فتاهوا وضلوا وقال بعضهم ذات الشمال فاخذوا فيها فتاهوا وضلوا واناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسافروا هذا واعلم ان حكم المجهول كحكم المشكوك في التوقف فيه فقد قال أمير المؤمنين لا تزهدن في شيء حتى تعرفه ولا تقدمن على أمر حتى تختبره وورد أيضاً في الحديث اذا رأيت جوهراً لاخير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه وهنا

﴿ تنبيه ﴾ هو ان الشك اما ان يكون مسبوقا بيقين أولا والثاني مورد البرائة وليس هذا موضع تحقيقها والاول مورد الاستصحاب بمعنى الغاء الشك والمضي على المتيقن السابق وبعبارة اخرى اجزاء اليقين السابق في آن الشك اللاحق وعرّف بانه ابقاء ما كان على ما كان عليه وعليه قول

امير المؤمنين من كان على يقين فشك فليمض على يقينه فأن الشك لا ينقض اليقين وقوله عليه السلام في رواية اخرى من كان على يقين فاصابه شك فليمض على يقينه فان اليقين لا يدفع بالشك وقوله عليه السلام في حديث آخر اياك ان تغلبك نفسك على ماتظن ولاتغلبها على ماتستيقن فان ذلك من اعظم الشر وينبهك على ذلك ما حكى ان رجلا جاء الى بعض العلماء فقال له ان الشيطان يأتيني فيقول انك قد طلقت زوجتك فيشككني فقال له اوليس قد طلقتها قال لاقال الم تأتني امس فطلقتها عندي فقال والله ماجئتك الااليوم ولاطلقتها بوجه من الوجوه قال فاحلف للشيطان اذا جاءك كما حلفت لي وانت في عافية فاذا عرفت هذا فاعلم ان الاستصحاب لا يختص بالشرعيات بل يجري في العرفيات كجريانه في الشرعيات ثم لا فرق عندي بين ان يكون زمان المتيقن السابق هو الماضى وآن المشكوك اللاحق هو الحال وبين أن يكون زمان المتيقن السابق هو الحال وزمان المشكوك اللاحق هو الاستقبال اذ الاخبار الواردة لايفهم منها الاحكم الشك بعد اليقين واما خصوصية زمان ماض اوحال او استقبال فلا. وحينئذ يجري الاستصحاب في الاستقبال كجريانه في الحال لافرق وسيأتي زيادة توضيح لما قلنا عند الكلام على الطرف الثاني من طرفي الاحتياط فيما اذا كان متعلق الشك زمان الاستقبال فراجع هناك

القسم الثالث

التأني عند الظن حيث يمكن تحصيل العلم أيضاً ولا يحتمل فوات الموضوع قبل ذلك بمعنى احتمال عدم امكان تداركه ولو تبين الخلاف بعد التأني فيه

اذ التأني مع احتمال فوات الموضوع تأنياً مذموما كما ستعرفه في التنبيهات هنا وفي بيان انتهاز الفرص في الطرف الثاني من طرفي الاحتياط وفي التأني فضل وثمرات لايعرفها الا من استعمل التأني في مواضعه قال صاحب كتاب اخبار الدول وآثار الاول بعد قوله في المدة التي خلق الله فيها السموات والارض في ستة ايام فان قيل لم لا خلقها في لحظة واحدة وهو اهون عليه فالجواب من وجوه منها ان التثبت ابلغ في القدرة والتعجيل لاتقضيه الحكمة قاله بن عباس ومنها ان الذي يتوهمه المتوهم من ابطاء الخلق في ستة آلاف يتوهمه في ستة ايام عند تأمل قوله تعالى انما امره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون وكان قادراً على ان يخلق المخلوقات في لحظة واحدة وانما خلقها في ستة أيام تعليما لخلقه الرفق والتثبت في الامور وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعطى حظه من الرفق اعطى حظه من الدنيا والآخرة ومن حكم لقمان انه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما اتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب انت فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله . ومن ثمرات التأني غيبوبة الرأي وزيادة التدبير واحكام الامر ففي الاناة في التدبير حضور ما غرب من الرأي في الصواب منه وقد قيل دع الرأي يغب فان غيبوبته تكشف لك عن محضه ومنه ماقيل في الامثال للمستشار حيرة فليمهل حتى يغيب رأيه فاذا عرفت ماعرفت من فضل التأني في الامور فلنكشف لك الغطاء عن غايات التأني التي هي المقتضيات له عقلا لتكون على بصيرة من محله ومورده ومقداره فنقول وبالله المستعان . للتأني غايات اربعة الاولى التبيين والوقوف على حقيقة الامر وهذه هي العمدة في غايات التأني وبدونها لا معنى لها كما عرفت سابقاً (الثانية) الوقوف على الغاية والآخر وهو المعبر عنه بالاستقراء

لاجتراء الشيء . الثالثة تحصيل الفرصة ما لم يكن هناك فرصة . الرابعة التمكن والثبوت للشيء الذي هو مورد التأني وذلك لا يكون الا في امر نافع وهذا في قبالة المعاجلة للامر الضار قبل ثبوته فاذا عرفت ذلك اجمالا فلنفصل لك الغايات الاربعة تفصيلا ليتضح ما اجملناه

(الغاية الاولى)

للتأني التبين والكشف عن حقيقة الامر واحسن شواهده قوله تعالى يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة نزلت في الوليد بن عقبه بن ابي معيط بعثه النبي الى بنى المصطلق بعد الواقعة وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فخرجوا يتلقونه تعظيماً لامر النبي ففزع ورجع الى النبي وقال منعوني صدقاتهم وارادوا قتلي فغضب النبي ثم كشف امرهم فوجد ما قاله كذباً فنزلت هذه الآية وسماه الله تعالى فاسقاً وفي أمثال العرب ان اطلاعاً قبل ايناس يضرب هذا المثل في ترك الثقة بما يورد المنهى دون الوقوف على صحته يعني ان نظراً ومطالعة بصحة معرفتك قبل أشعارك التيقن انشد ابن الاعرابي شعر

وان أتاك امرؤ يسعى بكذبته فانظر فان اطلاعا قبل ايناس

الاطلاع النظر والايناس التيقن وقال بعض الالباء ينبغي للوالي ان يثبت فيما نهى اليه ولا يتعجل ويتأنى ويتمهل حتى ينظر ويستكشف الحال ويأخذ بأدب سليمان عليه السلام حيث قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام لا تعجلن على تصديق ساع فان الساعي غاش وان تشبه بالناصحين ومن هذا الباب قول بعض الشعراء

ولا تعجل بظنك واختبره   فعند الخبر تنقطع الظنون

وقول بعض الالباء لا تحملن على اخيك بلائمة قبل استعتابه على زلته ومعرفة عذره في هفوته وفي مثل ذلك يقول بعضهم

تأن ولا تعجل بلومك صاحباً   لعل له عـذر وانت تلوم

﴿ الغاية الثانية ﴾

للتأني الوقوف على نهاية الشيء وآخره قال الله تعالى ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه . وعن النبي صلى الله عليه وآله انه قال اذا سأل سائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوا عليـه بوقار ولين او ببذل يسير او برد جميل فانه قد يأتيكم من ليس من أنس ولا جان ينظر كيف صنيعكم فيما اعطاكم الله وملككم الحديث وسئل المأمون يوما عبدالله ابن طاهر عن شيء فاسرع الى جوابه قبل أن يستكمل مراده من سؤاله فقال مهلا فان الله تعالى قد قطع عذر العجول بما مكنه من التثبت وأوجب الحجة على الخلق بما بصرهم به من فضل الافات في افعاله اذا خير بخلق السموات والارض في ستة أيام ولو شاء لخلقها في لحظة عين وحكي انه وقف سائل على باب فقال يا أهل الدار فبادر صاحب الدار قبل ان يتم السائل كلامه فقال صنع الله بك ما صنع فقال السائل يا ابن البظراء اكنت تصبر حتى تسمع كلامي عسى جئت ان ادعوك الى دعوة ومن الامثال اجهل من قاضي جبل هذا القاضي قضى لخصم جاءه وحده ثم نقض حكمه لما جاء الخصم الآخر ومنها ايضاً اذا اتاك احد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله قد فقئت عيناه جميعا ومن كلام بعض الحكماء اياك والعجلة فانها تكنى ام الندامة لان صاحبها يقول قبل ان يعلم ويجيب قبل ان

يفهم ويعزم قبل ان يفكر ويقطع قبل ان يقدر ويحمل قبل ان يجرب ويذم قبل ان يخبر ولن تصحب هذه الصفة احداً الا صحب الندامة وجانب السلامة واوصى رجل ابنه فقال يا بني اذا كنت في قوم ودار بينهم تدبير فلا تعجل بالجواب قبل ان تعرف ما عندهم فان اصابتك للرأي بعد خطأ القوم احمد لك من اصابتك قبل كلامهم فانه لا يعرف فضل رأيك على غيره الا بعد المعرفة بما عندهم فعند ذلك يستبين العدل الشديد من السفه والرأي الرشيد من الكريه ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضع الخطاء

﴿ الغاية الثالثة ﴾

للتأني امكان الفرصة في الامر الغير فوتي وهذه في قبالة انتهاز الفرصة في الامر الفوتي فلا تغفل قال امير المؤمنين عليه السلام ذر العجلة في الامور فان العجل لا يدرك مطلبه ولا يحمد أمره وسئل عليه السلام عن الجهل قال سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها وقال الشريف الرضى رحمه الله

العزم في غير وقت العزم معجزة ... والازدياد بغير العقل نقصان

(وينشد لطاهر بن الحسين)

ركوبك الامر مالم تبد فرصته ... جهل ورأيك في الاقحام تغيير

فاعمل صواباً وخذ بالحزم مأثرة ... فلن يذم لاهل الحزم تدبير

وكان يقال اناة فيها درك خير من عجلة فيها فوت وقال بعضهم

خليلي لا تستعجلا وانظرا غدا ... عسى ان يكون الرفق في الامر ارشدا

(وقال آخر أيضاً)

لا تعجلن بأمر انت طالبه ... فقلما يدرك المطلوب ذو العجل

فذو التأني مصيب في مقاصده　　وذو التعجل لايخلو من الزلل

وقيل للمهلب بن أبي صفرة ما الحزم قال تجرّع الغصص الى ان تنال الفرص ومثل هذا كثير في امثال العرب قال بعضهم

خذ الأمور برفق واتئد أبداً　　اياك من عجل يدعو الى وصب

الرفق احسن ماتؤتى الاموربه　　يصيب ذوالرفق أويجو من العطب

(وقال آخر ايضا)

تثبت بالامور ولا تبادر　　لشيءٍ دون مانظر وفكر

قبيح ان تبادر ثم تخطي　　وترجع للتثبت دون عذر

هذه نبذة يسيرة في التثبت لامكان الفرصة وسيأتي الكلام عليها بما لامزيد عليه في السياسات العقلية في شرائط التوصل الى المطالب المتعسرة فانتظره

﴿ الغاية الرابعة ﴾

للتأني التمكن والتمكين وبعبارة اخرى التأني في الامر الى ان يتم ويقوى قال صاحب كتاب السيرة النبوية لما وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وآله رمى القوم بانفسهم عن ركائبهم بباب المسجد ودخلوا بثياب سفرهم وتبادروا يقبلون يده ورجله وكان فيهم عبدالله بن عوف الاشج وهو رأسهم وكان أصغرهم سنا فتخلف عند الركائب حتى اناخها وجمع المتاع وذلك بمرأى من النبي واخرج ثوبين أبيضين فلبسهما ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله فقبلها وكان رجلا ذميما ففطن لنظر رسول الله الى دمامته فقال يارسول الله انه لايستقي اي لايشرب في مسوك الرجال اي جلودهم انما يحتاج

من الرجل الى اصغريه قلبه ولسانه فقال رسول الله ان فيك خلتين وفي رواية خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والاناة فقال يارسول الله انا اتخلق بهما ام الله جبلني عليهما قال بل الله جبلك عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله ومثل هذا ما حكى عن عبد الله بن منصور قال كنت يوماً عند الفضل بن يحيي فدخل حاجبه فقال بالباب رجل يطلب الاذن ويزعم ان له ماتة يمت بها قال الفضل هاته فدخل رجل جميل الوجه رث الهيئة فسلم فاحسن فاومأ اليه بالجلوس فجلس فلما علم انه قد أفرغ روعه قال له ما الذي تمت به قال جوار قريب وولادة تقرب من ولادتك واسم مشتق من اسمك قال اما الجوار فحسن ممكن وقد يوافق الاسم الاسم فما علمك بالولاده قال اخبرتني امي انها لما وضعتني قيل لها ولد الليلة ولد ليحيي واسمه الفضل فسمتني امي فضيلا اكباراً لاسمك فتبسم الفضل فقال كم لك من السنين قال له خمس وثلاثون قال صدقت هو المقدار قال فما فعلت امك قال توفيت قال فما منعك من الالحاق بنا قال لم ارض نفسي للقائك حتى رضتها بلقاء مثلك فحينئذ حملتها عليه فعجب الفضل من كلامه وقال ياغلام اعطه لكل سنة الفاً واعطه من كسوتنا ومراكبنا ووصائفنا مايصلح به ويظهر حاله واستعمله وشاهدنا للباب من هذه الحكاية قول الرجل لم أرض نفسي للقائك حتى رضتها بلقاء مثلك وبعده حملتها على لقائك وهذا هو الحزم لا العجلة في التصدي للامور ومن كلام ابي سهل الصعلوكي من تصدر قبل اوانه فقد تصدى لهوانه وقال القليوبي في نوادره ان ابن جني قد قرأ على أبي علي الفارسي وجلس ابن جني للتدريس بالموصل فمر عليه يوما ابو علي الفارسي فرآه في حلقته فقال له تزببت وانت حصرم فترك

التدريس وذهب الى شيخه فلم يفارقه حتى مهر ومن امثال العرب عجلت الكلبة ان تلد ذا عينين وذلك ان الكلبة تسرع بالولادة حتى تأتي بولد لايبصر ولو تأخر ولادها لخرج الولد وقد فتح يضرب للمستعجل عن ان يستتم حاجته. ومن الامثال أيضاً ماحكى ان رجلا اشترى خروفاً هزلا وأخذ يقوده فوجد في الطريق حشفة فوضعها في فم الخروف وقبل ان تدخل جوفه التمس اليته لعله سمن بتلك الحشفة. ومن امثال العرب أيضاً في التأني الى ان يتم الامر قولهم احلم من فرخ عقاب. ذكر الاصمعي انه يخرج من بيضه على رأس نيق فلا يتحرك حتى يقر ريشه ولو تحرك سقط. هذه غايات التأني وبدونها لامعنى للتأني

(تنبيهان الاول)

لا اشكال في عدم اعتبار التأني والترديد عند وضوح الأمر. قال ارسطاطاليس من استعمل الفكرة في موضع البديهة فقد اضر بخاطره ويحكى ان اياس بن معاوية كان يفصل بين الغرماء واذا تبين له الامر حكم فقيل له فيك تعجيل بالقضاء فقال كم هذه واشار بيده قالوا خمسة قال عجلتم الا قلتم واحدة واثنين وثلاثة وأربعة وخمسة قالوا مانعد شيئاً قد عرفناه قال فما احسن شيئاً قد تبين لي فيه الحكم وكان اسحق بن فروه مزاحاً فقال لاعرابي يوماً وهو يمازحه اتشهد بما لم تره عينك فقال نعم اشهد ان أباك فعل بأمك ولم أرى ذلك فحاف ان لا يمازح أحداً وهاتين الحكايتين من قبيل التمثيل في ذم التأني في الضروريات والمقصود منه عدم اعتبار الترديد المستلزم للتأني في الامر الواضح وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام من يتردد يزدد شكا وفي امثال العرب العزيمة حزم

والعزم القطع على الامر بعد الروية فيه ولهذا لايوصف الله عز وجل بالعزم كما لايوصف بالروية يقول اذا رأيت صواباً فلا تتردد ولكن امض عليه فان ذلك هو الحزم ولما عزم المنصور على الفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى فكتب اليه هذا البيت

اذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبر ... فان فساد الرأي ان تتعجلا

(فاجابه المنصور)

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فان فساد الرأي ان تترددا

ولا تمهل الاعداء يوماً بغدوة ... وبادرهم وان يملكوا مثلها غدا

(التنبيه الثاني)

في موارد العجلة وموارد التأني ليتضح لك ان التأني الممدوح في غير موضعه يكون توانياً مذموماً والعجلة المذمومة اذا وقعت في موردها تكون انتهازاً محموداً واذا عرفت هذا فللتأني والعجلة بحسب استقرائنا ستة موارد

(الاول)

الأمر المشكوك والأمر الواضح فالاول لاتحسن فيه العجلة كما يذم التأني في الثاني وقد مرّ في التنبيه الاول مايوضح ذلك ونزيد هنا ماقيل في الامرين جميعاً فمن ذلك قول بعض الالباء اذا ظننت فلا تعجل واذا تحققت فلا تمهل وقول بعض الحكماء اذا شككت فاحزم واذا استوضحت فاعزم وقول بشر بن مروان لبعض أهله اذ التبست عليك الخطوب وغاب عنك المورد واشكل عليك المصدر فالاناة الاناة وليكن أمرك حزماً واذا استبان لك مغرماً

(الثاني)

من الموارد الذي لايحسن فيها التأني وهي بالعجلة أولى دفع الضرر قال أمير المؤمنين عليه السلام العجلة مذمومة في كل أمر الا فيمايدفع الشر وحين أشير عليه السلام بترك محاربة طلحة والزبير قال والله لا اكون كالضبع ينام على طول اللدم يصل اليها طالبها ويختلها راصدها ولكني اضرب بالمقبل الى الحق المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب حتى يأتي عليّ يومي وسيأتي اشباع الكلام على هذا المقام عند بيان حسن الانتهاز للفرص المتراخية في الطرف الثاني من طرفي الاحتياط

(الثالث)

من موارد التأني والتعجيل الامر الضار والامر النافع فالاول موضع التأني ولا تحسن فيه العجلة والثاني مورد العجلة ويذم فيه التواني ويكفي في ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام التؤدة ممدوحة في كل شيء الا في فرص الخير وقوله عليه السلام في موضع آخر التثبت خير من العجلة الا في فرص الخير ومثل ذلك قول بعض الحكماء التؤدة في كل شيء الا في اصطناع المعروف فان التؤدة فيه تنقيص له وفي تأخير المعروف دواع تفسد البر وتؤذي الحر قال الشاعر

واذا هممت بأمر سوء فاتئد ... واذا هممت بأمر خير فاعجل

فياله من بيت جمع الامرين وتضمن الحكمتين ومثله بيتان مما ينسب لامير المؤمنين وليس بصحيح ولكن المعنى المذكور حاصل فيهما وهما

بادر هواك اذا هممت بصالح ... خوف الغوالب ان تجيء وتغلب

واذا هممت بسيء فاغمض له ... كاب على أولاده يتحدب

وقال أمير المؤمنين عليه السلام الحازم من يؤخر العقوبة في سلطان

الغضب ويعجل مكافآت الاحسان اغتناماً لفرصة الامكان ومن هـذا قال بعض الحكماء ينبغي للملك في سياسته تأخير العقوبة في سلطان الغضب وتعجيل مكافآت المحسن فان له في تأخير العقوبة وقت الغضب امكان العقوبة وقت الرضا فلا يجاوز عنـد ذلك العقوبة حدودها الواجبة منها وفي مكافآت المحسن رغبة الرعية والاولياء في المسارعة الى الطاعة والعمل بالمحبة

(الرابع)

ما يحتمل فساده بتأخيره فان التأني فيه توانياً لا يؤمن معـه فساده والتعجيل أولى به قال رسول الله صلى الله عليه وآله اذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ألا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير وقيل لا يحسن التعجيل الا في تزويج البنت ودفن الميت وحكي ان بعض الحمقاء جاء اليه جماعة يسألونه في كفن لجار له مات فقال ما عندي الآن شيء ولكن عاودوني في وقت آخر فقالوا افنملحه الى ان يتيسر عندك شيء ويحكى عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت لك حجابة بأبي الا عن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد فان تأخيره فساد القاصية وقال بعض العلماء ابذل علمك لمن يطلبه وادع اليه من لا يطلبه والا فمثلك مثل من أهدى اليه فاكهة فلم يطعمها ولن يطعمها حتى فسدت هذا ما ينبغي التنبيه عليه وقس عليه سائر ما يفسد بتأخيره

(الخامس)

ما يفوت بتأخيره وهو الامر الفوتي وما لا يفوت بتأخيره والاول لا معنى للتأني فيه كما لا معنى للعجلة في الثاني وجد على سيف مكتوباً التأني فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة في ادراك الامل وقيل ان

الحجاج اجتاز بالسجن فضجوا المسجونين بالبكاء والصراخ فقال اخسئو فيها ولا تكلمون فنزلت فرسه الى بطنها في الارض فرفع طرفه الى السماء وقال انما يعجل من يخاف الفوت

(السادس)

الامكان من الفرصة وعدم الامكان منها وفي الاول يقبح التواني كما تقبح العجلة في الثاني قال امير المؤمنين عليه السلام من الخرق المعاجلة قبل الامكان والاناة بعد الفرصة بيانه الخرق بالضم الحمق والمعاجلة في طلب الحاجة والاسراع اليها قبل وقت امكانها افراط في طلبها والاناة فيها اذا امكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع الطلب في غير موضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير والحق العدل وهو وضع الطلب في وقت الامكان والفرصة

وربما فات قوم جل امرهم من التواني وكان الحزم لو عجلوا

وفي أمثال العرب اذا كنت سنداناً فاصبر واذا كنت مطرقة فاوجع يضرب مثلا في التأني قبل الامكان والانتهاز بعد الفرصة وقد مر توضيح هذا المقام في الغاية الثالثة من غايات التأني وسيأتي زيادة تحقيق له في انتهاز الفرص وفي شرائط التوصل بما لا مزيد عليه فلا يطل هنا وقد عرفت مما مر في الغايات والموارد ان مواضع العجلة ستة وهي كون الامر واضحاً او دافعاً للشر عن النفس او نافعاً للغير او يحتمل فساده بالتأخير ومتحمل الفوات بالتواني فيه اولا يمكن تداركه بعد فوات فرصته فهذه الستة تحسن فيها العجلة ويذم فيها التواني وقد نظمتها بارجوزة وهي هذه

مواضع التعجيل والاقدام ستت مقامات بلا كلام

وهي وضوح الامر أو دفع الضرر　　كذا امور الخير عقلا واثر
وكلما يفسد بالتدبير　　كذاك ما يفوت بالتأخير
ومثل ما فرصته قليله　　لا يقتضي الحزم سوى تعجيله

وكل واحد من هذه المواضع الستة كاف في اقتضاء العجلة فيه فاذا اجتمعت كلها في امر من الامور او اكثرها لاسيما الثلاثة الاخيرة كانت موجبة لامقتضيه وبذلك ايضاً عرفت موارد التأني وهي عكسها فتكون ستة أيضاً وهي كون الامر ملتبساً وكونه لايحتمل شره او كونه ضاراً في الغير اويفسد بتعجيله أولا يحتمل فواته بالتأني أولم تمكن فرصة بعد فاذا حصلت أحد الصفات في أمر من الامور كان التأني فيه واجباً ينبهك على ذلك ماسنورده من الامثال لما كانت العجلة في أمر اجتمعت غالب الصفات فيه وهو هذا

﴿ خاتمة ﴾

في وقوع الخطاء والندم على العجلة في الامور الضارة التي لايمكن تداركها بعد ارتكابها وقبل الكشف عن حقائقها وذلك متضح بهذه الامثال منها ما زعموا ان ناسكا من النساك كان بأرض جرجان وكانت له امرأة جميلة كانت لها معه صحبة فمكثا زماناً لم يرزقا ولداً ثم حملت منه بعد الياس فسرت المرأة وسر الناسك بذلك فحمد الله تعالى وبعد مدة الحمل ولدت المرأة غلاما جميلا ففرح به أبوه وبعد أيام حان لها ان تتطهر فقالت المرأة للناسك اقعد عند ابنك حتى اذهب الى الحمام فاغتسل وأعود ثم انها انطلقت الى الحمام وخلفت زوجها والغلام فلم يلبث ان جائه رسول الملك يستدعيه ولم يجد من يخلفه عند ابنه غير ابن عرس داجن عنده كان قد

رباه صغيراً فهو عنده عديل ولده فتركه الناسك عند الصبي واغلق عليهما البيت وذهب مع الرسول فخرج من بعض احجار البيت حية سوداء فدنت من الغلام فضربها ابن عرس ثم وثب عليها فقتلها ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها ثم جاء الناسك وفتح الباب فالتقاه ابن عرس كالمبشر له بما صنع من قتل الحية فلما رآه ملوثاً بالدم وهو مذعور طار عقله وظن انه قد خنق ولده ولم يتثبت في أمره ولم يترو فيه حتى يعلم حقيقة الحال ويعمل بغير ما ظن من ذلك ولكن عجل على ابن عرس وضربه بعكاز كان في يده على أم رأسه فمات ودخل الناسك فرأى الغلام سليماً حيا وعنده اسود مقطع فلما عرف القصة وتبين له سوء فعله في العجلة لطم على رأسه وقال ليتني لم أرزق هذا الولد ولم اغدر هذا الغدر ودخلت امرأته فوجدته على تلك الحال فقالت له ماشأنك فاخبرها الخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافاته له فقالت له هذه ثمرة العجلة ومثل ذلك ما زعمت الهند في امثالها ان حمامتين ذكر وأنثى ملأ عشهما من الحنطة والشعير فقال الذكر للانثى انا اذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به فلسنا نأكل مما هيئنا شيئا فاذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحارى شيء رجعنا الى مافي عشنا فاكلناه فرضيت الانثى بذلك وقالت له نعم ما رأيت وكان ذلك الحب نديا حين وضعاه في عشهما فانطلق الذكر فغاب فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصاً فقال لها أليس كنا جمعنا رأينا على ان لانأكل منه شيئاً فلم أكلتيه فجعلت تحلف انها ما أكلت منه شيئا وجعلت تعتذر اليه فلم يصدقها وجعل ينقرها حتى ماتت فلما جاءت الامطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان فلما رأى الذكر ذلك ندم ثم اضطجع الى جانب حمامته وقال ماينفعني

الحب والعيش بعدك اذا طلبتك فلم اجدك ولم أقدر عليك واذا فكرت في أمرك وعلمت اني قد ظلمتك ولا اقدر على تدارك مافات ثم استمر على حزنه فلم يطعم طعاماً ولا شراباً حتى مات الى جانبها والعاقل لايعجل في الامور الضارة لاسيما مالا يمكن تداركها بعد ارتكابها ومن امثال العرب اندم من الكسعي والكسعي هو محارب بن قيس من بني كسع كان يرعى ابلا بواد معشب فرأى نبقة على صخرة فاعجبته فقطعها واتخذ منها قوسا فمرت به قطعان من حمر الوحش ليلا فرمى عشراً فانفذها واخرج السهم منها فاصاب الجبل فأورى ناراً فظن انه أخطأ ثم مر قطيع آخر فرماه كالاول وفعل ذلك مراراً وفي كل ذلك يظن انه يخطى فعمد الى قوسه فكسره من حنقه فلما أصبح رأى الحمر قتلى مضرجه بالدم فندم وعض على ابهامه فقطعها ونظير ذلك ما وقع من رجل اشترى له ابوه قوساً لايستطيع احد جذبه وكان ذلك الرجل شاباً قوياً فخرج ليلا الى شط الفرات لينام هناك فبينا هو نائم واذا بزئير سبع قال فانتبهت واذا هي لبوة ومعها ستة من الاسود فقربه واحد فرماه وسمعه يخور الا انه سمع للنشابة قصفاً في أعالي قصب كان هناك فظن انه اخطأه وفعل بباقي الاسود كالاول فعمد الى قوسه وكسره ورجع الى ابيه مغموماً وحكى له فقال ابوه اغدو الى محل الرمي فاتوا واذا السباع كلها موتى فندم على قوسه ومن هذا الباب ما حكاه بعض الادباء في كتابه نقلا عن هشام الكلبي ان اناساً من بنى حنيفة خرجوا يتنزهون الى جبل لهم فرأى فتى منهم في طريقه جارية فرمقها وقال لاصحابه لاانصرف والله حتى ارسل اليها واخبرها بحبي لها فمنعوه فابى ان يكف واقبل يراسل الجارية وتمكن من قلبه حبها فانصرف اصحابه واقام الفتى في ذلك الجبل ولم يزل بها

حتى عشقته وهوته كما يهواها وجعل يتردد اليها ليلا اذا هدئت العيون وفي النهار يكمن في الجبل حتى فشى امرهما في الحي فقال اهل الجارية مامقام هذا الفاسق في هذا الجبل اخرجوا بنا اليه حتى نخرجه هـذه الليلة فبعثت اليه الجارية آخر النهار أن القوم يأتونك الليلة فاحذر فلما امسى قعد على مرقب ومعه قوسه وسهمه ووقع في الحي أول الليل مطر فاشتغلوا عنه فلما كان آخر الليل وانقشع السحاب وطلع القمر اشتاقت الجارية اليـه فخرجت تريده ومعها صاحبة لها من الحي كانت تثق بها فنظر الفتى اليهما فظن انهما ممن يطلبه فرمى فلم يخط قلب الجارية فوقعت ميتة فصاحت الاخرى وانحـدر الفتى من الجبل فاذا الجارية ميتة والاخرى على رأسها فبكا بكاء الثكلى ثم ضرب نفسه بسكين كان معه فمات فجاء اهل الحي وهما ميتان فدفنوهما ومما ذكرناه تبين لك أن مالا يمكن تداركه يجب التأني فيه ومالا يحتمل فواته يجب التثبت فيه أيضاً وفي هذه الامثال كفاية لذوي البصائر ولقد طال الشرح فلنكف عنان القلم عن الجريان في الطريق الاول ونجريه بعون الله

(الطريق الثانى من طريق الاحتياط)

في اجتناب ارتكاب مايحتمل ضرره ومالا يؤمن معه الوقوع في محذور تحصيلا للآمان واحرازاً للاطمئنان وللارتكاب درجتان تلبس وتعرض التلبس اشد ضرراً من التعرض واقرب لاحتمال الضرر بالضرورة كما ان اجتناب التعرض اكثر اطمأنانا واعظم امانا من اجتناب التلبس وان احببت التفصيل فنقول

(الدرجة الاولى)

ارتكاب المحذور والتلبس بالشرور وصاحبه خائف أبداً مستريب جداً
قال الشاعر

ترقب جزى الحسنى اذا كنت محسنا ولا تخش من سوء اذا كنت لم تسي

وهذا من قبيل قولهم «حرامى لا تكون من السلطان لا تخاف» اي ان لم تكن لصاً لا تخاف قال كسرى لبعض عماله يوماً كيف نومك الليل فقال انامه كله قال احسنت لو سرقت ما نمت هـذا النوم وقد روى عن امير المؤمنين من غرس النخل اكل الرطب ومن غرس الصفصاف والعليق عدم ثمرته وذهبت ضياعاً خدمته هـذا في غرس مالا يضر واما غرس مايضر فثمرته مثله

لا يغرس الشر غارس ابداً الا اجتنى من ثماره ندماً

وقال بعضهم

اياك تجني سكراً من حنظل فالشئ يرجع في المذاق لاصله
والكلب ان حفظ المكارم يقتني وغدا الهزبر مسلسلا من جهله

ويقال ان هشاماً كتب الى ملك الروم . من هشام امير المؤمنين الى الملك الطاغية فكتب اليه ماظننت ان الملوك تسب وما الذي يؤمنك ان اجيبك من ملك الروم الى الملك المذموم وقال الربيع كنت قائماً على رأس المنصور اذ اتي بخارجي قد هزم له جيوشا فاقامه ليضرب عنقه ثم قال له يابن الفاعله مثلك يهزم الجيوش فقال له الخارجي ويلك وسوءة لك بيني وبينك امس القتل والسيف واليوم القذف والسب وما كان يؤمنك ان ارد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقبلها ابداً فاستحى المنصور منه واطلقه وحكي ان اعرابياً سمع رجلا يقع في السلطان فقال ويحك انك غفل لم تسمك

التجارب وفي النصح لدغ العقارب وكأني بالضاحك لديك باكيا عليك
وذكر المؤخرون ان الحجاج بن يوسف بعث الغضبان بن القبعثري الى
كرمان ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن الاشعث فلما ورد على عبد الرحمن قال له
ماوراك ياغضبان قال تغدى بالجدى قبل ان يتعشى بك يعني بالجدى الحجاج
قالوا فانصرف جاسوس الحجاج اليه بما قاله الغضبان لعبد الرحمن فلما انصرف
راجعاً الى الحجاج وقدم عليه قال له الحجاج ياغضبان كيف رأيت كرمان قال
ماؤها وشل وتمرها دقل ولصها بطل ان كثر الجيش بها جاعوا وان قل بها
ضاعوا قال أفانت صاحب الكلمة تغدي بالجدى قبل ان يتعشى بك قال كلمة
استجلب بها عاجل منفعه كلمة مانفعت من قيلت له ولاضرت من قيلت فيه
قال لاقطعن لسانك قال العفو اقرب للتقوى قال خذوه الى السجن فانطلق
به الى السجن فمكث حتى هلك الحجاج وهذا بعض ماينبهك على ان ارتكاب
الشرور لايؤمن معه الوقوع في محذور. تقدم رجل سيئ الادب الى حجام
فقال له تقدم يابن الفاعلة واصلح شاربى فقال له ان كان كل خطابك هكذا فمن
قليل تستريح منه وحكى ان سحيم عبد بني الحساس كان عبداً أسود شاعراً مغلقا
كثير التشبيب بالنساء وانه انشد عمر بن الخطاب يوما قوله من قصيدة

توسدني كفاً وتثنى بمعصم علي وتلوى رجلها من ورائيا

فقال له عمر عليه السلام ويلك انك مقتول فكان كذلك فانه لما كثر
تعرضه للنساء وتشبيبه بهن قال مولاه لقومه ان هذا العبد فضحنا فقالوا اقتله
ونحن طوعك فمسكوه فمرت به امرأة كان بينها وبينه مودة ثم هجرها فضحكت
شماتة به فقال

فان تضحكي مني فيارب ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج

ولما أرادوا قتله نادى . ما لاحد منكم امرأة الا وقد أصبتها فقتلوه وأصل هذا الباب كله ماورد مستفيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى مالا يريبك ومن هـذا الباب قول لقمان لابنه يابني لاتجالس الفجار ولا تماشهم واتق ان ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم وجالس الفضلاء والعلماء فان الله تعالى يحيي القلوب الميتة بالفضيلة والعلم كما يحيي الارض بوابل المطر ومن هذا الباب أيضا قول بعض الادباء واظنه المتنبي

وكل طريق أتاه الفتى   على قدر الرجل فيه الخطا

(الدرجة الثانية)

التعرض لما لا يؤمن معه الوقوع في محذور قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يترك مالا بأس به حذراً وخوفا مما به بأس وهو أنواع كثيرة والمتعارف منه أربعة أنواع

(النوع الاول)

التعرض للدواعي المحركة للشهوات المباحات خيفة من ان تغلب النفس فتدعوه الى الشهوات المحظورات قال بعض العارفين رأيت مع ابن ذمعة غلاما جميلا لا يكاد يفارقه ثم افترقا فسألت الغلام ما سبب الفرقة فقال ما أعرف ذنبا فسألته فقال يا أخي ليس من الله خلف ولا عوض واني خفت فتنة هذا الغلام على نفسي فصارمته عن غير قلى ولا بغض ولكن خفت وقوع حادثة يسخط الله علي فيها ومن ذلك أيضا الخلوة بالنساء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخلوا على المغيبات وهي التي غاب زوجها عنها فان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم وحكى عن بعض العارفين قال لو ائتمنني رجل على بيت مال لظننت ان أؤدي اليه الامانة ولو ائتمنني على زنجية ان اخلو

معها ساعة ما أمنت نفسي عليها وكان بعضهم يقول ما بعث الله نبيا الا وخاف فتنة النساء عليه ويكفيك شاهداً قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه الخ وفي أمثال العرب قيل لابنة الخس وكانت قد فجرت ما حملك على ما فعلت وانت سيدة قومك قالت قرب الوساد ومن هذا قال بعضهم شعراً

لا تأمنن على النساء ولو اخا　　ما في الرجال على النساء أمين
ان الامين وان تحفظ جهده　　لا بد ان بنظرة سيخون

(النوع الثاني)

التعرض لما يفضي الى المحرمات ويجر الى المحظورات وذلك كالشبهات التي لا يعلم لها حكم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم حلال بين وحرام بين وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجى من المحرمات ومن اخذ بالشبهات وقع في المحرمات وهلك من حيث لا يعلم وقال امير المؤمنين اياك والوقوع في الشبهات والولوع بالشهوات فانهما يقتادانك الى الوقوع في الحرام وركوب كثير من الآثام وقال عليه السلام من ترك ما اشتبه عليه من الاثم فهو لما استبان له اترك والمعاصي حمى الله فمن يرتع حولها يوشك ان يدخلها وفي الحديث عن نعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكل ملك حمى وحمى الله حلاله وحرامه والمشتبهات بين ذلك لو ان راعيا دعى الى جانب الحمى لم تثبت غنمه ان تقع في وسطه فدعوا المشتبهات . حكي عن بعض العارفين انه كان يمشي في وسط الوحل جامعا ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في

الذنوب خوضا وهذا ينبهك على ان اعمال الشر يجر بعضها بعضا واخبرني بعض اصحابي قال سولت لي نفسي يوما من ايام شهر رمضان في شرب التتن وأبيت امانعها بأن ذلك شبهة يجب اجتنابها وهي تقول انه لم يرد فيه نهى من الشارع وانت لم تتكلف الا بما تعلم حرمته ولم تزل تسول لى بذلك وامثاله حتى شربته ولم ازل في ريب من ذلك اليوم بل معتقداً عدم صيامه حتى قضيت وكفرت عنه

(النوع الثالث)

التعرض لمواضع الريبة والتهمات اما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفاً ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال صلى الله عليه وآله دع ما يريبك الى مالا يريبك واما مواضع التهم فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من اساء به الظن وأخذ هذا المعنى شاعر فقال

وزعمت انك لاتلوط فقل لنا هذا المقرطق واقفاً مايصنع
شهدت ملاحته عليك بريبة وعلى المريب شواهد لاتدفع

ومن الامثال اتق الصبيان لاتصبك باعقاءها الاعقاء جمع العقى وهو مايخرج من بطن المولود حين يولد يضرب مثلا للرجل تحذره من تكره له مصاحبته أي جانب المريب المتهم وقال بعض الادباء

مشى المريب مع المقارف تهمة ويرى البرئ مع السقيم فيلطخ

وقال بعضهم رآني بعض العلماء ومعي ابن أختي يمشي وكان صبياً حسنا فقال لي من هذا منك فقلت ابن أختي قال لاتمشي معه ولا تماشه مرة أخرى

لئلا تظن الناس بك الظنون ومرّ بعض الامراء برجل يكلم امرأة على قارعة الطريق فنهره فقال انها امرأتي فقال هلا حيث لا يراك أحدمن الناس واعلم ان الداعي الى هذا الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منه شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة. وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام انه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال ياروح الله ماتصنع هنا فقال الطبيب انما يداوي المرضى ولكن لاينبغي ان يجعل ذلك طريقاً الى الاسترسال وليكن الحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفاً فمرّ به رجلان من الانصار فلما رأياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية بنت حى فقالا سبحان الله أوفيك شك يارسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلبيكما سوءاً فكيف ممن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب عليه الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افك وقد قال الشاعر

اصونك ان ادل عليك ظنا ... لأن الظن مفتاح اليقين

ولاجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وآله

اتقوا مواضع التهم حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في احواله فيقول مثلي لا يظن به الا الخير اعجابا منه بنفسه فان اورع الناس واتقاهم واعلمهم لاينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة　　كما أن عين السخط تبدى المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن سوء وعن تهمة الاشرار وقد روي عن امير المؤمنين اذا قذفت بشيء فلا تهاون به وان كان كذبا بل تحرز من طرق القذف جهدك فان القول وان لم يثبت يوجب ريبة وشكا قال بعض الادباء

قد قيل ذلك ان حقا وان كذبا　　فما اعتذارك في شيء اذا قيلا

وسيأتى أسباب دفع التهم والظنون قبل وقوعها ورفعها بعد وقوعها في مورد السياسات العقلية في شرائط التوصل

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب اجتناب ما خالف العقول والعادات من الاخبار احترازاً من الانكار والاتهام بالكذب فقد روي عن الصادق انه قال ان العاقل لا يتحدث بما ينكره العقل ولا يتعرض للتهمه ولا يدع مدارات من ابتلى به وعن امير المؤمنين عليه السلام من صفة العاقل ان لا يتحدث بما يستطاع تكذيبه فيه وقال الصادق عليه السلام يامدرك ان امرنا ليس بقبوله فقط ولكن بصيانته وكتمانه عن غير أهله أقرأ اصحابنا السلام وقل لهم رحم الله امرءاً اجتر مودة الناس الينا فحدثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون قيل لبعض الحكماء ماعنوان الصدق قال الاخبار بما تحمله العقول

(النوع الرابع)

التعرض لموارد الهلكات ومواضع المحذورات والمخوفات ويكفي في ذلك قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة قال بعض الحكماء لاتشرب السم اتكالا على ماعندك من الترياق ومن لامية المقرى

لاتشربن نقيع السم متكلا　　على عقاقير قدجربن بالعمل

وحكى ابن الجوزي في الاذكياء قال حدثنا جماعة من أهل جنديسابور انه كان عندهم شاب من كتاب النصارى وهو ابن ابي الطيب القلانسي فخرج الى بعض شأنه فاخذته الاكراد وعذبوه وطالبوه ان يشتري نفسه منهم فلم يفعل وكتب الى اهله انفذوا اليّ أربعة دراهم أفيون واعلموا اني أشربها فتلحقني سكتة فيظنون اني قد مت فيحملوني اليكم فاذا حصلت عندكم فادخلوني الحمام واضربوني ليحمى بدني وسوكوني بالايارج فاني افيق وكان الفتى متخلفاً وقد سمع انه من شرب افيوناً اسكت فاذا ادخل الحمام وضرب وسوك بالايارج افاق ولم يعلم مقدار الشربة من ذلك وشرب أربعة دراهم فلم يشك الاكراد في موته فلفوه في شيء وأنفذوه الى أهله فلما حصل عندهم ادخلوه الحمام وضربوه وسوكوه فلم يتحرك واقام في الحمام أيام ورآه أهل الطب فقالوا قد تلف كم شرب أفيوناً قال وزن أربعه دراهم فقالوا لهم هذا لو شوى في جهنم ماعاش انما يجوز ان يفعل هذا بمن شرب اربعة دوانيق أفيونا او وزن درهم او حواليه فاما هذا فقد مات فلم يقبل اهله ذلك فتركوه في الحمام حتى اراح وتغير فدفنوه . وقال بعض الصالحين رأيت شاباً وهو يقول يا قديم الاحسان احسانك القديم فقلت له يوما اراك لاتغفل عن هذه الكلمة فقال لي لذلك سبب عجيب وذلك ان من عادتي

اذا كانت ضيافة اوعرس ابرزمثل النساء فأتزر واتقنع وادخل بينهن واجلس فاتفق أنه كان عرس في دار الامير فحضرت على العادة فضاعت جوهرة في دار الامير فامر الامير بتفتيش النساء فكشفوا عن اقنعتهن وانا كنت اقول ياقديم الاحسان احسانك القديم ونذرت مع الله نذراً ان سترني لااعود الى ذلك ابداً فلما وصل الي نودي في الناس أن اتركوا البقية فقد وجدنا الدرة قال فتبت من ذلك وعاهدت الله تعالى ان لا أعود وهذه عاقبة التورط في الهلكات . وفي كتاب خلق الانسان عن المهلبي الوزير قال ركبت في سفينة من البصرة قبل الوزارة مع جماعة الى بغداد وكان في السفينة رجل مزاح ظريف واهل السفينة يمازحوه من جملة مزاحهم انهم وضعوا في رجله حديداً ساعة ثم لما فرغوا من مزاحهم ارادوا فك ذلك الحديد من رجله فضاع المفتاح وكلما عالجوا فكه لم يقدروا عليه فبقي في رجله الى بغداد فاتوا بحداد يحل الحديد فلما رآه ظنه سارقا وقال حتى يحضر العسس فمضوا الى العسس واخبروه فأتى الى ذلك الرجل مع جماعة فنظر اليه بعضهم وقال انت فلان قتلت اخي بالبصرة وهربت وانا في طلبك فاخرج كاغداً فيها مهور اعيان البصرة واحضر عادلين على ما ادعى فسلموه اليه فقتله قصاصا ورأيت في بعض كتب اهل الادب ان انساناكان حاويا يربي الحيات وكان عنده سلة كبيرة فيها ثلث حياة لم يعلم بها أهل بيته وكان يخرج كل يوم يدور بها في المدينة لتحصيل الدراهم ويرجع عند المساء الى بيته ويضعها في السلة سراً واتفق انه عاد يوما الى بيته فسألته زوجته وقالت مافي هذه السلة فقال لها الحاوي وما مرادك ونهرها فسكتت وقالت في نفسها لابد من ان افتش هذه السلة وأعرف مافيها وأكدت على أولادها يسألوا اباهم عما

في السله ويلحوا عليه في السؤال لكي يخبرهم فتعلقت نفوس الاولاد بان فيها شيئاً يؤكل وجعلوا كل يوم يطلبون من ابيهم ان يريهم ما في السلة وهو يدافعهم وينهاهم عن هذا السؤال ويقول لهم يا اولادي ليس لكم فيها خير وفي فتحها ضرر عليكم وهم لا يزدادون الا غيظاً والحاحاً في السؤال فغضب عليهم واخذ عصا يضربهم فهربوا قدامه في الدار وفيما كان الرجل مشغولا باولاده فتحت المرأة السلة بسرعة واذا بالحية قد خرجت ولسعت المرأة اولا فقتلها ثم دارت في الدار واهلكت الكبار والصغار ماعدى الحاوي وهذه الامثال كافية لذوي الالباب من الرجال وكافية عن التعرض لمضارة الهلكات وثغور الافات واعلم ان للتورط في موارده التلف سببين الاول الطمع فان مطيته موردة في المهاوي وقد قال بعض الحكماء خمسة يكون المال عز من نفوسهم وارواحهم عليهم وهم المقاتل بالاجرة وحفار الابار وراكب البحر للتجارة والحواء الذي يتصيد الحيات بيده وآكل السم بالمراهنة الثاني الاتكال على الدافع للضرر المحتمل كالقوة والمعرفة اما الاتكال على العلم والمعرفة فكما تقدم من حكاية من اكل الافيون اتكالا على معرفة علاجه واما الاتكال على القوة فكثير ماتورط الانسان في معاناة مالا يقدر لظنه انه يقوى عليه ثم يهلك نفسه بهذه الواهمة وقد يعزى لامير المؤمنين يضر الناس انفسهم في ثلاثة اشياء الافراط في الاكل اتكالا على الصحة وتكلف حمل مالا يطاق اتكالا على القوة والتفريط في العمل اتكالا على القدر ومن اتكل على قوته حمله ذلك ان يسلك الطريق المخوف ومن فعل ذلك سعى في حتف نفسه والانسان اذا اورد نفسه موارد الهلكات ومصادر المخيفات عدّ من الحمير التي لا عقل لها لان الحيوانات البهيمية قد خصت في طبايعها بمعرفة ماتكتسب به النفع وتتوقى به المكروه

وذلك انا لم نرها تورد انفسها مورداً فيه هلكتها وانها متى اشرفت على مورد مهلك مالت بطبائعها التي ركبت فيها شحا بانفسها وصيانة لها الى النفور والتباعد عنه وقد ورد في امثال العرب احزم من فرخ العقاب تتخذ اوكارها في عرض الجبال فربما كان الجبل عموداً فلو تحرك اذا طلب الطعام وقد أقبل اليه أبواه او احدهما او زاد في حركته شيئا من موضع مجثمه لهوى من رأس الجبل الى الحضيض فهو يعرف مع صغره وضعفه وقلة تجربته ان الصواب له في ترك الحركة

(تمتان بل ايقاظان)

لابد من التنبيه عليهما (الاول) على العاقل اذا كان مستمسك الحال الاقناع بالكفاف حفظا لسلامته وابقاءاً على عافيته ولقد انصف بعض البلغاء في قوله

لقد رضيت همتي بالخمول ولم ترض بالرتب العالية
وماجهلت طيب طعم العلا ولكنها تطلب العافية

(ومثله قول الآخر)

بقدر الصعود يكون الهبوط فاياك والرتب العاليـة

يوضح ذلك قول بعض الملوك طربى لمن له دويرة تؤويه وتجارة تكفيه وجارية ترضيه ولا نعرفه نحن فنؤذيه وماقيل في الامثال

اذا ما أراد الله اهـلاك نملة سمت بجناحيها الى الجو تصعد

(وقال العتابي يخاطب محبوبته)

تحبين انى نلت مانال جعفر من الملك أو مانال يحي بن خالد

(فقالت نعم فقال)

وان أمير المؤمنين احلني محلهما بالمرهفات البوارد

(فقالت لافقال)

دعيني تجئني ميتتي مطمئنة ولم اتجشم هول تلك الموارد

فان جسيمات الأمور منوطة بمستودعات في بطون الاساود

هذا فيما اذا كان مستمسك الحال مستقيم البال واما من كان مهان وموسوم بالهوان فلا معنى لخوفه عواقب الامور مع التضرر بأوائلها ولعل ماهو خائف منه أقل ضرراً مما هو فيه والعاقل لايتجرع الضرر المتيقن خوفا من الضرر المظنون ولعله لايكون

وما لامرء خير في حياة اذا ماعد من سقط المتاع

وسيأتي الكلام على ذلك في الاباء والانفة من الذل فراجع هناك

(الايقاظ الثاني)

على الحازم في معاناته الامور ان لايتجاوز مواضع الامان ولا يبعد عن مرابط الاطمأنان وقد قيل في الامثال عليك بالجماعة فان الذئب انما يصيب قاصية الغنم وقال بعض الشعراء

فلا توغلن اذا ماسبحت فان السلامة بالساحل

نزل اعرابي على مدني واطال فتبرم منه المدني وقال لامرأته اذا كان الغد فاني أقول لضيفنا كم ذراع تقدر ان تثب فثب لنرى قوتك فاذا وثب فاغلقي الباب خلفه فلما كان الغد قال المدني كيف وثبتك يافلان قال جيدة فعرض عليه ان يثب معه فاجابه فوثب المدني الى خارج الدار ذراعا ووثب الاعرابي الى داخل ذراعين وقال ذراعان الى الدار خير من أربع الى خارجها وهذا أوردناه من قبيل التمثيل لما ذكرناه واذا عرفت ذم البعد عن مواضع الاطمأنان فبالطريق الاولى من ذلك قبح القرب من مواضع المهالك وقد

قالوا في الامثال "لاتكن أدنى العيرين الى السهم أي لاتكن ادنى اصحابك من التلف

رب رحى دارت بمن يليها تطحن في الحروب مركبيها

قال بعض الادباء خرجنا مرة الى حرب لنا ومعنا رجل كان يقول أنا اتمنى ان أرى الحرب كيف هي فاخرجناه معنا فأول سهم جاء وقع في رأسه فلما انصرفنا دعونا له معالجاً فنظر اليه وقال ان خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات والا لم يكن عليه بأس فوثب فقبل رأسه وقال بشرك الله بخير انزعه فما في رأسي دماغ أبداً فانه لو كان في ذرة من دماغ ما كنت هاهنا

(تنبيه) قسم الاصوليون الشبهة الموضوعية قسمين محصورة وهو فيما اذا استبهمت العين المحرمة أو النجسة بعدد محصور وشبهة غير محصورة وهو فيما اذا استبهمت العين بعدد غير محصور واوجبوا الاجتناب في الشبهة المحصورة ولم يوجبوه في غير المحصورة بناء على ان جميع ماورد في اجتناب الشبهات من آيات كقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ومن اخبار كقوله عليه الصلاة والسلام دع مايريبك لما لا يريبك وامثال ذلك مما مر ذكره هنا وغيره انما يختص بالمحصورة ويدفع عن غير المحصورة بقاعدة نفي العسر والحرج شرعا وعقلا كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله تعالى ماجعل عليكم في الدين من حرج والعقل أيضا حاكم بذلك وفي اجتناب الشبهة الغير المحصورة عسر شديد اما في النجاسات فواضح لتسريها واختلاطها وان غالب الناس جهال باحكام النجاسات والتحرز عنها وأما في الحرام فأكثر مافي ايدي الناس من الاموال لايخلو عن شبهة الحرام لفساد

المعاملات واهمال شروطها وكثرة الربا واموال الظلمة هذا في عدم وجوب اجتنابها واما في جواز ارتكابها فلما ورد من الاخبار في اباحة مالم تعلم حرمته مثل كل شيء لك حلال حتى تعلم انه حرام او حتى تعلم الحرام بعينه ومثل كل شيء لك طاهر حتى تعلم انه نجس وغير ذلك من الاخبار مع ان في ارتكاب الشبهة الغير محصورة لايحصل العلم بارتكاب الحرام لا اجمالا ولا تفصيلا بخلاف الشبهة المحصورة فان في ارتكابها حصول العلم والقطع بارتكاب الحرام وان لم يكن تفصيلا واذا عرفت هذا وتصفحت مامر من بيان درجتي الاجتناب لما يحتمل ضرره وما لا يؤمن في ارتكابه المحذور فقس ذلك التقسيم على هذا التقسيم ولك ان تنزل التلبس بالضرر المحتمل منزلة ارتكاب الشبهة المحصورة في الحرمة والعلم بارتكاب الضرر ولو اجمالا وتنزل وجوب اجتناب التلبس بالضرر المحتمل منزلة وجوب اجتناب الشبهة المحصورة وتنزل التعرض لموارد الضرر والمتألف منزلة ارتكاب الشبهة الغير المحصورة فانك اذا تأملت وجدت الدنيا كلها مبنية على مهالك ومتألف ولا يخلو العاقل ساعة من احتمالات الضرر في غالب مهماته واذا بنا العاقل على اجتناب التعرض لكل مالا يؤمن معه المحذور تعطل عن سعيه وتعسر عليه الاحتياط والتوقي وفسد نظام امر معاشه ومعاده ولذلك قيل الحزم والتوقي في ترك الاكثار من الاحتياط والتوقي هذا ما ينبغي التنبيه عليه والعاقل الحازم يميز بين ما يعسر عليه الاحتياط ومالا يعسر ومقدار النفع والضرر المحتملين ويوازن بين الامرين

(الطريق الثالث من طرق الاحتياط)

فعل ما يؤمن به المحذور او يحتمل به النفع او الدفع وله اربع شعب

وهي الاكثار مما يحتمل النفع او الدفع والتوطئة لما يحتمل تغيره او وقوعه والاهتمام بكل ما هو قابل للزيادة من الجزئيات المحقرة والاتيان بالمحتملات الجائزة لما لا يعلم حاله فهذه أربع شعب وذلك لان المظنون اما ان يكون متعدداً أوامر واحد وعلى الاول فتحصيل الاطمأنان لا يكون الا بالاتيان لهذا المتعدد أما بجهة جامعة لمحتملاته او بالاتيان لما امكن من محتملاته وهذه هي الشعبة الرابعة وعلى الثاني فهذا المظنون الواحد لا يخلو من احتمال أمور ثلاثة أما التغيير والاستحالة وأما الخلل والنقصان وأما الزيادة والنماء وعلى احتمال الخلل والنقصان ولا يحصل الاطمأنان به الا بالاكثار منه وهذا هو الشعبة الاولى وعلى احتمال التغير والاستحاله لا يحصل الامن المحذور الا بالتوطئة له وهذه هي الشعبة الثانيـة وعلى احتمال الزيادة والنماء لا يؤمن الخطاء الا بالاهتمام بشأنه وهذه هي الشعبة الثالثة ولكل واحدة من هذه الشعب جهات كما ستقف عليها ان شاء الله تعالى ولما كان لهذا الطريق شعب اربع فلا بد من الوقوف عليها حسبما يسع التفصيل

(الشعبة الاولى)

في التوثق بالكثير لجواز الخلل والنقصان ثم الكثير أما من جهة العدد او من جهة القوة والسعة فمن الجهة الاولى قول بعض الالباء صاحب المرأة الواحـدة ان حاضت حاض وان مرضت مرض ومنه قول بعض الادباء ولعله أبا العلا المعري

وهل يثق الفتى بنماء وفر   اذا لم تتل أنيقه فصال

اي لا وثوق بزيادة المال الا بتولد المال وتناسله حتى يتبع الفصال امهاتها فكذلك لا يشاد عز البيوت الا بكثرة الاولاد ومن هذا الباب قول

بعض الخلفاء لا ينبغي ان يسافر اقل من ثلاثة فان مات واحد وليه اثنان وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يسافر الرجل وحده وقال الثلاثة نفر وقال صلى الله عليه وآله خير الاصحاب أربعة وتخصيص الاربعة من بين سائر الاعداد لا بد ان يكون له فائدة ولعلها ان المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج الى حفظه وعن حاجة يحتاج الى التردد فيها ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحد فيتردد في السفر بلا رفيق فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحد فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر فاذا ما دون الاربعة لا يفي بالمقصود ومافوق الاربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ومن يستغنى عنه لا تنصرف الهمة اليه فلا تتم المرافقة معه نعم في كثرة الرفقاء أمن من المخاوف ولكن الاربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة وكم من رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط للاستغناء عنه. ومن الجهة الثانية ماورد من امثال العرب جاور ملكاً أو بحراً يعني ان الغني يوجد عندهما ومنها من جاور الكرام أمن من الاعدام ومن امثال العجم من تبع الاسود لم يحرم لذيذ الصيد ومن امثال العرب جار الرجل الجواد كمجاور البحر لا يخاف العطش وقال بعض الادباء

ولا تعجب لهجر من حبيب قريب الدار مرجوّ الوصال

(الشعبة الثانية)

التوطئة والتوسعة ولها جهات متعددة منها توطئة مابه الوقاية لاحتمال التغير الى حال مرهوب ومن ذلك قول بعض النبلاء

وكن في مكان اذا ماسقطت تقوم ورجلاك في عافيه

(وقول الآخر)

ولكن مقدار قرب المكان   تكون سلامة من يسقط

ومن الجهات التوسعة لاحتمال الحاجة اليها ومن ذلك ماقيل في أدب المجالسة. ينبغي للانسان وقت جلوسه الى رئيس ان تكون بينه وبينه فرجة لاحتمال ان يجيء من يجب عليه اكرامه ويرفع منزلته ويجلس في تلك الفرجة وقال الاحنف ماجلست مجلساً خفت ان أقوم منه لغيري وقال بعض الشعراء

لاتقعدن بمجلس في صدره   الا اذا ما كان ذلك منزلك
واترك لمن هو فوق قدرك موضعاً   فلقد احطك رتبة من انزلك
واذا جلست فخل فوقك فسحة   ان جاء صاحبها والا فهي لك

ومن الجهات التحمل من المسيء لاحتمال التغير ومنه ماقيل من صبر على الاسائة فقد مهد للاحسان موضعاً ومثله قول بعض النبهاء

قارن اخاك على التوائه   واشرب على كدر بمائه
* وتأنه فلعله   يوماً يعود الى صفائه

ومن الجهات التوسط في الحب لاحتمال تغير المحبوب والصديق قال عدى بن زيد

ولا تأمنن من مبغض قرب داره   ولا من محب ان يمل فيبعدا

قال امير المؤمنين ان استنمت الى ودودك فاحزر معه واستبق له من سرك مالعلك ان تندم عليه وقتاً ما . ويقال أحزر الناس من لايفشى سره الى صديقه مخافة ان يقع بينهما شر فيفشيه عليه وفي الحديث لاتثق باخيك كل الثقة فان سرعة الاسترسال لن تستقال كأن المراد يعرض له ما يثنيه

عنك ومنه لاتثني عنانك الى استرسال فيسلمك الى عقال والاسترسال الاستيناس والطأنينة الى الانسان والثقة به فيما يحدثه وقال الصادق لاتطلع صديقك على سرك الا على مالو اطلع عليه عدوك لم يضرك فان الصديق قد يكون عدوك يوماً ما وقال الحازم من كتم سره عن صديقه مخافة ان تنتقل صداقته فيذيع سره ولا ينبغي ان يأمن فان الاوقات تستحيل والاصدقاء تكون فيها اعداء

(قال بعض النبلاء)

احذر عدوك مرة   واحذر صديقك الف مرة
فلربما انقلب الصديق   فكان اخبر بالمضرة

فاذا احببت احداً فلا تفرط فتلقى اليه عجرك وبجرك وتطلعه على جميع امرك وتفضى اليه بسرك فانك لست تملك قلبه في كل الاوقات حتى تدخره للمهمات والقلب ينقلب والمحبة تنسلب والاوقات تستحيل والناس معها تميل فاستر بالكتمان خللك ولا تظهر من عالك ولا تكشف الغطاء عن مورد السرائر واجعل قبورها الضمائر حتى لايظهر لها اثر ولا يقف عليها خبر هذا ما ينبغي ايراده وليس هذا موضع بيان وجوب الكتمان فله موضع باقي ان شاء الله في السياسات العقلية تسل فيه صورام السنة البلغاء فانتظره هناك . والذي ينبغي التنبيه عليه هنا مقدار ما يكشف الغطاء عن وجوب التوسط في الحب لجواز التغير ومن الجهات للشعبة الثانية التوسط في البغض لجواز التغير ايضاً وكما يجوز تغير الحب كذلك يجوز تغير البغض فلا ينبغي للعاقل أن يبالغ في البغضة عند الوقيعة . وقد قال الله تعالى عسى ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة . وفي الحديث عن امير المؤمنين احبب

حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيظك يوما ما وابغض بغيظك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما وهوناً اي قصد افراط ومن قول النمل ابن تولب

واحبب حبيبك حبا رويداً ... لئلا يعولك أن تصرما
وابغض بغيضك بغضاروبداً ... اذا انت حاولت ان تحكما

والبغيض بمعنى المبغض كالحكيم بمعنى المحكم والمقصود التوسط في البغض فلعلكما ترجعان الى المحبة فتستحيان من بعضكما قال النابغة الجعدي

فلا تحسبن الخير لاشر بعده ... ولا تحسبن الشر ضربة لازب

وقال آخر مثله

ولا تيأسن الدهر من حب كاشح ... ولا تأمنن الدهر صرم حبيب

وقد تقدم مثلهما لعدى بن زيد

ولا تأمنن من مبغض قرب داره ... ولا من محب ان يمل فيبعدا

وسئل بعض العلماء فقيل له ما الاحتياط قال التوسط في الحب والبغض قيل من احببت فلا تأمنه ومن ابغضت فلا تهجره وقال بعض العقلاء لا ترى انك تفرط في حب الصديق بأي حال بلغتها في محبته واياك ان تفرط في بغض العدو فانك لاتدري لعله ينتقل عن عداوته لك الى مصادقته اياك فيعود بغضك اياه محبة له وقال بعض الملوك لامير ولاه على ناحية ليكن حبك وبغضك قصداً واجعل للرجوع والنزوع بقية من قلبك واحذر صولة الانهماك فانها تؤدى الى المهالك وينسب الى أمير المؤمنين عليه السلام من المنظوم

وكن معدناً للحلم واصفح عن الاذى ... فانك لاق ما عملت وسامع

واحبب اذا أحببت حباً مقارباً   فانك لا تدري متى الحب راجع
وابغض اذا أبغضت غير مباين   فانك ما تدري متى البغض نازع

ومن نوابغ الكلم لامير المؤمنين عليه السلام لا تتبع أخاك بعد القطيعة بوقيعة فيه فتسد طريقه عن الرجوع اليك ولعل التجربة ان ترده عليك وتصلحه ومن غرر الحكم له عليه السلام اياك ان تخرج صديقك اخراجاً عن مودتك واستبق له من انسك موضعاً يثق بالرجوع اليك ومن درر الكلم له عليه السلام ان أردت قطيعة اخيك فاستبق له من أنسك بقية يرجع اليها ان بدى له ذلك يوما ما وشتم رجل ابا ذر فقال له ياهذا لا تستغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً. ويحكى انه لما اجتمع موسى عليه السلام والسحرة عند فرعون لع في يوم الزينة قال رجل اعمى للسحرة وهو كبيرهم أرى موسى يقدم علينا مع كثرتنا وما ذلك بقوته واخاف ان يكون الامر سماوياً فاحترموه وعظموه فان غلبناه فلا يضرنا تعظيمه وان غلبنا فنكون قدمنا للصلح مقدمة فيكون شفيعنا عند ربه فقالوا كيف نحترمه قال لنستأذنه ونقول اما ان تلقي واما ان نكون اول من القى فلما احسنوا الأدب معه كان سببا لسعادتهم. وحكى عن الشبلي البغدادي قال كنت في قافلة فطلع علينا العرب فاخذوا القافلة ثم مررت عليهم وهم يأكلون شيئاً من طعام القافلة فرأيت كبيرهم صائماً فقلت تصوم وتقطع الطريق فقال اترك للصلح موضعا ثم بعد مدة رأيته في الطواف فقال ياشبلي انظر الى الصيام كيف أصلح بيني وبينه

(الشعبة الثالثة)

من شعاب الطريق الثالث الاهتمام بالجزئيات المحقرة لجواز زيادتها او

الانتفاع بها لشيء خاص فهذان امران فأما جواز الانتفاع بها فقد روى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال ان القصد امر يحبه الله تعالى وان السرف امر يبغضه الله حتى طرحك النواة فانها تصلح لشيء وحتى صبك فضل شرابك ويحكى ان بعض المحتسبين لقط نواة من الطريق فامسكها بيده حتى مر بدار قوم فألقاها في الدار وقال يأكلها داجنهم وفي امثال العرب لا تدعن فتات ولا مرعاة فان لكل بغاة وهو من قبيل قولهم لكل ساقطة لاقطة وفي كليلة ودمنه ليس شيء يصغر أمره الا وقد يكون عنده بعض الغنى والمنافع على قدره حتى العود الملقى في الارض ربما نفع فيأخذه الرجل فيكون عدته عند الحاجة اليه وان الصغير ربما عظم كالعصب يؤخذ من الميتة فاذا عمل منه القوس اكرم فتقبض عليه الملوك وتحتاج اليه في البأس والهو

لا تحقرن يسير الخير تفعله   فرب نفع بشيء وهو يحتقر

وقال بعض الحكماء لبنيه لا تعادوا أحداً وان ظننتم انه لا يضركم ولا تزهدوا في صداقة احد وان ظننتم انه لا ينفعكم فانكم لا تدرون متى تخافون عداوة العدو ولا متى ترجون صداقة الصديق وأما جواز الزيادة والنمو فهو اولى باقتضاء الاهتمام بشأن الامر المحتقر القابل لذلك واعلم ان المحتقر اما أمر نافع او ضار ولنقدم الكلام في النافع فنقول وبالله المستعان. اما الامر النافع المحتقر ينبغي الاعتناء به لجواز نموه اما بنفسه او بانضمامه الى غيره ومن الاول يقال لا تهاون بالامر اليسير اذا كان يقبل النمو والزيادة ولا تحتقرن صغيراً يمكن ان يكبر ولا قليلا يمكن ان يكثر وينشد لبعضهم

لا تحقرن من الكرام صغيرهم   فابن الكرام بكل حال يكرم

واعلم فرب صغير قوم في الورى   بكبير قوم آخرين واعظم

ومن الامثال أول الشجرة النواة يضرب للامر الصغير يتولد منه الامر الكبير (ونحوه قول الشاعر)

لاتحقرن من الامور صغارها   ان النواة فراخها الاشجار

(ومنه قول أبي المعري)

وأول مايكون الليث شبل   ومبدأ طلعة البدر الهلال

ومن الثاني وهو الاهتمام بالجزئي النافع القابل للزيادة بالانضمام لغيره ماينسب لامير المؤمنين قوله من الخيط الضعيف يفتل الحبل الحصيف ومن مقدحة صغيرة تحرق مدينة كبيرة ومن لبنة لبنة تبني قرية حصينة ومثل ذلك في الامثال من لبنة لبنة يبنى الحصين الشاهق ومن مرقات مرقات يصعد الى السطح الساحق ومن صبابات النهر يكون البحر الزاخر ومن شبل حقير يكون الليث الهاصر ومن درهم درهم تجتمع البدر والقناطير في بيوت الاموال ومنه قول بعضهم

لاتحقرن الفلس قط   واحزن عليه اذا سقط

وافرح به اذا أتى   ان السيول من النقط

ويروي عن أمير المؤمنين كان يقول معاشر التجار لاتردوا الربح القليل فتحرموا كثيره وذلك لان من قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربحاً كثيراً وبه تظهر البركة يقال ان عبد الرحمن بن عوف باع الف ناقة فما ربح الاعقالها باع كل عقال بدرهم فربح فيه الفاً في يوم واحد وقال بعضهم

لاتحقرن طفيف الرزق وارض به   ما الغمر مشتمل الا من الوشل

ومن الامثال قولهم الذود الى الذود ابل يراد ان القليل اذا جمع

الى القليل كثير والذود مابين الثلاث الى العشر من اناث الابل ويجمع اذواد واخذ (البحتري المثل فقال من قصيدة)

اجمع النزر الى النزر وقد يدرك الحبل اذا الحبل وصل
من لقى هذا الى ميسور ذا ومن الذود الى الذود ابل

وقال زياد لو ان عندي الف بعير وعندي بعير أعجف لقمت عليه قيام من لا يملك غيره وكان لاحجية بن الحلاج بالزوراء ثلثمائة ناضح فدخل بستاناً له فمر بثمرة فلقطها فعوبت في ذلك فقال ثمرة الى ثمرة تمر وجمل الى جمل ذود فارسلها مثلا والتقدير ان الثمرة مضمومة الى الثمرة تمر يريد ان ضم الاحاد يودي الى الجمع وفصل الخطاب في هذا الباب قوله سبحانه وتعالى فمن يعمل مثقال ذره خيراً يره وذلك انه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان باجمال الذراة وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذراة الخير الى ان يثقل فترفع كفة السيئات فاياك ان تستصغر ذراة الطاعات فلا تأتيها وذراة المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد وتقول اي غناء يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري المتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة والله اعلم. واما الامر الضار المحتقر فهو اولا بالاهتمام بشأنه من الاهتمام بشأنه النافع المحتقر وقد عرفت مافيه واما الضار فقبوله للنمو والزيادة ايضاً تارة بنفسه واخرى من جهة الانضمام لغيره فهذه جهتان ايضاً فاما الجهة الاولى فاعلم انه مالم يهتم باذالته فوجوده لا يخلو من مفاسد اما ان يكون مانع عن وصول مصالح واما ان

يكون سبباً باعثاً لما هو اضر منه من الفاسد كالزكام فانه ربما كان سبباً لامراض عسرة الزوال وغير ذلك ومنه قول ابن سينا

ولا تحقر المرض الصغير فانه كالنار تصبح وهي ذات ضرام

(ومن هذا قولهم)

فان النار من عودين تورى وان الحرب اوله كلام

(ومثله قول بعضهم)

قد يبعث الامر الصغير كبيره حتى تظل له الدماء تصيب

ومن الامثال قولهم دواء الشق خوصه والخوص الخياطة يقولون لا تحتقر الامر الصغير فيتفاقم فيصير كبيراً وقال بعض الاوائل من الطفل الصغير يكون الجبار العاتي ومنه قول وعلة الجرمى (والامر تحقره وقد ينمى)

(قال آخر ايضاً)

الشر يبدؤه في الاصل اصغره وليس يصلى بحر الحرب جانيها

وسيأتي اشباع الكلام لهذا المقام في انتهاز الفرص للامور الضارة في الطرف الثاني من طرفي الاحتياط ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب الاهتمام والتيقظ للعدو المحتقر التي تزدريه العين فانه اضر من غيره لان المهاب يهتم بشأنه فيتحفظ منه واما المحتقر فيهمل ومن الاهمال يجيء الضرر. ويقال الضعيف المحترس من العدو القوي اقرب الى السلامة من القوي اذا اغتر بالضعيف واسترسل اليه. ويقال من استضعف عدوه اغتر ومن اغتر ظفر به قال امير المؤمنين عليه السلام احذر استصغار الخصم فانه يمنع من التحفظ ورب صغير غلب كبيراً وينسب له آفة الشجاع اضاعة الحزم وآفة القوي استضعاف الخصم وفي بعض كتب الهند العاقل لا يستصغر عدواً فان من استصغر عدوه اغتر به

ومن اغتر بعدوه لم يسلم منه وقال بعض الالباء من صفات الحازم ان لا يستحقر النحيف ولا يزدري الصغير لصغره والفقير لفقره فان منه يأتي البلاء على النفس لان النفس غافلة عن امره مهملة للحفاظ منه والفكر لا ينصرف اليه لحقارته حتى يأخذ اهبة الحذر منه ومن ذلك يأتي على النفس شره ومن هذا ما يقال عدُ اضعف اعدائك قوياً واجبن اوزارك جرياً وقال بعضهم لا تستصغر عدواً فأن الغدير ربما ينشف بالذباب

(وقال آخر)

لاتحقرن شأن العدو وكيده   فلربما صرع الاسود الثعلب

(وقال آخر)

لا تكن محتقراً شأن امرء   ربما كانت من الشأن شؤن

العدو المحتقر ربما اشتد كالغصن النضر ربما صار شوكاً وقيل لا تأمنن العدو والضعيف ان يورطك فالرمح قد يقتل به وان عدم السنان

فلا تامن عدوك ان تراه   اقل اذا نظرت من القراد

فان الحرب ينشأ من جبان   وان النار تضرم من رماد

(وقال بعض ذوى الالباب)

لا تحقرن عدواً في مخاصمة   ولو يكون ضعيف البطش والجلد

فللبعوضة في الجرح المديد   تنال ما قصرت عنه يد الاسد

(وقال أبو بكر الخوارزمي)

قد غرقت املاك حمير فارة   وبعوضة قتلت بني كنعان

(وقال آخر مثل ذلك)

اذا استحقرت أدنى من تعادي   بمالك من يد وندى وطاقه

فما استحقرت ان اهملت الا   أمورك وهو ذاعين الحماقه

(وقال صاحب الصادح والباغم)

لاتحقرن منهم صغيراً محتقر   فربما اسالت النفس الأبر

(وقال آخر أيضاً)

ولا تحتقر كيد الضعيف فربما   تموت الافاعي من سموم العقارب

فقد هد قدماً عرش بلقيس هدهد   وخرب فار قبل ذا سد مأرب

(الجهة الثانية) قبوليته للزيادة والنمو بالانضمام لغيره فمن امثالهم في ذلك قول الفرزدق

تصرّم مني ود بكر بن وائل   وما كان لولا ظلمهم يتصرّم

قوارص تأتيني وتحتقرونها   وقد يملأ القطر الاناء فيفعم

(وقال بعضهم)

فمن لم يكن منكم مسيئا فانه   يشد على كف المسيء فيجلب

(وقال آخر)

لاتأمنن قوما ظلمتهم   وبذأتهم بالشتم والرغم

ان يأبروا نخلا لغيرهم   والشيء تحقره وقد ينمى

ولا ينبغي للعاقل ان يستصغر شيئاً من الخطاء والزلل فأنه متى ما استصغر الصغير يوشك ان يقع في الامر الكبير فقد رأينا الملك يؤتي من العدوّ المحتقر ورأينا الصحة تؤتي من الداء اليسير ورأينا الانهار تنفلق من الجداول الصغار قال أمير المؤمنين عليه السلام. لاتحقرن صغائر الآثام فانها الموبقات ومن احاطت به محقراته اهلكته وقال حكيم تجنب صغار الخطايا فمن العود الى العود ثقلت ظهور الحطابين اللهم اعف عن صغائرنا وتجاوز

عن كبائرنا فلقد أبهرتنا الذنوب وانت ستار العيوب وكشاف الكروب

(الشعبة الرابعة)

الاتيان للمحتملات وله ثلاث جهات وهي الاتيان بكل ما أمكن مما يحتمل فيه الامر المظنون النفع أو الحاجة أو الاتيان بجهة جامعة أو أمر عام لمحتملاته أو الاتيان بجميع المحتملات اذا كانت محصورة ثم وجه الحصر لهذه الشعبة في الثلاث جهات هو ان المظنون وجوده في أمور متعددة اما ان تكون تلك الأمور محصورة أولا وعلى الثاني مبني الجهة الاولى وعلى الاول اما ان تكون تلك الامور جامعة أولا وعلى الاول مبني الجهة الثانية وعلى الثاني اما ان تكون تلك الامور متباينة أو متعارضة وعلى الاول مبني الجهة الثالثة وعلى الثاني اما ان تكون تلك الامور المتعارضة أو الامرين المتعارضين معلوم الاوثق منهما أولا وعلى الاول يجب الرجوع الى الاوثق وعلى الثاني وجوب الاجتناب كما مرّ وسيأتي طريق الاخذ بالاوثق من المحتملين المتعارضين وهو الطريق الرابع من طرق الاحتياط فاذا عرفت ان لهذه الشعبة ثلاث جهات فلا بد من ايضاحها بالتمثيلات فنقول

﴿ الجهة الأولى ﴾

الاتيان بكل ما يمكن ان يظن فيه النفع من الامور الغير محصورة لاحتمال الموافقة للمظنون ومنه ما يحكى انه قيل لبعض العارفين الى متى تكتب فقال لعل الكلمة التي تنفعني لم اكتبها بعد ومنه ما ورد اكثروا من العائلة فانكم لا تدرون بأيهم ترزقون ومنه قول بعض السلف استكثروا من الاخوان فان لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل بشفاعة اخيك ومثال هذا الامر مثل

ما حكى انه اجتمع اثنان من أهل العرفان فقال احدهما كنت اكره موت الفجاءة واليوم وددت اني لو مت لما أتخوف من الفتنة فقال الآخر لكني لا اكره طول البقاء لعلي اصادف يوما اتوب فيه واعمل صالحا وهذا من قبيل التمثيل لما ينبغي الاكثار من الامور الغير محصورة اللتي يحتمل مصادفة المقصود فيها والا فالموت وطول البقاء لا يدخلان تحت الاختيار

(الجهة الثانية)

الاتيان بأمر جامع لوصفين وعام للاحتمالين فيما اذا كانت الأمور المحتملة محصورة ومنه قولهم في الامثال اشتر لنفسك وللسوق اي اشتر ما اذا امسكته انتفعت به واذا لم ترده نفق عليك في البيع وروى عن بعض الملوك انه قال اذا اشتريت جملا فاشتر عظيما فان أخطأك نفعه لم يخطئك سوقه وروي عنه أيضا انه قال لو كنت تاجراً ما اخترت على العطران فانني ربحه لم يفتني ريحه ومنه قول بعضهم سافر بالحمار الهرم فان حمل والا دل على الطريق ومن هـذا الباب التعميم في السؤال والجواب اما في السؤال فكقول بعض الاعراب

بالله ربكما عوجا على سكني   وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما   مابال عبدك بالهجران تتلفه
فان تبسم قولا في ملاطفة   ماضر لو بوصال منك تسعفه
وان بدا لكما في وجهه غضب   فغالطاه وقولا ليس نعرفه

وأما التعميم في الجواب للاحتمالين فكما حكي عن بعض العلماء انه قيل له كم الابدال قال أربعون نفسا نقيل له لم لم تقل رجلا قال قد يكون فيهم النساء

﴿ الجهة الثالثة ﴾

الاتيان بالامرين المحتملين للمقصود مالم يكن بينهما تعارض وذلك كما حكى في ربيع الابرار انه كان لرجل غلام من اكسل الناس فأمره بشراء عنب وتين فابطاء ثم جاء بأحدهما فضربه وقال ينبغي لك اذا ما استقضيك حاجة ان تقضي حاجتين ثم مرض فأمره ان يأتيه بطبيب فأتى به وبرجل آخر فقال من هذا الآخر قال حفار وأنت امرتني ان اقضي حاجتين بحاجة فان طبت فحسن والافيكون الحفار حاضر . ومنه ما يقال انه وصف عند الحجاج رجل بالجهل وكانت له اليه حاجة فقال في نفسه لأختبرنه ثم قال له حين دخل عليه اعصاميا انت ام عظاميا يريد اشرفت انت بنفسك ام بآبائك الذين صاروا عظاما وذلك انه يقال لمن يفتخر بنفسه عصامى ولمن يفتخر بنسبه عظامى فقال الحجاج هذا أفضل الناس وقضى حاجته وزاده ومكث عنده مدة ثم ناقشه فوجده اجهل الناس فقال له اتصدقني والاقتلتك قال له قل مابدالك وأصدقك قال كيف اجبتني بما اجبت لماسألتك عما سألت قال له والله لم أعلم اعصامي خير ام عظامي فخشيت ان أقول احدهما فاخطىء فقلت اقول كليهما فان ضرني احدهما نفعني الآخر وكان الحجاج ظن انه اراد افتخر بنفسي لفضلي وبآبائي لشرفهم فقال الحجاج عند ذلك المقادير تصير العى خطيباً فذهبت مثلا ومن هذا الباب ما حكاه ابن الجوزي في الاذكياء قال اخبرنا الجماز قال سمعت واحداً يقول لآخر قد رمد بأي شيء تداوي عينك قال بالقرآن ودعاء الوالدة قال اجعل معهما شيئاً من البزموت ومثله ما حكى أن رجلا قال لمزيد المدني اذا نبح عليك الكلب فاقرأ يامعشر الجن والانس فقال مزيد الوجه عندي ان تكون معك عصا فليس كل الكلاب

بحفظ القرآن . ومن هـذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . ومن هذا الباب قول الفقهاء بالجمع بين القصر والتمام عند اشتباه المسافة وتكرار الصلاة بالثوبين المردد بينهما النجس او المغصوب لمن لا يجد غيرهما وكذلك الوضوء باناثين اشتبه بينهما المغصوب وامثال ذلك من احكام المشتبهات بين امور محصورة لا تنافي بينها هذا اذا كان المحتملين امرين ومثله الترديد بما هو اكثر من امرين من المحتملات المحصورة ومثاله مثل ما حكى عن الرشيد انه قال للأمين ابن زبيده اشتر لنا ابريسم بدينار ولم يعين له لوناً من ألوان الابريسم فاشترى بدينار لونا واحداً منه ثم قال الرشيد للمأمون مثل ما قال للأمين فاشترى ابريسما من كل لون ولم يدع لونا الا اخذ منه فسأله الرشيد عن ذلك فقال انك لم تعين اي لون تريد فاخذت لك سائر الوانه ليوافق المقصود باحدها ومثل ذلك ما حكى ان الرشيد ارسل خلف المأمون ليلا فجاء راكباً فرساً متقلداً سيفاً ومعه ألف دينار ودواة وقرطاس فسأله الرشيد عن مجيئه على هذا الحال فقال اني فكرت في ارسالك خلفي ليلا بأنه لا يخلو من أمور أربعة اما ان تبعثني الى جهة من الجهات وهذا فرسي أو تريد ان تقتل مسيئاً وهذا سيفي أو تجيز محسنا وهـذا الالف دينار او تكتب كتابا وهـذه الدواة والبياض ومن هذا الباب الصلاة الى الجهات الاربع عند اشتباه القبلة بأحدها بان يحصل الاطمئنان باصابة القبلة بواحدة من الاربع هذا ما ينبغي التنبيه عليه وعليك القياس

(الطريق الرابع من طرق الاحتياط)

الاخذ بالاوثق من طرفي الشك والامرين المحتملين في مقام التعارض

وعدم امكان الجمع وذهني باوثق مايؤمن به المحذور كالندم والخطأ والاخذ اعم من ان يكون الاوثق ارتكاباً او اجتنابا واذا عرفت ذلك فللارتكاب وللاجتناب موازين

(اما موازين الارتكاب)

فمنها ارتكاب الاسلم من الطرفين ومثاله كما يحكى انه كان رجل في دار باجرة وكان خشب السقف يتفرقع كثيراً فلما جاء رب الدار يطالبه بالاجرة قال له اصلح هذا السقف فانه يتفرقع قال لا بأس عليك فانه يسبح الله قال أخشى ان تدركه الرأفة فيسقط واصلاحه أسلم ومنها ارتكاب مايحتمل الحاجة اليه وان كان أيضاً من ارتكاب الاسلم ومثاله كما حكي عن نوادر جحى انه أراد جماعة من رفقائه ان يسرقوا نعله فقالوا له اصعد هذه النخلة واجنى لنا رطباً فلما أراد الصعود حمل نعليه في كمه فقالوا له والى أين تأخذ نعليك ونحن نحرسهما لك حتى تنزل فقال لهم لا انما أخذتهما معي ربما يحدث لي سفر وأنا فوق فأسافر من هناك فلا أكلف نفسي بالنزول لاجلهما واتعبكم بحراستهما ومنها ارتكاب الاهون والايسر من الامرين ومنه ما يعزى لأمير المؤمنين عليه السلام احفظ شيئك ممن تستحي ان تسئله عن مثل ذلك الشيء اذا ضاع لك ومثله احفظ بيتك ممن لا تتشده اي ممن يساكنك لانك لا تقدر ان تطالب المفقود ومثل ذلك في الامثال اغلق دارك ولا تخون جارك اي اغلاق باب الدار أهون من تخوين الجار ومن هذا الباب قولهم ثلاثة لا يستحي من الختم عليها المال لنفي التهمة والجوهر لنفاسته والدواء للاحتياط من العدو هذه من جملة موازين الارتكاب

(وأما موازين الاجتناب)

فمنها اجتناب ما لا يضر اجتنابه من الطرفين وهو أيضاً من اجتناب ما كان الاسلم الاجتناب عنه ومثاله كما يحكى من نوادر الاعمش انه أراد ابراهيم النخعي ان يماشيه وكان أعور فقال له الاعمش ان رأنا الناس معاً قالوا أعور وأعمش فقال النخعي وما عليك ان يؤثموا ونؤجر فقال الاعمش وما عليك ان يسلموا ونسلم ومنها اجتناب مايحوج الى التعب من الامرين وترجيح مايغنى عن التعب منهما ومثاله كما يحكى ان بعض العلوية قال في حضرة عضد الدولة ببغداد عندنا بالكوفة نبق وزن كل نبقة مثقالا فاستظرف الملك ذلك وكاد يكذبه الحاضرون فلماقام ذكر ذلك لابيه فارسل حماماً كان عنده في الحال الى الكوفة وامر وكلائه بارسال مائة حمامة في رجلي كل واحدة نبقتان من ذلك النبق فجاء النبق في بكرة الغد وحمل الى عضدالدولة فاستحسنه وصدقه حينئذ ثم قال له لعمري لقد صدقت ولكن لاتحدث الناس فيما بعد بكل ما رأيت من الغرائب فتكذب فتحتاج الى هذه المشقة في تصديق كلامك وليس كل وقت يتهيأ لك ارسال الحمام ومثل ذلك ما ذكره بعض المؤرخين انه كان عند ملك الصين نديم عاقل حليم قد جال وجاب وبلى الاعداء والاصحاب اتفق له في بعض الليالي انه كان في حضرة ملكه ومعه جماعة من العلماء والندماء وهم يتعاطون كؤس اللطائف ويتواطؤن على مافي الدنيا من ظرف وظرائف ويتذكرون عجائب الاقطار وغرائب الامصار فقال النديم رأيت في بعض الاقاليم حيواناً كبيراً سريع السير متردداً شكله بين شكلي الجمل والطير وذكر ان اسمه النعام فتعجب الحاضرون من صفاته ثم قال واعجب من ذلك ان هذه الدابة تأكل الجمرات

وتلتقط الحصيات وتختطف الحديدة المحمات من النار تزدردها ولا يتألم
لذلك فمها ولا جسدها فانكر بعض الحاضرين قوله لانهم لم يشاهدوا مثل
ذلك ونسبوه الى المخارقة في الاخبار فتصدى لاثبات مايقول بطريقي المنقول
والمعقول فلم يسعف كلامه القبول على ما الفته منهم العقول لان الحيوانات
بل وسائر الجمادات تذيبها النار وتمحو منها الآثار واتفقوا كلهم على تكذيبه
فقال النديم أنا رأيت هذا بالعين فلم يزدهم الا تأكيد المين وسقط من أعينهم
بهذا الكلام وحصل لذلك النديم من الخجالة والندم أمر عظيم واستمر في
حصر حتى منعه السلطان من الدخول في القصر وصار بين الاصحاب يشار
اليه بالكذاب فلم يسعه المقام الا السفر في طلب النعام حتى استجلب
منها عدة واستعمل عليها رجال مستعدة ونقلها الى الصين في عدة سنين تارة
في البحر وأخرى في البر وصرف عليها جملا من الاموال وقاسى في حملها
الشدائد والاهوال فما انتهى به السير الا وقد مات غالب تلك الطير فلما
وصل الى بلده واشتهر في المملكة ان النديم الفلاني قد أتى فاجتمع
الناس لينظروا اوامر الملك الخاص والعام فحضروا واحضر النعام في ذلك المحفل
العام وطرح لها الحديد المحمي فخطفته والجمر والحصا فالتقطته فشمله الملك
بالانعام واعتذر اليه عما مضى من الملام وفي بعض الاوقات تذاكروا في مافات
وانجر بهم الكلام الى مامر من حديث النعام قال النديم ايها الملك اني تكلفت
على هذه الاطيار كذا وكذا الف دينار وقاسيت من المشقة في الاسفار مالا
تقاسيه عيدان النار حتى بلغت تحقيق مرامي وتصديق كلامي ولولا ذلك وعناية
الملك لما زال عني اسم الكذاب الى يوم الحساب فتبسم الملك وقال ماقصرت
ولكن كلمة يحتاج في اثبات تصديقها الى صرف المال الجزيل وتجشم مشقة

السفر العريض الطويل لاي معنى يتفوه بها العاقل ولماذا ينطق بها مستمع او ناقل هذا واعلم ان اجتناب مايحوج للتعب لايختص باجتناب الكلام بل يطرد في اجتناب الافعال ايضاً المحوجة الى التعب في ازالة ماتشر من المضار ومنها اجتناب مايحوج الى الاعتذار والعلم فيه قول امير المؤمنين (الاستغناء عن العذر أعز من الصدق) وروى خير من الصدق والمعنى لا تفعل شيئاً تحتاج ان تعتذر عنه وان كنت صادقاً في العذر فان لم تفعل خير لك واعز من ان تفعل ثم تعتذر وان كنت صادقاً ومن حكم ابن المعتز «لايقوم عز الغضب بذلة الاعتذار» وكان يقال اياك ان تقوم في مقام معذرة فرب عذر اسجل بذنب صاحبه ومن الامثال اياك ومايعتذر منه اي لاترتكب امراً تحتاج فيه الى الاعتذار منه وقال علي ابن الحسين عليه السلام لبعض خواصه «اياك ان تتكلم بما يسبق الى القلوب انكاره وان كان عندك اعتذاره فليس كل من تسمعه يمكنك ان توسعه عذراً» ومنها اجتناب مايحوج للتخلص والرفع وبعبارة أخرى ترجيح الدفع قبل الوقوع على الرفع بعده فما يحتاج الى الرفع والتخلص يجب اجتنابه لانه أهون من الرفع وقال بعض القدماء ليس من العقل ان الانسان اذا وقع في أمر اجتهد في حسن خلاصه منه بل العاقل ان يجتهد ان لايوقع نفسه في أمر يحتاج الى الخلاص ومن امثال العامة لاتستصحب الجنى ولا تقول بسم الله الرحمن الرحيم أي لا تستصحبه فتحتاج الى البسملة والتخلص من ازاه ويقال صحة الجسم خير من شرب الادوية وترك الذنب خير من الاستغفار وكظم الشهوة خير من كظم الحزن ومخالفة الهوى النفساني والانكسار خير من دخول النار. ومن هذا الباب مايقال ان خوفك حتى تلقى الامن خير من امنك حتى تلقى الخوف. وذكر ابن الجوزي في الاذكياء

كان لاحمد بن خصيب وكيل له في ضياعه فرمى اليه بخيانة فعزم على القبض عليه والاساءة اليه فهرب فكتب اليه أحمد يؤنسه ويحلف له على بطلان ما اتصل اليه ويأمره بالرجوع الى عمله فكتب الوكيل اليه هذه الابيات

أنا لك عبد سامع ومطيع ... واني لما تهوى اليك سريع
ولكن لي كفا أعيش بفضلها ... فما اشترى الابها وأبيع
أأجعلها تحت الرحا ثم ابتغي ... خلاصاً لها اني اذاً لرقيع

ومن هذا الباب قول بعض الاساطين من علامات الجاهل ان يقرض ماله باللطف ثم يتقاضاه بالفظاظة والعنف ومنها ان يودع سره عند من يحتاج ان يتضرع اليه ويقسم في اخفائه واكتمامه عليه ثم يحلفه ان لا يبديه ولا يذكره لاحد ولا ينهيه قال بعض العقلاء كتمانك سرك يعقبك السلامة وافشاؤه يعقبك الندامة والصبر على كتمان السر أهون من الندامة على افشائه والتماس المستودع ان لا يذيعه والعلم في هذا الاصل الاصيل قول رسول الله صلى الله عليه وآله «ترك الذنب أيسر من طلب التوبة» حتى صار جارياً مجرى المثل يضرب لما تركه خير من ارتكابه من الافعال المقصودة بعد فرض رجحانه لان ما لم يكن راجحاً بعارض من العوارض لا يكون مقصوداً وذلك كالكذب لدفع مفسدة او جلب مصلحة فانية . وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام «ترك الذنب اهون من طلب التوبة» وذلك لان ترك الذنب هو الاحجام عنه وهو سهل على من يعرف اثر الذنب على ما ذا يكون وهو اسهل من أن يوقع الانسان الذنب ثم يطلب التوبة فقد لا يخلص داعيه اليها ثم لو خلص داعيه فكيف له بحصولها على شروطها وهو الندم والعزم على عدم العود والاستغفار الواقعي ولا ريب ان ترك

الذنب من الابتداء اسهل وأيسر من طلب توبة هذه صفتها وكلام أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً جار مجرى المثل يضرب لمن يسرع في ارتكاب أمر يخاطر فيه ويرجوا ان يتخلص منه فيما بعد بوجه من الوجوه هذا ماينبغي الاشارة اليه في ايضاح طرق الاحتياط الاربع

(خاتمة)

في اجتناب امور تركها اسلم من فعلها منها مايكون قيداً والزاما كالمسكن وشبهه. مر بعض الخوارج بآخر منهم وهو يبني داراً فقال من ذا الذي يقيم كفيلا وقالوا كل لايخرج بخروجك ويرجع برجوعك كالدار والنخل ونحوهما فهو كفيل ملزم. ومثله أيضاً الكفالة ففي الحديث عن الصادق عليه السلام ان الكفالة هي التي اهلكت القرون الاولى وفي حديث آخر الكفالة خسارة غرامة ندامة ومنها اجتناب مايعسر استرجاعه أو لايمكن تداركه وذلك كالكلام وشبهه قال أمير المؤمنين عليه السلام « الكلام في وثاقك مالم تتكلم به فاذا تكلمت به صرت في وثاقه » وقال عليه السلام في حديث آخر « اذا تكلمت بالكلمة ملكتك واذا امسكتها ملكتها » وقال عليه السلام في خبر آخر « تلافيك مافرط من صمتك أيسر من ادراكك مافات من منطقك وحفظ مافي الوعاء بشد الوكاء » وهذا مثل قولهم انت قادر على ان تجعل صمتك كلاماً واست بقادر على ان تجعل كلامك صمتا وهو حق لان الكلام يسمع وينقل فلا يستطاع اعادته صمتا والصمت عدم الكلام فالقادر على الكلام قادر على ان يبدله بالصمت وليس الصمت بمنقول ولا مسموع حتى يتعذر استدراكه قال بعض الراجزين

القول لاتملكه اذا نمى   كالسهم لايملكه الذي رمى

قال بهرام جور ينبغي للملك ان لا يضيع التثبت عند مايقول وما يفعل فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام والاقدام على العمل بعد التأني خير من الامساك عنه بعد الاقدام عليه وقال بعض الحكماء لصاحب له اعلمك شعراً هو خير لك من عشرة آلاف درهم وهما هذان البيتان

اخفض الصوت ان نطقت بليل　　　والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو　　　بقبيح يكون أو بكمال

وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر فقال احدهم انا اندم على ماقلت ولا اندم على مالم أقل وقال الآخر اني اذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم املكها واذا لم اتكلم بها ملكتها ولم تملكني وقال الثالث عجبت للمتكلم ان رجعت عليه الكلمة ضرته واذا لم ترجع لم تنفعه وقال الرابع انا على رد مالم اقل اقدر مني على رد ماقلت . هذا في مطلق الكلام مما هو بهذا العنوان ومن ذلك الوعد قال امير المؤمنين «المسئول حر حتى يعد» وقيل العدة عطية يقبح استرجاعها وقال قول العطية بعد المنع اجمل من المنع بعد العطية ومن الحكم المنثورة الرجوع عن الصمت ايسر من الرجوع عن الكلام والعطاء بعد المنع افضل من المنع بعد العطاء والاقدام على العمل بعد التأني احسن من الامساك عنه بعد الاقدام ومن ذلك افشاء السر قال امير المؤمنين «سرك اسيرك فان تكلمت به صرت اسيره» ونظم هذا بعضهم بقوله

صن السر عن كل مستخبر　　　وحاذر فما الحزم الا الحذر

اسيرك سرك ان صنته　　　وانت اسير له ان ظهر

ومن منثور الحكم له عليه السلام «لا تطلع زوجك وعبدك على سرك فيسترقاك» ومن منثور الحكم ايضاً من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه

كان الخيار عليه ومنها من افشى سره كثر عليه المتآمرون فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد ومن ذلك التوقي من مواقعة الذنوب فانها حجب على القلوب يعسر زوالها ولا يتيسر بعد ذلك صفاؤها وصقالها قال بعض الحكماء لصاحبه اياك ان تدنس بالمعاصي قلبك فان الماء لا يغسله وفي مثل ذلك يقول سابق «البربري»

الماء يغسل ما بالجسم من درن　　　وليس يغسل قلب المذنب الماء

ومن ذلك المحافظة على الايام فانه لا يمكن تداركها بعد الفوات قال أمير المؤمنين عليه السلام عباد الله قصروا العمل وخافوا الاجل فانه ان يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من الرزق يرجى غداً زيادته وما فات أمس من العمر لم ترج اليوم رجعته هذا وسيأتي زيادة الكلام في انتهاز الفرص في الامور الفوتية وانت خبير بأن مالا يمكن تداركه ولا يتيسر استرجاعه لا يختص بما عرفت وانما مثلنا لك بما مثلنا من ذم المسارعة في الوعد والكفالة والكلام وافشاء السر والتفريط في مواقعة الذنوب وتضييع الايام لتقيس عليها اجتناب المخاطرة في كل أمر يعسر استرجاعه ولا يمكن تداركه من الامور الواقعة الفوتية هذا ما ينبغي تحريره في الاحتياط بالامور الواقعة في الحال وهو الطرف الاول من طرفي الاحتياط .

(الطرف الثاني من طرفي الاحتياط)

في الامور المتوقعة في ثاني الحال وظن الحصول والامكان والتجوز في التغير والزوال واحكامه ثلاثة وهي التوثق في بدل موجود عند الظن بحصول مفقود

والاهتمام لما يظن او يعلم وقوعه من الحوادث المرهوبة استعداداً وادخاراً واعداداً والانتهاز لما يجوز مفاجئة فواته من الامور المرغوبة فهذه احكام ثلاثة تتضمنها فصول ثلاثة

(الفصل الاول)

(في التوثق)

وقبل ذلك لابد من تقديم مقدمة في ذم الاعتماد على امر غيبي لايعلم حاله وذم المخاطرة بالموجود اغترار بحصول المفقود فمن امثال العرب غرني بردك عن خدافلي والخدافل الخلقان واصل المثل ان رجلا استعار من امرأة برديها فلبسها ورمى خلقانا كانت عليه فجاءت المرأة تسترجع برديها فقال الرجل غرني بردك من خدافلي فارسلها مثلا يضرب لمن ضيّع شيئاً طمعا واغتراراً بشيء آخر غيره . ومن امثالهم بهذا المعنى قولهم لامائك ابقيت ولا حرك نقيت . يضرب من يطلب شيئا باضاعة غيره حتى يفوتاه جميعا وأصله أن رجلا كان في سفر ومعه امرأة وكانت عاركا فحضر طهرها ومعها ماء يسير فقيل لها أخري الاغتسال الى وقت ورود الماء فأبت فاغتسلت بالماء الذي كان عندها فبقيت هي وزوجها عطشانين من غير أن تبلغ حاجتها من الطهر . وقريب من هذا ما ورد في امثال اهل الهند وهو على ما زعموا ان كلبا مر بنهر وفي فيه ضلع فرأى ظله في الماء فهوى ليأخذه فاتلف ما كان معه ولم يجد في الماء شيئا . ومن امثال العرب في ذم الاعتماد والاتكال على امر غيبي لايعلم حصوله . قولهم في ذلك . عم العاجز خرجه . ويروى عمك خرجك . واصله ان رجلا خرج مع عمه الى سفر ولم يتزود اتكالا على مافي

خرج عمه فلما جاء قال ياعم أطعمني فقال له عمك خرجك ومن الامثال على ما زعموا ان سلاحفا كانت في جزيرة من الجزائر وكانت تلك الجزيرة ذات اشجار وانهار فاتفق ان دراجا اجتاز بها يوما وقد اصابه الحر والتعب فلما ضرّ به ذلك حط من طيرانه في تلك الجزيرة التي بها تلك السلاحف ترعى في جهاتها ثم ترجع الى مكانها فلما رجعت من مسارحها الى مكانها رأت الدراج فاحبته حبا شديداً وفرحت به ثم قال بعضها لبعض لاشك ان هـذا من احسن الطير فصارت كلها تلاطفه وتجنح اليه فلما رأى منها عين المحبة مال اليها واستأنس بها وصار يطير الى اي جهـة اراد ثم يعود وصارت هـذه عادته واستمر على هـذه الحالة مدة من الزمان فلما رأت السلاحف ان غيابه عنها يوحشها وتحققت انها لا تراه الا في الليل قال بعضها لبعض ان هـذا الدراج قد أحببناه وصار لنا صديقا وما بقى لنا قدرة على فراقه فما يكون من الحيلة الموصلة الى اقامته عندنا . دائما فقالت واحدة انا اجمله لا يفارقنا طرفة عين فلما حضر الدراج من مسرحه تقربت منـه السلحفات المحتالة ودعت له وهنأته بالسلامة وقالت له ياسيدي اعلم ان الله قدرزقك منا المحبة وكذلك اودع في قلبك محبتناوصرت لنا في هذه القفر أنيسا وأحسن اوقات المحبين اذا كانوا مجتمعين والبلاء الذي لا يطاق هو البعـد والفراق ولكنك تتركنا عند طلوع الفجر ولا تعود الينا الا عندالمساءفتصير عندنا وحشة زائدة وقدشق علينا كثير ونحن في وجد عظيم بهذا السبب فقال لها الدراج نعم كماذ كرت وانا كذلك في الحب ولكن مابيدي حيلة فان من طبعي الطيران والطائر ذوي الاجنحة ليس له مستقر الا في الليل لاجل النوم فقالت له السلحفات صدقت ولكن ذا الا جنحة في غالب الاوقات لاراحة

له ولا ينال من الخير ربع مايحصل له من المشقة وغاية المقصود للشخص الراحة والرفاهية ومع ذلك فانا نخشى عليك ممن يصطادك من اعدائك فيهلك وتحرم من رؤية وجهك فقال الدراج اذاً ما الرأي في امري فقالت الرأي عندي ان تنتف سواعدك التي تسرع بطيرانك وتقعد عندنا مستريحا تأكل من أكلنا وتشرب من شربنا في هذه السرحة الكثيرة الاشجار اليانعة الثمار ومتى دهمك أمر مخوف فانفسنا لنفسك الفداء وارواحنا لروحك الوقاء فاغتر الدراج بما زخرفته من المقال واوهمته بالمحال ثم نتف سوابقه واحدة بعد واحدة واستقر عندهن عائشا بعيشهن ورضي باللذة اليسيرة فبينما هو على تلك الحال اذ بصر به ابن عرس فرمقه بعينه وتأمله فرءاه مقصوص الجناح لايستطيع النهوض ففرح به ثم دنا منه وافترسه فصاح الدراج وطلب النجدة من السلاحف فلم نجدنه وتباعدن عنه وانكمش الى بعضهن بعضا لما رأين ابن عرس قابضا عليه وخنقهن البكاء فقال لهن الدراج هل عندكن شيئا غير البكاء فقلن ياحبيبنا ليس لنا قوة ولا طاقة ولا حيلة في امر ابن عرس فايس الدراج عند ذلك من حيات نفسه وقال لهن ليس لكن ذنب انما الذنب على من اغتر بقولكن ونتف ريشه اعتماداً عليكن فاذا عرفت هذا فمقتضى الحزم مما مر من هذه الامثال مع مامر في الروض الاول من ذم الاغترار امران وهما ذم الاعتماد على امر غيبي لايعلم حاله وذم المخاطرة بامر موجود اعتماداً واغتراراً بامر مفقود وينتج عن هذين الامرين المذمومين امر ثالث وهو التوثق عند ارادة ترك الموجود للمفقود فهذه ثلاثة أمور اما الاول منها فقد عرفت مما تقدم في الروض الاول ان الموجود لايعتمد عليه الحازم فكيف بمفقود غائب لايعلم حاله والمغرور من وثق به وقد قال بعض الحكماء «لاتضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ويثيبك

على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة ويعجبني ماحكى عن البهلول انه قال له الرشيد يوماً من أحب الناس اليك قال من اشبع بطني قال أنا اشبعك فهل تحبني قال الحب بالنسيئة لايكون. هذه نبذة يسيرة وينكشف الحال في النوع الاول عند انتهاز الفرص الغير متراخيه فانظره هناك وأما الثاني وهو ذم المخاطرة فقد ورد في امثال العقلاء من العرب قولهم عش ولا تغتر يضرب مثلا للاحتياط والاخذ بالثقة في الامور وأصله ان رجلا اراد ان يغور بابله عند الليل وهي في عشب فترك ان يعشيها منه واتكل على عشب ظن انه يجده في طريقه فقيل له عشها من هذا ولا تغتر بالغائب فلعله يفوتك وجاء رجل الى ابن عباس رضي الله عنه فقال كما لاينفع مع الكفر حسنة فكذا لايضر مع الايمان ذنب فقال له ابن عباس عش ولا تغتر أي لاتغتر بهذه الشبهة واعمل فان الايمان قول وعمل وقال الاسود بن زيد والله لاجتهدن في العبادة فان يكن الأمر عسيراً كما أخاف في الآخرة كنت قد اجتهدت وأخذت بالحزم وان يكن يسيراً كما أرجوا كان عمل درجات ومن هذا الباب قول القائل

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... ان لامعاد فقلت ذاك اليكما

ان صح قولكما فلست بخاسر ... أوصح قولي الوبال عليكما

وهذامن قبيل الجواب على طريق الاحتياط لمن انكر الميعاد من الدهريين تنزلا معهم والا فلا يشك بما أخبره الله ورسله ذو بصيرة ومن هذا الباب قول بن الهبارية في الصادح والباغم

فعاجز من ترك الموجودا ... طماعة وطلب المفقودا

وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام «لاتخاطر

بشيء رجاء اكثر منه وهو مثل قولهم من طلب الفضل حرم الاصل وقوله عليه السلام في وصيته للحسن عليه السلام حفظ مافي يدك احب الى من طلب ما في يد غيرك وهو نهى عن التفريط لا أمر بالامساك فاحمق الناس من اضاع ماله اتكالا على مال الناس وظناً انه يقدر على الاستخلاف قال الشاعر

اذا حدثتك النفس انك قادر على ماحوت أيدي الرجال فكذب

هذا وقد مر في الميزان السادس من الموازين العقلية مافيه كفاية فلا نطل هنا. واما الثالث وهو التوثق عند ارادة ترك الموجود فمهما أمكن التثبت فيه الى ان يمكن غيره وقد ورد في امثال العرب من الشواهد لهذا المعنى كثير منها قولهم « ان ترد الماء بماء أكيس أي الأحزم في أمورك ان ترد المنهل ومعك فضل ماء تزودته من ماء قبله » وقول العامة لاتصب ماء حتى تجد ماء ومنها قولهم لايرسل السارق الا ممسكاً ساقاً. يضرب مثلا للرجل الحازم لا يترك شيئاً الا تعلق بآخر مثله وقولهم في الرجل الحازم أحزم من حرباء لانه لاتخلى من ساق شجرة حتى تمسك ساق شجرة أخرى قال بعض الشعراء

اني أتيح له حرباء تنضبه لايرسل الساق الا ممسكاً ساقا

ومن امثال العرب وحكاياتهم عن السنة الحيوانات . لقى كلب كلباً في فمه رغيف محرق فقال بئس هذا لرغيف ما أرداه فقال له الكلب الذي في فمه الرغيف نعم لعن الله هذا الرغيف ولعن الله من يتركه قبل ان يجد ماهو خير منه . وفي التاريخ ان الرشيد هم بقتل البرامكة واستئصالهم وما فعله الا بعد سنين فسأله بعد ذلك مسرور الخادم عن تأخيره الوقوع بهم فقال

ماوجدت من يقوم مقامهم ولو اوقعت بهم ذلك الوقت لفسدت عليَّ أمور مملكتي فلما حصل في تلك المدة من يقوم مقامهم أوقعت بهم. هذا كله في التوثق بترك الموجود فلا يترك الا بعد التمكن من المفقود

(فرع)

ينبغي الحاذق مما ورد عن الشريعة الغراء في التوثق ونفي الريب في الدين والقراض اما بالرهان أو بالكتابة والاشهاد والتأجيل . وقد جمعها الله سبحانه وتعالى في قوله « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فاليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأبى الشهداء اذا ما دعوا ولا تسئموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وادنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد » الى آخر الآية هذا في الكتابة والشهادة وقد نبه سبحانه وتعالى بأن في ذلك دفعاً للريب بقوله تعالى « وادنى ان لا ترتابوا » ثم امر سبحانه في الرهان مالم تمكن الكتابة والاشهاد بعد هذه الآية بلا فاصل فقال تعالى « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة » الآية بيَّن سبحانه ان الرهان يقوم مقام الكتابة في التوثق وكل ذلك في نفي الريب وتسكين القلب. إستقرض من الاصمعي

خليل له فقال حباً وكرامه ولكن سكّن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه فقال يا أبا سعيد اما تثق بي قال بلى وان خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام كان واثقا بربه وقد قال له «ولكن ليطمئن قلبي» وقال بعض الادباء في التوثق بالكتابة والاشهاد آخذاً من الآية المتقدمة

أنلني بالذي استقرضت خطا   واشهد معشراً قد شاهدوه
فان الله خلاق البرايا   عنت لجلال هيبته الوجوه
يقول اذا تداينتم بدين   الى أجل مسمى فاكتبوه

واعلم ان الاشهاد لا يختص بالدين والقراض بل يطرد في كل امر يحتمل انكاره اذ المقصود منه دفع الريبة فأينما وجدت وجب. حكى العتبي قال بعث هشام بن عبد الملك يوما الى قاضيه فلما وصل خرج اليه وزيره وأقبل ابراهيم بن محمد بن طلحة فقعدا جميعا بين يدي القاضي وقال له الوزير ان امير المؤمنين قدمني للكلام عنه مع هذا الرجل يعني ابراهيم فقال القاضي إئتني بالبينة على تقديمك قال اتراني قلت عن أمير المؤمنين مالم يقل وليس بيني وبينه الا هذا الستر قال لا ولكن لا يثبت الحق لك ولا عليك الا بذلك. وفي الحديث عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال ان اصنافاً من امتي لا يستجاب منهم دعاؤهم وعد منهم رجلا دفع ماله لرجل بغير بينة ثم طالبه فانكر يقول يارب خلصني منه يقول الله الم امرك بالاشهاد عليه وقال بعض العلماء ثلاث لا خلاق لهم رجل له امرئة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دين فلم يشهد ورجل اعطى ماله لسفيه وكأنه مأخوذ من قوله تعالى «ولا تؤتوا السفهاء اموالكم» الآية اقول ومثل اعطاء الاموال للسفيه في تعريض المال للتلف اعطاؤها ايضا للمفلس ويدل

على ذلك عموم قول امير المؤمنين عليه السلام لا تعامل من لا تقدر على الانتصاف منه . وينبهك على ذلك ما يحكى عن الحجاج في شدة ظلمه وخوف الناس منه فانه قال لكاتبه لا تجعل مالي عند من لا استطيع اخذه منه قال ومن لا يستطيع الامير ان يأخذ منه ماله قال المفلس وقد تبين من مفهوم هذا الفصل ومنطوقه ان اسباب تعريض الاموال للتلف عدم الكتابة والاشهاد والرهان واعطاء المال للسفيه والمفلس ولو مع الكتابة والاشهاد والموجبة لنفي الريب اعطاء المال للعاقل الغير المفلس مع الكتابة والاشهاد او الرهان هـذا وقد بقي التنبيه على امر اخر من جملة مقتضيات نفي الريب وهو ضرب الاجل ولعلك غير غافل عن الاشارة اليه بالآية التي تقدم ذكرها في قوله تعالى « اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى » وقوله تعالى ايضا ولا تسئموا ان تكتبوه صغيراً او كبيراً « الى اجله وغير ذلك من المواضع التي لاتخفى على المتتبع للآيات ولا يختص بالتداين بل يطرد ذلك في كل أمر فيه ريبة في مدته ويكون الاجل فيه مقتض لبعض الاطمئنان في احد الوجهين وناف للشك عن احد الحالين وتوضيح ذلك بالتمثيل بعدة مطلقة عن اجلٍ فالشك يقع فيها من وجهين الحصول ومدة الحصول فاذا ضرب لها اجل ارتفع الشك عن احد الوجهين واذا قرنت العدة بضمان ارتفع الشك عن الوجه الآخر ولذلك قيل

الوعد احسن مايكون اذا تقدمه ضمان

وعلى ذكر ضرب الاجل في المواعيد وغيرها قال النظام قات لمجنون إجلس هنا حتى ارجع فقال أما ترجع فلا اضمن لك ولكن أجلس الى الليل

(فرع آخر)

يروي عن امير المؤمنين انه قال «لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بانجازها ولا يغرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعراً» وفي منثور الحكم لا تعد مالا تقدر على انجازه ولا تضمن مالا تثق بالقدرة عليه ولا تقدم على ماتخاف العجز عنه هذا اذا كان الوعد لا يوثق بانجازه واما ما يوثق بانجازه فلا مانع منه وربما فيه من الفوائد مالا يوجد بعضها في الانجاز والنقد وكان بعضهم يقول المواعيد شبكة من شباك الكرام يصطاد بها محامد محمدة الاخوان وكان آخر لا يقضي حاجته الا بوعد ويقول من لم يبت على سرور الوعد لم يجد للصنيعة طعماً وكلم منصور بن زياد يحيى بن خالد في حاجة لرجل فقال عده قضاؤها قال فقات اصلحك الله وما يدعوك الى العدة مع وجود القدرة فقال هذا قول من لا يعرف موضعاً للصنائع من القلوب ان الحاجة اذا لم يتقدمها موعد ينتظر به نجحها لم تجاذب الانفس سرورها ان الوعد تطعم والانجاز اطعام وليس من فاجاه طعام كمن وجد رائحته وتمطق به فطعمه ثم طعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون بها عند المصطنع حسن موقع ولطف محل. ولكن هذا خلاف ماسيأتي بيانه انشاء الله من ان خير البر عاجله وهو الحق فان للتأخير آفات وقد يكون ذلك هو المقتضي للدفع بالمواعيد لمن هو عاجز عن انجازها حالا واستقبالا حتى قال بعضهم الوعد رد جميل وربما هجس في خاطر السائل عدم القبول وربما عرضت للمسؤل علة تدخله تحت الاعجاز وحدث بالسائل حادث يحول بينه وبين الاستنجاز وعلى هذه التجويزات وان لم يكن من هذه الفقرات ماحكى. ان بعض الفقراء اتى الى خياط ليخيط له فتقاً في ثوبه ووقف الفقير ينتظر فراغه فلما فرغ منه الخياط طواه وجعله تحته واطال في ذلك فقال له اجيره ماتدفعه اليه فقال اسكت لعله ينساه ويروح. واذا كان للتأخير آفات

فاللازم على كل ذي مروءة ان لايعد مالم يثق من نفسه بالانجاز والا فلا يأمن من الخلف والخلف على مايقال الأم من البخل لان من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده ومن وعد واخلف لزمه ثلاث مذمات ذم اللؤم وذم الخلف وذم الكذب ولا يأمن صاحب المواعيد منها خصوصا من لايثق بانجاز مواعيده

﴿ الفصل الثاني في الاهتمام ﴾

لما يظن أو يعلم أو يجوز وقوعه من الحوادث المرهوبة اما بالاستعداد أو الادخار والاعداد واعلم أولا ان المتوقع أما واجب الوقوع عقلا أو عادة وان لم يعلم وقت وقوعه كالموت وشبهه من الامور الواجبة واما مظنون الوقوع بامارات تدل على وقوعه من مقدمات وشبهها واما جائز الوقوع جوازاً غير بالغ مرتبة الظن وهو المشكوك الذي يجوز وقوعه ويجوز عدم وقوعه كالفقر والمرض واشباهها فهذه ثلاثة أقسام للمتوقع وهو جائز الوقوع ومظنون الوقوع ومعلوم الوقوع ولكل قسم حكم لايعلم الا بعد تفصيل الاقسام وبسطاً للكلام فيها فنقول وبالله المستعان

(القسم الاول)

فيما يجوز وقوعه ويجوز عدم وقوعه والاهتمام له بالاعداد والادخار يختلف جوازه وعدم جوازه باختلاف حال الاهتمام له لان الاهتمام للمتوقع الجائز اما ان لايضر بالحال وينفع عند وقوع المتوقع لو وقع في الاستقبال او انه يضر بالحال وان جاز نفعه في الاستقبال او انه لايضر بالحال ويحتمل الندم على تركه في الحال لو وقع المتوقع بالاستقبال فهذه ثلاثة ولكل نوع حكم ولا بد قبل بيان ذلك من تقديم

(مقدمة)

(في تأسيس اصل لما هو مشكوك الوقوع فنقول) الاصل فيما هو مشكوك الوقوع العدم لاينبغي الاهتمام به مالم يكن له مرجح يقتضيه ويقال الدنيا وقتك الذي يرجع اليه طرفك لان مامضى عنك فقدفاتك ادراكه ومالم يأت فلا علم لك به وقال أبو الفتح البستي في هذا المعنى

قد مر امر ولم يعبأ به أحد ... من الثواء ببؤس مر ام رغد

وعندي اليوم قوت استعف به ... وان بقيت غداً اصلحت امر غد

ومن هذا قال أبو حازم انما بيني وبين الملوك يوم واحد امامس فلا يجدون لذته وأنا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال عمر بن كلثوم

وان غدا وان اليوم رهن ... وبعد غد بما لا تعلمينا

(والعلم في ذلك كله ماينسب لامير المؤمنين)

مامضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي انت فيها

وسيأتي زيادة الكلام في تأكيد هذا الاصل في أوائل انتهاز الفرص بأن الاوقات ثلاثة كما عرفت وعلى هذه القاعدة لاينبغي الاهتمام بما لايظن ولا يعلم وقوعه ولا ينبغي السعي فيما لاتعلم الحاجة اليه وقد قال أمير المؤمنين العقل هو ان لاتطلب المفقود حتى تفقد الموجود اذ كما يجوز احتياج الحاجة اليه يجوز الاستغناء عنه وسمع بعض الملوك سائلا يسئل فقال لمن عنده وكيل على الصدقات ألم اقل لك عش السائل فقال له الك عيال فقال لا فقال لست بسائل ولكنك تاجر ثم نثر مخلاته بين أيدي أهل الصدقة وضربه وطرده وكما يذم السعي فيما لاتعلم الحاجة اليه كذلك يذم الادخار له أيضا

والاتكال على ما هو المقسوم من الله هو الراجح . اهدى لرسول الله صلى الله عليه وآله طائران فأكل أحدهما عشيته فلما أصبح طلب غدائه فاتته بعض أزواجه بالطائر الآخر فقال ألم انهك ان ترفعي شيئاً لغد فان من خلق الغد خلق رزقه قال أوس بن حجر

ولست بداخر لغد طعاماً حذار غد لكل غد طعام

(وقال آخر)

ولا ترهبن الفقر ماعشت في غد لكل غد رزق من الله واجب

وكما يترك الادخار اتكالا على الله كذلك يترك السعي اتكالا عليه سبحانه ولقد أحسن من قال

اذا مانزعتك النفس حرصاً فامسكها عن الشهوات امسك

ولا تحرص ليوم انت فيه وغد فرزق يومك رزق امسك

(وقال آخر أيضاً)

حديثك في غد مالا يفيد جديد غد له أمر جديد

وكم تذرى بأنك فيه حي فماذا من تطلبه تريد

(وقال آخر أيضاً)

فما فارقت مهجة جسمها لعمرك أو وفيت رزقها

مواعيد ربك مصدوقة اذا غيرها فقدت صدقها

ولقد تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود اذ السعي وعدم السعي اتكالا على الله وسيأتي تحقيقه في التوكل انشاء الله وليس هذا موضع بيانه وانما نحن بصدد عدم الاهتمام بما لا يعلم وقوعه وان جاز وقد عرفت في أول الكلام حقيقة الامر فيه . بقي تفصيل الكلام في أنواع الاهتمام بما

يجوز وما لا يجوز ويحتمل الحاجة اليه احتمالا مساو لاحتمال عدمـه وقد عرفت ان حال الاهتمام به بالنسبة الى مايضر في الحال والاستقبال وما لايضر ثلاثة أنواع

(النوع الاول)

مالايضر اعداده لمحل الحاجة ولا يحتمل الندم عليه لو وقع العلم بعدم الحاجة اليه وفي مثل هذا يجوز الاحتياط باعداده ولا ينافى الاصل السابق عند التأمل . حدث بعض المؤرخين عن مؤدب ابن المعتز انه حفظه سورة والنازعات وقال له اذا سألك ابوك في أي شيء انت فقل له في السورة التي تلي عبس ولا تقل انا في النازعات قال فسأله ابوه في اي شيء انت قال في السورة التي تلي عبس فقال من علمك هذا قال مؤدبي قال فامر له بعشرة آلاف درهم وحكي ايضاً عن ابن عقيل النحوي قال ان السلطان محمد بن علي عزم على القدوم الى بغداد قال فخرجت متطيلساً فجلست على تل في طريقه فلما وصل سأل عني فقيل له هذا ابن عقيل فانحرف فنزل وجلس معي وقال كنت أحب ان القاك وسألني عن مسائل في الطهارة ثم قال لخادمه اي شيء معك فاخرج خمسين ديناراً فقال تقبل هذه فقلت لست بمحتاج فأن امير المؤمنين لايحوجني الى احد ولا اقبلها فلما انصرفت الى المنزل اذا خادم قد جائني بمال من عنـد الخليفة وشكر فعلي قال وانا لما قلت ما قلت عالم ان هناك عين للخليفة يخبره بما يجرى ومن محاسن الاعداد بما لا يضر اعداده في الحال ما حكى عن بعض المحدثين قال اخبرنى من اثق به انه خرج في طريق الشام مسافراً يمشي وعليه مرقعه وهو في جماعة نحو الثلاثين كلهم على هذه الصفة فصحبنا في بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة معه حمار

قاده يركبه ومعه بغلات عليها رحل وقماش ومتاع فاخر فقلنا له ياهـذا انك لا تفكر في خروج الاعراب علينا فانه لاشيء معنا يؤخذ وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك فقال يكفينا الله ثم سار ولم يقبل منا وكان اذا نزل يأكل استدعى اكثرنا فاطعمه وسقاه واذا عيي الواحد منا اركبه على احد بغليه وكانت جماعة تخدمه وتكرمه وتتدبر برأيه الى ان بلغنا موضعاً فخرج علينا نحو ثلاثين فارساً من الاعراب فتفرقنا عليهم ومانعناهم فقال الشيخ لا تفعلوا فتركناهم ونزل فجلس وبين يديه سفرته ففرشها وجلس يأكل فأظلتنا الخيل فلما رأوا الطعام دعاهم اليه فجلسوا يأكلون ثم حل رحله واخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الاعراب فلما اكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخدرت ارجلهم ولم يتحركوا فقال لنا ان الحلوى مبنج اعددته لمثل هذا وقد تمكن منهم وتمت الحيلة ولكن لا يفك البنج الا ان تصفعوهم فافعلوا فانهم لا يقدرون لكم على ضرر ففعلنا فما قدروا على الامتناع فعلمنا صدق قوله واخذنا اسلحتهم وركبنا دوابهم وسرنا حواليه في موكب ورماحهم على اكتافنا وسلاحهم علينا حتى بلغنا مأمننا انتهى . واعداد مثل هذا حسن لانه لا يضر حالا وينفع عند محل الحاجة ولا يندم عليه لو تبين الغناء عنه وقد وقع في امثال العرب يا عماه هل كنت اعور . قاله صبي كان لأمه خليل وكان يختلف اليها فكان اذا أتاها غمض احدى عينيه لئلا يعرفه الصبي بغير ذلك المكان اذا رآه فرفع الصبي ذلك الى ابيه فقال أبوه هل تعرفه يا ابني اذا رأيته قال نعم فانطلق به الى مجلس الحي فقال انظر اي من تراه فتصفح وجوه القوم حتى وقع بصره عليه فعرفه بشمائله وانكره لعينيه فدنا منه وقال ياعماه هل كنت اعور قط فذهبت مثلا والمقصود

من هـذا اعداد مالا يضر اعداده ولا يحتمل الندم على فعله اذا تبين عدم الحاجة اليه .

﴿ النوع الثاني من الاهتمام ﴾

ما يضر في الحال وان جاز نفعه في الاستقبال ولا يحتمل الندم على تركه لو تبين الخلاف وعـدم الحاجة اليه وقد عرفت فيما تقدم من تعريف الاحتياط ان عـدم الضرر مأخوذ في مفهومه ولو احتمالا فكيف اذا كان اضراراً للنفس نقداً لما يجوز عدم وقوعه كما يجوز وقوعه وقد عرفت ايضاً ان الاصل في مشكوك الوقوع العدم واحسن مايستشهد لهذا العنوان بقول سيد الانس والجان أمير المؤمنين عليه السلام لاتحمل على يومك هم سنتك كفاك كل يوم ماقدر لك فيه فان تكن السنة من عمرك فان الله سبحانه سيأتيك في كل غد جديد بما قسم لك وان لم تكن من عمرك فما همك بما ليس لك . وقوله عليه السلام في خبر آخر لاتحمل هم يومك الذي لم يأتك على يومك الذي قد أتاك فانه ان يكن من عمرك يأتيك الله سبحانه وتعالى فيه برزقك وان لم يكن من عمرك فما همك بما ليس من اجلك ومثله ما ينقل من كلام عيسى لاتهتموا لرزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتى فيه ارزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لاجال غيركم واخذ هذا المعنى بعض الالباء في قوله

لاتعجلي لغد فامر غد له ... اتعجلين الشر ما لم تمنع

(وقال آخر)

بكيت فقالت اراك بكيت ... فقلت الوصال اخاف انقضاضه

فقالت فديتك من عاشق ... يشمر للذيل قبل المخاضة

وقال رجل لبعض العلماء اني اريد ان اتعلم العلم واخاف تضييعه فقال له كفى بتركك له تضييعاً وفصل الخطاب في هذا الباب قول امير المؤمنين من قبض يده مخافة الفقر فقد تعجل الفقر وقوله في حديث آخر الناس من خوف الذل في الذل وقوله عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي هرب منه ويفوته الغنى الذي اياه طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء ورأى حكيم رجلا مثريا يأكل خبزاً وملحاً فقال لم تفعل هذا قال اخاف الفقر قال فقد تعجلته وقيل لبعض البخلاء لم حبست مالك قال للنوائب قيل فقد نزلت بك وأي نائبة اعظم من البخل وقد تبين من هذه الفقرات التي حررناها ان المؤمل غيب مشكوك الوقوع والاهتمام له بما يضر تعجيل ضرر في الحال وما فر منه وقع فيه وهذا خلاف للاحتياط لما عرفت من شرطه عدم الضرر اذ حقيقة الاحتياط دفع الضرر المحتمل واذا آل الامر فيه الى دفع الاجل بالضرر العاجل فالاحتياط حينئذ في ترك هذا الاحتياط فما هو الامن قبيل دفع الفاسد بالافسد

(تنبيهان)

متفرعان عن البيت المنسوب لامير المؤمنين عليه السلام

مامضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

الاول منهما فرع عن الشطر الاول وهو المؤمل غيب والثاني عن قوله ولك الساعة التي انت فيها اما الاول منهما يقبح في نظر العقلاء الادخار للشيء مع الحاجة اليه وتأخيره عن وقته المناسب له وقد وقع في امثال العرب لاعطر بعد عروس. واصل المثل ان عروساً اهديت فوجدها الرجل تفلة فقال لها اين الطيب فقالت ادخرته قال لاعطر بعد عروس فارسلها مثلا ومثل ذلك قولهم

لابقاء الحمية بعد الحرمة يقول انما يحمى الانسان حريمه فاذا ذهبت فلاحمية له ومن ذلك قول ابي الطيب

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها   سرور محب او اساءة مجرم

ومثله لابن المقرب انما يدخر المال لحاجات الرجال فالادخار للشيء لامر مشكوك لايعلم بانه يقع ام لامع وجود الحاجة اليه جهل محض . مر بعضهم في يوم شديد البرد فرأى رجلا صغير الرأس طويل اللحية وعليه قميص واحد وهو يرتعد من شدة البرد وأرى تحت ابطه حراماً ابيض من الصوف مطوي فقال لاي شيء لاتضع هذا الحرام عليك يقيك الم البرد فقال اخشى من تغير لونه واني قد ادخرته لغير هذا اليوم فقال له ومن اين لك علم بان يقع ماهو اعظم من هذا اليوم عليك وان ترتعد ثم مضى عنه وتركه وهذا من قبيل مايحكى عن بعض الظرفاء ان بعض الفسقة وقع على آخر يلوط به فرأى في وسطه خنجرا فقال ماهذا قال اعددته لوقت الشدة قال له وأي شدة تجيء اعظم من هذه الشدة التي انت فيها

(التنبيه الثاني)

المدخر لمشكوك الوقوع من المخوفات اما للنفس أو للغير وكلاهما قبيحان والثاني أقبح من الاول فلما هو المشهور من ان اصحاب المال شريكان الوارث والحدثان والعلم في ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام من بخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه . وقوله عليه السلام في حديث آخر يا ابن آدم ما اكسبت فوق قوتك فانت فيه خازن لغيرك فاخذ هذا المعنى بعضهم فقال

مالي اراك الدهر تجمع دائباً   البعل عرسك لا ابالك تجمع

(ومنه أيضاً قال الآخر)

اذا اختزن المال البخيل فانه سيورثه خصماً ويحتقب الوزرا

وقال عليه السلام انما لك من دنياك ما اصلحت به مثواك وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله يا ابن آدم ليس لك من مالك الا ما اكلت فافنيت أو لبست فابليت أو تصدقت فابقيت ومن هذا

(قال أبو العتاهية)

ليس للمتعب الكادح من دنياه الا الرغيف والطمران

(وقول الآخر منه أيضاً)

المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك الا يوم تنفقه

(وقول الآخر)

يا غافلا عن حركات الفلك نبهك الله فما أغفلك

مالك للغير اذا صنته وكلما أنفقته فهو لك

(وقول الآخر)

يقولون ثمر ما استطعت وانما لوارثه ما ثمر المال كاسبه

فكله واطعمه وجانبه وارثاً شحيحاً ودهراً يعتريه نوائبه

(وقول الشريف الرضي)

خذ من تراثك ما استطعت فانما شركاؤك الايام والوراث

لم يقض حق المال الا معشر نظروا الزمان يعيث فيه فعاثوا

(وقول آخر)

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه

(ومثله قول الآخر)

وذي ابل تسقى ويحبسها له اخو تعب في رعيها ودؤوب

غدت وغدا رب سواه يسوقها وبدل احجار وحاز قليب

فاذا عرفت هذا فهمت حقيقة قوله صلى عليه وآله «ليس لك من مالك الا ما اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدقت فابقيت» (واما الثاني) فلأن نفع النفس أولى من نفع الغير من والد أو ولد بالضرورة العقلية والاحمق من ضر نفسه لمنفعة غيره قال امير المؤمنين عليه السلام «الناس في الدنيا عاملان عامل في الدنيا للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته يخشى على من يخلف الفقر يؤثره على نفسه فيفنى عمره في منفعة غيره وعامل في الدنيا لما بعدها فجاءه الذي له بغير عمل فاحرز الحظين معاً وملك الدارين جميعاً» وقال عليه السلام لابنه الحسن «يابني لاتخلفن وراءك شيئاً من الدنيا فانك تخلفه لاحد رجلين اما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت واما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقى بما جمعت له فكنت عوناً له على معصيته وليس احد هذين حقيق أن تؤثره على نفسك» وفي حديث آخر ولا تحمل له على ظهرك فارج لمن مضى رحمة الله ولمن بقي رزق الله وقال عليه السلام لبعض اصحابه. لاتجعلن اكثر شغلك باهلك وولدك فان يكن اهلك وولدك اولياء الله فان الله لايضيع اولياءه وان يكونوا اعداء الله فما همك وشغلك باعداء الله. وفيما قال عليه السلام كفاية لهذا المطلب ولقد تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود من بيان ذم الاهتمام لما لايعلم ولا يظن وقوعه وهو المشكوك ومنه ذم الادخار والاعداد ومن هذا المعنى قول الشاعر

ايا جامع المال وفرته لغيرك اذ لم تكن خالداً

فان قلت اجمعه للبنين فقد يسبق الولد الوالدا
وان قلت اخشى صروف الزمان فكن من تصاريفه واحدا

واعلم ان هذا احد الموارد المنافية للتوكل كما سيتضح في مقامه ان شاء الله

(النوع الثالث)

من انواع الاهتمام لما يجوز وقوعه من المخاوف وهما الاعداد والاستعداد بما يحتمل الندم على تركه لو صدق الوقوع ومقتضى الحزم والاحتياط رجحانهما لجواز الندم على تركه وعلى الاول وهو الاعداد قول امير المؤمنين عليه السلام . اجعل زمان رخائك عدة لايام بلائك . وعليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله للنعمان من حديث « ان قرضت الناس قرضوك وان تركتهم يتركوك » قال وكيف اصنع قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وفقرك وعليه قول امير المؤمنين عليه السلام . من لم يتعاهد علمه في الخلاء فضحه في الملاء ومنه قول الشاعر

من لم يسمن جواداً كان يركبه في الخصب قام به في الجدب مهزولا

ومن ذلك قولهم تضرع للطبيب قبل ان تمرض اي افتقد الاخوان قبل الحاجة اليهم وهو من كلام لقمان وروي بعض المؤرخين عن سيرة بعض السلاطين في أرض مصر وكان قد ملكها وكان اسمه يلدقورانه كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال فقال له اصحابه ان أمير الجيوش بالشام وهو يتواعدك وكأنه قد قدم عليك فاستمد الرجال وانفق فيهم الاموال فاومى الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال بالصناديق فغزى امير الجيوش ذلك الملك في مصر وقتله وتسلم الصناديق والملك فكان رأيه رأيا فاسداً لان رجالا لا يقيمهم لوقته ويصطنعهم لحاجته انما يكونون اجناداً مؤلفين وشرذمة

ملفقين ليس فيهم عناء ولا عندهم دفاع ولا ممارسة للحروب قال بن الهبارية في الصادح والباغم ممثلا لهذا المعنى

ومن اضاع جنده في السلم ... لم يحفظوه في لقاء الخصم
فالجند لا يرعون من اضاعهم ... كلا ولا يحمون من اجاعهم
وضرهم ونفعهم كالذخر ... وحفظهم ينفع عند الزعر
فاضعف الملوك طرا عقلا ... من غره السلم فاقصى الجندا
يرضونه ويظهرون الطاعة ... حتى اذا فادح حرب ذاعه
اقبل يرضيهم ببذل المال ... املهم يحمون للقتال
وليس يغني عنه ذاك شيئا ... ولا يزيد القوم الاغيا
حتى اذا قيل نزال فروا ... وخلفوه وحده ومروا
واسعد الملوك من ارضاهم ... في حالة السلم ومن اعطاهم
فيعلمون أن ذاك دينه ... فكلهم بجهده يعينه
فيكثرون وهم قليل ... والحر يزكر عنده الجميل
وجاهلا من يدخر الاموالا ... ويحفظ الخيول والبغالا
لساعة الحاجة حين تقدح ... ان ادخار الناس عندي اصلح

ومن هذا ما يقال ان معاوية نظر يوم صفين الى جنبتي عسكره وكانتا مائتاين فاستوتا فقيل له هذا دبرته من زمان عثمان فقال انما دبرته من زمان عمر . وأما الثاني وهو الاستعداد فمنه قول امير المؤمنين عليه السلام . ثمرة الحزم السلامة وثمرة التفريط الندامة والتفريط اضاعة الحزم في الامور ولما عرفت ان الحزم عبارة عن تقديم العمل للحوادث الممكنة المستقبلة بما هو اقرب للسلامة وابعد من الغرور لا جرم كان ذلك مظنة السلامة والتفريط

في العمل لما يستقبل من الحوادث مظنة الوقوع فيها وعدم السلامة من بلاءها وهو مستلزم للندامة قال مسلم بن الوليد يمدح ابن مزيد الشيباني

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر ان يدعى على عجل

يقال ان هرون الرشيد لما سمع هذا البيت طلب ابن مزيد فاحضر وعليه ثياب ملونة ممصرة فقال له الرشيد اكذبت شاعرك في قوله تراه في الأمن في درع مضاعفة البيت فقال لا والله ما كذبته وان الدرع على ما فارقني وكشف ثيابه فاذا عليه درع فأمر الرشيد بأن يحمل عليه خمسون ألف دينار والى شاعره . خمسة آلاف ومنه قول بعض الاذكياء لتكون سيرتك وانت خلو في منزلك سيرة من هو في جماعة من الناس يستحي منهم ومنه

اذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

فالحازم خائف ولا يتم حزمه الا بالاستعداد للنوائب الممكنة ومنه قولهم من استعد الغنى ليوم الفقر فقد استعد لنائبة الدهر . ومنه قولهم من خشي الذئب اعد كلبا ومنه قول بعض الحكماء ينبغي للامير ان يكون له ستة اشياء وزير يثق به ويفشي اليه سره وحصن اذا لجأ اليه عصمه يعني فرسا . وسيف اذا نازل به الاقران لم يخف نبوته . وزخيرة خفيفة المحمل اذا نابته نائبة وجدها يعني جوهر وطباخ اذا قرئ من الطعام صنع له ما يهيج شهوته وامرأة جميلة اذا دخل اليها اذهبت همه . ومثل ذلك ما اوصت امرأة ابنها وكان ملكا باشياء منها انه ينبغي للملك ان يكون له زخيرة خفيفة المحمل اذا نابته نائبة كانت معه

(القسم الثاني من اقسام المتوقع)

ما كان مظنون الوقوع بامارة دالة على وقوعه والاهتمام بهذا القسم اشد

من الاهتمام بالقسم الاول بجميع انواعه من غير استثناء قال امير المؤمنين عليه السلام «من لم يتحرز من المكائد قبل وقوعها لم ينفعه الاسف بعد هجومها» ومن غرر الحكم تقدم بالحيلة قبل نزول الامر فانه اذا نزل ضاقت الحيلة وطاشت العقول ومنها ايضا ليس العاقل من يحتال للامر بعد الوقوع فيه وانما العاقل من يحتال للامر قبل تمامه ووقوعه فانك لا تأمن ان يكون ولا تستدركه ويقال الرجال ثلاثة حازم واحزم منه وعاجز فأحد الحازمين من اذا نزل به الامر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شعاعاً ولم تعي به حيلته ومكيدته التي يرجو بها المخرج منه واحزم من هذا المتقدم ذو العدة الذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه فيعظمه اعظاما ويحتال له حيلة حتى كأنه قد لزمه فيحسم الداء قبل ان يبتلي به ويدفع الامر قبل وقوعه واما العاجز فهو في تردد وتمنى واماني حتى يهلك ومن امثال ذلك على مازعموا ان غديراً كان فيه ثلاث سمكات كيسة وأكيس منها وعاجزه وكان ذلك الغدير بنجوة من الارض لايكاد يقربه أحد وبقربه نهر جار فاتفق انه اجتاز بذلك النهر صيادان فابصرا الغدير فتواعدا ان يرجعا اليه بشباكهما فيصيدان مافيه من السمك فسمعت السمكات قولهما فأما اكيسهن لما سمعت قولهما ارتابت بهما وتخوفت منهما فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر الى الغدير وأما الكيسة الاخرى فانها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان فلمارأتهما وعرفت مايريدان ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء فاذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قالت فرطت وهذه عاقبة التفريط فكيف الحيلة على هذه الحال وقلما تنجح حيلة العجلة والارهاق غير ان العاقل لايقنط من منافع الراي ولا ييأس على حال ولا يدع الرأي والجهد

ثم انها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها فاخذها الصيادان فوضعاها على الارض بين النهر والغدير فوثبت الى النهر فنجت واما العاجزة فلم تزل في اقبال وادبار حتى صيدت . ومن امثال العرب احذر من الغراب يزعمون انه أوصى ابنه فقال يابني اذا رميت فتلوص قال أنا اتلوّص قبل ان أرمى . ومثله قولهم الحذر قبل ارسال السهم تزعم العرب أيضاً ان الغراب أراد ابنه ان يطير فرأى رجلا قد فوّق سهما ليرميه فطار فقال أبوه اتئد حتى تعلم ما يريد الرجل فقال له يا ابت الحذر قبل ارسال السهم هذه الامثال والحازم من يجعل الشر عليه وقع قبل ان يحصل له ويقع ويأخذ له عدته واسلحته بما يذهبه عنه ويبطل حلول حالته فاذا فاجاءه لم يجد عنده مقراً فيتخطاه ويزول شره واذاه

(القسم الثالث من المتوقع)

ما كان معلوم الوقوع وان كان مشكوك وقت وقوعه وهذا القسم أعظم اهتماما لان القسمين الاولين يجوز فيهما عدم الوقوع وفي هذا يستحيل التجويز اذ لا يجوز عدم وقوع الموت وشبهه من الضروريات العقلية ثم لا يعلم زمان وقوعه فيجوز مفاجأته ويجوز تراخيه مدة قليلة واذا كان حال معلوم الوقوع بهذا الحال فمن الحزم الاهتمام له مدة تراخيه بالاستعداد والادخار والاعداد أما الاول فمنه قول أمير المؤمنين عليه السلام . ان أمراً لا تعلم متى يفاجئك ينبغي ان تستعد له قبل ان يغشاك . وقوله عليه السلام في حديث آخر اذا كان هجوم الموت لا يؤمن فمن العجز ترك التأهب له ومن غرر الحكم لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة وهذا مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وآله «ما حق امرء

يبيت ليلة الا ووصيته مكتوبة عند رأسه »والحزم أيضا ان لا يبيت من عنده وصيته الا ووصيته تحت رأسه فانه لا يأمن القبض في النوم فقوله صلى الله عليه وسلم يدل على ان الاحتياط قصر الامل وان اطالته غرور وخداع من المرء لنفسه وسوء نظر منه لامره اذ لا ساعة الا ويمكن ان يكون فيها انقضاء أجله فالاحوط الاستعداد لذلك لأنه ان احتضر قريبا كما يظن كان متأهبا للقدوم على ربه مقدماً ما يحتاج اليه من منقلبه وان امهل فكلما ازداد مهلة ازداد براً وقربة ومن غرر الحكم لامير المؤمنين عليه السلام انظر العمل الذي يسرك ان يأتيك الموت وانت عليه فافعله الآن فلست تأمن ان تموت الآن وقال عليه السلام في وصيته للحسن أنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ولا يفوته طالبه ولابد انه مدركك فكن منه على حذر ان يدركك وانت على حال سيئة قد كنت تحدث نفسك . منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك فاذن انت قد أهلكت نفسك ومن كلامه بهذا المعنى اياك ان ينزل بك الموت وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا . جعل صلوات الله عليه طالب الدنيا المعرض عن الله سبحانه عند الموت كالعبد الآبق يقدم على مولاه اسيراً مكتوفاً ناكس الرأس فما ظنك به وقال عليه السلام عباد الله زنوا أنفسكم وقبل ان توزنوا حاسبوها من قبل ان تحاسبوا وتنفسوا قبل ضيق الخناق وانقادوا قبل عنف السياق ويقول عليه السلام اعتبروا اعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط ومن غرر الحكم . العاقل من يعمل في يومه لغده قبل ان يخرج الامر من يده ومن درر الكلم له عليه السلام بادروا الموت وغمراته ومهدوا له قبل حلوله واعدوا له قبل نزوله . ومن الحكم أيضاً العقلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل ان يتركه وبنى قبره قبل أن يدخله وارضى

خالقه قبل أن يلقاه وقال الشاعر

اعمل لدار الخلد من قبل الاجل　　مادام عمرك مستداما في مهل

واحذر هديت من التردد والكسل　　فهما يفيدان الندامة والذلل

(غيره ايضاً)

بادر الى التوبة الخلصاء مجتهداً　　والموت في ذاك لم يمدد اليك يدا

فانما المرء في الدنيا على خطر　　ان لم يكن ميتاً في اليوم مات غدا

هذا ما اخترناه في الاستعداد واما الادخار والامداد لما هو معلوم الوقوع فلازم للاستعداد وتمامه والعاقل الحازم من يدخر لما يعلم بوقوعه وهو الميزان بين السفيه والعاقل فان السفيه مقصور نظره على شهواته في الوقت والحازم من ينظر لما يجب وقوعه بعد الوقت فيستعد ويدخر له ويعد ولا يلتفت الى وقته مع علمه بزواله . كما حكى ان بعض الملوك كان يتخذ كل سنة وزيراً فاذا تمت السنة عزله وبعثه الى جريرة واستوزر غيره الى ان اتخذ وزيراً عاقلا . فلما ولي الوزارة بعث الى تلك الجزيرة وبنى بها داراً لنفسه ونقل اليها ما كان له من الاموال فلما تمت السنة لم يعزله الملك بل اقره على حاله فسئل الملك عن ذلك فقال اعلموا اني كنت محتاجاً الى وزير عاقل ينظر في العواقب فما وجدت الا من يراعي الحال ولا ينظر في العواقب فكرهت اعجل عزله فصبرت على سوء تدبيره سنة فلما عزلته كرهت اختلاطه بالناس وهو مطلع على اسرار ملكي فبعثته الى الجزيرة واما هذا الرجل فوجدته مراعياً للعواقب في جميع اموره فلست استبدل به ما دام هذا تدبيره . وقال بعض الصالحين رأيت صبياً ليلة الخميس وهو يبكي فقلت له ما يبكيك فقال يا عم هذا يوم الخميس اتاني وهو يوم العرض واعرض على المعلم وانا خائف من

ذلة اوغلطة فقلت في نفسي هذا صبي صغير خائف من عرضه على معلمه وهو بشر مثله كيف حال من يعرض على مولاه بالقبائح والزلات ولقدذكرت بهذه الحكاية قول أمير المؤمنين عليه السلام. اجعل جدك لاعداد الجواب ليوم المسألة والحساب. ومن لطيف مارسم في هذا المقام تمثيلهم للانسان بالنسبة الى نظره الى دنياه وآخرته وذلك على ماوجدته مسطوراً في بعض كتب الامثال انه ذكر الحكماء وذووالفضل من العلماء انه كان في بعض الامصار تاجر من أعيان التجار ذو مال جزيل وجاه عريض طويل ونعمة وافرة وحشم وخدم متكاثرة من جملتهم غلام مخايل السعادة من جبينه لائحة وروائح النجابة من ذيل شمائله فائحة قدأفنى عمره في خدمة مولاه ولم يقصر لحظة في طلب رضاه فقال له سيده في بعض الايام لك حق ياغلام وأنا أريد مكافأتك واطاب موافاتك فتوجه هذه المرة في هذه السفرة فمهما ربحت فهو لك بعد ان اعتقتك من قيد رق اشغلك ثم اوسق له بالمتاجر مركباً وفسح له في السير شرقاً ومغرباً وسلمه الى الهواء والماء بعد ان توكل على رب السماء فسار بعض ايام وهو في اهناء مرام وأطيب عيش ومقام فاذا بالرياح هاجت والامواج ماجت واشباح البحر تصادمت والامواج على الغرقاء تلاطمت فشاهدوا من ذلك الهواء الاهوال وغدا قاع البحر كالجبال وآخر الامر نسفت السفينة الرياح وأوعر الله سهلها وخرقها فاغرقها وأهلها وذهب البحر بأموالها وأرواحها وتعلق الغلام بلوح من الواحها واستمر تقذفه الامواج الى ان وصل الى الساحل فخرج وهو كئيب ناحل وصعد الى جزيرة فواكهها غزيرة وصفوها عجيب ليس بها داع ولا مجيب فجعل يمشي في جنباتها الى ان اداه التوفيق الى فهم طريق فسار في تلك الجادة وهداية

الله له هادة فانتهى به المسير الى ان ترآى له سواد كبير وبلغ مملكة عظيمة وولاية جسيمة ورأى على بعد مدينة مسورة حصينة فعمد الى ذلك البلد وتوجه نحوها وقصد فاستقبله طائفة من الرعال نساء ورجال يتبعهم جنود مجنده وطوائف محشدة مع طبول تضرب وفوارس تلعب حتى اذا وصلوا اليه ترامو عليه واكبوا بين يديه يقبلون يديه ورجليه مستبشرين برؤيته متبركين بطلعته ثم البسوه الخلع السنية ووضعوا له التاج واركبوه فرساً ومشوا بالخدم بين يديه والجنائب في الموكب تجر لديه ينادون حاشاك واليك سلطان الناس قادم عليك حتى وصلوا الى المدينة ودخلوا قلعتها الحصينة ففرشوا شقق الحرير واجلسوه على السرير ووقف في خدمته الصغير والكبير والمأمور والامير وقالوا اعلم يامولانا انك صرت لنا سلطانا ونحن كلنا عبيدك وتابع مرادك ومريدك فافعل ما تختار وتحكم في الصغار منا والكبار فجعل يتفكر في أمره ومبداه ويتأمل ماصار اليه ويتدبر في منتهاه فقال ان هذا الامر لابد له من سبب ولا بد من آخر ومنقلب فانه لم يصدر في عالم الكون سدى وان لهذا اليوم من غير شك غدا وأن الصانع القديم لم يقدر هذه الافعال على سبيل الاهمال ولم يحدث لعباً ولا عبثا وجعل يلازم هذه الافكار آناء الليل واطراف النهار وهومع ذلك قائم يشكر النعمة ملازم باب مولاه بالطاعة والخدمة واضع الاشياء في محلها ومتفحص عن مصالح المملكة سالك مع كل من ارباب الوظائف ما يقتضى مسلكه ثم وقع اختياره من بين اولئك الجماعة على شاب جليل البراعة له في سوق الفضل والوفاء اوفر بضاعة متصف بانواع الكمال متحل بزينة الادب والجمال فاتخذوه وزيرا وفي أموره ناصحاً ومشيرا فجعل يلاطفه ويرضيه ويكرمه ويدنيه الى ان اختلا

به وتلطف في خطابه واستنصحه في جوابه وسأله عن أمر امرته وموجب رفعته وسلطنته فقال ذلك الشاب في الجواب اعلم أيها الملك الاعظم ان هذه البلدة وعساكر أقليمها وجنده قد اخترعوا امراً واصطلحوا على عادة اخرى سألوا الرحمن ان يقيض لهم في كل أوان شخصاً من جنس الانسان يكون عليهم ذا سلطان فاجابهم الى ذلك فسلكوا في أمره هذه المسالك وذلك انهم في اليوم الذي قدمت عليهم يرسل الله تعالى رجلا من عالم الغيب اليهم فيستقبلونه كما استقبلوك ويسلكون معه طريقة الملوك من غير نقص ولا زيادة وقد صارت هذه لهم عادة فيستمر عليهم سنة في هذه المرتبة الحسنة فاذا انقضى الاجل الممدود وجاء ذلك اليوم الموعود عمدوا الى ذلك السلطان وقد صار فيهم ذا امكان ومكان وجروه برجله من التخت وسلبوه ثوب العزة والرخت وألبسوه ثوب الذل والنكال واوثقوه بالسلاسل والاغلال وحملة الاهل والاقارب واتوا به الى بحر قريب فوضعوه في قارب وسلموه الى موكلين ليوصلوه الى ذلك الجانب فيوصلونه الى ذلك البر وهو قفر أغبر ليس به انيس ولا زاد ولا ماء ولا نشو ولا نماء ولا قدرة ولا امكان على الوصول الى العمران فيستمر هناك عرياناً وحيدا لا يملك اقامة ولا يستطيع رجوعاً الى ان يهلك عطشاً وجوعاً ثم يستأنف اهل هذه البلاد مالهم من فعل معتاد فيخرجون بالاهبة الكاملة الى تلك الطريق السائلة فيقيض الله تعالى لهم رجالا فيفعلون معه مثل ما فعلوا مع غيره قولا وعملا وهذا أبهم وديدنهم وقد ظهر لك ظاهرهم وباطنهم . فقال الغلام للوزير فهل اطلع أحد ممن تقدم على عاقبة هذا المأتم قال كل قد عرف ذلك وتحقق انه عن قريب هالك ولكن غرور السلطنة يلهيه وسرور التحكم والتسلط يطغيه وحضور اللذة الحاصلة

سوء العاقبة تنسيه ولا يفيق من غفلته ويستيقظ من رقدته الا وعامه قد
مضى والاجل المضروب قد انقضى وقد احاطت به نوازل البلاء وهجم
عليه بوازل القضاء فيستغيث ولا مغيث وينادي بالخلاص ولات حين مناص
فلما سمع الغلام هذا الكلام اطرق مفكراً وبقى متحيراً وعلم انه لا بد للايام
ان تمضى وهذا الاجل المضروب ينقضي وانه ان لم يتدارك امره ويتلافى
خيره وشره ويتدبر حاله ومصيره ومآله هلك هلاك الابد ولم يشعر به احد
فأخذ يتفكر في هذا الخلاص والتملص من شرك الاقتناص ثم قال للوزير
الناصح الخبير ايها الرفيق الشفيق والنصوح الصديق جزاك الله خيراً وكفاك
ضيما وضيرا اني قد فكرت في شيء ينفع نفسي ويحييها ويرفع عنها شر هذه
البلية التي وقعت فيها واريد معاونتك واطلب مساعدتك فاني رأيتك فى
الفضل متميزاً بين اقرانك فائقا في محاسن الشيم على اصحابك واخوانك فقال
افعل وحباً لك وكرامة قال اعلم ايها الصاحب ان الرجوع الى هذا المكان
الذي كنت فيه خارج عن الامكان والاقامة في هذا الملك المعهود انما هي
الى أجل معدود ووقت محدود وانقضائه على البتات وكل ما هو آت وكيفية
الخروج قد عرفت وطريقتها تقررت ووضعت وهو ان تأخذ طائفة من
البنائين وجماعة من المهندسين والنجارين وتذهب بهم أيها الوزير الى
المكان الذي اليه نصير فتأمرهم ان يبنوا لنا هناك مدينة وتشيد لنا فيها
أماكن مكينة ومخازن وحواصل وتملؤها من الزاد المتواصل ولا تغفل
عن الارسال واياك الامهال والاهمال أوقاتنا محدودة وانفاسنا معدودة وساعة
منا تمضي غير مردوده واذ فات شيء من ذلك الوقت فلا نعوض
عنه الا بالخيبة والمقت فننقل هناك ما يكفينا على حسب طاقتنا ومقدار

قدرتنا واستطاعتنا فاذا تزودنا منها لم نرحل عنها بحيث اذا نقلنا من هـذه
الديار وطرحنا في تلك المهامه والقفار وجفانا الاصحاب وتخلى الاخلاء
عنا والاحباب وانكرنا المعارف والاوداء واحتوشتنا في تلك البيداء فنون
الداء نجد مانستمين به على اقامـة الاود مدة اقامتنا في ذلك البلد فاجابه
بالسمع والطاعة واختار من المعمارية جماعة واحضر المراكب وقطع البحر
الى ذلك الجانب وجعـل الملك يمدهم بالآلات والادوات على عـدد
الانفاس ومدى الساعات الى ان انهت المعمارية العمارة واكملوا حواصل الملك
وداره واجروا فيها الانهار وغرسوا فيها الاشجار فصارت تأوى اليها الطيور
بالليل والنهار وبنوا حواليها الضياع والقرى وزرعوا منها الوهاد والثرى ثم
ارسل اليها ما كان عنده من الخزائن ونفيس الجواهر والمعادن وارسل من
ظريف التحف اليها ومن حاجاته القول عليها بحيث لو أقام بها سنين قامت
بكفايته وفضلت خزائنها عن حاجته واكثر من ارسال ما يلزم من الادوات
والاشربة والمطعومات وجهز الخدم والحشم وصنوف الاستعدادات من
النعم فما انقضت مدة ملكه ودنت اوقات هلكه الا ونفسه الى مدينته تاقت
وروحه الى مشاهدتها اشتاقت وهو مستوفز للرحيل ورابض للنهوض
والتحويل فلما تكامل له في الملك العام لم يشعر الا وقد احاط به الخاص والعام
ممن كان يفديه بروحه من خادمه ونصوحه ومن كان سامعاً لكلمته من اعيان
خدمه وحشمه وقد تجردوا لجذبه من السرير ونزع ما عليه من لباس الحرير
ومشوا على عادتهم القديمة وسلبوه الحشمة الجسيمة وشدوا وثاقه وذهبوا به
الى الحراقه ووضعوه وقد ربطوا في المركب الذي هيئوه وأوصلوه الى ذلك
البر من البحر فما وصل اليه الا وقد اقبلت خدمه عليه وتمثلت طوائف الحشم

والناس لديه ودقت البشائر لمقدمه وحل في سروره المقيم ونعمه واستمر في اتم سرور واستقر في اوفر حبور فاذا عرفت هذا فتدبر أما ذلك الغلام المعهود فانه الولد في اول الوجود وأما المركب الذي اودعه فهو بطن أمه الذي استودعه وانكسار السفينة هو الشقاق والمشيمة والجزيرة التي خرج اليها فهي الدنيا التي دخل عليها والناس الذين استقبلوه فاقاربه وذووه واهلوه يربونه بالملاطفة والعلال ويعاملونه بالاكرام والافضال وذلك الشاب الذي هو وزيره فهو عقله ومن ايمان نوره والسنة المضروبة اجله المحتوم وعمره المعدود المعلوم ونزوله عن سريره عبارة عن آخره ومصيره وخروجه من الدنيا بالاكراه وشروعه في دخوله الى أخراه والبحر الثاني الذي طرح فيه هو أحوال ما يعانيه عند الموت وتعانيه والبر المقفر اللحد والقبر فالسعيد يتفكر في اموره واحواله ومبدأ امره ومآله ومابعدهذا التمثيل بيان كما يقال ما بعد عبادان قرية ولا بنيان ولكن نزيد في الايضاح والتحقيق لعلك من سكرتك تفيق فمما يليق ذكره بهذا المقام قول بعض ذوي الكمال

(من الانظام)

ولدتك امك يا ابن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا

فاجهد لنفسك ان تكون اذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا

(وقول الآخر ايضاً)

يا عامر الدنيا المعد لها ماذا عملت لدارك الاخرى

وممهد الفرش الوطيئة لا تغفل فراش الرقدة الكبرى

وقول الآخر ايضا

مهد لنفسك هان السقم والتلف ولا تضيعن نفسا مالها خلف

العمر ينفذ والايام ذاهبة ... والسبل شتى وسعي الناس يختلف
والناس في غفلة والموت يجمعهم ... كل يملل والارواح تختطف
وكل يوم مضى او ليلة سلفت ... فيها النفوس الى الارجاء تزدلف
والمرء ضيف بدار لا مقام له ... فيها الفجايع والروعات ترتدف
فاذكر سبيلا فظيما انت سالكه ... ماعن ورود حياض الموت منصرف
واذكر تجرع كاس انت شاربها ... وانت مستجذب في غمرة دنف
والنفس في سكرات الموت دانية ... والجسم في تعب والقلب يرتجف
واغمضوك حزانا بين مكتئب ... وناشج عينه منهلة تكف
وغادروك باطباق الثرى وغدوا ... ماآنسوك ولاواسوا ولاصرفوا
عنك الشدائد بل خلوك منجدلا ... فرداً وحيداً وولى القوم وانصرفوا
فرداً وحيداً غريبا لا وساد له ... ممهد من صعيد القبر ملتحف

من المناجات أكثر من الزاد فان الطريق بعيد بعيد ووجود السفينة فان البحر عميق عميق ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام « من تذكر بعد السفر استعد » قال اصحاب المعاني مثل أهل الدنيا كركب في فلاة وردوا ماء طيبا فمنهم من شرب من ذلك الماء شربا يسيراً ثم فكر في بعد المسافة التي يقصدونها وانه ليس بعد ذلك الماء ماء آخر فتزود منه ماء أوصله الى مقصده ومنهم من شرب من ذلك شربا عظيما ولهي عن التزود والاستعداد وظن ان ما شرب كاف له ومغن عن ادخار شيء فقطع به واخلفه ظنه فعطش في تلك الفلاة ومات . وقد روى عن النبي مثل ذلك ومن وصية امير المؤمنين للحسن عليه السلام . واعلم ان امامك طريقا ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة ولا غنائك فيه عن حسن الارتياد وقدر بلاغك من الزاد

مع خفـة الظهر فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك فيكون ذلك وبالا عليك واذا وجدت من اهل الفاقة من يحمل لك زادك الى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج اليه فاغتنمه وحمله اياه وا كثر من تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فلا تجده واغتنم من استقرضك فى حال غناك ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك واعلم ان امامك عقبة كؤد المخف فيها احسن حالا من المثقل والمبطئ عليها اقبح امراً من المسرع وان مهبطها بك لامحالة اما على جنة او على نار فارتد لنفسك قبل نزولك ووطئ المنزل قبل حلولك فليس بعد الموت مستعتب ولا الى الدنيا منصرف

(تتمـة)

الذرة تدخل في ايام الصيف للشتاء وتتقدم في حال المهلة ولا تضيع اوقات امكان الحزم ثم يبلغ من تفقدها وصحة تميزها والنظر في عواقب امرها انها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء ان تعفن وتسوس في بطن الارض فتخرجها الى ظهرها تنشرها وتعيد اليها جفافها وتضربها النسيم فينفى عنها اللخز والفساد ثم ربما بل في الا كثر تختار ذلك العمل ليلا لان ذلك اخفى وفي القمر الا انها فيه ابصر فأن كان مكانها ندياً وخافت ان تنبت الحبة نقرت موضع القطمير من وسطها لعلمها انها من ذلك الموضع تنبت وربما فلقت الحبة نصفين فاما ان كان الحب من حب الكزبرة تنبت من بين جمع الحبوب فهي من هذا الوجه مجاورة لفطنة جميع الحيوان حتى ربما كانت في ذلك احزم من كثير من الناس قيل اشتد الشتاء فطلب ضفدع من ذرة خبزه فقالت لم ترنمت في الصيف في اطراف النهار وتركت الادخار للشتاء قال لقمان لابنه يابنيّ لا تكون الذرة اكيس منك تجمع فى صيفها لشتائها

(ايقاظ)

لا بد من وقوع الندم على عدم الاستعداد او التقصير عن التزود ليوم الميعاد قال امير المؤمنين عليه السلام. اعمال العباد في عاجلهم نصب اعينهم في آجلهم وهو من قوله تعالى «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا» وقوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» ولله در القائل

يامن بدنياه اشتغل قد غره طول الامل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

(وقال بعض الالباء)

تيقظ للذي لا بد منه فان الموت ميقات العباد
يسرك ان تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

(وقال آخر)

اذا انت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن الزرع

(وقال الاعشى مثله)

اذا انت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ان لا تكون كمثله فترصد للامر الذي كان ارصدا

يقال ما من نفس برة ولا فاجرة الا وهي تلوم نفسها يوم القيامة ان كانت عملت خيراً هلا ازدادت منه وان كانت عملت شراً لم عملته ولقد سما الله يوم القيامة يوم التغابن . قال سبحانه «يوم نجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن» فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت اقدر على اكثر من هذه الطاعات فما اعظم غبني اذ ضيعت بعض اوقاتي في المباحات واما

العاصي فغبنه ظاهر . وقد قال بعضهم هب ان المسيء قد عفي عنه اليس قد فاته ثواب المحسنين . اشار به الى الغبن والحسرة . وقال بعض الحكماء اذا اردت ان يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة في القلب اكثر من مكث خفة الشهوة هذا ما ينبغي تحريره في الاهتمام للمتوقعات المعلومة او المظنونة

(الفصل الثالث)

في الانتهاز لما يجوز مفاجأة فواته من الأمور الفوتية والمعاجلة لما يؤمن بتأخيره فوات الامكان منه وكل أمر هو كذلك فامكان فرصه ومقتضى الحزم والاحتياط انتهازها ومعاجلتها ولكن درجات الانتهاز والمعاجله تختلف باختلاف حال الفرصة التي ينبغي معاجلتها فانها قسمان متراخية وغير متراخية ونعني بالمتراخية ماكان زمانها يزيد عليها وغير المتراخية ماكانت مساوية لزمانها وحينئذ فالانتهاز لغير المتراخية أشد وأعظم من المعاجلة للمتراخية واذا كان للفرصة قسمان فلا بد من بسط الكلام فيهما لتتضح درجات الانتهاز والمعاجلة فنقول وبالله المستعان

(القسم الأول)

الفرص المتراخية وهي ماكان زمانها يزيد عليها وهي وان كان معاجلتها أقل درجة من انتهاز الفرص الغير المتراخية لكن الاحتياط لا يقتضي تأخيرها اذ لا يؤمن من التأخير الفوات فان في التأخير آفات والاوثق التقدم في الأمر وقد ورد من أمثال العرب بهذا المعني كثير منها قولهم ان أصبح عند رأس

الأمر أحب الي من ان أصبح عند ذنبه. يضرب في الحث على التقدم في الامور ومنها قولهم آخرها أقلها شرباً وأصله في سقى الابل يقول ان المتأخر عن الورود ربما جاء وقد مضى الناس بصفوة الماء وربما وافق منه نفاداً فكن في أول من يورد فليس تاخير الورود الامن العجز في العقل والذل في النفس قال النجاشي أحد بني الحرث بن كعب يذم قوما

ولا يردون الماء الاعشية اذا صدر الوراد عن كل منهل

كان أكثم بن صيفى حكماً من حكام تميم فصيحاً عالماً بالانساب وكان من حديثه انه لما ظهر النبي صلى الله عليه وآله بمكة ودعى الى الاسلام بعث اكثم ابنه حبشياً فاتاه بخبره فجمع بني تميم وقال يابني تميم لاتحضروني سفيهاً الى ان قال ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة واتاني بخبره وكتابه (يأمر فيه بالمعروف وينهي عن المنكر) ويحث فيه بمحاسن الاخلاق ويدعو الى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران وقد حاف ذوو الرأي منكم ان الفضل فيما يدعو اليه وان الرأي ترك ما ينهي عنه ان أحق الناس بمعونة محمد أنتم فان يكون الذي يدعو اليه حقا فهو لكم دون الناس وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه. وقد كان اسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسمى ابنه محمد فكونوا في أمره أولا ولا تكونوا آخراً إئتوا طائعين قبل ان تأتوا كارهين ان الذي يدعو اليه محمد لولم يكن ديناً كان في اخلاق الناس حسنا هذا وحيث أشرنا الى أن للتأخير آفات ولا يؤمن معه الفوات فاعلم ان آفات التأخير كثيرة منها مفاجأة المانع كالاجل والمرض. وحكي عن أحمد بن محمد بن عيسى أنه قال جئت الى الحسن بن علي الوشاء وسألته أن يخرج لي كتابا بالعلا ابن ذرين وكتابا

لابن عثمان الاحمر فاخرجهما فقلت أحب أن أسمعهما فقال لي رحمك الله
ماأعجلك اذهب فاكتبهما واسمع من بعد . فقلت له لآمن الحدثان . وكتب
الفضل بن يحيي البرمكي الى بعض الرؤساء في حاجة تأخرت عنه من قبله
ثقتي بك تمنعني من استبطائك ومعرفتي بشغلك تدعوني الى ادكارك
ولست آمن بين هاتين الحالتين اخترام الاجال اذ الآجال آفة الامال .
جلس عمر بن عبد العزيز يقضي حوائج الناس فجلس الى الظهر فتعب ودخل بيته
ليستريح من تعبه فقال له ولده ماالذي يؤمنك ان يأتيك الموت في هذه
الساعة وهو على بابك منتظر حاجة وانت مقصر في حقه . فقال صدقت ونهض
وعاد الى مجلسه والعلم في ذلك كله مايعزى لامير المؤمنين عليه السلام «عباد الله
اتقوا اباطيل الامل فرب مستقبل يوم ليس بمستدبره ومغبوط في اول ليل
قامت بواكيه في آخره ومثله له عليه السلام بادروا العمل مرضاً حابساً وموتاً خالساً»
حكى عن رجل من بني اسرائيل جمع مالا فلما اشرف على الموت قال لبنيه اروني
اصناف اموالي فأتى بشيء كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى
تحسراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فوالذي خولك
ما انا بخارج من منزلك حتى افرق بين روحك وبدنك قال له فالمهلة حتى افرقه
قال له هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور اجلك فقبض روحه
فمن الواجب على من استفزه الشيطان وخدعه واغراه بالمعصية واوقعه ورجاه
بالتوبة واطمعه ان يستشعر هجوم المنايا وتخيل وقوع النوب والرزايا ويروى
انها لاتحقر الصغير ولاتهاب الكبير ولاتنظر لغني ولا فقير ان وعدت انجزت
وان طعنت اجهزت فلا يحدث نفسه بالاهمال ولا يخادعها بالتسويف والمطال
فأنه لايؤمن هجومها ولا يستفيق سليمها ولايدري متى تصل اليه فتحول

بينه وبين امله وتقطعه عن استدراك امله ولله در القائل

وكم قد ترددت في مهلة ولم ترقب الموت حتى هجم

ومن افات التأخير العجز عن التدارك فقد كان بعضهم يقول لاتطلب من نفسك العمل في هذه السنة مثل عملك في السنة التي قبلها فان الانسان كل يوم في نقصان وقد قيل لشيخ كيف حالك فقال صار يسبقني من هو مني ويدركني من هو خلفي وصرت أنسى كل شيء سمعته من الخير وصرت اذا قمت دنت مني الارض واذا قعدت تباعدت وصرت ابصر الواحد اثنين واسود مني ما كنت احب انه يبيض وابيض مني ما كنت احب انه يسود واشتد مني ما كنت احب انه يلين ولان مني ما كنت احب انه يشتد. وفي الزبور ما بلغ احد سبعين سنة الا اشتكى من غير علة واذا كان الانسان بهذا الحال من النقصان كيف يأمل من نفسه التدارك لما فات بما يأتي من السنوات ان امهله الاجل. وفي الحديث عن امير المؤمنين عليه السلام من جاوز اربعين سنة ولم يغلب خيره شره فليتجهز الى النار وفيه أيضاً اذا بلغ الانسان اربعين ولم يتب مسح ابليس على وجهه. وقال بأبي وجه لا يفلح. ومنه قول بعض النبلاء

اذا ما المرء قصر ثم مرت عليه الاربعون عن الرجال
ولم يلحق بصالحهم فعالاً فليس بلاحق اخرى الليال

(وقول الآخر)

اذا المرء افنى الاربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي ارتأى ولو مد اسباب الحياة له الدهر

وللتأخير آفات كثيرة لا تحصر وسنبين بعضها بطاوي التفاصيل الآتية أن تفطنت لها. ثم ما يتأكد التعجيل فيه من الامور القوية الواضحة أمران

(الاول من الامرين)

المعروف وفعل الخير ويكفي في ذلك قول الله سبحانه وتعالى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » وقوله تعالى « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » وقول رسول الله صلى الله عليه وآله « من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى تغلق عنه » وقول أمير المؤمنين عليه السلام . ان الفرص تمر مر السحاب فانتهزوها اذا أمكنت في أبواب الخير والا عادت ندماً . ولله در القائل

اذا ما تراخت ساعة فاجعلنها ... لخير فان الدهر ذو شغب
فان يك خيراً او يك بعض راحة ... فانك لاق من غموم ومن كرب

(وقال أبو القاسم الدبوسي)

أقول بنصح يا ابن آدم لا تنم ... عن الخير مهما دمت انك عادم
وان الذي لم يصنع العرف في غنى ... اذا ما علاه الفقر لا شك نادم
فقدم صنيعاً عند يسرك واغتنم ... فأنت عليه عند عسرك قادم

وفي الحكم المنثورة لا تؤخر المعروف فربما حالت بينك وبينه صروف

وقال عبد الله بن شداد لابنه يابني عليك باصطناع المعروف فان الدهر ذو صروف والايام ذات نوائب تقضى على الشاهد والغائب كم من ذي رغبة صار مرغوبا اليه وكم من طالب صار مطلوباً ما لديه قال بعضهم

وبادر بمعروف اذا كنت قادراً ... فاني أرى الدنيا تجور وتعدل
وليس كريم من يخص بوده ... وليس جواداً بالذي يتعلل

(وقال آخر ايضاً)

ليس في كل ساعة واوان ... تتهيأ صنايع الاحسان
فاذا امكنت فبادر اليها ... حذراً من تعذر الامكان

ويقال عن امير المؤمنين عليه السلام «لا تؤخر انالة المحتاج الى غد فانك لا تدري ما يعرض لك في غد» وفيما تقدم من هذا ما ينبهك على ان في التعجيل دفعا لتعذر الامكان وهو من جملة آفات التأخير فلا تغفل أيضاً عما يأتي فقيه تنبيه على افة أخرى وهو جواز الاستغناء عنه مالم يعاجل الأمر. قال الصادق عليه السلام «اني لا سارع الى حاجة عدوي خوفا ان أرده فيستغني عني» وفي الحديث ان الذنوب التي تورث الندم قتل النفس التي حرم الله قتلها قال الله تعالى في قصة قابيل حين قتل اخاه هابيل فعجز عن دفنه فاصبح من النادمين وترك صلة القرابة حتى يستغنوا

ومنه قول زهير بن أبي سلمى

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين «لا يقولن أحدكم ان فلانا أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك» مثاله قوم موسرون في محلة قصد سائل واحدا منهم فرده وقال له اذهب الى فلان فهو أولى بان يتصدق عليك مني فان هذه الكلمة تقال دائماً. وقد نهي عليه السلام عن قولها وقال فيكون والله كذلك أي ان الله تعالى يوفق ذلك الشخص الذي احيل السائل عليه ويتيسر له الصدقة ويقوي دواعيه اليها فيفعلها فتكون كلمة ذلك الانسان الأول قد صادفت قدرا وقضاء ووقع الأمر بموجبها وقد وقع مثل ذلك في عصرنا على ماحكاه لي بعض الثقات ان بعض علماء النجف واظنه الشيخ مرتضى الانصاري كتب الى رجل من تجار بغداد توصية في حق فقير من المؤمنين فأخذ الفقير كتاب الشيخ وشخص الى بغداد فلما وصل الى التاجر وناوله الكتاب عرف مافيه وقال ان هذا ليس لي وانما هو لفلان وسمى

له رجلا قواداً مشهوراً بالقيادة في بغداد فمضى الفقير اليه واعطاه الكتاب فلما قرأه قبله ووضعه على عينيه وقال حبا وكرامة للشيخ ثم أعطاه كلما كان يقدر عليه وكان عنده حانوت فباعه وأعطاه منه وتصدق بالباقي على الفقراء ثم نزع لباس الفسق وتاب من يومه فكانت كلمة التاجر وبالا عليه وسبباً لتوفيق الرجل وجلب الهداية اليه . ومثل هذا كثير ما يقع ثم نعود الى ما كنا فيه وقال أمير المؤمنين عليه السلام «ان للخير والشر أهلافهما تركتموه منهما كفاكموه أهله» والشاهد منه ان للخير أهلا فمتى دفعته عن نفسك كفاكه من هو موفق له وللشر كذلك ولولا دفعتك اياه لما فاتك هذا ما ينبغي تحريره

(الأمر الثاني من الامرين)

التي تتأكد المعاجلة فيهما هو دفع الامر الضار قبل وقوعه او دفعه بعده وذلك من وجهين أما من جهة ان لا يتسرى الى ما هو أعظم ضرراً منه او من جهة ان لا يقوى فيعسر دفعه وازالته بعد ذلك فهما حالان للعاجلة في الدفع قبل الوقوع والرفع بعد الوقوع وقد عرفت الوجه في كل واحد من الحالين وبقي التفصيل للوجهين فأما الوجه الاول فنمثل له بأمثلة تعرف بها حقيقته فمنها ما يحكى ان بعض التجار اشترى داراً في الانصار فباكروه بحب مسكور وقالوا هذا حب سعيد بن جبير فاقرضنا عليه مائه درهم فرد الحب واعطاهم الدراهم وانتقل فقالوا له لما انتقلت قال اخاف أن تباكروني غداً بقصعة عبادة بن الصامت على أربعمائة درهم .ومن ذلك ما حكى ان المهدي الخليفة العباسي خرج يتصيد فغاربه فرسه حتى وقع الى خباء اعرابي فقال يا اعرابي هل من طعام فأخرج له قرص شعير ولبناً ثم أتاه بنبيذ فلما

شرب قال يا أخا العرب أتدري من أنا قال لا قال أنا من خدم الخليفة الخاصة ثم شرب أخرى فقال أنا من قواد الخليفة ثم شرب أخرى فقال يا اعرابي انا الخليفة فأخذ الاعرابي الركوة وصبها وقال والله لو شربت الرابعة لادعيت انك رسول الله فضحك المهدي حتى غشى عليه ثم أحاطت به الخيل فطار قلب الاعرابي فقال له لا بأس عليك وأمر له بعطاء جزيل . ومثل ذلك ما ورد في الأثر ان رجلا كان راكبا حماراً فقال له آخر اردفني فردفه فقال له ما أفره حمارك ثم سار ساعة فقال ما أفوه حمارنا فقال له صاحب الحمار انزل قبل أن تقول ما افره حماري فما رأيت اطمع منك . ومنه ما حكاه السيد نعمة الله الجزائري قال كان في عصرنا شيخ من الصوفية في اصفهان فحكى له عنه ان رجلا كان له صبي مليح عليه مسحة من الجمال فأتى به الى ذلك الشيخ وقال يكون في خدمتك لتعلمه الاوراد والاذكار فأخذه الشيخ وأعطاه حجرة بانفراد وكان يعلمه كل يوم ورداً خاصا وذكرا من أذكار الصوفيه فاتى الى ذلك الصبي ليلة وجلس معه طويلا فلما أراد النهوض قبض قبضته على سبحة الخشب فقال استخرت الله اني أبات الليلة عندك فجائت الاستخاره حسنه فبسط الصبي له فراشاً ونام كل واحد على فراشه ثم قال للصبي استخرت مرة أخرى اني أنام معك في فراش واحد فوافقت فقام ونام في فراش واحد ثم استخار بزعمه على المعانقة فقال جاءت موافقة فعند ذلك أحس الصبي بخبث نية الشيخ فسكت ثم ان الشيخ قال ياصبي اني استخرت الله تعالى ان أضع في بطنك نوراً من نوري فجائت الاستخاره أمر فلما تيقن الصبي وخاف على استه صاح باعلى صوته ناكني الشيخ فسمع به من كان يقظاناً فاتوه وخلصوه من نور الشيخ . ومن هذا الباب قول شرف الدين شيخ الشيوخ

سألته من ريقه شربة　　أطفى بها من كبدي حره
فقال أخشى ياشديد الظما　　ان تتبع الشربة بالجره

ومثله للأديب الخباز

طلبت منه قبلة قال لي　　اياك أن تطمع في القرب
البوس جاليش وأخشى بأن　　لتتبع الجاليش بالقلب

ومثله لبعض المغاربة وقد رأى محبوبه يبصق في الارض

اتمنع ريقك العسال عني　　وأنت على التراب به تجود

فاجابه الصبي

ولو كنت اقتصرت عليه جدنا　　ولكنا لنعلم ماتريد

فخذ هذه الامثال وقس عليها المعاجله فى دفع كل أمر ضار سهل الزوال قبل ان يقع ويتسرى الى ماهو أعظم وأفظع كالأمراض والاعراض فانه اذا تسرى قبل ان يدفع عسر دفعه هذا هو الدفع قبل الوقوع . وأما الوجه الثاني فهو دفع الأمر الضار اذا وقع قبل ان يمتد باعه ويقوي ذراعه فيعسر أقلاعه فمنه قولهم في الأمثال تغدى بالجدي قبل ان يتعشى بك ومنه قولهم خذ اللص قبل أن يأخذك ولما أحيط بمروان بن محمد الجمدي قال والهفاه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت فقال له بعض كماته من اغفل الصغير حتى يكبر وأمهل القليل حتى يكثر وترك الخفي حتى يظهر اصابه هذا ومنه ما انشده ابن عرب شاه شعر

والشر كالنار تبدو حين تقدحه　　شرارة فاذا بادرته خمدا
وان توانيت عن اطفائه كسلا　　اورى قبائل تشوى القلب والكبدا
فلو تجمع اهل الارض كلهم　　لما أفادوك في اخمادها أبدا

ومنه ما جاء في الحديث عن امير المؤمنين عليه السلام « ان رأيت من نسائك ريبة فعاجل لهن النكير على الصغير والكبير » ومن هذا الباب مايقال ان المهدي الخليفـة العباسي كان كثير العزل والولاية خوفا من استيلاء الولاة على الرعية ومن هـذا الباب أيضا قول أمير المؤمنين عليه السلام «من لم يتدارك نفسه باصلاحها اعضل داؤه وأعي شفاؤه وعدم الطبيب» ومنه قوله عليه السلام «غالب الشهوة قبل قوة ضراوتها فانها ان قويت ملكتك واستقادتك ولم تقدر على مقاومتها» ومثال من يكسر سورة الشهوة في اول انبعاثها مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها الى باب لتدخله وما اهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها الى ورائها وما اعظم التفاوت بين الامرين في اليسر والعسر فليكن الاحتياط في بدايات الامور فاما في اواخرها فلا تقبل العلاج الا بجهد جهيد يكاد يؤدي الى نزع الروح وكذلك التوبة من المعاصي فان المعاصي كلما كثرت اثرت ظلمة في القلب الى ان تحجبه عن الهداية وحينئذ يكون قبوله للمحو متعسراً والتفاته الى الطاعات متعذراً فالمعاصي للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع في الباطن مغيرة مزاج الاخلاط وهو لايشعر بها الى ان يفسد المزاج فيعسر على الاطباء علاجه مالم يعالج في بداية الامر فكذلك المعاصي فالبدار البدار الى التوبة قبل ان تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولاينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون) . وجعلنا من بين

أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . وأما قوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون عن قريب) فمعناه عن قرب عهد بالخطيئة بان يتندم عليها ويمحو اثرها بحسنة يردفها بها قبل ان يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين احدهما ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو الثاني ان يعاجله المرض او الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك كان اكثر صياح اهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى ان يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا سبب للتسويف الا طول الامل فانه يطمع الانسان بما هوات كما غره بما فات ولقد احسن القايل

بآمال قضي عمري كذلك يذهب الباقي

(واجاد الآخر)

الا انما الايام ابناء واحد وهذا الليالي كلها اخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

فالتسويف في الآتي كالتسويف في الماضي وهذا هو الذي أهلك القرون الاولى لان المسوف يبني الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم وهل عجز في الحال الا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف اذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة التي أكدها الانسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون

الايام متشابهة في ان ترك الشهوات فيها أبداً شاق وما مثال المسوف الامثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع الا بمشقة شديدة فقال أوخرها سنة ثم أعود اليها وهو يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفاً فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته اذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فاخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . ولذلك لما مر برسول الله صلى الله عليه وآله رجل وقيل هذا مجنون قال رسول الله انما المجنون المقيم على المعصية ولكن هذا رجل مصاب

(تذيل في ذم الأمل والتسويف)

قال أمير المؤمنين عليه السلام «اياك أن تسلف المعصية وتسوف بالتوبة فتعظم لك العقوبة» وقال عليه السلام «اياك وطول الأمل فكم من غرور افتتن بطول أمله فافسد عمله وقطع أجله فلا أمله ادرك ولا مافاته استدرك» وقال عليه السلام «بادروا العمل وكذبوا الأمل ولاحظوا الأجل» وقال لقمان لابنه يابني لاتؤخر التوبة فان الموت يأتي بغتة هذا وعلى كل انسان أن يوبخ نفسه ويقول يانفس مالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فيما اذا آمنت استعجال الأجل ثم هب ان الجهد في آخر العمر نافع فلعل اليوم آخر عمرك فلم لاتشتغلين فيه بذلك وينشدها قول الشاعر

تعجل الذنب بما تشتهي ... وتامل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ... ماذاك فعل الحازم العاقل

ثم يقول لنفسه فان أوحى اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة افتنظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم

لم يخلقه الله تعالى قط ولن يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده اما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت ان الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأمس لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز واعجز ويوبخ النفس بهذا وامثاله فلعلها تفيق من سكرة الامل وتبادر مفاجأة الاجل وفوات المهل هذا ما ينبغي تحريره في الفرص المتراخية وانها غير متراخية حقيقة ولكن العادة اقتضت ان نطلق عليها اسم التراخي مجازاً وقد عرفت فيما حررناه بهذه الفصول من آفات التأخير وما ينبغي المعاجلة فيه وهو دفع الامور الضارة ومعاجلة أمور الخير النافعة من الامور الفوتية الواضحة وأما الملتبسة وغير الفوتية فليست مورداً للمعاجلة وقد مر تحقيقه في الكلام على التأني فراجع هناك

(القسم الثاني الفرصة الغير متراخية)

وهي ما كان زمانها مساوياً لها بمعنى فواتها بفوات وقتها وهذه الفرصة نوعان معلومة الفوات وهي ما يعلم بعدم امكانها بعد فواتها ومشكوكة الفوات وهي مالا يعلم بامكانها بعد الفوات وعدم امكانها فهذان نوعان

(أما النوع الاول)

فهو الفرصة المشكوكة وهي ما يحتمل تداركها واقتضاء الحزم لانتهازها أشد من اقتضائه معاجلة الأمر المتراخي وهو القسم الاول ودون شدة ايجابه انتهاز معلومة الفوات وهو النوع الثاني وقبل بيان ذلك لابد من تأكيد الاصل الذي مر تأسيسه وهو أن الاصل في كل مشكوك حصوله في الآن الثاني العدم ومقتضى ذلك ملاحظة الحال لا الماضي ولا الاستقبال لأن

الاوقات ثلاثة أما الماضي فقد فات ولا يمكن تدارك مافات وأما الاستقبال فغير معلوم الحال لايحكم عليه بحصول ولا عدم وصول بقي الحال فهو المؤمل وعليه المعول لانه معلوم ولا يترك بغير المعلوم وعلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام «ان ماضي يومك منتقل وباقيه متهم فاغتنم وقتك بالعمل . وقوله عليه السلام ان ماضي عمرك اجل وآتيه امل والوقت عمل» هذا وقد وجدت هذين البيتين منسوبين له

انما هذه الحياة متاع ... والسفيه الغبي من يصطفيها
مامضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

وقال في خبر «آخر ماضي يومك فائت وآتيه متهم ووقتك مغتنم فبادر فرصة الامكان واياك ان تثق بالزمان» واخذ هذا بعض العقلاء فقال

تمتع من الدنيا بساعتك التي ... تكون بها مالم تعقك العوائق
فلا يومك الماضي عليك بعائد ... ولا يومك الآتي به أنت واثق

ومنه قول بعض العلماء اعلم ان الدنيا ثلاثة ايام فأمس عظة وشاهد عدل فجعت بنفسه وابقى لك وعليك حكمه واليوم غنيمة وصديق اتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته وغدا لاتدري من اهله وسيأتيك ان وجدك ومنه أيضا قول بعض البلغاء

مامضى فات وما يأتي فأين ... فاغنم اللذة بين العدمين

ومنه ماقال عامر المدواني الايام ثلاثة يوم مضى عنك لاترجوه ويوم انت فيه لابد منه ويوم يأتيك لاتأمنه فامس واعظ واليوم غنيمة وغدا لاتدري ماحكمه فاما امس الماضي فشاهد مقبول وامين مزود اودعته زاداً خيراً او شراً وترك لك عوضا عنه لتحسن صحبته واليوم الذي انت فيه ضيف

سريع الظعن فأحسن له الصحبة يلقنك الحجة ويحبوك الشهادة وغدا المقبل حاكم تنتظر قدومه فاما حبيب لايظلم واما عدو لايرحم هذا مااخترناه وفي تثليث الاوقات وهو دال بعمومه على ان المستقبل مشكوك والاصل في كل مشكوك العدم وأما ما يختص بالمستقبل وان أشرك معه الماضي فكثير ومنه قول بعضهم

يامن يعد غداً لتوبته | أعلى يقين من بلوغ غد
أيام عمرك كلها عدد | ولعل يومك آخر العدد

والعلم فيه وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابي ذر رضي الله عنه يا أبا ذر اياك والتسويف باملك فانك بيومك ولست بما بعده فان يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم وان لم يكن غد لك لم تندم على مافرطت في اليوم ومنه قول بعض الالباء

ولا تبق فعل الصالحات الى غد | لعل غدا يأتي وأنت فقيد

فهذا مع عموم ماتقدم يؤكد ان حكم العقل بأن الاصل في المستقبل العدم ومثلهما مامر في القسم الاول في ذم التسويف وفي الفصل الاول في ذم الاعتماد وعلى أمر غيبي واذا عرفت هذا الاصل فمقتضاه ان كل فرصة مشكوكة لا يؤمن فواتها الا بانتهازها والا فالاقرب الفوات اذ لا يعلم امكانها بعد فواتها قال أمير المؤمنين عليه السلام « اغتنم الفرصة عند امكانها فانك غير مدركها بعد فواتها » وقال عليه السلام « من وجد مورداً عذباً ولم يرتو منه ولم يغتنمه يوشك ان يظمأ ويطلبه فلايجده » دخل رجل من أهل الشام على ابي جعفر المنصور فاستحسن لفظه وأدبه فقال له سل حاجتك فقال يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويزيد في سلطانك فقال سل

حاجتك فليس كل وقت يمكن ان يؤمر لك بذلك . ومنه ماقال بعض الادباء

اذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خافقة سكون

وان درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون

قال رجل للحسن البصري آخذ عطائي ام أدعه حتى آخذه من حسناتهم يوم القيامة . فقال له قم ويحك خذ عطاؤك فان القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة وقال بعضهم

بادر اذا حاجة في وقتها عرضت فللحوائج اوقات وساعات

ان امكنت فرصة فانهض لها عجلا ولا تؤخر فللتأخير آفات

يقال من ظفر بالساعة التي ينجح فيها العمل ثم لا يعاجله بالذي ينبغي له فليس بحكيم ومن طلب الامر الجسيم فأمكنه ذلك فاغفله فأتاه الامر وهو خليق أن لا تعود الفرصة ثانية ومن وجد عدوه ضعيفاً ولم ينجز اتلافه ندم اذا استقوى ولم يقدر عليه وقال بعضهم

انتهز الفرصة في حينها والتقط الجوز اذا ينثر

(وقال ابن الهبارية في الصادح والباغم)

انتهز الفرصة ان الفرصة تعود ان لم تنتهزها غصة

واسبق الى الاجود سبق ناقد فسبقك الخصم من المكائد

وقال عبد الحميد الكاتب من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فواتها وقال بن المعتز من هذا

كم فرصة ذهبت فعادت غصة تشجي بطول تلهف وتندم

(تذنيبان الأول منهما)

اعلم ان موارد هذا الفرصة كثيرة وفي الكل يقتضي الحزم والاحتياط

والانتهاز ولكن يتأكد ذلك في موردين منها كما عرفت في معاجلة الفرص المتراخية وهما أمور الخير النافعة ودفع أمور الشر الضاره ومن الاول ماحكي عن بعض العلماء انه كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال له انزع عني القميص وادفعه الى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال خطر لي بذله ولا آمن على نفسي ان تتغير ومن الثاني ما قال ارسطو افترص على عدوك الفرصه واعلم ان الدهر دول . وقال حكيم تجرع من عدوك الغصة الى ان تجد من الفرصه فاذا وجدتها فانتهزها قبل ان يفوتك الدرك ويعينه الفلك فانما الدنيا دول تقلبها الاقدار ويهدمها الليل والنهار . وقال بعض الحكماء الفرصة نوعان فرصة من عدوك وفرصة في غير عدوك فالفرصة في عدوك ما اذا بلغتها نفعتك وان فاتتك ضرتك وفي غير عدوك ما اذا أخطأك نفعه لم يصل اليك ضره ومن الحكم المنثوره انتهز أمر عدوك قبل ان يمتد باعه ويطول ذراعه وتشتد شكيمته وتقوى شوكته وقال ابن المعتز

وان فرصة أمكنت في العدى فلا تبد فعلك الا بها

فان لم تلج بابها مسرعا أتاك عدوك من بابها

وفصل الخطاب في هذا المورد قول أمير المؤمنين عليه السلام «بادر الفرصة قبل ان تكون غصة» وناهيك من ذلك انه لما حضر عبيد الله بن زياد عند هاني بن عروة عائداً وقد كمن له مسلم بن عقيل وامره ان يقتله اذا جلس واستقر . فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطعه وجعل هاني ينشد كأنه يترنم بالشعر قائلا

ما الانتظار بسلمى لا يحييها حيوا سليمى وحيوا من يحييها

ويكرر ذلك فاوجس عبيد الله خيفة ونهض فعاد الى قصر الاماره

وفات مسلما منه ما كان يؤمله باضاعة الفرصه حتى صار امره الى ما صار

(التذنيب الثاني)

في وقوع الندم على التواني وذلك عند امكان مالايمكن تداركه بعد التواني فيه وهذا مقابل الندم على العجلة فيما لايمكن تدارك الامر بعد العجلة فيه وقد مر في الطرف الاول من طرفي الاحتياط في آخر باب التأني فراجع وتنبه بان الامرين واحد ولا تنافي اذ الجامع هو عدم امكان التدارك للامر فان كان بالفعل لايمكن تداركه لو انكشف الخلاف وجب التأني وان كان بالترك لايمكن تداركه لاحتمال فوات الأمر وجب الانتهاز واذا عرفت هذا فتم فيما نحن بصدده يقال الندامة أربعة ندامة يوم وهي ان يخرج الرجل من منزله قبل ان يتغذى وندامة سنه وهي ترك الزراعة في وقتها وندامة عمر وهي ان يتزوج امرأة غير موافقة وندامة الابد وهي ان يترك أمر الله تعالى وقال بعض الحكماء خمس يفرحون بخمس ثم يندمون بعدها الكسلان اذا فاته الامور والمنقطع عن اخوانه اذا ناله شدة ومن أمكنته فرصة على أعدائه ثم عجز عن انتهازها ومن ابتلى بامرأة سوء وتذكر المرأة الصالحة قبلها والرجل الصالح يقدم على ارتكاب الذنوب. زعموا ان سارقا تسور على رجل وهو نائم في منزله فعلم به فقال والله لاسكتن حتى انظر ماذا يصنع ولا ازعره ولا اعلمه اني قد علمت به فاذا بلغ مراده قمت اليه فنغصت ذلك عليه ثم انه امسك وجعل السارق يتردد وطال تردده في جمع مايجده فغلب الرجل النعاس فنام وفرغ اللص مما اراد وامكنه الذهاب فاستيقظ فوجد اللص قد اخذ المتاع وفاز به فاقبل على نفسه يلومها وعرف انه لم ينتفع بعلمه باللص اذ لم يستعمل في امره مايجب. ومن امثال هذا المقام الظريفة مازعموا انه كان في بعض الغياض لذئب

وجار آهل وجار فخرج يوماً لطلب الصيد ونصب لذلك شباك الكيد وصار يجول ويصول ولايقع على محصول فأثر فيه الجوع واللغوب واذنت الشمس بالغروب فصادف بعض الرعيان يسوق قطيمين من الضان وفيهما بعض جديان فهم عليها لشدة الجوع بالهجوم ثم ادركه من خوف الراعي الوجوم لانه كان متيقظاً وعلى ماشيته متحفظاً فجعل يراقبه من بعيد والحرص والشره به يزيد والراعي سائق والذئب عايق فتخلف جدي غبي وغفل عنه الراعي الزكي فادركه الذئب واقتطعه فلما رأى الجدي الذئب علم انه اصيب بيوم عصيب فتدارك نفسه بنفسه واستحضر حيلة جاشه وحدسه وعلم انه لاينجيه من هذه الورطة الوبيلة الامغيث الخداع والحيلة واذكره الخاطر ما قاله الشاعر

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا ... به الخطب الا وهو بالقصد يبصر

فتقدم بجاش صليب وقبل الارض بين يدي الذئب وقال محبك الراعي لجنابك داعي يسلم عليك وقد ارسلنا اليك يشكر صداقتك وشفقتك ومرافقتك ويقول قد نزلت بحسن آدابك عادة ابائك واجدادك فلم تتعرض لمواشيه وحفظت بنظرك حواشيه وقد حصل لضعافها الشبع وامست بجوارك آمنة من الجوع والفزع وقد اراد مكافاتك وتطلب مصافاتك فارسلني اليك لتأكلني وامرني ان اطربك بما اغنى فاني حسن الصوت في الغناء وصوتي يزيد في شهوة الغداء فان اقتضى رأيك الاسعد غنيتك غناء ينسى ابا اسحق ومعبد وهو شي لم يظفر به آباؤك ولا اجدادك ولا يناله اعقابك واولادك يقوي كرمك وشهرتك وقومك ويطيب مأكلك وينسى مأملك وان صوتي للذيذ الذ للجائع من جدي حنيذ بخبز سميذ ورأيك اعلا وامتثالك اولى فقال الذئب لابأس قد اجبت سؤالك فغن مابدالك فرفع الجدى عقيرته ورأى في الصياح

خيرته وملا الدنيا عياطا واعقبه ضراطا وانشد

وعصفور الفلا يهوى جراده كما عشق الخروف اباجماده

فاهتز الذئب طربا وتمايل عجباً وعجبا وقال احسنت يازين الغنم ولكن هذا الصوت من الم فارفع صوتك في الزير فقد اخجلت البلابل والزرازير وزدني يامغني قولي

اقر هذا الزمان عيني بالجمع بين المنى وبيني

وليكن ياسيدي المغني هذا من أوج الحسيني فاغتنم الجدي الفرصة وأزاح بعياطه الغصة وصرخ صرخة أخرى اذكره الطامة الكبرى ورفع الصوت كمن عاين الموت وخرج من دائرة الحجاز الى العراق وكاد يحصل له من ذلك الانفتاق وقال منشداً

قفوا ثم أنظروا حالي ابو مـذقـة أ كالي

فسمعه الراعي يشدو فاقبل بالمطراق يعدو فلم يشعر الذيت الذاهل وهو لحسن السماع غافل الا والراعي بالعصا على قفاه نازل فرأى الغنيمة في النجاة وأخذ في طريق الفلاة وترك الجدى وافات ونجى من سيف الموت المصلت وصعد الى تل يتلفت بعد ان تفلت فاقعى يأ كل يديه ندامـه ويخاطب نفسه بالملامه ويقول ايها الغافل الذاهل والاحمق الجاهل متى كان على سماط السرحان الغنا والاوزان وأي جـد لك فاني واب مفسد جاني لا يأ كل الا بالاغانى وعلى أصوات المثالث والمثاني فلولا انك ماعدلت عن طريقة آبائك مافاتك لذيذ غدائك ولا أمـسيت جائعا تتلوى وبجمر فوات الفرصة تتكوى وبات يحرك ضرصه ونابه ويخاطب نفسه بما أنابه ويقول هذا الشعر

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى اذافات أمر عاتب القدرا

ونظير هـذا المثل مازعمته الأول انه كان في مكان مكين مأوى لمالك الحزين وفي ذلك المكان غياض وغدران تضاهي رياض الجنان وفي مياهه من السماك مانفوق سابحات السماك فكان ذلك الطير في دعة وخير يزجي الاوقات بطيب الاقوات فاتفق انه فى بعض الآناء تعسر عليه اسباب الغذاء فكان يطير بين عالم الملك والملكوت يطلب ما يسد الرمق من القوت فلم يفتح له بشيء من اعلى السماك الى اسفل الحوت وامتد به هذا الحال عدة ايام وليال فخاض يوم في الرقراق يطلب شيئاً من الارزاق فصادف سمكة صغيرة قد عارضت مصيره فاختطفها ومن بين رجليه التقفهاثم بعد اقتلاعها قصد ابتلاعها فتداركت زاهق نفسها قبل استقرارها فى رمسهافنادت بعد ان كادت ان تكون بادت ما البرغوث ونفسه والعصفور ودسمه اسمع ياجار الرضاومن عمرنا في صونه انقضى لا تعجل في ابتلاعي ولاتسرع في ضياعي ففي بقائي فوائد وعوائد عليك عوايد وهو ان ابي قد ملك امر هذا السمك فالكل عبيده ورعيته وواجب عليهم طاعته ثم اني واحد ابوي وأريد منك الابقاء علي فما فى ابتلاعي كبير فائدة ولا أسد لك رمقاً ولا اشغل لك معده فتصير مع أبي الفضل كما قيل فأفقرني فيمن أحب ولا استغني فالاولى ان اقرعينك واعرف مابين ابي وبينك فأكون سببا لعقود المصادقة وفاتحا لاغلاق المحبة والمرافقة ويحصل لك الجميل والفضلة التامة والفضيلة واما انا فأعاهدك ان اعتقتني ومننت علي واطلقتني ان انكفل لك كل يوم بعشر سمكات بياض سمان ودكات تأتيك مرفوعة غير ممنوعة ولا مقطوعة يرسلها اليك ابي مكافأة لما تفضلت عليه بي فلما سمع البلشون هذا المجون أغراه الطمع فما ابتلع فتناولها ثم قال لها اعيدي هذه الرمزة فبمجرد ما فتح فاه بالهمزة اخلصت السمكة منه بجمزه

وغاصت في الماء وتخلصت من بين فكي البلاء. ولم يحصل ذلك الطماع الا على قطع الاطماع ومرارة الغصة على فوات ما امكنته الفرصة وفي هذه الامثال كفاية لذوي الالباب والدراية. هذا احد نوعي الفرصة الغير متراخية

(النوع الثاني)

مالا يمكن تداركه بعد فواته وفي معناه ما يبعد جواز العقل بتداركه وفي الكل يجب الانتهاز وهو أيضاً قسمان احدهما ما يعود ويحتمل العود اليه وهو وان احتمل العود اليه فهو غير الاول وانما العائد أمر ثان ومن ذلك مايقع بالاسبوع مرة كليلة الجمعة واعمالها ومنه مايقع بالسنة مرة كالحج واشباهه من شهر رمضان ومحرم الحرام ونظايرها مما يعود وان عاد فهو غير مامضى ومامضى فات يستحيل تداركه وانما الفرصة زمان وامكان. نقل ان الحسن بن علي عليه السلام رأى الحسن البصري يقص عند الحجر فقال له ياحسن ترضى نفسك للموت قال لاقال فعملك هذا للحساب قال لا قال فثم دار للعمل غير هذا الدار قال لاقال فلله في أرضه معاد غير هذا البيت قال لاقال فلم تشغل الناس عن الطواف به. قال الراوي فما قص الحسن البصري بعد هذا الكلام أبداً وأما القسم الثاني وهو مالايعود أبداً فاوجب انتهازاً وأوكد مغافصة وهو أيضاً أنواع منها فرصة المكان كما مر من حديث الحسن عليه السلام مع الحسن البصري ومنه قول الرضي رحمه الله تعالى

تزود من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

ومنها فرصة الشباب والغنى والفراغة بل كل امر زايل لايعود في الاول قول بعض الاول

ذودينا من حسن وجه مادا م فحسن الوجوه حال يحول

ومنها فرصة الزمان وهي اعلاها بل الكل راجعة اليه وعايدة عليه وفي انتهازها قول رسول الله صلى الله عليه وآله «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك» وقال صلى الله عليه وسلم «نعمتان مغبون فيها كثير من الناس الصحة والفراغ» أي أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال أمير المؤمنين عليه السلام «بادر شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك بادر غناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك» وفيما يختص بفرصة حياة الانسان ومهلة الزمان قول أمير المؤمنين عليه السلام «تنفسوا قبل ضيق الخناق وانقادوا قبل عنف السياق» أي انتهزوا الفرصة واعملوا قبل ان يفوتكم الامر ويجد بكم الرحيل ويقع الندم وقال الشاعر في هذا المعنى

اختم وطينك رطب ان قدرت فكم قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا

وقال عليه السلام «بادروا العمل واغتنموا المهل فان اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» وقال عليه السلام في حديث آخر «الا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب الا وانكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل» وقال عليه السلام في خبر آخر «الا وانكم في أيام عمل من ورائه أجل فمن عمل في أيام أمله قبل حضور اجله نفعه عمله ولم يضره أجل» وقال عليه السلام «اعملوا والعمل ينفع والدعاء يسمع والتوبة ترفع» وقال عليه السلام «اعملوا وأنتم في آونة البقاء والصحف منشورة والتوبة مبسوطة والمدبر يدعى والمسيء يرجى قبل أن يخمد العمل وينقطع المهل وتنقضي المدة وتسد باب التوبة» وقال عليه السلام «طوبى لمن بادر الهدى قبل أن تغلق ابوابه طوبى لمن بادر صالح العمل قبل أن تنقطع أسبابه» وقال محمد بن يزداد دخلت على المأمون

وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة وقال يا محمد قرأت ما فيها فقلت هي في يد أمير المؤمنين فرماها الي فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة ... يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها ... يقطع فيها أمل الآمل
تعجل الذنب بما تشتهي ... وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتي بعد ذا بغتة ... ماذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون هذا من أحكم شعر قرأته قال بعضهم مثلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها وزقومها وزمهريرها فقلت يانفس أي شيء تشتهين قالت ان أرجع الى الدنيا فاعمل عملا انجو به من هذا العذاب ومثلتها في الجنة مع حورها البس من سندسها وحريرها فقلت أي شيء تشتهين فقالت ان أرجع الى الدنيا فاعمل عملا أزداد به الثواب فقلت فانت في الدنيا وفي الامنية فاعملي . وقال بعض العارفين لابنه يابني ان نفسك مسترهنة باعمالك والامال مقربة لاجالك فاشتر نفسك مادامت السوق قائمة والثمن موجود والربح مضمون ولا سوفها لوقت يكون السوق فيه كاسدة والامال منقطعة متباعدة ولا سبيل الى استدراكها وقد حيل بينك وبين الثمن وهو العمل وما أحسن قول القائل

اذا أنت لم تزرع وابصرت حاصداً ... ندمت على التفريط في زمن الزرع

فالويل كل الويل لمن فرط حتى تورط وآثر الامهال حتى صار في حيز الاهمال ثم هجم عليه مفرق الاحباب فحينئذ تنقطع عنه الاسباب ويسد دونه طريق الايأب ويندم حيث لاينفعه الندم حين تأخر ولم يتقدم فالنجاة النجاة قبل حلول الوفاة والعجل العجل قبل هجوم الأجل وانظر الى قول الشاعر

قلت للنفس ان أردت رجوعاً   فارجعي قبل ان يسد الطريق

(تتمة)

في الانتهاز المعلوم الفوات قبل فواته . قال أمير المؤمنين عليه السلام «بادروا في فنية الارشاد وراحة الاجساد بادروا في مهل البقية وانف المشية والتوبة مسموعة والاعمال مقبولة» ومن غرر الحكم له عليه السلام «بادروا بصالح الاعمال والخناق مهمل والروح مرسل ومنها بادروا قبل الضنك والمضيق بادروا قبل الروع والزهوق قبل قدوم الغائب المنتظر بادروا قبل أخذة العزيز المقتدر» وقال عليه السلام «بادروا لعمل وسابقوا لأجل فان الناس يوشك ان ينقطع بهم فيرهقهم الاجل» ومن هذا المعنى قول الرضي

يامن الايام بادر صرفها   واعلم بان الطالبين حثات

وقال عليه السلام «الامنتبه من رقدته قبل حضور منيته «الامستيقظ من غفلته قبل نفاد مدته الاعامل لنفسه قبل يوم بأسه الامستعد للقاء ربه قبل زهوق نفسه الا متزود لآخرته قبل ازوف رحلته الاتائب من خطيئته قبل حضور منيته» قال أبو العتاهيه

اسمع فقداسمعك الصوت   ان لم تبادر فهو الموت

(تذنيبات أربعة)

الاول لابد من وقوع الندم والحسرة على تضييع العمر بالتواني والفترة احتضر اعرابي فبكا فقال ماتأسفي على دار الاحزان والغموم والخطايا والذنوب وانما تأسفي على ليلة نمتها ويوم أفطرته وساعة غفلت فيها عن ذكر الله تعالى . وقال بعضهم مررت بشيخ تميمي بكى فاحزنني فقلت ويحك ماشأنك فرفع رأسه وقال ان عمراً قصيراً يستوجب به صاحبه النار لمشئوم واطرق يبكي

وقال بعض العلماء قرأت في بعض الكتب الدنيا غنيمة الاكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا مات لبعض العارفين صديق فرآه في النوم شاحب اللون ويده مغلولة الى عنقه فقال له ما حالك فأنشد

تولى زمان لعبنا به　　　وهذا زمان بنا يلعب

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من ليلة الا وينادي مناد يا أهل القبور من تغبطون قالوا نغبط اهل المساجد لانهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره» فاذا كان الحال على هذا المنوال فالبصير هو الذي ينظر الى قبر غيره فيري مكانه بين اظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم انهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق انه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك احب اليهم من الدنيا بحذافيرها لانهم عرفوا قدر الاعمار وانكشفت لهم حقائق الامور فانما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم انما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وانت قادر على تلك الساعة ولملك تقدر على امثالها ثم انت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر علي تضييعها عند خروج الامر من الاختيار اذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار ولقد صدق بعض العارفين حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره الا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعات لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفسه وضاعت منه بغير فائدة بكي عليها لا محالة وان

ضاعت منه وصار ضياعها سبباً لهلاكه كان بكاؤه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لاخاف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد وأي جوهر انفس من هذا فاذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً فان كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك اعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبته لايعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس عن التدارك. قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد قال له اعلم انه قد بقي من عمرك ساعة وانك لاتستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسره ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان يضم الى تلك الساعه ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلايجد اليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) واليه الاشارة بقوله تعالى (من قبل ان يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فاصدق واكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها) فقيل الاجل القريب الذي يطلبه الانسان معناه انه يقول عند كشف الغطاء العبد يا ملك الموت اخرني يوماً اعتذر فيه الى ربي وأتوب واتزود صالحاً لنفسي فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول فاخرني ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر روحه وتتردد انفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة الناس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر. وفي الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وآله انه يفتح

للعبد يوم القيامة كل يوم من أيام عمره أربع وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار فخزانة يجدها مملوئة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على اهل النار لادهشهم عن الاحساس بألم النار وهي الساعة التي اطاع فيها ربه ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفرغة فيناله عند مشاهدتها من الجزع والفزع ما لو قسم على اهل الجنة لنغص عليهم نعيمها وهي الساعة التي عصى فيها ربه ثم يفتح له خزانة اخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهي الساعة التي نام فيها او اشتغل فيها بمباحات الدنيا فيناله من الغبن والاسف على فواتها مالا يوصف حيث كان متمكناً من ان يملاها حسنات ومن هذا قوله تعالى (ذلك يوم التغابن) وقد مرت الاشارة اليه في الندم على عدم الاستعداد لزاد المعاد

(التذنيب الثاني)

في سرعة انقضاء عمر الانسان وقلته قال امير المؤمنين «اذا كنت في ادبار والموت في اقبال فما اسرع الملتقى» قال بعض الشراح هذا ظاهر لانه اذا كان كلما جاء ففي ادبار والموت كلما جاء ففي اقبال فيسارعان ما يلتقيان وذلك لان ادباره هو توجهه الى الموت واقبال الموت هو توجه الموت نحوه فقد حق حقيق اذاً الالتقاء سريعاً ومثال ذلك سفينتان بدجلة او غيره تصعد احداهما وتنحدر الاخرى نحوها فلا ريب ان الالتقاء يكون سريعاً اقول وقد قال بعض الشعراء بهذا المعنى

هون الدنيا وما فيها عليك واجعل اللهم لما بين يديك
ان هذا الدهر يدنيك الى ملك الموت ويدنيه اليك
فاجعل العدة ماعشت له ان يأتيك باحدى ليلتيك

وقال لقمان لابنه يابني انك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الاخرة فانت الى دار تقرب منها اقرب من دار تباعد عنها ومن هذا قول المتنبي

لو رجعنا الى العقول يقيناً   لرأينا الممات في الميلاد

وقال امير المؤمنين عليه السلام «الامر قريب والاصطحاب قليل» ومن ذلك قول ابن المعتز من قصيدة

نسير الى الاجال في كل ساعة   وايامنا تطوى وهن مراحل

وقال عليه السلام «الرحيل وشيك» الوشيك السريع واراد بالرحيل ههنا الرحيل عن الدنيا وهو الموت واما قلة عمر الانسان فقد قال بعض الحكماء قبل ان وجود الانسان عدم لا اول له وبعده عدم لا آخر له وما شبهة وجوده القليل المتناهي بين العدمين الغير متناهين الا ببرق يخطف خطفة حفيفة في ظلام معتكر ثم يخمد ويعود الظلام كما كان ومنه قول لبيد من ابيات

وما المرء الا كالشهاب وضوءه   يحول زمانا بعد اذ هو ساطع

وقال بعض الحكماء كانت الدنيا ولم اكن فيها وتذهب الدنيا ولا اكون فيها فلا اسكن اليها. ومن كلام بعضهم ايها الناس خلقنا ولم نك شيئاً وسنعود الى ذلك وهذا على مذهب من يقول بالعدم المطلق ولا نقول به وليس هذا موضع تحقيقه وستأتي الاشارة اليه في آخر سياسة الانسان لنفسه انشاء الله وانما اردنا بما حررناه من اقوال الحكماء الاشارة الى قلة عمر الانسان ووجوده الدنيوي بالنسبة الى عوالمه السابقة واللاحقة لتعرف ان مدة العمر فرصة من اهم الفرص

(تتمة)

في ان الدنيا خيال تشبه خيالات المنام واضغاث الاحلام قال رسول

الله صلى الله عليه وآله الدنيا حلم واهلها عليها مجازون ومعاقبون قال بعض العارفين ماشبهت نفسي في الدنيا الا كرجل نام فرأى في منامه مايحب ومايكره فبينما هو كذلك اذا انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فاذا ليس بايديهم شيء مماركنوا اليه وقيل لبعض الحكما أي شيء أشبه بالدنيا قال احلام النائم وقال بن البغدادي في هذا المعنى

مالقينا من غدر دنيا فلا كا　　نت ولا كان أخذها والعطاء
صلف تحت راعد وسراب　　كرعت منه مؤسر خرقاء
راجع جودها عليها فمهما　　يهب الصبح يسترد المساء
ليت شعري حلما تمر به الا　　يام أم ليس تعقل الاشياء
من فساد يكون في عالم الكو　　ن فلما للنفوس منه اتقاء

ومن كلام بعض الحكماء يابن آدم مالك ترغب في لذة لاتصحب ولا تدوم واذا زال عنك زمانها اسرع اليك نسيانها فوجدتها كالخيال الطارق والظل المفارق فانما أحوال الناس في هذه الدنيا كصور في صحيفة كلما نشر بعضها طوى بعضها ومن هذا المعنى قول الشاعر

الا انما الدنيا كأحلام نائم　　وما خير عيش لايكون بدائم
تامل اذا مانلت بالامس لذة　　فافنيتها هل انت الا كحالم

(ومنه قول بن هاني)

نشاق من الدنيا الى غير دائم　　ونبكي من الدنيا على غير طائل
فما عاجل نرجوه الا كآجل　　ولا آجل نخشاه الا كعاجل

ومثله للمتنبي أيضاً

في الناس أمثلة تدور حياتها　　كمماتها ومماتها كحياتها

فله أيضاً من المعنى

نصيبك في حياتك من حبيب | نصيبك في منامك من خيال

(تتمة أخرى)

قال أمير المؤمنين عليه السلام . كل آت قريب كل قريب دان وينسب له عليه السلام

كل ماض فكأن لم | كل آت فكان قد

وقال عليه السلام لاتستبطيء القيامة فتسكن الى طول المدة الآتية عليك بعد الموت فانك لانفرق بعد عودك بين ألف سنه وبين ساعة واحدة ثم قرأ عليه السلام (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من نهار الآية)

(التذنيب الثالث)

في انقضاء العمر بالغفلة وبيان أسباب الغفلة أما انقضائه بالغفلة فلقول النبي صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فاذاماتوا انتبهوا» وقال أمير المؤمنين عليه السلام . الناس في الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام ومنه قول بعض الالباء أيضاً

رأيت أخا الدنيا وان كان قاعداً | تسير به ايامه وهو لا يدري

(وقول الآخر)

ومن عجب الايام انك قاعد | على الارض في الدنيا وانت تسير

فسيرك في الدنيا كسير سفينة | بقوم جلوس والقلوع تطير

ومنه قول امير المؤمنين عليه السلام في وصيته للحسن عليه السلام . اعلم يابني ان من كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان كان واقفا ويقطع المسافة وان كان مقيما ومنه قول بعضهم

يجد بنا الزمان ونحن نلهو | ولا ندري متى يرد الحمام

ويخدعنا الهوى في ظل عيش | يمر بنا كما مر الغمام

كركب سفينة في لجج بحر　　تسير بهم وهم فيها نيام

والعلم في هذا كله قول النبي صلى الله عليه وسلم «احذروا الدنيا فانها اسحر من هاروت وماروت» الحديث وأول سحرها تريك كأنها ساكنة عندك مستقرة معك واذا تأملتها خلتها ساكنة وهي هاربة نافرة عنك على الدوام وانما تتسلل بالتدريج ذرة ذرة ونفس نفس ومثل الدنيا كمثل الظل اذا رأيته حسبته ساكنا وهو يمر دائما فكذلك عمر الانسان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة والانسان غافل لايخبر وذاهل لا يشعر . وأما اسباب هذه الغفلة فامران اللهو بلذات الدنيا وزهرتها والتشاغل بجمعها والحرص عليها . أما السبب الاول ذهاب العمر بالغفلة من جهة لذات الدنيا فاحسن ماوجدت له مثلا مثال الذي وضعه برزويه رأس اطباء فارس للانسان فانه مثل للغافل عن أمره وعن الاهتمام لنفسه وعدم التفاته الى مايمضي من عمره بمثل رجل نجا من خوف فيل هائج الى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصنين كانا على سماءها فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر فاذا حيات أربع قد أخرجن رؤوسهن من أحجارهن ثم نظر فاذا في قعر البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه فرفع بصره الى الغصنين فاذا في أصلهما جرذان اسود وأبيض وهما يقرضان الغصنين دائبين لايفتران فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه اذا بصر قريباً منه كوارة فيها عسل نحل فذاق العسل فشغلته حلاوته والهته لذته عن الفكرة في أمره وان يلتمس الخلاص لنفسه ولم يتذكر ان رجليه على حيات أربع لايدري متى يقع عليهن ولم يتذكر ان الجرذين دائبين في قطع الغصنين ومتى انقطعا وقع على التنين فلم يزل لاهيا غافلا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك فشبهت البئر بالدنيا المملوءة آفات وشرور ومخافات

وعاهات وشبهت الحيات الاربع بالاخلاط الاربعة التي في البدن فانها متى
هاجت منها واحدة كانت كحمة الافاعي والسم المميت وشبه الجرذان الاسود
والابيض بالليل والنهار اللذان هما دائبان في افناء الاجل وشبه التنين بالمصير
الذي لابد منه وشبه العسل بهذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم
ويسمع ويبصر ويشم ويلمس ويتشاغل عن نفسه ويلهو عن شأنه ويصد عن
سبيل قصده ولا يلتفت الى ما يتصرم من عمره . وهنا مثل آخر يقارب ما تقدم
في تضييع العمر باللذات والملاهي وهو على ما زعموا ان تاجرا كان له جوهر
نفيس فاستأجر لثقبه رجلا في اليوم بمائة دينار وانطلق به الى منزله ليعمل
واذا في ناحية البيت صنج موضوع فقال التاجر للصانع هل تحسن ان تلعب
بالصنج قال نعم وكان في لعبه ماهراً فقال التاجر دونك والصنج فاسمعنا
ضربك به فأخذ الرجل الصنج ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح
والصوت الرفيع والتاجر يشير برأسه ويده طرباً حتى أمسى فلما حان الغروب
قال الرجل للتاجر اؤمر لي بالاجرة فقال له التاجر وهل عملت شيئاً تستحق
به الأجرة فقال له عملت ما أمرتني به وأنا أجيرك وما استعملتني عملت
ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار وبقي جوهره غير مثقوب . فشبه
اليوم المضروب بالاجل المعدود والجواهر الايام وغنى الرجل بملاهي
الدنيا من المسموعات والمنكوحات والمشروبات وغير ذلك من اللذات
الشاغلة عما يتصرم من العمر . مثل آخر للغفلة عما يفوت من المدة اليسيرة
باللذات الحقيرة وذلك على ما يقال أن قوماً ركبوا مركباً في البحر فعدلوا
الى جزيرة لاجل الطهارة وقضاء الحاجة فنزلوا الى الجزيرة والملاح يناديهم
لا تطيلوا المكث لئلا يفوت الوقت ولا تشتغلوا بغير الوضوء والصلاة فان

المركب سائرة فمضوا فتفرقوا في الجزيرة وانتشروا في نواحيها فبعضهم لم يمكث وشرعوا في الطهارة فعادوا الى المركب فوجدوا الاماكن خالية فجلسوا في اطهر اماكنها وأرفعها ومنهم قوم نظروا الى عجائب تلك الجزيرة ووقفوا يتنزهون في زهرها وانمارها وروضها واشجارها ويسمعون ترنم اطيارها ويتعجبون من حصبائها الملونة واحجارها فلما حان وقت مسير المركب خرج الملاحون واعادوهم الى المركب فلم يتطهروا ولم يقضوا الحاجة ولما عادوا الى المركب لم يجدوا فيه موضعا ولا رأوا متسعا فقعدوا في أضيق مواضعه وأظلمها فشبه المركب بالمصير الذي لابد منه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) وشبهت الجزيرة بالدنيا واما القوم الاولون فهم الكيسون الذون لم تشغلهم زهرتها واما الآخرون فهم الغافلون الذين اشغلتهم الدنيا بلذاتها عن انتهاز الفرص من أوقاتها فرجعوا منها بخفي حنين وخسران الدارين . واما السبب الثاني للغفلة عن تصرم العمر فهو الحرص على الدنيا والاشتغال بجمع عواديها فذلك يلهيه عن الالتفات لما يتصرم من عمره بل ربما احب انقضاء الاوقات لتحصيل ما يتوقف على انقضائها كما اذا كان لرجل عند احد دين أوعطاء مقرر ويكون موزعا على الشهور كيف تراه يحب ان تنقضي الاشهر والسنين حتى يحل وقت الدين أو العطاء ولا يدري المسكين أن ما يذهب من عمره لم يرجع اليه أبداً ومفقود المال يمكن رجوعه وليس هذا الامن الحرص على تحصيل العواري الفانية وهو من نقصان العقل ولذا قال ابو الدرداء ..ما من أحد الا وفي عقله نقص وذلك انه اذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ماينفعه مال يزيد وعمر ينقص ومن هذا قال بعضهم

تضل تفرح بالايام تقطعها   وكل يوم مضى من عدة الاجل

وقال بعض العارفين يا ابن آم فرحت ببلوغ أملك وانما بلغته بانقضاء أجلك ومن هذا المعنى قول المتنبي

ومن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر فالذي فعل الفقر

(تتمة)

في ان زيادة الانسان في الدنيا له نقصان كما قال بعض الالباء

زيادة المرء في دنياه نقصان   وربحه غير محض الخير خسران

ينبهك على ذلك ماورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قيل له كيف تجدك ياأمير المؤمنين فقال كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحته ويؤتي من مأمنه والى هذا المعنى الاشارة بقوله تبارك وتعالى (ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا يعقلون)

(ومنه قول عبدة بن الطيب)

ارى بصري قد رابني بعد صحة   وحسبك داء ان تصح فتسقما

ولن يلبث العصران يوم وليلة   اذا طالبا ان يدركا ماتيمما

ومنه أيضا قول الآخر

كانت قناتي لا تلين لغامز   فألانها الاصباح والامساء

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً   ليصحني فاذا السلامة داء

وقال جذيلة بن اسد بن ربيعة ان مع كل جرعة لكم شرقاً وفي كل اكلة لكم غصصاً لاتنالون نعمة الا بفراق يوماً ولا يستقبل معمر يوماً من عمره الا بهدم آخر من اجله ولا يجد له زيادة في اكله الا بنفاد ماقبل من رزقه ولايحي له أثراً الامات منه اثر ان في هذا لعبراً ومزدجراً لمن نظر لو كان احدا لى البقاء

سلماً ووجد من المرحل عن الفناء سبيلا ومنه قول ابي العتاهية من ارجوزة

ماعيش من آفته بقاؤه بمض عيشاً ناعماً فناءه

(ومنه قول الآخر)

يحب الفتى طول البقاء وانه على ثقة ان البقاء فناء

زيادته في الجسم نقص حياته وليس على نقص الحيات نماء

اذاماطوى يوماًطوى اليوم بعضه ويطويه من بعد الصباح مساء

جديدان لايبقى الجميع عليهما ولا لهما بعد الجميع بقاء

(ومنه قول ابي فراس)

من اخطأته سهام الموت قيده طول السنين فلالهو ولاجدل

وضاق من نفسه ماكان متسماً حتى الرجاء وحتى العزم والامل

وقال بعض الحكماء . الايام سهام والناس اغراض والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بلياليه وايامه حتى يستغرق جميع اجزاءك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الايام بك وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما احدثت الايام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممر الساعات بك ومن هذا المعنى قول ابي العتاهية من جملة قصيدة

لتجذبنّ يد الدنيا بقوتها الى المنايا وان نازعتها رسني

لله در اناس دائبين لها فدارتعوا في غياض الغي والفتن

كسائمات رتاع تبتغي سمنا وحتفهالو درت في ذلك السمن

ومن غرر الحكم لامير المؤمنين عليه السلام . من صحة الاجسام تولد الاسقام . ومنه قول ابن الشبيل البغدادي

صحة الجسم للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء

بالذي تغتذي نموت ونحيا　　اقتل الداء للنفوس الدواء

(ومنه قول النمر بن تولب)

يود الفتى طول السلامة جاهداً　　وكيف يرى طول السلامة تفعل

(وقول الاخطل)

الناس همهم الحياة ولا ارى　　طول الحياة يزيد غير خبال

(وقول الآخر)

والمرء مثل هلال عند طلعته　　يبدو ضئيلا لطيفا ثم يتسق

يزداد حتى اذا ماتم اعقبه　　كر الجديدين نقصا ثم ينمحق

وكانه ناظراً الى قوله تعالى (خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين) وقيل لبعض العارفين كيف اصبحت قال اصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد وقيل لآخر كيف أصبحت قال ما ظنك برجل يرحل كل يوم الى الآخرة مرحله

﴿التذنيب الرابع﴾

في المحافظة على اوقات العمر من التضييع وانتهاز الفرصة فيها. وروي عن بعض اهل العلم انه قال يسر الله عز وجل الى عبده بسرين على طريق الالهام احدهما اذا خرج من بطن امه فيقول له عبدي قد اخرجتك الى الدنيا طاهراً نقياً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وكيف تلقاني بها. والثاني عند خروج روحه من جسده وفراقه الدنيا يقول له عبدي ماذا صنعت في اماتني عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أم ضيعتها فالقاك على المطالبة والجزاء واليه الاشارة بظاهر قوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) وبقوله

تعالى (أوفوا بعهدي أوف بعهدكم) وبقوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) واليه الاشارة بقول أمير المؤمنين عليه السلام من بعض كلام له فيالها من حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة وان تؤديه ايامه الى شقوة . وكتب بعض العارفين الى أحد أصحابه الوقت هدية الله اليك فاقبل هديته وهو راجع اليه فزينه بالتقوى والعمل الصالح والا كان حسرة عليك اذا فاز به غيرك والسلام . وقيل الايام صحائف فخلدوا فيها جميل الذكر فقد رأيتم حفظها لما استحفظت من المحامد ونشرها لما استودعت من أفعال الكرام وقديم الدهور وحديثها وقيل ان الليل والنهار خزانتان ما أودعتهما ادتا وانهما يعملان فيك فاعمل فيهما وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر «يا أبا ذر كن على عمرك اشح منك على درهمك وديناركـ» وحينئذ فرأس مال العبد اوقاته ومهما صرفها الى مالا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله قال بعض الادباء

اذا كان رأس المال عمرك فاحتفظ عليه من التضييع في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب

حكي ان روح ابن زنباع كان في طريق مكه في يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا فضربت لهم الخيام والظلال وقدم اليهم الطعام والشراب المبرد فبينما هم كذلك اذاهم براع فدعوه للطعام فأبى وقال اني صائم قال له روح في مثل هذا اليوم الحار قال أفأدع ايامي تذهب باطلا قال روح لقد ظننت بأيامك يا اعرابي اذ جاد بها روح بن زنباع . ومثل ذلك ما حكى انه خرج الحجاج فنزل بعض المياه بين مكه والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه انظر من يتغدى معي فنظر بين الجبل واذا هو براعي بين سخلتين نائم فضربه

برجله وقال له ائت الامير فأتاه فقال له الحجاج اغسل يدك وتغد معي فقال دعاني من هو خير منك فأجبته قال ومن هو قال الله تعالى دعاني الى الصيام فصمت قال في هذا الحر الشديد قال نعم صمت ليوم اشد منه حراً قال فافطر وصم غداً قال ان ضمنت لي البقاء الى غد قال ليس ذلك الي قال كيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه قال لانه طيب قال لم تطيبه انت ولا الطباخ ولكن طيبته العافية ونظير هذا ما حكى عن شبيب قال كنا في طريق مكه فجاء اعرابي في يوم صايف شديد الحر ومعه جارية سوداء وصحيفة فقال افيكم كاتب قلنا نعم وحضر غدائنا فقلنا له لو دخلت واصبت من طعامنا قال اني صائم قلنا الحر وشدته وجفاء البادية فقال ان الدنيا كانت ولم أكن فيها وستكون ولا اكون فيها وما احب أن اغبن أيامي ثم نبذ الينا الصحيفة فقال للكاتب اكتب ولا تزيد على ما أمليه عيك. هذا ما اعتق عبد الله بن عقيل الكابي اعتق جارية له سوداء اسمها لؤلؤه ابتغاء وجه الله وجواز العقبة وانه لا سبيل له عليها الا سبيل الولاء المنة لله علينا وعليها واحدة الحكاية . هذا ما ينبغي الاشارة اليه من الحزم والاحتياط في الامور الواقعة والمتوقعة وقد عرفت الاصول الذي هي المرجع عند تعذر الاحتياط كالاستصحاب عند الشك المسبوق باليقين وأصل الاباحة في مقام العسر والحرج واصالة العدم في المشكوكات المستقبلة والله أعلم بالصواب

بسم الله الرحمن الرحيم

(المورد الثالث)

(من الرياض) في السياسة العقلية وهي تارة في حفظ موجود وأخرى في التوصل الى مفقود ونعني بالمفقود والموجود المهمات العقلية العائدة الى نظام أمر المعاش او المعاد واذا كان كذلك فالسياسة قسمان

(القسم الأول)

التحفظ على موجود من جهة الخطاء فيه او الندم من جهته او تضييعه بالمخالفة في الوضع والاستعمال او الزيادة والنقصان ويتضمن ذلك عدة رياض ولنقدم الكلام أولا بالنعم التي بعضها ضروري يتوقف عليها نظام معاش الانسان ومعاده وبعضها توصيلي وان لم يكن ضروري وانما قدمنا الكلام فيها لتوقف السياسة عليهافنقول وبالله المستعان

(الروض الأول)

في النعم وهي كثيرة قال الله تعالى في كتابه العزيز (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها الآية) ولكن المهمات منها عشرة خمسة منها راجعة الى القضاء والقدر وللاكتساب فيها مدخل وخمسة راجعة الى الاكتساب وللقضاء والقدر فيها مدخل أما الاولى فهي الجمال والعشيرة والصحة والعناية الالهية والتوفيق وأما الثانية فهي الاخوان والاصدقاء والجاه والمال والعلم والايمان فهذه عشرة وبعضها يتوصل الى البعض

(أما الاول منها)

فهي نعمة الجمال قال الله تعالى (ممتناً بذلك وزاده بسطة في العلم والجسم) ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك انوثة وانما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناسب خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه ونعمة الجمال أول نعمة انعم الله بها على الانسان وهي وان كانت اقل من غيرها الا انها من الخيرات التي يتوصل بها الانسان الى حاجاته ومهماته وذلك لان القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة أقرب وجاهه في الصدور اوسع فهو من هذا الوجه جناح مبلغ الى الحاجات كالمال والجاه اذ هو نوع قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . يحكى ان كلثم بنت سريع مولى عمر بن حريث تقدمت واخوها الوليد بن سريع الى عبد الملك بن عمير وهو قاض بالكوفة وكانت كلثم جميلة فقضى لها على اخيها فقال هذيل الاشجعى في ذلك

أتاه وليد بالشهود يسوقهم ... على ما ادعى من صامت المال والخول

وجاءت اليه كلثم وكلامها ... شفاء من الداء المخامر والخبل

فادلى وليد عند ذاك بحقه ... وكان وليد ذا مراء وذا جدل

فدلهت القبطي حتى قضى لها ... بغير قضاء الله في محكم الطول

وارتفعت جميلة بنت عيسى وكانت جميلة كاسمها مع خصم لها الى الشعبي وهو قاضي عبدالملك فقضي لها فقال هذيل الاشجعي في ذلك

فتن الشعبي لما ... رفع الطرف اليها

فتنته بثنايا ... ها وقوسي حاجبيها

ومشت مشيا رويداً ثم هزت منكبيها
فقضى جوراً على الا خصم ولم يقض عليها

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين صوطا. ومن الامثال الغريبة لاهل الهند على مازعموا ان اربعة نفرا اصطحبوا في طريق واحد احدهم ابن ملك والثاني ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن اكار وكانوا جميعاً محتاجين وقد اصابهم ضر وجهد شديد في موضع غربة لا يملكون الا ما عليهم من الثياب فبينما هم يمشون اذ فكروا في امرهم وكان كل انسان راجعاً الى طباعه وماكان يأتيه من الخير . قال ابن الملك ان امر الدنيا كله بالقضاء والقدر والذى قدر على الانسان يأتيه على كل حال . وقال ابن التاجر العقل افضل من كل شيء . وقال ابن الشريف الجمال افضل مما ذكرتم . قال ابن الاكار ليس في الدنيا افضل من الاجتهاد في العمل فلما قربوا من مدينة يقال لها ماطرون اجتنبوا في ناحية منها يتشاورن . فقالوا لابن الاكار انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاما ليومنا هذا فانطلق ابن الاكار وسأل عن عمل اذا عمله الانسان يكتسب فيه طعاما لاربعة نفرا فعرفوه انه ليس فى تلك المدينة شيء اعز من الحطب وكان الحطب منها على فرسخ فانطلق ابن الاكار واحتطب طنا من الحطب واتي به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاما وكتب على باب المدينة عمل يوم واحد اذا اجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم ثم انطلق الى اصحابه بالطعام فأكلوا فلما كان الغد قالوا ينبغى للذي قال انه ليس شيء اعز من الجمال ان تكون نوبته فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة ففكر في نفسه وقال انا لست احسن عملا فما يدخلني المدينة ثم استحى ان يرجع الى اصحابه بغير طعام وهم بمفارقتهم فانطلق حتى اسند ظهره الى شجرة عظيمة

فحمله النوم فنام فمرت به امرأة رجل من عظماء المدينة وبصرت به فأعجبها
حسنه فأرسلت خادمتها وامرتها ان تأتيها به فانطلقت الجارية الى الغلام
وامرته ان يتبعها الى مولاتها فظل نهاره عندها فى ارغد عيش فلما كان عند
المساء اجازته بخمسمائة درهم فخرج وكتب على باب المدينه جمال يوم واحد
يساوي خمسمائة درهم واتى بالدراهم الى اصحابه فلما اصبحوا في اليوم الثالث
قالوا لابن التاجر انطلق انت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً
فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قد قدمت
الى الساحل فخرج اليها جماعة من التجار يريدون ان يبتاعوا مما فيها من
المتاع فجلسوا يتشاورون في ناحية من المركب وقال بعضهم لبعض
ارجعوا يومنا هذا لا نشتري منهم شيئاً حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوه علينا
مع اننا محتاجون اليه وسيرخص فخالف الطريق وجاء الى اصحاب المركب
فابتاع منهم مافيها بمائة دينار نسيئة واظهر انه يريدان ينقل متاعه الى مدينة
اخرى فلما سمع التجار ذلك خافوا ان يذهب ذلك المتاع من ايديهم فاربحوه
على ما اشتراه مائة الف درهم واحال عليهم اصحاب المركب بالباقي وحمل الربح
الى اصحابه وكتب على باب المدينة . عقل يوم واحد ثمنه مائة الف درهم فلما كان
اليوم الرابع قالوا لابن الملك انطلق انت واكتسب لنا بقضائك وقدرك فانطلق
ابن الملك حتى اتى الى باب المدينة فجلس على متكئ في باب المدينة واتفق ان
ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولداً ولا احداً ذا قرابة فمروا عليه بجنازة
الملك ولم يحزنه ذلك وكلهم يحزنون فانكروا حاله وشتمه البواب وقال له من
انت يا كاب وما يجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزن لموت الملك وطرده
البواب عن الباب فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه فلما دفنوا الملك ورجعوا

نظر اليه البواب فغضب وقال له الم انهك عن الجلوس في هذا الموضع واخذه فحبسه فلما كان الغد اجتمع اهل المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم وكل منهم يتطاول بنظر صاحبه ويختلفون بينهم فقال لهم البواب اني رأيت أمس غلاماً جالساً فادخلته على الباب ولم اره يحزن لحزننا فكلمته فلم يجبني فطردته عن الباب فلما عدت رأيته جالساً فادخلته السجن مخافة ان يكون عيناً فبعثت اشراف اهل المدينة الى الغلام فجاؤا به وسألوه عن حاله وما اقدمه الى مدينتهم فقال انا ابن الملك فوران وانه لما مات والدي غلبني اخي على الملك فهربت من يده حذراً على نفسي حتى انتهيت الى هذه الغاية فلما ذكر الغلام ما ذكر من امره عرفه من كان يغشى ارض ابيه منهم واثنوا على ابيه خيراً ثم ان الاشراف اختاروا الغلام ان يملكوه عليهم ورضوا به وكان لاهل تلك المدينة سنة اذا ملكوا عليهم ملكا حملوه على فيل ابيض وطافوا به حول المدينة فلما فعلوا به ذلك مر بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فامر ان يكتب ان الاجتهاد والجمال والعقل وما اصاب الرجل في الدنيا من خير وشر انما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل. ثم انطلق الى مجلسه فجلس على سرير ملكه وارسل الى اصحابه الذين كانوا معه فاحضرهم فاشرك صاحب العقل مع الوزراء وضم صاحب الاجتهاد الى اصحاب الزرع وامر لصاحب الجمال بمال كثير ثم نفاه كي لا يفتن النساء. هذا وغرضنا من ايراد هذا المثل بهذا المقام اثر الجمال وان كان المثل مسوق لبيان ان الاشياء بالقضاء والقدر ولكن للجمال أثرما في جلب المصالح والتوقي من المفاسد وليس المقام ترجيح الحسن على غيره من سائر الوسائل ولا نقول برجحانه ولكن لا يخلو عن أثر وناهيك امر يوسف الصديق فانه لم يصل الى ماوصل الا بسبب الجمال وان كان القضاء اصل في

كل الامور ولكن للاسباب مدخل كما سيأتي توضيحه انشاء الله. ثم ان الجمال
كما يكون له اثر في جلب المصالح فله اثر أيضاً في الوقاية عن المفاسد وهو معين
على قضاء الحاجات وكل ما يعين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الاخرة
بواسطتها اذ الدنيا طريق موصل الاكياس الى الاخرة واذا كان للجمال اثر
فالتجمل يقوم مقامه وكثيراً ما ورد في الحديث الامر بالتجمل وازالت الاوساخ
والاقذار عن البدن والثياب ومثله التجمل باللباس والكل مقدور للانسان
بخلاف الجمال فانه لا يدخل تحت اختياره ثم ازالة الاقذار والاوساخ ايسر من
التجمل بالثياب اذ اللباس غير ميسور للجميع كالماء وهو اولى من التحسين
للخلقة فكم فرق واضح بين النظافة وبين التحسن بالزينة والملبس ولا يخفى هذا
الفرق الواضح الا ممن التهى بتحسين خلقته عن تنظيف جسده فصار يحسب
النظافة ضرباً من التخنث وينكر على الغير اشمأزازهم من الاقذار وابتعادهم عن
وسخ الملابس والاجساد الا ان صاحب الذوق السليم لا يغفل عن امور النظافة
فاذا رأى اثواباً فاخرة وشعوراً مرتبة وشم الروائح الطيبة ثم رأى على الايدي
الاوساخ المتجمعة وتحت الاظافر الاقذار المتلبدة وعلى الاماق الارماص
المتصلبة علم ان صاحب تلك الاثواب قد انزل التجمل منزلة وخيمة. هذا
وفي النظافة وازالة الاقذار من حفظ الصحة البدنية مالا يخفى على من تتبع
كتب الطب فانها اهم الاسباب الموجبة لحفظ الصحة عنده وأما في الشرع
فالاوامر الواردة في الوضوء والاغسال الواجبة والمستحبة كلها مبنية على مصالح
بدنية واسرار لا ندري بها. وقد حكى لي من اثق به عمن يثق به ان في بعض
السنين في زماننا هذا كان في بعض المارستانات ببلاد الافرنج رجل مريض
بداء في رأسه فداعيا الاطباء علاجه حتى مات منه وكان من عادة اطباءهم

اذا مات عندهم مريض بعلة لايقفون لها على دواء تجتمع الاطباء عليه ويشقون على موضع العلة ويكشفون على مايوافقها فلما مات هذا العليل من رأسه اجتمع اطباؤهم وشقوا على دماغه واستخرجوا منه دوداً شبيها بالقراد اسود صلب جداً فجعلوا يدعون جواهراً ولا دواء مفرداً او مركباً الا والقوه عليه فلم يغن شيئاً حتى ان بعضهم كان يوما جالسا والدود بين يديه ينظر ويتأمل فيه اذ عطش فطلب ماء فلما اعطى الماء قطرت منه قطرة على واحدة من الدود فذابت تحتها والطبيب ينظر ثم اخذ من الماء وقطر على أخرى فذابت كالاولى فلما علم ان الماء القراح يقتله احضر الاطباء واراهم ذلك فتيقنوا حينئذ ان دواء هذه العلة هو الماء القراح[1] اذا تسلط على الدماغ ولا طريق الى وصوله الا بالاستنشاق الذي هو من جملة اجزاء الوضوء المستحبة في دين الاسلام فكتب الاعلانات بذلك وبأن شريعة محمد بن عبدالله كلها طبية ملحوظا بها المصالح البدنية هذا ماينبغي الاشارة اليه وان تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود من بيان ثمرات الزينة والجمال

(الثاني من النعم والوسائل)

الاقارب والعشيرة والعلم في ذلك قول امير المؤمنين في وصيته للحسن عليه السلام. واكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير واصلك الذي اليه تصير ويدك التي بها تصول ومنه قول بعض شعراء الحماسة

اذا المرء لم يغضب له حين يغضب ... فوارس ان قيل اركبوا الموت ركبوا
ولم يحبه بالنصر قوم اعزة ... مقاحيم في الامر الذي يتهيب

(١) ومثله في تحريم لحم الخنزير انه يؤثر الدودة الوحيدة وعليك الكتب الطبية في هذا الخصوص
عبد المجيد

تهضمه اولى العدو فلم يزل　　وان كان هضبا بالظلامة يضرب
فاخ لحالك السلم من شئت واعلمن　　بأن سوى مولاك في الحرب احبب
ومولاك مولاك الذي ان دعوته　　اجابك طوعاً والدماء تصبب
فلا يخذل المولى وان كان ظالما　　فان به تنأى الامور وترأب

(ومن شعر الحماسة أيضا فيه)

اخوك اخوك من ينأى وتدنو　　مودته وان دعى استجابا
اذا حاربت حارب من تعادي　　وزاد غناؤه عنك اقترابا
يواسي في كريهته ويدنو　　اذا مامضطلع الحدثان آبا

فنعمة الاقارب والعشيرة نفعها ظاهرة في الدنيا والاخرة وهي وسيلة الى المهمات فأنه مهما كثر اولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الاعين والايدي فتيسر له بسببهم من الامور الدنيوية المهمة في دينه مالو انفرد به اطال شغله وكل مايفرغ قلبك عن ضروريات الدنيا فهو معين لك على الدين وقدمر في اوايل كتابنا هذا في الحمية التي هي حمية النسب من الشواهد لهذا مافيه كفاية فلا نطيل هنا

(الثالث من النعم)

الصحة وهي الوسيلة الكلية وافضل من المال عند الحقيقة فقد قال امير المؤمنين عليه السلام. الا وان من النعم سعة المال وافضل من سعة المال صحة البدن . ومن ذلك قول احمد بن يوسف الكاتب

المال للمرء في معيشته　　خير من الوالدين والولد
وان تدم نعمة عليك تجد　　خيراً من المال صحة الجسد
وما بمن نال فضل عافية　　وقوت يوم فقراً الى أحد

وكان يقال لايجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ وقيل لبعض الاعراب مالذة الدنيا فقال العافية مع الكفاف والعدل مع الحماية وقال غيره مثل ذلك وقد سئل مالذة الدنيا فقال زمن خصيب وعافية وعفاف مع صحة وكفاف وقال بعض الشعراء في هذا المعنى

وما العيش الا في الخمول مع الغنى ۞ وعافية تغدو له وتروح

ومن الحكم المنثور ان كان شيء مثل الحياة فالغنى وان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثل الموت فالفقر وان كان شيء فوق الموت فالمرض اجارنا الله واياك من الامراض والسقم ورزقنا واياك العافية والصحة انه ولي النعم

(الرابع العناية)

(الالهية والبركة) قيل ليست البركة من الكثرة انما الكثرة من البركة وقال امير المؤمنين عليه السلام . رب يسر انمى من كثير . وقدجاء في الاثر قد يجعل الله من القليل الكثير ويجعل من الكثير البركة . ومن هذا الباب قول الفرزدق

فان تميماً قبل ان يلد الحصا ۞ اقام زمانا وهو في الناس واحد

وقال بعض العلماء رأينا بالبصرة اخوين كان ابوهما يحب احدهما ويبغض الآخر فاعطى محبوبه يوم موته كل ماله وكان اكثر من مائة الف درهم ولم يعط الآخر شيئاً وكان يتجر في الزيت ويكتسب منه مايصرفه في نفقة عياله ثم رأينا اولاد الاخ المؤسر بعد موت الاخوين يتصدقون على اولاد المعسر من فواضل ارزاقهم . وحكى ان بعض الصالحين كان فقيراً جداً فبينما هو نائم اذهتف به هاتف يقول له يافلان امض الى محل كذا وخذ منه الف دينار فقال

افيها بركة قال لاقال اذهب عني فاتاه مرة ثانية وقال له اذهب الى المحل الفلاني وخذ منه خمسمائة دينار فقال افيها بركة قال لافقال اذهب عني ولم يزل يأتيه مرة بعد أخرى حتى قال اذهب الى محل كذا وخذمنه ديناراً واحداً فقال افيه بركة قال نعم فقال اذاً اخذه فذهب واخذ الدينار وبورك له فيه وصار في نعمة وسعادة زايدة . انظر الى السباع والغنم فان الله جعل البركه في نوع الغنم فهي تلد في العام مرة ويؤكل منها ماشاء الله ويمتلى منـه وجه الارض بخلاف السباع فانها تلد شتاء وصيفا ولا يرى منها الا الواحد في اطراف الارض وذكر بعض المؤرخين قال يقال ان سليمان عليه الصلاة والسلام سأل ربه سبحانه وتعالى ان يأذن له في أن يضيف جميع الحيوانات فاذن الله تعالى له فاخذ في جمع الطعام مدة طويلة فارسل الله له حوتا واحداً من البحر فاكل كل ماجمعه سليمان في المدة الطويلة ثم استزاده فقال سليمان لم يبق عندي شيء ثم قال له وانت تأكل كل يوم مثل هذا فقال رزقي كل يوم أضعاف هذا ولكن الله لم يطعمني اليوم الا ما اطعمتني انت فياليتك لم تضيفني فاني بقيت اليوم جائعا حيث كنت ضيفك انتهى . وفي هذا الحديث ماعدى التنبيه على البركة في المواد اشارة الى كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه وسعة خزائنه اذ مثل سليمان مع سعة ملكه وقوة سلطانه الذي أتاه الله عجز ان يشبع مخلوقا واحداً من مخلوقات الله تعالى فسبحان المتكفل بارزاق خلقه . واعلم ان البركة كما تكون في المواد والاموال تكون أيضا في الاوقات فترى بعض الناس أشغاله واعماله اذا نسبتها الى اوقاته تجدها زائده عليها بكثير وليس ذلك الا عناية من الله حلت في اوقاته فاتسعت على اعماله فاستوفى مهماته في أوقات تقصر عنها بحسب العقل والعادة كما ينقل عن العلامة الحلي حسبوا كتاباته ووزعوها على

ايام عمره على حسب مايكتب الحاذق وقدرته في كل يوم بمقتضى العادة فوجدوها قد زادت على عمره مبلغا عظيما فضلاعن أوقات نومه وأكله واوقاته المصروفة في المهمات الذي لابد منها وامثال ذلك كثير رزقنا الله واياك البركات في مامنحنا به من المال والاوقات

(الخامس الجد والحظ)

قد قال الناس في الجد فاكثروا فمن كلام بعضهم اذا اقبل البخت باضت الدجاجة على الوتد واذا ادبر البخت فلا فوق ولا تحت[1]. ومن كلام بعض الحكماء ان السعادة لتلحظ الحجر فيدعى ربا وقال أبو حيان في نوادر ابن الجصاص الدالة على تغفله وبلهه كثيرة جداً قد صنف فيها الكتب من جملتها انه سمع أنسانا ينشد نشيداً فيه ذكر هند فانكر ذلك عليه وقال لاتذكر حمات النبي الا بخير وأشياء عجيبة اظرف من هذه وكانت سعادته تضرب بها الامثال وكثرة الاموال التي لم يجتمع لقارون مثلها قال فكان الناس يعجبون من ذلك وقال بعضهم البخت على صورة رجل اعمى أصم اخرس وبين يديه جواهر وحجارة وهو يرمي بكلتا يديه وكثيراً ما فضلوه على العقل فقد قيل لبعضهم العقل افضل ام الجدفقال العقل من جملة الجد ويقال افتخر العقل فقال أنا الرئيس فقال الحظ امسك فما لك نفاق مالم اصحبك وقيل استأذن العقل على الحظ فلم يأذن له وقال انك تحتاج الي ولا احتاج اليك وقالت امرأة من الاعراب لابنها رزقك الله جداً تخدمك عليه ذوي العقول ولا رزقك عقلاتخدم به ذوي الجدود واحسن مايرسم فى هذا

(١) ان أقبلت باض الحمام على الوتد * وان أدبرت بال الحمار على الاسد
عبد المجيد

المقام قول الرضي رحمه الله

باجد لا بالمساعي يبلغ الشرف ... تمشي الجدود باقوام وان وقفوا

والقول في الحظ وسيع جداً. دخل عماد الدولة ابو الحسن بن بويه شيراز بعد ان هزم ابن ياقوت عنها وهو فقير لامال له فساخت احدى قوائم فرسه في الصحراء في الارض فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلصوها فظهر لهم في ذلك الموضع نقب وسيع فامرهم بحفره فوجدوا فيه أموالا عظيمة وذخائر لابن ياقوت واستلقي يوما على ظهره في دار بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها فرأى حية في السقف فامر غلمانه بالصعود اليها وقتلها فهربت منهم ودخلت وفي خشب الكنيسة فامر ان يقلع الخشب وتستخرج وتقتل فلماقلعوا الخشب وجدوافيه اكثر من خمسين الف دينار ذخيرة لابن ياقوت واحتاج ان يفصل ثياباً له ولاهله فقيل له هاهنا خياط اطروش وكان ابن ياقوت قد أودع عنده وديعة فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لانه هو الذي يخيط للملوك فتوهم الاطروش انه غمز عليه بسبب الوديعة فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له ان ابن ياقوت لم يدع عندي سوى اثنى عشر صندوقاً ولم أدر ما فيها فامر عماد الدولة باحضارها فاحضروها فأخذها ووسع بها على جنده هذا احد فوائد الجد ومن فوائده تبديل المساوي محاسن وتغطية العيوب وشاهد على ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام. عيبك مستور ما اسعدك جدك وقوله المحاسن في الاقبال هي المساوي في الادبار وقوله الدولة ترد خطأ صاحبها صواباً وصواب ضده خطأ وقوله اذا اقبلت الدنيا على قوم اعارتهم محاسن غيرهم واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم. كان الرشيد الايام التي كان هو فيها حسن الراي في جعفر يحلف بالله ان جعفراً افصح من قس بن ساعدة واشجع من عامر

بن الطفيل واكتب من عبد الحميد بن يحيي واحسن من مصعب بن الزبير وكان جعفر ليس بحسن الصورة وكان طويل الوجه جداً فلما تغير عليه انكر محاسنه الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان انها فيه نحو كياسته وسماحته ودخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك فلما رآه ذميماً حقيراً قال له لعنة الله على رجل اجرك رسنه وولاك خيله يعني به الحجاج فقال له ياأمير المؤمنين رأيتني والامر عني مدبر فلو رأيتني والامر علي مقبل لاستعظمت مني مااستصغرت. قال بعض الشراح لكلام امير المؤمنين قوله اذا اقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم. اعلم انا قد وجدنا تصديق ماقاله عليه السلام في العلوم والفضايل النفسانية دع حديث الدنيا والسلطان والرياسة فان الحظوظ من علم او من فضيلة تضاف اليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفن مثاله حظ عنترة بن شداد في الشجاعة يذكر له من الاخبار مالم يكن فيه وكذلك ما اشتهر به ابو نواس في وصف الخمرة يضاف اليه من الشعر هذا الفن مالم يكن قاله وكذلك جود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك وبالعكس من لاحظ له ينفى عنه ماهو حقيقة له فقد رأينا كثيراً من الشعر الجيد ينفى عن قائله استحقاراً له لانه خامل الذكر وينسب الى غيره بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم خمل ذكر مصنفيها ونسبت الى غيرهم من ذوي النباهة والصيت وكل ذلك منسوب الى الجد والاقبال

(تمتان)

الاولى ذهب قوم الى ان الدنيا بالاستحقاق لا بالاتفاق وهو الحق ولذا ترى أقبالها على الجاهل وادبارها عن اللبيب العاقل وسيأتي الكلام عليه في بيان ان زيادة بعض النعم موجب لنقصان بعضها فزيادة الكمال موجب

لنقصان المال واشباه ذلك بناء على ماورد في الحديث ان الدنيا لوكانت عند الله تسوى جناح بعوضه ماسقى الكافر منها شربة ماء وذلك من هوانها على الله فاقبالها على الناقص وادبارها عن الكامل دليل على انها بالاستحقاق لا بالاتفاق. وذهب قوم على انها بالاتفاق لا بالاستحقاق وربما يستدل على ذلك بما ينسب لامير المؤمنين عليه السلام ان الدنيا بالاتفاق والآخرة بالاستحقاق. ومثل ذلك منسوب له ايضاً عليه السلام. احوال الدنيا تتبع الاتفاق وحظوظ الآخرة تتبع الاستحقاق. ويروي عنه ايضاً الدنيا غرض حاضر يأكل منه البر والفاجر والآخرة دار حق ويحكم فيها ملك قادر. ومنه ماورد من الحكم المنثورة ان مما سخى بنفس العالم عن الدنيا علمه بأن الارزاق لم تقسم فيها على قدر الاخطار الى غير ذلك واحسن ما يستشهد لهذا المعنى من النظم قول ابي بكر الخورازمي

ماأثقل الدهر على من يركبه	حدثني عنه لسان التجربه
لاتشكر الدهر لخير سببه	فانه لم يتعمد بالهبه
وانما أخطأ فيك مذهبه	كالسيل قد يسقي مكاناً اخربه

والسم يستشفي به من شربه

(الثانية) ان للاقبال والادبار علامتان في المبادئ الاولى منهما زيادة العقل والتدبير للامور فانه علامة للاقبال ونقصانه علامة على عدمه. يروى عن النبي صلى الله عليه وآله «من ولي على عشرة كان له عقل اربعين ومن ولي على اربعين كان له عقل اربعمائه» ويروى عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال. من علامات الاقبال سداد الاقوال والرفق في الافعال وقال من دلايل الدولة قلة الغفلة وقال من علامات الاقبال اصطناع الرجال ومن علامات الادبار مقارنة الانذال.

وذلك من زيادة العقل ونقصانه وقال عليه السلام من علامات الخذلان استحسان القبيح ومن علامات الادبار سوء الظن بالنصيح وقال صواب الرأي بالدول يقبل باقبالها ويدبر بادبارها وقال اذا انقضى ملك قوم خيبوا في آرائهم. قال الصولي اجتمع بنو برمك عند يحيى بن خالد في آخر دولتهم وهم يومئذ عشرة فاداروا بينهم الرأي في امر فلم يصح لهم فقالوا انا لله ذهبت والله دولتنا في اقبالنا يبرم الواحد منا عشرة آراء مشكلة في وقت واحد واليوم نحن عشرة في امر غير مشكل ولا يصح لنا فيه رأي نسأل الله حسن الخاتمة. ومن منثور الحكم من آتاه الله جداً اعاره عقلا فاذا سلب جده استرجع عقله وهذا امر واضح والسر فيه ظاهر اذ العقل انما يرزقه الله الانسان لتدبير اموره وهو على قدرها يرزق من العقل فكلما اتسعت الدايرة اتسع العقل معها والا اختل نظام امر الدنيا (العلامة الثانية) للاقبال والجد جريان الامور على وفق الارادة بخلاف مقتضى العادة كما اذا نهبت مثلا اموال لزيد ومعها اموال لعمر سلمت دونها وكذلك سلامة ما يقع من موضع ينكسر عادة في سقوطه من مثله واشباه ذلك دليل على الاقبال والعكس على العكس. وفي حكمه زيادة الثمرات زيادة على اسبابها وعادتها ونقصانها كذلك واحسن ما يرسم شاهداً لما عنوناه ماعثرت عليه في بعض كتب الامثال وهو ان كسرى انوشروان جاهره احد الملوك بالعصيان فتوجه كسرى اليه ووثب وثوب الاسد عليه فلما توافقا واصطدما انكسر ذو الطغيان وانتصر انوشروان وقبض على العدو وحصل الامان فلما استقر انسه وهدأت نفسه اخذ في تجهيزه وابلاغه مأمنه وتجهيزه فأبى الا الاقامة وكان لكسرى بستان وفيها نخلة كنخلة مريم قد يبست من الهرم فارسل الى كسرى ان يهبه تلك النخله فاستنزل كسرى عقله وأجاب

قصده وسؤله ووهبه تلك النخلة فكان كل يوم يتوجه اليها ويسند ظهره عليها وبعد مدة من أقامته طلب التوجه الى بلدته فاستدعاه كسرى وسأله عن موجب سؤاله النخلة وسبب طلبه الاقامة ثم التماسه التوجه الى أهله . فقال أما سبب الاقامة بهذا البلد . فجوار مولانا الملك الامجد . والاستعانة بمشاهدة وجهه الاسعد . فان طالعه قوى سعيد . ومجاورته للسعادة تفيد . وأما طلبي النخلة اليابسة . فاني تفاءلت بها من حظي مساعدة . ومناحسة . فكنت اتودد اليها . وأعول في ذلك عليها . فما دامت في قحول . وكان جدى وسعدي في نحول . الى ان رأيتها قد اخضرت . واطلعت واسبكرت . فاقبل سعدي وحيا . وعاد بعد ان مات حيا . وتساقطت نخلة سعدي من ثمرات السعادة رطباً جنيا . فعلمت ان طالعي الهابط عاد الى الأوج . ورسول حظي دخل في دينه ناس الأيناس فوجاً بعد فوج . انتهى وقد عرفت بما حررناه علامات الاقبال والجد وهو الخامس من الامور الراجعة الى القضاء والقدر وأما الخمسة العائدة الى الكسب وان كان للقضاء فيها مدخل فأولها هو

(السادس الامور العشرة)

في الاصدقاء والاخوان . فانهم العدد والاعوان . قال الله تعالى حكاية عن قول الكفار . في دركات النار . في طلب الاغاثة من الصديق . على ازالة ما مسهم من عذاب الحريق . او تخفيف ما نالهم من العذاب الاليم . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . قيل انما سمى الصديق صديقا لصدقه فيما يدعيه من المودة وسمى العدو عدواً لعدوه عليك اذا ظفر بك وينسب لامير المؤمنين عليه السلام من غرر الحكم قوله تعالى (من لا اخوان له

لا اهل له ومن لا صديق له لا ذخر له . منه أخذ ابن الاعرابي فانشد

لعمرك ما مال الفتى بذخيره ولكن اخوان الصفاء الذخائر

ومن منثور الحكم الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين . ومنها من لم يرغب في الاخوان . بلي بالعداوة والخذلان . ومنها اتخاذ الاخوان . مسلات للاحزان . قال ابن حجة

وموجب الصداقة المساعدة ومقتضى المودة المعاضدة

لاسيما في النوب الشدايد والمحن العظيمة الاوابد

وان من عاشر قوماً يوما ينصرهم ولا يخاف لوما

(ومنه)

وانما الرجال بالاخوان كاليد بالساعد والبنان

ومنه قولهم الصديق كاليد توصل باليد . والعين تستعين بالعين . وقالوا الصديق ثاني النفس وثالث العين . وقالوا الاخ الصالح خير لك من نفسك لان النفس أمارة بالسوء والأخ الصالح لا يأمرك الا بالخير . ولم يقل في احتياج الانسان الى صديق يزينه في المشاهد . ويعينه على بلوغ المقاصد . مثل قول الفقيه منصور

لولا صدود الصديق عني ما نال واش مناه مني

ولا أدمت البكاء حتى قرح بعض الدموع جفني

وما جفاء الصديق الا هجوم خوف عقيب أمن

قيل للمغيرة بن شعبة ان بوابك يأذن لاصحابه قبل اصحابك . فقال ان المعرفة لتنفع عند الكلب العقور . والجمل الصؤول . فكيف بالرجل العقول . وقال بعضهم

ما ضاع من كان له صاحب　　يقـدر ان يصلح من شأنه
فانما الدنيا بسكانها　　وانما المـرء باخـوانه

والقول في ثمرة الاصدقاء والاخوان . ضروري لا يحتاج الى البيان وسيأتي في فوائد الخلطة ما فيه مقنع . وفي مقدمات السياسة النفسية ماهو للمعنى أجمع . فلا نطيل هنا

(السابع منها)

العز والجاه في القلوب ومنفعته ظاهرة ضرورية فيه يدفع الانسان . عن نفسه الذل والهوان . ولا يستغنى عنه احد فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه . وظالم يشوش عليه ما هو فيه . وانما تندفع هـذه المضار . بالعز والوقار . قال الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض) . ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له ارباب القلوب لدفع الاذي عنه . فكما يحتاج الانسان الى سقف يمنع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج ايضاً الى ما يدفع الشر عن نفسه . وعلى هذا القصد كانت الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عنـدهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم ولا تظن ان نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره واكمل دينه واظهره على جميع اعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه . كانت اقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب . حتى افتقر الى الهجرة والهرب . هذا واعلم ان الجاه مفيد للمال وذلك انك تجد صاحب الجاه في جميع اصناف المعاش اكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه . والسبب في ذلك ان صاحب الجاه

مخدوم بالاعمال يتقرب بها اليه في سبيل التزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته من ضروري او حاجيّ او كماليّ فتحصل تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه ان تبذل فيه الاعواض من العمل ليستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر عليه . والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فيفيد الغني لاقرب وقت ويزداد مع الايام غناء وثروة وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم اكثر التجار ولهذا تجد اهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير واذا عرفت هذا فاعلم ان لملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه. الاول ان التوصل بالجاه الى المال ايسر من التوصل بالمال الى الجاه فالعالم او الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له كما عرفت فان أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال اذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد ان يتوصل بالمال الى الجاه لم يتيسر له فاذاً الجاه آلة ووسيلة الى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لا يملك الجاه بكل حال فهذا أحد الوجوه في ترجيح الجاه على المال . الثاني هو ان المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة من السراق وغيرهم ويحتاج فيه الى الحفظة والحراس والخزائن ويتطرق اليه اخطار كثيرة وأما القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة لايقدر عليها الغصاب . ولا تتناولها أيدي السراق والنهاب . واثبت الاموال العقار ولا يؤمن فيها الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهي محفوظة

محروسة بانفسها وذوالجاه في امن وامان من الغصب والسرقة فيها نعم انها تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله . الثالث ان ملك القلوب يسري وينمى ويتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاسات فان القلوب اذا اذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أوعمل أوغيره من الاخلاق المحمودة أفصحت الالسنة لامحالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضا له ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لان ذلك اذا استطار في الاقطار اقتنص القلوب ودعاها الى الاذعان والتعظيم فلا يزال يسري من واحد الى واحد ويتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ولا يقدرعلى استنمائه الا بتعب ومقاسات . والجاه أبدآ في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ولهذا اذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الالسنة بالثناء استحقرت الاموال في مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال واذا فصلت كثرة وجوه الترجيح فمن منحه الله تعالى الجاه فقد منحه الخير الكثير في الدنيا وبذلك يتوصل الى الآخرة لان الدنيا مزرعة الآخرة وطريق الاكياس اليها

(الثامن منها)

المال وهو وان كان دون الجاه ولكنه من الخيرات والوسائل الى المهمات . وقد وصف الله المال فسماه خيرا في مواضع كثيرة من كتابه منها (اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) ومنها (ان ترك خيرآ)الوصية وغير ذلك كثير لاتخفى على من تتبعها وقال سبحانه وتعالى ممتنا على عباده (ويمددكم باموال وبنين) وقال سبحانه (وجعلت له مالا ممدودا) وقال النبي صلى الله

عليه وسلم «نعم المال الحسب ان احساب أهل الدنيا هذا المال» وكلما جاء في ثواب الصدقة والحج والزيارات فهو ثناء على المال في الحقيقة اذلا يمكن الوصول اليها الا به « وقال النبي صلى الله عليه وسلم «كاد الفقر أن يكون كفرا » وهو ثناء على المال لان مدح الشيء تفضيله على غيره وقال بعض الادباء

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

وحينئذ فلنورد ماورد في ذم الفقر وانه مهان لتعرف ان ذلك مدح للغنى بالمال وانه عز لصاحبه . وقال أمير المؤمنين على مانقله السيد الرضي في النهج . الفقر يخرس الفطن عن حجته . وذلك لكونه مذلة وله في النفس فعل عظيم بالقبض والفتور والانفعال على الغير ومبدأ كل ذلك تصور العجز وتوهم القصور بسبب عدم المال عن مقاومة الخصوم فيحصل التخوف من الكلام والعي عنه وان كان صاحبه فطنا واستعار لذلك وصف الخرس ملاحظة لشبهه به . وقال عليه السلام . المقل غريب في بلدته . أي الفقير واستعار له لفظ الغريب باعتبار عدم التفات الناس اليه وقلة الاعوان والاخوان له لاقلاله فهو كالغريب الذي لايعرف . وقال عليه السلام لابنه محمد . يابني أخاف الفقر عليك فاستعذ بالله منه فان الفقر منقصة للدين مدهشة للعقل داعية للمقت . وقال عليه السلام للحسن من جملة كلام يابني الفقير حقير لا يسمع كلامه ولا يعرف مقامه ولو كان الفقير صادقاً يسمونه كاذباً ولو كان ناهلا يسمونه جاهلا يابني من ابتلى بالفقر فقد ابتلى باربع خصال بالضعف في نفسه والنقصان في عقله والرقة في دينه وقلة الحياء في وجهه فنعوذ بالله من الفقر . ومن غرر الحكم له عليه السلام الفقير في الوطن ممتهن والغناء في الغربة وطن . والحكم المنثورة في هذا الباب كثيرة اغنتنا عنها كلمات أمير المؤمنين عليه السلام

واما الشعراء فقد اولعوا في هذا المعنى وابدعوا فيه فمن ذلك قول قيس بن عاصم

يسود هذا الماء غير مسود ... ويحرمه ايث فيصبح ثعلبا
واول ما يجفو الفقير لفقره ... بنوه ولم يرضوه في فقره ابا
كأن فقير القوم في الناس مذنب ... وان لم يكن من قبل ذلك اذنبا

(وقول الآخر ايضاً)

اذا قل مال المرء لانت قناته ... وهان على الادنى فكيف الاباعد

(وقول الآخر ايضاً)

والمرء يخفى اذا قلت دراهمه ... وليس ينفعه ان كان ذا حسب

(وقول الآخر)

ذريني للغنا اسعى فاني ... رأيت الناس شرهم الفقير
واهونهم واحقرهم عليهم ... وان امسى له حسب وخير
يباعده الدني وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
وقد يلقى الغني له جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل دينه والذنب جم ... ولكن للغني رب غفور

تواعد قوم فقال احدهم علي كذا وقال ذاك علي كذا وفيهم مفلس. فقيل له وماعليك انت فقال لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ومن هذا قول بعض البلغاء

الموت خير للفتى ... من أن يعيش بغير مال
والموت خير للكريم ... من التضرع والسؤال

واذا عرفت المهانة في الفقر فاعكس الحال في وجود المال وقل عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالاعمال فقد ورد في الحكم المنثورة المال يرفع صاحبه وان كان وضيع النسب قليل الادب وينصره وان كان جبانا ويبسط لسانه

وان كان عيابه توصل الارحام وتصان الاعراض وتظهر المروءة وتتم الرئاسة ويعمر العالم وتبلغ الاغراض وتدرك المطالب وتنال المآرب يصلك اذا قطعك الناس وينصرك اذا خذلوك ويستعبد لك الاحرار ولولا المال لما بان كرم الكريم . ولا ظهر لؤم اللئيم ولا شكر جواد ولا ذم بخيل ولا صين حريم ولا أدرك نعيم ومن هذا الباب قول ابن الوردي

لم ار شيئا حاضراً نفعه　　للمرء كالدرهم والسيف
يقضى له الدرهم حاجاته　　والسيف يحميه من الحيف

وقيل لبعض الحكماء اتجمع المال وانت ابن تسعين سنه فقال يموت الرجل ويخلف المال لاعدائه خير من ان يحتاج في حياته لاصدقائه . ومن كلامهم عدو اذا لقيك وسألك خير من صديق اذ افتقرت اليه ملك . ومن هذا المعنى قال بعض الادباء

نعم المعين على المروة للفتى　　مال تصون عن التبذل نفسه
لاشيء انفع للفتى من ماله　　يقضي حوائجه ويجلب انسه
واذا رمته يد الزمان بسهمه　　غدت الدراهم دون ذلك توسه

« ومثل ذلك »

احتل لنفسك أيها المحتال　　فمن المروة ان يرى لك مال
اني رأيت الاغنياء اعزة　　والمقترين عليهم الاذلال

هذه إحدى فوائد المال . ومن فوائده جلب الناس وتاليفهم واجتماعهم فان قلوبهم على ذي المال تنعكف كما عن من عدمه تنصرف . ومنه تهرب ولا تقف . ألم تر المال ما صنع بالورى . من وضيع رفع ورفيع وضع . فصارت رسلهم اليه تترى . وجعلوا منزله في سويداء القلب وحدقة المرأى

وقال بعضهم المال معشوق الورى . ومن عدمه نبذ في العراء ويكون بغيض القلب والمرائي وينسب لأمير المؤمنين من غرر الحكم . اذا أيسرت فكل الرجال رجالك . واذا أعسرت أنكرك أهلك وعيالك . وأما الشعراء فقد أوسعوا القول في هذا المعنى فمن ذلك قول بعضهم

صديقك حين تستغني كثير ومالك عند فقرك من صديق

(وقول الآخر)

دعوت أخي فولا مشمئزاً ولبا درهمي لما دعوت

وقول الآخر

يحيي الناس كل غني قوم ويبخل بالسلام على الفقير
ويوسع للغني اذا رأوه ويحيي بالتحية كالامير

وقول الآخر

حياك من لم تكن ترجو تحيته لولا الدراهم ماحياك انسان

وقول الآخر

رأيت الناس قد مالوا الى من عنده مال
ومن لاعنده مال فمنه الناس قد مالوا

ومثله

رأيت الناس قد ذهبوا الى من عنده ذهب
ومن لاعنده ذهب فمنه الناس قد ذهبوا

ومثله أيضاً

رأيت الناس منفضه الى من عنده فضه
ومن لاعنده فضه فمنه الناس منفضه

ومن فوائد المال قوة القلب والجنان وهنا يصح الاستشهاد بقول أمير المؤمنين. الفقر يخرس الفطن عن حجته. وقد مر في أول الباب معناه ونقول هنا ان القلب عمود البدن فاذا قوى القلب قوى سائر البدن وليس له قوة أشد من المال وبالضد اذا ضعف من الفقر ضعف له البدن . وحكي ان ملكا رأى شيخا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فاراه الف دينار مربوطة في وسطه ومما يستظرف ايراده بالمقام ماحكى ان المعلي بن أيوب عاد صديقاً له فرأى علة وخلة فاسر الى وكيله فقال اذهب وجئني بخمسمائة درهم مختومة في قرطاس فذهب وجائه بها ووضعها بين يديه فدفعها الى العليل عن منيته وغير ما كان من حاله فلما كان الاسبوع عاد ثانياً فرآه متماثلا نشيطاً فقال كيف وجدت الدواء. قال ياسيدي وجدته نافعا لعلتي وحالي قال اتريد زيادة قال نعم يامولاي فقال للوكيل اذهب وجئنا بمثل ذلك الدواء فذهب وجاء بخمسمائة درهم أخرى فنشط العليل من عقال العلة وقال هذه اعادة حياة لا عيادة . وحكي ان المعتضد كان يوماً جالسا في بيت يبنيه له يشاهد الصناع فرأى في جملتهم غلاما اسود منكر الخلقة شديد المزاح يصعد على السلالم مرتين ويحمل ضعف ما يحملونه فانكر أمره فاحضره وسأله عن سبب ذلك فتلجلج فقال لابن حمدون وكان حاضراً اي شئ يقع لك في أمر هذا فقال ومن هذا حتى صرفت فكرك اليه ولعله لا عيال له فهو خال القلب قال ويحك قد خمنت في أمره تخمينا ما أحسبه باطلا اما ان يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها او يكون لصاً يتستر بالعمل في الطين فلاحاه ابن حمدون في ذلك فقال علي بالاسود فاحضر قال مقارع فضربه

نحو مائة مقرعة وقرره وخلف ان لم يصدقه ضرب عنقه واحضر السيف والنطع فقال الاسود ألي الامان . فقال لك الامان الا ما يجب عليك فيه من حد فلم يفهم ما قال له وظن انه قد امنه فقال انا كنت اعمل في اتانين الآجر سنين وقد كنت منذ شهور هناك جالساً فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء الى بعض الآتانين فجلس وهو لا يعلم مكاني فحل الهميان وأخرج منه ديناراً فتأملته فاذا كله دنانير فثاورته وكتفته وسددت فاه وأخذت الهميان وحملته على كتفي وطرحته في نقرة الاتون وطينته عليه فلما كان بعد ذلك اخرجت عظامه فطرحتها في دجله والدنانير معي يقوي بها قلبي فأمر المعتضد باحضار الدنانير من منزله واذا على الهميان مكتوب لفلان ابن فلان فنودي في البدة باسمه فجاءت امرأته فقالت هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج في وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار فغاب الى الآن فسلم الدنانير اليها وامرها ان تعتد وضرب عنق الاسود وامران تحمل جثته الى الاتون . هذا وقد طغى القلم فخرجنا عن شرط الاختصار وآثار المال ظاهره لا تحتاج الى البيان . وكما ان له فوائد أفادت زيادة على فوائده سيأتي ذكرها في روض الاقتصار والاختصار انشاءالله تعالى حتى يكون المكتسب له على حذر منه

(التاسع من المهمات)

التي أنعم الله بها على الانسان نعمة الصلاح وطاعة الرحمن . ولنبدأ أولا بذكر آثار اجتناب المعاصي ثم نتلوها بثمرات الطاعة والصلاح أما الاول ففي الحكم المنثورة اذا رغبت في المكارم . فاجتنب المحارم . ومن امثالهم ركوب المعاصي . تذل العاصي . وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه

السلام بمَ أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي المعاصي لاجل الله تعالى . وروى ان الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر الى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه اعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك قالت انما نطيعك اذا اطعت الله تعالى . وقال بعض العارفين ما انكرت من تغير الزمان . وجفاء الاخوان . فذنوبك اورثتك ذلك . وكان بعضهم يقول لو لم يكن في الطاعة الا ظهور نور الوجه وبهاؤه والمحبة في القلوب والقوة في الجوارح والامن على النفس والتجويز في الشهادة على الناس لكان في ذلك كفاية في ترك الذنوب . ولو لم يكن في المعصية الا التكاره في الوجه والظلمة في القلب واللعنة في الذكر والاسقاط في الشهادة والخوف على النفس لكان في ذلك كفاية فجعل الله لكل من الطايع والعاصي امارات ليفرح هذا ويحزن هذا واما الثاني وهو ثمرة الصلاح والطاعة فالعلم في ذلك قول امير المؤمنين وسيد الموحدين عليه السلام من اصلح سريرته اصلح الله علانيته ومن عمل لدينه كفاه الله امر دنياه ومن احسن فيما بينه وبين الله احسن الله ما بينه وبين الناس . قال بعض الشراح لاريب ان الاعمال الظاهرة تبع للاعمال الباطنة فمن صلح باطنه صلح ظاهره وبالعكس وذلك لان القلب أمير مسلط على الجوارح والرعية تتبع أميرها ولاريب ان من عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه وقد شهد بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ولهذا الامر علة ظاهرة وذلك ان من عمل لدينه فانه لايخفى حاله في أكثر الأمور عن الناس ولاشبهة ان الناس اذا حسنت عقيدتهم في انسان وعلموا استقامة دينه بوبوا له الى الدنيا ابوابا لايحتاج ان يتكلفها ولا يتعب فيها فيأتيه رزقه من غير كلفة ولا كد انتهى . وقال

عليه السلام . أطع من فوقك يطعك من دونك وأصلح سريرتك يصلح
الله علانيتك وقال عليه السلام . ومن اراد الغنى بغير مال والكثرة بغير
عشرة فليتحول من ذل المعاصي الى عز الطاعة ابي الله الا ان يذل من عصاه
وينسب له هذه الابيات

وانا الدليل لمن أراد غني يدوم بغير مال
واحب عزاً لم توطد ه العساكر والموالي
ومهابة من غير سلط ان وجاها في الرجال
فليعتصم بدخوله في عز طاعة ذي الجلال

وفي هذا ماينبهك على رجحان أثر الطاعة في الدين على المال والجاه واما
رجحانه على الصحة والعافية فلقوله عليه السلام في وصيته للحسن . يابني ان من
البلاء الفاقة واشد من ذلك مرض البدن واشد من مرض البدن مرض القلب
وان من النعم سعة المال وأفضل من ذلك صحة البدن وأفضل من ذلك تقوى
القلب هذا واعلم ان الطاعة والصلاح مفتاح لجميع مغالق المهمات . وقال بعض
العارفين وجدت في بعض الكتب انا مالك الملوك وقلوب الملوك بيدي فمن
اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم
بسبب الملوك ولكن توبوا الي أعطفهم عليكم . ومن معنى كلام أمير المؤمنين
عليه السلام وهذا المعنى أيضا

قال بعضهم أيضا

فيا أيها العاصي اليك نصيحة تريك ثنى الشمس المنيرة من قرب
تعزز بابعاد المعاصي ورفضها فما العز الا في الفرار عن الذنب
وثابر على تقوى الآله فانها نجاة لباغيها من المركب الصعب

وكن طائعاً لله في كل حالة　　تجد لذة الدارين ان كنت ذا لب

وحكي بعض المؤلفين عن ابراهيم التميمي انه قال لما حبست ادخلت مكاناً ضيقاً وكل رجلين في قيد ولا يجد الرجل مكاناً للصلاة فجيء برجل من البحرين فادخل علينا فلم يجد مكاناً يجلس فيه فجعلوا يترامون به فقال اصبروا انما هي ليلة فلما كان الليل قام فصلى وقال في عقيب صلواته يارب مننت علي بدينك وعلمتني كتابك ثم سلطت علي شر خلقك يارب الليلة الليلة لا اصبح فيه وما اصبح الصباح الا ونودي البحراني البحراني فخلى سبيله فجاء فوقف على باب السجن وقال سلام عليكم اطيعوا الله يطعكم كل شيء . وقال بعض العلماء طاعة الله تجارة تجمع ربح الدنيا والآخرة ومن كلام لقمان لابنه . يابني اتخذ تقوى الله تجارة تأتيك الارباح من غير بضاعة ومن هذا المعنى اخذ أبو الفتح كشاجم فقال هذا الشعر

اشغل فؤادك بالتقى　　واحذر بانك تلتهي

واعمل لوجه واحد　　يكفيك كل الأوجه

وقال بعض العارفين ان خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى انظروا الى مافي القرآن الكريم من ذكرها فكم علق عليها من خير ووعد عليها من ثواب واضاف اليها من سعادة دنيوية وكرامة اخراوية ولنذكر لك من خصالها وآثارها الواردة فيها اثني عشر خصلة . الاولى المدحة والثناء قال الله تعالى « وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » الثانية الحفظ والحراسة قال الله تعالى « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » الثالثة التأييد والنصر قال الله تعالى « ان الله مع الذين اتقوا » الرابعة النجاة من الشدائد والرزق الحلال قال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه

من حيث لا يحتسب » الخامسة صلاح العمل قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم » السادسة غفران الذنوب قال الله تعالى « ويغفر لكم ذنوبكم » السابعة محبة الله تعالى قال سبحانه « ان الله يحب المتقين » الثامنة قبول الاعمال قال الله تعالى « انما يتقبل الله من المتقين » التاسعة الاكرام والاعزاز قال الله تعالى « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » العاشرة البشارة عند الموت قال الله تعالى « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الحادية عشر النجاة من النار قال الله تعالى « ثم ننجي الذين اتقوا » الثاني عشر الخلود في الجنة قال الله تعالى « أعدت للمتقين » فقد ظهر لك ان سعادة الدارين منطوية فيها ومندرجة تحتها وهي كنز عظيم وغنم جسيم وخير كثير وفوز كبير وبعد هذا يظهر لك لطف قول بعضهم وان لم يكن من الباب

أوصاك ربك بالتقى وأولى النها اوصوامعه
فاجعل لنفسك طول عمر كمسجداً أو صومعه

وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام . التقوى ظاهرها شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة . وقال عبد الله بن عروة بن الزبير لابنه يابني عليك بالدين فان الدنيا ما بنت شيئاً الا هدمه الدين واذا ابنى الدين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمه الا ترى علي بن ابي طالب عليه السلام وما يقول فيه خطباء بني امية من ذمه وعيبه وغيبته والله لكأن ما يأخذون بناصيته الى السماء ألا تراهم كيف يندبون موتاهم ويرثيهم شعراهم والله لكأنما يندبون جيف الحمر ومن هذا الباب قول بعض الشعراء

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم بالدنيا لاجل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

هذا والكيس من جمع بين الدين والدنيا فقد روى من كلام لقمان قوله لابنه يابني شيئان اذا حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما . دينك لمعادك . ودرهمك لمعاشك . ومنه

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا ❊ واقبح الشح والافلاس بالرجل

فقد عرفت مما حررناه من ثمرة التقوى والصلاح . وما فيهما من السعادة والنجاح .

﴿ العاشر من النعم ﴾

نعمة العلم والكمال النفساني قال الله تعالى في معرض الامتنان . «خلق الانسان علمه البيان» . والكلام فيه تارة في شرفيته وأخرى في رحجانه على غيره من النعم كالمال والجمال فهذان مقامان الاول في شرفيته وشرفية حامله اما شرفيته فالعلم فهمنا الله واياك افضل مكتسب واشرف منتسب وانفس ذخيرة تقتنا واطيب ثمرة تجتنا به يتوصل الى معرفة الحقائق ويتوصل الى نيل رضا الخالق وهو زين في الحضر وعز في السفر وأنيس في الوحدة وجمال في المحافل وداع الى المكارم والفضائل قال أمير المؤمنين عليه السلام . اذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم وجعله رذلا وكان يقال من علامة بغض الله للعبد ان يبغض اليه العلم وقال شاعر

شكوت الى وكيع سوء حفظي ❊ فارشدني الى ترك المعاصي
وأخبرني بان العلم نور ❊ ونور الله لا يؤتيه عاص

وشرفيته لانهاية لها لانه لازم لايزول أبدا لافي الدنيا ولافي الآخرة ودائم لايمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل والعلم قط لا يتصور ان يمل ويستثقل . قال بعض العلماء من شرف العلم ان كل

من نسب اليه ولو في شيء حقير فرح ومن رفع عنه حزن وهو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام . ومن شرفية العلم ان كل واحد يدعيه وأما شرفية حامليه وأهله فقد قال الله تعالى « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال سبحانه وتعالى بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وسئل عالم فقيل له من الناس فقال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين فلم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصية التي يتميز بها الناس عن ساير البهايم هو العلم فالانسان انسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل أقوى منه ولا بعظمه فان الفيل اعظم منه ولا بشجاعته فان السبع اشجع منه ولا بأكله فان الثور أوسع بطناً منه ولا ليجامع فان أخس العصافير اقوى منه على السفاد بل لم يخلق الا للعلم . وروي عن ابي جعفر الثاني عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال قلت اربعا انزل الله تصديقي بها في كتابه . منها قدر كل امرء مايحسن فانزل الله تعالى في قصة طالوت « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » وقال عليه السلام ايضا . الناس ابناء ما يحسنون . وقد أكثر الشعراء في معنى قول امير المؤمنين قدر كل امرء ما يحسن فابدعوا فمن ذلك قول ابن طباطبا

فيا لائمي دعني اغالي بهمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وقال بعض الفضلاء

قيمة المرء فضله عند ذي الـ فضل وما في يديه عند الرعاع

وابدع الخليل بن احمد في قوله

لايكون العلي مثل الدني لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر مايحسن المرء   قضاء من العليم العلي

فانه تضمينا لقوله تعالى قيمة كل امرء مايحسن وتلويحا لقوله تعالى «هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون »

تتمة

وفى العلم رفعة لحامله واجلال من ذي الملك والجلال . فقد قال سبحانه وتعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وقال عز من قائل « شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فانظر كيف بدأ بنفسه وثنى بالملائكة وثلث باهل العلم « وقال النبي صلى الله عليه وآله « ان الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك » وقال بعض الفضلاء ليس شيء أعز من العلم . الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك . ومن الحكم المنثورة الادب أفضل من الحسب لان الرجل ينطق به فيعرف قبل حسبه ومن قعد به حسبه نهض به أدبه . وفي هذا المعنى يقول بعضهم

لاتيأسن اذا ما كنت ذا أدب   على خمولك ان ترقى الى الفلك

فبينما الذهب الابريز مطرح   في الترب اذ صار اكليلا على الملك

فالادب جزء من جزئيات العلم واما العلم فلم يزل من الانسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيي الجسد بالروح كذلك يحيي صاحب العلم في الناس بعلمه ويعظم قدره فيهم ويجل خطره عندهم وفي بعض الحكم من عرف بالعلم لحظته العيون بالوقار . قال بعضهم كنت بفناء الكعبة اذ مر بنا رجل اصلع افجح كأن انفه بعرة اشد سواداً من است القدرة . عليه ثوبان قطوبان فرأيت الناس يهرعون اليه من كل جانب يطلبون السبق في السلام عليه فقلت من

هذا قالوا هذا سيد فقهاء الحجاز هذا عطاء بن ابي رباح . وذكر بعض المؤلفين قال قدم هرون الرشيد الرقة فانحفل الناس خلف عبد الله بن المبارك وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة فاشرفت ام ولد الرشيد من قصر الخشب فلما رأت الناس قالت من هذا قالوا عالم من اهل خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فقالت هذا والله هو الملك لاملك هارون الذي لا يجمع الناس الا بشرط واعوان . وتلقى الرشيد الكسائي في بعض الطرقات فوقف عليه فسأله عن حاله فقال لو لم اجتني من ثمرة العلم والادب الا ماوهب الله لي من وقوفك علي لكان كافياً . ودخل بعض العلماء على الرشيد وكان ذميم الصورة قصير القامة فاستحقره الرشيد فقال ما اقبح هذا الوجه فقال العالم يا امير المؤمنين ان حسن الوجه ليس مما يتوصل به الى الملوك هذا يوسف عليه السلام احسن الناس وجهاً قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم ولم يقل اني حسن الوجه جميل . قال صدقت ارتفع فرفع قدره وقرّب مجلسه ودخل البيضاوي صاحب التفسير قبل ان يلي القضاء بتبريز فصادف دخوله مجلس بعض الفضلاء فجلس في صف النعال فاورد المدرس اعتراضات وزعم ان لا احداً من الحاضرين يعرف جوابها فلما فرغ من التقرير شرع البيضاوي في الجواب فقال له المدرس لا اسمع كلامك حتى اعلم انك فهمت ما قررته فقال البيضاوي أأعد كلامك بلفظه ام بمعناه فبهت المدرس وقال اعدها بلفظها فاعادها وبين ان في تركيب الفاظها لحناً ثم انه اجاب من تلك الاعتراضات باجوبة شافية ثم اورد لنفسه اعتراضات وطلب الجواب فلم يدر المدرس فقام الوزير من المجلس واجلس البيضاوى مكانه وسئل عنه وطلب البيضاوي القضاء فاعطاه و اكرمه واما الامر الثاني وهو رجحان العلم على ما سواه

من مال وجمال اما رجحانه على الجمال فواضح ومامر من حديث عطاء بن ابي رباح وحديث من دخل على الرشيد كاف في المطلب وهنا ابيات لبعض الالباء تشهد بذلك وهي

رأيت العز في ادب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وماحسن الرجال لهم بحسن ... اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً ان تراه ... له وجه وليس له لسان

واما شرفيته ورجحانه على المال فاعلم اولا انه قد فضل المال بعض من لاحظ له في العلم فقال في شعره

المال انفع للفتى من علمه ... والفقر اقتل للفتى من جهله
ما ضر من رفع الدراهم قدره ... جهل يناط الى دناءة أصله

(وقال آخر)

وعش بجد لا يضر ... ك النوك ما اعطيت جدا
والنوك خير في ظلا ... ل العيش ممن عاش كدا

(وقال آخر)

أرى الاصغر المنقوش أنفع للفتى ... من الاصل والعلم الخطير المقدم
وما مدح العلم امرء ظفرت به ... يداه ولكن كل مقو ومعدم

(وقال آخر)

دعني من العلم والآداب قاطبة ... ان كنت طالب دينا فالغنى شرف
أرى النفوس توالى كل ذي جدة ... بالطبع فهي الى ما شاء تنصرف

وهذا كله قصور عن ادراك لذة العلم وذلك أما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق تبع الذوق وأما لفساد امزجتهم ومرض

قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض لا يدرك حلاوة العسل ويراه مراً
وأما لقصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعض الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل
الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن.
وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة . ولا استطابته للبن تدل على انه الذ
الاشياء فالقاصرون عن ادرك لذة العلم ثلاثة اما من لم يحيي باطنه كالطفل
واما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات . واما من مرض بسبب اتباع الشهوات
وقوله تعالى «في قلوبهم مرض» اشارة الى مرض العقول وقوله عز وجل
«لينذر من كان حياً» اشارة الى من لم يحيي حياة باطنه وكل حي بالبدن ميت
بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كانت
الشهداء احياء عند ربهم يرزقون فرحين . وان كانوا موتى بالابدان . واذا
عرفت هذا ففضل العلم وشرفيته على المال غير خفي على ذوي العقول السليمة
والبصائر المستقيمة . ففي الحديث عن أمير المؤمنين انه قال لكميل . يا كميل
العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال
محكوم عليه والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق . فهذه ثلاثة وجوه
ذكرها عليه السلام لشرفية العلم على المال ومن الوجه الاول ما حكى عن
ازدشير انه قيل له أيها الملك اي الكنوز اعظم قدراً واجل منفعة قال العلم
الذي خف محمله ولم تمكن مفارقته وخفي مكانه فأمن من السراق وهو في
الملأ جمال وفي الوحدة انيس يرأس به الخسيس ولا يقدر حاسدك عليه على
انتزاعه منك . قيل له فالمال قال ليس كذلك محمله ثقيل والهم به طويل ان
كنت في ملأ شغلك بالفكرة فيه وان كنت خالياً اتعبتك على توابعه ومنه
ايضا قول ابي الاسود الدؤلي

قد يجمع المرء مالا ثم يسلبه عما قيل فيلقى الذل والحربا
وحامل العلم مغبوط به أبدا ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به دراً ولا ذهبا

ومن الوجه الثاني ما مر ذكره من عزة العلم وحامليه وان الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك. ومن الوجه الثالث قول بعض الحكماء النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس منه ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه ومنه قول بعض العلماء العلم انفس الاعلاق واشرف الاعراق واكرم منتسب وانفع لمقتنيه من الفضة والذهب فانهما يبيدهما الانفاق ولا ينفعاك الا عند الفراق ومنه أيضا ماينسب له عليه السلام

فان المال ينفذ عن قريب وان العلم ليس له زوال

وهنا وجه رابع وهو ماتقتضيه ضرورة العقل ان المصاحب اشرف من المفارق ولاريب ان المال لو دام فغايته الى الموت والا فقبل الموت واما العلم فلا يفارق اذ هو لازم نفساني والنفس لا تنعدم بعد الموت حتى تنعدم لوازمها كما سيأتي تحقيقه انشاء الله في سياسة الانسان لنفسه . ومن هذا الوجه لما قيل لبعض الحكماء أي الاشياء تقتني قال الاشياء التي اذا غرقت سفينتك سبحت معك يعني العلم . ويقال أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بعد الموت وعلى أي حال فهو حسن . وحكي ان رجلا انكسرت به السفينة في البحر وذهب ماله ووقع هو على جزيرة فعمل شكلا هندسياً على الارض فرأه بعض اهل تلك الجزيرة فذهبوا به الى الملك فاحسن اليه واكرم مثواه وكتب الملك الى سائر ممالكه ايها الناس اقتنوا ماذا كسرتم في البحر صار

معكم . وحكى عن بعض الحكماء انه رأى شخصاً يفتخر بعلم الصياغة فقال شعر

انى لا كره علماً لا يكون معي   اذا خلوت به في جوف حمام

ومن هذا الوجه قول ابن المعتز[١] العلم لا ينقص مع الابذال ولا يفارقك في حال من الاحوال وقريب من هذا الوجه ما قاله بعض الحكماء اعظم الاشياء منفعة عند العقلاء الادب والعلم لانهما يستمتع بهما صاحبهما مدة حياته ويحسن بهما ذكره ويورثاه في الآخرة النعيم الدائم ولا يلحقهما بلاء ولا نقص مع كثرة الاستمتاع بهما وكل منافع الدنيا انما هي رهائن فناء وودائع تلف انتهى . وهنا وجه خامس وهو ان ماخف حمله اشرف مما ثقل . ينبهك على ذلك مامر من كلام ازدشير اعظم الكنوز قدراً واجلها منفعة العلم الذي خف محمله وليس كذلك المال فان محمله ثقيل والهم به طويل ان كنت في ملاء ثقلك بالفكرة فيه وان كنت خالياً اتعبتك توابعه . ومن هذا الوجه قول بعض الحكماء لابنه يابني ان شئت ان تكون غنياً وتعيش هنيئا وتموت رضيا فاقتن العلم فانه خير كله لا يعييك فضله ولا يؤذك حمله ولا ينقصك بذله . وبالجملة فوجوه الترجيح عديدة لا تحصى ومديدة لا تستقصى . وأقل أمر فيها ان العلم لا يحتاج الى اعوان لحفظه بخلاف المال اذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها . والعلم لا تمتد اليه ايدي السراق

---

(١) وقول ابن الوردي في لاميته التي يقول في أولها . اعتزل ذكر الاغاني الخ الى ان يقول

اطلب العلم ولا تكسل به * ما أبعد الخير عن اهل الكسل
لا تقل قد ذهبت ايامه * كل من صار على الدرب وصل

عبد المجيد

بالاخذ ولا ايدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الامن ابداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف ابداً ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال ابداً و المال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع كثيرة وان سماه خيراً في مواضع وخلاصة الكلام في هذا المقام ان الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم الى ثلاثة أقسام مايطلب لغيره وما يطلبه لذاته . وما يطلب لغيره ولذاته . فالذي يطلب لذاته أشرف من الذي يطلب لغيره . والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير فانهما حجران لامنفعة لهما ولولا ان الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء على حد سواء . والذي يطلب لذاته فالسعادة في الآخرة . والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن . والصحة . فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث انها سلامة للبدن عن الالم ومطلوبة للمشي بها والتوسل الى المآرب والحاجات . وبهذا الاعتبار اذا نظرت الي العلم رأيته لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته ووجدته وسيلة الى دار الاخرة وسعادتها وذريعة الى القرب من الله تعالى ولا يتوسل اليه الا به . واعظم الاشياء رتبة في حق الادمي السعادة الابدية . وافضل الاشياء ما هو وسيلة اليها ولن يتوصل اليها الا بالعلم والعمل ولا يتوصل الى العمل الا بالعلم بكيفية العمل كما سيأتيك ايضاحه عن قريب ان شاء الله . فأصل السعادة في الدنيا والاخرة هو العلم فهو اذاً أفضل من المال والجاه والصحة والسلامة . وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء ايضاً بشرف ثمرته وثمرة العلم على ما عرفت المقرب من الله والسعادة هذا في الاخرة . وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام

في الطباع . حتى ان اغبياء الترك واجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة توقر الانسان لشعورها بتميز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها

تنبيـه

ليس المقصود بترجيح العلم على المال ان المال لا خير فيه كيف وقد سماه الله خيرا وهو الوسيلة الثانية للسعادة فمن وجد المال وضم اليه العلم فقد جمع بين الخيرين وحاز الوسيلتين من الوسائل للدارين فقد قال بعض العلماء لولده يابني عليك بطلب العلم وجمع المال فان الناس طائفتان خاصة وعامة فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال . وقال بعضهم اطلب في حياتك العلم والمال والعمل الصالح فان الخاصة تفضلك بما تحسن من العلم والعامة بما تملك من المال والجميع بما تعمل من العمل الصالح وقد الم بعض الفضلاء بهذا المعنى في قوله

قيمة المرء فضله عند ذي الفضل ... وما في يديه عند الرعاع
فاذا ماحويت مالا وعلما ... كنت بالاعيان بالاجماع
واذا منهما غدوت خلياً ... كنت في الناس من أقل المتاع

ورأى بوزرجمهر فقيرا جاهلا فقال بئس ما اجتمع على هذا فقر ينغص دنياه وجهل يفسد آخرته . وعند هذا تعرف ان ماقال بعضهم حسن وهو

من فاته العلم وأخطاه الغنى ... فذاك والكلب على حد سوى

وأحسن منه قول الآخر

ماأحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا ... وأقبح الجهل والافلاس بالرجل

وفصل الخطاب في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام . عز الدنيا

بالاموال والآخره بالاعمال. والمراد باعمال الآخرة العلم والعمل وأما الدنيا اذا كانت بالاموال فهي طريق الآخرة ومزرعتها

(خاتمة)

تتضمن أمرين الاول في وظايف النعم ومابه تمامها. والثاني في مقتضيات الزيادة فيها والنقصان منها لتعرف ان الاسباب والسعي فيها مدخل في تغيير ما كان عليه القضاء والقدر فيمحو الله مايشاء ويثبت الآية

(اما الامر الاول)

فاعلم أن لصاحب العلم او المال في علمه او ماله اربعة احوال حال استفاده فيكون مكتسباً. وحال ادخار وحفظ لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال . وحال انفاق على نفسه فيكون به منتفعاً. وحال بذل على غيره فيكون به سخياً متفضلا. وهذه الحاله اشرف الحالات . ورأيت في بعض كتب الهند وصية شيخ لبنيه بهذا المضمون وهي قوله لهم يابني ان صاحب الدنيا يطلب ثلاثة امور لن يدركها الا باربعة اشياء اما الثلاثة الذي يطلب فالسعة في الرزق والمنزلة في الناس والزاد للآخرة. واما الاربعة التي يحتاج اليهافي درك هذه الثلاثة فاكتساب المال من احسن وجه يكون ثم حسن القيام فيما اكتسب منه ثم استثماره ثم انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الاهل والاخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة فمن ضيع شيئاً من هذه الاحوال لم يدرك ما اراد من حاجته لانه ان لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به وان هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يحسن القيام به اوشك المال ان يفنى ويبقى معدماً وان هو وضعه ولم يستثمره لم تنفعه قلة الانفاق من سرعة الذهاب كالكحل الذي لا يؤخذ منه الا غبار الميل ثم هو مع ذلك سريع فناؤه وان

انفقه في غير وجهه ووضعه في غير موضعه واخطأ به مواضع استحقاقه صار
بمنزلة الفقير الذي لا مال له ثم لم يمنع ذلك ماله من التلف بالحوادث والعلل
التي تجرى عليه كحبس الماء الذي لا تزال المياه تنصب فيه فان لم يكن له مخرج
ومفاض ومتنفس يخرج الماء منه بقدر ماينبغي خرب وسال ونز من نواح كثيرة
وربما انبثق البثق العظيم فذهب الماء ضياعاً انتهى . فهذه اربعة احوال
اكتساب وحفظ وانفاق على النفس وبذل على الغير وهذه الاحوال كما
تجري في المال تطرد في العلم والكمال فان العلم يقتني كما يقتني المال فله حال
طلب واكتساب وحال تحصيل وحفظ يغني عن السؤال وحال استثمار وعمل
به وحال تعليم وبذل على المستحق له ولك ان تجري هذه الاحوال او بعضها
في سائر النعم او بعضها مما يمكن اجراؤها او بعضها فيه ولنفصل هذه
الاحوال الاربعة في العلم ولك ان تقيس عليه سائر النعم كالمال والجاه
والاخوان . اما الاول من احوال العلم الطلب والتعلم وهو فرض واجب على
كل مسلم لابد منه ولا عذر له في التقصير عنه من امر دينه ودنياه والقيام
بالمفروض عليه صلواته وصيامه وزكاته والتزام حدود حلاله وحرامه وما
لا يتم الاسلام الا به ولا يقوم الشرع الا بمعرفته وقد قال الله تعالى
فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وقوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر

ان كنتم لاتعلمون) وقد روى عن رسول الله انه قال طلب العلم فريضة على
كل مسلم وقال صلى الله عليه وآله الفقه في الدين فرض على كل مسلم فتعلموا
وعلموا ولا تموتوا جهالا وقال صلى الله عليه وآله العلم خزائن مفاتيحها السؤال
الا فأسألوا فانه يؤجر فيه اربعة السائل والعالم والمستمع والمحب لهم وقال صلى
الله عليه لاينبغي للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه .

وروي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال . تعلم العلم فانه زين للغني وعون للفقير ولست اقول انه يطلب به ولكن يدعوه الى القناعة وعنه عليه السلام . تعلموا العلم وان لم تنالوا به حظاً فلان يذم الزمان لكم احسن من ان يذم بكم . وللشعراء في هذا المعنى اقوال كثير منها

تعلم فليس المرء يولد عالماً ‏ ‏ وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده ‏ ‏ صغيراً اذا التفت عليه المحافل

(ومنها لبعضهم)

تعلم يافتى والعود رطب ‏ ‏ وطينك لين والطبع قابل
فان الجهل واضع كل عال ‏ ‏ وان العلم رافع كل خامل
فحسبك يافتى شرفاً وعزاً ‏ ‏ سكوت الحاضرين وانت قائل

الحال الثاني الحفظ فان التعلم بدونه لا يجدي نفعاً وقد ورد في امثال العرب . خير العلم ماحوضر به اي خير العلم ماحضرك عند الحاجة اليه يعنى به الفطنة لما تحفظه وايراده في موضعه وفي كلام بعضهم خير العلم ماحاضرت به ولا تعتاض عند مطلبه وقال بعض الفلاسفة خير العلم ما اذا غرقت سفينتك سبح معك اي ماكان حفظاً فاما ماكان في الكتب فانه بمظان الآفات على ان النسيان آفة حفظ أيضاً وكان الخليل يقول اجعل في كتبك رأس مالك وما تحفظ لنفقتك ويقال الكتاب علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي وللشعراء في هذا المعنى نظم كثير منه قول بعضهم

اني لاكره علماً لا يكون معي ‏ ‏ اذا خلوت به في جوف حمام

(ومنه ايضاً لبعضهم)

من لم يكن علمه في صدره نشبت ‏ ‏ يداه عن السؤلات التي ترد

العلم ما انت في الحمام تحضره وما سوى ذلك التكليف والكمد

(ومنه ما قال آخر)

العلم في القلب ليس العلم بالكتب فلا تكن مغرماً باللهو واللعب
فافهمه واحفظه واعمل كي تفوز به فالعلم لا يجتني الا مع التعب

(وقال الآخر)

ليست علومك ماحوته دفاتر لكن علومك ماحوته صدور

(وقال بعضهم)

علمي معي حيث ما يممت ينفعني صدري وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي اوكنت في السوق كان العلم في السوق

(وقال محمد بن بشير)

اميل الى كل ما اسمع واحفظ من ذاك ما اجمع
ولو استفيد سوى ما جمعت لقيل هو العالم المصقع
ولكن نفسي الى كل شيء من العلم تنزعه تنزع
فلا انا احفظ ما قد جمعت ولا انا من جمعه اشبع
ومن يك في علمه هكذا يكن دهره القهقري يرجع
اذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

(وقال بعضهم)

عليك بالحفظ دون الجمع في كتب فان للكتب آفات تفرقها
الماء يغرقها والنار تحرقها واللص يسرقها والفار يخرقها

وينشد لبعضهم

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما حواه الصدر

ولبعضهم أيضاً

استودع العلم قرطاساً فضيعه ... وبئس مستودع العلم القراطيس

ولبعض الادباء ايضاً

صاحب الكتب تراه ابداً ... غير ذي فهم ولكن ذا غلط

كلما فتشته عن علمه ... قال علمي ياخليلي في سفط

في كراريس جياد احكمت ... وبخط أي خط اي خط

فاذا قلت له هات اذن ... حك لحييه جميعاً وامتخط

ولبعضهم ايضاً

ليس في الكتب والدفاتر علم ... انما العلم في صدور الرجال

الحال الثالث من احوال العلم العمل به فان التعلم والحفظ دون العمل نقصان اذ يقال العلم مبداء، والعمل تمامه قال أمير المؤمنين عليه السلام . لاتجعلوا علمكم جهلا ويقينكم شكاً اذا علمتم فاعملوا واذا تيقنتم فاقدموا وهذا نهي للعلماء عن ترك العمل يقول عليه السلام لا تجعلوا علمكم كالجهل فان الجاهل قد يقول جهلت فلم اعمل واما انتم فلا عذر لكم قد علمتم وانكشف لكم سر الامر فوجب عليكم ان تعملوا ولا تجعلوا علمكم جهلا فان من علم المنفعة في امر ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأته كان سفيها قال بعض الفضلاء . اذا العلم لم تعمل به حجة عليك . ولم تعذر بما انت جاهله . ويقال ان العلم لا يتم الا بالعمل وان العلم كالشجرة والعمل به كالثمرة وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به وان لم يستعمل ما يعلم فليس يسمى عالما ولو ان رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلا وكان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله

ثم يحمله الشره على اكل رديئه وترك ما هو اقرب للنجاة والتخلص من علته
واقل الناس عذراً في اجتناب محمود الافعال وارتكاب مذمومها من ابصر
ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض كما انه لو ان رجلين احدهما
بصير والآخر اعمى ساقهما الاجل الى حفرة فوقعا فيها كانا اذا صارا في
قعرها بمنزلة واحده غير ان البصير اقل عذراً عند الناس من الضرير اذ كانت
له عينان يبصر بهما وذلك بما صار اليه جاهل غير عارف وان لم يعذر في عدم
السؤال فليس له في العلم بلا عمل شرف ولا فضل

لو كان في العلم من دون التقى شرف ... لكان اشرف خلق الله ابليس

وقد قال الله سبحانه وتعالى في قصة بلعام بن باعوراء « واتل عليهم نبأ
الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » حتى قال تعالى
« فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » فكذلك العالم الفاجر فان
بلعام أوتي كتاب الله فاخلد الى الشهوات فشبه بالكلب اي سواء أوتي
الحكمة او لم يأت فهو يلهث الى الشهوات وقد مثل الله سبحانه من لا يعمل
بما علم بالحمار فقال عز من قائل « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل
الحمار يحمل أسفارا » الآية هذا ما ينبغي الاشارة اليه هنا من بيان نقصان
العلم بلا عمل وسيأتي تمام الكلام عليه بعد بيان الحال الرابع ان شاء الله. الحال
الرابع من احوال العلم تعليمه وبذله لمن يستحقه وهذا الحال بعد العمل بالعلم أشرف
الاحوال فهو كحالة السخاء في الجاه والمال وكما يجب على كل مسلم تعلم ما لا يسعه
جهله كذلك يجب على من علم تعليم ما عنده من العلم ولا يصح له منعه لقول
الله تعالى واذ اخذ ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقوله سبحانه
ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب

اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقوله عز من قايل لنبيه صلى الله عليه وسلم وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله لم يأخذ الميثاق على الجاهل ان يتعلم حتى أخذ الميثاق على العالم ان يعلم » وقوله من كتم علماً يحسنه الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة هذا وفي تعليم العلم فائدتان الاولى احياء النفس بحفظه وتذكيره عن النسيان فقد قال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت علمت ماجهلت وحفظت ماعلمت وقال بعضهم للعالم في تعليم العلم تذكير من النسيان وافضل من ذلك مايرجوه من ثواب الرحمن (الثانية) احياء الغير فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال . ماعبد الله بشيء افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد . وذلك لان العابد انما يحيي نفسه ويسعى في خلاص ذاته والفقيه يعلم فيخلص نفسه ويعلم فيخلص غيره . ومن هذه الجهة كانت عبادة العالم تفضل عبادة العابد ومنها ايضاً فضل حق العالم على الوالد لان الوالد انما هو ساع في صلاح دنيا الولد والعالم ساع في صلاح دنياه واخراه فهو الوالد حقيقة ومن ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله لامير المؤمنين انا وانت ابوا هذه الامه فيجب تعظيم العالم والمعلم زيادة على تعظيم الوالد وان عظم حقه . ولما قيل لاسكندر مابال تعظيمك لمؤدبك[1] اكثر من تعظيمك لابيك قال لان ابي سبب حياتي الفانية ومعلمي سبب حياتي الباقية . ولما دخل على الواثق مؤدبه بالغ في اكرامه فقيل له يا امير المؤمنين من هذا قال اول من فتق لساني بذكر الله وادناني من رحمة الله . وللشعراء في هذا اقوال كثيرة فمنها قول بعضهم

وللمعلم فضل ليس يبلغه   حنو ام ولايحويه عطف اب

---

(١) وهو ارسطاطاليس

هذا يدبر في الدنيا معيشته وذا يمكنه في ارفع الرتب

(وقول آخر)

يا فاخر السفهاء بالسلف وتاركا للعلاء والشرف
آباء اجسادنا هم سبب لأن جعلنا عوارض التلف
من علم الناس كان خيراب وهوابو الروح لاابالنطف

(وقول آخر ايضاً)

اقدم استاذي عن نفس والدي وان نالني من والدي الفضل والشرف
فذاك مربي الروح والروح جوهر وهذا مربي الجسم والجسم من صدف

هذا كله بعد العمل بمقتضى العلم فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السماوات فانه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها كالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب والذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع والابرة التي تكسو غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحرق كما قيل

ماهو الا ذباله وقدت تضيء للناس وهي تحترق

قال بعض العلماء مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل أعمى بيده سراج يستضيء به غيره وهو لا يراه فعلى العالم ان يبدأ بنفسه ويؤدبها بعلمه ولا يكون غايته اقتنائه العلم لمعاونة غيره ويكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة وكدودة القز التي تحكم صنعته ولا تنتفع به وليس ظن العالم بانتفاعه بعلمه الذي يعلم به غيره ولا يعمل به الا جهل وغرور فكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل ومثال

هـذا المغرور كمريض به علة لايزيلها الا دواء مركب من اخلاط كثيرة لا يعرفها حذاق الاطباء فليسعى في طلب الطبيب بعد ان هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها افترى ان ذلك يغني عنه من مرضه شيئا. هيهات هيهات لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليـلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا الا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه وكيف اذا لم يشرب منه شيئا فمهما ظن ان ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات وعلمها غيره ولم يعملها وأحكم علم المعاصي ونهي غيره عنها ولم يتجنبها ويزكي نفسه عنها فهو مغرور اذ قال الله تعالى قد أفلح من زكاها ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

(تتمة)

للعالم الذي عمله بخلاف علمه آفتان عظيمتان الأولى منهما عدم قبول قوله اذا التعليم بالعمل أقوى تأثيراً ومنه قول أمير المؤمنين عليه السلام. أصلح المسيء بحسن فعالك ودل على الجميل بجميل مقالك. وقوله عليه السلام. من نصب نفسه للناس اماما فعليه ان يبدأ بتعليم نفسـه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من

معلم الناس ومؤدبهم. وشرح هذا الكلمات الشريفة هو انك تعلم بالضرورة ان الفروع تابعة للأصول فاذا كان الاصل معوجا استحال ان يكون الفرع مستقيما كما قال صاحب المثل «وهل يستقيم الظل والعود أعوج» فمن نصب نفسه للناس اماما ولم يكن قد علم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس كان مثله مثل من نصب نفسه ليعلم الناس الصياغة والنجارة وهو لا يحسن ان يصوغ خاتما ولا يعرف ينجر لوحا وهذا نوع من السفه بل السفه كله . وأما قوله عليه السلام وينبغي ان يكون تأديبه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبهم بلسانه فذلك لان الفعل أدل من القول على حال الانسان وقوله عليه السلام . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم . وذلك لان من علم نفسه بمحاسن الاخلاق اعظم قدراً من تعاطي تعليم الناس ذلك وهو غير عامل بشيء منه فامامن علم نفسه وعلم الناس فهو أفضل وأجل ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط كما مر بيانه وبالجملة فكيف يؤخذ قوله وعمله للقول غير ملابس ام كيف يخضر الفرع والاصل يابس فعلى العالم ان يكون عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لان العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وارباب الابصار اكثر فاذا خالف العمل العلم منع الرشد ومثل المعلم المرشد من المسترشدين ومثل النقش من الطين فكيف ينتقش الطين بما لانقش فيه ام كيف يتأثر قلب معلم بشيء والعمل بخلافه غير خافية قال بعض العلماء ان العالم اذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا والسبب هو ماعرفته من الذي مر ذكره . هذا وربما كان قوله المخالف لفعله مردود اليه ومحتجا به عليه لان كل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس منه واتهموه وينشد لبعضهم بهذا المعنى

ياايها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذاالتعليم
تصف الدواء لذى السقام وذي الضنا كيما يصح به وانت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ابداً وانت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يقبل ماتقول ويهتدى بالقول منك وينفع التعليم

(الى ان قال)

لاتنه عن خلق وتأتي بمثله عار عليك اذا فعلت عظيم

(وينشد الآخر)

يا واعظ الناس قد اصبحت متهما اذ عبت منهم اموراً انت تأتيها
اصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمرى انت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها وانت اكثر منهم رغبة فيها

نظر رافع بن خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى اميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى ابي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع ابو ذر رضي الله عنه راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه الى عمر فقال انت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة . وحكى ان اعرابياً اتى الى ابن ابي ذؤيب فساله عن مسئلة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسناً قال نظرت وقد بانت فولى الاعرابي وهو ينشد ويقول

أتيت ابن ذئب ابتغي الفقه عنده فطلق حتى البنت تبت انامله
اطلق في فتوى ابن ذئب حليلتي وعند ابن ذئب اهله وحلائله

فظن بجهله انه لا يلزم الطلاق بقول من لم يلتزم بالطلاق فما ظنك بقول

يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولاقابل له ومما ينبغي ايراده هنا من باب التمثيل ماروي انه اصاب الناس قحط على عهد موسى بن عمران على نبينا وعليه الصلاة السلام فخرج موسى ببني اسرائيل يستسقي فلم يسقوا ثم خرج فلم يسقوا فاوحى الله عز وجل الى موسى عليه السلام اني لااستجيب لكم لان فيكم نماما قال موسى يارب من هو حتى نخرجه من بيننا فاوحى اليه ياموسى انها كم عن النميمة واكون نماما فقال موسى عليه السلام لبني اسرائيل توبوا باجمعكم عن النميمة فتابوا فارسل الله عليهم المطر هذا فى المناهي وأما في الاوامر الارشادية فكذلك يكون امر الآمر وارشاد المرشد حجة عليه مالم يفعله بنفسه كما حكي ان وصيفا التركي والى الشام أصابته مصيبة فركب اليه محمد ابن عبد الملك الزيات فعزاه باخبار وامثال ثم أصيب محمد بمصيبته فركب اليه وصيف فقال له ياأبا جعفر انا رجل أعجمي لاأدري ماأقول لك ولكن انظر ماعزيتني به ذاك اليوم فعز به نفسك الآن فاستظرف الناس كلامه ويقال العالم الذي لايعمل كالمريض الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الاطعمه ولايجدها وفي مثله قوله تعالى « ولكم الويل مما تصفون » الآفة

الثانية من آفات من يكون عمله بخلاف علمه اقتداء العامة بفعله ولذلك ورد في الخبر عن سيد البشر « انما أخاف على أمتي ذلة عالم وجدال منافق في القرآن » وكان يقال العالم اذا لم يكن زاهداً كان عقوبة لأهل زمانه لانهم يقولون لولا ان علمه لم يصوب عنده الزهد لم يزهد فهم يعتقدون بزهده في الزهد وقال أمير المؤمنين عليه السلام . ان الله أخذ على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره

ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب الى التواضع واجدران يقتدي به المسلم. ولما سئل الصادق عليه السلام عن قول النبي صلى الله عليه وسلم النظر في وجوه العلماء عبادة قال الذي اذا نظرت اليه ذكرك أمور الآخرة ومن كان على خلاف ذلك فالنظر اليه فتنة وقيل اذا اشتغل العلماء بجمع الحلال صار العوام آكلي الشبهات واذا صار العالم آكلا للشبهات صار العامي آكلا للحرام واذا صار العالم آكلا للحرام صار العامي كافراً وكل ذلك منسوب اليه وعائد وزره عليه وعند هذا يقال

اذا كان رب البيت بالطبل ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وذكر بعض المؤرخين ان ملكا كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم الخنزير فاتى برجل أفضل أهل زمانه فاعظم الناس مكانه وهالهم أمره فراودوه على أكل لحم الخنزير فلم يفعل فرق له صاحب شرطة الملك فقال له انا اتيك بجدي تذبحه بما يحل لك أكله فاذا دعي الملك بلحم خنزير آتيتك به ففعل ثم اتى به الملك فدعى له بالحم الخنزير فأتى صاحب الشرطة بذلك الجدي فأمر به الملك ان يأكله فابى أن يأكله فجعل صاحب الشرطة يأمره أن يأكله فابى عن ذلك فامر الملك صاحب الشرطة بقتله فلما ذهب به قال ما منعك ان تأكل منه وهو اللحم الذي ذبحته أنت اظننت اني جئت بغيره قال لا قد علمت انه هو ولكن خفت ان يفتتن الناس بي فان اكرهون على اكل لحم الخنزير قالوا قد اكله فلان فيستن بي فاكون فتنة لهم ثم قتل ولذلك كان وزر العالم في معاصيه اكبر من وزر الجاهل اذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ولذلك قال امير المؤمنين قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه

والعالم يغرهم بتهتكه. وقال ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الافاق فمثل ذلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق اهلها وفي الأسرائيليات ان عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم ادركته توبة فعمل في الاصلاح دهراً فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار فبهذا يتضح ان امر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احداهما ترك الذنب والاخر اخفاؤه وكما تتضاعف اوزارهم على السيئات فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل والدنيا مالت طباع من دونه الى التشبه به ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها أما بالربح وأما بالخسران هذا هو الامر الاول من الأمرين

﴿ الامر الثاني ﴾

من أمري الخاتمة في مقتضيات النقصان من النعم ودواعي زوالها وفي اسباب الزيادة فيها وامتداد حالها فهذان قسمان وفي القسم الاول يتبين ان امور الدنيا بالاستحقاق ولا بالاتفاق في القسم الثاني يتضح ان للاسباب مدخلا في تغيير ما كان عليه الامر في القضاء والقدر

﴿ أما القسم الأول ﴾

فاعلم ان السبب الكلي في النقصان هو بلوغ الغاية من النعمة وذلك اما ان يقتضي زوال نفس الامر الذي بلغ نهايته او نقصانه او النقصان لامر

آخر مثله فأما الاول وهو اقتضاء بلوغ الغاية من الشيء لنقصانه او زواله فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام . انه قال من بلغ اقصى امله فليتوقع أدنى أجله . وانذر شيخ نصراني ابا مسلم حين دنا قتله فبكى فقال له لا تبك فانك لم تؤت من رأي وثيق ولا حزم رتيق ولا تدبير نافع ولا سيف قاطع ولكن ما اجتمع لاحد امله الا اسرع في تقريب اجله وقال المؤرخون لبث سليمان في ملكه بعد ان رده الله تعالى اليه تعمل له الجن والشياطين ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وقدور راسيات وغير ذلك ويعذب من يشاء ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها الى حيث احب قال فتزيا لهم ابليس وهم دائبون في العمل فقال كيف أنتم قالوا مالنا طاقة مما نحن فيه فقال ابليس تذهبون تحملون الحجارة وترجعون فراغاً لا تحملون شيئا قالوا نعم قال فأنتم في راحة قالوا فأبلغت الريح كلام الشيطان الى سليمان عليه السلام فأمرهم أن يحملون ذاهبين وآيبين فقال لهم ابليس اتناموون بالليل قالوا نعم قال فأنتم في راحة فابلغت الريح ذلك سليمان عليه السلام فأمرهم أن يعملوا ليلا ونهاراً فتزيا لهم ابليس فشكوا اليه انهم يعملون دائبون بالليل والنهار فقال لهم ابليس لعنه الله وما شاء سليمان فعله قالوا نعم قال فتوقعوا الفرج وقد بلغ الامر منتهاه فلم يلبثوا الا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام هذا وسيأتي بيان قاعدة في ان الشيء اذا بلغ حده انعكس الى ضده وهي مؤيدة الى هذا المطلب واحسن ما يستدل به على هذا المعنى قوله تعالى «حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة» الآية وقد نظم العقلا المتنبهون فى هذا المعنى نظماً كثيراً فمنه لبعضهم وقد ينسب للامير عليه السلام

اذا تم امر بدى نقصه ... توقع زوالا اذا قيل تم

(وقال بن الهبارية في الصادح)

عند تمام البدر يبدو نقصه　　　وربما ضر الحريص حرصه

« وقال المتنبي أيضاً »

اذا كنت تبغي العيش فابغ توسطاً　　　فعند التناهي يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهي أهلة　　　ويدركها النقصان وهي كوامل

« وقال آخر »

بقدر الصعود يكون الهبوط　　　فاياك والرتب العالية

« وقال ابن قلاقس »

واذا انتهى الاخلاص اوجب ضده　　　ان التجمع يورث التفريقا

واما الثاني وهو ان الزيادة من الشيء نقصان في آخر مثله من النعم المطلوبة فذلك واضح تراه بالوجدان . وقد حكى اهل التجارب وقالوا العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول لا ينفصل لاحدهما من الآخر وقالوا ان حرفة الادب اعدى من الجرب وصفة الكمال صفة البلبال وزينة المناقب ريبة المعاطب حتى قال بعضهم ولعله ابن الراوندي

كم عاقل عاقل اعيت مذاهبه　　　وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الاوهام حائرة　　　وصير العالم النحرير زنديقا

(وليس ذاك الا لجهله بحكمة المدبر للعالم وقال آخر)

ان انتقد ابصرت فضلا شائعاً　　　ابصرت صاحبه بذكر خامل

ولما بويع لابن المعتز ولقب بالمرتضي بالله ادركته حرفة الادب فلم يقم في الخلافة غير يومين ثم اضطربت اموره وهرب الى دار ابن الجصاص التاجر فاختفى عنده ثم اخرج منها الى القضاء . والشهود والعدول ميتاً بعد

ايام يسيرة . وامثاله كثيرة واكثر اهل الكمال محرومون فكم عاقل سديد التدبير صحيح العقل قد قدر عليه رزقه واحمق مائق تدر عليه سحائب الخيرات وتحلب له اخلاف الارزاق ولا يختص نقصان الحظ من جهة الزيادة في العقل والكمال الروحاني حتى يقال انما وكل الله الجهل بالغنى والعقل بالحرمان ليعلم العاقل ويعتبر ان الرزق لا يحصل بالتدبير فانا نجد النقصان في غير اهل الكمال ايضاً فكم شجاع قد ابلى في الحرب وانتفع بموضعه ليس له عطاء يكفيه ويقوم بضروراته وجبان فشل يفرق من ظله مالك بقطر عظيم من الدنيا وقطعة وافرة من المال وكم ذي دين وعبادة حسنة واخلاص وهو محروم ضيق الرزق وكم يهودي أو نصراني او فاجر كثير المال واسع الجاه فليس ذلك الا تعديل وتدبير من مدبر الكائنات فاذا رزق عبدا وانعم عليه بنعمة سلب عنه أخرى فاذا رزقه العقل سلبه الحظ وان وفقه للطاعات ذوي عنه خيرات الدنيا وان رزقه الشجاعة سلب حظه في غيرها وان أكثر له الذرية سلبه من غيرها الامنية ولذا ترى كثيراً من المتمولين لا عقب لهم وكل ذلك تقدير واستحقاق نعم الغالب في نقصان الحظ من جهة زيادة الكمال ووفور العقل لان كلا منهما رزق محسوب على صاحبه ففي الحديث انه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما ازداد الرجل حذقا في صنعة الا ازداد ذلك نقصا من رزقه» ويدل على ذلك قول أمير المؤمنين لما قيل له عليه السلام مابال العقلاء فقراً فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه وقد نقل عن افلاطون ان الله تعالى بقدر مايعطي من الحكمة يمنع من الرزق فقيل لماذا فقال لان الحكمة حظ النفس الناطقة والمال حظ النفس الشهوانية والمال والحكمة متغايران ولا يجتمعان وقيل لبعض

الحكماء لم لاتجمع المال والعلم قال لعز الكمال لانهما اذا اجتمعا كانا ستر الدنيا وسبب لذة الحياء وفي الحديث ماجعل الله لرجل عقلا وافراً الا احتسبه عليه من رزقه وهذا ينبهك على ان الدنيا بالاستحقاق وهو الحق لابالاتفاق كمازعمه بعضهم والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وافقره ممن أفاض عليه المال من غيرعقل وعلم فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل حتى يكاديرى هذا ظلماولا يدري المغرور انه لوجمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغني وحرمتني منهما فهلا جمعتهمالي أوهلا رزقتني أحدهما والعجب ان العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا منه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضاً من عقلك وفقرك لامتنع عنه فاذا ذلك يدل على ان نعمة الله عليه اكبر والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الذميمة القبيحة فتتعجب وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويختص مثل ذلك القبيح ولا تدرى المسكينة ان الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبيح مع الغني لآثرت الجمال فاذن نعمة الله عليها أكبر. واعجب من ذلك شكوى من رزقه الله ايمانا كاملا وزوي عنه الدنيا يغبط من سلبه الله ايمانه وأملأ عليه من العواري التي لاتبقى ولوخير هذا المؤمن بين ايمانه ودنيا المنافق لما سمحت نفسه وتبين عنده ان نعمة الله عليه أعظم وقول العالم الفقير بقلبه يارب لم حرمتني الدنيا واعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول أيها الملك لم لا تعطني الغلام وأنا صاحب فرس فيقول كنت لاتتعجب من هذا لولم أعطك الفرس فهب اني ماأعطيتك أصارت

نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى

(تتمة)

والغالب في زيادة الرزق والاقبال نقصان العمر وقرب الاجال قال الرشيد لمسكين ساله حاجة مابال الملوك وعندهم الاطباء لا تطول أعمارهم فقال المسكين لان الملوك يعطون رزقهم جملة فيأكلون دفعة وارزاقنا تأتينا من ثقب الابره فنأكلها شيئاً فشيئاً فنبقى حتى نستوفيها فعجب من جوابه واعطاه عشرة آلاف درهم فما أتت عليه أيام حتى مات فقال الرشيدجمعناله رزقه فمات وقريب من هذا ماحكي ان الرشيد قال لبهلول أتحب ان تكون خليفة قال لا وذلك اني رأيت موت ثلاث خلفاء ولم ير الخليفة موت بهلولين والمراد ان زيادة التنعم مقتض للنقصان في مدة الاجل قال ابن الرومي

اذا ما كساك الدهر سربال صحة ولم تخل من قوت يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فانما على قدرما يعطيهم الدهر يسلب

ومن الامثال الغريبة على ما زعموا انه كان عند رومي خنزير فربطه في اسطوانه ووضع العلف بين يديه ليسمنه وكان بجنبه اتان لها جحش وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر فقال لأمه يا أماه ما اطيب هـذا العلف لو دام فقالت له امه يابني لا تقربه فان وراءه الطامة الكبرى فلما اراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ فهرب الجحش واتى الى أمه واخرج لها اسنانه وقال ويحك يا اماه انظري هل بقي في خلال اسناني شيء من ذلك العلف فاقلعيه وهـذا المثل يضرب لحسن القناعة بالقليل مع السلامة وقال بعض العقلاء في المعنى

وقد يهلك الانسان حسن رياشه كما يذبح الطاووس من أجل ريشه

هلكت ابل لاعرابي باجمعها في يوم قفرح وقال ان موتاً تخطاني الى ابلي لعظيم النعمة هذا بيان مقتضيات النقصان وهو القسم الاول

﴿واما القسم الثاني﴾

ففي أسباب الزيادة في النعم ومقتضيات دوامها وهي على حسب استقرائنالها ثلاثة أسباب الشكر للمنعم والصدقة وصلة الرحم وكل واحد من هذه الثلاثة كاف في استدامة النعمة او زيادتها واعظم النعم واجلها الرزق وطول العمر وتأثير هذه الثلاثة اسباب في هاتين النعمتين اكثر وان أحببت بسط الكلام في هذا المرام فاستمع لما يتلى عليك . اما السبب الاول وهو شكر المنعم فلا ريب في اقتضائه المزيد وقد قال الله سبحانه « وان شكرتم لأزيدنكم » وقال أمير المؤمنين . ماكان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة . وقال عليه السلام في خبر آخر النعمة موصولة بالشكر والشكر موصول بالمزيد وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله سبحانه حتى ينقطع الشكر من الشاكرين وقال عليه السلام ان لله تعالى في كل نعمة حقاً فمن اداه زاده منها واصل ذلك قوله سبحانه « وان شكرتم لازيدنكم » فقد اوعد ولا خاف لوعده ولك ان تقول ان المزيد لا يختص بشيء من النعم كما هو ظاهر عموم الآية ويعجبني نقل ظريفتين مقدمة واشرت بهما الى عموم الزيادة ثم نعود الى نقل الاخبار في الشكر واحدي الظريفتين ان بعض العلماء اصابته حمة فدخل عليه احد اخوانه يعوده وقال له يا أخي اشكر الله سبحانه فانه لم يرد بك الا الخير فأجابه ممازحاً أخاف ان أشكره فيزيدني منها لانه اوعد الشاكر بالمزيد اشارة الى عموم قوله تعالى « وان شكرتم

لازيدنكم » والثانية على ما قيل ان الحجاج أخذ لصاً فضربه سبعمائة سوط
وكان كلما قرع بسوط يقول ربي شكراً فلقيه اشعب فقال له اتدري لم ضربت
سبعمائة سوط فقال لم ادر فقال لكثرة شكرك لان الله تعالى يقول « لئن شكرتم
لازيدنكم » قال وهذا في القرآن قال نعم فامسي يقول لا شكراً
فلا تزدني في شكرك فاعف عني وباعد ثواب الشاكرين مني واذا
عرفت هذا فاعلم ان الشكر على ماقال البيانيون لغوي وعرفي واللغوي هو
فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب الانعام سواء كان ذكراً باللسان او اعتقاداً
ومحبة بالجنان او عملا وخدمة بالاركان والشكر العرفي هو صرف العبد
جميع ما أنعم الله عليه من السمع والبصر وغيرهما الى ماخلق له واعطى
لاجله كصرف النظر الى مصنوعاته والسمع الى تلقى ما ينبئ عن مرضياته
والاجتناب عن منهياته وحينئذ فاللغوي اعم والعرفى اخص واذا فهمت هذا
فاعلم ان الشكر اللغوى كاف في تأثير المزيد وما قدمناه اشارة اليه وأما الشكر
العرفى فأثره اعظم اذ يجمع خير الدنيا والآخرة وهو المراد بقول امير المؤمنين
عليه السلام ان لله في كل نعمة حقاً فمن اداه زاده منها ومن قصر فيه خاطر بزوال
نعمته وقوله عليه السلام من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه فان
قام فيها بواجب الله سبحانه اهله للدوام وان منع فيها مايجب لله فيها فقد
عرضها للزوال ومثل ذلك يروي عن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله الطاهرين
فانه قال من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك
المؤنة عرض تلك النعمة للزوال. وجاء في الخبر من اوتي نعمة فادى حق الله
منها برد اللهفة واجابة الدعوة وكشف المظلمة كان جديراً بدوامها وقال امير
المؤمنين عليه السلام. ان لله عباداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها في ايديهم

مابذلوها فاذا منعوها نزعها منهم ثم حولها الى غيرهم وفي الوسائل عن ابي خالد الكاملي قال سمعت زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام يقول الذنوب التي تغير النعم البغى على الناس والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف وكفران النعم وترك الشكر قال الله تعالى «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم» وفي الاثر ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها الا كان حقاً على الله سبحانه ان يزيلها عنه وللشعراء في نظم هذا المعنى شعر كثير فمن ذلك قول ابي العباس عماده وهو

اعارك ماله لتقوم فيه ... بواجبه وتقضى بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن ... قويت على معاصيه برزقه

(وقول بعضهم)

لم يعطك الله ماعطاك من نعم ... الا لتوسع من يرجوك احسانا
فان منعت فاخلق ان تصادفها ... تطير عنك زرافات ووحدانا

(ومن قصيدة ابن رزيق البغدادي)

ومن غدى لابساً ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فان الله ينزعه

(وقول آخر وربما ينسب للامير)

اذا كنت في نعمة فارعها ... فان المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الآله ... فان الاله سريع النقم

فربما يكون له عليه السلام أو مضمون كلامه الذي تقدم وجميع ذلك مضمون شطر الثاني من آية الشكر وهو قوله تعالى «وان كفرتم ان عذابي لشديد» فكأن الشكر علة تامة في الدوام للنعمة فكما يلزم من وجوده الدوام يلزم من عدمه الزوال وعلى ذلك لايقوم سبب آخر مقامه وحينئذ فالصدقة وصلة الرحم من افراد

الشكر بالمعنى العرفي وانما افردناها لبسط الكلام وزيادة التوضيح

(تتمة)

من كلام امير المؤمنين عليه السلام تنزل المعونة على قدر المؤنة ومن الحديث المرفوع من وسع وسع عليه وكلما كثر العيال كثر الرزق وكان على بعض الموسرين رسوم لجماعة من الفقراء يدفعها اليهم في كل سنة فاستكثرها فأمر كاتبه بقطعها فرأى في المنام كان له اهواء كثيرة في داره وكأنها تصعدها اقوام من الارض لى السماء وهو يجزع من ذلك فيقول يارب رزقي فقيل له انما رزقناك هذه لتصرفها فيما كنت تصرفها فيه فاذا قطعت ذلك رفعناها منك وجعلناها لغيرك فلما اصبح امر كاتبه باعادة تلك الرسوم اجمع . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال «الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله عليكم» ومن ذلك قول بعض العلماء استجاب بالانعام منك انعام الله عليك تستزد بما تهب لغيرك مايهبه الله لك ثم تستفيد الشكر

(ومنه قول الشاعر)

لم لا احب الضيف او ارتاح من طرب اليه
والضيف يأكل رزقه عندي ويحمدني عليه

(تتمة) لهذه القاعدة التي قالها امير المؤمنين وهي تنزل المعونة على قدر المؤنة فنقول الامداد اعم من ان يكون رزقا او عقلا فعلى قدر مايبتلي الله عبده من الرعاية يمده عقلا لتدبير مايرعاه من خلقه واليه الاشارة بقول النبي صلى الله عليه وسلم «من ولى على عشرة كان له عقل اربعين ومن ولى على اربعين كان له عقل اربعمائة» وقول امير المؤمنين رأى الرجل على قدر مرتبته ومن هذا يقال الملك اعقل وان كان الوزير اعلم . ومنه قول بعض الاكابر

ارباب الدول ملهمون . ومنه ما يقال من اتاه الله جداً اعاره عقلا فاذا سلب جده استرجع عقله والسبب هو ما عرفته ولولاه لفسد النظام وقد تقدمت الاشارة الى هـذا المعنى في امارات الاقبال فراجع . وقد تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود فلنرجع الى ما كنا فيه من اسباب الزيادة . (السبب الثاني) من اسباب الزيادة في النعم الصدقة اعم من ان تكون واجبة او مستحبة . اعلم اولا ان للصدقات اثر عظيم في اجتلاب الرزق وسعته وفي دفع القضاء والزيادة في العمر والتوسعة في مدته اما اثرها في جلب الرزق وسعته فقد روى من كلام امير المؤمنين عليه السلام استنزلوا الرزق بالصدقة . وجاء في الحديث المرفوع ما احسن عبد الصدقة الا احسن الله الخلافة على عقبه . وفي الحديث ايضا عن الصادق عليه السلام انه قال اني لاملق احيانا فاتاجر الله بالصدقة فيربحني وروى بعض العامة قال مر سائل بعلي عليه السلام فقال لاحد ولديه قل لامك هاتي درهما من ستة كان عندها فقالت عليها السلام هي للدقيق فقال علي عليه السلام لا يصدق ايمان عبد حتى يكون بما في يد الله تعالى اوثق منه مما في يده فتصدق بالستة . ثم مر به رجل يبيع جملا فاشتراه بمائة واربعين وباعه بمائتين وجاء بالستين الى فاطمه فقالت ماهذا قال هذا ما وعد الله على لسان ابيك من جاء بالحسنة فله عشر امثالها . وروي بعض المؤرخين ان رجلا وامرأته كان لهما من الدنيا اوقية قطن يشتريها الرجل ويندفها وتغزلها المرأة ويبيعها الرجل ويشتري اوقية قطن فيفضل فيها درهم فيقتاتان به فأتى يوما بالدرهم فوجد رجلين يقتتلان وقد اخذ احدهما بشعر الآخر فسئل عنهما فقيل اختلافهما على درهم فدفعه اليهما وفرق بينهما وجاء امرأته فشكرت صنيعته فلما كان اليوم الثاني جاء بالدرهم فوجد رجلا يبكي ومعه سمكة فسئل فقال صياد اصطاد

كل يوم مثل هذه السمكة وابيعها بدرهمين اشتري باحدهما خبزا وبالاخر اداما فبارت اليوم الى ان فاتت واريدان تأخذها مني بدرهم واحد آخذ به خبزاً اشاغل العيال به فلا أجد احداً فدفع اليه الدرهم وجاء بالسمكة فسالته زوجته عن ذلك فاخبرها فقالت ومايضر منها فائتة وقامت في الحال أصلحت شأنها وشقتها فوجدت في بطنها درة فباعها الرجل باربعة وعشرين الفا وهذا من باب « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء »وقد يعجل ذلك في الدنيا اذا اقتضت الحكمة تعجيله. ومن غرائب هذا المطلوب وعجايب هذاالاسلوب ماأورده محمد بن القاسم الانباري ان سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوما من دار المهدي فلما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فامرت به فرفع ثم دعوت جارية لي احادثها واشتغل بها فلم تطب نفسي ودخل وقت القايله فلم يأخذني نوم فنهضت وامرت ببغلةلي فاسرجت واحضرت فركبتها فلماخرجت استقبلني وكيل لي ومعه مال فقلت ماهذا فقال ألفا درهم جبيتها من مشغلك الجديد قلت أمسكهامعك واتبعني قال فخليت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم عبرت في شارع دار الرقيق حتى انتهيت الى الصحراء ثم رجعت الى باب الانبار فانتهيت الى باب دار لطيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فوقفت وقد عطشت فقلت للخادم عندك ماء تسقنيه قال نعم وقام فاخرج قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني وشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتي اذا باعمى يتلمس فقلت ماتريد ياهذا قال اياك أريد قلت وما حاجتك فجاء حتى قعد الي وقال شممت منك رائحة طيبة

فظننت انك من أهل النعيم فاردت ان القي اليك شيئاً فقلت قل قال ترى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان لابي فباعه وخرج الى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فاتيت صاحب هذه الدار لاسئله شيئاً يصلني به واستوصل به الى سوار فانه كان صديقاً لابي قلت ومن أبوك قال فلان ابن فلان قلت فاذا هو أصدق الناس كان لي وقلت له ياهذا ان الله تعالى قد أتاك بسوار منعه النوم والطعام والقرار حتى جاءبه فاقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فاخذت الدراهم منه فدفعتها اليه وقلت له اذا كان غد فسر الى منزلي ثم مضيت فقلت ما أحدث المهدي بشيء أظرف من هذا فاتيته فاستأذنت عليه فأذن لي فلما دخلت عليه حدثته فاعجبه فامر لي بالفي دينار وقال أدفعها الى الاعمى فنهضت فقال أجلس اعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون الف درهم فامسك وجعل يحادثني ساعة وقال امض الى منزلك واذا بخادم معه خمسون ألفاً وقال يقول لك أمير المؤمنين أقض بها دينك قال فقبضت ذلك منه فلما كان من الغد أبطأ علي الاعمى وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال فكرت البارحة في أمرك فقلت يقضي في دينه ثم يحتاج الى القرض أيضاً ثم أمرت لك بخمسين الف درهم اخرى قال فقبضتها ثم انصرفت فجاءني الاعمى فدفعت اليه الالفين وقلت له قد رزق الله تعالى بكرمه وحسن معاملته باسداء المعروف اليك باضعاف ذلك ثم أعطيته شيئاً من مالي وجهزته وانصرف . هذا وأما اثر الصدقات وأعمال الخير في دفع القضاء وتنسئة الاجل والزيادة في مدته فظاهر اما الاول ففي الحديث تداركوا الغموم الماضية والهموم المستقبلة المتوقعة بالصدقات يكشف الله عنكم ضركم وينصركم

على عدوكم ويثبت عند الشدائد اقدامكم. وعنه صلى الله عليه وآله «مامن عبد مسلم يكسو مسلماً ثوباً الا كان في حفظ الله ما دام منه رقعة». وقال صلى الله عليه وآله داووا مرضاكم بالصدقة. وقال أمير المؤمنين عليه السلام الصدقة دواء منجح وقد روي عنه عليه السلام ايضا انه قال انما امهل الله تعالى فرعون في دعواه لسهولة اذنه وبذل طعامه ويقال كان في وقت الغداء وفي وقت العشاء يأمر بفتح الابواب فتحضر الايتام والفقراء والغرباء على مائدته ولهذا أمهله الله سبحانه أربعمائة سنة وفي مثل ذلك قوله سبحانه وتعالى « وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض » ومن آثار الصدقة في دفع البلاء ما حكي ان سائلا وقف على امرأة وهي تتعشى فقامت ووضعت لقمة في فيه ثم بكرت الى زوجها في مزرعته فوضعت ولدها وقامت لحاجة لها فاختلسه الذئب فوقفت المرأة وقالت يارب ولدي فأتى آت فأخذ بعنق الذئب واستخرج ولدها من فيه بغير اذى ولا ضرر وقال لها هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل. ومن عجيب أمر الصدقة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان ملكا من بني اسرائيل كان ينادي مناديه في كل بلدة ان لا يتصدق احد من بلده الا قطع يده وازعجه عن بلده فتصدقت امرأة برغيفين لفقير فأخبر أمير البلدة فأمر بقطع يديها وأخرجت ومعها طفل فدنت من نهر لتشرب فسقط طفلها في النهر فبقيت مبتلات فاذا برجلين قالا لها يا أمة الله ماتقولين ان يرد الله تعالى عليك يدك وولدك فقالت انى لي ذلك قال فدعا الله فرد عليها يدها والولد فاقسمت عليهما من أنتما قالا نحن الرغيفان. وروي عن عيسى على نبينا وعليه الصلاة السلام انه كان جالسا مع الحواريين فمر عليهم رجل يحطب فقال عيسى عليه السلام لم يبق من عمر

هذا الرجل الابياض هذا النهار فلما كان من غد مر عليهم الرجل وهم جلوس وعلى رأسه حزمة حطب فقيل له ياروح الله هذا الرجل الذي اخبرتنا عنه بالأمس انه يموت في يومه فقال عليه السلام ادعوه لنا فدعى اليه فلما جاء قال للرجل ضع الحزمة من على رأسك فوضعها وقال عيسى عليه السلام لاصحابه فتشوا هذه الحزمة ففتشوا فوجدوا فيها ثعباناً عظيماً وفي فمه حجر قد سد حلقه فقيل للرجل ما صنعت قال لما خرجت الى الاحتطاب بالامس كان عندي رغيف خبز هو قوتي فوجدت سائلا فآثرته على نفسي بالرغيف فقال عيسى عليه السلام هذا الحجر هو الرغيف الذي تصدق به وفي الآثر ان رجلا بعث ولده في تجارة فمضى عليه شهر ولم يقف له على خبر فتصدق برغيفين وارخ ذلك اليوم فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما رابحا فسأله هل أصابك بلاء قال نعم غرقت السفينة في وسط البحر وغرقت انا واذا بشابين اخذاني وطرحاني على الساحل وقالا لي قل لابيك هذا برغيفك لو تصدقت بزيادة ومن آثار الصدقات واعمال الخير في توسعة الرزق وتنسئة الاجل معاً على ما حكاه بعض المؤرخين ان رجلا صالحاً كان في بني اسرائيل وكان فقير الحال جداً فشكى حاله الى نبي زمانه فأوحى الله تعالى اليه ان قل لفلان العبد الصالح اني قد جعلت نصف عمرك الباقي غنياً ونصفه فقيرا فان اختار ان يكون غنيا في الشباب اغنيناه فيه وافقرناه في الشيخوخة وان اختار ان يكون غنياً في الشيخوخة اغنيناه فيها وفقرناه في الشباب وقل له انه قد بقى من عمرك ثلاثين عاما فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل بما اوحى الله اليه فاختار الرجل الغني اولا فاعطاه الله فجعل اذا أخذ التراب صار ذهباً فاكثر في الصدقات وفعل الخيرات وكلما زاد خيره زاد في صدقاته حتى جاوز الثلاثين الذي أوعد الله بموته

بها وكلاها في غنى وحسن حال الى ان بلغ الثمانين ومات. هذا والاخبار والآثار الواردة في أثر الصدقات لو اردنا أحصاؤها لم يسعها كتابنا هذا فلنقتصر على ما أوردناه ففيه الكفاية. (السبب الثالث) من أسباب الزيادة صلة الرحم وهي مشاركة ذوي اللحمة في الخيرات التي تكون في الدنيا وهي اخص من الصدقة قال رسول الله صلى الله عليه وآله «الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان وأما» توصلة الرحم في توسعة الرزق وتنسئة الاجل بمقتضى الاخبار المروية عن الصادقين فعظيم قال رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الله تعالى انا الرحمن وهذه الرحم شققت لها أسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتة وقال صلى الله عليه وآله من سره ان ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه» وفي رواية اخرى من سره ان يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فاليتق الله وليصل رحمه وقال صلى الله عليه وآله ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم حتى ان اهل البيت ليكونوا فجاراً فتنموا اموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم. وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال صلة الارحام تثمر الاموال وتنسي في الاجال وروى عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال من صدق لسانه زكى عمله ومن حسنت نيته زيد في رزقه ومن كثر بره باهل بيته زيد في عمره ومن هذا قال بعض العلماء صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الاعمار وتكثر النشب وتشرف النسب وعن كعب الاحبار قال مكتوب في التوراة ابن آدم اتق ربك وابرر بوالديك وصل رحمك يسر الله عليك يسرك ويصرف عنك عسرك ويمد لك في عمرك. وحكى ان رجلان دخلا على داود عليه السلام فأخبره ملك الموت عليه السلام ان أحدهما يموت بعد سبعة أيام ثم رآه داود عليه السلام

بعد مدة فسأل ملك الموت عنه فقال انه لما خرج من عندك وصل رحمه فزاد الله في عمره عشرين عاماً وقال بعض العلماء ان العبد يبقى من عمره ثلثة ايام فيصل رحمه فتصير ثلثين سنة وايضا يبقى من عمره ثلثون عاما فيقطع رحمه فتصير ثلثة ايام هـذا وما مر في الشكر والصدقه ينبهك على تغير ما هو في لوح القضاء من الاجال والارزاق وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وجوها منها وهو احسنها انه يزيد في العمر والرزق وينقصها ويمحو الشقاوة ويثبت السعادة وهـذا التأويل رواه جابر بن عبد الله الانصاري عن النبي صلى الله عليه وآله فان قيل قد حف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم المحو والاثبات يقال في الجواب يمحو ما سبق في علمه انه يمحوه ويثبت ما سبق في علمه انه يثبته وقال بعض المفسرين قال المتكلمون والحكمة فى اثبات الحوادث في اللوح المحفوظ ان تعلم الملائكة ان الله سبحانه علم بجميع المعلومات فعلى هذا عنده كتابان أحدهما الذي كتبه للملائكة وذلك محل المحو والاثبات والثاني هو اللوح المحفوظ الذي لايتغير مكتوبه ولا ينظر فيه الاالله تعالى كذا قيل والتحقيق ان يقال ان هناك ارادة ومشيئة وما كتب في لوح القضاء عبارة عن الارادة واطلع على ذلك ملائكته وأنبيائه ومن اختصهم من أوليائه واليه الاشارة بما ورد في الحديث. عندنا علم ماكان وما يكون الى يوم القيامة. وقول أمير المؤمنين لولا آية من كتاب الله سبحانه لاخبرتكم بما

(١) حيث ان بحث المحو والاثبات من تعليقات علم الكلام والحكمة الالهية وليست من غرضنا هنا لانه موضوعنا في الاخلاق والسياسة الانسانية فلنقتصر على ماذكر

عبد المجيد

كان وما يكون. الحديث اشارة الى قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت الاية وأما المشيئة فاختص بها دونهم وهي عبارة عن اقتضاء المحو والاثبات وهما تابعان لوقوع الاسباب المقتضية للسعادة والشقاوة والزيادة والنقصان في الآجال والارزاق على ماهو مقدر ومكتوب في لوح القضاء وقد سبق في علم الله وقوع هذه الاسباب فالمشيئة سابقة على الارادة من جهة علم الله سبحانه بوقوع الاسباب المقتضية لها ومتأخر عنها من جهة المحو والاثبات تابع لوقوع الاسباب وهو متأخر عن الارادة فالمحو والاثبات يتواردان على الارادة التي هي عبارة عما في لوح القضاء بتوارد الاسباب والغرض من هذه المقالة تأيد ماعفوناه من تأثير الاسباب في تغيير ماكان عليه الامر في القضاء والقدر وهو واضح بعد ماعرفت ماأوردناه في الاسباب الثلاثة ويؤيد ماورد في الحديث ان الصدقة لترد القضاء وقدأبرم ابراما ومن الواضح ان الصدقة صلة بالنظر الى قوله تعالى انما المؤمنون أخوة والصلة صدقة وزيادة وسيأتي مزيد تحقيق لهذا المعنى عند الكلام على السعي وتأثيره في القضاء والقدر فلنعود الى ما كنا فيه من ثمرة صلة الرحم فانها لم تزل جامعة لاشتات الصلاح مؤذنه باسباب النجاح ويعجبني ايراد كلام لبعض العلماء الاعلام في هذا المقام وهو الشيخ ميثم البحراني فانه ذكر من فوائد صلة الرحم أمرين احدهما كونها مثراة في المال وذلك من وجهين أحدهما ان العناية الالهية قسمت لكل حي قسماً من الرزق يناله مدة الحياة الدنيا وتقوم به صورة بدنه فاذا أعدت شخصاً من الناس للقيام بامر جماعة وكفلته بامدادهم ومعونتهم وجب في العناية ارزاقهم على يده وما يقوم بامدادهم بحسب استعداده سواء كانوا ذوي ارحام أومرحومين في نظره حتى لو نوى

قطع أحد منهم فربما نقص من ماله بحسب رزق ذلك المقطوع وذلك معنى كونها مثراة في المال . الثاني ان صلة الرحم من الاخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكل فيكون ذلك سبباً لامداده ومعونته من ذوي الامداد والمعونات كالملوك ونحوهم فكانت صلة الرحم توجب تعاطف ذوي الارحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الاعداء ابعد وفي مظنة تأخيره وطول عمره . الثاني ان مواصلة ذوي الارحام توجب تعلق هممهم وهممهم ببقاء واصلهم وامداده بالدعاء ويكون دعائهم له وتعلق هممهم وهممهم ببقائه من شرائط بقاءه وانساء أجله فكانت مواصلتهم منساة الاجل من صلة الرحم اذ صلة الرحم لا توصل الا بهما قيل لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له فاوحى الله اليه اتتعاظم ان تقوم لابيك وعزتي وجلالي لا اخرجت من صلبك نبيا . واما كون بر الوالدين منساة للاجل فظاهر اذ اقل الامور ان يكون صلة رحم وزيادة واعزب مايورد في هذا المورد مانقل في بعض التواريخ ان رجلا كان يكره الموت ويحب الحياة فسمع أن مدينة كذا يطول أعمار اهلها طولا كثيراً وهواءها طيب وماؤها عذب وترابها نقي فباع متاعه وعقاره واملاكه وسار الى تلك البلدة فلما دخلها رأى اكثر اهلها مشايخ فصدق ما قيل له وتأمل احوال البلدة فرآها كما قيل طيبة التربة عذبة المياه صحيحة الاهوية كثيرة الخيرات رخصية الاسعار حسنة أخلاق اهلها عادلين في سيرتهم وكل امورهم حسنة جميلة غير شيء واحد انكره منهم ولم يدر ما السبب فيه فلما أنس بأهل البلد وأنسوا به سأل رجلا منهم كان صادقه وآنس به فحدثه عن قصته وقال مالي أرى شبانكم يظهر على وجوههم الكآبة والحزن

والغم ولا نشاط لهم ولا فرح ولا انبساط كما تكون عادة الشبان في سائر البلدان فلم يجبه غير ان قال له قم معي الى دارنا ونمالح وأجيبك عن مسألتك فسار معه حتى دخلا منزله فرآها داراً حسنة وفيها من النعم السابغة ما اعجبه فادخله مجلسا حسنا فرأى فيه شيخا قاعداً قد علاه الكبر وضعف عن الحركة وعنده مشائخ يتحدثون معه فقال له من هـذا الشيخ منك قال والدي قال فكم سنه قال ربما جاوز مئة سنة فجعل الرجل يتأمله ويتعجب من سنه وامره فقام معه وفتح حجرة فاذاهم بشيخ نائم على سرير وحوله مساند ومواسد خوفا من ان يقع منه قد انحنى ظهره وغاصت رقبته في صدره وركب حاجباه على عينه وله انين وسعال وهو مغطي فسقاه الرجـل وقدم اليه مزودة وقعد عنـده حتى اكل وشال قصرية من تحته التي يتغوط فيها وغير ثيابه وغطاه كما كان فسأله عن سنه فقال نحواً من مائة وخمسين سنة فبقي ذلك الرجل متعجباً فقال له صاحبه اتريد ان ترى أباه فقال او يعيش فقال نعم قال ارينه ففتح باب خزانة اخرى فاذا برف عليه صورة ملحفة فحطها من الرف فاذا هو شيخ كبير نائم كانه صبي في المهد قد بطلت حواسه وسكنت حركاته الا اليسير فلما احس بهم فتح فاه كما يفتح الطاير الصغير فاه فصب الرجل في حلقه حريرة كان قد اتخذها له وسقاه شرابا ونظف ما تحته وغير ثيابه وبخره وغطاه وترك فوقه مكية فسأله عن المكية فقال مخافة عليه من الفار والجرذ ان تأكل اطراف اصابعه ثم خرجا وقدم له طعـاما فـلم يأكل منـه شيئـا ولا يشتهيه فقـال له لم لا تأكل فقال قـد نغص على فكري في هؤلاء الثلاثة المشايخ فقال له هذا الذي ذهب بنشاط شبابنا فما من دار الا وفيها شيخ او شيخان اوثلاثة

وكل من رأيت من اهل هذا البلدة فمثلي بمثل ما انا فيه وكان هذا البر هو السبب في طول اعمار اهل هذه المدنية لان هؤلاء المشايخ كانوا لآبائهم مثل ما نحن لهم الآن في البر وزيادة . وهذه الحكاية كافية في بيان تأثير بر الوالدين في منساة الاجل بقي تنبيه على امرين (الاول) ان بر الوالدين في مماتهما يقوم مقام برهما في حياتهما فقد روي عن رسول الله انه جاءه رجل من بني سلمه فقال يارسول الله هل بقي علي من بر ابوي شيء ابرهما به بعد وفاتهما قال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما. وقال صلى الله عليه وآله ان من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه بعد ان توفى الاب (الثاني) ان نية الخير والصلة والصدقات تقوم مقام فعلها في التأثير بسعة الرزق وتأخير الاجل وقد ورد على نياتكم ترزقون وقال امير المؤمنين رزق المرء على قدر نيته . وقال الصادق عليه السلام من حسنت نيته زيد في رزقه. هذا ماينبغي التنبيه عليه من النعم والمهمات المقصودة واسباب نقصانها وزيادتها وهي كالمقدمة للسياسات العقلية وبعد فهذا اول الشروع في السياسات

(الروض الثاني)

في التحرز والتوقي عن التفويت والتضيع والافساد لما لا ينبغي تفويته وافساده من المهمات العقلية والامور المحموده في نظر الشرع والعقل والعرف اعلم ان الاسباب المقتضية لضياع الشيء أما اهماله أو اقرانه بما يفسده أو وضعه في غير موضعه ومنه صرفه فيما لا يليق به وبذله في غير ماهو له والافراط والتفريط فيه فهذه أسباب أربعة وهي الاهمال والاقران بما يفسده والمخالفة في الوضع والاستعمال والافراط والتفريط فالكلام فيها وتوضيحها

يقع في أربع مقامات

(المقام الأول)

في اهمال الشيء وهو السبب الكلي لضياعه وتفويته وقد مر أكثر ذلك في فصول الاحتياط كالتهاون بالامور المحقرة القابلة للزيادة وكالغفلة عن ضياع العمر النفيس ولنقتصر هنا على مثلين فيهما ايضاح المقصود وهما على مايحكي انه خرج تاجر من التجار الى بعض الامصار لكي يستوفي دين له على الناس وبعد ان قبض ماقبضه واجل ماأجله منها عزم على الرجوع الى المدينة فتأهب وجمع المال الذي استوفاه وخرج ثم ركب فرسه وشد خرج المال ورائه وقفل راجعا الى وطنه وعند الظهر نزل يستريح في فندق بجانب الطريق ثم لما أراد الركوب أمر الخادم في الخان فاخرج الفرس وقال له ياسيدي ان نعل الرجل اليسرى متخلخل وقد سقط منها مسمار فهل لك ان تصلحه فقال التاجر لابأس فما أظن النعل يسقط قبل الوصول واني الآن مستعجل فلا أحب ان اعتاق ثم سار وعندالمغرب نزل في فندق آخر ولما أصبح جاء اليه الخادم بالفرس وقال له ياسيدي ان نعل الرجل اليسرى متخلخلا يكادان يسقط فهل ادعو البيطار لها فقال التاجر دع النعل وشانها فلم يبق عليّ سوى مسافة ستة أميال من الطريق ثم ركب فلم يبعد كثيراً حتى ابتدأ الفرس بالعرج ثم بعد قليل جعلت تعثر وتقع وتقوم الى ان عثرت مرة فانكسرت ولم يقدر بعد ذلك على النهوض وعند ذلك اضطر التاجر ان يترك فرسه في الطريق ويحمل خرجه على كتفه ويقطع باقي الطريق على رجله وجعل يندب سوء حظه ويلوم نفسه قائلا كل هذا جاء علي بسبب اهمالي فاني لو وضعت مسمارا بدل المسمار الذي سقط اولا لتخلصت من هذا

العذاب كله وربحت فرسي وما زال يقع تارة ويقوم اخرى حتى بلغ المنزل بعد التعب الشديد (الثاني) كان فلاح اسمه يونس اعتاد على اهمال اموره وكان له باب يدخل منه الى البستان ولكنه لم يوصدولا زلاج له وكانت دواجنهم كثيراً ماتخرج فيردوها أهله والمرأة تلح عليه بان يعمل زلاجا للباب لدفع هذه الاتعاب تهاونا بالامر فخرج يوماً غزال لهم من ذلك الباب الى البستان ثم جري الى الغاب فخشى الفلاح ان يذهب الغزال فجري خلفه وترك حصانه بلاربط وكانت امرأته حينئذ تكوي الثياب في المطبخ فلما رأت ذلك تركت عملها واسرعت وراء زوجهاولما رأتها ابنتهاوكانت تطبخ تركت طبخها وتبعت امها وخرج صبيانهم خلفهم يعدون ومن شدة عدوهم سقط واحد منهم فانكسرت رجله ورجع الرجل وترك الغزال وحمل ابنه الى البيت ورجعت المرأة وابنتها ولما وصلوا وجدوا الطبيخ قد احترق وانصب اكثره على الارض من حدة الغليان وان قميصين كانا معلقين فوق النار ليجفا قد احترقا وان الفرس لما بقى بلا ربط رفس المهر فكسر رجله واما الولدالذي كسرت رجله بقى مطروحافي البيت اسبوعين فخسر الفلاح بسبب اهماله لزلاج الباب هذه الخسارة الكلية ولو تداركه لاندفعت هذه الامور كلهاوهذه احدثمرات الاهمال للامورولقد احسن من قال في ذم الغفلة والاهمال

اذا أهملت أمر العبد يوما وقصرت العليق عن الحمار
توقف في المسير أبو زياد وقام العبد يجري للفرار

ومن هذا الباب قولهم الصنيعة ان لم تتعاهدها ضاعت وقول بعض الالباء

اذا اهملت اول كل أمر ابت اعجازه الا التواء
وان داويت ذنباً بالتناسي وبالنسيان اخطاك الدواء

فكل امر اذا اهمل لايؤمن فساده او افساده لشيء آخر وان اهملت الحال بين المتناسبين والاقارب ثقة بلحمة النسب واعتماداً على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة الباغض فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعداً ومن اجل هذا امر الله سبحانه بصلة الارحام واثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هي الرحم التي أمر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها واذا عرفت هذا فتدارك الاهمال بامرين التفقد والمحاسبة أما التفقد فلكل أمر لا يؤمن من اهماله ضياعه أو فساده اوتغيره عما هو عليه كالاخوان وأحوال النفس واشباه ذلك ومن التفقد للاخوان قول امير المؤمنين عليه السلام قال. اياك ان تهمل حق اخيك اتكالا على ما بينك وبينه فليس لك بأخ من اضعت حقه ومثله ما قال عليه السلام. في خبر آخر اياك ان تغفل عن حق اخيك اتكالا على واجب حقك عليه فان لاخيك عليك من الحق مثل الذي لك عليه وقال عليه السلام اعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. ومن الحكم المنثورة من عجز عن اكتساب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم ومن الحكم المنثورة من هجر أخاه بغير ذنب كان كمن ذرع ذرعاً ثم حصده قبل اوانه وكان يقال اضاعة الحقوق داعية العقوق ومن هذا النحو قول الشاعر هذا الشعر

اذا خنتم بالغيب عهدي فما لكم ... تدلون ادلال المغيب على العهد
صلوا وافعلوا فعل المدل بوصله ... والا فصدوا وافعلوا فعل ذي الصد

فيجب عليك متى حصل لك صديق ان تبالغ في التفقد عن احواله ولا تستهين باليسير منها ومتى اهملت انتقض حبل المودة وانتكست قوته ولا يختص حسن

التفقد بالاخوان بل هو مطرد في كل مايختص من الاهل والعيال فيقال ينبغي للعاقل
ان لا يغفل عن التماس ما في نفس اهله واخوانه وولده عند كل امر وفي كل لحظة
وكلمة وعند القيام والقعود وعلى كل حال ومثل ذلك التفقد عن المركوب والملبوس
والمأكول والمسكن وغير ذلك من الضروريات فانها متى أهملت ولم تراع مراعاة
متصلة فسدت وانتقضت ومثلها المحفوظات العلمية مالم تتعاهد بالتذكار غلب
عليها النسيان وقد قيل آفة العلم النسيان فما لم يتعاهد اندرس وقد قال أمير المؤمنين
عليه السلام «من لم يتعاهد علمه في الخلاء فضحه في الملاء» ومنه قولهم اسرع
فقداناً تسرع وجداناً هذا في المتعلقات الخارجية وأما الامور الداخلية فأهم
لاسيما مالم تشاهد بالعين على كل حال كالوجه والبدن وقد روت بعض
ازواج النبي صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره
نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر في المرآة ويسوي شعره ولحيته ثم
خرج اليهم فقلت يارسول الله وانت تفعل هذا فقال نعم اذا خرج الرجل
الى اخوانه فليحملن نفسه الحديث . قال بعض الخلفاء لرجل دخل عليه فرأى
في وجهه مايكره منه مما يمكن ازالته ما يمنع احدكم اذا خرج من منزله ان يتعاهد
اديمة وجهه فعلى العاقل ان لا يهمل اموره ولا ما يتعلق به فالخارجية يتفقدها
والداخلية يراعيها ويراقبها كالتفقد للاخوان بالزيارة والارحام بالصلة والاهل
بما يحتاجون اليه والضروريات باصلاحها وازالة المفاسد عنها وهي المسكن
والملبس والمآكل وغير ذلك والالتفات لما هو ملزوم به من الله كأداء المفروض
وما التزم به للناس كقضاء دين او وعد واشباهه والتيقظ لعدوه بالتحرز
عنه واهم الجميع مراقبة احوال نفسه وبدنه بازالة مايعاب به عليه منها كما عرفت
من تفقد اديمة الوجه هذا في التفقد والتعاهد والمراقبة وأما المحاسبة فأهمها

محاسبة النفس . قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد»

وهذه اشارة الى المحاسبة على الاعمال الماضية وقال أمير المؤمنين عليه السلام من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر وقال عليه السلام ما احق بالانسان ان يكون له ساعة لا يشغله عنها شاغل يحاسب فيها نفسه فينظر فيما اكتسب لها وعليها في ليلها ونهارها وقال عليه السلام . جاهد نفسك وحاسبها محاسبة الشريك شريكه وطالبها بحقوق الله مطالبة الخصم خصمه فان اسعد الناس من انتدب لمحاسبة نفسه . فينبغي للانسان ان يكون له ساعة من الليل او النهار يحاسب نفسه فيها على كل شيء عمله او تكلم به فيعرضه على لسان العلم فما كان عن خير حمد الله عليه وسأله القبول وما كان من غيره نزع عنه بالتوبة النصوح مع وجود الندم والاقلاع فان وجد في قوله أو في فعله شيئاً تعمرت به ذمته في حق احد من المسلمين اوغيرهم فلا بد له ان يتحلل منه لانه ليس للمريض انفع من الحمية ثم الدواء بعدها واصل الحمية ورأسها تخليص الذمة من حقوق المخلوقين ولا يتميز ذلك في الغالب الا بمحاسبة النفس ووقوفها عند كل فعل وقول واعتقاد فاذا كانت له ساعة من الليل أو النهار يحاسب نفسه فيما أمكنه ان يستدرك ما فرط منه من الخلل . ومن الحكم المنثورة من آوى الى فراشه ثم لم يتفكر فيما صنع في يومه فان عمل خيراً حمد الله تعالى وان أذنب استغفر الله تعالى كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ومنها من انفق ولم يحسب هلك ولم يدر . حكي ان رجلا حاسب نفسه فحسب عمره فاذا هو ستون عاماً فحسب ايامها فاذا هي إحدى وعشرون ألفاً وستمائة يوم فصاح يا ويلاه اذا كان لي كل يوم ذنب كيف القى الله بهذا العدد منها فخر مغشيا عليه فلما أفاق اعاد على نفسه ذلك فخر مغشياً عليه فحركوه فاذا هو قد

مات رحمه الله تعالى فكيف بمن له في كل يوم عشرة آلاف ذنب ومثل ذلك ماحكى عن بعض العارفين أنه قال لولده يابني خذ على نفسك وقيد ألفاظك لا تقل لفظة الا أن تامن عاقبتها ولكن يابني هل من ذنوب قال كثيرة قال كم باليوم والليلة قال مائة قال كثير قال خمسين قال كثير قال فما زال حتى قال له يابتي واحد بالليل وواحد بالنهار قال يابني كم يكون في السنة قال سبعمائة وعشرين قال له ياولدي ان آدم أخرج من اللجنة بذنب واحد وانت ترجو دخولها بسبعمائة وعشرين في كل سنة من سنين عمرك وقال بعض الصالحين رأيت بعض الرهبان فسألته ألكم عيد قال نعم كل يوم لانعصي الله فيه فهو عيد فتاملته فاذا في كمه الايمن حصى أبيض وفي كمه الآخر حصى اسود فقلت له ماذا الحصى الابيض والاسود فقال كلما عملت نفسي حسنة أخذت حصاة بيضاء ورميتها في الاسود وكلما عملت نفسي سيئة أخذت حصاة سوداء ورميتها في الابيض فاذا كان الليل حاسبتها فان كان الابيض أكثر من الاسود علمت انها حسنات عملتها فانعمها واحمد الله تعالى واذا كان الاسود أكثر من الابيض علمت انها سيئات فارجع الى نفسي فاعاتبها واعاقبها واقطع عنها الأكل والشرب وهذا دابي معها الى ان افارقها فينبغي للعاقل الحازم ان يكون هكذا والا تراكمت عليه تبعاته وعجز عن احصاءها وثقل عليه حملها . ومما ينبغي الحاقه بهذا الباب الدقة بالحساب والالتفات الى التوزيع والتقسيم فانه أمر كاشف للاغفال والاهمال واحسن شواهده ماذكره القطب الراوندي في الخرايج والجرايح ان رجلين تغديا في سفر ومع احدهما خمسة ارغفة ومع الآخر ثلاثة واكلها ثالث فاعطاهما ثمانية دراهم عوضا فطلب صاحب الخمسة الارغفة خمسة دراهم فابى صاحب

الثلاثة فاختصما وارتفعا الى أمير المؤمنين عليه السلام فقال عليه السلام هذا أمر فيه دنائه والخصومة فيه غير جميلة والصلح أحسن فأبى صاحب الثلاثة الا بمر القضاء فقال عليه السلام اذا كنت لا ترضى الا بمر القضاء فان لك واحدا من ثمانية ولصاحبك سبعة أليس كان لك ثلاثة ارغفة ولصاحبك خمسة قال بلى قال فهذه اربعة وعشرون اثلاثا اكلت ثمانية منها والضيف ثمانية سبعة اثلاث من اثلاث صاحبك ومنك ثلثاً واحداً فلما أعطا كما الثمانية دراهم كان لك واحد ولصاحبك سبعة . ومن الوقايع التي جرت بين الحسن الصباح والوزير نظام الملك هي ان السلطان ملك شاه امر بنقل بعض الرخام من حلب الى اصفهان فأ كترى بعض أهل سوق العسكر لحمل خمسمائة رطل من الرخام جمالا من رجلين من العرب وكان لأحدهما ستة وللآخر اربعة وكان لكل منهما أيضاً خمسمائة رطل فوضعوا ذلك على جمالهم العشرة مع الالف رطل الذي كان عندهم ولما وصلوا اصفهان امر السلطان للرجلين بألف دينار وقسمها الوزير نظام الملك بينهما فأعطى صاحب الستة ستمائة دينار وصاحب الاربعة اربعمائة دينار فاعترضه الحسن في حضرة السلطان وقال قد صرفت مال السلطان في غير مستحقه ومنعت المستحق من ماله فانك قد ظلمت في هذه القسمة صاحب الستة لان حقه من الألف دينار ثمانمائة دينار وحق صاحب الاربعة مائتان ثم قرر ذلك بوجه معقدملغز فقال السلطان قل شيئاً افهمه انا فقال الجمال عشرة والاحمال ألف وخمسمائة رطل فكل جمل يحمل منه خمسين رطل فثلاثة أخماس الاحمال حملت على الجمال الستة وهي تسعمائة رطل خمسمائة منها لصاحبها ومائة للسلطان وخمسان حملت على الاربعة وهي ستمائة رطل خمسمائة منها لصاحبها ومائة للسلطان

فحمل صاحب الجمال الاربعة من مال السلطان مائة رطل فيستحق خمس الالف وحمل صاحب الستة من مال السلطان اربعمائة فيستحق اربعة اخماس الالف وهو ثمانمائة . وحكي ان رجلا ابتاع من رجل قطعة ارض بألف درهم على ان طولها مائة ذراع ثم قال خذ مني عوضها قطعتين كل واحدة طولها خمسون وعرضها خمسون وتوهم ان ذلك حقه فتحاكما الى قاض غير مهندس فقضى مثل ذلك ثم تحاكما الى حاكم مهندس فحكم بأن ذلك نصف حقه وذلك لان الارض التي طولها ستة اذرع في مئة اذا ضربت تبلغ عشرة آلاف والقطعتين اذا ضرب طول كل واحدة في عرضها تبلغ ألفان وخمسمائة ذراع واذا جمعتا كان مبلغهما خمسة آلاف وهو نصف العشرة آلاف التي هي مبلغ الارض التي مئة ذراع في مئة . وحكي ان رجلا جاء الى بعض الملوك وقال للحاجب قل للملك على الباب أخوك لابيك وامك فقال الملك لا أعرف هذا ثم قال للحاجب ائذن له فدخل فقال له الملك اي الاخوة انت فقال ابن آدم وحواء فقال ياغلام اعطه درهماً فقال الرجل تعطي اخاك لابيك وامك درهماً فقال لو اعطيت كل اخ لي من آدم وحواء ما بلغ اليك هذا وتظلم اهل الكوفة الى المأمون من واليهم فقال ما عملت في عمالي اعدل والا أقوم بأمر الرعية ولا أعود عليهم بالرفق منه فقال له واحد منهم فلا أحداً ولى منك يا أمير المؤمنين بالعدل والانصاف واذا كان بهذه الصفة فمن عدل امير المؤمنين ان يوليه بلداً بلداً حتى يلحق اهل كل بلد من عدله مثل ما لحق عنهم ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ من سواهم واذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب أهل الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين فضحك وعزله هذا ماينبغي تحريره من الامثال وعليك القياس عليها في مقايسة ما تبتلي به من

العوارض في أمورك للتوقى عن التفويت وضياع بعضهما بالاهمال لها

(المقام الثاني)

في السبب الثاني من أسباب التضييع اقران الشيء الحسن بما يفسده او اتباعه بما يذهب ثمرته . قيل في قول الله عز وجل «ولا تلبسوا الحق بالباطل» اي لاتخالطوا الصدوق بالكذب والمراد ان التخليط يضيع الصدق كما قيل في أمثال العامة يفوتك من الكاذب صدق كثير ومن هذا الباب قول بعض الحكماء ينبغى للانسان ان ينظر كل يوم في المرآة فان رأى صورته حسنة فلا يشينها بقبيح فعله وان رأى صوته قبيحة فلا يجمع بين قبح الصورة والفعل وقال في روضة المحبين كان النبي صلى الله عليه وآله يدعو الناس الى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انت امرأ قد حسن الله خلقك فاحسن خلقك ومن هذا قول بعض الالباء

ياحسن الوجه توق الخنا　　لاتفسدن الزين بالشين
وياقبيح الوجه كن محسناً　　لا تجمعن بين قبحين

وحكى ان جالينوس نظر الى شاب جميل الوجه فسأله عن شيء فاجابه جواباً قبيحاً فقال اناء ذهب فيه خل ونظر حكيم الى رجل حسن الصورة سيء الخلق فقال اما البيت فحسن واما ساكنه فردى ولبعضهم

كفى بالمرء عيبا ان تراه　　له وجه وليس له لسان

(واما الثاني) وهو اتباع الحسن بالقبيح فمنه ما ورد من نوابغ الحكم طهرت فاك المساويك فلا تنجسها بمساويك وكان بمروقاض يبكي بمواعظه فاذا طال مجلسه بالبكاء اخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول مع

هذا الغم الطويل يحتاج الى فرح ساعة ومما ينبغي ايراده في هذا المقام مورد المثل ما حكي ان يعقوب بن المهدي كان لا يقدر ان يمسك الفساء فاتخذت دايته له بخوراً يسمى المثلثة من العود والمسك وطيب آخر يقال له الهاليان وطيبتها وتانقت فيها ووضعتها في مجمرة وادخلتها تحت ذيله فلما وضعتها تحته فسافسوه منتنة قبيحة رائحتها فأفسدت رائحة المثلثة وغلبت رائحتها عليها حتى ما بقي لها اثر فقال لها يادايه هذه المثلثة ما رائحتها طيبة فقالت له فديتك كانت رائحتها طيبة فلما ربعتها فسدت فضحك من قولها • ومن هذا الباب افساد المعروف باتباعه بالمن • فقد قال سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى • وقال رسول الله صلى الله عليه اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويحبط الاجر ثم تلا الآية وقال الله • عز من قائل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • وقال امير المؤمنين عليه السلام المعروف يكدره تكرار المن به ومن غرر الحكم المن يفسد الصنيعة ويوجب القطيعة ويحقر العطايا الرفيعة • ومن الامثال المن يفسد المن • وقالوا لكل شيء آفة وآفة المعروف المن • وقال بعض العلماء من منّ فسدت صدقته فقيل كيف المن فقال ان يذكره ويتحدث به وبالجملة فالامتنان يثقل على الانسان يفسد ما وصل اليه من المعروف

من الرجال على القلوب اشد من وقع الاسنة

ولا يحسن الامتنان الا اذا وقع الكفران ولذا قال الله تعالى لبني اسرائيل لما كفروا النعمة يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم الاية وبدون الكفران لا يحسن الامتنان وهو ان لا يذكر ماصنع ولا يتحدث به

ولو تعريضا وكما يجب على مصطنع المعروف ان يؤثر كتمانه ويستعمل نسيانه
يجب ايضا على المصطنع له نشره ويتعين عليه شكره فاذا نشره فقد شكره
وكافاه وان كتمه فقد كفره وواراه فالامر في المصطنع له عكس الامر في المصطنع
فهذا يجب عليه النشر وذاك يجب عليه الستر والاضاع المعروف اذ استعمل
المصطنع الامتنان والمصطنع له الكتمان ولذا قال امير المؤمنين اذا صنعت معروفا
فاستره واذا صنع اليك فعروف فانشره فعلى من صنع اليه المعروف نشره
قال الله تعالى واما بنعمة ربك فحدث فحدث والكتمان كفران النعمة وقد
ذم الله عز وجل من كتم ما اتاه الله وقرنه بالبخل فقال تعالى الذين يبخلون
ويأمرون الناس بالبخل ، يكتمون ما آتاهم الله من فضله . وقال صلى الله عليه وآله
اذا انعم الله على عبد احب ان ترى نعمته عليه . وحدث الجاحظ عن انس
قال ركب جعفر بن يحيي ذات يوم وامر خادما له ان يحمل الف دينار وقال
سأجعل طريقي على الاصمعي فاذا حدثني فرايتني ضحكت فاجعلها بين يديه
ونزل جعفر عند الاصمعي فجعل يحدثه بكل اعجوبة ونادرة تطرب وتضحك
فلم يضحك وخرج من عنده فقال له انس رأيت منك عجباً امرت بألف دينار
للاصمعي وقد حركك بكل مضحكة وليس من عادتك ان ترد الى بيت
مالك ما قد خرج منه فقال له ويحك انه قد وصل له من اموالنا مائة الف
درهم قبل هذه المرة فرأيت في داره حبا مكسوراً وعليه دراعة خلق ومقعد
وسخا وكل شيء عنده رثا وانا ارى ان لسان النعمة انطق من لسانه وان
ظهور الصنيعة امدح واهجا من مدحه وهجائه فعلى اي وجه اعطيه اذا
كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر . فن هذه الحكاية وما
قبلها يظهر ان نشر الصنيع نوعان احدهما وهو اعلاهما اظهار الآثار والثاني

الثناء باللسان قال امير المؤمنين . شكر الاحسان من اثنى على مسديه وذكر بالجميل موليه فالشكر المتعارف هو التحدث بالنعمة وبسط اللسان بالمحمدة والتعظيم للمنعم بها والتنويه بذكره ورفع قدره وقد انعقد الاجماع على وجوب الشكر للمنعم عقلا وشرعا قال الله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) اشارة الى شكر المعروف بنشره وذكره . وفي الحديث المشهور والنبأ المأثور من ذكر معروفاً فقد شكره ومن ستره فقد كفره وقال عليه وآله الصلاة والسلام من كانت عنده نعمة فليكافيء عليها فان لم يقدر فليثن فان لم يفعل فقد كفر النعمة . وروى عنه صلى الله عليه وآله انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره وفي الحكم المنثوره الشكر وان قل ثمن النعمة وان جل . ومن اقوال الحكماء شكر النعمة قوام ونشرها قوّام وقال بعضهم من شكر معروفاً فقد احسن وانصف ومن كفره فقد اساء واخلف والخلاصة ان كفران النعمة والاحسان بتضييعه بالكتمان

(المقام الثالث)

في السبب الثالث من اسباب التضييع وهو المخالفة في الوضع والاستعمال وهو عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه واستعماله فيما هو ليس له وهذا باب طويل عريض به تعرف موازين من الاشياء المحمودة من جهة والمذمومة من جهة وبه يمتحن العاقل من الاحمق والجاهل والكلام به يقع في موضعين

(اما الموضع الاول)

فهي ذم وضع الشيء في غير موضعه اذ لا يفعل ذلك الا احمق واخرق ولا يضع الشيء في موضعه الا الكامل العاقل . قيل لامير المؤمنين عليه

السلام صف لنا العاقل قال هو الذي يضع الشيء موضعه فقيل له فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعني بذلك ان الجاهل هو الذي لا يضع الشيء موضعه فكان ترك صفته صفة له ان كان بخلاف وصف العاقل وقال عليه السلام العاقل من احسن صنائعه ووضع سعيه مواضعه ومفهوم هذا الوصف ايضا ان الجاهل من لا يحسن صنائعه ولا يضع سعيه مواضعه ثم المراد بالموضع للشيء اما نسبة الزمان او موافقة المكان او صلاحية حال الانسان ومن الاول وهو ملاحظة نسبة الزمان ما حكي ان بعض الامراء قال لحاجبه ادخل عليّ رجلا عاقلا فأتاه برجل فقال بما عرفت عقله قال رأيته يلبس الكتان في الصيف والقطن في الشتاء ومن هذا يقال ضع الامور مواضعها تضعك مواضعك ومن الباب قولهم الاحمق من سيء في غير الوقت ومن الثاني وهو ملاحظة المكان قولهم في الامثال لكل مقام مقال يعني ان لكل امر او فعل او كلام موضع لا يوضع في غيره واذا وضع في غير موضعه فسد ومن هذا الباب قول زهير بن ابي سلمى

وهل ينبت الخطي الا وشيجة   وتزرع الا في منابتها النخل

وحكي ان اعرابيا دخل المخرج فخرج منه صوت فجعل فتيان حضروه يضحكون منه فخرج وقال يافتيان هل سمعتم شيئا في غير موضعه وقال العتابي كان في دارنا سكران فقعد على مصلي فسلح فيه فاخذت بيده الى المستراح فنام فيه فقالت جاريتي ياعجبا كل شيء منه مقلوب خري حيث ينام الناس ونام حيث يخرى فيه وفي كامل البهائي ان معاوية كان يخطب على المنبر يوم الجمعة فضرط ضرطة عظيمة فعجب الناس منه ومن وقاحته فقطع الخطبة وقال الحمد لله الذي خلق أبداننا وجعل فيها رياحا وجعل خروجها للنفس راحة فربما انفلتت

في غير موضعها فلا جناح على من جاء منه ذلك والسلام فقام اليه صعصعة وقال ان الله تعالى خلق ابداننا وجعل فيها رياحا وجعل خروجها للنفس راحة ولكن جعل ارسالها في الكنيف استراحة وعلى المنبر بدعة وقباحة ثم قال قوموا ياأهل الشام فقد خرئ أميركم فلا صلاة له ولا لكم ثم توجه الى المدينة وهذا ينبهك على انه كما يكون القبيح في غير موضعه قبيح فالحسن اذا وقع في غير موضعه أقبح وهو ضياعه وفساده وينشد أبيات للسراج الوراق تناسب هذا المعنى وهي

وقالت ياسراج علاك شيب   فدع لجديده خلع العذار
فقلت لها نهار بعد ليل   فما يدعوك انت الى النفار
فقالت قد صدقت وما سمعنا   باضيع من سراج في نهار

ولعل وضع الشيء في غير موضعه فضلا عن ضياعه يكون مضراً كما قال المتنبي

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

فحقيقة وضع الأمور مواضعها ان لا توضع الشدة مكان اللين وبضد ذلك ولا السيف مكان السوط وبالعكس بل يضع كل في موضعه ومورده كما سيأتي بيانه في الموضع الثاني ان شاء الله واعلم ان المناسبة في الوضع والمخالفة فيه أمر آخر وراء الاختيار بانه نافع أو غير ضار الا ترى لو ان ملكا أعطى الاغنياء وعفا عمن استوجب العقوبة لكان قد أحسن اليهم وأنعم عليهم ولكنه وضع الشيء في غير محله وانزله عند غير مستحقه وما أشبه هذا التمثيل من اخراج الاشياء عن مواقع حدودها والانحراف بها عن مقتضى حقوقها وهذا امر تجده في المعاني اذا عدل بها عن مواضعها وقصد بها غير مقاصدها

ظهر فيها الخلل وتبين فيها النقص وقد يستثقل الاعراب في بعض المواضع كما يستخف اللحن في بعضها وذلك ان من حكى نادرة أو مضحكة واراد ان يوفي حروفها حظها من الاعراب طمس حسنها وأخرجها عن مقدارها وهكذا كل شيء وقع في غير موضعه

﴿ فصل ﴾

ومن المخالفة في الوضع صرف ماينبغي فيما لا ينبغي وهو المعبر عنه بالتبذير وهو بذل الشيء فيما لا يليق به وبعبارة اخرى بذل النفيس في الخسيس وبهذا يعرف الفرق بين الاسراف والتبذير فان الاسرف صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ماينبغي بخلاف التبذير فانه صرف الشيء فيما لا ينبغي فالاسراف تجاوز في الكمية فهوجهل بمقادير الحقوق والتبذير تجاوز في موضع الحق فهو جهل بمواقعها وكلاهما قبيحان في نظر الشرع والعقل ولكن التبذير اقبح يرشدك الى هذا قوله تعالى في تعليل الاسراف (ان الله لايحب المسرفين) وفي تعليل التبذير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) فان تعليل الثاني فوق الاول هذا في الشرع واما في الضرورة العقلية فان ضياع كل الحق بالتبذير اقبح من ضياع بعضه في الاسراف لان الاسراف على ما عرفت في تعريفه معناه وضع الشيء في موضعه وغير موضعه بخلاف التبذير فانه ضياع لكل الشيء . هذا واما الحكايات المتضمنة لذم التبذير وصرف الشيء فيما لا ينبغي فكثيرة نقل بعضها لزيادة التوضيح فمن ذلك . ماحكى ان سعد بن ابي وقاص كتب الى عمر اني اصبت صندوقا من ذهب عليه قفل من ذهب ولم افتحه فكتب اليه ان به فاني احسبه حمقة من حمقات العجم ففعل ففتحه المشتري فاصاب فيه حريراً مدرجا فجعل

يكشفه حتى افضى الى درج ففتحه فاذا فيه كتاب فأتي ببعض من يقرأه فاذا
فيه تسريح اللحية من جانب الحلق انفع من الف تسريحة الى الحلق فاستقال
المشترى فكتب بذلك الى عمر فكتب اليه عمر ان استحلفه اكان يقيل لو اصاب
فيه كنزاً واستقلناه فسئل الرجل فقال ماكنت لاقيلكم فلم يقيلوه ومن ذلك
ماحكاه ابن الجوزي في الاذكياء عن العتبي قال دخل الوليد بن مزيد على
هشام بن عبد الملك وعلى الوليد عمامة وشي فقال له هشام بكم اخذت عمامتك
قال بالف درهم فقال هشام عمامة بالف يستكثر ذلك فقال الوليد انها لاكرم
اطرافي يا امير المؤمنين وقد اشتريت انت جارية بعشرة آلاف درهم لاخس
اطرافك . ومن ذلك ما حكاه البهائي رحمه الله ان بعض اكابر البصرة بنى
داراً وكان في جواره بيت لعجوز يساوي عشرين ديناراً وكان محتاجا اليه
في توسيع الدار فبذل لها فيه مائتي دينار فلم تبعه فقيل لها ان القاضي يحجر
عليك لسفهك حيث ضيعت مائتي دينار لما يساوي عشرين ديناراً قالت لم
لايحجر على من يشتري بمائتين مايساوي عشرين ديناراً فافحمت القاضي ومن
معه جميعاً وترك البيت في يدها حتى ماتت هذا ولا تظنن ان التبذير مختص
بصرف الاموال فيما لاينبغي بل هو مطرد فى بذل كل جليل في حقير ومنه
تجاف ابي غبشان وكان سادناً للكعبة فانه باع الكعبة بزق خمر حتى ضرب به المثل
بالتجاف فقيل اخسر صفقة من ابي غبشان وتجاف سلم الخاسر فانه باع مصحفاً
واشترى بثمنه طنبوراً فضرب به المثل فقيل اخسر من سلم واين هؤلاء من
الاعرابي الذي خلا بأمرأة فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة قام عنها مسرعاً
فقالت ولم فقال ان امرءاً باع جنة عرضها السموات والارض بمقدار أصبع بين
فخذيك لقليل معرفة بالمساحة وكأن كلام هذا الاعرابي ناظر الى قول امير

المؤمنين عليه السلام المغبون من باع جنة علية بمعصية دنية وقريب من حكاية الاعرابي في المعنى بالنسبة الى التحفظ على الامر الجليل ما حكى ان بعض الزهاد اتى الى تاجر يشتري منه قميصاً فقال له بعض الحاضرين انه فلان الزاهد فارخص عليه فغضب الزاهد فقال جئنا لنشتري بالاثمان لا بالاديان وبعكس حكاية هذا الزاهد ما هو موجود في زماننا هذا من جعل علمه او دينه وسيلة على فلس واحد وبعضهم جعل رسول الله صلى الله عليه وآله كشكولا للكدية فبذل شرفه على لقمة خبز وأين تجاف أبي غبشان لما باع شرفه وشرف أبائه وابنائه بزق خمر مما يحكى عن عبد الله بن جعفر رضوان الله عليه انه جاءه عبد الله بن الزبير فقال له ان لي عليك دينا وكان الامر بالعكس اذ الدين كان له على عبد الله بن الزبير فلما قال له ذلك قال تعالى فاحسب وخذ فلما راجع عبد الله دفتره رأى الدين عليه لا له وكان مبلغه مائة الف فجاء فاخبره بان ذلك لك وعلي واني اشتبهت فقال له عبد الله بن جعفر ذاك اليك ان شئت وفيت وان شئت اسقطناه لك فقال انا املك ارضاً تساوي ذلك فقال الاختيار بيدك قال فخذ نصفها واترك لي نصفاً فقال قبلنا ما اعطيت فاعطاه النصف الغامر منها وابقى لنفسه العامر فقبل منه أيضاً وصلى عبد الله بن جعفر يوماً في تلك الارض الغامرة ودعا الله بأن ينبع له عيناً فيها فنبعث له عين تحت مسجده فلما سمع عبد الله بن الزبير جاءه وقال له اريد منك ان تأخذ ارضي وتعطيني ارضك فقال له قد قبلنا منك جميع ما أردت وما اقترحت الا كرامتنا من الله لانهبها ولو ملئت الارض ذهباً هذا والمقصود بيان ان بيع الجليل بالحقير اعظم قبحاً من التبذير في الاموال ومن هذا ما حكى عن مصعب بن الزبير انه لما ولى العراق جلس يوماً لعطاء الجند وأمر مناديه

فنادى اين عمر بن جرموز وهو الذي قتل أباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد في الارض فقال او يظن الجاهل اني اقيده بأبي عبد الله فليظهر آمناً ليأخذ عطاء موفراً فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومن هذا المعنى ايضا حديث زين العابدين عليه السلام مع يزيد لعنه الله لما صب الاموال على الانطاع وقال له خذ هذه الاموال وهبني دم ابيك فقال له زين العابدين عليه السلام والله لو ملأت لي الدنيا من تخومها الى عنان السماء ذهباً وفضة ماوهبتك قطرة من دم جون وهو عبد أسود فكيف تريد ان اهبك دم ريحانة الثقلين الحديث واعظم التبذير قبحاً بيع الدين بالدنيا قال أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا دار ممر الى دار مقر والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فاوبقها ورجل ابتاع نفسه فاعتقها قال عمر بن عبد العزيز يوماً لجلسائه اخبروني من احمق الناس قالوا رجل باع آخرته بدنياه قال أنبئكم باحمق منه قالوا بلى قال رجل باع آخرته بدنيا غيره ولقائل ان يقول له ان ذاك باع آخرته بدنياه أيضاً لانه لو لم يكن له لذة في بيع آخرته بدنيا غيره لما باعها واذا كان له في ذلك لذة فاذن انما باع آخرته بدنياه لان دنياه هي لذته وقال بعض العارفين عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشد بعضهم

عجبت لتباع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين اعجب
واعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين اعجب

واذا عرفت هذا فالحازم من ميز مابين الفاني والدائم وباع الفاني بالدائم قال أمير المؤمنين عليه السلام الرابح من باع الدنيا بالآخرة واستبدل بالآجلة عن العاجلة وقال عليه السلام العاقل من هجر شهوته وباع دنياه بآخرته

كما مر من حديث الاعرابي مع المرأة وقال عليه السلام العاقل من غلب هواه ومن لم يبع آخرته بدنياه

(تتمة)

ومن التبذير صرف الشيء فيما لافائدة فيه وهو اقبح من صرفه فيما لايليق به لان مالايليق قد يكون فيه فائدة ولكن هي أقل من المصروف فيها واما هذا فمجرد عن الفائدة فهو أقبح . ومن الامثال لهذا المعنى على مازعموا ان رجلا كان له صنم في بيته يعبده ويذبح له كل يوم ذبيحة حتى أفنى عليه جميع ما كان يملكه فشخص له الصنم أخيراً وقال لاتفني مالك علي ثم تلومني الى آخر هذا وليس تبذير أموال عابد الصنم باعظم قبحاً من تضييع الايام على الهوى وصرفها في الملاهي التي لاتجدي نفعا فمن الكلمات المنسوبة لامير المؤمنين عليه السلام من امضى يومه في غير حق قضاه أو فرض اداه او مجد بناه او حمد حصله اوخير اسسه اوعلم اقتبسه فقد عق يومه وقال بعض الادباء لائما لنفسه ومتاسفا على امسه

قد صرفنا العمر في قيل وقال ... يانديمي قم فقد ضاق المجال

وقال الآخر مثل ذلك

اليس من الخسران ان لياليا ... تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وقال آخر ايضاً

ياصارفا عمره من غير فائدة ... انفقته مسرفاً باللهو والهزل

فمن اخسر صفقة ممن يضيع في الملاهي وقتا لايعود او يصرفه في معاصي المعبود ومن اربح ممن حفظ اوقاته وتدارك مافاته قال امير المؤمنين عليه السلام العاقل من لايضيع له نفسا فيما لاينفعه ولايقتني مالايصحبه

وقال عليه السلام احفظ عمرك من التضييع له في غير العبادة والطاعات وقال عليه السلام احذر ضياع العمر فيما لا يبقى لك ففائته لا يعود ومن التبذير ايضا صرف الشيء في غير ما هو له واستعماله فيما ليس له وينبهك على ذلك ما حكى ان سقراط الحكيم كان قليل الاكل فسئل عن ذلك فقال انما آكل لاعيش لا لاعيش لان آكل واحسن منه تنبيها قول امير المؤمنين ان الله تعالى جعل الدنيا لما بعدها وابتلى فيها اهلها ليعلم ايهم أحسن عملا ولسنا للدنيا خلقنا ولا بالسعي لها امرنا وانما وضعنا فيها لنبتلي فيها ونعمل فيها لما بعدها وقوله عليه السلام في حديث آخر الدنيا خلقت لغيرها ولم تخلق لنفسها وقريب من هذا المعنى قول ابي العلاء المعري

خلق الناس للبقاء فضلت ... امة يحسبونهم للنفاد

انما ينقلون من دار اعما ... ل الى دار شقوة او رشاد

وقد تبين مما حررناه من اول الباب الى هنا ان المخالفة في الوضع انواع منها صرف الشيء فيما لا يليق به ومنها صرفه فيما لا فائدة فيه ومنها استعماله في غير ما هو له وهذه اصوله وتحت هذه الانواع انواع والكلام فيها يطول فيمل والاقتصار على ما عرفت احسن

﴿ واما الموضوع الثاني ﴾

ففي بيان الاشياء المحمودة التي تحسن في مواردها وتقبح في غير مواردها كالسخاء والمعروف والعلم والحلم والرفق والصبر والصدق فان لكل واحد من هذه الامور موارد لا يحسن موقعه فيها وربما قبح وكان ضده خيراً منه فيها وان احببت التفصيل فنقول وبالله المستعان. اما السخاء وفعل

الخير والمعروف فمن الامور المحبوبة الى الله تعالى والى الناس ومن أعلى الاخلاق الحسنة في الانسان ولكن آفته التبذير وهو اذا وقع في غير موقعه وقد يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال لم يضع امرؤ ماله في غير حقه او غير معروفه في غير اهله الا حرمه الله تعالى شكرهم وكان لغيرهم ودهم ومن الحكم المنثورة السخاء خلق مستحسن ما لم ينته الى اسراف وتبذير فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيا وانما يسمى مبذراً مضيعا واذا عرفت هذا فالموارد التي لا يحسن فيها السخاء ويكون الجود فيها تبذيراً ثلاث موارد الاول منها البذل في مقام البيع والشراء فيقال التبذير هو ان يكون الرجل لايبالي فيما يشتري او يبيع او يغبن او يغبن فيبيع بوكس ويشتري بفضل وهذا كما قيل الحر يتغابن في ابتياع الحمد ولا يتغابن في الشراء والبيع وفي امثال العرب تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالاجانب اي ليس في البيع والشراء محاباة ويروى عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال ماكس عن درهمك فان المغبون لا مأجور ولا محمود وكان الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن جعفر عليه السلام يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك المال الجزيل فقيل لبعضهم تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي فقال ان الواهب يعطي فضله وان المغبون يغبن عقله وقال بعضهم انما اغبن عقلي وبصري فلا امكن الغابن منه واذا وهبت اعطي الله ولا استكثر منه شيئا وجد عبد الله بن جعفر عليه السلام يماكس في درهم فقيل له انما كس في درهم وانت تجود بما تجود به فقال نعم ذلك مالي جدت به وهذا عقلي لا اجود به وقال بعضهم لست بخب والخب لا يغبنني والكمال في الرجل ان لا يغبن ولا يغبن (الثاني) في موارد التبذير بذل الشيء لمن يشكره كاللئيم

والدني فلقد قالوا العاقل من يتخير لمعروفه كما يتخير الباذر مازكا من الارض لبذره وقال الشاعر

لعمرك ما المعروف في غير أهله　　وفي أهله الا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الدني كان عنده　　ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس في كفر الايادي وشكرها　　الى اهلها الا كبعض المزارع
فمزرعة اجدت فاضعف زرعها　　ومزدعة اكدت على كل زارع

ومن الحكم المنسوبة الى امير المؤمنين المصطنع الى اللئيم كمن طوق الخنزير تبراً وقرط الكلب دراً والبس الحمار وشيا والقم الافعى شهداً ومن الحكم المنثورة تعليم الابله ابطال للعلم واصطناع الكفور اضاعة النعمة فعليك بارتياد الموضع قبل الاقدام على العمل . وقال بعضهم ضاع معروف واضع العرف في غير اهله . وقال بعض الحكماء لاحسرة اعظم من نعمة اسديت الى غير ذي حسب ولا مروءة .وقيل لبعضهم اي الناس اطول ندماً قال في عاجل الدنيا فصانع المعروف الى من لا يشكره واما عند الموت فعالم مفرط وقال بعض الادباء

متى تضع الكرامة في لئيم　　فانك قد اسأت الى الكرامة
وقد ذهب الصنيع به ضياعا　　وكان جزاؤها طول الندامة

هذا وقد يكون في اصطناع المعروف الى اللئام ضرر زيادة على ضياعه. وقد قال بعض الحكماء اصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام وقالوا زوال الدول باصطناع السفل . وقد تقدم من كلام امير المؤمنين عليه السلام المصطنع للئيم كملقم الافعى شهداً . وقد عبر بعضهم عن العلة تشبيهاً في قوله شعر

ارى الاحسان عند الحر ديناً　　وعند النذل منقصة وذما

كقطر الغيث في الاصداف در   وفي جوف الافاعي صار سما

وذلك على ما يقال ان الوسمي اذا وقع تفتح الافاعي في البر افواهها والاصداف في البحر تفتح فمها فما وقع منه في فم الافعى صار سما قاتلا وما وقع في الصدف صار لؤلؤاً مثمناً وكذلك الاحسان الى اللئيم والكريم فما وقع الى الكريم استحال شكراً وما وقع الى اللئيم كان كفراً واخلف ضراً وعن ذلك عبر المتنبي بقوله

اذا انت اكرمت الكريم ملكته   وان انت اكرمت اللئيم تمردا

وسئل اعرابي قوما فرق له احدهم فضمه اليه واجرى له عليه اياما ثم قطع . فقال الاعرابي

تسرى فلما حاسب المرء نفسه   رأى انه لا يستقيم له السرى

وقد ورد من امثال العرب قولهم احشك وتروثني اراد تروث علي يضرب مثلا لمن يكفر الاحسان . وروى ان عيسى علف حماراً وانه رمحه فقال اعطيناه ما اشبهناه واعطانا ما اشبهه وبالجملة فالاحسان الى اللئيم ودنيء الاصل ان لم يكن ضاراً والا كان ضائعا فيجب على العاقل ان لايضيع معروفه هذا اذا كان الموضع معلوما باللؤم والدناءة واما اذا لم يكن معلوما فالامساك لؤم ولا ينبغي ان يقيس مالم يعلم شكره او كفره على ما علم كفره فيمنعه كفر الاحسان عن الجميل والامتنان احتمالا للضياع وذلك محال لان المعروف لا يضيع عند الله ان احتمل ضياعه عند الناس . وقد قال امير المؤمنين عليه السلام لا يزهدنك في المعروف من لا يشكره لك فقد يشكرك عليه من لا يتمتع بشيء منه وقد تدرك من شكر الشاكرين اكثر مما اضاع الكافر والله يحب المحسنين . ومن غرر الحكم فاعل المعروف لا يعدم جوازيه

اذا ضعف الناس عن آدائه قوى الله على جزائه وفي مثل ذلك يقول بعض الشعراء

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه   لا يذهب العرف بين الله والناس

(وقال الرياشي)

يد المعروف غنم حيث كانت   تحملها كفور او شكور

ففي شكر الشكور لها جزاء   وعند الله ما كفر الكفور

(وقال ابو فراس الحمداني)

وما نعمة مكفورة قد صنعتها   الى غير ذي شكر تمانعني اخرى

سآتي جميلا ما حييت فانني   اذا لم افد شكراً افدت به اجرا

الثالث من الموارد بذل الشيء لمن لا يعرفه كالسفيه والاحمق والجاهل به قال بعض الحكماء من سعادة المرء ان يضع معروفه عند من يستحقه وان لم يشكره او عند من يشكره وان لم يستحقه وفي مثل ذلك يقول صالح ابن عبد القدوس شعر

لا تجد بالعطاء في غير حق   ليس في منع غير ذي الحق بخل

انما الجود ان تجود على من   هو للجود منك والبذل أهل

هذا وقد ينسب الى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ينبغي للعاقل ان يمنع معروفه عن الجاهل واللئيم والسفيه الفحاش أما الجاهل فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه وأما اللئيم فأرض سبخة لا تنبت وأما السفيه فيقول انما أعطاني فرقا من لساني وعنه عليه السلام لا خير في المعروف الى غير عروف وعنه أيضاً لا تضيعن مالك في غير معروف ولا تضعن معروفك الا عند عروف وقال عليه السلام تضييع المعروف وضعه في غير عروف وقال الحجاج لابن العرابة ما ضيع الاشياء قال مطر جود في أرض سبخة

لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها وسراج يوقد في الشمس وجارية حسناء تزف الى عنين وصنيعة تسدى الى من لايعرفها ولا يشكرها وحكي ان اعرابياًمر بقارعة الطريق فرأى جرو ذئب صغير فرحمه واخذه الى منزله وكان عنده شاة ترضع فرباه عليها الى ان كبر فعدى يوماً على الشاة فبقر بطنها وولغ في لحمها ودمها فلما رجع الاعرابي ورأى مافعل الذئب أنشد يقول

غذيت بدرها ونشئت منها فمن أنباك ان أباك ذيب

اذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

ومن ذلك ماحكى ان جماعة قصدوا صيد ضبعة فالتجأت الى اعرابي ودخلت منزله فخرج الاعرابي اليهم وبيده السيف مصلتا وقال لهم لاتتعرضوا لضيفي فانه قد استجار بي فقالوا ياهذا لا تحل بيننا وبين صيدنا فقال هذا لايكون ابداً ولا اسلمه لكم وجعل يغذيها اللبن فتجرد الاعرابي يوماً ليغتسل فلما ابصرته عريانا عدت عليه فشقت بطنه وولغت في لحمه ودمه فقيل لابن الاعرابي هي الضبعة فقال شعراً

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يجازي كما جوزي مجير أم عامر

اعد لها لما استجارت بقربه من الدر البان اللقاح الدوائر

واشبعها حتى اذا ماتمكنت فرته بانياب لها واظافر

فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يوجه معروفاً الى غير شاكر

﴿ فصل ﴾

وأما العلم فله أيضاً موارد لايحسن بذله فيها اقبحها موردان الاول بذله لمن لايعرفه كالجاهل والسفيه والوضيع روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال واضع العلم في غير اهله لمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر

والذهب وقال عيسى عليه السلام لا تطرحوا الدر تحت ارجل الخنازير يعني العلم عند الجهال وقال ايضاً على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وينشد للشافعي

ساكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي	ولا انثر الدر النفيس على الغنم
فان يسر الله الكريم بفضله	وصادفت اهلا للعلوم والحكم
بثثت مفيداً واستفدت ودادهم	والا فمخزون لدي ومكتتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه	ومن منع المستوجبين فقد ظلم

قيل لسعيد بن جبير يا أبا محمد كنت باصبهان لا تحدث وبالكوفة تحدث فقال انثر بزك حيث يعرف وفصل الخطاب لهذا الباب قول امير المؤمنين عليه السلام لا تحدث الجهال بما لا يعلمون فيكذبوك به فان لعلمك عليك حقاً بذله لمستحقه ومنعه عن غير مستحقه ولذلك قيل كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك والا وقع الانكار لتفاوت المعيار وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل اما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار فقال اترك اللجام واذهب فان جاء من يفقه وكتمته فيلجمني فقد قال الله تعالى «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم» تنبيهاً على ان حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في اعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق (الثاني) من الموردين بذله لمن لا يرغب فيه قال أمير المؤمنين لا خير في المناجاة الا لرجلين عالم ناطق او مستمع واع وقال ابن عباس لا تجب من لا يسألك وان لا تسأل من لا يجيبك وان تحدث من لا ينصت لك وان تحدث فلا تنصت لمحدثك ومن كلام لقمان لابنه يابني لا تقبل بحديثك على من

لايسمع ومن كلام بعض الحكماء الاستماع بالعين فاذا رأيت عين من تحدثه مقبلة على غيرك فاصرف عنه حديثك الى غيره والا ذهب ضياعاً .
ومن الحكم المنثورة من حدث لمن لايستمع حديثه كان لمن قدم طعامه الى اهل القبور ونقل بعض ارباب السير ان رجلا من أهل العراق حج بيت الله الحرام وغلبه النوم ليلة في المسجد فاعطى في المنام تعبير الرؤيا فلما رجع الى بلده اشتهر بذلك حتى كان الناس يجيئون اليه من البلدان البعيدة لتعبير رؤياهم فكان يصيب بتعبيره ولا يخطيء أصلا ونقل من جملة تعبيراته حكايات عجيبة غريبة فبلغ ذلك الى الوالي فطلبه واجلسه بين يديه وشرع يذكر حكايات مزخرفات ومنامات مفتريات لااصل لها كل ذلك تمسخرا به واستهزاء عليه وكان ذلك الرجل ساكتاً لم يجب أصلا فقال له الوالي بعد ما اطال الكلام لاي شيء لاتتكلم فقال أيها الامير نحن نتكلم اذا كان السائل مستفهماً راغباً لا ما اذا كان مستهزءاً ومتعنتا فاستحسن عقله وتدبيره فعززه وقرّبه .

﴿ فصل ﴾

واما الحلم فله موارد يتأكد حسنه فيها وموارد لا يكون الحلم فيها الا مفسدة وقبل بيان ذلك لا بد من تعريفه وبيان حقيقته والفرق بينه وبين العجز ثم بيان فضله وثمراته ثم بيان موارد حسنه وموارد قبحه اما حقيقته فقيل هو ترك المكافاة عند القدرة قولا وفعلا وقيل هو السكون عند الاحوال المحركة للانتقام وهذان التعريفان لايخلوان عن وصمة عدم الاطراد والانعكاس وان اردت تعريفه الجامع المانع فهو أمساك النفس عند الغضب مع القدرة على الانتقام هذا تعريفه الذي لاغبار عليه ومنه يظهر ان شرطا

هيجان الغضب والقدرة على الانتقام وهما عبارة عن وجود الداعي للنقيض وهو الانتقام وفقدان المانع عنه ولعل هذان الشرطان اعني بهما وجود الداعي وفقدان المانع لا نفس هيجان الغضب والقدرة على الانتقام يطردانهما او ما في معناهما في مفهوم كل خلق محمود كالزهد والعفة قياساً على الحلم واما الحلم فلا يتحقق بدونهما اما وجود الداعي وهو هيجان الغضب فلولاه لا معنى للحلم اذ هو كالسلب بانتفاء الموضوع وان الله سبحانه ما مدح من لا يغضب وانما مدح من كظم غيظه فقال سبحانه والكاظمين الغيظ وقال سبحانه وتعالى واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال امير المؤمنين عليه السلام الحلم لا يظهر الا عند الغضب فمن اغضب ولم يحلم فليس بحليم وفي هذا المعنى (قال بعضهم)

ليست الاحلام في حال الرضا   انما الاحلام في حال الغضب

(وقال آخر أيضاً)

وليس يتم الحلم للمرء راضياً   اذا كان عند السخط لا يتحلم

ومثل الحلم في عدم التحقق بدون وجود الداعي امور كثير كالعفة والامانة فما الداعي له لا معنى له قال عبد الله بن مسعود انظر الى حلم الرجل عند غضبه وامانته عند طمعه وما علمك بحلمه اذا لم يغضب وما علمك بامانته اذا لم يطمع وقال آخر لا تحكموا لمن ينتسب الى الحلم بالحلم حتى يظهر حلماً عند غضبه ولا لمن ينتسب الى الامانة حتى تظهر امانته عند طمعه . ومثل الحلم والامانة في عدم التحقق بدون الداعي الجود والشجاعة ايضاً . فقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاث مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب . ومثل ذلك ايضاً ما قال

لقمان ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة لا يعرف الحلم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا الجواد الا عند القلة ومن هذا قول بعضهم

ليس جود الجواد من فضل مال   انما الجود للمقل المواسي

(وقول الآخر أيضاً)

وليس يتم الجود للمرء موسراً   اذا كان عند العسر لا يتكلم

(وقول الآخر ايضا)

جهد المقل اذا اعطاك نائلة   ومكثر في الغنى سيآن في الجود

(وقول ابن الرومي مثله ايضا)

ان الذي يعطى خسيسة ماله   اذلا كريمة عنده لجواد

ومثل ذلك ايضا الصداقة والاخاء فانها لا تعرف الا عند الحاجة

(قال بعضهم)

دعوى الصداقة في الرخاء كثيرة   بل في الشدائد تعرف الاخوان

واما عدم المانع وهو القدرة فبدونها لا معنى للحلم ايضا فانه حينئذ عجز لا حلم وبذلك فرقوا بين الحلم والعجز ان الاول عن قدرة والثاني عن عدمها وقالت الحكماء ليس الحليم من اذا ظلم وعجز حلم حتى اذا قدر انتصر بل الحليم من قدر وعفى ومن هذا المعنى قول ابى الطيب المتنبي

كل حلم اتى بغير اقتدار   حجة لاجئ اليها اللئام

ومثل عدم تحقق الحلم بدون القدرة عدم تحقق الزهد ايضا بدونها فينقل من كلام افلاطون الحلم لا ينسب الا من قدر على السطوة وعفى والزهد لا ينسب الا الى من ترك بعد القدرة. ومثله ماجاء عن ارسطو ايضا امتحنوا الزاهد والحليم عند القدرة ومن غرر الحكم وفيها رائحة باب مدينة العلم

عليه السلام ليس الزاهد في الدنيا من زهد فيها وقد اعرضت عنه وابتت منه ولم تمكنه من متاعها وضاقت عليه مع اتساعها وهو مضطر الى ذلك لظهور عسرته ونفود يسرته وانما الزاهد في الدنيا من أقبلت عليه وحشدت فوائدها اليه وحسنت له في ذاتها وامكنته من لذاتها فزوى بوجهه عنها وآثر الفرار منها ومن هذا قول أبي تمام

اذا المرء لم يزهد وقد صبغت له ... بعصفرها الدنيا فليس بزاهد

وليس الزاهد في شي والذام له مع عدم القدرة عليه الا كذم الثعلب للعنقود لما عجز عنه وقال انه حامض على مازعموا في الامثال ان الثعلب نظر الى العنقود فرامه فلم ينله فقال هذا حامض فصار يضرب به المثل لكل من عجز عن شيء وذمه فيقال اعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود وحكى الشاعر ذلك فقال

ايها العائب سلمى ... انت عندي كثعاله
ذام عنقوداً فلما ... ابصر العنقود طاله
قال هذا حامض ... لمارأى ان لاينالة

وعلى هذا يقال هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنه ام لا . الظاهر لا تصح لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ومالا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه هذا ومثل الحلم في عدم التحقق بدون القدرة التواضع ايضاً وقد قال امير المؤمنين عليه السلام التواضع مع الرفعة كالعفو مع القدرة فقد تبين من هذا ان حقيقة الحلم امران وهما حال الغضب وحال القدرة ولا يتحقق الا بهما معاً والا فمع الغضب بدون القدرة عجز ومع القدرة بدون الغضب عدم والحقيقي ماكان معهما هذا تعريفه واما فضل الحلم بهذا المعنى فعظيم وقد

نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات وصرحت به السنة على السن الرواة قال الله تعالى «وان تعفوا أقرب للتقوى» وقال تعالى «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» وقال تعالى «وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم» وقال تعالى «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لنفضوا من حولك فاعف واستغفر لهم وشاورهم في الامر» وقال تعالى يخاطب نبيه «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وقال تقدس اسمه «واذا ما غضبوهم يغفرون» وقال جل وعلا «فمن عفى وأصلح فأجره على الله» وقال تبارك وتعالى مادحا من اتصف بالحلم «وعباد الرحمن يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» هذا ما تضمنته الآيات واما ما اشتملت عليه الروايات فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال ثلث والذي نفسي بيده لو كنت حلافاً لحلفت عليهن ما نقص مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله الا زاده الله بها عزاً يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب مسئلة الافتح الله عليه باب فقر. ومثل ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد الا عزاً فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله تعالى وروي ان عبداً لموسى بن جعفر عليه الصلاة والسلام قدم اليه صحيفة فيها طعام حار فصبها على رأسه ووجهه فغضب فقال له العبد والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظي فقال والعافين عن الناس قال قد عفوت فقال له والله يحب المحسنين قال انت حر لوجه الله تعالى وقد نحلتك ضيعتي الفلانية ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته للحسن عليه السلام اكظم الغيظ

واحلم عند الغضب وتجاوز عند القدرة واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة
هذه كانت شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله وشيمة أمير المؤمنين وأولاده
الطيبين الطاهرين اما شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله فظفر بمشركي مكة
في عام الفتح وعفى عنهم وأما أمير المؤمنين عليه السلام فظفر باصحاب الجمل
وقد شقوا عصى الاسلام عليه وطعنوا فيه وفي خلافته فعفى عنهم مع علمه
بانهم يفسدون عليه أمره فيما بعد ويصيرون الى معاوية اما بانفسهم أو بآرائهم
ومكتوباتهم وهذا أعظم من الصفح عن أهل مكة لان أهل مكة لم يبق لهم
لما فتحت قبة يتخيرون اليها ويفسدون الدين عندها وروى القطب الراوندي
من طريق العامة عن الاصبغ قال صلينا مع أمير المؤمنين عليه السلام الغداة
فاذا رجل عليه ثياب قد اقبل فقال عليه السلام من اين قال من الشام قال
ما اقدمك قال لي حاجة قال اخبرني والا اخبرتك بقضيتك قال اخبرني بها
يا أمير المؤمنين قال نادى منادي معاوية يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا
من سنة كذا وكذا من يقتل عليا فله عشرة آلاف دينار فوثب فلان وقال
انا ولما انصرف الى منزله ندم وقال أسير الى ابن عم رسول الله وابا ولديه
فاقتله ثم نادى مناديه يوم الثاني من يقتل عليا فله عشرون ألف دينار فوثب
آخر وقال انا فقال انت ثم انه ندم واستقال معاوية فاقاله ثم نادى منادي
معاوية يوم الثالث من يقتل علياً فله ثلاثون ألف دينار فوثبت انت وانت
رجل من حمير قال صدقت قال فما رأيك تمضى الى ما أمرت به أو ماذا
قال لا ولكن انصرف قال ياقنبر اصلح له راحلته وهيء له زاده واعطه نفقته
هذا وأما ثمرات الحلم وهو أقلها التلذذ بالعفو فقد قيل لذة العفو اطيب من
لذة التشفي لان لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ولذة التشفي يلحقها ذم الندم

ومنه ما قيل اياك والغضب فانه يؤول الى ذل الاعتذار ومنه قول الشاعر

فلربما كره العقوبة حازم كي ما يفوز بلذة الغفران

ومنها طول العمر ففي بعض الكتب المنزلة ان كثرة العفو زيادة فى العمر . واصله قوله تعالى . واما ماينفع الناس فيمكث في الارض ومنها الانتصار والعزة وقد قال امير المؤمنين عليه السلام اول عوض الحليم ان الناس انصاره على الجاهل ومنه قول المعرى

حلم الفتى عن سفيه القوم يكثر من انصاره ويوقيه من الغيل

ومنها وهو اجلها الاتصاف بصفات الله تعالى فانه الحليم الذى لايعاقب وانما الناس يعاقبون انفسهم بارتكاب المظالم بعضهم من بعض والله هو العادل في حكمه . وقيل لبعض الصوفية لم وصف الله سبحانه وتعالى بخير الرازقين فقال لانه اذا كفر عبده لايقطع رزقه. وروى انه كان في بنى اسرائيل ملك ووصف له عالم من العباد فارسل اليه واحضره وراوده على صحبته ولزوم بابه فقال له العابد ان قولك هذا حسن ولكن لو دخلت يوما بيتك ورأيتني العب مع جاريتك ماذا تفعل فغضب الملك وقال له يافاجر بجتريء علي بمثل هذا الكلام فقال له العابد ان لي ربا كريما حليما لو رأى مني سبعين ذنبا في اليوم ماغضب علي ولاطردني عن بابه ولا احرمني من رزقه فكيف افارق بابه وألزم باب من غضب علي قبل وقوع الذنب مني فكيف لو رأيتني في المعصية ثم تركه ومضى ووروده في الحديث ان مجوسيا استضاف ابراهيم عليه السلام فقال له بشرط ان تسلم فمضى المجوسي فاوحى الله اليه انا اطعمه منذ خمسين سنة على كفره فلوناولته لقمة من غيران تطالبه بتغيير دينه فمضى ابراهيم على اثره فاعتذر اليه فسأله المجوسي عن السبب فذكر له ذلك فاسلم

هذه صفة من صفات الله والسعيد من اتصف بها وجعلها ردائه وأما الموارد التي يتأكد فيها حسن الحلم من الانسان ويذم فيها الغضب والانتقام فكثيرة والذي يتعين علينا ذكره في هذا الموضع ثلاثة الاول منها الانسان الذي لايرضيك اذا غضبت عليه ولا تقدر على سوق المضرة اليه فقد يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال من غضب على من لا يقدر على مضرته طال حزنه وعذب نفسه ومنه قول الخليل بن احمد لاتماش من لايساويك ولا تجالس من لايشتهيك ولا تتكلم فيما لايعنيك ولا تغضب على من لا يرضيك ولا تشك الفقر لمن لايغنيك ومنه قول بعض الملوك ماغضبي على من أملك وما غضبي على من لااملك أي اذا كنت مالكا له فانا قادر على الانتقام منه فلم أغضب وان كنت لااملكه ولا يضره غضبي فلم أدخل الغضب على نفسى الثاني الاعتذار والاقرار اما الاعتذار فيقبح معه العقاب بل والعتاب عقلا وشرعا قال أمير المؤمنين عليه السلام من عاقب معتذرا كثرت اسائته وفي بعض الحكم ما اذنب من اعتذر ولا اعتب من اغتفر وقالوا أيضا ما اذنب من اعتذر ولا اساء من استغفر ومن درر الكلم لا يظهر الحلم الا مع الانتصار ولا يبين العفو الا عند الاعتذار وللشعراء في هذا المعنى نظم بديع وقول وسيع منه قول بعضهم

ولا تنزل بمعتذر عقابا　　　فان الذنب يغفره الكريم

ومنه قول الآخر

اذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبا　　　اليك ولم تغفر له فلك الذنب

وقال علي بن الجهم

ان ذل السؤال والاعتذار　　　خطة صعبة على الاحرار

ليس جهلا بها تكفلها الـ   حر ولكن سوابق الاقدار
أرض للسائل الخضوع وللقا   رف ذنبا مفاضة الاعتذار

وأما الاقرار والاعتراف فاعظم ايجاب لسقوط العقاب وحسن الحلم واجتناب العتاب وليس من اذنب واحتج لنفسه وجادل عن ذنبه كمن اعترف بذنبه ولام نفسه واقر بخطيئته واعترف بجريرته فانه أقرب للعفو وأرجى للرحمة وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام يستثمر العفو بالاقرار اكثر مايستثمر بالاعتذار وقال عليه السلام من اعترف بالجريرة استحق المغفرة وقال عليه السلام الندم استغفار والاقرار اعتذار والانكار اصرار ومنه مايقال توبة المذنب اقراره وشفيع المجرم اعتذاره ومن درر الكلم المذنب المقر قد ولاك عقوبته فالعفو عنه أولى ومن غرر الحكم الاعتراف يهدم الاقتراف والعدل غاية الانصاف انتهى وللشعراء في هذا المعنى مجال تتسابق به فرسانهم من ذلك قول بعضهم

اذا اعتذر المسيء اليك يوماً   من التقصير عذر فتى مقر
فصنه عن عقابك واعف عنه   فان الصفح شيمة كل حر

(وقال المتنبي ابو الطيب)

وان كان ذنبي كل ذنب فانه   محى الذنب كل المحو من جاء تائبا

« وقال آخر »

يستوجب العفو الفتي اذا اعترف   وتاب عما قد جناه واقترف
بقوله قل للذين كفروا   ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف

« تنبيهان »

الاول يقبل الاعتذار مادام للعذر مجال وذلك قبل حلول العقاب

ينبهك على ذلك ماجعله الله من امتداد وقت التوبة الى حين الغرغرة وبعدها يسد الباب ويكون زمان الثواب أو العقاب كتب يحيي بن خالد الى هرون الرشيد من الحبس رقعة يعتذر فيها اليه ويستعطفه فوقع الرشيد على رقعته قضي الامر الذي فيه تستفتيان. التنبيه الثاني ان الاعذار لتحسن في كثير من الأمور وتحمد في كثير من الاشياء وتشرع في كثير من الاحوال وتذهب الكثير من الاعتداء الا في نقض عهد او حل عقد فما اقبح العذر فيه ولا عذر وما اقرب الوزر منه ولا أجر وقال بعض البلغاء العذر يصلح في كثير من المواطن ولا عذر لغادر ولا خائن وقال بعضهم لا عذر في العذر لمخلوق ولو تكلم بلسان التصديق واعرب عن جنان التحقيق ولبعض الشعراء في هـذا المعنى

ياناكث العهد اما ترعوى	جمعت أثاماً وأوزارا
عصيت مولاك اغتراراً وقد	قدم اعذاراً وانذارا
من خان براً كان او فاجراً	لم يتق العار ولا النارا

الثالث من الموارد الذي يقبح فيها الغضب وجود أحد الاعذار العقلية او الشرعية فتوجب الاعذار ولا يحتاج معها الى الاعتذار وهي كثيرة منها عدم المعرفة او عدم العلم بالشيء ومنه قيل من قصر بك قبل أن يعرفك فلا تلمه واما عدم العلم فعذر عقلي وعن هذا عبر الاصوليون بأصل البرائة من التكاليف فيما لا نص فيه واستدلوا عليه بالادلة الاربعة اما من الكتاب فآيات منها قوله تعالى « لا يكلف الله نفساً الا ما أتاها » الاية على ان الاتيان عبارة نباء عن الاعلام كما يشعر به قول الصادق عليه السلام ان الله يحتج على العباد بما أتاهم وعرفهم ومنه قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ملقناً اياه طريق

الرد على اليهود حيث حرموا بعض مارزقهم الله افتراء عليه تعالى «قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة او دماً مسفوحاً» فيما اوحى الي محرما على طاعم بطعمه الا ان يكون ميتة او دماً مسفوحاً الاية واما السنة فاخبار منها ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم رفع عن امتي تسعة اشياء الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا عليه الخبر ومنها قوله عليه السلام الناس في سعة ما لا يعلمون فان كلمة ما أما موصولة أضيف اليه السعة وأما مصدرية ظرفية وعلى التقديرين يثبت المطلوب ومنها قوله عليه السلام انما امرؤ ركب امراً بجهالة فلاشيء عليه والآيات والاخبار في هذا الباب كثيرة ذكرنا منها ما هو الانسب في المقام وسنورد بعضا منها في البيام والاعلام المحسن للمكافاة على ارتكاب النهى بعده وأما الاجماع فيدعى من جميع اهل الاسلام بل من عامة العقلاء ان ملم يرد فيه دليل عقلي او نقلي على التكليف فالاصل فيه البرائة واما العقل فحاكم بسعة العذر لمن لا يعلم بالحكم ويشهد له حكم العقلاء بقبح مؤاخذة المولى عبده على فعل ما يعترف بعدم اعلامه أصلاحتى ان بعض العقلاء يتعمد التجاهل والتغافل في الامور تمهيداً للعذر اذا وقع منه الخطاء فيها كما حكاه ابن الجوزي في الاذكياء قال باع رجل من اهل خراسان جمالا بثلاثين الف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أم جعفر فمطله بثمنها وحبسه فطال ذلك على الرجل فاتى بعض أصحاب حفص بن غياث القاضي فشاوره فقال اذهب اليه فقل له اعطني الف درهم واحيل عليك بالمال الباقي واخرج الى خراسان فاذا فعل هذا فاتني حتى أشاور عليك ففعل الرجل فاتى مرزبان فاعطاه الف درهم فرجع الى الرجل فاخبره فقال عد اليه فقل له اذا ركبت غداً فطريقك على

القاضي فاحضروا ووكل رجلا بقبض المال واخرج فاذا جلس الى القاضي فادع عليه بما بقي لك من المال ففعل ذلك فحبسه القاضي فاخرجته أم جعفر وقالت لهارون قاضيك حبس وكيلي فمره لاينظر في الحكم فامر لها بالكتاب وبلغ حفصاً الخبر فقال للرجل احضر لي شهوداً حتى اسجل لك على المجوسي قبل وورد كتاب الرشيد فحضر فقال للرجل الذي جاء بكتاب الرشيد اليه مكانك فانا مشغول فلما فرغ من السجل أخذ الكتاب فقرأه وقال للخادم اقرأه على أمير المؤمنين عليه السلام واخبره ان كتابه ورد وقد انفذت الحكم . ومثل ذلك ماحكى عن عمرو بن العاص لما ولاه مصراً احتبس في بعض الاعوام خراجها عن معاوية فعزم على عزله عنها واراد استعمال أبي الاعور السلمي عليها وكتب الى عمرو بالتسليم فلما بلغ عمرا الخبر احضر وردان غلامه فقال له ان معاوية قدعزلنا واستعمل ابو الاعور على عموق قال له هذا كتاب امير المؤمنين قال عمرو ولو جئتنا بغير كتاب اصدقنا مقالتك قال انظر في الكتاب قال ما انا ناظر لك فيه حتى تأكل قال فدعا عمرو بالطعام ووضع ابو الاعور كتابه وعهده الى ناحية واقبل على الطعام يأكل فجاء وردان فسرق الكتاب والعهد فلما فرغ ابو الاعور من طعامه اقبل يطلب الكتاب والعهد فلم يجدهما فقال اين كتابي وعهدي قال له عمرو مه يا ابا الاعور انما جئتنا زائراً فنحسن جائزتك فاضطرب من ذلك ابو الاعور ثم صار الى ان قبل الجائزة وبلغ ذلك معاويه فضحك حتى استلقى على قفاه واقر عمرو على ما كان عليه من ولاية مصر . هذا ومن الاعذار العقلية الموجبة للاعذار الجنون وقد قال عليه السلام ولا على المجنون حرج . والغضب من فعل المجنون او قوله جنون ومكافأته مماثلة له . كما حكى انه دخل البهلول على الرشيد يوما وعنده عليان المجنون

فكلمهما فسقاه واغلظا له في القول فغضب وامر بالسيف والنطع فقال عليان
كنا مجنونين فصرنا ثلاثة فضحك الرشيد منهما وعفى عنهما واحضر الرشيد
بهلولا يوما واجلسه في صحن الدار وجلست ام جعفر حيث لايراها وعيسى
ابن جعفر جالس مع الرشيد فقال له الرشيد عد لنا المجانين فقال اولهم انا والثاني
هذه واشار الى ام جعفر فقال له عيسى يا ابن الخنا تقول لاختي قال بهلول
وانت الثالث ياصاحب العربدة فقال الرشيد اخرجوه فقال بهلول وانت الرابع
هذا وفي حكم المجنون كلما سلب عقله بعارض لا يدخل تحت الاختيار
كالمريض الذى طال مرضه حتي نقص عقله وعليه قوله تعالى « ولا على
المريض حرج » اوسلب عنه بمرور السنين عليه كالطاعن في السن وكذلك مالم تخلق
فيه غريزة العقل كالحيوان الغير ناطق او خلقت ولكن لم تكمل فيه بعد
كالصبي فهؤلاء كلهم يجمعهم عذر واحد وهو نقصان الغريزة العقلية او
فقدانها بالكلية وحينئذ الغضب على ما يصدر من المريض او الشيخ الهرم
الذي خرف او الصبي والحيوان الغير ناطق لامعنى له واما من سلب عقله
او زال لعارض اختياري كالسكران فلا يدخل معهم في هذا العذر
وكلما يصدر منه من تقصير ناشئ عن زوال العقل فغير معذور فيه لانه عن
عمد اذ هو الذي تعمد على زوال عقله الذي كان مانعاً عن صدور ذلك
التقصير فكان متعمداً على صدوره ووقوعه منه ومن الاعذار خروج الامر
عن الاختيار والغضب على انسان بسبب امر لا يدخل تحت قدرته لامعنى
له ومكافأته عليه سفه بل حماقة لاعلاج لها وقد حكى أن شقيق البلخى اشترى
بطيخة لامرأته فوجدتها غير طيبة فغضبت فقال لها على من تغضبين أعلى
البائع او على المشتري او على الزارع أو على الخالق فاما البائع فلو كان منه

لكان اطيب شي يرغب فيه واما المشتري لو كان منه لاشترى احسن الاشياء واما الزارع فلو كان منه لانبت احسن الاشياء فلم يبق الا غضبك على الخالق فاتقى الله وارضي بقضائه • وورد من امثال العرب انما نعطي الذي اعطينا واصله على مارواه ابن الاعرابي عن ابي شبيل قال كان عندنا رجل مئنات فولدت له امرأته جارية فصبر ثم ولدت له جارية ثانية فصبر ثم ولدت له ثالثة فهجرها وتحول عنها الى بيت قريب منها فلما رأت ذلك انشدت تقول

مالابي الدلفاء لا يأتينا　　وهو في البيت الذى يلينا

يغضب ان لم نلد البنينا　　وانما نعطى الذي اعطينا

فلما سمع الرجل ذلك طابت نفسه ورجع اليها . ومن هذا الباب مكتوب كتبه بعض الحمقاء الى اهله متضمناً لخرافات لايسع المقام ذكره كله ولكن نكتفي ببعض عبارات منه وهي . قد بلغني ان امرأتي حبلى من بعدي فلا تدعوها تولد حتى اجي وان ولدت قبل ذلك لايكون الا صبياً جميلا والا فهي طالق ان لم تقم بهذه الشرائط والسلام • ومن هذا الباب قيل للقمان ما اقبح وجهك قال ماكان خلق وجهي اليّ فأحسنه افتعيب هذا النقش عليّ ام على الناقش • ومن الاعذار الموجبة للاعذار القلة والاعسار وقد قال الله تعالى لايكلف الله نفساً الاما اتاها على ان المراد بالايتاء الاعطاء الموصول هو المال وقد قال سبحانه وتعالى لايكلف الله نفساً الا وسعها الايه واخذ الشاعر فقال

لا كلف الله نفسا فوق طاقتها　　ولا تجود يد الا بما تجد

وقال سبحانه وتعالى (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) وقال بعضهم معتذراً عن جوده باعساره

يرى المرء احيانا اذا قل ماله من الخير ابوابا فلا يستطيعها

وما ان به بخل ولكن ماله يقصر عنها والبخيل يضيعها

ومن امثال العرب بهذا سيئ بخل لا انا يعني ليس البخل من اخلاقي ولكن ليس في بيتي شئ اجود به . وقال بعض الادباء وما كل معذور يخل ولا كل على بخل يلام وسيأتي الكلام على هـذا المعنى بما لا مزيد عليه في المقام الثاني في انواع الزيادات المذمومة فلا نطيل هنا . ومن الاعذار الاضطرار وقد ورد عند الضرورات تباح المحذورات وقد يباح لذلك اكل الميتة اذا توقف حفظ النفس على اكلها

ومنه قول الشاعر

تلجى الضرورات في الامور الى سلوك مالا يليق بالادب

وقول الآخر

خليلي لا تسئل علي بهجتي من اللوعة الحرا فتظهر اسقام

وماعن رضا فارقت سلمى معوضاً بديلا ولكن للضرورة احكام

ولتحقق الضرورة شرطان احدهما الحاجة الى الشيء المحذور ومن ذلك ماحكى ان أبرويز رفع اليه ان بعض الناس ينكر صفاء الملك الى اصحاب الاخبار فوقع هؤلاء بمنزلة مداخل الضياء الى البيت المظلم وليس لقطع مواد النور مع الحاجة اليه وجه عند العقلاء ومنه ماحكى قيل لسائل اما تستحي تسأل بالقرآن فقال اسكتوا لوجعتم كما اجوع لبعتم جبريل وميكائيل فضلا عن القرآن . الثاني ان لا يسد عن ذلك الشيء شيء آخر ومنه قول بعضهم

اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا رأي للمضطر الا ركوبها

وقد مر ميزان ارتكاب أقل الضررين واهون القبيحين وهو مؤيد لهذا

المعنى وسيأتي في مسوغات الكذب مافيه زيادة بيان . ومن الاعذار عدم الاشتراك بالاوزار واحسن دليل عليه قول الله سبحانه وتعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وروى ان زياداً أخذ رجلاً من الخوارج فافلت منه فاخذ اخا له فقال ان لم تأتني باخيك والا ضربت عنقك فقال له أرأيت ان جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال نعم قال فآتيك بكتاب من العزيز الحكيم واقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى عليهم السلام ثم تلى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفا الا تزر وازرة وزر أخرى فقال زياد خلوا سبيله والطف مايورد في هذا الباب قول أمير المؤمنين عليه السلام مازلت مظلوماً منذ قبض الله نبيه حتى يوم الناس هذا ولقد كنت أظلم قبل ظهور الاسلام ولقد كان أخي عقيل يذنب أخي جعفر فيضربني وقريب من هذا المعنى قول الشاعر

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم   فكانني سبابة المتندم

والاعذار العقلية كثيرة ولكن مايكثر وقوعه هي هذه الاعذار السبعة وكل واحد منها كاف في دفع الغضب أو المكافات وهذه الاعذار لا تختص بدفع المكافات وانما ذكرناها هنا لغلبة الحاجة اليها في دفع المكافات والغضب فيها المكافات بل تحسن وهي أبلغ وان كان العفو والصفح معها أحسن فوضمان أحدهما بعد الانذار والبيان لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقوله تعالى وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون اي مايجتنبونه من الافعال والتروك وظاهره انه تعالى لايخذلهم بعد هدايتهم الى الاسلام الا بعد مايبين لهم ويتم عليهم الحجة وعن الكافي وتفسير العياشي وكتاب التوحيد حتى يعرفهم ما يرضيه ومايسخطه ومثل ذلك قوله سبحانه ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة ولقول النبي صلى الله عليه

وسلم ان الله يحتج على العباد بما آتاهم وعرفهم وبذلك يستدل على اصل البراءة من التكليف من دون بيان وكما تقبح المكافاءآت مع عذر عدم العلم كما مر كذلك تحسن المكافاءآت بعد البيان والاعلام حيث لاعذر بالجهل. وقد ورد من دعاء أمير المؤمنين عليه السلام لك الحجة علي ولا حجة لي وذلك لان الله سبحانه قد كلف الانسان بعد تمكينه واقداره واعلامه قبح القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه الى الفعل والترك وهذه حجة الله سبحانه على عباده ولا حجة للعباد عليه لانه ما كلفهم الا بما يطيقون ولا كان لهم لطف في امر من الامور الا وفعله ومنه الاعلام والبيان اما بلسان الظاهر كالرسول أو ما يقوم مقامه من الوصي والعالم واما بلسان الباطل كالعاقل ثم كلفهم بالتعلم والتفقه لتتم له الحجة عليهم وورد في تفسير قوله تعالى «ولله الحجة البالغة» انه يقال للعبد يوم القيامة هل علمت فان قال نعم قيل فهلا عملت وان قال لا قيل له فهلا تعلمت حتى تعمل فاذا تمت الحجة على الانسان بالانذار والبيان حسنت مكافاته والعفو عنه فضل عليه لا حق له به هذا ما ينبغي تقديمه اول الكلام ومنه ماورد من الامثال من انذر كمن انجح وقولهم من انذر فقد اعذر وله المكافات بعد ذلك ومن هذا الباب ما حكى ان مانيا الزنديق لما ظهر في أيام سابور بن ازدشير ودعى الناس الى مذهبه اخذه سابور فاشار عليه نصحاؤه بقتله فقال ان قتلته من غير ان اقطعه بالحجة قال الناس بقوله ويقولون ملك جبار قتل زاهداً او لكنني اناظره فان غلبته بالحجة قتلته ومنه ما حكى ان في الانجيل ان ظلمك أخ من اخوانك اليه فعاتبه فيما بينك وبينه فقط فان اطاعك فقد ربحت اخاك وان هو لم يطع فاستتبع رجلا ورجلين ليشهدا ذلك الكلام فان هو لم يسمع فان امره الى

اهل التتبعة فان هو لم يسمع من اهل التتبعة فاليكن عندك كصاحب المكس
وروى عن يحيي على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام اذا كان بينك وبين
اخيك معاتبة فالقه وسلم عليه واستغفر لك وله فان قبل فأخوك وان ابى
فأشهد عليه شاهدين او ثلاثة او اربعة فعلى ذلك يقوم شهادة كل شيء او
ائت مجلس قومه فان قبل فأخوك وان ابى فليكن كصاحب المكس او كمن
كفر بالله والمقصود من ذلك الاعذار في مكافاته بالترك او الهجر فانها بعد
الاعذار ابلغ واحسن . (الموضع الثاني) بعد الاسائة والعدوان قال الله تعالى
« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى » وقال جل وعلا « ولمن انتصر
بعدظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل » وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وآله امر
بقتل أبي غرة الشاعر لما كان يعرض به من اذى النبي صلى الله عليه وآله بلسانه
ويحرض عليه قبائل قريش وفي فعله صلى الله عليه وسلم لنا اسوة قال ابو
اسحق لما أخذ ابو غرة الشاعر يوم بدر وأتي به الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال يا رسول الله تصدق بي على بناتي واعف عني عفى الله عنك
قال نعم على ان لا تعين علي بقول ولا فعل فعاهده على ذلك وخلى سبيله ثم انه
خرج مع أبي سفيان يحرض قريشاً على قتال النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ
يوم أحد فأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ألم تعاهدني على ان لا
تعين علي بقول ولا فعل فقال غلبت فتصدق بي على بناتي واعفو عني عفى الله
عنك فقال عليه وآله الصلاة والسلام ان العفو لمكرمة ما مثلها مكرمه
ولكن لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم أمر بقتله فقتل وفي هذا الحديث
دلالة على ان المكافات وان كانت هي سابقة وحق للمجنى عليه لكن انما تحسن
بعد نقض العهد او معاودة الجناية وهو مؤيد لما مر سابقا من ان العذر

ينبغي قبوله من كل احد الا من غادر او ناكث عهد ومن هذا قول صفي الدين الحلي في بديعيته بمدح النبي صلى الله عليه وسلم

يجزى اساءة باغيهم بسيئة ولم يكن عاديا منهم على ادم

« ومثله ايضا قول ابن حجة في بديعيته »

من اعتدى بعدوان يشاكله بحكمة وهو فيها خير منتقم

(ومثله ايضا قول المعرى)

يضاعف الاجر والحسنى ويردع عن ظلم بظلم ويعفو عن كثيرهم

كل ذلك مدحا له صلى الله عليه وسلم بالسياسة . وقال الجاحظ من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدبيره وظن ان رحمة الله دون رحمته فانه تعالى يقول من يعمل سوء يجزيه وقال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره فجازى على الخير بالثواب والشر بالعقاب انتهى قول الجاحظ ولكن دليله لا ينطبق على مدعاه بان من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدبيره بل الجاحظ خالف الله تعالى في قوله وفي تدبيره فان الله سبحانه وتعالى يقول وان تعفوا أقرب للتقوى وقوله تعالى فاعفوا عنهم واصفح الآية وقوله عز وجل مادحا لمن شأنه العفو عن الاساءة والعافين عن الناس والله يحب المحسنين الى غير ذلك من الآيات والاخبار وليس العفو الا مقابلة الاساءة بالاحسان اذ لا يكون عفو الا عن اساءة واسقاط الحق للمسيء احسان اليه هذا ما يرجع الأمور الاخروية واما مايعود الى التدبير الدنيوي فليس شيء ادفع للضار احسن من مقابلة اساءة المسيء بالاحسان اليه وقد قال سبحانه ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وقال امير المؤمنين عليه السلام عاتب

آخاك بالاحسان اليه واردد شره بالانعام عليه . ومنه ماورد من غرر الامثال عظ المسيء بحسن فعالك وكان يقال من اساء فاحسن اليه فقد جعل له حاجزاً من قلبه يردعه عن مثل اساءته هذا ولعل العتاب بالاحسان اعظم واشد من العقاب والمكافأة بالاساءة لاسيما اذا اضاف للعفو احسان آخر فان الزيادة على العفو بالاحسان تزيد المسيء ندما قال بعض الشعراء في هذا المعنى

واذا بغى باغ عليك بجهله　　　فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال المتنبي ايضا

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم　　　ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

وقال ايضا

واحلم عن خلي واعلم انه　　　متى جزته حلما على الجهل يندم

واحسن الشواهد لهذا المعنى مارواه بعض العامة ان رجلا من أهل الشام قال دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة لم أر احسن منه وجها ولا سمة ولا ثوبا ومن سمته وثوبه ووجهه مال قلبي اليه فسألت عنه فقيل لي هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فاتيته وقد امتلأ قلبي له بغضا فقلت له انت ابن أبي طالب فقال لي بل انا ابن ابنه فقلت له بك وبابيك اسب عليا فلما انقضى كلامي قال احسبك غريبا قلت اجل قال فمل بنا الى الدار فان احتجت الى منزل انزلناك أو الى مال واسيناك او الى حاجة عاوناك على قضائها فانصرفت من عنده وما على وجه الارض احب الي منه . وروي عنه عليه السلام انه سبه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وامر له بالف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم واسقاط الاذى وتخليص الرجل مما يبعده الله سبحانه وتعالى وحمله على

الندم التوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم فقد اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير ومن هذا الباب ما قاله رجل شتمت فلانا من أهل البصرة فحلم عليَّ فاستعبدني بها زماناً . وما حكى عن ابن عباس رضي الله عنه انه سبه رجل فلما فرغ قال ياعكرمه هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحى . وحكى الاحنف انه شتمه رجل وهو ساكت ممسك عنه فاكثر واطال فحضر غداء الاحنف فقال للرجل ياهذان غداءنا قد حضر فقم بنا اليه فانك منذ اليوم تحط وتحمل فقام وهو يتباطأ . ووقع بين أبي مسلم وبين بعض اصحابه كلام فاربى ذلك الصاحب واغاظ فاطرق أبو مسلم فلماسكنت فورة الغضب عن ذلك الرجل ندم وعلم انه قد اخطأ وقال أيها الامير والله ماانبسطت حتى بسطتني ولا قطعت حتى قطعتني فاغفرلي قال قد فعلت قال اني احب ان استوثق لنفسي فقال أبو مسلم سبحان الله كنت تسيء فأحسن فحين احسنت اسيء . هذا والعقاب بمقابلة الاساءة بالاحسان لا يؤثر تماماً الا بامرين الاول بيان القدرة على المكافاة والاساءة قبل العفو والاحسان كما حكى ثمامة بن أبي ثمامة الانصاري قال كنت في مركب يحيي بن خالد البرمكي بباب الشام اذ عرض له رجل فاسمعه واغاظ فبادر اليه قوم من حواشي المركب فقال لهم كفوا عنه ودعا به وقال له اما تعلم انني قادر على ايذاءك قال بلى قال فانصرف فانما يمنعني عنك قدرتي عليك . الثاني بيان عدم الاستحقاق والذنب المقتضى لاساءة المسيء كما روى بعض العامة ان علياً ابن الحسين عليه السلام كان يوماً خارجا من المسجد فلقيه رجل فسبه فثارت عليه العبيد والموالي فقال علي بن الحسين عليه السلام مهلا على الرجل ثم اقبل عليه فقال له ماستر عنك من أمرنا أكثر ألك حاجة نعينك عليها

فاستحى الرجل ورجع الى نفسه قال فالقى عليه ثوبا كان عليه وامر له بالف درهم قال فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد انك من أولاد الرسل واذا عرفت هذا فالمقابلة للاساءة من دون هذين الشرطين اذ قد ينسبه المسيء الى العجز لاسيما اذا لم يكن حراً حينئذ ينزل الاحسان والعفو غير منزلته ويضعه غير موضعه ولكن مع الشرطين أحسن وعلى كل حال ان لم يندم المسيء والا يندفع شره وهو أحسن من كل علاج والاصل في ذلك قوله تعالى لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع الآية فان المقابلة بالاساءة اعذار للمسيء في اساءته قال أمير المؤمنين عليه السلام ان حسدك اخ من اخوانك على فضيلة ظهرت منك فسعى في مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به فيعذر نفسه في الاساءة اليك وتشرح له طريقا الى مايحبه فيك ولكن اجتهد في التزيد من تلك الفضيلة التي حسدك عليها فانك تسوئه من غير ان توجده حجة عليك . وقيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر في تنقصي وثلبي ومن هذا قول بعض الادباء

ان المسيء اذا جازيته ابداً بفعله زدته في غيه شططا

العفو أحسن مايجزي المسيء به يهينه أو يريه انه سقطا

وقريب من تأثير العفو والاحسان الاعراض عن جواب السفيه والاحمق قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه سمع أمير المؤمنين رجلا يشتم قنبراً وقد رام قنبر ان يرد عليه فناداه أمير المؤمنين عليه السلام مهلا ياقنبر دع شاتمك مهانا ترض الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقب عدوك والذي فلق الحبة وبرىء النسمة ماأرضى المؤمن ربه مثل الحلم ولا اسخط الشيطان بمثل الصمت ولا عوقب الاحمق بمثل السكوت عنه وقال بعض الحكماء السكوت عن السفيه جواب

والاعراض عنه عقاب وقيل ايضاً الحلم عدة للسفيه وجنة من كيد العدو وحرز من حسد الحسود فانك لن تقاتل سفيها بالاعراض عنه الا فللت حده وازلت نفسه وسللت عليه عند حلمك عنه سيوفاً ممن يشاهد حالك معه فيتولوا لك الانتقام منه وقيل ان عمر بن الاهتم جعل لرجل ألف درهم على ان يسفه الاحنف فوقف الرجل يسبه فبالغ في سبه والاحنف مطرقاً معرضاً فلما رآه لا يرد عليه ولا ينظر اليه قبل بعض أنامله ويقول ياسوأتاه والله ما يمنعه من جوابي الا هواني عليه وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جواباً وأوجعته عقاباً وللشعراء في هذا المعنى أقوال كثيرة وكلها في غاية الجودة منها قول بعضهم

خير ما استعمل اللبيب احتمال ... رب داء أضر منه الدواء

(وقول الآخر ايضا)

أرى الكف عن شتم السفيه تكرما ... أضر له من شتمه حين يشتم

(وقول الآخر أيضا)

وما شيء أحب الى سفيه ... اذا سب الحليم من الجواب
متاركة السفيه بلا جواب ... أشد على السفيه من السباب

(وقول الآخر)

اذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من اجابته السكوت
فأن جاوبته فرجت عنه ... وان خليته كمداً يموت

(وقول أبي العباس الناشىء)

واذا بليت بجاهل متحامل ... حسب الامور من المحال صوابا
اوليته مني السكوت وربما ... كان السكوت عن القبيح جوابا

(وقول الآخر ايضا)

لما تعرض للسباب تركته　　　وغفلت عنه ايما اغفال
وعلمت ان الصمت عنه عقوبة　　　والصمت فيه عقوبة الجهال

وسيأتي فصل في الترفع عن جواب السفيه ومحاورته وجوابه في المداراة من فصول السياسات النفسية . وأما الموارد الذي لا يحسن فيها الحلم والصفح فموضعان الاول الشرير الذي لا يزيده الحلم الا شرا وحينئذ الشر لا يدفعه الا الشر قال أمير المؤمنين ردوا الحجر من حيث جاء فان الشر لا يدفعه الا الشر وفي المثل الحديد بالحديد يفلح وقال حذيفه بن اليمان لرجل اتحب ان تغلب شر الناس قال له نعم قال انك لن تغلبه حتى تكون شراً منه وقال الزمخشري في ربيع الابرار قال حكيم لا يخرجن احد من بيته الا وقد أخذ في حجزته قيراطين من جهل فان الجاهل لا يدفعه الا الجهل وقد اكثر الشعراء من هذا المعنى قال عمر بن كلثوم

الا لا يجهلن احد علينا　　　فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(وقال آخر ايضا)

وبعض الحكم عند الـ　　　جهل للذلة اذعان
وفي الشر نجاة حين　　　لا ينجيك احسان

(وقال بعضهم)

اذا كان عفو المرء عون عدوه　　　عليه فان الجهل اعفى واروح
وفي الحلم ضعف والمجازات هيبة　　　اذا كنت تخشى كيد من عنه تصفح

(وقال آخر)

اذا كان الزمان زمان سوء　　　وكان الناس أمثال الذئاب

فكن كلباً على من كان ذئباً فان الذئب يطرد بالكلاب

وسيجيء فصل في دفع الشر بالشر مؤيداً لهذا المعنى فانتظره في السياسات العقلية في التخلص والدفع وفي السياسات النفسية

(الثاني)

الجاهل الذي لا يعرف قدر الحلم والصفح فيزيده الفصح عنه جهلا وحينئذ فالحلم يكون في غير موضعه فلا بد للانسان من ان يكون فيه بوادر يردع بها من لا يعرف قدر الحلم عنده وفي مثل ذلك يقول بعضهم ولعله ينسب للامير عليه السلام

لئن كنت محتاجاً الى الحلم انني الى الجهل في بعض الاحايين احوج

ولي فرس بالحلم للحلم ملجم ولي فرس بالجهل للجهل مسرج

فمن شاء تقويمي فانى مقوم ومن شاء تعويجي فانى معوج

وما كنت ارضى الجهل خدناً ولا اخاً ولكنني ارضي به حين احوج

(وقال زهير ابن المهدي)

اذا كنت بين الحلم والجهل ماثلا وخيرت اني شئت فالحلم افضل

ولكن اذا أنصفت من ليس منصفاً ولم يرض مني الحلم فالجهل امثل

اذا جاءني من يطلب الجهل عامداً فاني سأعطيه الذي جاء يسئل

ولم أعطهِ اياهُ الاّ لأنهُ ولو كان مكروها من الذل أجمل

« وقال آخر ايضا »

فان قيل حلم قلت للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

«وانشد ابن دريد عن حاتم الطائي »

اذا أمن الجهال جهلك مرة فعرضك للجهال غنم من الغنم

«وينشد لغيره ايضا»

أرى اللين ضعفا والتشجع هيبة ومن لايحب يحمل على مركب وعر
وما كل حين ينفع الحلم اهله ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر

هذه بعض موارد الحلم والصفح وتمام الموارد ان شاء الله يأتي ذكرها في السياسة الملوكية لأن ذكرها هناك أليق كمورد الردع والزجر والترهيب والذي يتعين ذكره هنا من باب الاشارة الى وضع الشيء في موضعه وغير موضعه ذكرناه لتقيس عليه سائر الأمور المحمودة

﴿ فصل ﴾

وأما الرفق فهو كالصفح والحلم له موادر يحسن فيها وموارد يقبح فيها وتكون الغلظة والخشونة بتلك المواضع أولى منه أما موارد حسنة فسيأتي ذكرها في التوصل الى المهمات وأما موارد قبحه فوضعان الأول منهما موضع الذي لا يصلح فيه الرفق قال أمير المؤمنين اذا كان الرفق خرقا كان الخرق رفقا يعني اذا كان استعمال الرفق مفسدة وزيادة في الشر فلا تستعمله فانه حينئذ ليس برفق بل هو خرق ولكن استعمل الخرق فانه يكون رفقاً والحالة هذه لما عرفت أن الشر لايدفعه الا الشر واذا كان الخرق غير نافع فالرفق حينئذ اليق فالمراد استعمال كل واحد منهما في موضعه كما هو شأن العاقل الحكيم وقريب من هذا المعنى قوله عليه السلام ربما كان الداء دواء والدواء داء وقوله عليه السلام وارفق ما كان الرفق اوفق يعني أصلح واصوب وقوله عليه السلام رب جهل أنفع من حلم ورب حرب أعود من سلم وقوله عليه السلام رب دواء جلب داء ورب دواء انقلب داء ومنه قول المتنبي

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب

وقال عليه السلام اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال عليه السلام اذا لم تنفع الكرامة فالاهانة أحزم واذا لم ينجع السوط فالسيف احسم وقال عليه السلام من لم تقومه الكرامة قومته الاهانة ومن لم يصلحه حسن المداراة أصلحته المكافاة ومن لم يدع وهو محمود يدع وهو مذموم فقد رخص عليه السلام لمن أراد الغير بالضرب والرمي والقتل ولا يندفع الا بمثله ان يدفعه بمثل ماراد فان ذلك جائز حسن عقلا ونقلا فان أدى الى هلاك الظالم فلا شيء على الدافع اذا لم يتعمد وللشعراء في هذا المعنى اقوال جيدة منها للمتنبي

من الجهل ان تستعمل الحلم دونه اذا اتسعت في الظلم طرق المظالم

(وقال ابن الهباري في الصادح)

فرقع الخرق بلطف واجتهد وامكر اذا لم ينفع الصدق وكد

وبالجملة الحاجة الى العنف قد تقع ولكن على الندور وانما الكامل من ميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطي كل أمر حقه فان كان قاصر البصيرة او اشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح معه في الا كثر . الموضع الثاني علاج اللئيم والاحمق والسفيه فان الرفق هنا لا يصلح وربما كان مفسدة ومضرة كما قيل ثلاثة ان اكرمتهم اهانوك وان اهنتهم اكرموك المرأة والخادم والمملوك وقال ارسطاطاليس ثلاثة ان لم تظلمهم ظلموك الزوجة والولد والمملوك فسبب صلاح حالهم التعدي عليهم وسيأتي ميزان ذلك ومقداره . وذم اعرابي رجلا فقال فلان ان أعرضت عنه اغتم وان اقبلت عليه اعتز وان حلمت عليه جهل عليك وان جهلت عليه حلم عنك فذمه باللئيم لان هذه طباع اللئيم اذا اكرمته تمرد وان اهنته لان

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام اذا غضب الكريم فألن له الكلام واذا غضب اللئيم فخذله العصا وقيل كن رؤفا رحيما ولا تكن رحمتك ورأفتك فساداً لمن يستحق العقوبة ويصلحه الادب . وقال بعض الحكماء من أعز جاهلا اذل نفسه ومن اهانه اكرم نفسه فانه لا يقدر بجهله على التفرقة بين عزه وذله وفي مثل ذلك قال بعضهم

اذا ما بدأت امرءجاهلا ... ببر فقصر عن حمله

ولم تلقه قابلا للجميل ... ولا عرف العز من ذله

فسقه الهوان فان الهوان ... دواء الذي الجهل من جهله

وقال آخر أيضاً

اكرامك الاحمق مما يفسده ... ادناؤك الاحمق مما يبعده

وقربه اهون شيء يفقده

وقال آخر

انما الجاهل ان لا ينته ... فهو في غفلته لا ينتبه

خذه بالغلظه كي تنفعه ... فلقد أضررت اذ لا ينتبه

(وقال آخر واجاد)

لا ترجعن الى السفيه حكاية ... الا جواب تحية حياكها

فمتى تحركه تحرك جيفة ... تزداد نتنا ما اردت حراكها

فالرفق في هذين الموضعين لا يحمد وما في عداهما الرفق محمود في كل مورد يكون

﴿ فصل ﴾

الصبر حسن وهو مفتاح لكل شيء وجنة عن كل شيء وهو صفة من

صفاة الله سبحانه خلقه وخص به انبيائه ورسله واولياءه ثم من منح منه ماشاء من سائر عباده ليجعله له جنة في معاشه ومعاده . وجعله في بني آدم دون غيرهم من الملائكة لخلوهم عن الغضب والشهواة وبعدهم عن الآفات ومن البهايم لنقصان خلقتها وعدم العقل فيها فلا يثبت لها قوة تصرفها عن شهواتها . واما الآيات والاخبار الواردة في الصبر فتجل عن الحصر ولكن له موارد لايحسن فيها ومواضع يذم فيها ويقبح عقلا وربما حرم شرعاً كما ستعرف ولكن لايتضح ذلك الابيان اقسامه وانواعه ليعلم اي قسم لاتختلف احكامه بل هو حسن في جميع موارده واي قسم تختلف احكامه مدحا وذما باختلاف موارده فنقول وبالله المستعان. ينقسم الصبر أولا الى قسمين صبر على واقع وصبر لاجل متوقع . أما القسم الثاني فهو نوعان لان المتوقع اما مرهوب أو مرغوب والنوع الاول اما ان يمكن دفعه والصبر لاجله مذموم قبيح واما ان لايمكن دفعه وهو واجب الوقوع فلامعنى للجزع منه فالصبر محمود فيه والتسليم للقضاء اولا وسيأتي بيانه وهو ايضاً لا يخلو اما ان يكون فوتيا اولا فأن لم يكن فوتيا فالصبر لاجله محمود عقلا وشرعاً وسيأتي بيانه في طرق التوصل الى المهمات وان كان الامر فوتيا فالصبر لاجله غير محمود وقد مرت الاشارة اليه في الموارد الذي لايحسن فيها التأني اذ التأني نوع من الصبر وقريب منه مايقال ما احسن الصبر الا ان النفقة عليه من العمر وقد اخذه بعض الشعراء فقال

وانى لادري ان في الصبر راحة ولكن انفاقي عليـه من العمر

وقال آخر ايضا

ما احسن الصـبر ولكنه في ضمنه يذهب عمر الفتى

(ونظيره قول القاضي الفاضل)

يقولون أن الصبر يعقب راحة وما ضمنوا تبليغ عاقبة الصبر
وفي الصبر ربح او طريق مبلغ الى الربح لكن الخسارة من عمر

(هذا واقرب من قول ابي فراس)

يقول لي انتظر زمناً ومن لي بأن الموت ينتظر انتظاري

(وقوله ايضا)

معللتي بالوصل والموت دونه اذ مت عطشاناً فلا نزل القطر

القسم الاول وهو الصبر على الامور الواقعة وهو ايضا نوعان مايوافق الهوى وما لايوافق لان جميع ما يلاقي الانسان لايخلو من هذين النوعين اما النوع الاول فكالسلامة والصحة والمال والجاه والعشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع وهو محتاج الى الصبر على هذه الامور والصبر عليها فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك بها في ملاذها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وطغيانه يؤديه الى افساد معاشه ومعاده او فساد معاشه فقد وجد الكثير من ذوي الاموال من استكثر امواله فاداه ذلك الى اتلافه وافساده بالقمار والملاهي والخمور وكذلك من هو من ذوي العشيرة طغى فتجرأ على قتل النفوس حتى قتل اشر قتلة . واما افساد معاده فاقل ما يؤديه الاستكثار الى الاشتغال به عن الله عز وجل ولذلك حذر الله تعالى عباده عن فتنة المال والولد والزوج فقال سبحانه يا ايها الذين آمنوا لاتلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله وقال عز من قائل ان من ازواجكم واولادكم عدو لكم فاحذروهم . واما النوع الثاني وهو ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لايخلو اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات

والمعاصي او لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب او لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في ازالته ودفعه كالتشفي من المؤذي فهذه ثلاثة اقسام . القسم الاول ما يرتبط باختياره وهو سائر افعاله التي توصف بكونها طاعة او معصية والصبر على الطاعات وعن المعاصي والمكروهات محمود عقلا وشرعاً واكثر ما ورد في مدح الصبر من آيات واخبار فالمراد به هذا القسم واما القسم الثاني وهو ما لا يدخل تحت حصر الاختيار اوله واخره ولا يمكن دفعه ولا رفعه كالمصائب مثل موت الاعزاء وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض او العمى وفساد الاعضاء وبالجملة سائر انواع البلاء فالصبر على ذلك من اعلا مقامات الصبر المحمود ولا مندوحة عنه فان لم يكن بالاختيار والا بالاضطرار . وقد روى ان امير المؤمنين عليه السلام عزى رجلا فقال له ان صبرت مضى امر الله عليك وانت مأجور وان جزعت مضي امر الله عليك وانت مأزور . وكان عليه السلام يقول عليكم بالصبر فان به يأخذ العاقل واليه يرجع الجاهل وقال شبيب بن شيبه ان احق ماصبرت عليه ما لم تجد سبيلا الى دفعه . وقال بعض الحكماء لصاحب له ارض بالقضاء او صاحب الدنيا على علاتها فانك لا تدري اي الرجلين تكون متقدماً اخره حظه او متأخراً قدمه حظه فان لم ترض بالحال التي انت فيها وان كانت دون املك واستحقاقك اختياراً والا رضيت بها اضطراراً . وكان يقال اعد للمكروه عدتين الصبر على ما يدفع مثله الا بالصبر والصبر على ما يجري فيه الجزع ولا ينفع فيه التوجع والهلع وفي مثل ذلك يقول العباس بن الاحنف

واني اذا لم الزم الصبر طائعا   فلا بد منه مكرها غير طائع

وقال بعض العلماء افضل الاخلاق عند المصائب الصبر لان الهارب مما هو كائن انما يقع في يد الطالب وفي مثل ذاك يقول ابن الرومي

واذا اتاك من الامور مقدر فقررت منه فنحوه تتوجه

ومثله قول الآخر

كأن بلاد الله وهي عريضة على الهارب المطلوب كفة حامل

وهذا كأنه ناظر الى معنى ما ورد في الحديث القدسي من لم يصبر على حكمي وقضائي فليخرج من ارضي وسمائي . وفي منثور الحكم فيما الجزع فيما لا بد منه والطمع فيما لا يرجى . واذا كان الامر لا مندوحة عنه ان لم يكن اختياراً والا كان اضطراراً فلتكن عند نزول مالا مدفع له شيمة العاقل الصبر ليحظى بالاجر والافات الاجر وفات الامر . وقد احسن من قال هذا الشعر

اذا لم يك الخطب فكن بالصبر لوذا
والا فاتك الاجر فلا هذا ولا هذا

وليس لمثل هذا الامر علاج احسن من الرضا والصبر كما حكى ان بزرجمهر الحكيم الذي كان وزيراً لانو شيروان غضب عليه ملكه فحبسه في بيت مظلم وصفده بالحديد والبسه الخشن من الصوف وامر ان لا يزاد له عن قرصين من الخبز وكف جريش ملح ودورق ماء في كل يوم وان تنقل الفاظه اليه فاقام شهراً لا يسمع له لفظة فقال انو شيروان ادخلوا اليه اصحابه وامروهم ان يسألوه عن حاله ويفاتحوه في الكلام وعرفوني لفظه فدخل اليه جماعة من المختصين به فقالوا له ايها الحكيم نراك في هذا الضيق والحديد والشدة التي قد دفعت اليها ومع هذا فان سحنت وجهك وصحة جسمك لم

تتغير عن حالها فما البست في ذلك فقال اني عملت جوارشاً من ستة اخلاط
فاخذ كل يوم منه شيئا وهو الذي ابقاني على ماترون فقالوا له صفه لنا فقال
الخلط الاول الثقة بالله والثاني علمي بان كل مقدور كائن والثالث الصبر خير
مااستعمله الممتحن والرابع ان لم اصبر فاي شيء اعمل فلم اعن على نفسي بالجزع
والخامس يمكن ان يكون اشر مما انا فيه والسادس من ساعة الى ساعة فرج
والشاهد للباب من هذه الحكاية الخلط الثالث والرابع وبهما الكفاية (القسم
الثالث) مالا يرتبط هجومه بالاختيار وللانسان اختيار في دفعه وهذا القسم
من الصبر يختلف تارة يكون محموداً وتارة يكون مذموماً فاما المحمود منه
فما كان على اذى لايضر بالنفس ولا بالمال ولا بالعرض ولا بالدين وذلك كالاسائة
بالسب والشتم والصبر على ذلك بترك المكافاة ويستثني منه موارد خاصة
وقد مرت تفاصيله في باب الحلم والعفو عن المسيء فراجع واما المذموم منه
فكالصبر على اذى يضر بالنفس او المال او الدين او العرض وهو انواع اربعة
بعضها اقبح من بعض النوع الاول الصبر على اذى محظور في الشرع وهو
اقبح انواع هذا القسم من الصبر وذلك كمن يقصد حريمه بشهوة محذورة
فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة ويسكت على مايجري على اهله اويفعل
به فعلا منافياً ويسكت صابراً على مايجري عليه ظاناً ان ذلك نوع من الصبر
الجميل والرضا المحمود . قال بعضهم صحبني شاب في طريق مكه يدعى انه قد
بلغ في التصوف منزلة الرضا فجاء في صباح يوم وقال لي ان فلاناً دب الي
البارحة وما قلت شيئاً حتى فرغ فقلت له ولم فعلت كذا قال كرهت ان اخرج
من منزلة الرضا قلت فلم شنعت على الرجل اليوم قال مااردت الشناعة ولكن
اعلمك اني لااكون على حالة الا وانا راض بها فقلت هـذا رضاء مأبون

احمق . ومن هذا المعنى ماحكي عن كلام مجنون مع ثمامة ابن الابرش قال ثمامة دخلت دار المجانين فاستقبلني شاب منهم وقال يا ثمامة سمعتك مراراً تقول ان العبد لايخلو من حالين اما نعمة يجب عليه الشكر عليها أو بلية يجب الصبر لديها فاخبرني لوان انسانا ادخله فيك مثل ذراع هذه نعمة يجب الشكر عليها او بلية يجب الصبر لديها قال ثمامة فتحيرت ولم أدر ما أجبه ثم قلت له اذاً ما أقول فقال ينبغي ان تقول ان الأمور ثلاثة نعمة يجب الشكر عليها وبلية لا مدفع لها يجب الصبر لديها وازية يمكن دفعها يجب التوقي منها والتحرز عنها والتمثيل بهذين الحكايتين كاف في ايضاح المقصود من بيان الصبر المذموم . النوع الثاني الصبر ما يضر بالنفس أو الولد أو المال وما يتعلق بالانسان من ضرورات حياته كمن تقطع يده أو يد ولده او يؤخذ ماله وهو مقتدر على الدفع وساكت صابر على مايجري عليه أما جبنا أو حياء أو عجزاً عن الدفع وعليه قول أمير المؤمنين عليه السلام ان امرءا أمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويفري جلده ويهشم عظمه لعظيم عجزه ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره انت فكن ذاك ان شئت فأما أنا فدون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام وتطيح منه السواعد والاقدام وقد نظم هذا المعنى عبد الحميد بن أبي الحديد في قوله

ان امرءاً أمكن من نفسه   عدوه يخدع آدابه
لايدفع الضيم ولا ينكر ال   ذل ولا يحصن جلبابه
لاقن الرأي ضعيف القوى   قد صرم الخذلان اسبابه

ومر رسول الله صلى الله عليه وآله برجلين يتشاجران وكان احدهما يتعدى ويتطاول وصاحبه يقول حسبي الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم

ابلى من نفسك عذراً فاذا اعجزك الامر فقل حسبي الله وقال بعض الادباء يعجبني في الرجل اذا سيم خطة الضيم ان يقول بملء فيه لا أقول هـذا هو الرجل والا فلا كما حكى عن مسلم بن عقيل رضوان الله عليه لما قيل له مد عنقك فقال والله لا أعينكم على نفسي وهو بحال لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه فكيف بمن يسلمها صابراً وهو متمكن من الدفع. وهنا ظريفه لا بأس بذكرها وهي على ما يحكى انه أوتي الى بعض الولاة برجل سكران فأمر ان يقام عليه الحد وكان الجلاد قصيراً والرجل طويلا فلم يتمكن من ضربه فقال له تقاصر لينالك الضرب فقال له ويلك الى اكل الثريد تدعوني حتى اتقاصر والله لوددت اني الآن أطول من عوج بن عنق وانت اقصر من يأجوج ومأجوج. ومثل ذلك في المعنى ما حكى ان بعض اللصوص نزلوا ليلا بدار فوجدوا شاة مربوطة وامرأة عجوز وشيخاً كبيراً فقال احد اللصوص تعالوا نطأ العجوز ونأخذ الشاة ونذبح الشيخ فسمعت العجوز فأخبرت الشيخ فقال ما الحيلة وما نصنع فقالت العجوز نصبر ونحتسب فقال أنت تصبري على الوطئ وأنا اصبر على الذبح لعل ذلك عندك احسن الحيل فسمعوها اللصوص فضحكوا وانصرفوا. النوع الثالث من الصبر المذموم الصبر على غلبة العدوان وقهر الاقران واحسن شاهد لذم هذا النوع من الصبر قول أمير المؤمنين عليه السلام لما غلب اصحاب معاوية اصحابه على شريعة الفراة بصفين ومنعوهم من الماء قد استطعموكم القتال فأقروا على مذلة او تأخير محلة أو رووا السيوف من الدماء ترووا من الماء فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين. ونحو قوله عليه السلام قول أبي نصر بن نباته

والحسين الذي رأى الموت في الـ ... ـعز حياة والعيش في الذل قتلا

اشارة الى سيد اهل الآباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية ابي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام عرض عليه الامان واصحابه فانف من الذل واختار الموت على ذلك وكان من كلامه عليه السلام يوم الطف الا وان الدعي ابن الدعي قد خيرنا بين اثنتين السلة او الذلة وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وحجر طهرت وأنوف حمية ونفوس أبيه وكان من شعره عليه السلام في ذلك اليوم

الموت أولى من ركوب العار ... والعار أولى من دخول النار

ولما فر أصحاب مصعب عنه وتخلف في نفر يسير من أصحابه كسر جفن سيفه وانشد

فان الاولى بالطف من الهاشم ... تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

فعلم أصحابه انه قد استقتل وكان يقال المنية ولا الدنية والنار ولا العار والسيف ولا الحيف واما الاشعار في الاباء والانف من احتمال الضيم كثيرة

«منها قول التهامي من قصيدة»

فموت الفتى في العز مثل حياته ... وعيشته في الذل مثل حمامه

وممن تقبل مذاهب الاسلاف في أباء الضيم وكراهية القهر للعدوان واختار القتل على ذلك أبو الحسين زيد بن علي عليه السلام ابن الحسين عليه السلام ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان السبب في خروجه على ما ذكره المؤرخون انه كان يخاصم عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في صدقاة علي عليه السلام هذا يخاصم عن بني الحسين عليه السلام وهذا عن بني الحسن عليه السلام فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن

الحكم امير المدينة فاغاظ كل واحد منهما لصاحبه فسر خالد بن عبد الملك بذلك واعجبه سبابهما وقال لهما حين سكتا اغدوا عليّ فلست بعبد الملك ان لم افصل بينكما غداً فباتت المدينة تغلي كالمرجل فمن قائل يقول قال زيد كذا وقائل يقول قال عبدالله كذا فلما كان الغد جلس خالد في المسجد وجمع الناس فمن بين شامت ومغموم ودعا بهما وهو يحب ان يتشاتما فذهب عبد الله يتكلم فقال زيد لاتعجل ياأبي محمد اعتق زيد جميع مايملك ان خاصمك الى خالد ابداً ثم اقبل على خالد فقال له جمعت ذرية رسول الله لامر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر فقال خالد اما لهذا السفيه احد يكلمه فتكلم رجل من الانصار من آل عمرو بن حزم فقال ياابن ابي تراب ويا ابن حسين السفيه اما ترى عليك لوال حقا ولا طاعة فقال زيد اسكت ايها القحطاني فانا لانجيب مثلك فقال الانصاري ولم ترغب عني فوالله اني لخير منك وابي خير من أبيك وأمي خير من أمك فتضاحك زيد وقال يامعشر قريش هذا الدين قد ذهب افذهبت الاحساب فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر فقال كذبت ايها القحطاني والله لهو خير منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً وتناوله بكلام كثير وأخذ كفاً من الحصى فضرب به الارض وقال انه والله مالنا على هذا من صبر وقام فقام زيد ايضاً وشخص من فوره الى هشام بن عبد الملك فجعل هشام لا يأذن له وزيد يرفع له القصص وكلما رفع اليه قصة كتب هشام في أسفلها ارجع الى أرضك فيقول زيد والله لاأرجع الى ابن الحارث أبداً ثم اذن له بعد حبس طويل وهشام في علية له فترقى زيد اليها وقد أمر هشام خادما له ان يتبعه حيث لايراه زيد ويسمع مايقول فصعد زيد وكان بادنا فوقف في بعض الدرج فسمعه الخادم وهو يقول ما احب الحياة الامن ذل فاخبر

الخادم هشاما بذلك فلما قعد زيد بين يدى هشام وحدثه حلف له على شي؛ فقال له هشام لا اصدقك فقال زيد ان الله لا يرفع احداً ان يرضى بالله ولم يضع احداً عن ان يرضى بذلك منه قال له هشام انه بلغني انك تذكر الخلافة وتمنتاها ولست هناك لانك ابن امة فقال زيد ان لك جواباً قال تكلم قال انه ليس احد اولى بالله ولا ارفع درجة عنده من نبي بعثه وهو اسمعيل بن ابراهيم وهو ابن امة قد اختاره الله لنبوته واخرج منه خير البشر فقال له هشام فما يصنع اخوك البقرة فغضب زيد حتى كاد ان يخرج من اهابه ثم قال سماه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم الباقر وتسميه انت البقرة لشدة ما اختلفتما لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا فيرد الجنة وترد النار فقال هشام احملوا هذا الخائن الاهوج الى عامله فقال زيد والله لان حملتني اليه لا اجتمع انا وانت حين وليموتن الاعجل منا فاخرج زيد واشخص الى المدينة ومعه نفر يسيرونه حتى ابعدوه عن حدود الشام فلما فارقوه عدل الى العراق ودخل الكوفة وبايع لنفسه فاعطاه البيعة أكثر أهلها والعامل عليها وعلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي فكان بينهما من الحرب ماهو مذكور في كتب التواريخ (النوع الرابع) من الصبر المذموم الاقامة بدار الهوان على الذل حبا للاوطان وايثار الراحة ولو على خلو الراحة ولقد بالغ الشعراء في ذم هذا الصبر فقال بعضهم

لا يسكن المرء في ارض يهان بها الا من العجز أو من قلة الحيل

وقال آخر ايضا

ولا يقيم على ذل يراد به الا الاذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يشجي له احد

واكثروا من ذم العيش والحال الذميم فقال المتبني من جملة قصيدة له

ذل من يغبط الذليل بعيش　　رب عيش اخف منه الحمام

وقال آخر

وما للمرء خير في حياة　　اذا ماعد من سقط المتاع

واوسعوا القول في التحريض عن السكون بدار يذل بها الكريم ويهون

فقال الشريف الرضي رحمه الله تعالى

مامقامي على الهوان وعندي　　صارم مقول وانف حمي

واباء محلق بي عن الضيم　　كما راع طائر وحشي

وقال أبو فراس الحمداني

اذالم أجد من خلة ماأريده　　فعندي لأخرى عزمة وركاب

وقال آخر ايضاً

واذا الديار تنكرت عن حالها　　فدع الديار واكثر التحويلا

ليس المقام عليك حقا واجبا　　في منزل يدع العزيز ذليلا

وقال الشنفرى في لاميته

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى　　وفيها لمن خاف القلى متحول

لعمرك ما بالارض ضيقا على امرىء　　سرى راغبا او راهبا وهو يعقل

وقال معن بن اوس

وفي الناس ان رثت حبالك واصل　　وفي الارض عن دار القلى متحول

وقال آخر مترجما لبعض الامثال الفارسية

من لم يكن في بيته طعام　　فما له في بيته مقام

ومن هذا المعنى ما حكي انه وقف سائل على الباب فقال تصدقوا علي

فاني جائع قالوا لم نخبز بعد قال فيسير دهن اضعه على رأسي قالوا ومن أين الدهن قال يا أولاد الزنا ما قعودكم هيهنا قوموا وسلوا مني هذا وسيأتي تمام الكلام على هذا المعنى في مقام علو الهمة فلا نطيل هنا

(فصل)

الصدق أفضل خصال الانسان وأجل مواهب الاحسان وقد وصف الله به نفسه واضافه سبحانه الى ذاته فقال عز وجل «ومن أصدق من الله قيلا» وقال سبحانه «وانا لصادقون» وقال تبارك اسمه «قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً» وأثنى به على نبيه اسماعيل عليه السلام فقال «انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً» ووصف به نبيه صلى الله عليه وسلم ودليله عليه فقال عز ذكره «والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» وخص به عباده فقال جل وعز «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» ومدح الصدق في الآيات والاخبار كثير ومن الشعر مالا يمكن الحصر وأحسن ما رأيت في مدحه ابيات من ارجوزة للسابوري وهي

واكرم الآداب صدق المنطق اكرم به اكرم به من خلق
اعدل شاهد على الصلاح اقرب منهاج الى الفلاح
شرف به اخلاقك الكريمة استر به حالاتك الذميمة

واما الكذب فأوضع كل خطة واجمعها للملامة والحطة واكبرها ذلا في الدنيا واكثرها خزياً في الأخرى وهو من اعظم علامات النفاق واقوى الدلائل على دناءة الاخلاق والاعراق لا يؤتمن حامله على حال ولا يصدق اذا قال فأبعده الله من خليقة مذمومة وشيمة لم تزل في اهل الفضل معدومة وجميع ما ورد في مدح الصدق من آيات وأخبار فهو ذم للكذب مضافاً

الى قوله تعالى « انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » وقوله تعالى « ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » الى غير ذلك من الآيات التي في ذم الكذب وأما الاخبار التي في ذمه فأكثر من ان تحصر وأما الحكم المنثورة والآثار المأثورة في ذم الكذب فأجل من ان تحصى وابعد من ان تستقصى فمن ذلك قول لقمان لابنه يابني اياك والكذب فانه يشهى كلحم العصفور وان تعودته لم تصبر عنه ومنها قول الساوري في ارجوزته

والكذب فاعلم افظع المساوي　　صاحبه مشف على المهاوي

وسيجيء الكلام في ذم الكذب على التمام فى باب المعاملات والمقصود هنا بيان المواضع للصدق والكذب

﴿ اعلم ﴾

ان للكذب موارد يسوغ فيها شرعاً وعقلاً ويرتفع فيهاقبحه وربما وجب في بعضها كما ان للصدق مواضع يقبح فيها شرعاً ويذم عقلا وان لم يسوغ فيها الكذب أما مواضع قبح الصدق فأمران الاول الغيبة وهي صدق محظور والا فهي بهتان كما ورد في الحديث انه سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغيبة قال هي ان تقول في اخيك ما يكره فان كنت صادقاً فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته والغيبة جنبك الله اياها اذم الافعال مقصداً واخبث الاقوال معتقداً وأسوأ الاخلاق مذهبا واصعب الاحوال مركبا وقد قرنها الله عز وجل بأكل الميتة فقال سبحانه « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ايحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً » الآية يعني كما لا يحل اكل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا والغيبة خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر . وقال بعض الادباء لابنه يابني لا تغتبي وان لم تكذب فلئن صدقت لقد اسأت ولئن

كذبت لقد جمعت اشتات الفسق يعني بذلك الغيبة والكذب . وقيل الغيبة آدام كلاب الناس . وفي بعض الحكم من اكل خبزه بلحوم الناس لم يصن نفسه من ادناس . ومن الحكم المنثورة من عرف بثلاث استوجب ثلاثاً ومن عرف بالبخل استوجب الذم ومن عرف بالكذب استوجب المقت ومن عرف بالغيبة استوجب الخزى اخذه بعض الشعراء فقال

ما اقبح الشيم المخلة بالفتى واشد منها شيمة الكذاب
واشد من هذا وهذا ان يري لهج اللسان بغيبة الغياب
فاذا الفتى جمع الثلاث ولم يلذ مما جنى في عمره بمتاب
فلذاك اشأم من مشى فوق الثرى ولو استضاف لاكرم الاحساب

(الموضع الثاني) من مواضع الصدق الذميمة افشاء السر والسعاية والنميمة وكلها عائدة الى أصل واحد محظور وهو كشف أمر مستور أما النميمة فهي والكذب رضيعا لبان وفي مساور الدناءة فرسارهان بل هي أضر من الكذب في فساد أمر الانسان وربما أدت الى سفك الدماء وانتهاك المحارم واستباحة الاموال روى عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال شر الناس المثلث قيل وما المثلث قال الساعي بالنميمة فانه يهلك نفسه ومن سعى به ومن سعى اليه وقال رضي الله عنه في قول الله سبحانه وتعالى ويل لكل همزة لمزة هو المشاء بالنميمة بين الاخوان وقال بعض المفسرين في قول الله عز وجل وامرأته حمالة الحطب انها كانت تمشي بالنميمة ومثل ذلك قوله عز وجل من قايل لنبيه ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بشر كم قالوا بلى يارسول الله قال المنشؤون المفسدون بين الاحبة وروى عن امير المؤمنين صلى الله عليه وآله وعلى بنيه الطاهرين

ان رجلا سعى اليه برجل فقال له ياهذا نحن نسأل عما قلت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت ان نقيلك اقلناك . ومنه اخذ عمر بن عبد العزيز هذا التفصيل لما دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر ان شئت نظرنا في امرك فان كنت كاذبا فانت من اهل هذه الآية همّاز مشاء بنميم وان شئت عفونا عنك فقال العفو . ومن هذا يظهر ان النميمة صدق مذموم واعلم ان اسم النميمة انما يطلق في الاكثر على من ينم قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا والحق انها ليست مختصة به بل حدها على ماعرفت الاشارة اليه في صدر الفصل هي كشف مايكره كشفه سواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالايماء أو بالرمز اليه والاشارة بقوله تعالى ويل لكل همزة لمزة وقوله تعالى همّاز مشاء بنميم وسواء كان المنقول من الاعمال أو من الاقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه او لم يكن فحقيقة النميمة هتك الستر عما يكره كشفه الا انه ان كان المنقول عيبا ونقصا في المنقول فقد جمع النمام بين الغيبة والنميمة وازاد في الطنبور نغمة والنميمة وان كانت بالاصل غيبة ايضا ولكنها بهذا الحال اقبح وقال بعضهم النميمة جامعة للغيبة فكل نمام مغتاب وليس كل مغتاب نمام كذا قيل والحق ان بين النميمة والغيبة عموم وخصوص من وجه لا مطلقا يجتمعان فيما اذا نقل كلام أحد في آخر الى المقول فيه بغياب المنقول عنه وتفترق النميمة عن الغيبة فيما اذا نقل اليه بحضور القائل فانها نميمة وليست بغيبة وتفترق الغيبة عن النميمة فيما اذا نقل الى غير المقول فيه بغياب القائل له فهذه غيبة وليست نميمة وعلى كل حال قبح النميمة أشد وأعظم من قبح الغيبة اذ لا يحصل في الغيبة من المفاسد مثل ما يحصل من النميمة من تقاطع المتواصلين وتباغض

المتحابين. اغتاب الاعمش رجلا من أصحابه قيل له قل له ماقلته حتى لا تكون غيبة فقال له الاعمش قل له انت حتى تكون نميمة اشارة الى ان النميمة اقبح واما افشاء السر فهو صدق مذموم أيضاً وهووان كان امر آخر غير النميمة كما اذا نقل الى المقول فيه صار نميمة وافشاء وكان أشد قبحاً منها سيما اذا استودع واكد على كتمانه واما اذا نقل الى المقول فيه بغياب القائل له تضاعف قبحه اذ يكون افشاء ونميمة وغيبه فاذا قصد الناقل اضرار القائل به كان اشد واعظم اذ الفتنة اشد من القتل وكل ذلك يسمي صدقاً فلا يذهب عليك ان الصدق حسن في جميع المواضع وافشاء السر من جملته وقد سئل بعض العلماء أي خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السر وقبول قول كل احد ومن نوابغ الكلام فلان انم من الزجاج واثقل من الخراج اخذه عبد الله بن الحجاج فقال

لحى الله امرءا اعطاك سراً　　فبحت به وفض الله فاه
فانك بالذي استودعت منه　　انم من الزجاج بما وعاه

«وقال ابن وكيع أيضاً»

ينم بسر مسترعيه سراً　　كما نم الظلام بسر نار
انم من النصول على مشيب　　ومن صافي الزجاج على عقار

واما السعاية فهي أيضا من جملة الصدق ونوع من أنواع النميمة والفرق بينها وبين غيرها من النميمة فيما اذا كان النقل الى من يخاف جانبه فتسمى حينئذ سعاية وبذلك تعرف أنها اشد قبحا من سائر النميمة اذ قد يؤمن بسائر النميمة الضرر وبها لا يؤمن فهي أقبح وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله الساعي بالناس الى الناس لغير رشده يعني ليس بولد حلال وذكرت السعاية

عند بعض الصالحين فقال ماظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم وهذا ينبهك على ان السعاية صدق غير محمود وسعى رجل بزياد الاعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فاقبل زياد على الرجل فقال له

فانت امرء اما ائتمنتك خاليا فخنت واما قلت قولا بلا علم

فانت من الامر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والاثم

ورفع بعض السعاة الى الصاحب ابن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها السعاية قبيحة وان كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ومعاذ الله ان نقبل مهتوكا في مستور ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك فتوق ياملعون العيب فان الله أعلم بالغيب الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمرة والساعي لعنه الله هـذا واذا كانت السعاية من جملة الصدق فكيف يحمد الصدق في جميع موارده ام انى يجوز للانسان ان يستعمله في جميع مقاصده متخيلا انه معذور فيه وعن جميع الآفات والعيوب بنجيه والله اعلم

(تنبيه)

قد عرفت قبح الغيبة وذمها وان كانت صدقا ولكن لها موارد تسوغ فيها ويعذر عند الله جانيها لا بأس بالتنبيه عليها وقد نظم بعضها الشيخ نجم الدين علي بن محمد بن مكى الشامي العاملي رحمه الله بقوله

وجوزوا الغيبة في مواضع لكنها قليلة الموانع

كردع شخص يفعل القبائحا او كان للشاهد ايضا جارحا

او وصفه بما به يمتاز بفعله كي يحصل احتراز
ففي الحديث الفاجر اذكروه يعرفه الناس فيحذروه
وكل ذا مع عدم التقية والخوف من ذي الشيم الردية

فهذه ثلاث مواضع تسوغ فيها الغيبة وان كانت خصلة معيبة (اما الاول) فوضع الاستعانة بها على تغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الصلاح فانه اذا ذم بفعله واستغيب ردعه ذلك عن ارتكاب القبايح وانما تباح بشرط ان يكون المقصود ذلك والا فهي حرام (واما الثاني) فوضع التزكية فان المزكي اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا (واما الثالث) فالتحذير بها للمسلم من الشر فاذا رأيت فقيها يتردد الى فاسق وخفت ان يتعدى اليه فسقه فلك ان تكشف له فسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية الفسق لغيره وذلك موضع غرور اذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة او بالضيق او بعيب آخر فلك ان تذكر ذلك فان في سكوتك ضرراً للمشتري وفي ذكرك ضرر العبد ولا ريب ان مراعاة جانب المشتري اولى وكذلك المستشار في التزويج له ان يذكر ما علم به المفسدة لمن اراد التزويج على قصد النصيحة فان علم انه يترك التزويج بمجرد قوله انها لا تصلح لك فيه الكفاية ولا ينبغي ان يتجاوزه وان علم انه لا ينزجر الا بالتصريح بعينه فله ان يصرح به ومثل ذلك المستشار بايداع امانة الى شخص او ما في معنى ايداع الامانة وعلم بحال المودع او غيره انه لا يصلح لذلك فله التنبيه للمستشير له على ذلك بالاشارة ان امكن والا بالتصريح على قصد النصيحة ايضا لا على قصد الوقيعة وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله اترغبون عن ذكر الفاجر

متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس وهذا هو المقصود بقول الناظم رحمه الله تعالى

فقي الحديث الفاجر اذكروه يعرفه الناس فيحذروه

وقد تباح الغيبة في مواضع أخر لم يذكرها الناظم منها التظلم فان المظلوم من جهة قاض او وال أو غيرهما فله ان يتظلم الى السلطان او الى من يأخذ له حقه منه وينسب الظالم الى ظلمه اذلا يمكن استيفاء حقه الا به وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان لصاحب الحق مقالا وقال عليه السلام مطل الغني ظلم وفي حكم ذلك الاستفتاء كما يقول للمفتي ظلمني ابي أو زوجي أو أخي وكيف طريقي في الخلاص والتعريض اسلم بأن يقول ما قولك فيمن ظلمه ابوه أو أخوه أو زوجته وان كان التعيين بهذا القدر مباحاً ومنها ان يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن غيبة مثل الاعور والاعمش والاعرج وهذا كثير شائع بين الناس فلا أثم بان يقول قال لي فلان الاعرج كذا وكذا اوجاءني اليوم فلان الاحدب وما يجرى مجرى ذلك على قصد التعريف ان لم يكن معروفا الا بذلك اللقب وقد فعله العلماء ورواة الحديث لضرورة التعريف ولان ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد ان قد صار مشهوراً به والتعريف بعبارة أخرى أولى ولذلك يقال للاعمى البصير عدولا عن اسم النقص ومنها المتجاهر بالفسق كالمجاهر بالخمر والتخنث والمتظاهر به بحيث لا يستنكف من ان يذكر به لا اثم بغيبته لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له وروي عنه صلى الله عليه وآله انه قال ثلاثة لا غيبة فيهم الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه الحديث فهؤلاء الثلاثة جميعهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون

ذلك وهم يقصدون اظهاره. وحقيقة الغيبة الكشف عما يكره كشفه فاذا كان منكشفاً بصاحبه فلا محذور حينئذ بالغيبة لاسيما من لا يبالي بها فالغيبة انما تكون محظوره من حيث انها تعرض لعرض مصون لا من حيث انها تعرض لعرض زيد على الخصوص فافهم فهذه موارد ثلاثة فاذا اضيفت للمواضع الثلاثة السابقة بلغت ست مواضع يرتفع فيها قبح الغيبة ويعذر مرتكبها واما المواضع التي يسوغ فيها الكذب وربما حرم في بعضها الصدق فثلاثة الاول منها الضرورة اليه فيسوغ معها بالادلة الاربعة اما الكتاب فقد قال الله تعالى «الامن اكره وقلبه مطمئن بالايمان» وقال سبحانه «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقاة». وأما الاخبار فقد قال صلى الله عليه وآله مامن شيء الا وقد أحله الله لمن اضطر اليه وقد اشتهر ان الضرورات تبيح المحظورات والاخبار في ذلك أكثر من ان تحصى وقد استفاضت وتواترت بجواز الحلف كاذبا لدفع الضرر البدني أو المالي عن نفسه أو أخيه وأما الاجماع فاظهر من ان يدعى أو يحكى وأما العقل فمستقل بوجوب ارتكاب أقل القبيحين واهون الضررين وقد سبقت الاشارة الى هذا المعنى في الموازين العقلية فراجع هناك هذا وربما كان الكذب واجباً في هذا الموضع في بعض الاحوال كما لو ان رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى اليك فقال ارأيت فلاناً فالكذب ممنا واجب ان قلت لم اره واذا كان الكذب واجباً فالصدق محرم كما عرفت في امر النميمة ولعلها اهون من هذا الحال اما الموضع الثاني من المسوغات اصلاح ذات البين وتواصل المتقاطعين فان الكذب يحمد في هذا الموضع كما ان الصدق يذم في التفرقة بين المجتمعين

والقاء البغضاء بين المحبين قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً . وهذا الحديث يدل ايضا على وجوب الاصلاح بين الناس لان ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب الا بواجب آكد منه وقالت اسماء بنت يزيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما وروي عن ابي كاهل قال وقع بين اثنين من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت احدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت اهلكت نفسي وأصلحت بين هذين فأخبرت النبي صلى الله عليه وآله فقال يا ابا كاهل اصلح بين الناس ولو بالكذب وعن الصدوق في كتاب الاخوان بسنده عن ابي الحسن الرضا عليه السلام قال ان الرجل ليصدق على اخيه فيصيبه عنت من صدقة فيكون كذاباً عند الله تعالى وان الرجل ليكذب على اخيه يريد به نفعه فيكون عند الله صادقاً والاخبار في هـذا المعنى كثيرة « الموضع الثالث » ارضاء الاهل وتطييب قلوبهم فان الكذب فيه جائز لاستفاضة الاخبار في الترخيص به عند ارادة ارضائهم فمنها ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة الا ان يكذب الرجل في الحرب فان الحرب خدعه او يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما او يحدث امرأته ليرضيها ومنها ما روى أيضاً عنه صلى الله عليه وآله انه قال رجل كذب على اهلي قال لاخير في الكذب قال اعدها واقول لها قال لاجناح عليك ومنها ماروي عن ام كلثوم قالت ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يرخص

في شيء من الكذب الا في ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها ومنها ماروي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام انه قال كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوما الا كذبا في ثلاثة رجل كايد في حربه فهو موضع عنه ورجل اصلح بين اثنين يلق هذا بغير مايلقى هذا يريد بذلك الاصلاح ورجل وعد اهله وهو لا يريد ان يتم لهم والاخبار في هذا المعنى أكثر من ان تحصر فلنقتصر على هذا القدر اليسير منها وقد ظهر لك ان الكذب يسوغ في هذه المواضع الثلاثة وفي معناها ماعداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره أما ماله فمثل ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله ان ينكره أو يأخذه سلطانه فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله ان ينكر ذلك فيقول مازنيت وماسرقت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل ان يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وان كان كاذبا واما مال غيره ودمه فله ان يحفظه ولو بالكذب كما اذا سئل عن انسان مطلوب ماله او دمه ظلما وهو يعلم به فليس بل عليه ان ينكره مهما وجد سبيلا للانكار كما هو معروف من قضية هاني بن عروة ولما سئل عن مسلم بن عقيل رضي الله عنه واما عرض غيره فكذلك يتعين عليه حفظه وله الانكار اذا سئل عن سر اخيه هذا في معنى الموضع الاول واما ما في الموضع الثاني والثالث فبان يصلح بين اثنين وان يصلح بين الضرات من نسائه بان يظهر لكل واحدة انها احب اليه وان كانت امرأته لاتطاوعه الا بوعد لايقدر عليه فيعدها في الحال تطيبيا لقلبها كما عرفت مثاله في الحديث المروي عن الصادق

عليه السلام وكذلك ان يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا محذور به وخلاصة الكلام في ذلك ان الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه محظور لان في الصدق مندوحة عنه وان لم يمكن التوصل اليه الا بالكذب فحكم الكذب حينئذ يختلف باختلاف حكم تحصيل ذلك المقصود فان كان تحصيله مباحاً فالكذب فيه مباح كما هو في الموضع الثاني والثالث وان كان تحصيله واجباً فالكذب فيه واجب كما هو في الموضع الاول من هذه المواضع فمهما كان في الصدق سفك دم امرء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم اصلاح ذات البين او ارضاء الاهل الا بكذب فالكذب فيه مباح الا انه ينبغي ان يحترز منه ما أمكن لأنه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنه والى مالا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً بالاصل الا لضرورة والحد فيه ان يقابل المحذور الحاصل من الكذب بالضرورة الداعية اليه وهو المحذور من الصدق ويزن بالميزان القسط فاذا تبين عنده ان المحذور من الصدق اشد وقعاً من محذور الكذب شرعاً فله الكذب ارتكاباً لاقل الضررين وأهون القبيحين وان كان محذور الصدق اهون من محذور الكذب وجب الصدق وان تقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق اولى لان الكذب يباح لضرورة او حاجة مهمة فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليه. هذا وقد ظن من لا خبرة له بشدة قبح الكذب على الله ورسوله انه يجوز وضع الاحاديث في فضائل الاعمال وفي التشديد في المعاصي وكذلك في الامور المهيجة للبكاء على الحسين الشهيد

وزعموا ان القصد منه صحيح وهو خطاء محض لقول رسول الله صلى الله عليه وآله من كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار وهذا لا يرتكب الا بضرورة ولا ضرورة اذ في الصدق مندوحة عن الكذب وفيما ورد من الآيات والاخبار الكثيرة عن النبي والائمة الاطهار كفاية عن غيرها فان قيل ان ذلك قد تكرر على الاسماع وسقط وقعه وما هو جديد فوقعه في القلب اعظم . فهذا هوس اذ ليس هذا من الاغراض التي تقاوم محذور الكذب على الله وعلى رسول الله والائمة الميامين

(تنبيه)

مهما امكن الفرار عن الكذب عند الاضطرار اليه بالمعاريض فهو والتورية اولى من الكذب الصراح . كما روى عن رسول الله صلى لله عليه وآله انه تطرف برداء وانفرد عن اصحابه فقال رجل ممن انت قال من ماء فروى عن الاخبار بنسبه بامر يحتمل فظن السائل انه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما اراد رسول الله صلى الله عليه وآله انه من الماء الذي يخلق منه الانسان فبلغ ما احب من اخفاء نفسه وصدق في خبره . وروي ان مطرفا دخل على زياد فاستبطاه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبي منذ ما فارقت الامير الاما رفعني الله تعالى وروي عن بعض العارفين انه كان اذا طلبه من يكره ان يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس هيهنا كيلا يكون كذباً . وكان بعضهم اذا طلب في المسجد وهو يكره خط داره وقال للجارية ضعي اصبعك فيها وقولي ليس هيهنا وهذا كله فرار عن الكذب وستأتي زيادة توضيح لهذا المعنى في التورية للتخلص بها في اسباب التخلص من فصول السياسات وهذا آخر كلام في المقام الاول والحمد لله رب العالمين

المقام الرابع في السبب الرابع

من اسباب التصنيع والافساد للمهمات وهو الافراط والتفريط والكلام ايضاً في موضعين

(الموضع الاول)

في ذم الافراط والاكثار وحسن الاقلال والاقتصار والكلام فيه ايضاً تارة في قبح الافراط والتفريط والاكثار واخرى في حسن الاقلال والاقتصار والاختصار فهذان وجهان

(الاجه الاول)

في ذم الافراط والتفريط ويتحقق ذلك في فصول ثلاثة

(الفصل الاول)

في تعريفهما وذمهما . اما التعريف فالافراط هو فعل الشيء في موضعه وغير موضعه والتفريط هو تركه في موضعه وعند باعثه . وقيل الافراط التجاوز عن الحد ويقابله التفريط والمعنيان واحد والافراط اذا وقع في الكلام يسمى هذراً ويقابله العي وفي الاموال يسمى اسرافاً ويقابله الاقتار . فالاسراف هو صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي والاقتار هو النقص عن القدر الكافي والحد الوسط بينهما القصد . وقيل الاسراف هو التجاوز عن المعتاد الى غيره نظراً الى قوله تعالى لتأتون الرجال شهوة الى قوله بل انتم قوم مسرفون اي متجاوزون الحد المعتاد الى غير المعتاد وعلى هذا فالاسراف لايختص بالاموال اطلاقاً وفي الاموال يقال السرف مجاوزة الحد في النفقة والاقتار التقصير عما لا بد منه هذا هو التعريف . واما الذم

فسيأتي ذم الافراط والتفريط في الوجه الثاني عند الكلام على الوقوف على الحد الوسط واما الاسراف فلا اشكال في قبحه عقلا . واما شرعا فلا كلام في تحريمه . ويدل عليه الاجماع القطعي بل الضرورة الدينية والآيات المتكثرة والاخبار المعددة وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز (كلوا واشربوا ولا تسرفوا فانه لا يحب المسرفين) وقال عز جاره في سورة النساء ولا تأكلوا اسرافاً وبداراً وقال جل اسمه في سورة الفرقان الذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ذكره في سورة المؤمن وان المسرفين هم اصحاب النار . واما الاخبار فمنها رواية داود البرقي عن ابي عبد الله قال ان القصد امر يحبه الله وان السرف امر يبغضه الله حتى طرحك النواة فانها تصلح لشئ وحتى صبك فضل شرابك . ومرفوعة عن علي ابن محمد عن امير المؤمنين انه قال القصد مثراة والسرف مسواة يعني مهلك متلف هذا وسيأتي ذكر بقية الآيات والاخبار في مطاوي الفصول والوجوه الآتية وينبغي التنبيه على ما يعد من الاسراف المذموم وهو امور ثلاثة الاول كل امر نافع او كل ما يزيد نفعه على ضرره او مؤنته قال الفقهاء الاصح ان صرف الاموال في الصدقات ووجوه الخيرات وفي المطاعم والملابس ليس تبذير ولا اسرافا لان في الصدقات عوضا وهو حصول الثواب ولان المال انما يجمع للانتفاع به في المآكل والملابس وغير ذلك وربما يستدل على هذا بما يروي عن أمير المؤمنين في كل شئ يذم السرف الا في صنايع المعروف والمبالغة في الطاعة ويروي عن الصادق عليه السلام انه قال ما انفقته فنفع في دنيا أو آخرة فليس من الاسراف وان كثر وما انفقته فضر في دنيا أو آخرة فهو من الاسراف وان قل والمراد بان ما كان

النفع فيه زايداً على المؤنة ليس من الاسراف ومن هذا المعنى قولهم لا اسراف في الضياء فتأمل. ولما قيل لبعض الكرماء لا تسرف فلا خير في الاسراف قال لا اسراف في الخير فكان الجواب رد عجز الفقرة على صدرها وبه حصل المعنى الثاني كل ما فيه وقاية للنفس عن المضار فليس من الاسراف والاكثار قال بن الهبارية في الصادح والباغم

وأبذلن نفايس الاموال　　تدفع بها شدائد الاهوال

فالمرء يفدى نفسه بوفره　　عساه ان ينجو به من أسره

كذاك في الشطرنج يفدى الشاه　　بغيره من فرط ما يخشاه

وهذا لا يختص بالمال بل كل ضرر يدفع به ما هو اعظم منه لا يكون اسرافاً فان رجحان ارتكاب أقل الضررين يدفع قبح الاسراف وقد قيل .

ألم تر ان المرء تدوى يمينه　　فيقطعها عمداً ليسلم سائره

الثالث ما فيه وقاية العرض فقد روى عن أمير المؤمنين انه قال لم يذهب من مالك ما وقى عرضك وفي الحديث خير المال ما وقى به العرض ومنه قول السموؤال

اذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه　　فكل رداء يرتديه جميل

(وقال حسان بن ثابت)

أصون عرضي بمالي لا أدنسه　　لا بارك الله بعد العرض بالمال

احتال للمال ان أودى فاجمعه　　ولست للعرض ان أودى بمحتال

« وقال آخر »

اني اذا امكنتني ساعة سعة　　زينت بالبذل أوصافي وأحوالي

اما شكور فزين لي اعانته　　اوالكفور فمرضي صنت بالمال

هذا وقد تبين ان مادون هذه الموارد يكون الاسراف مذموماً قبيحا عقلاً وشرعاً وكما يذم الاسراف والاكثار يذم أيضاً البخل والاقتار وكفى بالبخل مذمة وخساسة ان البخيل يمتنع من اقتراف الحسنات مع افتقاره اليها ويجانب مباح الشهوات مع اقتداره عليها وربما ترك الطبيب وان احجفت به العلة ولا يرى دفع المكروه عن نفسه اذا ادركته الذلة لكثرة الاشفاق على الانفاق واعلم ان الاقتار المذموم لا يختص بامساك المال بل كل ما هو نقص عن المقدار الكافي مذموم كما حكي ان اعرابياً صلى ركعتين خفيفتين ثم قال اللهم زوجني الحور العين فقيل له أسأت النقد وأعظمت الخطبة هذا ولكن في المال أقبح كما حكي ان بعض الملوك خرج ليلة متنكراً فأتى الى بقال وقال عندي نصف فلس أريد منك شمعة تشتعل الى الصباح حتى لا انام فقال نصف فلس لا يحصل فيه شمعة كما تقول ولكني اعطيك رأساً من الثوم تضعه في دبرك فيحرقك حرقاً شديداً لا تنام منه الى الصبح فلما صار النهار وجلس على سريره طلبه فعرفه البقال وخاف منه فأمن عليه واجزل عطيته وحكى بعض المؤرخين قال انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر بن المنصور والفضل بن الربيع في طريق الصيد فلقوا اعرابياً فصيحاً فولع به عيسى الى ان قال له يا ابن الزانية فقال له بئسما قلت قد وجب عليك ردها أو العوض فارض بهذين المليحين يحكمان بيننا قال عيسى قد رضيت فقال للاعرابي خذ منه دانقين عوضاً عن شتمك فقال أهذا الحكم قالا نعم قال فهذا درهم خذوه وأمكم جميعا زانية وقد أوجبت لكم بدل ما وجب لي عليكم فغلب عليهم الضحك

وماكان لهم سرور في ذلك النهار الاحديث الاعرابي وضمه الرشيد الى خاصته

(الفصل الثاني)

في الزيادات المذمومة وهي كثيرة والذي استصفيناه منها أربع أنواع (النوع الاول) الزيادة المغني عنها غيرها وكثيراً ماتقع في الكلمات عن عي أوعن غير التفات وقد وجدت كثيراً في كلام المفلقين من البلغاء كالصابي وابن العميد فمن ذلك قول الصابي في تحميده الحمد لله الذي لاتدركه الاعين بالحاظها ولاتحده الالسن بالفاظها ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها ثم انتهى الى الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله فقال لم ير للكفر أثراً الاطمسه ومحاه ولارسما الا ازاله وعفاه واذا نظرت الى كلامه تجد لافرق بين مرور العصور وكرور الدهور . وكذلك لافرق بين محو الاثر وتعفية الرسم فكل واحدة من الفقرتين مغنية عن الاخرى ومايستغنى عنه زيادة مذمومه . ومثل ذلك ماحكي عن محمد بن عبد الملك الزيات أنه قام اليه رجل فقال له اني مظلومك فقال هذا كلام يحتاج الى شهود وبينه واشياء غير ذلك فقال الرجل أصلحك الله الشهود هم البينة والبينة هم الشهود وأشياء غير ذلك حصر وعي والزيادة هي نقص في القيام بحجتك فضحك منه وكشف ظلامته . ونظير ذلك ماحكى عن عبد الملك بن مروان بن الحكم انه بعث الى ابن أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفة حمراء وكتب اليه اما بعد فقد بعثت اليك قطيفة حمراء حمراء حمراء فكتب اليه الوليد اما بعد فقد وصلت القطيفة وانت ياعم أحمق أحمق أحمق . وقريب من ذلك ماحكى ان بعضهم كتب الى بعض العمال على مدينة حلب يخبره ان صندلين من سنادل

المسلمين غرقا مامثاله اعلم أيها الامير اعزك الله ان صندلين أي مركبين صفقا
أي غرقا فهلك من فيهما أي تلفوا فكتب اليه العامل كتاباً على الحكاية يستخف
به ورد كتابك أي وصل وفضضناه أي فتحناه وفهمنامافيه أي علمناه فادب
كاتبك أي أصفعه واصرفه أي اعزله واستبدل به أي غيره فانه مايق أي
أحمق والسلام أي انقضى الكتاب. وفي حكم هذا المعنى توضح الواضح
وتخصيص ماهو مستغني عن التخصيص أوتعريف ماهو معروف فان هذه
كلها زيادات مذمومة مخلة بالمقصود وستأتي الاشارة اليها عند الكلام على
الايجاز في الكلام في الموضع الثاني من هذ المقام (النوع الثاني) من الزيادات
المذمومة مالا نفع فيها فانها أقبح الزيادات لانها قد تأخذ حقها من الزمان
والمكان ولا ثمرة في وجودها فمع عدم نفعها استلزام ضررها. قال حكيم اليونان
لتلامذته كونوا كالنحل في الخلايا قالوا وكيف النحل في الخلايا قال انها
لاتترك عندها بطالا الانفته واقصته عن الخلية لانه يضيق المكان ويفنى
العسل ويعلم النشيط الكسل ونظير هذا قول بوذرجمهر لاينبغي للملك ان
يكون في حفظ مملكته اقل من البستاني في حفظ بستانه فانه اذا زرع
الريحان ونبت بينه الحشيش استعجل في قطع الحشيش لئلا يضيق اماكن
الريحان ومن هذا المعنى قول أبي العلا

والمرء مالم تفد نفعا اقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وهوان الاقامة الغير نافعة كالغيم الذي لامطر فيه يظلم الارض ويمنع
الشمس ولاينفع بالمطر وعن بعض العارفين انه ضرب مثلا لعلماء السوء فقال ان
مثل عالم السوء الحجر في الساقية لاهو يشرب الماء ولايخلي الماء يخلص الى
الشجر فيحيي به الارض ومثل هذا الزيادة الغير نافعة فانها فضلا عن تضييق

المكان يستلزم الاشتغال بها تضييع الزمان (النوع الثالث) الزيادة على مقدار الحق والاستحقاق وفي مقام توازيع الشيء على ابعاض فان الزيادة في حق احد الابعاض من غير استحقاق لها مخلة في حق الآخر ان كانوا متساوين في المقدار وان كانوا متفاضلين فمع الاخلال بحقه تنزيل لقدره واسقاط لمنزلته وعلى كلا التقديرين تكون الزيادة ظلم ولهذا قيل من السنة اذا حدثت القوم ان لاتقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً هذا مثل لما اذا كان الابعاض متساوين واما اذا كانوا متفاضلين فالتساوي بينهم زيادة في حق المفضول ونقصان في قدر الفاضل وعلى العاقل ان يحترز من هذه الزيادة ويعطي كل ذي حق حقه وكل ذي منزلة منزلته وقد روي عن بعض ازواج النبي صلى الله عليه وآله انها كانت في سفر فنزلت منزلا فوضعت طعاماً فجاء سائل فقالت ناولوا هذا المسكين قرصاً ثم مر رجل على دابة فقالت ادعوه الى الطعام فقيل لها تعطين المسكين وتدعين هذا الغني فقالت ان الله تعالى انزل الناس منازل لابد لنا من ان ننزلهم تلك المنازل هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا ان نعطي هذا على هذه الهيئة قرصا وكذلك لو دعوت الفقير الى الطعام مع الغنى لكانت مساواة بينهما في المنزلة وهذه المساواة وان كانت نقصان في حق الغنى زيادة في حق الفقير لانه يقنع بدون ذلك ومن هذا قيل اياك ان تعطى من نفسك الا بقدر فلا تعامل الدون الكفؤ ولا الكفؤ بمعاملة الدون ولكن اعط كل ذي قدر قدره ولقد احسن بعض الشعراء في هذا المعنى بقوله

ومالي لااعطي البرية حقها ... على قدرماتعطى ونفسي ميزان

هذا في المعروف والاكرام وقس عليه البذل في المال فان ماحقه الدرهم

اذا اعطى الدرهمين نقصان في حق ماحقه الدرهمان فضلا عن اعطائه زيادة على حقه عن غير موجب للزيادة ولهذا قال بعض الملوك لابنه يابني انك ان اعطيت مالك في غير الحق يوشك ان يجيء الحق وليس معك ماتعطي ويروى عن أمير المؤمنين انه قال اذا احسن احد من اصحابك فلا تخرج اليه بغاية برك ولكن اترك منه شيئاً تزيده اياه عند تبينك منه الزيادة في نصيحته وقس على هذا نفقة الايام فان الزيادة للنفقة في بعضها موجبة لنقصانها في غيرها مالم يكن المال وافيا وذلك لايكون الا عن جهل ولهذا قال بعض العقلاء اني لابغض اهل بيت ينفقون رزق الايام الكثيرة في يوم واحد انتهى وهذه النبذة اليسيرة مقنعة لذي البصيرة بان يجعلها اصلا يقيس عليها الزيادات المذمومة من امثالها (النوع الرابع) من الزيادات المذمومة الزيادة في الانفاق على مقدار السعة في الارزاق وهذه الزيادة اعظم الزيادات قبحا فان المصروف اذا زاد على الحاصل وعجز الواصل ودل ذلك على الجهل المتواصل ومن هذا قيل العاقل الماهر في التجارة كما يحسب الربح يحسب الخسارة ومنه ايضا ماقيل التقدير احد الكاسبين ومنه قولهم في الامثال جرع وأوشال ومعنى الجرع شرب الماء ريّاً والوشل الماء القليل اي المال القليل وانت مسرف فترفق والا اتيت على مالك ومنه قولهم اطمئن على قدر ارضك وهذا قريب من قول العامة مد رجلك على قدر الكساء ومنه اخذ الشاعر معنى قوله

اذا مالا يكافئني معاشي ... على قدر الفراش مددت رجلي

« ومثله ايضاً »

لعمرك ليس امساكي لبخلي ... ولكن لا يفي بالخرج دخلي

ومن طبعي السماحة غير اني على قدر البساط مددت رجلي

ومما يدل على قبح الانفاق زيادة على مقدار المقدور قول الله سبحانه وتعالى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما اتاه الله وقول امير المؤمنين اذا رزقت فاوسع واذا حرمت فاقنع ومنه أخذ ابو الاسود الدؤلي فقال يوصي ابنه اذا وسع الله عليك فابسط واذا امسك عليك فامسك

ومنه قول بعض الشعراء يوصي ابنه

واستغن ما اغناك ربك بالغنى واذا تصبك خصاصة فتجمل

وقال أمير المؤمنين عليه السلام افضل الناس عقلاً أحسنهم تقديراً لمعاشه وأشدهم اهتماماً لاصلاح معاده يريد عليه السلام ان الزيادة في المعاش على المقدار المقدور نقصان في العقل والمساواة زيادة فيه لأن العقل انما رزقه الله الانسان لاصلاح امرَي معاشه ومعاده فاذا أفسدهما بالاسراف فلا عقل له وروي عن الحسين عليه السلام انه قال لا تتكلف مالا تطيق ولا تطلب من الجزاء الا بقدر ما صنعت ولا تنفق الا بقدر ما تستفيد الحديث فالنفقة زيادة على المقدور سرف منشؤه الغرور واليه الاشارة بقول الامام الصادق ابي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام رب فقير اسرف من غني فقيل له كيف يكون الفقير اسرف من الغني فقال ان الغني ينفق مما اوتي والفقير ينفق من غير ما اوتي وههنا قاعدتان ينبغي الحاقهما بهذا العنوان. القاعدة الاولى ان الفضل من الفاضل على مقدار الواجب ينبهنا عليها قوله جل اسمه « ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو » الآية والعفو كما عن الباقر عليه السلام ما فضل عن قوت السنة وما روي عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام انه سأله رجل عن قول الله تعالى واتو حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين

فقال كان فلان بن فلان الانصاري سماه وكان له حرث فكان اذا اخذه يتصدق به ويبقى هو وعياله بغير شيء فجعل ذلك سرفا وماورد في الحديث خير الصدقة ما كانت عن ظهر غنى اي ما كان عفواً قد فضل عن غنى وقيل اراد ما فضل عن قوت العيال وكفايتهم فاذا أعطيتها غيرك ابقيت بعدها لك ولهم شيء وكانت عن استغناء منك ومنهم ومثله خير الصدقة ما ابقت غنى اي ابقت بعدها لك ولعيالك غنى وكفايةوما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوما لاصحابه تصدقوا فقال رجل ان عندي ديناراً فقال انفقه على نفسك فقال ان عندي آخر قال انفقه على زوجتك قال ان عندي آخر قال انفقه على خادمك قال ان عندي آخر قال صلى الله عليه وآله أنت ابصر به وهذا الحديث ينبهك على مهمات كثيرة من مهمات المعاش والمعاد عدا هذه القاعدة ان كنت متفطنا واما هذه القاعدة فللعاقل اصل يقيس عليها وان الفضل لا يكون الا بعد الفاضل من المهمات فتقدر المهمات وما زاد عليها لا يعد اسرافا وبدون ذلك فاسراف وزيادة من اقبح انواع الزيادات اذ هو ضياع للمهمات وتفريط في الواجبات (القاعدة الثانية) كلما كان حقاً لبعض الجهات فالأخذ منه لغيرها اسراف وزيادة من اقبح أنواع الزيادات واليها الاشارة بما قال أمير المؤمنين عليه السلام وقد طلب رجل من بيت مال المسلمين شيئاً وهو ممن لا يستحق ان يعطيه منه ان هذا المال ليس لي ولا لك وانما هو للمسلمين وجلب اسيافهم فان شركتهم في حربهم شركتهم فيه والا فجنى ايديهم لا يكون لغير افواههم وفي هذا الحديث تنبيه للعاقل على ان يفرض ما بيده لجهته الذي هو لها وما عداها لا يشاركها فيه وقد روي عن يحيي ابن زكريا انه كان يعمل بالطين وكان اجيرا القوم فقدموا اله رغيفاً

اذ كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا ان الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني اعمل لقوم بالاجرة فقدموا الي الرغيف لاتقوى به على عملهم. ومثل ذلك ماحكي ان بعضهم دخل على زاهد وهو يأكل فقال لولا اني اخذته بدين لاطعمتك منه . هذا واحسن مايمثل لهذه القاعدة توضيحاً حكاية شن وهي على ماذكر بعض المحدثين ان شنا كان من دهاة العرب فقال والله لاطوفن حتى اجد امرأة مثلي فاتزوجها فسار حتى لقي رجلا يريد قرية يريدها شن فصحبه فلما انطلقا قال له شن اتحملني ام احملك فقال الرجل ياجاهل كيف يحمل الراكب الراكب فسار حتى رأيا زرعاً قد استحصد فقال شن اترى هذا الزرع قد أكل ام لا فقال ياجاهل اما تراه قائماً فمرا بجنازة فقال اترى صاحبها حيا أوميتاً فقال مارأيت اجهل منك اتراهم حملوا الى القبور حيا ثم ساربه الرجل الى منزله وكان له ابنة تسمى طبقة فقص عليها القصة فقالت له اما قوله اتحملني ام أحملك فاراد اتحدثني ام احدثك حتى نقطع طريقنا واماقوله اترى هذا الزرع قد أكل ام لا فاراد اباعه اهله فاكلوا ثمنه ام لا . واما قوله في الميت فانه اراد اترك عقبا يحيا به ذكره ام لا فخرج الرجل فحادثه ثم اخبره بقول ابنته فخطبها شن اليه فزوجه اياها فحملها الى اهله فلما عرفوا عقلها ودهاءها قالوا وافق شن طبقة فسار مثلا والشاهد من هذه الحكاية قوله عن الزرع أكل ام لا ومراده ان اهله باعوه فاكلوا ثمنه فكان وجوده بايديهم كعدم وجوده وهكذا كل ما كان بيد انسان وهو لجهة معينة اما سابقة واما لاحقة فاحتسابه عليه لكونه بيده جهل محض ويعجبني اصلاح للناس في هذا الزمان وهو تسميتهم لمن هو مديون بدين

يساوي مافي يده أو يزيد عليه انه مسبوق بمعنى ان مافي يده قد سبق عليه والمقصود مما حررنا ان ما كان لجهة خاصة أو لجهات متعددة تجاوزه الى غيرها اسراف مفسد وعلى العاقل ان يقدر مافي يده ويوزعه على جهات مهماته المخصوص لها فان كان وافيا عليها وزائداً فلا محذور من التصرف بالزائد في جهات آخر وان لم يكن زائداً كان التصرف به في جهة من الجهات التي يختص بغيرها جهلا منشؤه عدم المبالاة بنظام امر معاشه أو معاده وهكذا العين التي يتجدد بها حقا مشاعا فالتصرف بها جهل لا معنى له الا الاسراف والتجاوز الى حق غير الميت وشبهه مما تحدث به الشركة وقد حكي ان بعضهم كان عند محتضر فمات ليلا فقال اطفئوا السراج فقد حدث للورثة فيها حق فمثل هذا الالتفات لا يحصل الاعند قليل من العقلاء وحكي ان المتوكل غضب على علي بن الجهم وقال لاقتلنك ولاخذن مالك ثم أمر بقتله في تلك الساعة وكان احمد بن أبي دؤاد حاضراً فقال له اذا قتلته فمن أين تأخذ ماله قال من ورثته فقال له حينئذ يأكل أمير المؤمنين مال الورثة وأمير المؤمنين يأبى عن ذلك فقال يؤخر ويحبس ونستقصي ماله فانفض المجلس وسكن غيظ المتوكل وتوصل احمد الى خلاصه. هذا وقد تسلسل الكلام وتجاوزنا الحد عن المقصود الذي كنا نعنيه وهذا أيضاً من الاسراف فما فررنا منه وقعنا فيه فليحذر العاقل في كل ما كان سبيله لجهة معينة له ان يتجاوز به الى غيرها خصوصاً في ما لايفي بالجهتين فيفسد بذلك الامرين وعليه ان يسقط من كل امر او عمل بيده ما كان فيه من هذه الزيادات الاربع فان الزيادة مفسدة كما عرفت وستعرف ان شاء الله تعالى

« الفصل الثالث »

في مفاسد الزيادة والاكثار وأفاتهما وهي كثيرة. والذي استقرأناه احدى عشر آفة وكل واحدة منها كافية في افساد المزيد فيه كيف وهو لا يخلو غالباً عن اكثر من واحدة وان احببت كشف القناع عنها فنقول وبالله المستجار منها (الآفة الاولى) النقصان والافساد ولو في غير المزيد فيه فقد قالوا السرف في الانفاق يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش وقال عبد الله بن الزبير في محاورة جرت بينه وبين ابن عباس ان السرف من طينة السخاء ولكنه جاوز الحق وما بعد الحق الا الضلال وقالوا يوشك من انفق سرفاً ان يموت أسفاً وقالوا الاسراف والتبذير يدمران الكثير وربما عرف المسرف بالافلاس وصير بالفقر مثلا بين الناس . قال بعض الملوك ما رأيت اسرافاً الا وفي جانبه حق مضيع . وفصل الخطاب في هذا الباب قول امير المؤمنين عليه السلام من اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه . وروي عن ابي وائل قال خرجت انا وابو ذر الى سلمان الفارسي فجلسنا عنده فقال لولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن التكلف لتكلفت لكم ثم جاء بخبز وملح ساذج فقال ابو ذر لو كان لنا في ملحنا هذا سعتر فبعث سلمان بمطهرته فرهنها على سعتر فلما اكلنا قال ابو ذر الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا فقال سلمان لو قنعت بما رزقك الله لم تكن مطهرتي مرهونة . هذا وفي ما جرى لرسول الله مع السائل كفاية في البيان لما في الاسراف من النقصان وذلك انه كان عنده اوقية من الذهب فكره ان تبيت عنده فتصدق بها فاصبح وليس عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتم هو اذ لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيما رفيقاً فانزل الله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل

البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، يقول ان الناس قد يسألونك ولا يعذرونك اذا اتيت على جميع ما عندك من المال كنت قد خسرت من المال الحديث وهـذا معنى ما تقـدم انك ان اعطيت جميع ما عنـدك في موضع الحق يوشك ان يجي الحق وليس معك ما تعطي . قال رجل من أهل الشام قدمت الى المدينة فقصدت منزل ابراهيم بن هرمة وكان من الكرماء فاذا بنية صغيرة تلعب بالطين فقلت لها ما فعل ابوك قالت وفد الى بعض الاجواد فما لنا به علم منذ مـدة فقلت انحري لنا ناقة فانا اضيافك فقالت والله ما عندنا قلت فشاة قالت والله ما عنـدنا قلت فدجاجة قالت والله ما عـندنا قلت فبيضة قالت والله ما عنـدنا قلت فباطل ما قال أبوك .

كم ناقة قد وجأت محرها بمستهل الشاْو بواب وجل

قالت فذلك الفعل من أبي هو الذي اصارنا الى ان ليس عندنا شيء وكان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب من الاجواد الذين يعمون بجودهم طوائف من العباد وقد انتهى به الافلاس وضيق اليد الى ان سأله رجل فقال له ان حالي متغيرة بجفوة السلطان وحوادث الزمان ولكني اعطيك ما أمكنني فأعطاه رداء كان عليـه ثم دخل منزله وقال اللهم استرني بالموت فما أوتي بعـد دعوته الا أياما حتى مرض ومات رضي الله عنـه وكان للأعمش صديق متصرف في عمل السلطان فبقي عليـه مال فحبس فزاره الاعمش متغمماً له فلما دخل عليـه رأى بين يديه سلة فيها فالوذج وهو يتغدى منها فقال والله ما لازمت الوثاق الا باسرافك في الانفاق فلو قنعت نفسك وعفت يدك لم يكن مضيق السجن مقعدك ولهذا الافلاس

اكثر الناس كلامهم في التحذير من عواقب الاسراف والتبذير وقد قدمنا بعضه في أول الكلام وللشعراء نظم كثير في مفسدة الاسراف والتبذير فمن ذلك قول بعضهم

يارب جود جر فقر امرء   فقام للناس مقام الذليل
فاشدد عرى مالك واستبقه   فالموت خير من سؤال البخيل

« وقول آخر أيضاً »

قد كنت اسرف في مالي ويخلف لي   فعلمتني الليالي كيف اقتصد

« وقول آخر مثل ذلك »

وكان المال يأتينا فكنا   نبذره وليس لنا عقول
فلما ان تولى المال عنا   عقلنا حين ليس لنا عقول

وللعقلاء ايضاً في التحفظ على المال كلام كثير وكل ذلك خوفاً من عاقبة الاسراف فمن النثر ما يقال من جاد بماله فقد جاد بنفسه. ومنه ما يقال مالك نورك فان اردت ان ينكسف فرقه واتلفه وقيل للاسكندر لم حفظت الفلاسفة المال مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا قال لئلا تحوجهم الدنيا ان يقوموا مقاماً لا يستحقونه وقال ابو الاسود الدؤلي جدنا على السؤال بكل ما يسألوننا لكنا اسوء حالا منهم وبهذا نسب أبو الاسود الى البخل وليس بانصاف فان البخل عبارة عن صنع مالا ينبغي منعه لا حفظ ما يجب حفظه خوفاً من ضرر الاسراف وتدبيراً لامر المعاش وزاد المعاد ومن ذلك ايضاً قول لقمان لابنه يابني شيئان اذا انت حفظتهما لا تبال بما صنعت بعدهما دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك . ومنه أيضاً من حفظ ماله فقد حفظ الاكثر من دينه وعرضه ودخل بعضهم دار ابنه فوجد عنده ندماء وبين ايديهم

شيء يشوى وشيء يطبخ فقال يابني دن هدور وقدر تفور وتنور مسجور هذا يخلق المال خلقاً ليس شيء بأسرع فناء من اربعة لاربعة القرطاس اذا نشر والثوب اذا قصر والدينار اذا كسر والدن اذا عقر هذا من النثر وأما النظم (فمنه قول بعضهم)

احفظ عرى مالك تحظ به ... ولا تفرط فيه تبق ذليل
وان يقولوا باخل بالعطا ... فالبخل خير من سؤال البخيل
واحفظ على نفسك من زلة ... يرى عزيز القوم فيها ذليل

(وقول آخر)

احرص على الدرهم والعين ... تسلم من العينة والدين
فقوة العين بانسانها ... وقوة الانسان بالعين

هذا كله ذم للاسراف في بذله لامدح لحفظ اصله واعلم كما ان الاكثار في البذل والانفاق موجب للنقصان والمحاق فالافراط في الامساك او الاقتار وهو النقصان عن القدر الكافي يوجب فساداً اضر ونقصاناً اكثر وقدمرت الاشارة اليه في اوائل المقام الاول وحينئذ فالسلامة في الاقتصار وهو الحد الوسط بين الاكثار والاقتار فكلا الطرفين زيادة موجبة للنقصان (الآفة الثانية) في آفات الزيادة والاكثار النقصان في خصوص نفس المزيد فيه وهذه أعم من الآفة الاولى فتلك قد تختص بصرف المال وهذه لاتختص به فهي اعم من هذا الوجه واخص من جهة النقصان لنفس المزيد فيه ونقصان تلك يتعدى الى غير المزيد فيه فلا يرد انه لافرق بين الآفتين واذا عرفت هذا فنقول قدقالوا الزيادة في الحد نقصان في المحدود يضرب مثلا في النهي عن الافراط في المدح والتعريف وقد يمثل لهذه الزيادة الموجبة للنقصان

بالخشبة المنصوبة في الشمس اذا املتها قليلا زاد ظلها واذا جاوزت بها الحد في امالتكها نقص الظل وقالوا اسوء القول الافراط لما عرفت ان الافراط في كل امر مؤد للفساد . يقال من افرط كمن فرط وهذا ايضا في النهي عن الزيادة في المدح على مقدار حده وسأل تلميذ استاذه ان يمدحه في رقعة الى رجل ويبالغ في مدحه بما هو فوق رتبته فقال لو فعلت ذلك لكنت عند المكتوب اليه اما مقصراً في الفهم حيث اعطيتك فوق حقك او متهماً في الاخبار فاكون كذاباً وكلا الامرين يضرك لاني شاهدك واذا قدح في الشاهد بطل حق المشهود له . هذا وافساد الزيادة على المقدار بالمزيد فيه يعم كل شيء وقد قيل كل شيء اذا تجاوز حده انعكس الى ضده وقد مرت الاشارة الى هذا المعنى في اسباب الزيادة والنقصان في النعم ومن هذا الباب قول بعضهم

وقد طال شرح القال والقيل بيننا   وما طال ذاك الشرح الا ليقصرا

(ومنه ايضاً قول الآخر)

وكم من فتى اهدت له حتف انفه   مفاجأة السراء وهي حياتها
كذاك الحيا نفع البلاد وربما   اضر بها حتى تموت نباتها

وذلك اذا تجاوز عند نفعه ومن هذا الباب ايضاً قول الآخر

ان في نيل المنى وشك الردا   وقياس القصد عند السرف
كسراج دهنه قوت له   فاذا اغرقته فيه طفى

ومن الامثال على ما زعموا أن امرأة كانت لها دجاجة تبيض في كل يوم بيضة فضة فقالت في نفسها ان انا اكثرت علفها باضت بيضتين فلما فعلت ذلك انشقت حوصلتها فماتت . ومعنى هذا المثل قريب من قول امير المؤمنين كم من اكلة منعت اكلات وفي المثل اكلة أبي خارجة قال اعرابي وهو يدعو

بباب الكعبة اللهم ميتة كميتة ابي خارجة فسألوه عنها فقال اكل يذحا وهو الجمل وشرب وطبا من اللبن وتروي من النبيذ وهو كالحوض من جلود ينبذ فيه ونام في الشمس فمات فلقى الله شبعان ريان دفيان ويقال أيضا كم من أكلة أكلت نفس حر وأكلة منعت أكلات دهر (الآفة الثالثة) الكلال وهذه تختص بمزاولة الاعمال والافكار أيضا والكلام وكل شيء قابل للعجز عنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله ان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى المنبت المنقطع عن أصحابه والظهر الدابة قال صلى الله عليه وسلم ذلك لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه أي غارتا فلما رآه قال له ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ان المنبت أي الذي يجد في سيره حتى ينبت اخيرا سماه بما تؤل اليه عاقبته ولهذا المعنى قال أمير المؤمنين عليه السلام قليل تدوم عليه خير من كثير تنقطع عنه. حكى ان عبد الله بن هلال كان عنده زنبيل مملوء حصى للتسبيح فكان يسبح بواحدة واحدة فاذا مل طرح اثنين اثنين ثم ثلاثا ثلاثا فاذا ازداد كلاله قبض قبضة وقال سبحان الله عددك فاذا ضجر اخذ بعرى الزنبيل وقلبه وقال سبحان الله بعدد هذا وقالوا عامل البر كآكل الطعام ان أكل منه قوتا عصمه وان اسرف منه بشمه وعلى هذا لا ينبغي ان يقال ما كان خيرا أو نافعا كلما كان اكثر كان انفع فانه كقول القائل الدواء نافع للمريض وكل ما كان اكثر كان انفع وغير خفي ان كثرة الدواء ربما تقتل الا ترى كيف ندب الله عباده الى الصلاة ونهاهم عنها في جميع النهار فامرهم بتركها قبل الزوال وقبل الصبح وبعد الطلوع وبعد الغروب وذلك ينتهي الى قدر ثلث النهار فليس ذلك الا لحكمة خفية والظاهر والله أعلم هو ما عرفت من ان الكثرة تستلزم الضجر والكلال وذلك يستلزم عدم القيام بها على

التمام وبهذا قيل اذا أردت ان تطاع فسل مايستطاع (الافة الرابعة) التفويت للمهمات وهذه تختص بالاهتمام بالجزئيات المحقرة زيادة على قدرها فيفوت بالاستقصاء لها ماهو أعظم شأناً منها لاسيما اذا كان الوقت ضيقا عن الاستيفاء ومثال ذلك على مايحكى ان رجلا دخل الجبل وعلى رأسه كارة من العدس فوضع الكارة عن ظهره ليستريح فنزل قرد من شجرة فاخذ ملء كفه من العدس وصعد الى الشجرة فسقطت من يده حبة فنزل في طلبها فلم يجدها وانتثر ما كان في يده من العدس اجمع ونظير هذه الحكاية في المعنى ماحكى انه بلغ بعض أهل الكوفة ان رجلا من واسط يعرض ضيعة له للبيع فحمل وكيله على بغل واترع له خرجاً دنانير وقال اذهب الى واسط واشتر لي هذه الضيعة فان كفاك هذا الخرج والا فاكتب لي امدك بالمال فخرج الوكيل من الكوفة قاصداً واسط فاتبعه اعرابي على حمار ومعه قوس وكنانة فقال أين تطلب قال واسطا قال هل لك بالصحبة فقال نعم ثم سار فعنت لهم ظباء فقال الاعرابي للرجل أي هذه الظباء احب اليك فاشار الى ظبي منها فرماه الاعرابي فخرمه ونزلا فشوياه واكلاه ثم ركبا وسارا فعن لهما سرب قطا فقال الاعرابي أيها تريد فاشار الى قطاة فرماها الاعرابي فصرعها ثم نزلا فشوياها واكلاها فلما فرغا منها فوق الاعرابي سهما ثم قال للرجل اين تريد يقع منك هذا السهم فقال اتق الله واحفظ ذمام الصحبة قال لابد من ذلك قال فدونك البغل والخرج فانه مترع مالا قال اقلع ثيابك فانخلع الرجل منها قال اخلع خفيك قال دع الخفين اتبلغ بهما فان الرمضاء تحرق قدمي قال لابد منهما قال دونك فاخلعهما فاهوى الاعرابي يخلعها فذكر الرجل خنجراً كان في خفه فاستخرجه وضرب به الاعرابي فقتله وقال الاستقصاء فرقة فارسلها

مثلا يضرب أيضا في كثرة العتاب والتقريع للاخوان على الجزئيات مع الكليات وهو أيضا مفسد مفوت للمودات فقد يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال من استقصا على صديقه انقطعت مودته وقال عليه السلام من ناقش الاخوان قل صديقه ومن ساء خلقه قلاه صاحبه ورفيقه . وقال صلوات الله عليه في حديث آخر اياك ان توحش موادك وحشة تقضي الى اختياره البعد عنك وايثار الفرقة . وروى عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال لبعض اصحابه انك ان تتبعت عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم وقيل اكل رجل من العرب عند معاوية فرآى على لقمته شعرة فقال خذ الشعرة من لقمتك فقال وانت كنت تلاحظني ملاحظة من يرى الشعرة لا والله لاوا كلتك بعدها ابداً . وقيل من تتبع خفيات العيوب حرم مودات القلوب وقيل اياك وكثرة المعاتبة فانها داعية للملال ومن هذا الباب قول بعضهم في ارجوزة له

لاتكثر العتابا تنفر الاصحابا

وقال آخر

اذا ما كنت منكر كل ذنب ولم تخل اخاك عن العتاب
تباعد من تقارب بعد بعد وصار به الزمان الى اجتناب

هذه مفسدة الاستقصاء والزياة فى الاهتمام بالامور الجزئية والتفقد والتجسس (الآفة الخامسة) من آفات الزيادة التثقيل على الغير وذلك يختص بالافعال . ومنه قول بعض الملوك لحاجبه احجب عني من اذا قعد اطال واذا سأل احال ولذلك قيل من علامة الاحمق الجلوس فوق المقدار وصلى امام بقوم فاطال فلما سلم لامه بعض من صلى خلفه من الظرفاء

فقال وانها لكبيرة الاعلى الخاشعين فقال انا رسول الخاشعين اليك بانك بهذه الصلاة الطويلة ثقيل عليهم فانهم لا يطيقون الصبر على احتمال بردك وقال ابن السماك لجاريته كيف ترين ما اعظ الناس به قالت هو حسن الا انك تكرره قال انما اكرره ليفهمه من لم يكن يفهمه قالت الى ان يفهمه البطي يثقل على قلب الذكي (السادسة) الحرمان فقد روى عن امير المؤمنين عليه السلام اذ قال من سأل فوق قدره استحق الحرمان . ومنه قيل من اراد زيادة لا يستحقها اصابه نقصان وهو مستحق له . ولذا قال بعض العلماء انفع الاشياء ان يعرف الانسان قدر منزلته ومبلغ عقله ثم يعمل بحسبه وقريب من هذا قول امير المؤمنين عليه السلام كثرة الحاح الرجل توجب حرمانه (السابعة) الملال قال أمير المؤمنين عليه السلام كثرة السؤال تورث الملال وقال عليه السلام كثرة الكلام تمل الاخوان وقال عليه السلام كثرة الهذر تميل الجليس وتهين الرئيس وقال عليه السلام كثرة الكلام تمل السمع وكثرة الالحاح توجب المنع وقال عليه السلام الاكثار يزل الحكيم ويمل الحليم فلا تكثر فتضجر ولا تفرط فتهن خطب رجل واطال بين يدي الاسكندر فزجره وقال ليس حسن الخطبة على حسب طاقة الخاطب ولكن على حسب طاقة السامع وخطب رجل خطبة نكاح فاخذ يطيل فقام رجل من القوم فقال اذا فرغ هذا فبارك الله لكم واعلم ان الضجر والملال لا يختص بكثرة الكلام وزيادته على قدر ما يقتضيه المقام بل في كل شيء كالمزاح والزيادة والعتاب فكل من هذه اذا تجاوز بها الحد اثرت الضجر والملال ولقد احسن القايل بقوله

عليك باقلال الزيارة انها — اذا كثرت كانت الى الهجر مسلكا
الم ترى ان القطر يسأم دائماً — ويسأل بالايدي اذا هو امسكا

(واجاد الآخر)

اقلل زيارة من تهوى مودته | فالناس من لم يؤاتيهم اجلوه
فالغيث وهو حياة الناس كلهم | ان دام اكثر من يومين ملوه

وهكذا الزيادة في المزاح والافراط بالعتاب والاكثار بالتقريع وسيأتي في الموضع الثاني لكل واحد من هذه ميزان على حدة بعد ذم الافراط والتفريط فيها (الثامنة) من آفات الاكثار والزيادة على المقدار ظهور العيوب الكامنة في المزيد فيه وذلك يحصل غالباً من الاكثار في الكلام ايضا فان الاكثار يذل اللسان ويزيل الاحسان وقد روي عن الصادق انه قال من كثر كلامه كثر كذبه وذلك كما يقال امران لا ينفكان من الكذب كثرة المواعيد وشدة الاعتذار هذا وظهور العيوب من الاكثار في الاقوال لا يكون اكثر من ظهورها في الافراط بغيرها من سائر الافعال فقد روي من دهاء عمرو بن العاص على ما في بعض التواريخ ان معاوية لما اكثر من اخراج قميص عثمان وهو مضرج بالدم واصابع زوجته نائلة وكثر البكاء والعويل من اهل الشام خشي عمرو بن العاص ان يزول ما في نفوس اهل الشام ويبحثوا عن حقيقة الامر فيقفوا عليها فقال لمعاوية اياك من الاكثار واجعل ذلك بعد مدة حتى ينسى ولا تكثر فيبحثوا فيفسد بنيان ما اردت تشييده انتهى (التاسعة) سقوط اثر الشيء الحسن وحسنه ومعناه قال امير المؤمنين كثرة الكلام تبسط حواشيه وتنقص معانيه فلا يرى له امد ولا ينتفع به احد هذا في الكلام وقس عليه سائر الامور الحسنة فانها اذا افرط فيها وكثرت ذهب حسنها وسقط اثرها الا ترى حسن الخال على الخد فانه انما يحسن اذا كان واحد او اثنين فلو استوعبت الخيلان الوجه شوهته فيعود الحسن قبحاً بسبب

الكثرة (العاشرة) التباس الحق بالباطل وضياع الواقع بالظاهر قال امير المؤمنين من جعل ديدنه الهزل لم يعرف جده وقال عليه السلام من كثر ملقه لم يعرف بشره والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى « ولا تلبسوا الحق بالباطل » الآية وبها الكفاية (الحادية عشر) النسيان وذلك كثيراً ما يقع بالاطالة بالكلام بل وسائر الافعال الا انه في الزيادة في الكلام اكثر قال بعض الخلفاء لأحد امرائه اذا وعظت فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً هذه آفات الزيادة والاكثار المطردة في غالب الأمور ولها آفات اخر لكنها تختص في بعض الموارد ستأتي الاشارة اليها في مطاوي فصول الموضع الثاني وقد تكون لها آفات اخر الا ان استقصاءها كلها يفضى الى الاطالة فلنكتفي بما ذكرناه منها فلقد بلغ السيل الربا

(الوجه الثاني)

في حسن الاقتصار والاكتفاء والاقتصاد والفرق بينهما الا الاقتصار فيما لا يكون له حد محدود وانما يحده العقل والاكتفاء فيما يكون ذو اجزاء غير متناهية او متناهيه ويحصل الاكتفاء بأحدها والاقتصار فيما يكون له طرفان مذمومان فهذه أصول ثلثة الاقتصار على ما ينبغي الاقتصار عليه والاكتفاء بما ينبغي الاكتفاء به والتوسط بين طرفي الافراط والتفريط فالكل واحد من هذه الاصول الثلاثة مقدمات كاشفة عن حسنه عقلا او شرعاً

(الاصل الاول)

وهو الاقتصار على ماينبغي الاقتصار عليه فجميع مامر من ذم الاكثار وآفات الزيادات ومفاسدها كافية في التنبيه على حسنه بقى الكلام في تفصيل مقاديره وحدوده التي ينبغي الوقوف عليها وهي اربعة حدود وحينئذ يكون

الاقتصار اربعة انواع بحسب اختلافه وحدوده (النوع الاول) الاقتصار على مقدار الضرورة الداعية الى الشيء من مأكل وملبس ومسكن وغير ذلك من ضرورات المعاش فان الزيادة على مقدار الضرورة فضول والاقتصار عليها عقل اذ لا اقل من دفع قبح الفضول فيجب على العاقل ان يعرف مقدار ما تندفع به الضرورة فتقف عليه اما من المأكل فعلى مقدار ما يحفظ به اعتدال مزاجه وقوام حياته قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن به صلبه واما من الملبس فعلى من يدفع به اذى الحر والبرد ويستر العورة وما زاد عليها فضول اذ لا اقل من تنفع لمصلحة اخرى ففي الخبر كان امير المؤمنين عليه السلام اذا اراد ان يكتسي دخل السوق فيشتري الثوبين فيخير قنبراً باجودهما فيلبس الآخر ثم يأتي النجار فيمد له احد كميه ويقول له خذها بقدومك تخرج في مصلحة اخرى ويبقى لكم الاخرى بحالها ويقول هذه تأخذ بها من السوق للحسن والحسين واما من المسكن فعلى مقدار ما يدفع به الحر والبرد ويتوقى به عن المطر ويحتفظ به عن السراق والمؤذين وتستر به نفسه وعياله عن الناظرين واقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فضول . واما من الاثاث والآلات والمقتنيات فعلى ما لا يستغنى عنه وما يحصل به المقصود واما الذي يستغني عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة كما سيأتي بيانه في الكلام في الموضع الثاني ولما اختصر سلمان الفارسي رضي الله عنه تحسر عند موته فقيل له على ما تأسفك يا ابا عبد الله قال ليس تأسفي على الدنيا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الينا وقال ليكن بلغة احدكم كزاد الراكب واخاف ان نكون جاوزنا امره وحولي هذه الاشياء واشار الى ما يليه واذا هو سيف ودست وجفنة وبالجملة كل

ما يراد لضرورة فلا ينبغي ان يجاوز حد الضرورة وان تجاوز فعلى قدر مايحفظ به رتبته في مروءته وعلى حد مالا يستحقر به او ينسب الى الشح والبخل على نفسه بحسب حاله ومرتبته بين الناس وبحسب زمانه ايضاً فان لكل زمان حال وبين الضرورة والزيادة يعبر درجة عنها بالحاجة فالاقتصار على مقدارها لايسمى فضول اذ الوقوف على حد الضرورة غير ممكن وخلاصة الكلام في الاقتصار على مقدار الحاجة من الكلام قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجرير بن عبد الله اذا قلت فاوجز فاذا بلغت حاجتك فلا تتكلف . ومنه قولهم اختصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك والفضول فانه يزل القدم ويورث الندم وحكى انه خرج رجلان من خراسان الى بغداد فمرض احدهما وعزم الآخر على الرجوع فقال لصاحبه ماأقول لمن يسألني عنك قال قل لهم لما دخل بغداد اشتكى رأسه واضراسه ووجد خشونة في صدره وغرراً في طحاله وخفقانا في فؤاده وضوباناً في كبده وورماً في ركبتيه ورعشة في ساقيه وضعفا عن القيام على رجليه فقال بلغني ان الايجاز في كل شيء مما يستحن فانا اكره ان اطول عليهم لكني أقول لهم قدمات . ومثل ذلك في المعنى ماحكي في كتاب رشد اللبيت ان أبا عثمان المازني شهد عند أمير البصرة على رجل لاط غلاماً في خربة فقال له الامير ماتقول يا ابا عثمان فقال رأيت هذا وهذا الرجل فقلت يماشيه فوقف يحادثه فقلت يناجيه ثم دخل به خربة فقلت يواريه ثم وهب له درهما فقلت يواسيه ثم حل سراويله فقلت يفليه ثم بطحه فقلت يحسن ذاء فيه ثم رفع ثوبه فقلت يداويه ثم بصق بين اليته فقلت يرقيه ثم ابرز شيئاً عظيما كالهراوة فاولجه فيه ثم جعل تارة يبديه وتارة

يخفيه فقلت اعوذ بالله العظيم مما هما فيه. فقال له الامير ما أبردك قل هذا
ناك هذا واسترح من القال والقيل والكلام العريض الطويل. هذا وسيأتي
الكلام في الايجاز في الكلام (النوع الثاني) الاقتصار على النافع من الامور
المتكثرة كالعلم وشبهه من التي لا يمكن الاحاطة بها كلها قال رسول الله صلى
الله عليه وآله من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه في غير منزلته التي
وضعه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقال ارسطاطاليس
ليس طلبي للعلم لبلوغ قاصيته ولا استيلاء على غايته ولكن التماسا لما لا يسعني
جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه انتهى. فاذا لم يكن للاحاطة بالعلم سبيل ولا
لغايته وصول فيجب على الطالب ان يختصر منه على الانفع ويستعمل منه
الارفع وقس على العلم سائر المهمات المتفاضلة. ومثل ذلك الاقتصار بالصلة على
المهم النافع من الاخوان وهذا النوع من الاقتصار انما يجب لاحد أمرين
قلة المادة عن الاستيفاء وضيق المدة عن الاستقصاء أما الاول فمنه قول
بعض البلغاء ليكن غرضك في اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير
العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد
خير من ألف تكثر بهم الاعداد. ومنه قولهم من الحزم ان تعلم ان مالك
لا يسع الناس كلهم فتوخ به أهل الحق عليك منهم وان كرامتك لا تسع
المقلين فاخصص بها أهل الفضل والمروة ومن تمسه الحاجة اليك ومنه قول
بعض النبلاء

اذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمي

ومن الثاني وهو ضيق المدة عن الاستقصاء قول رسول الله صلى الله
عليه وآله خذ من الدنيا ما صفا ومن العيش ما كفى ومن الاخوان من وفى

ودع الظلم والجفاء فان العمر قصير والناقد بصير والى الله المصير ومنه قول بعض البلغاء

خذ من خليلك ماصفى ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معاتبة الخليـل على الغـير

ومن هذا المعنى ما يحكى من كلام ابقراط العلم كثير والعمر قصير فخذ من العلم ما يبلغك قليله الى كثيره انتهى فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم ان يأخذ من كل شيء انفعه (النوع الثالث) الاقتصار على الاحسن وعليه قول أمير المؤمنين عليه السلام خذوا من كل احسنه فان النحل تأكل من كل زهر ازينه فيتولد منه جوهران نفيسان احدهما شفاء الناس والآخر يستضاء به وقوله عليه السلام العلم اكثر من ان يحاط به فخذ من كل علم احسنه ونظم هذا المعنى بعضهم فقال

ما حوى العلم جميعاً احـد لا ولو مارسه ألف سـنه
انما العلم بعيـد غوره فخذوا من كل علم أحسنه

« وقريب منه قول الآخر »

واذا طلبت العلم فاعلم انه حمل ثقيل فانتخب ما تحمل
واذا علمت بأنه متفاضل فاشغل فؤادك بالذي هو افضل

وقس على العلم سائر المطالب المتكثرة المتفاوتة بالحسن واقتصر منه على الاحسن ومنها قال بعض الفضلاء لمعلم ولده علمهم من الحديث أشرفه ومن الشعر اعفه . ومن أدب النديم ينبغي ان يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ احسن ما يكتب ويورد احسن ما يحفظ فانه لب اللب « النوع الرابع » الاقتصار على محمود العاقبة من الافعال والاقوال وعليه قول امير المؤمنين عليه السلام واعلم

ان الاعمال جزاء فائق العواقب وقوله عليه السلام تأمل ما تتحدث به فانما تملي على كاتبيك صحيفة يوصلانها الى ربك فانظر على من تملي والى من تكتب وقوله عليه السلام لا تجر لسانك الا بما يكتب لك اجره ويجمل عنك نشره ومن هذا المعنى قول بعض الادباء

وما من كاتب الا سيبلى ويبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة ان تراه

« الاصل الثاني »

وهو الاكتفاء بما ينبغي الاكتفاء به وقبل ذلك لا بد من تقديم مقدمة في ذم عدم الاكتفاء وطلب التناهي لما لا نهاية له قيل من تجاوز الكفاية لم يغنه شيء وذلك لان الحرص اذا كان موجود فان الجزئيات غير متناهية قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا ابن آدم ان كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فأقلها يكفيك وان كنت تريد منها فوق ما يكفيك فكلها لا تكفيك اخذه ابو العتاهية فقال هذا الشعر .

ان كنت لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما في الارض لا يغنيكا

فأقل الدنيا يكفي مع القناعة واكثرها لا يكفي مع الحرص لما عرفت ان الحرص لا ينتهي الى غاية والجزئيات مالها نهاية والانسان اذا انتهى الى امل منها تجددت له امال فيزداد حرصه على الازدياد وقال بعض العارفين من اراد ان يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن وقد تقدم كلام بهذا المعني في اول الكتاب مافيه كفاية لذوي الالباب ومن هذا المعنى قول بعض الاذكياء

هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفناء وداء الغير

ولو نلتها بحذافيرها　　لمت ولم تقض منها الوطر

(وقول الآخر)

فما قضي احد منها لبانته　　ولا انتهى ارب الا الى ارب

فان الدنيا كثيرة الاشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل الا اوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة ابواب. وسبب ذلك هو ان الانسان مضطر الى ثلاث. القوت والمسكن والملبس ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغني عن صنعة الانسان فيه فحدثت الحاجة لذلك الى خمس صناعات هي اصول الصناعات وأوئل الاشغال الدنيوية وهي الفلاحة والرعاية والاقتناص والحياكة والبناء اما البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من امر الغزل والخياطة فللملبس والفلاحة للمطعم والرعاية للمواشي والخيل ايضاً للمطعم والمركب والاقتناص هو تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن اوحشيش او حطب ويدخل صناعة الاقتناص صناعات واشغال عدة ثم ان هذه الصناعات تفتقر الى ادوات وآلات والآلات انما تؤخذ امامن النبات وهو الاخشاب أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما او من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة الى ثلاثة انواع أخر من الصناعات وهي النجارة والحدادة والخرز وهو العمل بجلود الحيوانات هذه اجناس الحرف فاما آحادها فكثيرة ثم هذه الصناعات الثلاثة تحتاج ايضاً الى ادوات وآلات فحدثت الحاجه الى صناعات أخر ثم ان الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر الى الاجتماع مع غيره من جنسه لانه مدنى بالطبع وليس يكفيه الاجتماع مع الاهل والولد في المنزل بل لا يمكنه ان يعيش كذلك ما لم يجتمع مع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة فان الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة

وحده وهو يحتاج الى آلاتها وتحتاج الآلة الى حداد او نجار ويحتاج الطعام الى طحان وخباز وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر الى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة الى الاجتماع . ثم يحدث من الاجتماع التخاصم والتحاسد فيفتقر الى حاكم يفصل الدعاوي والخصومات ثم الانسان معرض للآفات والامراض فحدثت الحاجة الى طبيب وعطار . فهذه هي الحرف والصناعات الا انها لا تتم الا بالاموال والآلات والمال عبارة عن اعيان الارض وما عليها مما ينتفع به واعلاها الاغذية ثم الامكنة التي يأوى الانسان اليها وهي الدور ثم الامكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والاسواق والمزارع ثم الكسوة ثم اثاث البيت وآلاته ثم آلات آلات . فانظر كيف ابتداء الامر من حالة القوت والملبس والمسكن والى ماذا انتهى وهكذا امور الدنيا لا يفتح منها باب الا وينفتح منها بسببه ابواب أخر وكل باب منها يفتح ابواباً ايضاً وهكذا تتناهى الى غير حد محصور وكانها هاوية لانهاية لعمقها من وقع في مهواة منها سقط منها الى اخرى وهكذا على التوالي ثم الجزئيات لانهاية لها وما لانهاية له لامطمع في تحصيله واذا عرفت هذا تبين عندك حسن الاكتفاء بما ينبغي الاكتفاء به ولاجزاء بما يحصل به المقصود وعرفت حكمة هذا البيت

قنع النفس بالكفاف والا　　　طلبت منك فوق ما يكفيها

والاكتفاء بها وذلك لان ماينبغي الاكتفاء عنه اما ان يكون ضاراً حصوله أو تحصيله واما مستغنى عنه بمماثله في كفاية المقصود أما أقل منه فائدة أو أعظم واما أن يكون لاداعي له ولا حاجة اليه ولا يضر عدمه في المقصود فهذه أربعة أنواع يحصل الاكتفاء عنها بامثالها فهي اذا أربعة (النوع الاول)

الاكتفاء بما يحصل به الاكتفاء عن غيره من الجزئيات الزايدة عليه التي لاتحصل الا بمشقة أوتهلكه ومثال ذلك كما حكى عن عمر بن عبد العزيز انه حبس الغذاء عن مسلمة حتى برح به الجوع ثم دعا بسويق فسقاه فلما فرغ منه لم يقدر على الاكل فقال يامسلمة اذا كفاك من الدنيا مارأيت فعلام التهافت في النار . ومثل ذلك ماحكاه صاحب ابتلاء الاخيار عن الاسكندر مع ملكة الصين الاقصى قال ان الاسكندر لما سار في الارض وفتح البلاد سمعت به ملكة الصين فاحضرت من أبصر صورة الاسكندر ممن يعرف التصوير وامرتهم ان يصوروا صورته في جميع الصنايع خوفا منه فصوروه في البسط والاواني والرقوم ثم أمرت بوضع ماصنعوه بين يديها وصارت تنظر لذلك حتى اثبتت معرفته فلما قدم عليها الاسكندر ونازل بلادها قال الاسكندر للخضر يوماً اريد ان ادخل هذه البلدة متنكراً وانظر كيف يعمل بها قال افعل مابدالك فلما دخل نظرت اليه الملكة من حصنها فعرفته بالصور التي عندها فامرت باحضاره فلما مثل بين يديها أمرت به فوضع في مطمورة لايعرف الليل فيها من النهار فبقي فيها ثلاثة أيام لايأكل ولايشرب حتى كادت قوته ان تسقط فلما كان اليوم الرابع مدت ملكة الصين سماطا نحو مائة ذراع ووضعت فيه اواني الذهب والفضة والبلور وملأت اواني الذهب باللؤلؤ والزبرجد واواني الفضة بالدر والياقوت الاحمر والاصفر واوني البلور بالذهب والفضة ومافي ذلك شيء يوكل بل مال لايعلم قدره الاالله تعالى وأمرت فوضع في أسفل السماط صحن فيه رغيف من الخبز البر وشربة من الماء وامرت باخراج الاسكندر واجلسته على رأس السماط فنظر اليه فابهره ذلك واخذت تلك الجواهر بصره ولم ير فيه شيء للاكل ثم نظر فرأى

في أدنى السماط اناء فيه طعام فقام من مكانه ومشى اليه وجلس عنده وسمى وأكل فلما فرغ من اكله شرب من الماء قدر كفايته ثم حمد الله تعالى وقام وجلس مكانه أولا فخرجت عليه الملكة فقالت له ياسلطان بعد ثلاثة ايام ما صد عنك هذا الذهب والفضة والجوهر سلطان الجوع وقد اغناك عن هذا كله ما قيمته درهم واحد فما لك والتعرض الى أموال الناس فعاهدها ان لا يتعرض لها وان بلادها وملكها لها فسرحته الى عسكره واهدت اليه جميع ما كانت قدمته بين يديه فقبل هديتها ورحل عنها وعن مثل هذا يقول الطغرائي

فيما اقتحامك لج البحر تركبه   وانت تكفيك منها مصة الوشل

وعن سليمان عليه السلام انه قال العيش قد جربنا لينه وشديده فوجدناه يكفي منه أدناه . وقيل كان ابراهيم بن ادهم من اهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصر له اذ نظر الى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما اكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجئني به فلما قام جاء به اليه فقال ابراهيم ايها الرجل اكلت الرغيف وانت جائع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيباً قال نعم فقال ابراهيم في نفسه فما اصنع انا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر (النوع الثاني) الاعتياض بأحد الجزئين المتماثلين في كفاية المقصود فقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام انه كان له طحين مختوم عليه في قارورة وكان عليه السلام يستف منه ويقول متمثلا

وما هي الا فاقة قد سددتها   وكل طعام بين جنبي واحد

(وعنه اخذ الشاعر معنى قوله)

اذا ما شئت ان تعلم   يوماً كذب الشهوة

فكل ماشئت يحصنك عن المرة والحلوه
وكم انساك ما تهواه نيل الشيء لم تهوه
وطاما شئت يحصنك عن الحسناء والذره

كانت ملوك الفرس تأمر برفع الحلواء ايام الرطب وبرفع الاشنان ايام البطيخ وبرفع الرياحين ايام الورد . وروى ان المسيح كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انساناً يمشط لحيته بأصابعه فرمى المشط ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وسمع بعض العارفين رجل ينادي آخر يا ابا العمرين فقال لو كان له عقل لكفاه احدهما وقال رجل لابن عباس رضي الله عنه ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء ومثل ذلك الاجتزاء بما يقوم به المقصود وتنهض به الحاجة قيل ليزيد بن المهلب الا يبني الامير داراً فقال منزلي دار الامارة او الجنس وقيل لديجانوس الحكيم هل لك بيت تستريح به فقال انما يحتاج الى البيت ليستراح فيه وحيثما استرحت فهو بيت لي. وفصل الخطاب في هذا الباب قول المسيح على نبينا وآله وعليه السلام خادمي يداي ودابتي رجلاي وفراشي الارض ووسادي الحجر ودفائي في الشتاء مشارق الشمس وسراجي بالليل القمر وادامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وفاكهتي وريحانتي ما انبتت الارض للوحوش والانعام ابيت وليس لي شيء واصبح وليس عندي شيء وليس على وجه الارض احد اغنى مني (النوع الثالث) الاجتزاء بما يكون جامعاً لمنافع متعددة ومآرب متكثرة استغناء به عما لا يكون كذلك فان استعمال الآلة الواحدة في اشياء متعددة من التخفيف ودفع الفضول وذلك كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها كما حكى عن بعض

العارفين انه لاقا رفيقاً له فقال له ما معك من الدنيا قال معي عصاي اتوكأ عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي احمل فيه طعامي ومعي قصعتي اكل واغسل رأسي فيها ومعي مطهرتي احمل فيها شرابي وطهوري للصلاة فما كان بعد هذه من الدنيا فهو تبع لما معي فقال له رفيقه صدقت. وحكى ان الحجاج لقى اعرابياً فقال ما بيدك قال عصاي اركزها لصلاتي واعدها لعداتي واسوق بها دابتي واقوى بها على سفري واعتمد عليها في مشيتي ليتسع بها خطواتي واثب بها النهر وتؤمنني العثر والقى عليها كسائي فتقني الحر وتجبني القر وتدني الي ما بعد عني وهي في محل سفرتي وعلاقة ادواتي اقرع بها الابواب واتقى بها عقور الكلاب وتنوب عن الرمح في الطعان وعن السيف عند منازلة الاقران ورثتها من ابي وسأورثها ولدي بعدي واهش بها على غنمي ولي فيها مآرب اخرى . ومن نوادر العرب قال الاصمعي لقيت شخصاً من الاعراب لايزال يجمع الجلود فقلت له يوماً ما تصنع بهذا فقال الجلود لاتستغنى عنها العرب اصلها سقاء ثم ان حاربوا فوقاء وان جاعوا فشواء وان اختلفوا فحذاء وهذا كله من قبيل التمثيل للاستغناء بالآلة الواحدة الجامعة لمقاصد متعددة عن الآلة التي لاتكون الا لمقصد واحد وفرق بين ان يكون للشيء الواحد آلات وادوات وبين ان يكون آلة وسبب واحد جامع لمنافع ونظير هذا النوع ايجاز القصر على ما ستعرف (النوع الرابع) الاكتفاء بما يتوقف عليه المقصود عما لاداعي له ولا يحتاج اليه . قيل لامير المؤمنين عليه السلام انك مطلوب فلو اتخذت طرفاً سابقا فقال اني لا افر عمن كر ولا اكر على من فر فالبغلة تكفيني . وقد وقع من امثال العرب في هذا المعنى كثير منها قولهم شرعك ما بلغك المحل اي حسبك

من الزاد ما بلغك مقصدك ومنه قول الراجز

من شاء ان يكثر او يقلا يكفيه ما بلغه المحلا

ومنها قولهم دون ذاك ينفق الحمار واصل المثل ان انسانا اراد بيع حمار له فقال للدلال امدح حماري في السوق ولك جعل فلما دخل السوق قال له الدلال هذا حمارك الذي كنت تصيد عليه الوحش واذا ركبته غزوت فظفرت فقال له الرجل دون ذاك وينفق الحمار اي الزم قولا دون الذي تقول فان الحمار ينفق بدون هذا التنفيق ولا يحتاج اليه . وروى المدايني قال قال معاوية يوما لعقيل بن ابي طالب هل من حاجة فاقضيها لك قال نعم جارية عرضت علي وابى اصحابها ان يبيعوها الا باربعين الفا فقال وما تصنع بجارية قيمتها اربعين الفا وانت اعمى تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهما قال ارجو ان اطأها فتلد غلاما اذا اغضبته يضرب عنقك بالسيف فتضاحك معاوية وقال ما زحناك يا ابا يزيد وامر فابتيعت له الجارية

(تتمة)

كل جزء معدوم من شيء مركب لا يتوقف عليه المقصود من ذلك الشيء فلا يضر الاجتزاء بغيره مما يحصل به المقصود منه وذلك . كما حكاه المبرد قال قال زياد لابي الاسود وقد اسن لولا ضعفك لاستعملناك على بعض اعمالنا فقال أللصراع يريدني الامير قال ان للعمل مؤنة ولا اراك ان تضعف عنه . وقال ابن الجوزي في الاذكياء ان المتوكل قال اشتهي ان انادم ابا العيناء لولا انه ضرير فقال ابو العيناء ان اعفاني امير المؤمنين من رؤية الهلال ونقش الخواتم فاني اصلح وقال ايضا لما عرضت الخيزران على المهدي الخليفة العباسي قال لها والله يا جارية انك لعلى غاية المنى ولكن حمشة الساقين فقالت يا امير المؤمنين انك احوج

مايكون اليه الا تراها فقال اشتروها فحظيت عنده فولدها موسى وهارون وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال غير انها عرجاء فقال لمولاها خذ بيدها وارجع فلولا عرج بها الاشتريتها فقالت له الجارية ياامير المؤمنين انه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه فاعجبه جوابها واشتراها ومثل ذلك ما حكى انه قدم رجل عجوزاً دلالة الى القاضي فقال اصلح الله القاضي زوجتني هذه العجوز امرأة فلما دخلت بها وجدتها عرجاء فقالت اعز الله القاضي زوجته امرأة يجامعها ام حمارة يحج عليها ومن هذا المعنى قول ابن سكرة الهاشمي في غلام اعرج

قالوا بليت باعرج فاجبتهم	العيب يحدث في غصون البان
ماذا عليَّ اذا استجدت شمائلا	وروادفاً تغني عن الكثبان
اني احب جلوسه واريده	للنوم لا للجري في الميدان
في كل عضو منه حسن كامل	ماضرني لوزات القدماني

(فصل)

مما ينبغي الحاقة بهذين الاصلين الايجاز بالكلام وعرف بانه آداء المقصود من الكلام باقل من عبارة متعارف الاوساط واف عليه واحترز بواف عن الاخلال وهو ان يكون ناقصاً عن اصل المراد غير واف به كقول بعضهم

والعيش خير في ظلال آل	نوك ممن عاش كدا

فاصل المراد ان العيش الناعم في ظلال النوك وهو الحمق والجهالة خير من العيش الشاق في ظلال العقل . ولفظة غير واف بذلك لان المحذوف وهو ناعم بالشطر الاول والعيش الشاق في ظلال العقل في الشطر

الثاني لايفهم من اللفظ فهو مخل . وظن بعض الطلبة ان الحذف في البيت مع القرينة وهي قوله كذا وفي ظلال النوك فلا يخل بشيء لان شرط القرينة ان ينتقل فيها الذهن الى المطلوب وحينئذ فشرط الايجاز ان لا يكون مخلا بفهم المعنى من اللفظ ولذا وقع بعض الرؤساء الى بعض كتابه انما يحسن الايجاز اذا كان معه البيان . والايجاز قسمان ايجاز قصر وايجاز حذف فالقسم الاول وهو ايجاز القصر تكثير المعنى بتقليل اللفظ وذلك باداء المقصود بالالفاظ الموضوعة للكليات دون الافراد وبالالفاظ الجامعة لفوائد متعددة ولوازم متكثرة فيستغنى بذكرها عن تفصيل فوائدها وذكر لوازمها كالكناية فللقصر حينئذ قسمان أداء المعنى باللفظ الكلي وأداؤه باللفظ الجامع فالاول كقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذا القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر »

فان العدل كلي موضوع لمعان متعددة وهو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الافراط والتفريط المشار به الى جميع الواجبات اعتقاداً وخلقاً وعملا والاحسان أيضاً لفظ عام شامل للنوافل والاخلاص في مواجب العبودية لقوله صلى الله عليه وسلم الاحسان ان تعبد الله كانك تراه وايتاء ذا القربى كلمة شاملة لكل مازاد على الواجب من النوافل والثاني وهو اللفظ الجامع بقوله تعالى ولكم في القصاص حياة فان معناه كثير ولفظه يسير لان معناه ان الانسان اذا علم انه متى قتل قتل كان ذلك مانعاً قوياً له عن الاقدام على القتل فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض فكان ارتفاع القتل حياة لهم وقد فضلت هذه الجملة على اوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى وهو قولهم القتل انفى للقتل بعشرين وجهاً أو اكثر فن الوجوه وهو أحسنها واليقها الاطراد في قوله تعالى « في القصاص حياة » اذ الاقتصاص

مطلقاً سبب للحياة بخلاف قولهم القتل انفى للقتل فانه قد يكون انفى للقتل كالذي على وجه القصاص وقد يكون ادعى له كالقتل ظلماً وهذا القسم من الايجاز نظير النوع الثالث من الاكتفاء فلا تغفل (القسم الثاني) ايجاز الحذف وهو التقليل بحذف مالا يضر حذفه من اجزاء الكلام ولا يخل بفهم المعنى كما عرفت الاشارة اليه والمحذوف اما جزء جملة أو جملة او اكثر من جملة فالاول اما مضاف كقوله تعالى (واسئل القرية أي اهلها) وقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) اي تناولها لان الحكم الشرعي انما يتعلق بالافعال لا بالاجرام وقوله تعالى « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » ومعناه آية مبصرة فظلموا انفسهم بقتلها وقوله تعالى «وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم» اي حب العجل أو صفة نحو قوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) اي كل سفينة صحيحة بدليل ما قبله وهو قوله تعالى « فأردت ان أعيبها » لدلالته على ن الملك كان لا يأخذ المعيبة او جواب شرط مثل قوله تعالى « وما تأتيهم من آية الا كانوا عنها معرضين» او غير ذلك كالمعطوف مع حرف العطف نحو قوله تعالى «لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل »اي ومن انفق من بعده وقاتل بدليل ما بعده وهو قوله تعالى «أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » والثاني وهو الجملة اما مسببه عن سبب مذكور نحو قوله تعالى « ليحق الحق ويبطل الباطل » وهذا سبب مذكور حذف مسببه اي فعل ما فعل ليحق الحق الخ وأما سبب لمذكور مثل قوله تعالى « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت »اي فضربه بها فانفجرت فيكون المقدر وهو فضربه جملة محذوفة هي سبب لقوله تعالى « فانفجرت » والثالث وهو الاكثر من جملة نحو قوله تعالى « وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون

يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات » الآية ثم الحذف لا بد له من دليل يدل على المحذوف او على الحذف وأدلته كثيرة منها العقل كقوله تعالى «واسأل القرية» فان العقل يدل على ان ههنا حذف لأن السؤال لا يعقل أن يتوجه للجمادات ويدل على المحذوف وهو أهل القرية ومثل قوله تعالى « وجاء ربك » فالعقل يدل على امتناع مجيء الرب تقدس وتعالى ويدل على تعيين المراد أيضاً اي وجاء امر ربك او عذابه ومنها ان يدل العقل على الحذف والعادة على تعيين المحذوف نحو قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز « فذلك الذي لمتنني فيه » فان العقل دل على انه فيه حذف اذ لا معنى للوم الانسان على ذات الشخص ودلت على العادة على ان المحذوف مراودته لان الحب المفرط لا يلام عليه صاحبه فى العادة لقهره أياه فلا يجوز ان يقدر في حبه ولا في شأنه ولا في كونه شاملا ومن أدلة تعيين المحذوف الشروع في الفعل مثل قول المؤمن بسم الله الرحمن الرحيم فان الشروع دل على تعيين محذوف وهو الفعل الذي جعلت التسمية مبدءاً له واما الحذف فيدل عليه الجار والمجرور اذ لا بد لهما من متعلق ومنها اقتران الكلام بالفعل كقولهم للمعرس بالوفاء والبنين اي اعرست فان مقارنة هذا الكلام لاعراس المخاطب دل على تعيين المحذوف وهو اعرست او مقارنة المخاطب بالاعراس وتلبسه دل على ذلك ومنها وقوع الكلام جواباً لسؤال نحو قوله تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله» اي خلقهن الله ومنها نقصان الكلام وحاجته الى التمام كما حكى المرزبان ان رجلا كثير المال صحب عبدين في سفر فلما توسطا الطريق هما بقتله فلما صح ذلك عنده قال اقسم عليكما اذا كان لا بد لكما من قتلي ان تمضيا الى داري وتنشدا ابنتي هذا البيت قالا وماهو قال

من مبلغ بنتي ان أباهما   لله دركما ودر أبيكما

فقال احدهما للاخر مانرى به بأس فلما قتلاه جاء الى داره وقالا لابنته الكبرى ان اباك لحقه مايلحق الناس وآلى علينا ان نخبركما بهذا البيت فقالت الكبرى ما ارى فيه شيئاً تخبراني به ولكن اصبرا حتى استدعي اختي الصغرى فاستدعتها فانشدتها البيت فخرجت حاسرة وقالت هذان قتلا ابي يامعشر العرب ماانتم فصحاء قالوا وما الدليل عليه قالت المصراع الثاني يحتاج الى اول والاول يحتاج الى ثان لا يليق احدهما بالاخر قالوا فما ينبغي ان يكون قالت ينبغي ان يكون

من مخبر ابنتي ان اباهما   امسى قتيلا بالفلاة مجندلا

لله دركما ودر أبيكما   لن يبرح العبدان حتى يقتلا

قالوا فاستخبروهما فوجدوا الامر على ماذكرت. ومن هذا ما حكى ان تاجراً كان يسمي شمس الرؤساء وكان اذا مدحه شاعر لا يعطيه شيئاً فاتاه شاعر بصدر بيت وهو «بال حماري وفسا» فاعطاه ماراد فقيل له في ذلك فقال ويلكم لو لم اعطه يشفع صدر البيت بعجز ويقول

بال حماري وفسا   بذقن شمس الرؤسا

ذلك من الادلة الحالية والمقالية واما انواع ايجاز الحذف فكثيرة منها ما يسمونه البديعيون شجاعة الفصاحة وهو عبارة عن حذف شيء من لوازم الكلام ولم ينصب له قرينة لفظية تدل عليه وثوقا بمعرفة السامع به مثاله قوله تعالى حتى توارت بالحجاب اي الشمس ولم يجر لها ذكر ومنه قول حاتم الطائي

لعمرك مايغني الثراء عن الفتى   اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ومثل ذلك في كلامهم كثير ومنها الاكتفاء وهو نوعان نوع بكلمة

فاكثر ونوع ببعض كلمة فهذان نوعان . اما النوع الاول هو ان يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفي باحدهما عن الآخر لنكتة ولا يكون المكتفي عنه الآخر ليدل الاول عليه وذلك الارتباط قد يكون بالعطف وهو الغالب واعظم شواهده قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر اي والبرد وخصص الحر بالذكر لان الخطاب للعرب وبلادهم حارة والوقاية عندهم من الحر اهم لانه اشد عندهم من البرد وقوله تعالى وله ما سكن في الليل والنهار اي وما تحرك بالنهار وخص السكون بالذكر لانه اغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد لان كل متحرك يصير الى السكون

(ومن قول الباخردي)

جعلت لي قلبين في جوفي	بالامل الكاذب والخوف
فهجتي في راحة اوفي	امل قربا واخاف النوى

(وقوله أيضا)

قد صح عندي ان حبك لم يكن	الا كنرجسك الكحيل سقيما
ووجدت عنك ماكرهت وكلما	حاسبت فعلي لم تجد عندي ما

(وقول أيضا)

ياصاحبي سلا فؤادي هل سلا	عمن كلفت بحبه ليجيب لا

(ومنه قول البهاء زهير)

فما كان احسن من مجلسي	وما كان أرفع من همتي
بشمس الضحا وبدر الدجا	على يمنتي وعلى يسرتي
وبت وعن خبري لاتسل	بذاك الذي وبتلك التي

(وقوله أيضا)

يا حسن بعض الناس مهلا صيرت كل الناس قتلا
اسرت جفونك بالهوى من كان يعرفه ومن لا
ياهاجري لا عن قلى هجراً ابنت الطفل كهلا
لم تلق غير حشاشة من مهجتي واخاف ان لا
ورسوم جسم لم يدع منه الهوى الا الاقلا
وبمهجتي من لا اسميه واكتمه لئلا
عانقت منه الغصن في حركاته قداً وشكلا
وكشفت فضل قناعه بيدي عن قمر تجلا
* فلمثته في خده تسعين او تسعين الا

(وقول الآخر وقد جمع فيه بين اكتفائين واقتباس)

بمكارم الاخلاق كن متخلقا ليفوح عطر ثناؤك العطر الشذي
وانفع صديقك ان صدقت وداده وادفع عدوك بالتي فاذا الذي

(ومنه قول القيراطي مع اقتباس)

بابي شامات حسن قد اطالت حسرات
كلما ساء فعالا قلت ان الحسنات

(وقول ابن ابي حجله مع تضمين)

شمس الضحى بعد العشا زرات فزال تلهفي
واستقبلت قمر السماء فارتني القمرين في

(واما النوع الثاني) من الاكتفاء وهو الذي يكون ببعض كلمة فهو حذف بعض حروف القافية من آخرها الدلالة الباقي عليه وهو وارد في القرآن والحديث وكلام العرب . واما وروده في القرآن فادعى بعضهم ان الباء في قوله تعالى

وامسحوا برؤوسكم وارجلكم اول كلمة بعض اي ببعض رؤسكم ثم حذف الباقي فتأمل. ومنه قراءة بعضهم ونادوا يامال بالترخيم ولما سمعها بعض الظرفاء قال ما اغنى اهل النار عن الترخيم واجاب بعضهم بانهم لشدة ماهم فيه عجزوا عن اتمام الكلمة ومنه قول قطب الدين الحنفي

رعى الله ليلة زار الحبيب وغاب الرقيب الى حيث ال

يشير الى قول الشاعر الى حيث القت رحلها أم قشعم وأم قشعم المنية ومنه قول بدر الدين الدماميني

ورب نهار فيه نادمت اغيدا فما كان أحلاه حديثا واحسنا
منادمتي فيه منايے وحبذا حديثا تقضى بالحديث وبالمنا

وأما فوائد الحذف فكثيرة هي الدواعي للحذف منها الاحتراز عن العبث لظهور المحذوف بدلالة القرينة عليه كقول الشاعر قال لي «كيف انت قلت عليل» لم يقل انا عليل احترازاً عن العبث ومنها ضيق المقام عن اطالة الكلام وان الاتيان بالمحذوف يفضي الى تفويت مهم كقول الصياد غزال اي هذا غزال فان المقام لايسع ان يقال هذا غزال فاصطادوه ومثل قول صاحب البيت اذا رأى لصاً لص أي هذا لص واشباه ذلك ومنها خوف الضجر والسآمه بالاطالة ومنها التخفيف لكثرة دورانه في الكلام كما في حذف حرف النداء نحو يوسف أعرض عن هذا ومنها التخفيف لكثرة دورانه ومنها المحافظة على وزن أو سجع كما مر من أمثلة في النظم ومنها اختيار تنبه السامع عند القرينة هل يتنبه أولا او اختبار مقدار تنبهه هل يتنبه بالقرينة الخفية أم لا الى غير ذلك من الفوائد وهذا النوع نظير النوع الثالث من الاكتفاء وهو الاعتياض باحد المتماثلين

فصل

وقد تدعو الحاجة الى الاطناب كما تدعوا الى الايجاز قال الزمخشري كما انه يجب على البليغ في مظان الاجمال ان يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل ان يفصل ويتبع

وانشد الجاحظ في مثل ذلك

يرومون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وكما ان للايجاز فوايد تدعو اليه فللاطناب أيضا ثمرات تبعث عليه منها الاحتياط لضعف الاعتماد على القرينة نحو قوله تعالى ولئن سالتهم من خلق «السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم» ففي مقام الاعتماد على القرينة ليقولن الله وفي مقام عدم الاعتماد عليها ليقولن خلقهن العزيز العليم ومنها زيادة الايضاح والتقرير لقوله تعالى «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» بتكرير أولئك زيادة للايضاح ومنها التبرك بالذكر كقولك النبي صلى الله عليه وآله قائل هذا القول أو افتخار والابتهاج باطالة الكلام كما يقال لك من نبيك فتقول نبينا حبيب الله سيدنا محمد بن عبد الله اكلم واشباه ذلك ومنها طلب الاصغاء من المسامع لعظمته وشرفه أو لحبه فيبسط الكلام حيث يكون الاصغاء مطلوباً للمتكلم ولهذا يطال الكلام مع الاحباء وعليه قوله تعالى حكاية عن موسى قال هي عصاي ولهذا زاد على الجواب فقال أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ثم الاطناب أنواع وضروب منها وهو أجلها الايضاح بعد الابهام بان يذكر الشيء مبهما ثم يبين وفيه أيضا فوايد منها رؤية المعنى في صورتين مختلفتين احداهما مبهمة والأخرى موضحة وعلمان خير من علم واحد ومنها تمكن المعنى في النفس تمكناً زايداً وذلك لما طبع الله

تعالى النفوس عليه من ان الشيء اذا ذكر مبهماً ثم بين كان اوقع فيها من ان يبين اولا . ومنها كمال لذة العلم فان الشيء اذا علم من وجه دون وجه تشوقت النفس الى العلم بالمجهول فيحصل بسبب العلم لذة وبسبب حرمانها من الباقي ألم فاذا حصل العلم من بقية الوجوه حصلت لها لذة واللذة عقيب الالم اقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم وذلك كقوله تعالى « رب اشرح لي » يفيد طلب شرح شيء لشيء ما وقوله « صدري » يفيد ايضاحه ومنه قول بعضهم

يذ كرنيك الخير والشر كله وقيل الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مكروهها متنزهاً وألقاك من محبوبها ولك الفضل

فان البيت الاول معناه ملتبس لكونه يقتضي المدح والذم فاوضحه في البيت الثاني ومن ضروب الاطناب التفسير وهو عبارة عن ان يأتي المتكلم في أول الكلام بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون ان يفسر الا ترى الى قوله تعالى « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين ابيضت وجوهم » ومنه قول بعضهم

اشكو الى الله من نارين واحدة في وجنيته واخرى منه في كبدي

وتأثير التفسير في تكميل لذة العلم كتأثير الايضاح بعد الابهام فان الاجمال أولا موجباً للالم والاشارة بعده بالتفسير موجبة للذة واللذة عقب الالم اوقع منها ابتداء والفرق بين التفسير والايضاح ان التفسير تفصيل الاجمال والايضاح رفع الاشكال لان المفسر من الكلام لا يكون فيه اشكال ومن انواع الاطناب التكرير ولا يكون اطناباً الا لنكتة والا كان تطويلا وللتكرير نكت منها تأكيد الانذار في قوله تعالى « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » فقوله تعالى كلا ردع عن الانهماك في الدنيا وسوف تعلمون

انذار وتخويف اي سوف تعلمون الخطاء فيما أنتم عليه اذ عاينتم ماقدامكم من هول المحشر وفي تكريره تأكيد للردع والانذار وفي ثم دلالة على ان الانذار الثاني ابلغ من الاول لان لفظ ثم لتراخي الزمان ويستعار لتفاوت النزلة وذلك كما في قولهم والله ثم والله يفيد ما نحن فيه ان الانذار الثاني اشد كما تقول للمنصوح اقول لك ثم أقول لك لا تفعل وكقوله تعالى «وما ادراك مايوم الدين ثم ماأدراك مايوم الدين» ومن نكت التكرير زيادة التنبيه على ماينفي التهمة والايقاظ من سنة الغفلة لتكميل تلقى الكلام بالقبول كما في قوله تعالى «وقال الذي آمن ياقومي اتبعوني اهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع» ومنها زيادة التوجع والتحسر كما في قول بعضهم

فياقبر معن انت أول حفرة ... من الارض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده ... وقد كان منه البر والبحر مترعا

ومن ضروب الاطناب التذييل وهو تعقيب الجملة التامة بجملة تشتمل على معناها لتوكيد منطوقها او مفهومها ليظهر المعنى لمن لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه وهو ضروب احسنها ما اخرج مخرج المثل الساير بان يكون مستقلا بافادة المراد فيكون جائز الاستعمال على الانفراد ومثاله قوله تعالى وقل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً فالجملة الاولى دلت بمنطوقها على زهوق الباطل والجملة الاخيرة تأكيد وتقرير لذلك وهو التذييل الذي اخرج فخرج المثل الساير ومنه قول النابغة الذبياني

ولست بمستبق اخا لا تلمه ... على شعث اي الرجال المهذب

فصدر البيت دل بمفهومه على نفى الكامل من الرجال وقوله الى الرجال

المهذب جملة مشتملة على هذا المعنى مؤكدة له خارجة مخرج المثل وهو التذييل ومثل ذلك للكافي

فمر تعاقبهم بعفوك عنهم   كم بالغ بالعفو فعل معاقب

والفرق بين التذييل والتكرير ان التكرير يكون بلفظ الجملة المتقدمة ولا تغاير فيه بين الجملتين بحسب الذات بخلاف التذييل فان التغاير فيه بين الجملتين بحسب الذات وللاطناب ضروب اخر اضربنا عن ذكرها خشية من التطويل فلنعود الى ما كنا فيه من تتمة الكلام في الاصول الثلاثة

(الاصل الثالث)

الاعتدال بالسلوك بين طرفي الافراط والتفريط والوقوف على الحد الوسط ولا بد من تقديم مقدمة في ذم الافراط والتفريط والوقوف زيادة على ما مر من بيان الزيادات المذمومة وافاتها . اعلم ان لكل شيء طرفان طرف زيادة وطرف نقصان وكلا الطرفين مذمومان وجميع خلال الخير لها مقادير فاذا خرجت عنها الى طرف الزيادة اذ الي طرف النقصان استحالت فالحياء مثلا حسن مثلا حسن فاذا جاوز مقداره الى طرف الزيادة صار عجزاً او الى جانب النقصان صار قحة وللشجاعة مقدار فاذا جاوزت المقدار الى الزيادة صارت تهوراً او الي جانب النقصان استحالت جبناً وكلاهما افتان وكما ان الافراط في الشجاعه تورط في الهلكات فزيادة الحزم مجلبة للمخوفات ولذا قيل

وغاية المفرط في سلمه   كغاية المفرط في حربه

ومن كلام العسكري ان للسخاء مقدار فان زاد عليه كان سرفا وللاقتصاد مقدار فان زاد عليه فهو بخل . الحديث وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى

عنقك ولا تبسطها كل البسط وقال سبحانه ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً نهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل عن استواء الامرين ذما وعلى انفاقهما لؤما والافراط في كل شيء مذموم فمن افرط في المدح نسب الى التملق ولذا قيل اسوء القول الافراط ومن زاد في النصيحة نسب الى التهمة ولذا قيل كثير النصح يهجم بك على كثير الظنه . واذا أفرط في سرعة السير انقطع وكذلك اذا فرط بالتأني واذا افرط في الاكل والشرب سقم ومثله اذا افرط في النقصان منهما واذا افرط في حب الدنيا والميل اليها افسداخرته واذا أفرط في الزهد فيها منع نفسه ماأحل له فعذبها من حيث لو نعمها لم يضره وربما أفسد أيضا عقباه بتركه لدنياه اذلا تنال الآخرة الا بالدنيا فلا يدخل الافراط في شيء الأأفسده واذا عرفت هذافاعلم ان المطلوب الاقصى في جميع الامور والاخلاق هو الوسط اذ خير الامور اوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ومثال طلب الادمي البعد عن هذه الاطراف المتقابلة بالرجوع الى الوسط مثال نملة القيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الارض فان النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لاتقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لان الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فصار الوسط مطلوبا في جميع هذه الاحوال المتقابلة واليه الاشارة بقوله تعالى «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» وقوله تعالى اسمه «والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً» وقوله تقدس وتعالى «واتخذ بين ذلك سبيلا» أي بين البسط المفرط والقبض المفرط بدليل ماتقدم من قوله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها

كل البسط ، وفي رواية عبد الله ابن سنان قال سألت ابا الحسن الاول عن النفقة على العيال فقال مابين المكروهين الاسراف والتقتير واليه الاشارة أيضا بقوله تعالى « واذا قلتم فاعدلوا » وقوله عز وجل « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا » واليه الاشارة أيضا بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير الامور أوسطها وقول أمير المؤمنين عليه السلام عليكم بالنمرقة الوسطى فاليها يرجع الغالي وبها يلحق التالي وهذا أحسن ماروى في التوسط وقد قالت الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز وللشعراء في حسن التوسط والاعتدال محاسن أقوال منها لاحمد ابن أبي طاهر

ودين الفتى بين التماسك والنهى ... ودنيا الفتى بين الهوى والتغزل

وقال الاعشى متغزلا

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا ريث ولا عجل

« وقال بعضهم »

عليك بأوساط الامور فانها ... نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

« وقال آخر »

ان بين التقريب والافراط ... مسلكا منجيا من الافراط

« وقال حكيم الشعراء المتنبي »

عليك بالقصد فيما أنت فاعله ... ان التخلق يأتي دونه الخلق

« وقال آخر »

لاتذهبن في الامور فرطاً　　لاتسألن ان سألت شططا

كن من الناس جميعاً وسطا

وقد فرغنا من تسويده ليلة الاحد تسعة عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٣١٩

التاسعة عشر بعد الالف وثلثمائة من الهجرة النبوية صلى الله عليه وسلم



(فهرست المجلد الثاني من الرياض الخزعلية)

المقام الثاني في الحزم والاحتياط وفيه روضان الاول في الحزم والثاني في الاحتياط

صفحة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تمت الفهرست



